كتاب الشهر

سرّ مصرع لنكولن

ملخص عن كتاب

The Abraham Lincoln
Murder Case

بقلم : تيودور روسكو



ان المؤامرة التى انتهت بموت أبراهام لنكولن خلقت وراءها عددا من الاسئلة الحائرة التى لم تجد الجواب عليها حتى اليوم ... هذه الجريمة التى تعد أسود الجرائم فى تاريخ أمريكا ، مازالت لغزا غامضا يحير الكثيرين ، على الرغم من النهاية التى لقيها قاتل لنكولن ومن اشترك معه فى المؤامرة ...

ولكن هذا الكتاب يتغلغل فى أعماق كل الظروف التى أحاطت بهذه الجريمة الغامضة ، ويكشف الستار عن بعض الاسئلة القديمة ، ويثير فى نفس الوقت عددا من الاسئلة الجديدة .

لقد جمع تيودور روسكو المؤرخ ومؤلف قصص الجريمة موهبتيه معا ليعيد بناء الاحداث التى صاحبت هذه الايام الدموية ...

سر مصرع لنكولن

كان يوم ١٤ ابريل ١٨٦٥ هو يوم الجمعة الحزينة ، وقبل الظهر بقليل ، قصد جون ويلكز بوث الى مسرح فورد بالعاصمة الامريكية ليتسلم بريده الخاص ، وماكاد هارى فورد مدير المسرح يراه يقترب ، حتى قال لمن حوله : هذا هو أكثر الرجال وسامة فى واشنطون .

وفى مكتب المدير ، قدم فورد الى نجمه الانيق الذى يبلغ السادسة والعشرين من عمره بعض الرسائل التى وصلت باسمه ، وما كاد بوث يدير ظهره لينصرف ، حتى سمع أحد النجارين يسأل فورد قائلا :

ـ ماذا نفعل الليلة ؟ هل نعد المقصورة الرسمية ؟

فحنى هارى فورد رأسه ، وقال انه تلقى نبأ بأن الرئيس وقرينته

سيحضران الليلة ، وعندئذ رفع بوث النظارة وقال :

ـ هل يأتي لنكولن هــذه الليلة ليشهد مسرحية «ابن عمي الامريكي» ؟

فقال فورد في بهجة : أجل ..

وكان صـاحب المسرح يأمل ان يؤدي ذلك الى زيادة الاقبال على مسرحه العتيق ..

وانصرف بوث ليقرأ بريده على درجات مدخل المسرح ، دون ان يبدو على سلوكه أي تغير ملحوظ ... لقد كان ممثلا رائعـا حقـا . ففي تلك اللحظة ، كانت خطة بوث لقتــل رئيس الجمهــورية قد تبلورت ، وسيقوم بتنفيـذها في خلال عشر ساعات !

وانتهى بوث من تلاوة رسائله ، فعاد الى المسرح ، ودخل غرفة صغيرة تقع بين الطابقين الثاني والثالث ، وتسلل منها الى ممر جانبي يؤدي الى مقصورة الرئيس لنكولن الخالية ، وهناك جلس يرقب «بروفة» الرواية التي كانت ستمثل في المساء ... واسترعى انتباهه في الحوار الدائر بين الممثلين في الفصــل الثالث ، جملة يقولها أحد الممثلين لزميلته ، وهي :

« انني أعرف ما يكفي لاخضاعك أيتها المنافقة العجوز صائدة الرجال »

... وكان هذا الحوار مع ما يصحبه من اشارات وحركات كفيـلا باغراق الجمهور في الضحك ..

ورأى بوث في تلك المناسـبة الفرصة الملائمة لتنفيذ خطته ..

وغادر جون ويلـكز بوث المسرح مسرعا في سيره ، ومنذ تلك اللحظة قام بنشاط كبير في انحاء المدينة ، واستأجر فرسا قويا ، ذهب به الى منزل يؤجر غرفا مؤثثة على مقربة من مسرح فـورد ، حيث كـان يجتمع بمجموعة غريبة من الرجال منــذ بضعة شهور ... وانطلق بعد ذلك الى احدى الحانات ، واحتسى زجاجة كاملة من الخمر ، ثم اختفى حوالى الساعة السادسة مساء .

والواقع ان بوث عاد الى المسرح الذي خلا من ممثليه وعماله ، وتوجه الى مقصــورة لنكولن وهنـاك أخرج سكينا أحدث بها ثغرة صـغيرة في الحائط تحت مستوى العين بقليل ، ثم أخفى الثغرة ببعض نشــارة الخشب ، وانصرف بعد ذلك ، عائدا الى الفندق الذي كان يقطن احــدى غرفه ، وتناول العشاء ، وبعــد ان انتهى منه ، أخذ بعض الشــعر المستعار ، ولحية مستعارة ، ووضـع

في جيوبه خنجرا ومسدسين ، ثم غادر الفندق حوالى الساعة الثامنة مساء •

ومرة أخرى اختفى بوث ساعة أو نحو ذلك ، وتشير الدلائل الى أنه اجتمع ببعض اتباعه ممن اشتركوا معه في المؤامرة التى نفذت تلك الليلة

الخطف أم القتل ؟

ليس هنـاك من يعرف على وجه التحديد متى قرر بوث اغتيال لنكولن •• ولكن لا شك أن الجريمة لم تكن كما زعموا عملا ارتجاليا قام به مخبول أصابته لوثة مفاجئة ، فان تاريخ جون بوث خلال السنوات السابقة يناقض تماما كل افتراض كهذا •

كان جون ويلكز بوث هو الابن التاسع من عشرة أبناء أنجبهم جونيوس بروتس بوث ، الذى كان يعد أعظم ممثل أمريكى فى عصره ، على الرغم من انه كان نصف مخبول ومخمور دائما •• والتحق جون بالعمل فى المسرح وهو فى السـابعة عشرة من عمره ، وبعد عامين فقط ـ أى فى سنة ١٨٥٨ ـ قام بدور « هملت » فى ريتشموند ، فاشتهر فجأة وذاع صيته ، وأصبحت النساء يتجمعن خلفه فى الطريق ، ويحاصرنه فى كل مكان للحصول على توقيعه ، ويطلقن التنهدات كلما ظهر على المسرح ••

وظل بوث يمارس عمله فى الجنوب حتى فبراير ١٨٦١ عندما تعاقد للعمل فى الشمال ، بعد أن بدت نذر الحرب الاهلية فى الجو ، ومع أن بوث لم يكن من أبناء أقصى الجنوب اذ أنه ولد فى ماريلاند ، فانه كان متحمسا لقضية الجنوب ، ولكنه لم يسارع للانضمام الى جيش الثوار بعد أن نشبت الحرب وبينما كان الالوف من جنود الجنوب يموتون من أجل قضيتهم ، ظل بوث يعمل على المسرح ليموت فى دور هملت وماكبث وعطيل ، مقابل ٥٠٠ دولار فى الاسبوع • ولكنه مالبث أن اندمج فى دور أكثر خطورة بعيدا عن المسرح فقد التحق بحركة المقـاومة السرية للثوار فى عام ١٨٦٣ •

كانت المنظمة السرية التى التحق بها منظمـة أحسن تنظيم ، نشرت شباكا من الجاسوسية فى كل مدينة كبرى فى الجنوب ، وكان عمل بوث كممثل هو أصلح ستار يستطيع أن يختفى وراءه ، فقد كان يتنقل فى كل مكان ، وكان يقابل الرسل والعملاء السريين خلف المسرح •

وفى ديسمبر ١٨٦٤ زار بوث منزلا فى شارع هـ بواشنطن تملكه سيدة تدعى مسز مارى سورات وتؤجر غرفه

المؤثثة ، يقع على بعد حوالى ٣٠٠ متر من مسرح فورد ، وهو نفس المنزل الذى زاره بعد ظهر اليوم الذى ارتكب فيه جريمته • وفى هذا المنزل كان يجتمع ببعض الشخصيات التى تحوطها الشكوك ، وفى مقدمتهم لويس بين الضخم الجثة ، وجورج اتزردوت ، وديفيد هيرولد الذى كان يعمل من قبل كاتبا فى مخزن للادوية •• وهؤلاء هم رؤوس المؤامرة الكبرى •

ولم يكن اغتيال الرئيس هو هدف المتآمرين الاساسى فى المراحل الاولى من المؤامرة ، بل كان هدفهم الحقيقى هو اختطاف لنكولن وحمله الى الجنوب ، ولا شك أن وقوع الرئيس لنكولن فى أسرهم سيكون ضربة عنيفة تصيب الشمال ، وتبث شجاعة فى الجنوب اليائس ، كما كان من المحتمل استخدام لنكولن كرهينة لتبادل عدد ضخم من أسرى الجنوب • ولكن خطط الثوار لخطف لنكولن فشلت لسوء الحظ ، وكان المقترح أولا أن يتم اختطافه من مقصورته بمسرح فورد بعد اطفاء الانوار كلها ، ثم وضعت خطة أخرى تقضى بنصب كمين للرئيس فى الطريق الملتوى الذى تغطيه الاشجار الكثيفة وهو يؤدى الى المستشفى العسكرى الذى يزوره لنكولن كثيرا ، وكانت الصحف تعلن عادة عن موعد هذه الزيارات مقدما •

وأحس زعيم عصابة الاختطاف بالمرارة وخيبة الامل بعد أن انهارت كل الخطط التى أعدها لاسر ابراهام لنكولن ، وتخيل أن بقية زملائه يسخرون من الفشل الذى أصاب مشروعاته التى كان يأمل أن تجعل اسمه يدوى كالطبل فى كل مكان •

وأدى هذا الفشل المتكرر الى أن يقرر جون ويلكز بوث التخلى عن مشروع الاختطاف والاتجاه الى عمل أكثر عنفا ••

وفى يوم الجمعة الحزينة كانت عزيمة بوث قد استقرت على ماينوى عمله ، وعندما سمع نبأ قدوم الرئيس الى مقصورته بمسرح فورد فى تلك الليلة عرف أن الوقت والمكان المقررين لتوجيه ضربته قد تحددا •

وفى تلك الليلة عهد جون الى جورج اتزردوت بمهمة اغتيال آندروجونسون نائب الرئيس الامريكى ، بينما قرر أن يقوم لويس بين وديفيد هيرولد بقتل وليام سيوارد وزير الخارجية ، وبهذا يقضى بضربة واحدة ساحقة على أبرز زعماء الاتحاد !!

جريمة فى المسرح

لم يحاول بوث اخفاء نفسه وهو

يقصـــد الى الممر المؤدى الى مقصورة الرئيس ، ولم يكن مدخل المقصـورة محروسا .. والعجيب أنه على الرغم من محـاولات الاختطاف ، وامتـلاء العاصمة بعمـلاء الثوار والمتعصبين ، فان مقعد الحارس الموجود بخارج باب مقصورة الرئيس كان خاليا في تلك الليلة !

لقد كان على مكتب لنكولن فى البيت الابيض مظروف يحـوى ٨٠ خطاب تهديد بالقتل ، وقد أطلق أحد القناصة رصاصة نفذت من قبعة الرئيس وفر دون أن يعتقل ، وعرض جماعة من زعماء فرجينيـا مبلغا ضخما مقـابل اغتياله .. ومع كل ذلك ، فلم يكن هنـاك أى رجل من رجال البوليس السرى أو البوليس العادى أو الحربى خارج باب المقصورة !

ويقول أحد حرس البيت الابيض أن لنكولن نفســه طلب الى ادوين ستانتون وزير الحربية وضع حراسة عليه فى تلك الليلة بعد أن هدده بعض الغوغاء فى الشارع ، وطلب لنكولن أن يقوم بهذه المهمة أحد ياوران ستانتون وهو ضابط قوى يدعى اكرت ، ولكن ستانتون قال انه عهد الى اكرت بعمل هام فى تلك الليلة ولا يســتطيع الاستغناء عنه .

ومع ذلك فان الميجور اكرت كان فى الساعة العاشرة مساء موجودا ببيته يحلق ذقنه !

ومر بوث بالمقعد الخالى ، ثم اختلس النظرات من خلال الثغرة التى أحدثها فى جدار المقصـورة ، فرأى الرئيس لنكولن يجلس فى مقعد كبير وقد وضع معطفه على كتفيــه ، والى جواره مسز لنكولن ، بينما جلست سـيدة شابة تدعى كلارا هاريس فى مقعـــد ذى ذراعين ، وكانت ضيقة على أسرة الرئيس وعلى أريكة تحت الجدار الداخلى ، جلس ضـابط يدعى الميجور راثبون وكان يصحب السيدة كلارا .

ووقف بوث خارج المقصورة ينصت الى الحوار الدائر على خشــبة المسرح منتظرا سماع الجملة التى حدد موعد الجريمـــة عند النطق بهـا .. وكان يمسك مسدســــه الضخم فى يده ، وما كاد يسمع الممثل يقول : أيتهـا المنـافقة العجوزة صائدة الرجال .. وتتردد الضحكات العاليـة فى أرجاء المسرح ، حتى أدار يد البـاب بسرعة وهدوء ، وتقدم للامام ، وفجأة ومض بريق فى الظلام ودوى صوت انفجار مكتوم .. وعندئذ سقط رأس لنكولن على صدره وظل ساكنا وكأنه استغرق فى النوم :

وتطلع الميجور راثبون فى ذهول . فرأى شبحا وراء مقعد الرئيس ، وسحابة من الدخان تعلو رأس لنكولن وعندئذ قفز من مقعده ، ولكن بوث كان قد أمسك خنجره وطعن راثبون فى ذراعه بوحشية ، فتراجع الضابط للوراء ، ثم اندفع مرة أخرى للامام وتعلق ببوث ، فأخذ القاتل فى مصارعته حتى دفعه نحو حافة المقصورة ، ثم وضع ساقه على افريزها ، وألقى بنفسه فوق خشبة المسرح المجاور للمقصورة وفى خلال سقوطه ، اشتبك أحد مهمازيه الحديدين فى العلم الذى يغطى المقصورة ، فسقط فوق المسرح ملفوفا فى العلم المثلث الالوان ، وأحس بألم شديد فى كاحله الايسر . ولكنه نهض ممسكا بخنجره ، وراح يلوح به وهو يندفع بين الكواليس ، وأخذ يزيح بيديه كل من يجده فى طريقه ، وانطلق كالشبح فى الممر المظلم المؤدى الى باب المسرح ، والتقى فى طريقه بقائد الاوركسترا فطعنه طعنتين فى صدره وعنقه .

ثم قفز على ظهر جواده الذى كان ينتظره فى الخارج ، وما لبث أن ابتلعه الظلام .

محاولة اغتيال وزير الخارجية

ظل ديفيد هيرولد ـ أذكى أعوان بوث ـ يطوف بأنحاء المدينة طوال اليوم ، فذهب الى مسكن اتزردوت لاخفاء بعض الاسلحة والعتاد اللازم للمؤامرة ، ثم توجه الى الفندق الذى يقيم فيه بوث ، وذهب بعد ذلك الى حظيرة لتأجير الخيول حيث استأجر فرسا قويا .. وذكره العامل بأن الجواد يجب أن يعود فى التاسعة مساء .

ولكن هيرولد لم يعد فى التاسعة . وفى العاشرة وعشر دقائق كان يعبر ميدان لافاييت الخالى من الناس ، فى مواجهة مسكن سيوارد وزير الخارجية وهو يتقدم (لويس بين) الذى كان أغبى من أن يتذكر أبسط التعليمات .. وراقب هيرولد زميله وهو يدخل منزل سيوارد ، فترجل عن جواده بسرعة وربط جواد بين فى شجرة قريبة ، ثم قفز مرة أخرى على جواده وانطلق بعيدا !

وفى نفس الوقت تقريبا ، كان جورج اتزردوت الجبان قد استولى عليه الرعب من المهمة التى كلف بها ، وهى قتل نائب الرئيس اندرو جونسون ، فأخذ يتنقل من حانة الى أخرى آملا أن يتغلب على مخاوفه .

كان سيوارد وزير الخارجية يقيم فى بيت كبير مع زوجته وولديه فردريك وأوجست ، وابنته فانى ،

وكان قد أصيب أخيرا فى حادث عربة فكسر فكه وذراعه الايمن ، وقدمه .

وفى ليلة ١٤ ابريل كان سيوارد يجلس فى فراشه بالطابق الثالث ، وقد أحيطت ذراعه بالضمادات وثبت ذقنه بقطعة من الجلد وطوق من الصلب بينما يقوم جاويش زنجى سابق يدعى جورج روبنسون بمهمة تمريضه ، وجلست ابنته الى جوار الفراش فى انتظار نوم أبيها .

وما كاد الوزير يستغرق فى النوم حتى دوى صوت مفاجىء بدد سكون المنزل الهادىء . وهرع فردريك سيوارد فى ثياب نومه ليرى ماحدث ، وعندئذ شاهد رجلا ضخم الجثة أنيق الملبس قال للخادم أنه يحمل رسالة من الطبيب فسمح له بالدخول حتى وصل الى باب غرفة سيوارد ، ولكن فردريك رفض السماح له بالدخول ، وعندئذ أسرع باخراج مسدسه ، والضغط على زناده ، ولكن الرصاصات لم تنطلق !

كان الزائر هو لويس بين .. الذى أحنقه فشل مسدسه ، فراح ينهال بقبضته ضربا على رأس فردريك حتى تحطمت قبضة المسدس وسقط فردريك على الارض فاقد الوعى وقد تدفق الدم من راسه ووجهه ! واندفع بين بعد ذلك نحو باب مخدع سيوارد ففتحه بقوة جسمه ، وألقى بنفسه على الشبح النائم فى الفراش وهو يمسك سكينه الحاد فى يده وطعنه به فى وجهه .. واستيقظ سيوارد فزعا وأطلق صيحة مختنقة ، وحاول الفرار من الفراش ، ولكن بين قفز فوقه وأمسك به من شعره محاولا دفع رأسه الى الوراء ليكشف رقبته ، ووجه القاتل طعنتين بسكينه ، وضرب سيوارد على فكه المحطم . ورأى (بين) فى خلال ثورته الجنونية أن ضحيته يضع طوقا حول عنقه المصاب ، فراح يوجه طعناته نحو الطوق فى جنون حتى غمر الدم كتفى سيوارد .. واستطاع الوزير أن ينزلق من فراشه الى الارض وأمسك ذراعى بين بيديه وهو يدفعه الى الوراء ... وكانت خلفه ابنته وهى تصرخ ، ثم جاء الممرض الزنجى فاشترك فى المعركة ، ووجد (بين) نفسه يصارع رجلين ، فدفع الوزير وراء مائدة ، ثم طعنه بالسكين واستدار خلفه وطعن الزنجى أيضا ، ثم أسرع هاربا من الغرفة ...

وماكاد (بين) يصل الى الطريق ، حتى أدرك أن زميله هيرولد قد تخلى عنه ، فقفز فوق جواده وسار به بهدوء ،

كان لنكولن قد أصيب اصابة قاتلة

ونقل الى منزل يقع عبر الشارع الذى يوجد فيه مسرح فورد •• وفى الردهة الخلفية للمنزل ، جلس ستانتون وزير الحربية فى غرفة الى جوار الغرفة التى يرقد فيها الرئيس ، وهناك تولى أعمال القائد الاعلى للدولة وراح يصدر سيلا لا ينقطع من الاوامر والتوجيهات للجيش والبحرية ووزارة الخارجية ، وكان يتصرف بعصبية بالغة وهو يصرخ ويلعن ، واستدعى كل رجال البوليس الحربى والسرى ورجال المخابرات وكل من استطاع تعبئتهم لحماية المبانى العامة والقيام بدوريات فى الشوارع وأمر باحتلال المسرح واعتقال كل الممثلين •

ولكى يقطع الطريق على القتلة الهاربين ، أوفد جماعات من البوليس الى محطات السكة الحديد ، وأمر القوات البحرية أن تحاصر نهر بوتوماك وبعث قوات من الجيش لفرض حصار على ست طرق تؤدى الى واشنطون ، وبهذا ترك طريقين يمكن الفرار عن طريقهما بعبور نهر اناكوستيا عن طريق جسر خشبى طويل يسمى جسر « نيفى يارد » وكلا الطريقين يؤديان الى ماريلاند ، وهى منطقة موالية للثوار ، يمكن الوصول منها الى ريتشموند •

كان المفروض أن تكون بوابة الجسر مغلقة فى الساعة التاسعة مساء نظرا لوجود حالة الحرب •• وحوالى الساعة العاشرة والدقيقة ٤٥ ، سمع الجاويش سيلاس كوب المكلف بحراسة الجسر مع زملائه ، أصوات أقدام جواد قادم بسرعة وسط الظلام ، وما لبث أن شاهد فارسا يقترب منه فأوقفه وسأله :

ـ من أنت ؟

ـ اننى أدعى بوث

ـ والى أين أنت ذاهب ؟

ـ اننى عائد الى منزلى

واعتقد كوب أن راكب الجواد هو ابن أحد الاثرياء كان يمرح فى العاصمة فدار حول الجواد ثم سمح له بالمرور فانطلق بوث بجواده حتى عبر الجسر واختفى فى الظلام ••

ولم تحاول وزارة الحربية أن تحقق مسلك الجاويش أو تؤنبه ، بل تقبل رؤساؤه مافعله باعتباره غلطة تعسة لها مايبررها ••

ان سجلات التاريخ تتضمن كثيرا من الثغرات ، وقد نفذ بوث من احداها فى تلك الليلة ، فهل حدث ذلك من خطأ فى التقدير ، أم نتيجة لتدبير متعمد ؟

ولم يكن السماح لبوث بالمرور هو العمل الوحيد الذى ساهم به كوب فى

أحداث تلك الليلة التاريخية ، فبعد دقائق من مرور بوث ، أقبل فارس آخر هو (هيرولد) فسأله الجاويش عن اسمه وماذا يفعل فى هذه الساعة المتأخرة ، فقال له أنه يدعى توماس وأنه كان على موعد مع سيدة وهوعائد الى بيته ·· وحنى كوب رأسه لرجاله ففتحوا له البوابة وتركوه يمر

ولحق هيرولد بزميله بوث فى مكان ما عبر نهر « أنا كوستيا » وانطلق الاثنان معا الى الجنوب وعند منتصف الليل كان الالم قد بلغ بساق بوث حدا لايستطيع احتماله ، فقد كسرت قصبة ساقه اليسرى عندما قفز من مقصورة لنكولن الى خشبة المسرح ·

ولم يستطع بوث تحمل آلام اصابة قدمه التي توررمت داخل الحذاء الجلدى المحكم ، فطلب من هيرولد البحث عن طبيب ·· وكان أقرب طبيب هو الدكتور صمويل ماد الذى يقيم فى بريانتاون · وحوالى الساعة الرابعة صباحا ، وصل الاثنان الى بوابة مزرعة ماد ، وطرقا الباب فاستيقظ الطبيب وساعد هيرولد على انزال بوث عن ظهر جواده ، وحملاه الى غرفة النوم وزعم بوث أن اسمه تايسون ، وأنه سقط من جواده فأصيب بكسر فى قدمه ، وكان يغطى وجهه بوشاح يخفى ملامحه ··

وقام الطبيب باعداد جبيرة مؤقتة للساق المكسورة ·· ونام المريض قليلا ريثما صنع له الطبيب عكازا من الخشب يستند اليه فى السير ·· وبعد الظهر رحل الفارسان مرة أخرى وقد دفع الدكتور صمويل ثمن علاجه لساق بوث غاليا ، فقد اتهمته الحكومة بأنه كان شريكا فى عصابته وأنه عرف شخصية بوث ، وأبلغه عن شخص يدعى الكولونيل صمويل كوكس يملك قاربا يستطيعان عبور نهر بوتوماك به

ولو اتبع بوث وهيرولد تعليمات الدكتور ماد وعثرا على كوكس فورا لاستطاعا الهرب ، ولكنهما ضلا الطريق بعد ان حل الظلام ، وانتهى الطريق الذى سلكاه وسط الاحراش الى مستنقع ظلا يتقدمان فيه ببطء اذ كان الركوب يؤلم ساق بوث ألما شديدا ·· وهكذا فانهما عندما وصلا الى مكان كوكس كان الوقت قد أصبح متأخرا ولا يمكنهما المخاطرة بعبور نهر بوتوماك بعد ان خرج الجنود جميعا للبحث عنهما ··

وظل كوكس يخفى الهاربين ويحمل لهما الطعام فى المستنقع الذى يقع على بعد ثلاثة كيلو مترات من منزله بينما كان الوف الجنود يبحثون

عن الهاربين ..

منزل شارع (هـ)

فى الليلة التى حدثت فيها جريمــة اغتيال لنكولن ، كان الميجورريتشارد مدير بوليس واشـــنطون يجلس بين الجمهور فى مسرح فورد ، وقد عرف شخصية بوث على الفور ، فأسرع الى مقر قيادة البوليس ، وفىخلال دقائق قليلة ، كان قد ابلغ رجاله ماحـــدث واستدعى جنود الاحتياطى وأرســل مخبريه الى مسرح فورد وحوالىالساعة الثانية من صباح السبت ٢٥ ابريل استـــطاع بعد ســؤال عشرات من الشهود أن يربط بين ثلاثة اسماء هى جون ويلكز بوث ، وديفيد هيرولد ، وجون سوارت ، كماتوصل الى معرفة المنزل رقم ٥٤١ بشارع هـ الذى كان يجتمع فيه المتآمرون

وفى مساء الاثنين١٧ ابريل أصدر قائد قوات الجيش أمره باعتقال كل شخص يستأجر غرفة فى منزل مسز سوارت .. وحاصر البوليس المنزل وفى حوالى الساعة الحـــادية عشرة والثلث ، أقبل رجل يحمل معولا على كتفه ودق جرس الباب ، وعنـــدئذ أمســـك به الجنـــود وسألوه عن شخصيته ، فزعم أنه عامل جاءيصلح البالوعة بناء على طلب مسز سوارت !

وسئلت مسزسوارتعما اذاكانت تعرف الرجل ، فنظرت اليه ملية ثم قالت انها لم تره فى حياتها من قبل .. وفتشه رجال البوليس فوجـــدوا معه وثائق تدل على أن اسمههو لويس بين ! وجاء أحد خدم سيوارد وزير الخارجية فتعرف عليه فورا ، وعندئذ اعتقل فى زنزانة على ظهر السفينـــة الحربية سوجاس فى نهر بوتوماك .

وفى نفس اليوم كان البوليس قد اعتقـــل كل من ميشيـــل اولولين ، وصمويل ارنولد ، وادوارد سبانجلر خادم بوث،وبعد يومين اعتقل جورج اتزردوت فى مزرعة ابن عمه ، والقى بالجميع فى السجن انتظارا للمحاكمة وقد تفنن ستانتون وزير الحربية فى وسائل التعذيب التى صـــبها عـــلى هؤلاء المعتقلين ، ومنها وضع كيس من قماش سميك على رأس كل معتقـــل ليس فيه غير شقين للانف والفم ! . وادى هذا التعذيب الى اصابة (بين) بالجنون وحاول الانتحـــار بدق رأسه فى جدران الزنزانة الحديدية .

وسرعان ما امتـــلأت السجـــون بالمشتبه فيهم ! .. وكان أقارب بوث أكثر من تعرضوا للاعتقالوالتعذيب،

واجتاحت البلاد موجةمن الشائعات فى خلال الايام الاولىللجريمة .. فقد

قيل ان بوث موجود فى واشنطون ، ونيويورك ، وانه رؤى فى نياجـــرا وبوسطون وشـيكاغو ، واعتقـــل البوليس شخصا يحمـل نفس الاسم فى بنسلفانيا ، وطورد برىء آخر فى ديترويت ومونتريال !

مطاردة رهيبة

بدأت المطاردة الشاملة لبوث يوم الاثنين١٧ابريل سنة ١٨٦٥ ٠وسرعان ما انتشر عدد ضخم من الفرسان فى أنحـــاء ولاية ماريلاند حتى بلغـوا عشرة آلاف رجل ، قاموا بنشر شبكة تفتيش هـــائلة ٠٠٠ وكان أول من سقط فى هذه الشبـكة هو الدكتور صمـويل ماد ، فقـد هاجم فرســان الجيش مزرعتـه وسألوه عن بوث ، فقال ان فارسين حضرا الى بيته قرب فجـر يوم ١٥ ابريل وانه عالج ساق أحـدهما المكســورة ٠٠ وأصر على ان الرجلين غريبان تماما ٠٠ ولكنه اعترف فى النهاية بان بوث هو صاحب الساق المكسورة ٠٠ وعندئذ صـــدر الامر باعتقاله

وبدأت الحلقة تضيق ٠٠ ففى ٢٠ ابريل اصدر وزير الحربيـــة بيـــانا حازما قال فيه ان كل الاشخاص الذين يخفون أو يؤوون بوث وهيرولد، أو يساعدون على اخفائهما أو هربهما ، سيعاملون باعتبارهم شركاء فى جريمة اغتيـــال الرئيس ويقدمون للمحـــاكمة العسكرية وعقوبتهم الاعـدام ٠٠٠٠! ولكن هذا الاعلان أشاع الخوف فى قلوب بعض من كانت لديهم معلومات يريدون الابلاغ عنها ٠

وأبلغ خادم الكولونيل كوكس ان سيده كان يطهى الطعـــام حتى ساعة متأخرة من الليل ثم يحمـــل الطعـــام بنفسه لاشخاص يقيمون فى المستنقع ولكن البوليس الحربى كان بطيئا فى اقتفاء هذا الاثر ٠٠ وعنـــدما وصـــل الجنــــود الى المستنقــع ، كان بوث وهـــيرولد قد عبرا نهر بوتومـــاك الى فيرجينيا ٠

الطريق الى مخزن جاريت

فى يوم الاثنين ، التقى الهـــاربان بثلاثة من جنود الجنـــوب السابقين ، وبعد ان تأكدا من عواطفهم نحوهما ، كشف لهم بوث عن شخصيتهما وطلب منهم العون ٠٠ وهنـــا تطوع أحدهم ويدعى الكابتن ويلى جيت ـ وعمـره ١٨ عاما ـ بارشادهمـــا الى مزرعـــة شخص يدعى ريتشارد جاريت على بعد خمسة كيلو مترات جنــــوب بورت رويال ، وعلى مسافة ١٢٥ كيلو مترا من واشنطون ٠ وقدم جيت بوث الى صديقه على أنه من جنود الجنوب ؛

وقد جرح في المعارك التي دارت حول ريتشـــموند وطلب من جاريت أن يبقيه عنده حتى صباح الاربعـاء عندما يعود اليـه .. وقبل العشاء بقليل ، في ليلة الثلاثاء أقبل جيت بجواده وقال لبوث أن بعض جنود الجيش يعبرون نهـــر راباهانوك على معدية الى بورت رويال ، فبدأ الهلع على وجه بوث .. وبعد قليل سمع وقع أقدام جياد ، ثم مرت سرية من الفرسان بأعلامهـا أمام بوابة جاريت وتبين أنهم كانوا يطاردون جيت .

كانت تقيم في ذلك الحين في بيت المزارع جاريت شقيقة زوجته ، وهي مدرسة من أنصار الجنوب المخلصين تدعى مس هولواي ، وقد ذكرت فيما بعد أن ابن شقيقتها وليـام جاريت شك في سلوك الضيفين الغـريبين ، وعلم من الجيـران أن الجنود كانوا يبحثون عن شخص جريح وزميله ، فعاد ليقول لبوث :

ـ يجب أن ترحل في الصباح .. انني لا أريد متاعب لابي .

وعندما حان وقت النوم ، رفض بوث أن ينام في الطابق العلوي ، ومن ثم فقد ذهب به جاريت الصغير مع هيرولد الى المخزن الذي يوضع فيه محصول التبغ ، وبعـد أن ادخلهما فيه ، أغلق البـاب خلفهما بالمفتاح ، وأعطاه لمس هولواي وطلب منها ألا تعطيه لاحد لانه كان يخشى أن يسرقا الجياد ويفرا .

والعجيب أن بوث الذي كانت الحكومة قد وضعت ١٠٠ ألف دولار جائزة لمن يأتيهـا برأسه ، رضي أن يغلق عليـه باب المخـزن ، وكان في اسـتطاعته أن يسـتخدم أسـلحته الكثيرة في تحطيم القفل ولكنه لم يفعل

وعند منتصف الليل ، كانت فرقة الفرسان التي يقودها الملازم دوهرتي قد وصلت الى بادلنج جرين وأحاطت بالفنـدق الذي يقيم فيه ويلي جيت واعتقلوه وهددوه ، فاعترف لهم بكل شيء والمسدس مصوب الى رأسه .

وهكذا ضاقت الحلقة حول بوث وزميله .

الاسر

استيقظت مس هولواي وجلست في فراشها بعد أن سمعت أصواتا في الخارج .. كانت أصـــوات أقدام كثيرة مختلطة بصهيل خيول وصليل أسـلحة .. ثم سمعت دقا فجائيا على باب المطبخ ..

وصـــاح صـوت يقول : افتحوا الباب .

وانطلقت مس هولواي نحو باب

القاعة ، فرأت زوج شقيقتها المزارع جاريت يتعثر فى ثياب نومه وهو يهبط الدرجات بسرعة ويقول :

ـ انتظروا ..

وفتح الباب بيد ترتعش من الرعب وعندئذ تدفق الجنود الى الداخل باقدامهم الموحلة .

وقال الضابط بخشونة : نريد هذين الرجلين .

فأجاب جاريت : لقد ذهبا .

وعندئذ امسك الضابط بالعجوز من عنقه ودفعه بقوة نحو الباب وصوب مسدسه الى صدغه وقال لجنوده : خذوا هذا الثائر فقد تستطيعون حل عقدة لسانه اذا جذبتم عنقه قليلا :

ودفعوا جاريت أمامهم ، وراحوا يعدون أنشوطة ليشنقوه .. ووقف المسكين يرتعش وراى بناته وزوجته وقد استبد بهن الرعب ، وعندئذ صاح ابنه وليام قائلا :

ـ أيها السادة .. ساقودكم الى المكان الذى يختبىء فيه الرجلان .

وفى خلال دقيقة واحدة ، أحاط الجنود بمخزن التبغ . وصاح الملازم دوهرتى قائلا بوحشية :

ـ أخرجا فورا .. هل تسمعان

ولكن أحدا لم يرد عليه .. فقال أحد الجنود :

ـ سوف نشعل النار حول المخزن ونحرق هذين الكلبين .. هاتوا بعض الحطب .

وانطلق الرجال يجمعون قطع الاخشاب وأغصان الشجر حول جدران المخزن .

ثم صاح الضابط :

ـ أمامكما فرصة أخيرة .. سنمهلكما خمس دقائق .

وساد الصمت فترة من الوقت . ثم دوى صوت بوث يقول :

ـ من أنتم .. وماذا تريدون منا؟

ـ أمامكما خمس دقائق فقط ..

وراحت الدقائق تمضى بطيئة .. ثم قال دوهرتى :

ـ انتهى الوقت ..

وسمع صوت أنين ينبعث من داخل المصيدة .. يقول فى توسل : امنحونى فرصة للحياة . اننى رجل عاجز بساق واحدة .. أيها الضابط اسحب جنودك ٩٠ مترا وسأخرج .. كل ما أريد هو فرصة للقتال .

وسمع الجنود صوت حوار يدور بين الاسيرين داخل المخزن المظلم ، ثم صاح بوث بوحشية :

ـ أنت جبان حقير .. اخرج .. اخرج ..

وقال هيرولد بصوت يرتعد : دعنى اخرج .. اريد أن استسلم .

وامر الملازم دوهرتى أن يرفع هيرولد يديه الى اعلى وهو خارج . وفتح البـاب ببطء ، وما كادت يد هيرولد تبـدو حتى جذبه الضـابط بسرعة وعلى الفور أغلق الباب مرة اخرى .

وراح بوث الذى أصبح وحيـدا داخل المخزن يرفع عقـيرته بكلمات هسـتيرية .. كان يتحـدى جنود الشمال أن يقاتلوه قائلا انه يستطيع أن يجندلهم واحـدا وراء الآخر .. وعندئذ أشعل الجنود النـــار فى الاخشاب ..

وظهر داخـل المخـزن فى ضـوء الحريق وقد بدا فيه شبح يقفز على عكازاته كأنه غـراب جريح داخـل القفص .. كان يدور فى أنحاء المكان الذى تحيط به النيران وقد سدت أمامه كل الطـرق .. وفجأة دوت صوت رصاصة ، سقط بعدها على الارض ..

وأسلم بوث أنفاسه الاخيرة قرب الفجر ..

ترى من الذى أطلق عليه النار ؟.

لقد كانت الاوامر الصـادرة تقضى باحضاره حيا ، لعله يجيب على بعض الاسئلة الهامة .. فمثلا : أين جون سوارت ؟ .. كم عـدد الاشخاص الذين سـاعدوه فى واشـنطون ؟ ان أحدا لا يعرف من الذى أطلق النار على بوث ليسكته . وقد ذكر البعض أنه هو الذى انتحر .

ونقل الجثمان فى سرية تامة ووضع فى صـندوق خشبى قديم ثم دفن على عجل فى حفرة فى أحد أركان قبو الذخيرة بترسانة واشنطون ..

ولكنه لم يبق هناك طويلا !.

الشنق حتى الموت

وفى ٩ مايو ١٨٦٥ بدأت محاكمة شركاء بوث أمام محكمة عسـكريه مرتجلة اجتمعت فى قاعه أعدت فى سجن ترسانه واشنطن ،وقد اعتبرت الجريمة عسـكرية لان الرئيس قتل وهو فى منصب القائد العـام للجيش وفى ٣٠ يونيـة ثبتت ادانة المتهمين جميعا بتهمة الاشـتراك فى مؤامرة اغتيال لنكولن ، وحكم على كـل من الدكتـور صمويل ماد ، وصمويل ارنولد ، وميشيل أولولين بالسجن مدى الحياة ، وعلى ادوار سـبانجلر بالسجن ست سنوات ، أما لويس بين وديفيد هيرولد وجورج اتزردوت فقد حكم عليهم بالاعدام شنقا وكذلك حكم على مسز سوارت بالاعدام رغم انقسام

رأى المحكمة العسكرية فى شأنهـا ، والوعد بالعفو عنها !

وفى صباح ٦ يوليو وقع الرئيس الجـديد اندرو جونسون أحـكام الاعدام وتحدد للتنفيذ اليوم التالى!

ومن الظواهر الغريبـة التى تثير الشكوك فى المحاكمة ان المذكرات التى وجدت فى جيب بوث بعد موته سلمت الى ستانتون ، ولكنها لم تقدم كدليل اثناء المحاكمة أو ترد اية اشارة اليها. لقد اختفت هذه المذكرات بعـد أن تسلمها وزير الحربية ، ولم تظهر بعد ذلك الا فى عام ١٨٦٧ حيث عثر عليها فى ملف مهمل وقد اختفت منها ١٨ صفحة من الجزء الذى يتحـدث عن الايام السابقة لمصرع لنكولن مباشرة

وهكذا تحققت العدالة فى كل من تآمر على اغتيـال لنكولن ، ما عـدا شخصا واحدا ، لم ينله أى عقاب.. هو جون سيوارد.. لقد تعمد ستانتون تركه يفر الى الخارج ومع انه شوهد مرارا فى الخارج ، مرة فى كندا وثانية فى انجلترا .. وأخيراً فى ايطاليا ، وطلب سيوارد اعتقـاله وتسليمه لامريكا ، ولكن ستانتون وزير الحربية تعمد تجاهل الطلب !.

وفى فبراير ١٨٦٩ أخرجت جثة بوث من قبرها المؤقت ، ونقلت بناء على طلب أسرته الى مقبرة فى بلتيمور حيث دفنت فى قبر لا يحمل أى نصب تذكارى بنـاء على أمر من رئيس الجمهورية .

***

وقبل وفاة روبرت تود لنـكولن - نجل الرئيس الراحل - فى عام ١٩٢٦ أحرق مجموعة من أوراق أبيه الخاصة ولما اعترض أحد اصدقائه يومئذ، قال له روبرت : « هـذه الاوراق تحوى وثائق تثبت خيانة أحد وزراء لنكولن .. ومن الافضل للجميع أن يختفى مثل هذا الدليل ! »

وهكذا اختفى الدليل الوحيد الذى كان يمكن أن يكشف الستـار عن حقيقة الرجل الذى كان يقبع وسط نسيج العنكبوت ، والذى كان الرأس المدبر لاعظم جريمة فى تاريخ أمريكا !



التقط المصور المعـروف سيسل بيتـون مجمـوعة من الصـور للملكة اليزابيث الام بمناسبة عيد ميلادها الخمسين .. ثم أرسل (بروفات) الصور الى الملكة بعد أن أجرى فيها لمساته البارعة التى اخفت كل تجاعيد وجهها .. ولكن سـكرتير الملكة اعادها الى المصور ومعها رسالة مهذبة جاء فيها :

« ترى صاحبة الجلالة انها وقد امضت ٥٠ عاما فى هذه الارض ، فانهـا لا تحب ان توحى صورها بأنها اجتازت هذه السنوات كلها دون أن تؤثر فيها كلية » !



عصابة المافيا الرهيبة

ملخص عن كتاب

Brotherhood of Evil : The Mafia

بقلم فردريك سوندرن

القتل .. والعنف .. والتخريب.. والابتزاز .. كلها أشياء طبيعية وعادية بالنسبة للمافيا ، هذه الجماعة من مجرمي صقلية الذين استطاع رجال القانون فى امريكا اخيرا ان يضيقوا الحصار عليهم .. ان اعضاء المافيا الذين ظلوا طويلا أسيادا للعالم السفلى فى امريكا ليسوا مجرمين عاديين ..

وفى كتاب « اخوة الشر » يعرض فردريك سوندرن أول تفسير صادق لما كان يدور وراء الكواليس ، ويكشف حقيقة أعضاء المافيا وكيف ويعملون.. وكيف انهم بصفتهم اعضاء فى مجتمع كرس نفسه للجريمة منذ مائتى عام ، يعدون انفسهم فوق كل قانون غير قانونهم الخاص العجيب ..

ويقول هارى انسلنجر مدير مكتب مكافحة المخدرات الامريكية عن هذا الكتاب ، أنه « كتاب مثير دقيق ، يحكى قصة يجب ان يعرفها كل انسان » .

عصابة المافيا الرهيبة

في أحد أيام عام ١٩١٤ ، ذهب فتى ضخم الجثة لم يبلغ العشرين من عمره الى حانوت حلاق فى حى « صقلية الصغيرة » ببروكلين ، وطلب الى الحلاق أن يقص شعره بطريقة غريبة شرحها بدقة . . ورفض الحلاق الصقلى العجوز بجفاء ان يفعل ذلك ، فثار الفتى الفظ ثورة عنيفة ، ثم دفع عددا من طاسات الحلاق على الارض ! . .

كان الحلاق يقف والموسى فى يده ، فلم يتردد فى استخدامها فى وجه الفتى ، محدثا قطعا رأسيا فى وجنته اليسرى . . ذلك القطع الذى اكسبه فيما بعد لقب « ذى الوجه المجروح» . . آل كابونى ذى الوجه المجروح !

كان آل كابونى شديد الاعجاب بجماعة « المافيا » ، تلك الجماعة الغامضة المتماسكة من اخوان الشر الصقليين ، ولهذا اراد ان يقص شعره وفقا للطريقة التقليدية للجماعة ، ولكنه لم يكن من ابناء صقلية ، فقد ولد فى نابولى عام ١٨٩٩ ، ولهذا اعتبر الحلاق - وهو من رجال المافيا - مثل هذا الطلب من احد ابناء نابولى تدنيسا للجماعة . . وعلى الرغم مما أصاب آل كابونى يومئذ من ايذاء ، فقد نجح أخيرا فى أن يصبح من أعضاء المافيا المبرزين ، مما كلف امريكا الكثير !

لقد اثبتت الاحداث والتحقيقات التى قام بها مجلس الشيوخ الامريكى اخيرا ان اتحادا قويا غنيا من المجرمين يسيطر على العالم السفلى فى البلاد ، حيث يتولى السيطرة على حركة تهريب المخدرات وأدارة دور القمار ، واستغلال نقابات العمال ، وابتزاز النقود بالقوة ، ولا شك ان المسئولية الكبرى فى هذا التطور الشرير انما تقع على عاتق آل كابونى ، الذى أثبت انه مجرم من طراز عبقرى جبار ، وكان اول من حول المافيا الى نقابة اجرامية عصرية لا مثيل لها . .

وكان لآل كابونى منذ نشأته فى بروكلين معبود يعجب به ويقدسه ، هو « جونى توريو » الذى كان من ابرز اعضاء المافيا ، فكان يقوم بأداء بعض المهام الصغيرة له فى اخلاص تام . وفى عام ١٩١٥ ، انتقل توريو الى شيكاغو ، حيث برز فى ميدان العصابات ، وسرعان ما بعث يستدعى

تابعه كابونى من نيويورك . . وكان النجاح الخيالى الذى احرزه آل كابونى بعد ذلك شيئا تاريخيا !

وفى عام ١٩٢٥ ، بلغ مقدار مايربحه هو وتوريو اكثر من مائة الف دولار فى الاسبوع ، وعندما قرر توريو ان يتقاعد فجأة بعد ان اوشكت العصابات المنافسة على النجاح فى اغتياله ، ترك كل مملكته الخصيبة الى آل كابونى ..

ومع ان اغلب الاشخاص الذين كان مقررا ان يعتمد عليهم الزعيم الجديد كانوا من اعضاء المافيا الصقليين ، فانهم قرروا الاشتراك معه ، سواء أكان من اهل نابولى أم لا ، بعد ان رأوه يعمل واقتنعوا بأنه سيجلب لهم الرخاء .. وكانت ثقتهم فى موضعها حقا ، أذ استطاع آل كابونى بتأييد المافيا ان يزحف الى كل ناحية فى المدينة مستخدما الدهاء الى جانب المسدسات والمدافع الرشاشة وغيرها من وسائل الابادة ، حتى استطاع أن يقضى على العصابات المنافسة بدقة عسكرية .. وفى اقل من خمس سنوات قضت معارك شيكاغو على حياة ٥٠٠ من رجال العصابات ، ولم ينجح كابونى ورجال المافيا فى السيطرة على عمليات تهريب الخمور والدعارة والقمار فى ايلنوى والولايات الاخرى المجاورة فحسب ، بل وضعوا كذلك اساس النقابة الاجرامية التى شملت الدولة كلها

لقد تعلم كابونى الكثير عن المافيا .. ولكن المافيا تعلمت أكثر منه .. لقد علمها أساسا قيمة التنظيم ، فهذا الرجل القصير ذو الوجه الذى يشبه المعجون ، القوى البناء ، ذو الطاقة الجبارة ، كانت له قدرة ادارية كان يمكن ان تجعله على رأس اعمال كبيرة هامة مشروعة ، فقد استطاع ان يبنى بسرعة اكبر هيئة غير مشروعة فى العالم ويجعلها نموذجا للكفاءة والعمل الجماعى والسلطة ، وقد بلغ مايدره مشروعه أكثر من ٢٠ مليون دولار فى العام ؛ وقد قدرت ادارة الدخل ان كابونى نفسه جمع ثروة تقدر بخمسين مليونا من الدولارات ، واستطاع ان يستثمرها بمهارة فى اعمال مالية ناجحة ..

***

كان آيلو يكره كابونى شخصيا ويحسده على سيطرته المتزايدة على شيكاغو ، ويشعر بحقد مرير لان واحدا من اهل نابولى يتزعم اعضاء المافيا .

وقد استطاع آيلو ان يتسلل

منظمة آل كابونى وان يرشو اثنين من اقرب مستشاريه وهما جيوفانى سكاليتشى والبرتو انسلمى ،وعندما شغر مركز زعيم المافيا فى منطقة شيكاغو كلها ، وجد آيلو فرصة أخيرة للقضاء على عدوه ..

ومع ان كابونى لم يكن فى استطاعته ان يفوز بالمنصب لنفسه ، فقد كان دوره هو دور صانع الملوك ، اذ كان فى امكانه ان يعين من يريد فى هذا المنصب ، وقد حرض آيلو عميليه سكاليتشى وآنسلمى على ترشيح صديقهما جويسبى جونيتا من أعضاء الجماعة فى نيويورك ليكون رئيسا لمنطقة شيكاغو ، فوافق كابونى على ذلك ظنا منه انه سوف يستطيع توجيهه كيفما يشاء .

وتم تدبير المؤامرة على اساس ان يغتال المتآمرون آل كابونى عندما تسنح الفرصة ، ويستولوا على امبراطوريته الواسعة .. ولكن آيلو لم يكن يعرف شيئا عن نظام المخابرات الممتاز الذى كان لآل كابونى !

لقد اصر كابونى منذ البداية ــ وهذا درس آخر تعلمته منه المافيا ــ على ان تكون له شبكة مخابرات على درجة عالية من الكفاءة والمقدرة . . كان الحلاقون وعمال المانيكير ، وخدم الحانات وكتبة الفنادق والبوابون وماسحو الاحذية فى كل انحاء شيكاغو يعرفون رقم التليفون الذى يستطيعون الاتصال به عندما يسمعون شيئا قد يهم الزعيم .. وكذلك كان يعرف الرقم ضباط البوليس فى شيكاغو والمدن الاخرى ، وكان صاحب النبأ الذى يثبت انه ذو قيمة يستحق مكافأة طيبة ، كما استخدم آل كابونى فريقا من خبراء التجسس على المحادثات التليفونية

وهكذا عرف كابونى كل شىء عن المؤامرة التى تدبر له ، فدبر بمعونة اعضاء المافيا فى شيكاغو ــ الذين كرهوا هذا الغزو القادم من نيويورك ــ انتقاما بلغ من الشناعة انه اعتبر حتى على اساس معايير العالم السفلى شيئا كلاسيكيا ! .. فقد اقام آل كابونى مأدبة عشاء للاحتفال بتنصيب جونيتا زعيما جديدا للجماعة فى شيكاغو ، واسرف فى الانفاق على هذه المأدبة التى استأجر لها مبنى « كاباريه » خاص .. وبعد ان تناول الجميع كميات ضخمة من الطعام ، وقف ابن نابولى القصير القامة وهو يحمل كأسا من الشمبانيا فى يده وكأنه سيشرب نخبا .. ثم التفت الى الزعيم الجديد الذى يحيط به زميلاه

سكاليتشى وآنسلمى وحنى له رأسه مبتسما .. وفجأة اختفت البسمة عن شفتيه ، واجتاحت الثورة وجهه ، ثم صاح قائلا بالايطالية :

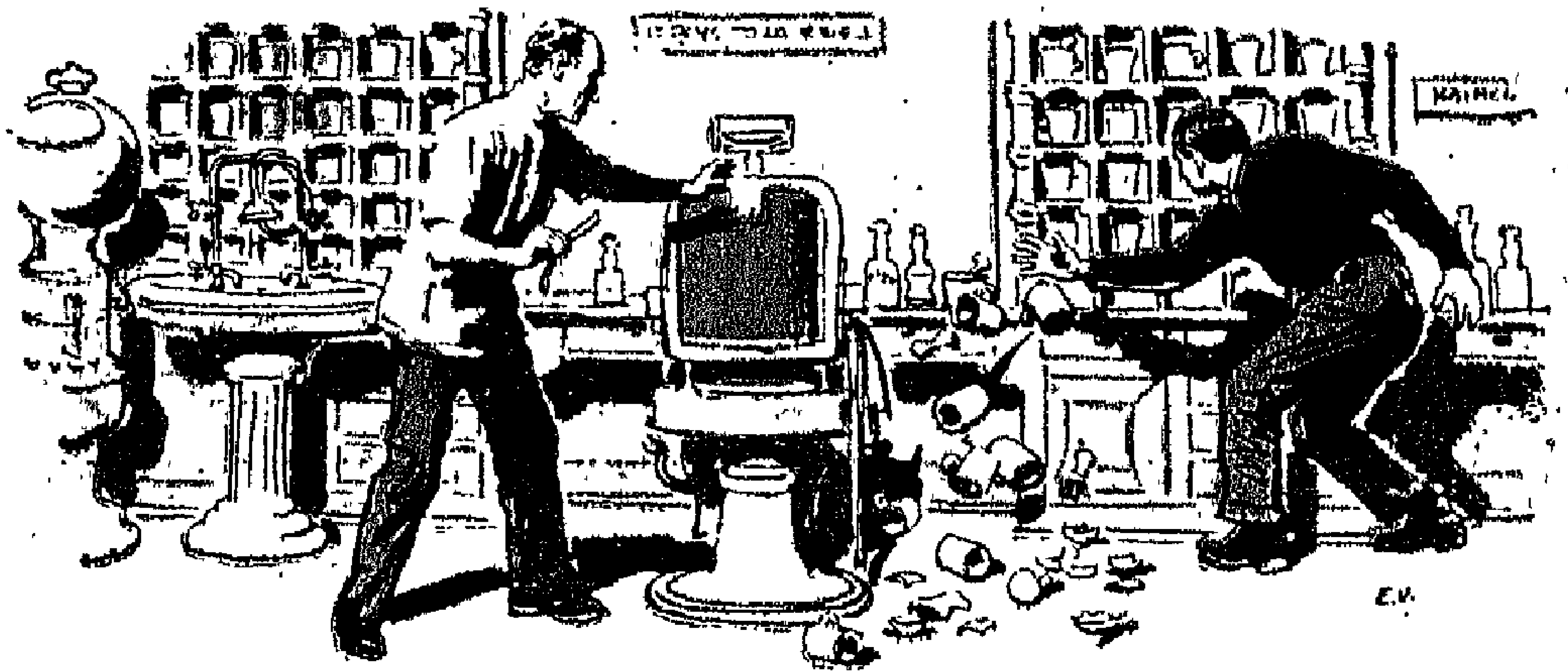
ـ أيها الخونة .. أيتهـــا الكلاب القذرة .. !

ثم قـــذف بما فى كأســـه فى وجه الزعيم الجـــديد ، ودس يده تحت المائدة فأخرج مضرب « البيس بول » الثقيل الذى كان يخفيه تحت قدميه ، بينما اخرج اعضاء المافيا فى شيكاغو مسدساتهم ووجهوها نحو المتآمرين الثـــلاثة ، الذين جلسوا لا يتحركون وقد استبد بهم الرعب . .

وسار كابونى ببطء كعشـــماوى القرون الوسطى ، ودار حول المائدة حتى وقف خلف سكاليتشى الذى جلس مستسلما وقد عقد ذراعيه على صدره .. وارتفع المضرب الثقيل ثم هبط بقوة جبارة .. وارتمى سكاليتشى على وجهه وقد تناثر مخه على غطاء المـــائدة .. وتبعه انسلمى ، ثم جونيتا .. وأخيرا ألقى كابونى بالمضرب على الأرض ، وبصق بقوة .. ثم أمر بازالة الجثث الثلاث ، وانصرف فى كبرياء !.

وبعد بضعة أسابيع ، قام آل كابونى ـ وهو فى ذروة مجده ـ بحركة أخرى سجلها تاريخ المافيا والعالم السفلى ، اذ بعث دعوات الى كبار زعمـــاء المافيا فى شيكاغو ، وديترويت ، ونيويورك وفيلادلفيا والمدن الاخرى للاجتمـــاع فى اتلانتا ســيتى فى مايو ١٩٢٩ . فقبل الجميع الدعوة ...

كانت مثل هـــذه المؤتمرات شيئا



لا مثيل له فى تاريخ الجماعة ، ولهذا جاء المندوبون وهم يشعرون بشكوك متبادلة ، يحيط بهم حراسهم ، وأيديهم على مسدساتهم ، ولكن ابن نابولى القصير المتين البنيان ، كان سياسيا ودبلوماسيا فى وقت واحد ، وسرعان ما خلب ألباب ضيوفه وهو يشرح لهم مشروعه الذى ظل يعمل لاعداده ثلاث سنوات كاملة ، وذلك لانشاء منظمة أو نقابة تشمل البلاد كلها ، وتسيطر على عمليات القمار والدعارة واستغلال نقابات العمال وابتزاز النقود ، وتهريب الخمور — على الرغم من أنه تنبأ بقرب انتهاء قانون التحريم ••

وتأثر المندوبون بما سمعوا •• وفى خلال أيام قلائل كان قد نجح فى جمع عدد من الاتحادات الصديقة الكبرى للانضمام إلى نقابته القومية !

ولكن أيام آل كابونى كانت قد آذنت بالزوال ، فقد اعتقله بوليس فيلادلفيا وهو عائد الى منزله بتهمة حمل سلاح بلا ترخيص محلى ، فحكم عليه بالسجن عاما ، وفى تلك الاثناء نجح رجال الضرائب فى ارساله الى السجن لمدة ١١ عاما أخرى بتهمة التهرب من ضريبة الدخل ، وهكذا انتهى عهد زعامته ، وان كان قد نجح فى ربط كل جماعات المافيا فى مختلف المدن الامريكية برباط وثيق بفضل معاهدة الصلح التى عقدها معهم فى اتلانتاسيتى •• فوضعوا بذلك أساس الدستور غير المكتوب لجماعة المافيا الامريكية الحديثة •

أما المهندس الثانى الذى ترك أثرا ضخما فى مصير المافيا فهو سلفاتورى لوتشيانا ، الذى اشتهر باسم تشارلس (لاكى) لوشيانو ، وكان هو الآخر من أكفأ المجرمين واداريا ممتازا فى هذا الميدان ، ولكنه على عكس آل كابونى كان يفضل دائما أن يظل وراء ستار كثيف ، كما أنه من أبناء صقلية نفسها ، ومن ثم فهو عضو أصيل فى جماعة المافيا ••

تلقى لوشيانو دراساته فى الشوارع الحقيرة بحى (ايست سايد) بنيويورك ولم يكد يبلغ الخامسة عشرة ، حتى كان قد أصبح خبيرا فى قتال العصابات ومن زعماء مهربى المخدرات ، وقد اعتقل وهو يوزع الهيروين فحكم عليه بالسجن عاما ، مما رشحه للترقية فى صفوف العالم السفلى ؟

وفى أوائل العقد الثانى من القرن الحالى أصبح لوشيانو رئيسا لاركان حرب جويسبى ماسيريا وهو زعيم كبير من أعضاء المافيا يحمل لقب « دون » وقد اشتهر بجرأته وقسوته البالغة ،

وقد مضت بضع سنوات ، وحدثت أكثر من مائه جريمة قتل وتشويه مجهولة حتى أمكن تنظيم امبراطورية تهريب الخمور فى منطقة الساحل الشرقى لامريكا ، ولكن ماسيريا نجح فى السيطرة عليها أخيرا وأصبح أكبر زعماء المافيا فى تلك المنطقه ، وكان لوشيانو هو عقله المدبر ورفيقه الدائم الذى يتمم نقصه ، ولهذا بدأ لوشيانو يتمتع بنفوذ عظيم فى مجالس المافيا فى نيويورك .

وكان لوشيانو - مثل كابونى - يحس قرب نهاية تحريم الخمور فى أمريكا ، ولهذا بدأ فى التوسع فى ميادين أخرى غير تهريب الخمور بتأييد ماسيريا ، وكان له صديقان قويان‌هما (جو أدونيس) و (البرت أناستاسيا) اللذان كونا شركةمتحدة للقتل !

***

هناك قانون قديم لجماعة المافيا يقضى بتنحى العضو الكبير عن العمل عندما تعطل الشيخوخة نشاطه ، فاذا تقاعد فى عزة ، فانه يستطيع أن يتطلع الى كهولة آمنة ، وأن يصبح سياسيا عتيدا يستشيره الزعماء الجددباحترام .. أما اذا لم ينسحب عن طواعية ، فان التقاليد تقضى بتحذيره مرة واحدة ، عن طريق قتل أحد مساعديه الصغار .. وقد تلقى دون جويسبى هذا التحذير فى عام ١٩٣٠ عندما وقع أحد حرسه الخاص فى كمين دبر له ، ولكن الرجل كان عنيدا لا ينوى ترك الزمام من يديه ..

وفى أحد أيام ابريل ١٩٣١ ، دعاه لوشيانو للعشاء فى مطعم (سكارباتو) الايطالى الفاخر فى « كونى ايلاند » .. وكان ماسيريا يحب الطعام والنبيذ ، وظل الاثنان يأكلان ويشربان فترة طويلة حتى أوشكت قاعة الطعام أن تخلو ممن فيها .. وعندئذ ذهب لوشيانو ليغسل يديه .. وفى تلك اللحظة تسلل ثلاثة أشخاص ووراءمقعد الدون الانيق ، وأفرغوا مسدساتهم فى رأسه ، ثم انسحبوا بسرعة !

أصبح لوشيانو الآن زعيما كبيرا خلفا لماسيريا .. وكان دبلوماسيا موهوبا بين مجرمى العالم السفلى ، لا يؤمن باستخدام المسدس الا اذا دعت الضرورة الملحة لذلك ، ولهذا راح يصالح العصابات الاخرى‌وينظمها فى نقابات على غرار مافعله آل كابونى وسرعان ما أدرك العالم السفلى فائدة مثل هذا التعاون الشرير .. ففى نيويورك توقفت الحرب المهلكة بين العصابات ، وأصبح الاتصال‌التليفونى

والاجتماعات الاقليمية بين الزعماءأمرا شائعا فى أنحاء أمريكا ٠

وعندما اتهم توماس ليرى المدعى العام فى نيويورك لوشيانو فى عام ١٩٣٥ بادارة شبكة للدعارة ، كان لوشيانو قد بلغ من القوة حدا لا مثيل له ، فقد كان يعيش فى جناح خاص بفندق والدورف استوريا تحت اسم تشارلس روس ، وكان زعيما لاغلب عصابات نيويورك ذات الدخل الكبير ٠٠ لم تكن هناك عملية للقمار أو ابتزاز الاموال من أى مكان يمكن ممارستها دون الحصول على اذن منه ، ومنحه نصيبا من أرباحها ٠٠ ولكن سلسلة المواخير التى كانت تدر عليه عشرة ملايين دولار فى العام وتضم ٢٠٠ رئيسة وأكثر من ألف فتاة ، جعلته عرضة للخطر ، اذ لم يكن يترك لهن غير النزر اليسير من هذه الارباح الضخمة مما أشاع السخط فى نفوسهن ، فاستطاع المدعى العام جيمس ديوى أن يقنع كثيرات منهن بالشهادة ضد لوشيانو ، فأدانه المحلفون ، وحكم عليه بالسجن فترة تتراوح بين ٣٠ و٥٠ سنة ، وهذا يعنى عادة السجن مدى الحياة ، ولكن عبقرية لوشيانو وقدرة المحامين عنه واتصالاته ومركزه كزعيم كبير من زعماء المافيا ٠٠ كل هذا نجح فى فتح أبواب السجن له بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية على أساس أنه بذل مجهودا حربيا هاما خلال الحرب أسفر عن منع الاضرابات وأعمال التخريب على أرصفة ميناء نيويورك ٠٠ حيث شريان الحياة الى أوربا ٠

وهكذا قرر مجلس العفو بولاية نيويورك نفى لوشيانو الى ايطاليا ، حيث لايستطيع انزال أى ضرر بأمريكا

ولكن نفى لوشيانو كان يعنى فى الواقع أن جماعة المافيا الامريكية أصبح لها لاول مرة مندوب كبير فى الخارج يدير حركة تهريب المخدرات المزدهرة ، اذ أن لوشيانو سرعان ماعاد يمارس نشاطه بعد أن استقر فى ميناء نابولى ، حيث يجد كل أسبوع سفنا كثيرة تسافر الى نيويورك ٠٠ وبفضل الاموال التى كانت تصل اليه من أمريكا بانتظام مع مبعوثين خاصين ، استطاع أن ينظم المجرمين الذين نفتهم أمريكا من أعضاء الجماعة ، وأن يضم مندوبين مختارين بعناية فى روما وميلان وجنوا وغيرها من المراكز ٠٠ وسرعان ماسيطر على عصابات العالم السفلى فى ايطاليا ٠ ولكن المغامرات الصغيرة كتهريب السجائر الامريكية

أو فرض اتاوات على المغاسل كان شيئا تافها بالقياس الى الكنز الذى وجده فى تهريب المخدرات ، حيث كان كل شىء مهيأ أمامه ، اذ أن صناعة الهيروين مشروعة فى ايطاليا للاغراض الطبية ، وتراخيص التصدير تصدر بلا اكتراث

***

لقد بدأت جماعة المافيا فى القرن الثامن عشر باعتبارها حركة للمقاومة السرية ضد الطغيان الاجنبى ، وظلت جماعة المافيا الاصلية فى صقلية عدة سنوات تكافح الحاكمين من النمسويين والفرنسيين والاسبان ، وتثير الرعب فى قلوب محصلى الضرائب الذين يبعثونهم وتقتل رجال بوليسهم •• ولكى تضمن البقاء وسط هذا العالم الزاخر بالفوضى والعنف ، اضطرت الجماعة الى وضع قانون حديدى لسلوك أعضائها يعرف باسم «أومرتا» أى مؤامرة الصمت ••

ويتضمن هذا القانون خمس توصيات رئيسية لاتزال ملزمة للاعضاء حتى اليوم وهى :

١ ـ على عضو المافيا أن يهب لمساعدة أخيه بكل وسيلة يملكها •

٢ ـ عليه أن يطيع دون مناقشة أوامر مجلس الاخوان الذين يكبرونه رتبة

٣ ـ أن يكون على استعداد للانتقام مهما كان الثمن لاى عدوان يقع من غريب على أخ فى الجماعة

٤ ـ عليه ألا يلجأ الى البوليس أو المحاكم لانصافه مهما كانت الظروف

٥ ـ عليه ألا يعترف بوجود الجماعة مهما تعرض للتعذيب والالم، وألا يناقش نشاطها مع أحد أو يعترف باسم أى أخ فيها •

وفى عام ١٨٦٠ تغير طابع المافيا تغيرا فجائيا •• فقد توحدت ايطاليا وصقلية تحت عرش ملك ايطالى واحد ، فلم تعد هناك حاجة لمقاومة الطاغية الاجنبى •• ولكن أعضاء المافيا أبوا التخلى عن مراكزهم الممتازة كأبطال وأصحاب سلطان ، ومن ثم شرعوا فى استغلال مهارتهم البالغة فى القتل والخطف والسرقة للحصول على الارباح •• وفى خلال السنوات التالية أخذوا يبتزون النقود بصفة منتظمة من كل طائفة من طوائف المجتمع فى صقلية باعتبارهم أسياد الحكومة الاجرامية السرية الرهيبة التى نشأت داخل الحكومة !

وفى عام ١٨٨٠ اكتشفت المافيا

أمريكا ومافيها من فرص ذهبيةرائعة بين مواطنيهم المهاجرين هنـاك • •
لقد كان الايطاليـون والصقليون قد تجمعوا معا فى أحيـاء صغيرة فى نيويورك وغيرها بعـد أن أدهشتهم اللغة والعادات فى الارض الجديدة ، وبدأت عصابات الابتزاز الايطاليـة عملهـا مسـتخدمة توقيـع (اليد السوداء) على تحذيراتها ، وكانت تطلب اتاوات وفدية مالية وغيرها• ودفع المزارعون والتجـار الايطاليون الاثرياء الذين كانوا الهـدف الاول لهذا الابتزاز • • وهكذا انتعشت الجماعة ماليا •

وفى عام ١٩١٩ كانت ألمافيـا مجرد عنصر من عناصر العالم السفلى فى أمريكا ـ وهو عنصر برغم أهميته ، فانه لم يكن العنصر المسيطر • • ولكن ما ان تدفق فيضان الذهب على العصابات بعد قانون تحريم الخمور حتى بدا كأنما فتحت الجحيم أبوابها فجأة فقد حاولت كل عصابة فى المدن أن تسيطر على هذا المورد الجـديد الهائل من موارد الثروة • • وكانت عصابات ألمافيـا هى أصلح من يكتب له البقاء فى هذا المجال ، فقد كانت تتمتع بالتماسـك والتنظيم والخبرة اللازمة لهذا العمل • • وقد كانت أكثر وسائل آل كابونى التى تبدو جديدة يومئذ ليسـت فى الواقع غير تطبيق عصرى لوسـائل جماعة ألمافيا القديمة ••

وهكذا انتصرت عصـابات ألمافيا فى حروبها فى خلال ٦ سنوات فقط ، وعززت سيطرتها على تهريب الخمور، وبلغت فى عهدى كابونى ولوشيانو وغيرهما من الزعماء الاقل مرتبة أعلى ذروة من الثروة والسلطان الذى لم تحلم به ••وسرعان ماانتقل نشاطها الى ميادين القمـار وتهريب المخدرات وآلات القمار، وتوزيع الطعام والخمر، والنقل بالسيارات ، وجمع المخالفات ومقاولات البناء وشحن السفن • • وعدد لايحصى من الاعمال الاخرى •

لقد بدأ عهـد خيالى جـديد فى تاريخ ألمافيا ••

***

كانت أول سـلطة رسمية للامن تواجه ألمافيا وتكشف عن طابعهـا وحجمها وقوتها هى مكتب مكافحـة المخدرات الذى يرأسه هارى جاكوب انسلنجر مدير المكتب منذ انشائه، وهو هولندى الاصل ، عنيد يكره ألمافيا وأعمالها ، وقد قاتلها بحماسة وبلا هوادة حتى اعتبرته الجمـاعة عدوها الاول

لم يكن انسلنجر يوم تولى مهمة مكافحة واردات المخدرات مع رجاله يعرف شيئا عن جماعة ألمافيا .. ولكنه لم يلبث أن عرف الكثير عنها، فأنشأ لها ملفا خاصا أصبح اليوم أشبه بدائرة معارف خاصة !

ولايعتبر السجن وصمة بالنسبة لدوائر ألمافيا ، بل يعد مخاطرة عادية من مخاطر المهنة ، والذين يحكم عليهم بالسجن يشكرون القاضى بحرارة،ويقضون مدة السجن كمسجونين نموذجيين

ولكن عضو ألمافيا يتحاشى السجن عادة اذ يقوم بالدفاع عنه كبار المحامين المهرة ، وسواء أكان عضو ألمافيا من مواليد صقليه أم لميكن، فهم جميعا على صورة واحدة فى المظهر والمسلك. انهم جميعا بلا استثناء يكرهون البوليس والحكومة من أى نوع ، ويزدرون كل من لاينتمى للجماعة ، ولا يشتركون فى شىء الا مع بعضهم البعض . والرجال منهم يتزوجون دائما بنات الاعضاء الآخرين ، ومع أنهم غالبا غير مخلصين كأزواج ، اذ لابد من وجود عشيقة أو أكثر لكل منهم علامة على النجاح ، فانهم يحرصون على الود لزوجاتهم والانفاق عليهن بسخاء .

وأغلب أعضاء الجماعة لايتمتعون بالسفر كثيرا ، فهم لايطمئنون على أنفسهم فى الاوساط الغريبة عنهم ، ولكن شاطىء ميامى فى فلوريدا مكان لابد لعضو العصابة من زيارته

وفى خلال فصل الصيف يصبح الشاطىء أضخم مكان لاجتماعات ألمافيا ، ولكنهم يذهبون الى فنادق خاصة ليكونوا فى مأمن ، كما أن لهم حانات ونوادى ليلية خاصة يمتلكها عادة أعضاء آخرون فى ألمافيا ، حيث يستطيعون التحدث فى حرية .

ويستخدم عضو ألمافيا فى رسائل العمل التى يرسلها لزملائه اللغة الصقلية الدارجة ،وهى فى حد ذاتها بمثابة الشفرة ، ويزيدها غموضا باستخدام عبارات قديمة للجماعة لايستطيع الغرباء فك طلاسمها . . ولابد لعضو ألمافيا من عدة أسماء وطرق كثيرة مختلفة لهجاء كل منها، فجويسبى مثلا يذكر اسمه أحيانا جيسب أو جوزيف أو جو ..وميراندا تصبح فجأة ميراندى أو موراندو الخ .. وأسماء الوالدين وأماكن الميلاد والتواريخ لاتذكر صحيحة قط وذلك لاثارة الحيرة والارتباك فى ملفات البوليس والمحققين والصحافة .

وحتى اليوم لم يستطع رجال مكتب

المخدرات الامريكى أوالبوليس الايطالى الحصول على شىء ضد لوشيانو ، اذأنه بعد أن اعتقل مرة ، قرر ألا يعتقل مرة أخرى ، فهو لا يمسك بيـده ذرة من المخدرات ولا يكتب بنفسه رسالة ما •• وقل أن يتحدث تليفونيا أو يتلقى مكالمة وكل أعماله الهـامة يديرها من شـاطىء على مقربة من نابولى حيث لا يستطيع أحد أن يقترب منه دون أن يكشف نفسـه ، ولا يمكن وضع أى ميكروفون أو التجسس على محادثاته

وبرغم هـذه الهزيمة ، فان مكتب المخدرات استطاع أن يقلل واردات الهيروين القادمة من أوربا بنسبة ٤٠ فى المـائة فى عام ١٩٥٧ ، وأدت الخسائر فى الدخل الى ارتفاع أسعار المخدرات فى أمريكا واضطراب شديد فى منظمـة ألمافيا التى كانت تسير أعمالها فى سهولة حتى الآن •

وكان أول دليـل على وجود نزاع داخلى بين الجماعة هو مصرع فرانشسكو سكاليتشى فى نيويورك يوم ١٧ يونيو وهو من زعماء المافيـا الاقوياء فى برونكس

كان سـكاليتشى يعمل أمام الناس نائبا لمدير شركة متواضـعة لاعمال البياض ، وكان يحب أن يقول أنه مجرد مقاول صـغير ، ولكنه فى الواقع كان يسيطر بقبضـة من حديد على كل صناعة البنـاء فى (برونكس) التى تضم أكثر من مليون ونصـف مليون شخص • ولم يكن هناك مايثير الشبك فى تصرفات سكاليتشى فان المساعدين الثلاثة الذين يصاحبونه دائما يعملون محاسـبين قانونيين ، وكان هو يبدو رجلا معتدلا فى الخامسة والخمسـين أصلع الرأس ، ذاشارب رفيع وأنف كبير وابتسامة دائمة •

لم تكن هناك عصـابة تستطيع أن تمارس عملها فى برونكس دون ترخيص من سكاليتشى ، كما كانت كل محال القمار تدفع له اتاوة منتظمـة ، واذا تعرض بعضهم لخسائر فادحة واحتاج الى قرض لمواصلة العمل ، حصل عليه من سكاليتشى بفائدة شهرية تبلغ ٢٥ فى المائة وليس هنـاك من يجسر على تقديم قرض لهم بدله فهو محتكر لهذا العمل !

وفى اوائل ١٩٥٧ قرر سكاليتشى أن يعمل فى تجارة المخدرات التى لم يسبق له الاشتغال بها وقد دفعه الى ذلك الارتفـاع الكبير فى سـعرها وأرباحها الخيالية بعد أن انخفض الوارد منها من الخـارج بسبب المصادرة • واستدعى سكاليتشى عددا من مساعديه واقترح على كل منهم أن يساهم بمبلغ

كبير حتى يستطيع استيراد ٢٠ كيلو جراما من المخدرات من لوشيانو في نابولي •• ووافق الزملاء وتمت اجراءات الصفقة ، وأخفى الهيروين بعناية في دولاب بحار على ظهر باخرة أمريكية ، ولكن سوء الحظ أدى الى ضبط هذه الكمية ومصادرتها ••

وما كادت أنباء الكارثة تصل الى نيويورك ، حتى دعى سكاليتشي لحضور اجتماع ضم حلقة من الوجوه الجامدة لمحاسبته •• ان تقاليد الجماعة تقضي بأن من يدبر مثل هذه المغامرة يعتبر مسئولا عنها ماليا اذا فشلت •• وطبقت القاعدة عليه بقسوة ولم تقبل أية اعذار منه •• فوعد بدفع كافة التعويضات •• ولكن المبلغ كان كبيرا طلب امهاله لجمعه ولكن الانتظار طال •• وبدأت عجلة التنفيذ دورانها •• فعقد اجتماع ضم الاعضاء المجنى عليهم وبعض رجال الجماعة من غير ذوى المصلحة •• وصدر الحكم باعدام سكاليتشي •

واختير رجلان لتنفيذ الحكم حضرا من مدينه اخرى ، فبدآ دراسة عادات سكاليتشي بدقة تامة •• كان الرجل شديد الحذر في تصرفاته بحيث لن يتيسر تنفيذ الميتة المشرفة التي يدبرها أعضاء المافيا لزعمائهم •• والتي تحوى العشاء الاخير والنبيذ والرصاصات المفاجئة • كما كان منزله يقع بين جيران كثيرين لا يصلح لتنفيذ القتل فيه •• وعندما كان يقود سيارته بين منزله ومكان عمله ، كان ينطلق بها بسرعة وبراعة ••

وبعد مراقبة دامت أياما ، اكتشف الرجلان عادة لا تتغير من عاداته •• انه يتناول الغداء كل يوم مع أخيه ، ثم يسيران معا الى شارع آرثر ، حيث يتوقفان عند متجر مازارو للخضر والفاكهة •• وهناك سوف ينفذ الحكم فيه ••

كانت الساعة الواحدة والنصف من ظهر يوم شديد القيظ من أيام شهر يونيو ، عندما سار الدون فرانشسكو متمهلا في شارع ارثر ليدلف الى متجر مازارو لآخر مرة •• كان الشارع الذى تصطف الحوانيت الايطالية على جانبيه مزدحما كعادته ، وأخذ المارة يحنون رءوسهم في احترام لهذه الشخصية الهامة الانيقة ، بينما رد هو على تحياتهم في اعتزاز ومهابة • وانحنى انريكو مازارو عندما دخل الزعيم الى متجره ، ولما كان يعرف أن فرانشسكو لا يحب أحدا الى جواره وهو يختار ما يريد شراءه ، فقد ظل في مكانه ، ولم يلمح الشابين ذوى

السواعد المشمرة الاكمام اللذين مرقا من أمامه فجأة وقد دسا أيديهما فى جيوبهما ..

وتمت الجريمة الحاذقة فى ثوان . فقد انطلقت عشر رصاصات من مسدسين عيار ٣٨ فى تتابع سريع فسقط فرانشسكو صريعا فى نفس الوقت الذى انطلق فيه القاتلان هربا فى سيارة سوداء مغلقة كانت تقف فى انتظارهما .

واستبد الغضب بشقيقى فرانشسكو عندما علما نبأ مصرعه وأقسما على الانتقام .. ومع ذلك فقد رفضا أن يفضيا للبوليس بشىء ، وقالا أن أخاهما لم يكن له أى أعداء بل كان محبوبا من الجميع !

وعقب القتل مباشرة انطلق بعض مفتشى البوليس السرى الذين يعرفون وسائل المافيا الى منزل سكاليتشى يحملون أمرا بالتفتيش .. برغم أنهم كانوا لا يتوقعون العثور على شىء ذى قيمة اذ تقضى التقاليد بألا يحتفظ عضو المافيا بايه سجلات آو وسائل قد تزود البوليس بشىء من الادلة ، ولكن تبين أن فرانشسكو قد ضرب بهذه التقاليد عرض الحائط ، اذ عثروا فى مكتبه على صور ورسائل وكتاب للعناوين يضم حوالى ٤٠٠ اسم ، وأرقاما للتليفونات ، مما أتاح للمحققين صورة أقرب الى الكمال لعملية من عمليات المافيا فى أمريكا والخارج لم يسبق اكتشاف مثيل لها !

وكانت مذكرات الدون فرانشسكو تحوى قائمة بأسماء كبار رجال العصابات المشهورين فى نيويورك وشيكاغو وبوسطن ولاس فيجاس ولوس انجلوس وكانساس سيتى وديترويت وعشرات من المدن الامريكية الاخرى ، فضلا عن أسماء أخرى فى هافانا والمكسيك وباريس ومارسيليا وميلانو وروما ونابولى وصقلية .. وكانت تحوى أسماء عدد من الموظفين والشخصيات السياسية الهامة ! .. لقد كان مصرع دون فرانشسكو غلطة ارتكبتها المافيا .. تبعتها غلطات أخرى كثيرة ..

***

وفى خريف ١٩٥٧ كانت جماعة المافيا فى أمريكا تجتاز أزمة خطرة ، فقد صدرت قوانين مكافحة المخدرات فى عام ١٩٥٦ ، وهى تعطى المحاكم الحق فى فرض عقوبات قاسية لمروجى المخدرات تصل الى الاعدام ، فبدأت أرباح الهيروين تقل باطراد ، وجن جنون تجار المخدرات من أعضاء الجماعة بسبب نضوب هذا المورد الخصب من

مواردالثروة ، وعندئذتطلعوا فيجشع نحو ميادين أخرىأكثر أمانا ، كالقمار وعصابات ابتزاز العمال ، واستنكر الاخوان الذين كانوا يعملون من قبل في هذه الميادين تلك الغارات الجديدة وقاوموها ، وهددت المنافسات العنيفة التى نتجت عن ذلك بالقضاء على نظام الجماعة ووحدتها التقليدية •

ولم تكد تمر ثلاثة شهور علىمصرع سكاليتشي حتىلحقهامبرتواناستاسيا من كبار أعضاء المافيا اذ أطلق عليه مجهولان رصاصهما وهو جالس على مقعد بمحل حلاق فى فندق وسط مانهاتان ، وكانت تهمته أنه حاول غزو عملية القمار فى كوبا التى يديرها عضو آخر من المافيا وتبعه أعضاء آخرون لقوا مصرعهم فى جرائم مشابهة مما زاد اتجاه الانظار الى الجماعة

وبدأت الصحفوالمجلات ولجنة ماك ليلان لمقاومة العصابات تبدىاهتمامها بشئون (المافيا) وشرعت ادارات البوليس فى المدن الكبرى تدرك وسائلها فىالعمل بعد أن كانت تستبعد نفوذها بل وتنكر وجودها تماما •• فضلا عن أنالقوانينالجديدة والدعايات التى ترددت حول تجارة المخدرات أيقظت الرأى العام وأثارت غضبه ، ولفتت الانظار الى أسماء صقلية كثيرة

ورأى كثيرون بما فيهم لوشيانو أن العصابة يجب أن تنسحب مؤقتا من تجارة المخدرات وتتركها لعصابات أخرى متفرعة عنها مقابل نسبةصغيرة من الارباح حرصا على سلامتها ••

وبدا واضحا أن اجتماعا عاجلا لابد منه لا عداد الوسائل الكفيلة بتفادى العلانية والقضاء علىالمنافسات الخطيرة وسفك الدماء بين فروعالجماعة •• وهكذا تم الاتفاق على الاجتماع فى بيت دونجويسبىبربارا التاجر الثرى زعيم العصابة فى منطقة بنج هامتون على حدود ولايتى نيويورك وبنسلفانيا نظرا لما يتمتع به من مهارة دبلوماسية وحياد وهيبة لازمة للتوفيق والجمع بين مختلف العناصر المتنازعة •

وبدأ المؤتمر الكبير جلساته فىبيت بربارا فىبلدةأبالاشينصباح ١٦نوفمبر وهو يوم لن ينساه أعضاء المافيا •• وضم الاجتماع أكثر من ٦٠ من أهم زعماء العصابات الدولية والمحلية من أنحاء أمريكا والخارج ، ومثلت فيهكل عناصر العصابات التى تديرها المافيا تقريبا •• كانت المنطقة التىيقعفيها البيت تحيط بها أراض ريفيةوغابات •• ولم يكد المجتمعون يطمئنون الى عدم وجود خطر يهددهم ، حتى جاءهم من يحذرهم بأن البوليس سدالطريق

وحاصر البيت ، فاستولى الذعر على الجميع ، وهرع أغلبهم الى سياراتهم ، بينما انطلق البعض الى الغابات الكثيفة التى تقع وراء البيت ...

***

كان الجاويش كروسويل يرقب بيت بربارا منذ سنوات ويقتفى أثره منذ جاء من صقلية فى عام ١٩٣٠ بصبر بالغ .. ولكنه لم يكن يستطيع أن يثبت ضده أى نشاط اجرامى ، ومع ذلك ظل يواصل مراقبته له الى أن أثار وصول كل هذه السيارات الفاخرة ذات الارقام الغريبة عن الولاية شكوكه ، وجعله يقوم بحيلة شيطانية بارعة ، أثارت الرعب فى قلوب زعماء المافيا المجتمعين ، واستطاع أن يعتقل الجميع ويحيلهم الى قسم البوليس المحلى فى قرية فيستال القريبة للتحقق من شخصيتهم وتفتيشهم .

وتبين أن ضيوف بربارا جميعا من أصحاب أكبر الاسماء فى العالم السفلى .. وعندما سئلوا عن سبب اجتماعهم كلهم فى هذا المكان ، أخذوا جميعا يرددون نفس القصة .. لقد جاءوا مصادفة للاطمئنان على صحة جو العجوز !

ولكن البوليس لم يستطع أن يفعل حيالهم شيئا بعد ذلك .. فقد ثبت من التحريات السريعة أن واحدا فقط من ضيوف بربارا هو الذى يطلبه البوليس فى أمريكا فى ذلك الوقت .. وأخيرا قررت السلطات المسئولة أن الطريق الوحيد الممكن عمله ، هو أن تلقى أكبر قدر من الضوء على جماعة المافيا وزعمائها ، ثم تطلق سراحهم .. وتترك للصحف والجمهور الباقى !

وقد ثبت أن هذه الطريقة حكيمة .. فمنذ ذلك اليوم لم تتوقف صيحات الغضب التى انبعثت ضد المافيا ، وبدأت اللجان البرلمانية تهاجم هذه المنظمة دون هوادة ، وعرف الشعب الكثير عن هؤلاء الاخوان وصمم على التخلص منهم .

أما زعماء المافيا الذين أدركوا فى تعاسة قوة المعارضة التى أخذت تتجمع ضدهم فى اطراد ، فلابد أنهم يلعنون ذلك اليوم الذى سمعوا فيه عن (أبالاشين) ، بعد أن أصيب مجلسهم الكبير هناك بفضيحة أنزلت بجماعتهم التى كانت فى حرز حصين بضرر لن يمكن اصلاحه !



قال الممثل الراحل همفرى بوجارت معلقا على الازياء الحديثة :
ــ اننى اتطلع الى اليوم الذى يلتقى فيه الذيل القصير بالصدر المنخفض حتى لايصبح هناك داع للحزام ، ولا يكلفنا نحن الازواج شيئا ! ..


كتاب الشهر
عشت في دنيا الأحلام

عشت في دنيا الأحلام

ملخص عن كتاب

I LOVE YOU HONEY, BUT THE SEASON IS OVER

بقلم كونى كلاوزن

يوم خطت كونى كلاوزن خطوتها الاولى فى سيرك (اخوان رينجلنج) وهى فى السابعة عشرة من عمرها ، وجدت نفسها فى عالم غريب ساحر ، ملىء بالالوان الزاهية والوجوه المشرقة .. ومن تلك اللحظة ، وطوال موسم كامل ، ظلت حياتها نهبا مقسما بين المتعة والالم ، واحبت كونى الافيال حبا ملك كل قلبها ، وكادت تقع فى غرام احد لاعبى السيرك ..

ومن خلال تجاربها الكثيرة مع الرجال والنساء والحيوانات ، تحت خيمة السيرك ، وضعت كونى كلاوزن هذه القصة الممتعة ، ذات الالوان المتعددة ، كالسيرك نفسه ..

... ولا شك ان مطالعة كتابها الذى اطلقت عليه اسم (اننى احبك ياحبيبتى ولكن الموسم قد انتهى) ، هو أفضل ما يمكنك ان تفعله ، اذا لم تستطع الانضمام مثلها الى (اكبر استعراض فى العالم) ..





كان آخر شيء أفكر فيه هو الانضمام الى السيرك .. حتى أوقفنى جون رينجلنج نورث يوما وأنا أسير فى الطريق وقال لى بعد أن قدم نفسه :

ـ اننى ابحث عن فتاة تقوم بدور (أليس فى بلاد العجائب) فى الاستعراض الذى نعده ، وأنت أصلح من يؤدى هذا الدور ... فما رأيك فى السفر معنا ؟

كنت يومئذ فى السابعة عشرة من عمرى ، ذات شعر طويل أشقر ، وكنا نقيم فى مدينة ساراسوتا بولاية فلوريدا ، وهى المقر الشتوى لسيرك (اخوان رينجلنج) .. فقلت له :

ـ اننى آسفة ، ولكنى لا أحب حياة السيرك ... وعلى اية حال ، فأنا لست فتاة رياضية .

فقال نورث مطمئنا اياى :

ـ ليس من الضرورى أن تكونى

رياضية ، كل ماعليك أن تفعليه هو أن تجلسي فوق منصة تجرها الجياد باعتبارك (أليس) ...

ثم أضاف قائلا : اذا غيرت رأيك فتعالى الى مكتبى ، ولكن لا تقصى شعرك !

وكان من المحتمل الا تسفر هذه المقابلة عن شيء ، لولا أننى أخطات اذ أفضيت بالامر لأسرتى ، فبدا على ابى كأننى اكتشفت بئرا للبترول ، فصاح فى تأثر :

- انها فرصة لكى تصبحى نجمة فى أكبر استعراض فى العالم ... سوف تقبلين ولا شك .

كان ابى طوال عمره من أكبر المولعين بالسيرك ، وكان يعمل ساعيا للبريد فى الريف ببلدة ميناشا بولاية ويسكونسين ، وكان يحضرنا دائما لقضاء عطلاتنا فى فلوريدا ، وماكادت الفرصة تتاح له للتقاعد عن عمله ، حتى باع كل مايمتلك ، واشترى منزلا فى (ساراسوتا) سرعان ماملأه بمستأجرين من رجال السيرك ... لقد كان السيرك هو حلمه الاكبر ، وقد حاول ان نولع به مثله فى حماسة ، ولكننا لم نكن نهتم به .

وعاد ابى يقول :

- سوف أذهب بك الى هناك فى الصباح .. كل ما ستفعلينه ، هو الجلوس فوق منصة جميلة .. وتبتسمين !

ما كاد ابى يقول لحارس البوابة ان مستر نورث نفسه هو الذى طلب منى الحضور ، حتى سمح لنا بالدخول فورا .. وقطعت مع أبى وأمى الممر الطويل فى سكون . كانت الارض التى حولنا تبدو غريبة الى حد ما ، فقد كان هناك صف طويل من عربات قطار فضى اللون تقف دون حراك فوق قضبان نمت بينها الحشائش ، وكأنها لعب اطفال ضخمة ، وعلى احد الجوانب ، كانت هناك عربة بولمان حمراء ذات مظلة من اللونين الاحمر والابيض ، وقد كتب على بابها : « مكتب »

واوقفنا سيارتنا بعيدا ، ثم سرنا نحو مبنى ضخم كالمخزن ، ودفعنا الباب الثقيل ففتح ، فتسربت الى أنوفنا روائح الحيوانات والمواد المطهرة التى تملأ الجو ، وكان المبنى كله غاصا باقفاص الاسود والنمور والفهود التى أخذت تحدق فينا فى استسلام وكراهية وزئيرها يتردد صداه فى يأس ... وعلى الجانب الآخر من المبنى ، وجدنا المزيد من الحيوانات : كان هناك (سيدة

قشلة) يبرز برأسه من حوض ماء ، وعدد من الجمال والحمر الوحشية وحيوان اللاما ، وهي تسير في أنحاء المكان الذي جلست فيه بعظمة وجلال وزرافة تمد عنقها الطويل فوق أحد الاسوار ، وقرود كثيرة تقفز فوق احدى الاشجار ..

وقال ابي وهو يشير الى خيمة كبيرة امامنا :

ـ لابد أن هذه هي خيمة التدريب .

كانت الرياح التي واجهتها قد جعلت منها جسما لا شكل له ، بينما احالتها الامطار والشمس المحرقة الى شيء قذر أشهب لا استواء فيه ...

وداخل الخيمه ، ألوف من الحبال تتدلى في كل مكان .

كان الهدوء العجيب يسود المكان ، ولعل نشارة الخشب المبللة التي تكسو الارض كلها هي التي تكتم الاصوات ، وكان هناك رجال ونساء يتأرجحون فوقنا في الهواء وقد بدت اجسامهم صغيرة ، حتى خيل الي لأول وهلة أنهم أطفال ...

وكان هناك ثلاث حلبسات يجرى فيها العرض في وقت واحد ، يفصل بينها مسرحان خشبيان ، ورأيت حشدا من الفتيات اللواتي يرتدين بنطلونات قصيرة وطويلة ، وثيابا سوداء تلتصق بأجسامهن ، وقد جلس بعضهن يتحدثن ، وراحت غيرهن يدخن . وقد بدا على كل منهن أنها تنتظر شيئا ما . ورأيت فتاة تنثني الى الخلف . فقلت لأبي :

ـ ماذا يحدث اذا كانوا يتوقعون مني أن افعل مثلها ؟

فقال : لن يفعلوا ... لقد طلبوك من اجل شعرك الطويل ، لا لمواهبك ..

واتجهنا نحو فريق من اللاعبين ، يقف حول حبل طويل مغطى بالخيش يتدلى من سقف الخيمه ، وكانت هناك فتاة صغيرة بارزة الوجنتين ، سوداء العينين ، تتسلق الحبل في سهولة ويسر ، ثم توقفت على ارتفاع عشر اقدام ، ولفت احدى ساقيها حول الحبل ، ثم اخرجت سيجارة من جيبها واشعلتها ... وصاح احدهم :

ـ احذري يا آن ... باربيت قادم .. اخفي السيجارة بسرعة .

واجتذبت آن نفسا آخر ، ثم القت بالسيجارة في اهمال ، عندما ظهر رجل مهيب الطلعة ، يرتدى معطفا طويلا ، وبنطلونا من الحرير وقبعة عالية . كانت ملامحه رقيقة وقدماه صغيرتين بصورة عجيبة ، وقد بدا كأنه ينزلق على الارض اكثر مما يسير .. وامسك الرجل بالحبل الذى

تقف منيه آن وقال ساخرا :

ـ هل انتهيت من التدخين يا آن: حسنا ، سوف نبدأ التدريب الآن

وراح يلقي اليهـا بتعليماته وهي تنفذها بسرعة على الرغم من أنها كانت تزداد قسوة ، وراحت آن تدوروتدور، والحبل يزيد دورانها سرعة حتى لم أعد قادرة على النظر اليهـا • وأخيرا أبطأ باربيت ادارة الحبل حتى أوقفه، وانزلقت آن الى الارض بلا اكتراث

وسألتهـا : لا بد أنك تدربت على ذلك العمل سنوات ؟

فقـالت : بل أسـبوعين فقـط ياحبيبتى ••• وستصعدين على الحبل بعد أيام قليله !

قلت : لن أفعل ••• فقـد جئت فقـط لأقـوم بدور اليس في بـلاد العجائب !

قالت : كلنا نفعل ذلك •• فليس في السيرك من يقوم بعمل واحدفقط

وسمعت فتاة شقراء تقول لها :

ـ لا تخيفيها يا آن في يومها الاول!

وعرفت من الشـقراء أن اسمها ماري لويز •• ثم أضافت :

ـ ولكن آن على صواب فيما تقول: فسيكون عليك أن تتعلمي الكثير اذا أردت البقاء في الاستعراض •

وحاولت الفتاتان مساعدتى على أن أحنى جسـمي الى الامام والخلف ، ولكنني كنت احس بألم عنيف مع كل محاولة ، وطلبت منى آن أن أمارس تدريبا مؤلما على رقص الباليه لكى تمتد عضلات ساقى ، ولم يمض وقت طويل ، حتى كان حولى حشد كبير من فنانى السيرك ، وكل منهم يقترح شيئا المساعدة على اعدادى للعمل ، ولولا أن دق ناقوس الغـداء ، لما استطعت أن أسـير على قدمى مرة أخرى !

وانطلقت نحو والدى وأنا أعرج بساقى • وقلت لهما :

ـ يمكنكما الرحيل الان ، ولكن ارسلا لى محفـه لنقلى فى السـاعة الخامسة !!

وفى الطريق للغداء ، راحت الفتيات يحدثنني عن أنفسهن : قالت مارى لويز التى تبدو كمدرسة جميلة ، انها تأمل أن تصبح بهلوانة طائرة ، تطير فى الهواء من حبل الى آخر ، أما آن فقالت أنها انضمت الى السيرك بطريق المصادفه ، فقد كانت سباحة محترفة ، تعاقدت للظهور فى استعراض مائى ، فوصلت خطأ الى (ماديسون سكوير جاردن) أثناء اجراء بروفات للسيرك ، ودفعهـا مدير المستخدمين وسط طابور من الفتيات ، ومنذ ذلك

الحين ، فلت مع السيرك •

كان مطبخ السيرك ضيقا ، يبدو شبه بعنبر الطعام في السجن ، وكان يحوى ستارا يقسمه من الداخل قسمين ، احدهما مخصص للعمال والآخر للفنانين وموظفي الادارة •• وكان حديث المائدة مرحا واللحم طيب المذاق ،وعدت الى الخيمة وقد امتلأت معدتي واصبحت على استعداد للنوم •• ولكن ماري لويز أسلمتني الى فتاة طويلة ممتلئة الساقين لتدربني على القواعد الاساسية لرقصة الباليه ،وفي الساعة الخامسة سمح لى بالانصراف ، ومع أنني لم أكن قد التقيت بعد بمستر نورث ، الا أنه يبدو أنه كان مفترضا انني حصلت على العمل ، اذ وجدت اسمى بعد ذلك في كشف الاجور !

وعندما عدت الى البيت ، قال لى ابى : يستحسن أن تذهبى الى فراشك ، فامامك الكثير من ايام التدريب • وفي الصباح التالى ، حذرني الطبيب من مبارحة الفراش خلال الايام الخمسة التالية ، بعد أن ارهقت كل عضلة في جسمي ••

طريق طويل من ويسكونسين

قال لى المدير جون موراى اندرسون وهو يحدق في امام حشد من الفنانين:

- انني اعرف كل الاشياء التى لايمكنك عملها •• فلنبحث عن شيء يمكنك عمله •

كنت قد عدت الى السيرك لكى اتفادى تقريع أبى ، ولكنني عندما سمعت هذه الكلمات ، وددت لو امكنني ان اخفي نفسى في نشارة الخشب •• ولم يكن هناك فائدة في ان أذكر المدير بأنني شبيهة « اليس في بلاد العجائب » ، فانه لم يكن في حاجة الى « اليس » ، اذ تغير موضوع الاستعراض القادم من « قصص الاطفال الى « العطلات »

وفجاة اشرقت اسارير مستر اندرسون وقال :

- هل تستطيعين السير • ؟

فقلت في لهفة :

- اجل •• لماذا ؟

- حسنا •• سوف تكونين قارعة الطبلة في الاستعراض •

كانت لاندرسون طريقة بارعة في معالجة المشاكل المستحيلة ،وكانوا قد احضروه من برودواى ، ومنذ وضع قدميه في السيرك أحبه الجميع •• كان لايكاد يتوقف عن الحديث وهو يضع ميكروفونا حول عنقه ، وصوته الاجش ينطلق مصدرا اوامره التى لاتنقطع ••

ولم تكن مهمة سهلة ، فاغلب العاملين فى السيرك وعددهم ١٦٠٠ شخص ، بما فيهم خدم الحيوانات ومدربوها وحراسها، والمكلفون بالعناية بالمهمات ، يجب أن يقوموا باجراء « البروفات » وارتداء ملابس خاصة بالاستعراض ، كما ينبغى أن يتعلموا هم وحوالى ٣٠٠ حيوان مختلف كيف يدخلون الى خيمة العرض ويخرجون منها بمجرد الاشارة •• وكان هناك مترجمون ينقلون التعليمات للاعبين على الحبال من الصينيين ، والفنانين المجريين والايطاليين وغيرهم

ان كثيرين من رجال السيرك القدماء يكرهون الاستعراضات الكبرى التى ينفق عليها بسخاء ، وكانوا يخشون أن يؤدى اسراف نورث الى خراب السيرك ، ولكنه كان مقتنعا بان « أكبر استعراض فى العالم » فى حاجة الى المزيد من المشاهد البارعة ، وقد جلب عددا من مخرجى برودواى أمثال اندرسون وجورج بالانشين ، الذى تعاقدوا معه لاخراج استعراض « باليه الافيال »، فاحضر فريقا من الفتيات الساحرات الجمال بلغ عددهن ٥٠ فتاة ، وقد أدهشنى أنه ضمنى الى هذا الفريق

افيال لن أنساها !

ان الاسطورة التى تقول أن الافيال لا تنسى قط غير صحيحة تماما ، فان لبعض الافيال ذاكرة عجيبة ، فى حين ان أفيالا أخرى لاتكاد تذكر حتى أنها افيال ! ولكن الشىء الوحيد المؤكد ، هو أن كل من يعمل مع الافيال لايستطيع قط أن ينساها •• انه يقع تحت سيطرة سرها طوال حياته !!

وقد جعلنى بالانشين بين فتيات الافيال ، وكان مظهر بالانشين الوسيم وأدبه الجم ساحرا الى حد أنه عندما طلب فتيات لتعلم « باليه الافيال »، تقدمت الفتيات جميعا وكنت واحدة من تسع فتيات اختارهن لهذا الاستعراض ، وكذلك وقع اختياره على آن ولين ، وهى فتاة شقراء ذات عيون زرقاء ، كما أنها شقيقة مارى لويز !

وماكدنا نرى الافيال تقف فى صف واحد وراء الفيل « كرال » حتى أدركنا اننا أخطأنا •• فقد كان هناك ٣٥ فيلا ، تبدو كلها غاضبة وقد وقف أمامها رجل طويل متين العضلات ، ذو عينين لامعتين فيهما قسوة وحزم ••

وهمست آن فى أذنى :

ـ هذا ولتر ماكلين • انه رئيس فريق الانيـــال ، وهو يكره وجود فتيات في الاستعراض •

وقادنا بالانشين وماكلين الى ساحة في الهواء ، وأشار احد حراس الافيال قائلا :

ـ لماذا لاتستخدمين « جيلى » • • ان رأسها ضخم ولا يمكنك السقوط من فوقها

وصاح ماكلين بعد قليل :

ـ اصعدن عندما تخفض الافيال رؤوسها • • وأقبضن على زمامها • • هكذا • وارانا كيف نفعل عندما نمتطي ظهور الافيال •

وقد امضيت عدة أيام أصبت خلالها بكدمات ورضوض كثيرة في ساقي وذراعي حتى استطعت أن ابقى فوق (جينى) • •

كان اول شيء تعلمته ، هو أن قطيع الافيال كان كله من الاناث ، اذ أن الذكور تصبح أكثر صعوبة في التعامل معها في موسم التلقيح ، كما أن الفيلة الاناث تحب بعضها بعضا ، ويتعلق بعضها بالبعض اذا لم يكن هناك ذكور بينها • •

وتعلمت كيف أعرف كل فيل باسمه ، وأعرف مدى الخلاف بين مزاج كل منها ، فهناك أفيال ذكية وأخرى غبية ، وبعضها يحب حراسه حبا عظيما ، في حين أن البعض الآخر لايترك فرصة تمر دون أن يضرب حارسه بخرطومه • وكانت أذكاهن جميعا هي (روث) الزعيمة ، وهي فيلة متوسطة الحجم ، يمكن الاعتماد عليها دائما في تهدئة زميلاتها أو منعها من الفرار •

كان حراس الافيال يعيشون معها ٢٤ ساعه كل يوم ، ويبذلون اخلاصا في رعايتها والعناية بها ، ينامون على بعد مترين منها ، ويشاطرونها الطعام والويسكي • • وكانت بعض الافيال تحب الخمر أكثر من حراسها !

وكان بين حراس الافيال رجل أحببته يسمى « الاستاذ » كان يعمل مدرسا للنحو والادب ثم هجر قاعة التدريس بعد أن زار السيرك زيارة عابرة ، فأحب الفيل لاول نظرة • • وكان لسوء الحظ مدمنا على احتساء النبيذ ، وكثيرا ماكان يقف أمام الفيلة روث ويبكي حياته المحطمة ، او يتلو لها بعض مقطوعات شكسبير • أما « دولى » الذى كان مخصصا لخدمة الفيلة « جينى » فكان مسجونا سابقا • ولكنه كان ذا قلب حنون ، وقد ساعدني كثيرا على معرفة الكثير

عن الافيال .. وقد قال لى : انها ممثلة كبيرة ، وهى ذكية الى حد انها تعرف كل شيء عن جمعية الرفق بالحيوان ..!!

وكانت هناك فيلة أخرى تسمى « نيللى » ربطت الصداقة بينها وبين جينى حتى أنهما كانتا لا تفترقان طوال الوقت .

العربة العذراء !

عندما حان الوقت للرحيل الى نيويورك ، حيث يفتتح موسم السيرك عادة فى ميدان «ماديسون سكوير »، خصصت عربه البولمان رقم ٨٢ للفتيات غير المتزوجات وقد أطلق عليها لذلك اسم « العربة العذراء » وقد ازدحمت الى حد جعلها كعلبة السردين ، ولم يكن فيها مكان لاى شيء .. وكان علينا أنا ولين أن نشترك معا فى فراش سفلى ، بينما كان للفتيات القدامى ـ اللواتى أمضين موسما أو أكثر فى العمل ـ الحق فى الحصول على فراش علوى مستقل .

وجاءت أسرتى لمشاهدتى عند الرحيل ، وقد تأثر أبى تأثرا عظيما عندما شاهد القطار الكبير بالوانه الحمراء والفضية الذى استخدم لنقل ٦٠٠ شخص و ٢٠٠ جواد وحوالى ألف حيوان مفترس ،وكانت عربات القطار التى طليت حديثا تبدو زاهية أشبه بقوافل الفجر ، بينما راحت فرقة السيرك الموسيقية بملابسها الملونة تعزف موسيقى مثيرة ،واشتركت الحيوانات بصياحها وزئيرها فى تحية الرحيل .

وفى خلال الرحلة التى استغرقت ثلاثة أيام الى نيويورك ،كان المفترض أن نعيش على صناديق الغداء التى أعدتها ادارة السيرك ،ولكننا لم نكن نستطيع فى أغلب الاوقات أن نعثر على شيء يخمد جوعنا .. وعندما توقف القطار ذات مرة ، سرت أنا ولين الى جواره ، ونحن نأمل فى العثور على كميه زائدة من الطعام مع احد ، وفجأة تسللت الى خياشيمنا رائحة المكرونه اللذيذة تنبعث من احدى عربات البولمان ، فقالت لين :

ـ أراهن أن هذه هى « ماما كريستيانى » تعد طعام أسرتها .. انها أسرة كبيرة تحتل عربات كاملة، كما أن للمتزوجين منها عربتين آخريين .

وفى تلك اللحظه ، خرج من القطار شاب جميل المنظر ، أسمر اللون ، ذو شعر كستنائى كثيف ، وجسمه رياضى رشيق .. وبعد أن حدق

فينا برهة بعينين هادئتين ، ابتسم قائلا :

ـ هل انتما جائعتان ؟

ولكنني لم أستطع الكلام ، فقالت لين :

ـ اننا نكاد نموت جوعا

فابتسم مرة اخرى .. ثم قال :

ـ انني أدعى باريتو .. هيامعي .

ووجدنا داخل العربة عشرات من اسرة « كريستياني » جالسين حول مائدة ضخمة ، وهم جميعا متشابهون في الملامح ذات الكبرياء التي تبدو أشبه بالوجوه المرسومة على العملات الرومانيه القديمة . وقدمنا« باريتو» الى آمه التي كانت تبدو كالملكة وسط رعاياها ، وهي سيدة تجاوزت الستين وان كان وجهها لا يزال خاليا من التجاعيد ، وفي عينيها لهيب وحيوية تفوق حيوية البشر وكأنها تتحدى الزمن . أما الاب ، فكان رجلا ضئيلا نحيلا ، حاد العينين ، تبدو عليه الحكمة والمرح والذكاء .

وقدمنا بعد ذلك الى بقية الاسرة .. كوزيتا ، واورتانس ، وأوسكار ، ولوتشيو ، وأفيزو ، وأخذت الاسماء تتدفق من فمه كالشعر دون أن نتمكن من متابعتها .

وبينما كنا نتناول الطعام ، الذي دعونا اليه ، تعلمت قاعدة من قواعد الحياة والحب الاساسية في السيرك ، وهي : لاتختلط بأحد في أسرة فنانة ، الا اذا كانت لديك موهبة ما ... فأسر السيرك أكثر تدقيقا بشأن الفتيات اللاتي يصادقن أبناءها من الأسر المالكة !

لقد سألتني كوزيتا ـ الشقيقة الكبرى لباريتو :

ـ هل أنت من البهلوانات الطائرات ؟

قلت :

ـ كلا .. انني أحس بدوار في الجو ..

ـ اذن فأنت من راكبات الخيل؟ أم انك من الراقصات القادمات من نيويورك ؟

ـ كلا .

ـ اذا لم تكوني بهلوانة أو راكبة خيل او راقصة .. فماذا تفعلين ؟

ـ انني أعمل مع فريق الافيال! .

فهزت كوزيتا كتفيها ونظرت الى امها ، وتبادلتا نظرة ذات مغزى ..

وعندما سار باريتو ليوصلنا الى عربتنا ، اعتذر لي قائلا :

ـ انني آسف .. ولكن كوزيتا تعتقد أنك فتاتي الجديدة !

وقد انقذنا باريتو من الموت جوعا

خلال تلك الرحلة ، فكلما وقف القطار ، كان يظهر امام عربتنا ويقدم لنا بعض الطعام ، وكان يصاحبه فى كل مرة مراقب مختلف من أسرة كريستياني ، حتى بدأت اشك فى أن كل من يعمل فى السيرك يرتبط بصلة ما بآل كريستياني ، وأنهم جميعا قد اتحدوا لمنع باريتو من أن يتزوج زواجا غير عملي !

نشارة خشب زرقاء :

لم يكن منظر « ماديسون سكوير جاردن » مثيرا من الخارج ، ولكن المنظر كان رائعا من الداخل ... وبينما كنت أنظر الى صفوف المقاعد واتخيلها وقد امتلأت بالناس : أحسست فجأة اننى أكاد أفقد الوعى من « رعب المسرح » ... فبعد كل هذه الساعات من البروفات والتدريبات المرهقة ، أصبحنا الآن فعلا فى صميم المعركة .

ووقفت أنا ومارى وآن فى الشرفة الثانية نحدق فى هذا العدد الضخم من الحبال والاسلاك التى تملأ الجو فوق المدرج الواسع ، وكان عمال الكهرباء يقومون بتجربة الانوار الكاشفة التى تحول الساحة الى ارض تسبح فى مختلف الالوان ، وكانت هناك حلقات من الخيش الاحمر تحتنا تزين مساحات العرض ، وبساط سميك من نشارة الخشب المصبوغة بلون أزرق زاه تكسو الحلبة كلها ..

وبدأ اللاعبون يتسلقون الحبال المهتزة وهم يركزون كل اهتمامهم فى عملهم الخطير ، وبينما كنت أرقبهم لمحت فى حركاتهم ذلك العنصر الخفى الذى يكسب السيرك سحره الخالد .. كان هناك شيء مهيب فى الرجال والنساء يفوق قدرتهم البدنية ، شيء اكتسبوه من خلال نظام قاس عنيف فرضوه على انفسهم ، وتطرفوا فى تحدى الموت نفسه ..

ليلة الافتتاح

فى خلال الايام الثلاثة من البروفات التى سبقت ليلة الافتتاح ، شكا بعض الفنانين من اصابتهم بالبرد ، وقد زاد الموقف تعقيدا ، عندما أضيف مشهد جديد الى الاستعراض ، هو موكب الافتتاح ، الذى يضاهى الاستعراضات التى كانت تجرى فى الشوارع فى السنوات السابقة ، حيث تسير اقفاص الحيوانات المذهبة ، والعربات التى وقفت فوقها لوحات حية ، والفتيات راكبات فوق الخيول المطهمة ، وفرقة موسيقية تعزف انغام السيرك الشهيرة ، وكان علي باعتبارى من فريق الافيال أن امتطى ظهر

« روث » وأنا أرتدى ثوب الملكة كليوباترا .

وفى خيمة الطاهى أحضروا لنا بيضا ولحم خنزير ، وكعكا ساخنا كان أجمل كعك ذقته فى حياتى ، وأخذنا نرشف أقداح القهوة واحدا بعد الآخر .. لقد أكلنا كمية مضاعفة من كل شىء ، متجاهلين نظرات الجمهور الذى كان يتلصص علينا من تحت اطراف الخيام ، وكأنهم لم يأتوا الا ليرونا ونحن نأكل !

وناداتنى مارى لويز من مدخل الفنانين قائلة :

ـ لقد أقيمت خيمة ارتداء الملابس .. فهيا ..

ثم قادتنى نحو خيمة متوسطة الحجم تحوى أماكن ارتداء الثياب للرجال والنساء ، وقد فصلوا بين الجنسين بقسم لحفظ الملابس يحتل وسط الخيمة .

كانت حقائبنا قد وضعت بعناية تامة ، فى ممرات خاصة ، كل منهما يحوى حقائب أربع أوخمس فتيات ، وكانت حقيبتى موضوعة فى الصف الثالث من الممر الثانى الى جانب حقائب آن ومارى لويز ... وعندما سرت نحو حقائبى ، كدت أتعثر فى دلوين من الماء ، فسألت عن سبب وجودهما ، فقالت آن :

ـ لكى تستحمى فيهما ياعزيزتى .. أحدهما لاستخدام الصابون ، والثانى للماء ، كما تغسلين ثيابك فيهما أيضا ، فلكل فتاة دلوان فقط من الماء ! ..

وتحسست الماء بأصابعى ... ثم صحت :

ـ ان الاستحمام به انتحار .. انه ماء مثلج !

فقالت مارى لويز ببرود :

ـ هذه هى الحياة هنا ياعزيزتى .. أليست جميلة ؟

بعض الاغماء !

ان رجال السيرك يريدون من نسائهم أن يكن نساء ، وهم شديدو التحفظ بالنسبة لذلك ، ولاسيما الايطاليين منهم ، كما اكتشفت بعد أن بدأت أنا وباريتو نتقابل فى مواعيد منتظمة .. والنساء جميعا قابلات لهذا الوضع ، وسواء أكانت الزوجة تقوم بألعاب رهيبة فى جو السيرك ، أم تتشقلب فوق الاسلاك المشدودة ، التى يمكن أن تقسمها نصفين اذا أخطأت فى اللعب فوقها ، فانها لا تكاد تنزل الى الارض ، حتى تصبح أنثى ضعيفة لا حول لها ولا قوة ... ولا رأى غير رأى رجلها !

وما لبث أفراد أسرة كريستيانى أن أخذوا يشملوننى بحمايتهم ، ومع أنهم لم يكونوا فى الواقع يقرون علاقتى بابنهم ، الا أنهم اعتبرونى جديرة بحمايتهم الادبية ، مادام باريتو قد اختارنى !

المتاعب لا تأتى فرادى !

فى ليلة حارة تسودها الرطوبة ، كان كل من يشترك فى « باليه الافيال » يقف تحت مظلة المدخل المؤدى للخيمة الكبرى فى انتظار اشارة الدخول ، وكان الهواء كثيفا ساخنا ، ينذر بعاصفة على وشك الهبوب ، وقد أخذت الافيال تهز آذانها ، وتدق الارض بخراطيمها فى قلق ..

وبينما كنت مستندة الى ساق « جينى » ، اذ هبت لفحة عنيفة مفاجئة من الريح ، وفى اللحظة التالية أحسست بدفعة حادة على ظهرى ، فسقطت على وجهى .... ثم سمعت دويا شديدا خيل الى أنه صوت الرعد ، وفجأة رأيت سيقان الافيال الضخمة وهى تسير على مسافة سنتيمترات قليلة من رأسى ..

لقد كانت الافيال قد أجفلت ، فانطلقت لا تلوى على شىء .. ولولا سرعة بديهة تونى حارس احداها ، لفقدت حياتى فى تلك الليلة ، اذ دفعنى بيده بشدة ليزيحنى عن طريق اندفاعها .

وعندما استرددت وعيى ، وجدتنى فى عربة آل كريستيانى ، وقد انحنى باريتو فوق رأسى يقول :

ـ هل أنت بخير ؟

ـ أجل ... اننى على ما يرام

وسمعت صوت مطر ينهمر ، ورياح تهز الخيمة الكبرى ، فسألته :

ـ ماذا حدث ؟

ـ لقد هب اعصار عنيف ، فأجفلت الافيال ، ولكن الحراس استطاعوا وقفها ...

واستمر الاستعراض على الرغم من كل شىء ، دون أن تقع كوارث أخرى ، ولكن جوا من التوتر كان يسود خيمة ارتداء الثياب ، وغمغم الحارس العجوز يقول :

ـ ان الاحداث تقع دائما ثلاثا ..

وفى الليلة التالية ، بينما كنا نستعد لموكب الافتتاح ، أصيبت احدى الفتيات باغماء ، وما كاد الموكب ينتهى ، حتى راحت بقية الفتيات يتساقطن على الارض ، ثم بدأ الرجال يتهاوون هم أيضا ...

وهرع طبيب السيرك ... ليقول بعد قليل : تسمم من الطعام

وفى خلال ساعة ، كانت عربات الاسعاف قد حملت ٦٠٠ من رجال ونساء السيرك !

ولم أكن أنا ولين قد تناولنا شيئا فى خيمة الطاهى يومئذ ، ولهذا أسندوا الى كل منا دورين او ثلاثة أدوار فى برامج الليلة ... رسار الاستعراض بطريقة ما حتى نهايته..

وبعد أن انتهى هرعنا الى المستشفى لنرى مارى لويز وآن فى حالة يرثى لها ... وقيل لنا ان بقية الفتيات لن يبارحن المستشفى قبل يوم أو يومين .

ولكن فنانى السيرك يفضلون الموت على أن يتغيبوا عن الاستعراض ... ومن ثم فقد عاد الجميع الى الحفلة النهارية التى أقيمت فى اليوم التالى ، ما عدا بعض الحالات البالغة الخطورة

ولكن التوتر كان قد ازداد فى غرفة ارتداء الملابس الى حد كبير ..

كانوا جميعا يقولون : عاصفة ، ثم تسمم ... فماذا بعد ذلك ؟

وفى منتصف الليل ، دوت فى السيرك صرخة عالية ، مزقت السكون السائد ، وهرع الرجال من خيامهم ... وبعد دقائق ، كانت الساحة الخلفية قد امتلأت برجال البوليس .

وتبين أن أحد العمال قد طعن زميلا له بسكين ، لخلافهما على لعبة النرد ، فمات الضحية وهرب القاتل تحت جنح الظلام ، ولكن رجال البوليس استطاعوا الامساك به بعد أن قفز فى مياه النهر المجاور للسيرك .

وخيل الى وأنا أحدق فى الماء ، أنه تحول الى بحر من الدماء ... ولكن لم يكن هناك وقت للذعر ، فاننا سنرحل خلال الليل لنكون فى مدينة أخرى فى الصباح ..

لقد وقعت الاحداث الثلاثة . وتلاشى التوتر من الجو ... وكأن شيئا لم يقع !

***

بعد جولة استمرت أسبوعين فى فيلادلفيا ، بدأنا سلسلة من الاستعراضات فى كثير من المدن ، وكنا لا نمكث فى كل بلدة أكثر من ليلة واحدة ، ونواصل السفر ليلا لنقطع مسافات طويلة تصل فى بعض الاحيان الى ٣٠٠ كيلو متر

كان كل ما نفعله ممتعا ، وكنت أتلهف فى كل ليلة الى مجىء الليلة التالية .. لقد أصبحت أحب كل شىء فى السيرك .. حتى الاستحمام بالماء المثلج فى الدلاء !

ولكن « البروفسور » أخرجنى من هذا الهيام ودفعنى الى التفكير فى

المستقبل ..

لقد قال لى يوما :

ـ أخرجي من هنا يا فتاتى قبل أن تفوت الفرصة .. انها مغامرة كبرى الآن ، ولكنك لن تستطيعى الحياة فى شرنقة الى الابد .. ان السيرك شرنقة من الخيش !

النــــار .. !

وفى شهر أغسطس ، توقفنا أربعة أيام فى مدينة (كليفلاند) ممـا أتاح لنا فرصة النزول فى أحد الفنادق . وفى صباح اليوم التـــالى ، أحسست باضطراب فى معــــدتى ، فذهبت الى السيرك لاعرض نفسى على الطبيب .. وهناك رأيت كارثة مازلت أرتعد كلما تذكرتها ..

كان الوقت مبـــكرا ، وقد أقيمت الخيام فى اليوم السابق ، وقل النشاط فى الداخل .. وفجـــأة دوت صرخة حادة تقول : النار !

ونظرت أمامى ، فرأيت ألسنة اللهيب البراقة تنبعث من أحد جوانب خيمة الحيــوانات ، وفى اللحظة التاليــة ، كانت الخيمة كلها قد أصبحت قطعة من جهنم ، والرجال يهرعون من كل مكان يحاولون انقاذ مايستطيعون من الحيوانات .

وفى أقل من خمس دقائق ، كانت الخيمة قد احترقت عن آخرها ، وكانت سيارات المطـــافىء تحاول أن تطفىء النيران المشتعلة فى القش .. ووصل رجال البوليس من كليفلاند ، وامتلأ المكان بأفراد الجمهور ، ثم جاء الدكتور هندرسون طبيب السيرك البيطرى وقد بدا الاسى على وجهه ..

كان هناك ٦٥ حيوانا قد احترقت حية أو أصيبت بحروق خطيرة بحيث يجب اعدامها . وهلكت أغلب السباع والنمور ، كما احترق ١٢ قردا وجملان .. حتى الافيــال أصيبت بحروق فى جلودها وسـيقانها ، وأصيب البعض فى خراطيمه أو آذانه .. ومع ذلك لم يرتفع من بينها صوت بالشكوى .. وكان بين الافيال المصـــابة ، جينى وزميلتها نيللى .

وعلى الرغم من الحـريق المروع ، فقد تقرر اقامة اسـتعراض فى المساء .. وعندما بدأ العرض ، لم يكن هناك مقعد واحد خال فى السيرك ، وما كاد الجمهور يرانا ندخـــل الحلبة ، حتى هب جميعه وأخذ يهتف لنا بحماسة .

نهاية الموسم

قالت لى الفتيــــات فى « العربة العذراء » :

ـ اذا لم يطلب باريتو يدك قبل أن نرحل عن شيكاغو .. فسوف يكتفى

بقوله لك :

« اننى أحبك ياحبيبتى •• ولكن الموسم قد انتهى »

فقلت متسائلة : ولكن لماذا شيكاغو ؟

فقالت ماري لويز :

ـ لاننا بعد شيكاغو ستكون فى الطريق الى بيوتنا ، نفكر فى الموسم القادم ••

وعلى أية حال ، فان أمامنا أسبوعين كاملين يمكن أن يحدث خلالهما الكثير •

ولكن مضى الاسبوعان ولم يحدث شيء ••

لقد خرجت كثيرا مع باريتو ، وذهبنا الى كثير من المطاعم والاندية والاماكن ذات الجو الشاعرى بعد انتهاء استعراضات المساء •• ولكن لم يدر بيننا أى حديث غرامى ، فقد كانت شقيقات باريتو غير المتزوجات يصحبننا في كل مكان ••

وعندما دعانى باريتو الى اجتماع للاسرة فى آخر ليلة أقمناها في شيكاغو كنت أشعر أن أمه تخشى أن يتزوج ابنها فتاة تعيش عالة على غيرها ••

وكانت كلما رفعت عينيها الى السماء ، أحس كأنها تدعو الله أن تقع معجزة تعيد ابنها الى عقله ••

وقد استجيبت دعواتها أخيرا ••

فقد اتفقت أنا وباريتو على أن نطرح جانبا كل تفكير فى الزواج ، بعد أن أدرك كلانا أن مثل هذا الزواج لن يقدر له النجاح •• فاننى لست على استعداد لان أكون مثل نساء آل كريستيانى ، وهو نفسه كان يريد شيئا آخر فى فتاته •

وجاءت أسرتى لتشهد الاستعراض الاخير للموسم الذى أقيم فى بلدة (تامبا) بولاية فلوريدا يوم ٣٠ نوفمبر وكنت قد انتهيت الى قرار حاسم ••

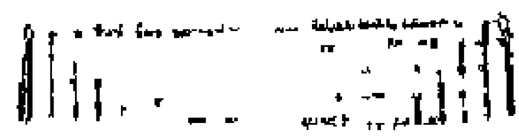
لقد كان البروفسور على حق ••

وباريتو ايضا مصيبا •• فاننى لن أستطيع البقاء فى السيرك طوال حياتى

وعندما بارحت خيمة ارتداء الملابس للمرة الاخيرة ، ذهبت لأودع روث وجينى ••

وتساقطت بعض العبرات من عينى وأنا أسير نحو سيارة أسرتى ••

لقد انتهى الموسم !



كان صديقي الفنان وزوجته حريصين على ان يبعدا ابنتهما الصغيرة عن الاستوديو الذى يعمل فيه ، اذ كان هناك نموذج لفتاة تقف أمامه عارية .. ومنذ وقت قريب اندفعت الطفلة فجأة الى الاستوديو حيث كانت فيه كالنموذج عارية تماما ..

وامسك صديقي وزوجته انفاسهما فى انتظار رد الفعل لدى الطفلة ، واخيرا التفتت الصغيرة الى امها وقالت فى استنكار :

ـ أماه .. كيف تسمحان لهذه الفتاة بالسير عارية القدمين ولا تسمحان لى بذلك.

كتاب الشهر

العدو في الداخل

عن كتاب The Enemy Within

بقلم روبرت كنيدى

هل يسيطر الاوغاد حقا على الحركة العمالية فى امريكا ؟ هل اصبحت هذه الحركة تحت رحمة هؤلاء الاشرار الذين وضعوا انفسهم فوق القانون فى غطرسة واستعلاء ؟

ان الرد على هذا السؤال تجده فى هذا الكتاب الذى يتضمن حقائق مذهلة ، عن قصة الفساد الحقيقى فى نقابات العمال ، كما ازيح عنها الستار فى الشهادات التى القيت امام احدى اللجان الخاصة التى الفها الكونجرس الامريكى برياسة السناتور جون ماكليلان ... وقد اعاد روايتها فى بلاغة واستنكار ، روبرت كنيدى كبير مستشارى اللجنة .

وقد نشرت من قبل مقالات عديدة تفضح الاجرام فى نقابات العمال الامريكية ، ولكن هذا التقرير المروع يحوى معلومات جديدة ، ويكشف الحقيقة عن التواطؤ الشائن بين دوائر الاعمال والمسئولين من العمال ، وما يدور خلف الكواليس من أسرار عجيبة ، مما يجعله كاروع القصص البولسية المثيرة

العدو فى الداخل

كان من يـــرانا ـ أنا وكارمين بلليتو ـ ونحن نهرع من بنك « بوليفارد » الاهلى، الى السيارة التى تنتظرنا وسط العاصفة الثلجية التى اجتاحت شـيكاغو يوم ٢٠ ديسمبر ١٩٥٦ ، يعتقد أننا نحمل فى أيدينـا هدايا عيدالميلاد ، ولكننا لم نكن كذلك بل كنا أعضـاء فى لجنة تحقيق تابعة للكونجـرس الامريـكى ، وكانت اللفافات التى نحملها هى السجلات الخاصة بأحد مستشارى العـلاقات العمالية ... وبعد ساعة واحدة من مطالعتنا لهـذه السجلات فى غرفتنا بالفندق الذى نقيم فيه ، انتهينا الى النتيجة المذهلة التى لم يكن منها مفر ... وهى ان ديف بيك رئيس أكبر النقابات العمالية وأقواها فى أمريكا ... كان لصا !

لقد ثبتت التهمة بعد ذلك على ديف بيك وحكم عليه ، ولكن بيك كان فى ديسمبر ١٩٥٦ شخصية وطنيـــة محترمة يشغل مركزا كبيرا كرئيس للاتحـــاد الاخوى الدولى لسـائقى سيارات النقل وعمـال المخـازن فى أمريكا ، الذى يضم مليونا و ٦٠٠ ألف عضو ، والتقطت له بعض الصور مع الرئيس أيزنهاور ، كما كان أمينا لاحدى الجامعات ، وقوة ذات سلطان كبير فى اقتصاد الولايات المتحدة ... وعلى الرغم من ذلك ، فان الوثائق التى كانت بـين أيدينـــا تحمـــل الدليل على ان بيك قد اساء استغلال مئات الالوف من الدولارات من أموال الاتحاد ... كما كان فيها أيضـــا الدليل الذى أدى الى تأليف « لجنـة ماكليلان » التابعة لمجلس الشـــيوخ الامريكى ، وما قامت به من تحقيق شـــامل فى الفساد الذى انتشر فى دوائر العمل والعمال ...

وقد بدأت قصة حصولنا على هذه السجلات فى يناير ١٩٥٥ ، عنـدما أصبح السناتور ماكليلان رئيســـا للجنـــة التحقيقات الدائمة بمجلس الشيوخ وانتخبت أنا عضوا فيها ... وفى خلال البحث الذى قمنا به حول الفساد فى عطاءات الملابس العسكرية ، تبين لنا ان عصابات الســــاحل الشرقى لامريكا كانت مشتركة فى صناعة هذه الملابس ونقلها بالسيارات، كما ذكر لنا صحفيو واشنطون ان

الاشرار قد تسللوا أيضا الى نقـابة سائقى السيارات النقل فى الولايات الوسطى من غرب أمريكا ، بل وفى كل مكان آخر ..

وبعد التشاور مع ماكليلان ، قررت أن أقوم بدراسة الحالة العمالية فى انحاء البلاد ، وبعثنا بعض المحققين الى المدن فى الشرق ووسط الغرب ... وفى الاسبوع الثانى من نوفمبر ١٩٥٦ ، انطلقت أنا وكارمين بللينو كبير محاسبى اللجنة الى شـاطىء الباسفيك وأدت سلسلة المقـابلات التى قمنا بها هنـاك الى عودتنا الى شيكاغو ومقابلتنا لناثان شيفرمان ، وهو مستشار فى العلاقات العمالية ، وصديق لديف بيك ، وكان شيفرمان هو مفتـاح امبراطورية السرقة التى يديرها « بيك » ، فقد ذكر لى أحد الاشخاص ان شـيفرمان قام بشراء أشياء كثيرة لحساب بيك عن طريق المؤسسات التى يمثلهـا . فدفع له ثمنها من أموال الاتحاد ، كما ذكر لى نفس الشخص ان مقـاولا يدعى جون ليندساى فى ستيل ، قام بأعمال انشـائية كثيرة فى مزرعة بيك فى ستيل ونال ثمنها من أموال اتحـاد النقابات .

والتقيت أنا وبللينو بشـيفرمان لاول مرة فى شيكاغو يوم ٢٨ ديسمبر ١٩٥٦ ، فاعترف الرجل على الفور بأنه اشترى أشياء لحساب ديف بيك ، ولكنه لا يذكر عددها ولا أنواعها ، ولاالمبالغ التى دفعت ثمنا لها ، وطلبت الاطلاع على دفاتره ، فقال انها مع ابنه رانه غير موجود فى المدينة ، ولكننا اذا عدنا بعد يومين ، فانه سيزودنا بمعلومات عن العمليات التى قام بها لحساب بيك واتصلنا فى نفس اليوم بجون ليندساى المقاول بالتليفون فى ستيل ، وسألناه عما اذا كان قـد قام بأعمال فى مزرعة بيك ، فاعترف بأنه فعل وانه نال أجره عنها من نقود النقابات ، وقد كان هـذا الدليل - بعد دفاتر شيفرمان - أهم ماعثرنا عليه خلال رحلتنا .

وفى اليوم المتفق عليه ، يوم هبت العاصـفة الجليدية فى ٢٠ ديسمبر ١٩٥٦ ، حصلنا على دفاتر شـيفرمان التى كانت وثيقة سقوط ديف بيك .

اجتمعت برئيس الاتحاد

وعندنا الى واشنطون بعد عيـد الميلاد بيومين ، حيث عرضنا الادلة التى اكتشفناها على السـناتور ماكليلان فأبدى اهتمامه التام بها ، ولكننا لاحظنا ان التحقيق الكامل فى هذا المجال يتطلب تشكيل لجنـة

جديدة ذات سلطات واسعة ... وقد تم هذا فيما بعد ، بتكوين « لجنة ماكليلان » .

وكانت الخطوة الضرورية التالية ، هى مقابلة ديف بيك ، وقد قال محاميه ألبرت وول أنه ليس هناك مايدعو لالزامه بالحضور اذ أن بيك سيكون تحت تصرفنا فى الوقت المناسب وكان بيك قد عرف ولا شك ، أننا استولينا على ملفاته ولعله عرف أيضا أننا اتصلنا بشيفرمان وليندساى ، وعلى أية حال فقد عرفت فى ٤ يناير انه على وشك الرحيل عن البلاد ، وعرفنا من شركة الطيران فى ستيل انه من المتوقع ان يصل الى نيويورك يوم ٥ يناير ، فأدركت انه اذا بارح البلاد فسوف يرفض العودة نظرا للادلة التى حصلنا عليها ضده ، ومن ثم فقد اتصلت تليفونيا بمحاميه، وأبلغته أننا سنكلف أحد المحققين باستدعاء بيك اجباريا عندما يهبط من الطائرة فى نيويورك ، الا اذا استطاع أن يؤكد لى انه سيحضره لمقابلتى طائعا .

وبدا أن وول قد صعق حقا عندما سمع نبأ الرحلة ، اذ اتصل بنا بعد فترة وجيزة واقترح أن نقابل بيك فى نيويورك فى الليلة التالية .



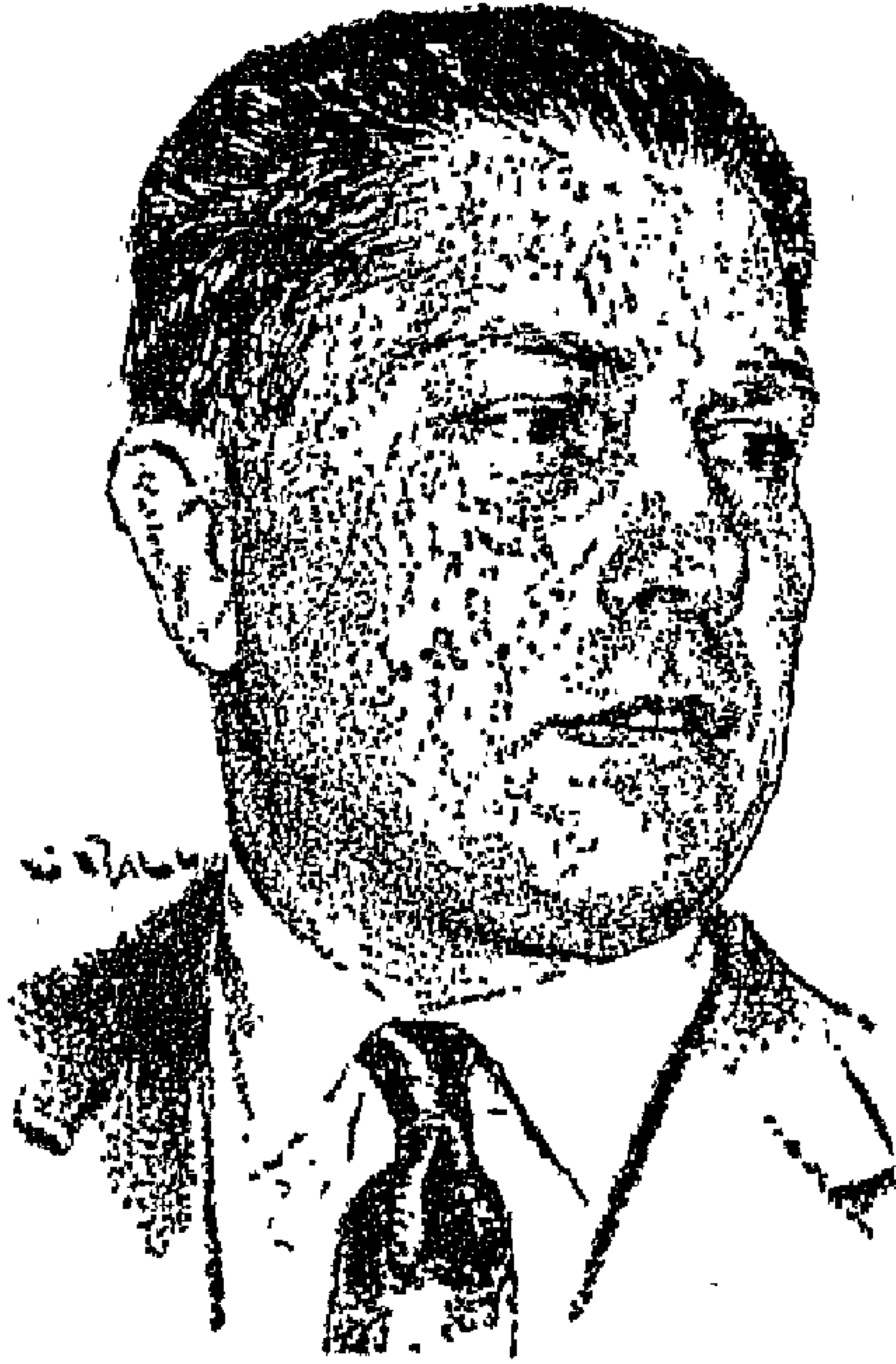
روبرت كنيدى

وفى جناح بيك بفندق والدورف استوريا ، قدمنى له وول فى اليوم التالى ، وكان معه محام ثان ، هو مستشار بيك المالى وقد أثرت فى عينا بيك اللتان كادتا تختفيان وسط وجهه البيضاوى الضخم ، فقد كانتا أشبه بنقطتين صغيرتين من الضوء تتحركان غدوا ورواحا دون انقطاع ... ظللنا مدة ساعة نناقش موضوع « البلطجة » فى الحركة العمالية وكان بيك يتحدث عنها بقوة منددا بها قائلا انه يتلهف لتطهير نقاباته من اللصوص ... وبينما كان مستمرا فى خطابه الحماسى ، كان وجهه يزداد

احتناقا ، وصوته يزداد علوا حتى بدأ أشبه بالصراخ . وكان يعتقد انه بصراخه هذا سيجعلنا نؤمن بصواب موقفه !

وسألته عن ناثان شيفرمان ، فرفض الاجابة قائلا أنه لن يرد على مثل هذه الاسئلة، ثم قال أنه ليس لديه ما يخيفه ، ولكن نظرا لان المحامى المختص بشئون ضرائبه غير موجود معنا ، فانه لن يبحث مسائل شخصية .

وعدت أسأله عما اذا كان قد دفع شيئا من أموال النقابات مقابل أى شيء أجرى فى منزله ، فعاد صوته يرتفع مرة أخرى قائلا ان هذه مسائل شخصية، فقلت له انه مادام انه ليس هناك شيء يخفيه ، فليس هناك ما يدعو للامتناع عن الرد على سؤال ، ولاسيما ان اثنين من محاميه موجودان معنا ، ثم قدمت له خطابا موقعا عليه من السناتور ماكليلان، يدعوه لحضور التحقيق الذى تقوم به لجنتنا والاجابة على الاتهامات التى سنوجهها اليه .. فأخذ الخطاب من يدى ، وسار نحو أحد أركان الغرفة حيث قرأه على ضوء مصباح موضوع على المائدة .. ثم رفع رأسه وقال :


جيمس هوفا

ــ سوف تعرفون ردى ..

وقد عرف هو الآخر ردنا .. وأصدرنا أمرا بالاستيلاء على سجلات اتحاد نقابات سائقى سيارات النقل ، فتبين أن الكثير منها قد اختفى ، كما كان علينا أن نبذل جهدا شاقا فى تجميع مستندات عمليات الاحتيال المالية التى قام بها بيك من سجلات منفصلة ، وأخيرا تمكنا بفضل عبقرية كارمين بللينو الحسابية من اثبات ان ديف بيك حصل من المؤتمر الغربى لنقابات السائقين على حوالى ٣٧٠ الف دولار ، كما تبين انه أعطى لشيفرمان ٨٥٠٠ دولار من أموال النقابة لدفع ثمن مشتريات خاصة له ، كما دفع

للمقاول ليندساى حوالى ١٥٠ ألف دولار من أموال النقابات ثمنا لبنـــاء حمام للسباحة ومنزل لابنـــه وبعض التحسينات فى منزله ، وأعمــــال اصــــلاحية أخـرى فى المزرعة التى يمتلكها ٠

وفى عـام ١٩٥٣ عنــــدما بدأ المسئولون عن ضريبــة الدخل بحث حالته المالية ، حاول بيك ان يعيـــد ما أخذه ، ولكنه فى ذعره ارتكب اخطاء أكثر ، اذ اقترض ٢٠٠ ألف دولار من شركتين كبيرتين للنقل بالسيارات ولكى يسدد قرضه ، اشترى بصفته رئيسا لاتحاد نقابات السائقين منزل المواطن « ديف بيك » فى ستيل مقابل ١٦٣ ألف دولار ، ثم قرر الاتحـــاد اعطاءه حق استخدام المنزل بلا مقابل ! ٠٠ أى انه اشترى منزل نفسه للاتحاد ثم أهداه لنفسه ثانية !

وعندما مثل بيك أمام لجنتنا فى مارس ١٩٥٧ ، وقبل ان يبــــدأ شـــــهادته ، اعترف أننى أحسست بالاشفاق عليه ، وقد يكون من العسير تفسير ذلك ، ولكننى كنت أرى أمام عينى شخصية عامة كبيرة على وشــك ان يقضى عليها تمـــاما أمام أعيننا ، وستصبح موضعا للاحتقار والسخرية بفضل الدليل الساحق الذى كشفنا عنه ٠

ولكن لم تكد تنقضى ثلاث دقائق على بدء الجلسة ، حتى زايلنى هـذا الاحساس ، فقد أخذ ديف يرد على كل سؤال بردود منمقة مسهبة ليطيل أمد الشـــهادة ، وأخيرا لاذ بالتعديل الخامس فى الدستور الامريكى ، وهو ينص على انه لا يمكن اجبار أى شخص على ان يشهد ضد نفسه ٠٠٠ وكانت الاســئلة الفلســـفية الطويلة التى يوجهها بعض اعضاء اللجنة ، تكفــل له ردودا أطـــول واكثر عمقا ٠٠٠ وعندما انتهت جلسة الصباح ، لم نكن قد وصلنا الى أية حقيقة من الحقائق الهامة ٠٠٠ وتكرر الامر فى جلســـة بعد الظهر ، وبدا ان بيك سيخرج من اللجنة فى أحسن حال ، وكادت الجلسة تنتهى عندما طلب رئيسها ان تتاح لى الفرصة باعتبارى مستشـــارا للجنة ، لتوجيه بعض الاســـــئلة للشاهد ٠

وفى خلال نصف الساعة التالى ، وجهت الى بيـــك أســئلة مفصلة عن حوادث الاحتيال واساءة الاســتغلال والتصرف فى أموال الاتحاد ، ولكنـــه رفض ان يرد على أى سؤال ٠٠٠ وفى الوقت الذى ازدادت فيه الادلة ضده ٠٠٠ بدأت صورة ديف بيك الحقيقية

تبرز أمامنا .

وفى جلستنا الختامية فى مارس ، كان بيك قد ظهر على حقيقته تماما ، انسانا قاسيا متغطرسا ، شرها فى جمع المال ، وقد اعترف شيفرمان بصفة خاصة بأنه تسلم ٨٥ ألف دولار من أموال نقابات السائقين لشراء أشياء لاسرة ديف بيك ، وبين هذه الاشياء ملابس داخلية من محلات سولكا بنيويورك ، ورآديو وأدوات للجولف ، وأغطية وتذاكر لمباريات الكرة ، و٢١ زوجا من الجوارب النايلون ، وملابس للاطفال ومحركات للزوارق البخارية ومقاعد وقمصان ، وسجاجيد واطباق ، وثلاجات وبندقية ، وبعض الاثاث .. الخ ...

كما تآمر بيك وشيفرمان المفوز بربح كبير من صفقة الارض التى اشتراها بيك ليقيم عليها مقرا للاتحاد فى واشنطون ، وشهد شيفرمان أيضا بأنه فى خلال بضعة أعوام قدم لديف بيك ٢٤ ألف دولار اعترافا بجميله عليه .. وعندما سئل بيك عما اذا كان قد أخذ ٣٢٠ ألف دولار من أموال النقابات ، رفض ان يجيب متذرعا بالتعديل الخامس للدستور .

وعلى الرغم من ان مركزه قد تزعزع ، وبدأت العناصر المحترمة فى أوساط العمال تنبذه ، فقد ظل بيك مسيطرا على اتحاد نقابات السائقين وترددت صيحات بين العمال تقول : « انتظروا حتى تتاح له فرصة عادلة للدفاع عن نفسه » أو « ماالمانع من الالتجاء الى التعديل الخامس ... انه جزء من الدستور » .

ولكن عندما أثبتنا بعد فترة قصيرة ان بيك كان يأخذ نقودا من أرملة أفضل أصدقائه عن طريق الغش والاحتيال فى الاموال التى تبرع لها بها اعضاء الاتحاد ، لم يستطع حتى كبار اعضاء النقابة ان يهضموا هذه الجريمة .

وعندما ظهر بيك أمام اللجنة للمرة الاخيرة فى ١٦ مايو ١٩٥٧ ، كان قد انتهى فعلا وكان كل ما يلزم لاسقاطه مجرد دفعة صغيرة ... وكان الرجل الذى يستطيع القيام بهذا العمل موجودا ... واسمه جيمى هوفا !

الرشوة !

قدمنى الى جيمى هوفا أول مرة رجل يدعى ادى شيفتز يعمل محاميا لديف بيك ، وقد حاول شيفتز دون كلل ان يقنعنى بأن هوفا قد اصبح رجلا صالحا بعد فترة من الشباب الطائش ، وانه يمكن أن يكون قوة كبرى تعمل للخير فى نقابات السائقين ،

وألح على ان اقابله لارى كيف يبدو حقا • وفى أوائل فبراير ١٩٥٧ وافقت على تناول العشاء مع هوفا بمنزل شيفتز فى واشنطون يوم ١٩ فبراير وقبل ان يحل هذا الموعد ، فوجئت بزائر مثير ! ••• فبعد ظهر يوم ١٣ فبراير ، جاء الى مكتبى رجل يبلغ الاربعين من عمره ، وتقدم بطاقته لسكرتيرى وقد كتب فيها « جون شيستى محام بنيويورك » •

وقال لى شيستى ان هوفا أعطاه الف دولار لكى يسعى للحصول على عمل كمحقق فى لجنتنا حتى يكون جاسوسا يزوده بالمعلومات السرية من واقع ملفاتنا ••• وبناء على توصية وزارة العدل ، قررنا ان يستمر شيستى فى اتباع الخطة التى رسمها له جيمى هوفا •••

لم يكن ما فعله هوفا حتى الآن خرقا للقانون يمكن اثباته ، اذ لم يكن لدينا غير شهادة شيستى ضده ، وكنا فى حاجة الى أدلة قوية ، وقد وافق شيستى على ان يتعاون معنا •

وفى ١٤ فبراير — بعد ان أقسم اليمين للعمل كمستشار مساعد للجنة ماكليلان — اتصل شيستى بهوفا وأبلغه انه حصل على المنصب المطلوب ومنذ تلك اللحظة وضع تحت اشراف مكتب المباحث الجنائية لتوجيه حركاته والاتصال المستمر به •

كان هوفا يريد معلومات ••• ومن ثم فقد أعطينا شيستى بعض معلومات مختارة بعناية لكى ينقلها الى هوفا ، وقدم له هوفا ألفى دولار أخرى ، فسلمها شيستى الى رجال المباحث الجنائية •

والواقع اننى كنت أشعر برغبة فى الغاء موعد العشاء مع هوفا عندما برز هذا التطور ، ولكننى أحسست اننى اذا فعلت ذلك ، فقد أثير شكوك هوفا فى شيستى ومن ثم قررت الذهاب •

وفى اليوم المحدد للعشاء ، زودت شيستى بأسماء أربعة رجال قررنا استدعاءهم للشهادة ، وعندئذ اتصل شيستى بهوفا تليفونيا واتفق معه على مقابلته بعد ظهر ذلك اليوم ، ووضع رجال المباحث الجنائية الرجلين تحت رقابة شديدة وكانوا يستخدمون آلات تصوير سريعة الحركة •• وعندما التقى الاثنان فى ركن أحد الشوارع سلم شيستى هوفا الاسماء التى أعطيتها له ، وعندئذ اقبل شيفتز بسيارته واخذ معه هوفا وانطلقا معا لمقابلتى •• واتصل شيستى على الفور بادارة المباحث الجنائية ، ثم

أبلغني تليفونيا انه سلم المعلومات لهوفا •

واستقبلني شيفتز وهوفا عند الباب ، وصافحني الاخير بيد قوية، ثم جلسنا نحن الثلاثة لتناول العشاء، وكان هوفا يبدو أمامي انسانا ودودا مؤدبا معقولا ، ولكن على الرغم من مظاهر الصداقة التي أبداها ، فقد ظل يكرر في محادثته عبارة : « انني أفعل للآخرين مثلما يفعلونه لي ••• بل واسوأ »

وتحدثنا عن أصحاب الاعمال الذين التقى بهم خلال حياته ، فقال انه كان يدمرهم اذا وقفوا في طريقه ، ثم عرجنا على موضوع متاعبه مع السلطات التي تنفذ القانون ، فقال انهم فشلوا في أغلب الاحيان في تقديمه للمحاكمة ••• وعندما تحدثنا عن عمل اللجنة في المستقبل ، أشار هوفا وشيفتز الى انهما يعرفان اسم احد موظفي اتحاد النقابات الذين قررنا استدعاءهم للشهادة ، وكان بين الاسماء التي قدمتها لشيستى ظهر ذلك اليوم •

وعندما غادرت منزل شيفتز بعد العشاء ، قال هوفا مازحا :

ـ قل لزوجتك انني لست رديئا الى الحد الذي يعتقده الجميع عني •

وضحكت ••• وان كنت قد ادركت على ضوء ما عرفته فعلا ، انه اسوأ مما ذكره عنه الجميع !

وفي خلال العامين ونصف العام التالية ، لم يحدث ما يغير رأيي هذا

العدالة تفشل !

في ساعة متأخرة من مساء يوم ١٣ مارس اتصلت بي ادارة المباحث الجنائية لابلاغي ان هوفا قد اعتقل وهو يحمل وثائق خاصة باللجنة ، كنت قد أودعتها عند شيستى •

كنت مقتنعا بأن ادارة المباحث الجنائية قد أعدت قضية محكمة تماما ، فقد كانت هناك صور متحركة لهوفا وهو يتسلم الوثائق ويدفع ثمنها لشيستى ، واعتقدت أن جيمي هوفا قد انتهى فعلا ••• وبعد أيام قلائل، جاء الى مكتبي بعض مندوبي الصحف وسألني أحدهم :

ـ ماذا تفعل اذا حكم ببراءة هوفا؟

فقلت مبتسما : سوف ألقي بنفسي من فوق مبنى الكونجرس •

وعندما حكم ببراءة هوفا فيما بعد، قال محاميه انه على استعداد لان يرسل لي « باراشوت » !!

لقد كان استعداد الحكومة في هذه القضية سيئا ، فان محامي الحكومة لم يتوقعوا قط ان يشهد هوفا في

المحكمة ، وعندما وقف على المنصة وأقسم انه دفع نقودا لشبيستي ليكون محاميا له لا جاسوسا على اللجنة ، لم يكن لديهم أي استعداد لاستجوابه بطريقة مناسبة ، ولم يكن ممثلو الادعاء قد استطاعوا استيعاب أكداس المعلومات التي جمعتها في فترة قصيرة ، وكانت النتيجة انه بينما كان هوفا يؤدي شهادته بقوة وعزم ، لم يستطع الادعاء استجوابه أكثر من ٢٠ دقيقة .

وكنت في احدى غرف الكونجرس أستجوب احد الشهود امام لجنتنا عندما أحسست بحركة في انحاء الغرفة ، ثم قدم لي بعضهم ورقة كتب فيها « حكم ببراءة هوفا » .. وقرأت الورقة وأنا لا اصدق عيني ، ومع ذلك فلم تكن هذه اول مرة يبرأ فيها هوفا ، ولن تكون الاخيرة .

لقد شاهد هوفا كثيرا من اللجان البرلمانيه قبل لجنتنا مرة في عام ٩٥٣ ، وأخرى في عام ٩٥٤ وكانت تسعى للكشف عن حوادث الفساد الضخمة التي تمس هوفا وكبار أعوانه في نقابات السائقين ، وفي كلتا المرتين استخدم الضغط لوقف التحقيق ... فقد أصبح النائب « وينت سميث » عن ولايه كنساس رئيسا للجنة في عام ١٩٥٣ ، وعلى الفور استخدم هوفا حاكم كنساس السابق بأين راتز محاميا له .. وبعد وقت قصير ، توقفت اجتماعات اللجنة ، وترددت الانباء عن استخدام الضغط السياسي لوأد التحقيق .

وصعق الصحفيون .. وتساءلوا : هل امتد نفوذ هوفا حتى وصل الى الكرنجرس حقا؟ وسألوا وينت سميث رئيس اللجنه عن سبب توقفها ، فكان رده : ان الضغط يأتي من اعلى

كان هوفا يتعامل مع اللجان والقضاة كما يتعامل مع كل شيء وكل انسان آخر ... لقد كان يؤمن بأن المال والنفوذ والضغط السياسي — أو خليطا من الثلاثة معا — يستطيع ان يعالج أي مشكلة تواجهه . وقد قال مرة لكلارك مولنهوف الصحفي بواشنطون : « لكل انسان ثمن ... فما ثمنك ؟ » .

وعندما بدأت اللجنه تذيع في أغسطس ١٩٥٧ الوثائق التي تثبت علاقة هوفا الوثيقة بالبلطجية عرفت الأمة لأول مرة من هو الرجل الذي سيخلف (ديف بيك) في رئاسة أقوى اتحاد لنقابات العمال في البلاد ، وسمعت عن القتلة واللصوص ، ومبتزي الاموال ، ومحطمي الخزائن

ومهربي المخدرات وتجـــار الرقيق الابيض ، والشـــذوذ الجنسي الذين كانوا أعوانه المختارين ..

لقد قدم هوفا للقضاء مرارا متهما بتخريب الممتلكات واطلاق النـار ، والتآمر والاحتيال للحصول على المال بمزاعم زائفه .. وأدين وحكم عليـه بالغرامة لخرق قانون منع الاحتكار ، كما حكم عليه بوضعه تحت المراقبة لمدة عامين بتهمة التآمر .

لماذا لا يطهر هوفا نقابته ؟

ان النظام الداخلي لتنظيم الرئاسات في نقابات سائقي سيارات النقـل ليس له مثيل في الولايات المتحـدة اليوم .. فمنذ ان أصبح هوفا رئيسا لها ، اصبحت اقرب الى عصابة آل كابوني القديمة ، فرجال هوفا يبدون كرجال كابوني .. نفس الوجـوه الناعمة والعيون القاسية ، وهم يرتدون ثيابا غالية وخواتم ماسـية ، وتفوح منهم الروائح العطرية التي تمجهـا النفوس ولهم سوابق مماثله في الاجرام

أنظر مثـلا الى « جون ايجنـازيو ديو جارديا » أو جوني ديو كما يطلق على نفسه ، وهو الرجل الذي جعـله هوفا أداته الكبرى في محاولاته للفوز بالسيطرة على سائقي نيويورك ... هذا البلطجي المبتز للاموال ، السجين السابق ، الذي حامت حوله الشكوك في مؤامرة القاء الاحماض على فيكتور ريزل محرر شئون العمال في احدى الصحف ... وقد جمع حـوله في الاتحاد حوالى ٤٠ مجرما اعتقلوا ١٧٨١ مرة ، وصدرت ضـــدهم أحكام بلغ عددها ٧٧ حكما .

وانظروا علاقة جيمي هوفا ببرت برينان ، ولعله أقدم وأخلص اصدقائه فقد شق الاثنان طريقهما معـــا في نقابات السائقين ، مستخدمين الوقاحة والصـفقات المريبـــة ومجموعة من الشخصيات الشريرة ، لقد تشابكت حياة هوفا وبرينان في صفقات داخل الحركة العمالية وخارجها ... ويعرف برينان عن رئيس الاتحاد اكثر من أي شخص آخر ، وقد حـــذر هوفا ذات مرة بأنه اذا اســتدعى للشهادة او حوكم او دخل السجن ، فسيقول كل شيء يعرفه عن هوفا .. ولعـل هـذا يفسر الســـبب في ان هوفا لا يستطيع تطهير الاتحاد للتخلص من برينان وأمثاله ، اذ يعني هذا القضاء على نفسه .

وقد أسفر ارتباط هوفا الوثيق بعصابات الاجرام عن كثير من المشكلات الاخرى ، وأقرب مثل لذلك ما حدث لروبرت سكوت — من زعماء النقابة

الذين اختلفوا مع هوفا ـ فقد ذكر سكوت لاحد محققي اللجنة انه ذهب يوما فى رحلة مع هوفا الى شيكاغو ، وهناك اعتكف هوفا فى غرفته بالفندق مبكرا بينما ذهب سكوت للتنزه على قدميه، وعندما عاد من الخارج وجد باب غرفة هوفا غير مغلق بالمفتاح ففتحه ولم يكد يخطو خطوة واحدة حتى قفز هوفا من فراشه ومسدسه فى يده!

ان هوفا يعرف كيف يتصرف مع رجاله تماما !

من أين تأتى النقود ؟

عندما بدأنا تحقيقنا عن اموال هوفا ، وجدنا انه على الرغم من انكاره أخذ أية رشاوى من رجال الاعمال ، فان لديه دائما مبالغ نقدية ضخمة اكثر مما يسمح به دخله كرئيس لاتحاد نقابات السائقين وكان تفسيره البسيط لذلك هو انه جمع هذه الاموال ! .. ووجد بللينو انه من العبث محاولة تتبع أثر هذا المال نظرا لان هوفا لا يتعامل الا نقدا ، وليس لديه أى حساب فى البنوك ، كما انه لا يحتفظ بأية دفاتر خاصة بل يعتمد على ذاكرته الرهيبة فى ذلك .. وبين التفسيرات الاخرى التى يسوقها هوفا ، ان الكثير من هذه الاموال ربحه فى السباق هو وزميله برينان ، وانه سعيد الحظ دائما مع الخيول ! .. ولا شك انهما يتمتعان بحظ مدهش ، اذ بلغت أرباحهما من السباق منذ عام ١٩٤٨ الى ١٩٥٧ اكثر من ١٥٠ ألف دولار !

وسألنا هربرت جروسبرج المحاسب الخاص لنقابات السائقين والذى يعد ضريبة الدخل المستحقة على هوفا كل عام ، كيف يستطيع أن يتذكر دون سجلات كم ربح هوفا من القمار بالدرهم والمليم طوال العام .. فقال جروسبرج ان هوفا يتمتع بذاكرة خيالية !

وبتتبع شئون هوفا المالية وجدنا علاقات وثيقة تربط بينه وبين أصحاب الاعمال ، وأن الطرفين يتبادلان الخدمات ، فهوفا يقوم بتسوية الاضرابات لمصلحة الشركات مقابل أن تسند اليه الشركات أعمالا تدر عليه أرباحا ضخمة .. وقد تدخل هوفا فى كثير من الاضرابات وامر العمال بالرجوع للعمل بشروط مجحفة بهم ، وفى مقابل ذلك أصبح لزوجته شركة خاصة للنقل بالاشتراك مع زوجة برينان ، وباستغلال ٤٠٠٠ دولار فقط ، ربحت الزوجتان فى عشر سنوات حوالي ١٥٥ الف دولار بعد الضرائب !

ولجينغى هوفا كثير من المصالح المختلفة ، فهو يمتلك أسهما فى مختلف المؤسسات ، كما يمتلك أربع شركات للنقل بالسيارات ، وشركة للاستثمار ، وأخرى للبقالة بالجملة ، وقد غامر فى آبار البترول والمناجم ، وله مصنع للبيرة وميدان لسباق الخيل ، وحاقة للملاكمة ، ومشروع لتقسيم الاراضى فى فلوريدا ،

ان الطريقة الممسوخة التى يستغل بها هوفا الاجراءات الديموقراطية فى اتحاد نقابات السائقين ، تتمثل تماما فى انتخابه رئيسا دوليا فى مؤتمر ميامى فى أكتوبر ١٩٥٧ ، فقد كان المؤتمر مدبرا من قبل البداية الى النهاية .. فقد استطاع محققونا من دراسة سجلات النقابة أن يثبتوا أن أكثر من نصف مندوبى المؤتمر اختيروا بطريقة غير قانونية وفقا لنصوص قانون الاتحاد ، كما كان هناك شك فى قانونية اختيار الباقين واستطعنا أن نثبت ان ٤ر٨ ٪ فقط من المندوبين الذين انتخبوا هوفا هم الذين كان لهم الحق قانونا فى الادلاء بأصواتهم فى المؤتمر .

ولنلق نظرة على الديموقراطية كما يسمح هوفا بممارستها فى النقابة ، ونرى ماذا حدث عندما ثار بعض الرجال على حكمه ..

حدث فى عام ١٩٥٣ ان بعث كلايد باكستون وعدد من زملائه سائقى السيارات فى (جوبلين) بولاية ميسورى التماسا الى هوفا ، يحتجون فيه على الطريقة التى يدير بها فلويد ويب الامور فى النقابة التى يرأسها فى منطقتهم ، وعلى الفور بعث هوفا الطلب الى صديقه ويب .. وفى خلال أيام قلائل اعتدى شخص مجهول على باكستون بالضرب على رأسه بمطرقة حديدية حتى أفقده الوعى .. واعترف ويب لاعضاء النقابة بأنه مدبر الحادث

وعندما أقام « آموس رينكر » من زعماء المعارضة فى الاتحاد دعوى بطلب ابعاد ويب عن رئاسة النقابة، انفجرت قنبلة فى منزله .. ولكن الخسائر لم تكن فادحة ، وفى منتصف الليل ، دق جرس التليفون فى منزل رينكر وسمع صوتا يحذره قائلا : « فى المرة القادمة سنرسلك الى الجحيم » ولكن رينكر لم يخف ... وجاء الينا فى سبتمبر ١٩٥٨ ليبين لنا كم تعانى الديموقراطية من أعمال هوفا وويب .

أما قصة فلويد هوك فهى اعجب مثل للارهاب فى تاريخ النقابة ...
ففى عام ١٩٥٣ قدم هوك وبعض

زملائه من أعضاء النقابة فى «بونتياك» بولاية ميتشيجان معلومات معينة الى النيابة العامه تتعلق باثنين من موظفى النقابة كانا يتقاضيان رشاوى من أصحاب الاعمال لمنع تنفيذ العقود ، وثبتت التهمة على الاثنين ، ولكن « ديف بيك » وضع فرع النقابة تحت وصاية هوفا ٠٠ وعلى الفور قرر هوفا اعادة المتهمين الى عملهما فى النقابة !

وعندما حاول هوك رفع الوصاية عن النقابة ، بدأت اسرته تواجه ألوانا من الاضطهاد الشديد ، فقد كانت هناك سيارة تتبع هوك أينما ذهب ، وكانت أسرته تتلقى مكالمات تليفونية تهديدية فى كل ساعة ٠

وظل الحال كذلك شهورا متعددة ومكالمات التهديد لاتنتهى ٠٠ تهديد بقتل الزوج ، ودهس الاطفال عند عودتهم من المدرسة ، حتى أصيبت زوجة هوك بانهيار عصبى ، وذهبت لتعيش مع بعض أقاربها فى انديانا ، وبقى هوك ليقاوم وحده ٠٠٠ ولكن هوفا لم يكن قد انتهى منه بعد ، ففى يناير ١٩٥٤ ، فصله من الشركة التى يعمل فيها بتهمة ملفقة ، وعندما سافر المسكين الى انديانا ليلحق بزوجته ، وجد المكالمات التليفونية فى انتظاره هناك !

***

فى أوائل عام ١٩٥٩ ، ارسلنا المحققين عبر البلاد للبحث فى دفاتر الشركات الكبرى المتعاقدة مع هوفا ، وتحدثنا مع كثيرين من أصحاب الاعمال وموظفى الاتحاد ، والسائقين ، وسماسرة العمل فاكتشفنا أن هوفا يقوم بصفقات جانبية مربحة عن طريق المؤتمر المركزى للنقابة ، وانه يبرم عقودا يتواطؤ فيها مع مديرى الشركات فى منزله بديترويت ، وقد حاول أن يهبط بالمستوى المرتفع لعقود السائقين فى أنحاء اخرى من البلاد التى لا يستطيع السيطرة فيها على نصوص العقود ٠

ففى عام ١٩٥٥ وقعت شركة «ترانس أمريكا » للشحن وهى من اكبر شركات النقل بالسيارات عقد العمل العادى لمؤتمر النقابات المركزية مع السائقين ، ولكن هوفا عقد صفقة جانبية مع الشركة كفل لها ان تعطى السائقين سنتا ونصف سنت عن الميل بدلا من الامتيازات الاخرى كالمعاش والاجر أثناء المرض ، وأثناء العطلة

وتكررت المأساة فى عام ١٩٥٦ مع عمال شركة « ريس » وهى من اكبر شركات النقل بالسيارات فى أمريكا ،

فقد وافق هوفا على أن تكتفي الشركة بدفع ٥ر١ سنت للسائق عن كل ميل ، ولم يعرض هذا الاتفاق على الاعضاء ، بل انه لم يسجل كتابة ، كان مجرد صفقة تمت بين صديقين، أثناء وجود هوفا في ضيافة ريتشارد ريس مدير الشركة في قصره بانتاريو

هذا هو الدليل في ايجاز

لقد أطلق جورج ميني رئيس الاتحاد العام لنقابات العمال في أمريكا على جيمي هوفا اسم « العدو رقم واحد » للحركات العمالية في أمريكا :

وأنا اول من يعترف بأن الدليل الذي قدمناه لم يكشف الا عن جزء يسير من الآثام التي يرتكبها هوفا وشركاؤه ولكن ما وجدناه فعلا يظهر بوضوح ان هؤلاء الرجال غدروا باتحاد نقابات السائقين ، وأخمدوا صوت الديموقراطية فيه وأساءوا استغلال امواله حتى بلغ مجموع الاموال المتلاعب فيها تسعة ملايين ونصف مليون على الاقل ، وقد حصل هوفا ومن حوله على مشروعات ضخمة يستغلونها بتأييد من الاتحاد ٠٠ ولعل اسوأ ما في الامر أن هذه المنظمة الضخمة القوية اصبحت بين أيدي اناس من أمثال جوني ديو وبرت برينان وغيرهما ممن أنفقوا عمرهم في مقاومة القانون

واتحاد نقابات سائقي سيارات النقل هو أقوى هيئة في امريكا ـ بعد الحكومة نفسها ـ وفي كثير من المناطق الكبرى تسيطر النقابات على كل وسائل النقل، ولا سيما سيارات نقل الطعام والكساء الى كل الناس وتكفل لهم ضروريات الحياة ، وهي تتحكم في توزيع الالبان واللحوم والفاكهة ، وقطارات السكك الحديدية والشحن الجوي ، والنقل من والى أرصفة الميناء :

أن حياة كل انسان في أمريكا في أيدي هوفا ونقاباته فعلا ٠٠ ولكن النقابات تحت يد هوفا لا تدار باعتبارها نقابات ، بل كمؤامرة شريرة ٠

وفيما عدا استثناءات قليلة ، فان هؤلاء الذين يديرون نقابات امريكا الكبرى اناس مخلصون أمناء ، ولكن للحركة العمالية جهاز ضخم حي، معرض لاخطاء البشر ، وقد وجدنا فسادا في حوالي ست نقابات كبرى أخرى حققنا فيها :

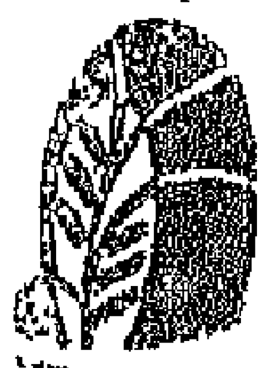
ولكن نظرا للاختصاص المحدود للجنة ، فاننا لم نستطع ان نوالي بحث أوجه النشاط غير السليم في الاعمال ، الا حيثما توجد صلة

مباشرة مع العمال ... وعلى الرغم من هذه القيود ، فقد وجدنا اكثر من ٥٠ شركة تتصرف بوسائل غير سليمة ، بل وغير قانونية فى أكثر الحالات ... ولكن على عكس بعض النقابات التى تبذل جهودها لتنظيف بيوتها ، لم نجد أحدا من مديرى الشركات يحاول القيام بخطوة واحدة لتخليصها من الاعضاء الذين اشتركوا فى صفقات مريبة .

سينتصر المجتمع فى النهاية

ان عددا ضخما من الاشخاص الذين أثبتت لجنتنا انهم يشتركون فى أعمال الفساد ، ما زالوا يمارسون نشاطهم .. وقد يبدو بعد أن انتهى وجود اللجنة انه ليس هناك مايخافون منه، اذ أن وسائل السلطات التى تنفذ القانون فى أمريكا لم تتمش مع الاسف مع الوسائل التى يتبعها المجرمون هذه الايام ، ولاتزال السلطات تكافح عصابات آل كابونى الحديثة بنفس الاسلحة التى كانت تحارب بها العصابات منذ ربع قرن ، وستكون النتيجة ان الاقتصاد الامريكى كله سوف يتأثر تأثرا شديدا فى خلال عشر سنوات .

ولكننى مؤمن بأن المجتمع — وليس هوفا — هو الذى سينتصر فى النهاية .



جزاء المعروف

كان لونوفا الملاكم الشهير يجلس يوما لمشاهدة احدى مباريات الملاكمة فى كاليفورنيا عندما اقترب منه رجل ومعه صبى صغير .. وقال له الرجل :

— لماذا لم تحضر الى مادبة العشاء التى أقمتها لك امس فى المنزل .. ؟

ونظر لو الى الرجل الذى لم يسبق أن رآه من قبل .. وظهر انه يريد أن يظهر لابنه الصغير معرفته لشخصية شهيرة ، فجاراه فى حديثه واجابه قائلا :

— آسف جدا لاننى لم احضر .. ولكننى ساحضر فى المرة القادمة اذا دعوتنى .

ثم التفت لو الى الصبى وقال لابيه :

— أهذا ابنك الذى كنت تحدثنى عنه ..؟ انه لطيف .. اهتم بنفسك يابنى واشرب كثيرا من اللبن وكل كثيرا من الخضر حتى تصبح يوما بطلا من ابطال الرياضة .

وقال الرجل وهو ينصرف :

— حسنا .. الى اللقاء يالو .. وسأراك فيما بعد .

وماكاد الرجل يستدير حتى سمعه يقول لابنه الصغير :

— الم اقل لك انه يكون دائما فى حالة سكر تام ... ؟

كتاب الشهر

وُلدتْ حرّة

ملخصة عن كتاب ELSA Born FREE بقلم جوي آدمسون



كتاب الشهر

« شبت في احضانهما ، لا تعرف لها أهلا ولا عشيرة غير تلك السيدة صاحبة القلب الكبير وزوجها الذى يعمل حارسا للصيد فى احراش كينيا ... واستطاعت ان تكيف نفسها مع البيئة الجديدة التى فتحت عينيها عليها منذ أيامها الاولى ، فكانت تشارك السيدة وزوجها بيتهما وسيارتهما ، بل وتشاركهما فى فراشهما أيضا ...!

« ولكن الشبل الصغيرة كانت تكبر مع الايام ، حتى اصبحت لبؤة كبيرة .. وعلى الرغم من الرباط القوى الذى كان يجمع بين « الزا » اللبؤة ، والسيدة جوى آدمسون ، فقد جاء اليوم الذى أصبح لا مناص فيه من افتراقهما ، لمصلحة الطرفين ...

وفى كتاب « الحياة مع الزا » الذى وضعته مسز جوى آدمسون ، قصة حقيقية ممتعة قل أن تجد لها مثيلا بين الكتب .

ولدت حرة

قتل أسد مفترس أحد رجال قبيلة بوران !.

كان هذا النبأ هو سبب الرحلة التى قمنا بها وسط الادغال فى ذلك اليوم من أيام شهر فبراير ١٩٥٦ ، فقد كان واجبا على زوجى باعتباره رئيسا لحراس الصيد فى اقليم الحدود الشمالية بكينيا أن يطارد هذا الحيوان الخطير .. وبينما كنت بمفردى فى المعسكر ، بدت سيارتنا تشق طريقها وسط الاشجار الشائكة التى تنمو بكثافة فى أفريقيا

وسمعت زوجى جورج يصيح قائلا :

— جوى .. أين أنت ؟ .. عندى شىء لك .

وأشار الى مؤخرة السيارة ، فنظرت ، ووجدت ثلاثة أشبال صغيرة وكأنها كرات صغيرة من الفراء الأرقط ، وكانت تحبو وهى تحاول عبثا أن تخفى وجوهها عنا .. كانت عيونها مازالت مغطاة بغشاء أزرق ، فمددت يدى وأمسكت بها ووضعتها على حجرى لاريحها .

كان جورج فى حالة ضيق ، وقال

لى انه وصل الى المكان الذى قيل أن الاسد المفترس يقبع فيه بصحبة لبؤتين ، وقد ذهب معه أحد حراس الغابة الآخرين ، فوصلا قرب الفجر وما كاد أول شعاع من أشعة الشمس يبرز ، حتى اندفعت احدى اللبؤتين من وراء بعض الصخور وهاجمتهما بشراسة بالغة ، فاضطرا الى اطلاق النار عليها وقتلاها ..

وعندما لاحظا بعد ذلك أن ثدييها قد انتفخا باللبن ، أدركا لماذا واجهتهما بمثل هذه الثورة والشجاعة لقد كانت تدافع عن صغارها !

وبحثا عن الاشبال الصغيرة ، فسمعا أصواتا خافتة تنبعث من شق فى واجهة الصخرة ، فمدا ايديهما ، واستطاعا اجتذابها الى الخارج .. لم يكن عمر الاشبال يزيد على يومين أو ثلاثة ايام .

وعلى الرغم من الجهود التى بذلتها لاطعامها ، فقد مر يومان قبل أن تتمكن الاشبال من الاكل ، وقد حاولت أن أجعلها تبتلع بعض اللبن المحفوظ فى العلب غير المحلى بالسكر ، ولكنها كانت تجعد أنوفها الدقيقة احتجاجا .. تماما كما كنا نفعل ونحن صغار قبل ان نتعلم كيف نقول فى ادب :

ـ كلا شكرا .

ولكنها ما كادت تقبل تناول اللبن حتى وجدت انها لا تستطيع الحصول على قدر كاف منه .. وكان على أن أدفىء لها اللبن كل ساعتين ، وانظف الانبوبة المطاطية التى انتزعناها من جهاز اللاسلكى لنستخدمها كضرع مؤقت . وفى نفس الوقت أرسلنا الى أقرب الاسواق ـ ويقع على مسافة ٨٠ كيلو مترا ـ للحصول على بزازات وحلمات للصغار ، كما طلبت كمية من زيت كبد الحوت ، والجلوكوز ، وصناديق من اللبن المحفوظ ، وارسلنا بلاغا لمأمور بلدتنا (ايزيولو) التى تقع على مسافة ٢٠ كيلو مترا ، نعلنه أننا سوف نصل مع (أولياء العهد) الثلاثة بعد أسبوعين ، لكى يعد منزلا خشبيا مريحا لها .

وفى خلال أيام قلائل ، استقرت الاشبال فى معسكرنا وأصبحت موضع اهتمام الجميع .. كانت كلها من الاناث ، ومع أنها كانت فى سن صغيرة جدا ، فقد كان لكل منها شخصية محددة . فالكبرى كانت محسنة سخية مع الآخرين ، بينما كانت الثانية مهرجة دائمة الضحك والمرح ، تلطم زجاجة لبنها

بمخلبيها الامامين وهى تشرب منها ، وقد اغلقت عينيها فى غبطـة ، وقد أسميتها (لوستيكا) ومعناها باللغة الصومالية (الطروب) ، اما الثالثة ، فقد كانت اقلهن حجما ولكنها أكثرهن جراة .. كانت تجول فى انحاء المناطق المحيطة بنـا ، وترسلها شـقيقتاها دائما للاستطلاع كلما بدا شيء يدعو للارتياب . وقد أسميتها (الزا) اذ كانت تذكرنى بصديقة تحمل نفس الاسم .

كان من المحتمل أن تكون (الزا) هى المنبوذة من العشـيرة كما هى العادة ، اذ على الرغم من أن نتـاج الاسـود يبلغ فى المتوسـط اربعـة أشبال ، فان قانون الطبيعة شديد القسـوة ، وقل أن يرى الانسـان شبلين كبيرين مع لبؤة ، اما الآخران، فقد كانا أضعف من ان يظـلا على قيد الحيـاة . وتكفل الام الطعـام لشبلها خلال العام الاول من عمره ، وفى السنة الثانية عليه أن يأكل مما قد يتبقى من الفريسة بعد أن يأكل منها كبار الاسود .. ولكن هـذه البقايا تكون فى الغـالب قليلة جـدا بحيث تضطر الاشـبال تحت تأثير الجوع الى اقتحـام صـفوف الكبار أثناء طعامها ، فيكون نصيبها القتل لانها انتهكت النظام .. أو قد ترحل عن العشيرة فى جماعات صـغيرة ، ونظرا لانها لم تتعلم بعد كيف تصيد فريستها ، فانها تواجه متاعب كثيرة .

***

كانت أشبالنا الثلاثة تقضى اغلب اليـــــوم تحت فراشى فى خيمتى بالمعسكر ويبدو انه كان أسلم مكان تسـتطيع أن تجـده ليكون مرتعـا لطفولتها ، ولم تكن تتسـال الى داخل المنزل ، بل كانت تحاول دائمـا أن تصل الى الرمال المترامية فى الخارج .

ولم تقع خـلال الايام الاولى غـير حوادث قليلة ، وعندما كانت تجـد شـيئا يلوث مسـكنها ، تمـوء وتقطب جبينهـا اسـتياء بطـريقة مضـحكة .. فقد كانت الاشـبال نظيفة الى حد يثير الدهشة ، وكانت رائحتها طيبة ، أشبه برائحة العسل أو زيت كبد الحوت ، وكانت ألسنتها تزداد خشونة كلما كبرت فى السن ، حتى اننا كنا نحس بخشـونتها من خلال ملابسنا ، عندما تلعقنا بألسنتها

يتامى كثيرة اللعب !

عندما عدنا الى بلدتنا (ايزيولو) كان هنالك قصر صـغير فى انتظار أولياء العهد ، عبارة عن قفص ضخم من الخشب والاسلاك المتينة ، ولكننا

كنا نتركها تمرح فى حرية فيما عدا فترة الليل ، وقد انتشرت أنباء وصولها فى المنطقة ، فانهالت علينا الزيارات من الراغبين فى رؤيتها ، ونجحت الاشبال فى اجتذاب الاهتمام فقد كانت تحب كل أصدقائها ، ولاسيما الصغار ..وقد قررنا تعيين خادم الحديقة الصغيرة (نورو) وهو من أهل الصومال ، حاميا وكبيرا لحرس الاسود ، وقد سر كثيرا بهذا المنصب ، لانه رفع مركزه الاجتماعى واتاح له أن يجلس على مقربة من الاشبال أثناء نومها تحت الاشجار الظليلة ، ليحميها من اعتداء الافاعى والقرود .

وكانت المفاجأة هى العنصر الهام فى كل العابها ... كانت تسترق الخطى وراء بعضها البعض ، وتهاجم دائما من المؤخرة ، ولكيلا يكون مركزها مكشوفا ، كانت تقبع فى سكون ، ثم تزحف ببطء صوب الضحية دون ان تحس بها ، ثم تقفز عليه القفزة الاخيرة بسرعة الطائرة حتى تستقر فوقه بكل ثقلها ملقية اياه على الارض .

وبعد ان بدأت الاشبال تزداد ادراكا لقوتها ، أخذت تختبرها على كل ما تجده أمامها ، فمشمع المائدة يجب جذبه مهما يكن كبيرا ، وكانت تضعه تحت جسمها ثم تجذبه بين ساقيها الاماميتين ، تماما كما تجذب الاسود فريستها ..

ومن بين الألعاب الاخرى المفضلة لديها لعبة « الملك والقلعة » فكانت احداها تقفز فوق جوال للبطاطس ، وتأخذ فى ابعاد مهاجميها حتى تتمكن احداهما من ازالتها عن قلعتها ، وكانت « الزا » هى المنتصرة فى العادة ، اذ تستغل فرصة اشتباك شقيقتيها فى معركة فتحتل القلعة !

وعندما بلغت الاشبال الشهر الثالث من عمرها واصبحت لها أنياب كبيرة تمكنها من المضغ ، بدأت أقدم لها لحما نيئا مفروما ، وهو أفضل ما يمكننا أن نفعله لتقليد الطعام الذى تقدمه اللبؤة لاطفالها عادة ... وقد ظلت الاشبال بضعة أيام ترفض ان تمس هذا اللحم ، وكانت تبدى اشمئزازها منه ، ولكنها عندما جربت مذاقه ، اعجبها ، وأصبحت تشتبك فى معركة على كل وجبة ... وكان معنى هذا ان (الزا) المسكينة — التى لاتزال أضعف من شقيقتيها — لن تجد فرصة للحصول على نصيب كاف من اللحم ، ولهذا كنت احتفظ لها بنصيبها ثم أجلسها على حجرى أثناء الاكل

وقد أحبت الزا هذا العمل ، وكانت تهز رأسها من ناحية لاخرى وتغلق عينيها اظهارا لمبلغ سعادتها .. وفي تلك الاوقات ، كانت تمص أصابعي ، وتدلك ساقي بمخالبها الامامية ، كأنما تعتصر بطن أمها لتحصل على المزيد من اللبن ...

وفي خلال تلك الساعات ، بدأت الروابط تتوثق بيني وبينها .

تبنينا الزا

وفي الشهر الخامس ، كانت الاشبال في حالة طيبة ، وهي تزداد قوة يوما بعد يوم ، وعلى الرغم من شدة حبنا لها ، فقد كان علينا ان نواجه الحقيقة ، وهي أننا لن نستطيع الاحتفاظ بثلاث لبؤات تنمو بسرعة الى أجل غير مسمى .. وهكذا قررنا مع الاسف ان نتخلى عن اثنتين منها ... وان نحتفظ بالصغرى « الزا » لانهما أقل اعتمادا علينا منها ...

وتمت الترتيبات لارسال الاثنتين الى حديقة حيوان روتردام بالطائرة ، وقد وضعت عددا من اكياس الرمل الناعم في سيارتنا عند نقلها الى المطار حتى لا تتعبها الرحلة ... وعندما انطلقنا بالسيارة ، أخذت « الزا » تعدو الى جوار السيارة قليلا ، ثم مالبثت ان وقفت وراحت ترقب السيارة التي تحمل شقيقتيها في حزن حتى اختفت عن انظارها .

وحملت الطائرة اللبؤتين بعيدا عن وطنهما الى الابد ... وبعد أيام قلائل تلقينا رسالة عن وصولهما سالمتين الى هولندا ، وعندما زرتهما هناك بعد ثلاث سنوات ، استقبلتاني كصديقة شخصية ، وسمحتا لي بالاقتراب منهما ومداعبتهما ولكن لم يبد انهما عرفتاني .

وبينما كنت غائبة عن نيروبي ، قال لي جورج ان « الزا » كانت قلقة جدا وأنها لم تتركه لحظة واحدة ... كانت تتبعه الى كل مكان ، تقبع تحت مكتبه عندما يعمل ، وفي الليل تشاركه في النوم على فراشه ... وكان يصحبها في نزهة كل مساء ، ولكنها رفضت أن تصحبه في يوم عودتي ، بل جلست وسط السيارة وكأنها تتوقع وصولي ! وعندما وصلت ، استقبلتني بترحاب بالغ ، وقد آلمتني نظراتها التي تبحث بها عن شقيقتيها ، وقد ظلت بضعة أيام تحدق بأنظارها خلال الغابة وتنادي دون جدوى ، وكانت تتبعنا بلا انقطاع ، ولاشك أنها كانت تخشى ان نتخلى عنها هي الاخرى ، ولكي ندخل الطمأنينة الى قلبها ، أزلنا الحاجز السلكي عن

الشرفة وسمحنا لها بدخول البيت ، بل والنوم فى فراشنا ... وكثيرا ماكنا نصحو أثناء الليل لنجدهاتلعق وجهينا بلسانها الخشن .

وما كادت تدرك جيدا أنها أصبحت « الطفل الوحيد » فى الاسرة ، حتى امتلأت شقاوة كالقطة الصغيرة ، كانت تداعبنا بمخالبها ، ولكنها كانت تصوب الينا أحيانا لطمات سريعة ، وكانت تتقن المصارعة اليابانية ، وتصر على ان تسقطنا على ظهورنا ، وفى بعض الاحيان كانت تقذفنابكرات من الطين ، أو تقفز فوقنا بجسمها الذى ازداد ثقلا .

وكان لابد من أن نجعلها تدرك انها اصبحت أثقل من ان تقوم بمثل هذه القفزات الطائرةأو تتمادى فى مزاحها، فأحضرنا عصا صغيرة لتأديبها ولكنها فهمت مقصدنا على الفور ... ومنذ ذلك الحين لم نضطر لاستخدام العصا الا قليلا .

الزا تقابل حيوانات مفترسة أخرى

كان الدغل المحيط بمنزلنا يزخر بالكثير من الحيوانات المتوحشة وقد عرفتها « الزا » جميعا ، وكانت أسراب الزراف احبها الى قلبها..وقد حدث بعد ظهر أحد الايام عندما كنا معهافى الخارج ، أنها أبدت استعدادها للدخول فى معركة مع ٥٠ من الزراف، فراحت تسترق الخطى خلفها خطوة خطوة ... ولكن الزراف كان يلوى اعناقه النحيلة دون اكتراث ، أما القرود فكانت تثير حنقها عليها اذ كانت تصرخ وتصيح فى وجه الزا ، وهى تقف فوق صخرة عالية قرب منزلنا ، دون ان تتمكن الزا من ان تفعل شيئا لتنتقم منها .

وعندما التقت « الزا» بأول فيل فى حياتها ، كانت لحظة مثيرة مليئة بالقلق ، اذ لم يكن المسكينة أم تحذرها من هذه الحيوانات التى ترى أن الاسود العدو الوحيد لصغارها .. وقد جاء (نورو) ذات يوم الى البيت مسرعا ليقول ان الزا تلهو مع احد الافيال ، فأخذنا بنادقنا بسرعة وسرنا وراءه الى المكان الذى توجد فيه ، وهناك رأينا فيلا ضخما عجوزا يختفى وراء شجرة وقد جلس يتناول طعامه .. وفجأة تسللت « الزا » خلفه ، وضربت أحدى قوائمه الخلفية بقوة فصرخ الفيل حنقا على هذا العمل الوقح ، الذى أصاب كرامته ، وتراجع الى الوراء ثم هجم ولكن هجومه جاء لحسن الحظ بعيدا عن الاتجاه الذى قفز فيه . وكانت بنادقنا على

استعداد لحماية ألزا ، ولكنها قفزت بخفة بعيـدا عن طريق مهاجمها ، وبدأت تقتفي أثره من جـديد ... ولحسن الحظ ان الاثنين ملا اللعبة بعـد قليل ، وعاد الفيل الى طعامه ، بينما رقدت (الزا) على مقربة منه واستغرقت فى النوم !

وفى مساء اليوم التالى ، كنت أسير مـع « الـزا » ونورو ، وكان الوقت متـأخرا والدنيا يسـودها الظلام ، عندما جذب الفتى الصـومالى كتفي فجأة ، ليحول بيني وبين الاصـطدام بخرتيت يقف خلف شجرة أمامنا . وقفزت الى الوراء ، وعدوت بسرعة ، اذ ان الخرتيت من المخـلوقات التى لا يمكن التكهن بما سيفعله ، فقـد يهاجم فجأة ، ولكن الزا لم تكن تعرف ذلك ، فهاجمت الحيوان الذى يفوقها حجمـا ، وعنـدئذ أسرع الخـرتيت بالفرار بينما راحت الزا تطارده عبر الوادى ، ونورو يلهث خلفها .. ومنذ ذلك الحـين ، ظل الخـرتيت يقف بعيـدا ، وامتنع عن زيارة المنطقـة المجاورة لنا .

وكانت أسراب الحيوانات المختلفة التى تعيش فى المناطق المجاورة تعرف الزا وتسمح لها باقتفـاء أثرها على مسافات قليلة ، وحتى الثعالب ذات الاذان التى تشبه الوطاويط ، اعتادت وجودها الى جوارها ، وتركتها تقترب من جحورها ، بينما تكون صغارها تلهو على الرمال فى الخارج .

وعندما صحبناها معنا فى رحلات الصـيد ، اعتادت « الزا » سـماع الطلقات النارية ، وكانت تعرف بعد كل طلقة أن طائرا قد قتـل ، فتعدو مبتهجة لاحضـاره ، وكانت مغـرمة بالدجاج البرى ، فتنزع ريشه ، وان كانت لا تأكل لحمه الا فيما ندر وكنا نخصص اول طير نصيده لها ، فكانت تحمله فى فمها فى فخر ومباهاة ...

وكان يؤثر فى نفوسـنا ان نراها ممـزقة النفس بين غريزة الصـيد الـكامنة فى أعماقها ، وبين رغبتها فى ارضائنا .. كان كل شيء يتحرك يثير فيها غريزة المطاردة ، ولـكن غريزة القتل لم تكن قد أكتملت لديها بعد ، ولما كنا حريصين جدا على ألا نريها لحوم الماعز التى تقدم لها وهى حية ، فقد كانت مطاردتها كلها لهوا ولعبا .. وفى الليالى المقمرة فقط كان القلق يسيطر عليها ، فنعيدها الى قفصها ، حيث تطوف بجوانبه المصنوعة من الاسـلاك وقد أصاخت سـمعها ، وأخـذت خياشيمها ترتعش لتلتقط أخف الروائح التى قد تحمل اليهـا

رسالة من الليل الغامض فى الخارج .

فى رحلة صيد

وصحبنا « الزا » معنا فى السفر مرارا ، وقد أصبحت تحب رحلات الغابة كما نحبها نحن ، وكانت اطول الرحلات ، تلك التى قمنا بها على شواطىء بحيرة رودولف القفرة ، وهى رقعة من ماء أجاج ، تمتد مسافة ٣٠٠ كيلو متر حتى تصل الى حدود أثيوبيا وكان على جورج ان يمسح المنطقة المخصصة للصيد ، ويبحث عن لصوص الصيد ، وقد ركبت الزا فى مؤخرة سيارتنا طوال الرحلة التى قطعنا خلالها ٧٢٠ كيلو مترا ، دون أن تشكو من الرجة العنيفة التى لا تنقطع ، وهبات الريح الباردة ليلا ، والحرارة المحرقة نهارا .. وكانت أول حركة قامت بها عندما بلغنا البحيرة ، هى أن تغطس فى الماء لتلقى عن كتفيها عبء الرحلة المتعبة ، ولم تعبأ بالتماسيح التى كانت تطفو فوق سطح الماء .

وكانت مهمات المعسكر تنتظرنا هناك مع ٢٣ حمارا تحمل المؤونة ، اذ كان علينا أن نقوم بجولتنا حول شواطىء البحيرة على الاقدام . وكان علينا أن نقيد الزا بالسلاسل عندما نبدأ فى الشحن ، اذ أن منظر اللحوم الحية لكل هذه الحمير ، وهى تنهق وتركل باقدامها فضلا عن ضجة العمال الافريقيين ، كان كفيلا باثارة توترها . .

وفى خلال السير ، كانت « الزا » تنطلق كجرو صغير ، مندفعة بين اسراب طائر البشاروش أو تلقى بنفسها بين مياه البحيرة . وعندما مررنا بقطيع من الجمال ، اضطررت لتقييدها بالسلاسل مرة أخرى مما أثار خيبة أملها ، وكادت تنتزع ذراعى لتحاول مقابلة هؤلاء الاصدقاء الجدد ، ولكننى كنت أخشى ان ترى الجمال وهى تجفل هاربة ، وتتساقط واحدة فوق الاخرى عندما ترى الزا .

ولكى أبعد « الزا » عن قافلة الحمير ، كنا نجعل الحمير تسير فى المقدمة ، ثم تستريح فى بقعة ظليلة خلال ساعات الحر ، وكانت «الزا» تواصل السير دون كلل حتى الساعة التاسعة صباحا ، وعندما تبدأ فى الاحساس بالحرارة الشديدة ، تقف .. وفى ساعات بعد الظهيرة كانت تتردد فى السير قبل الخامسة ، وعندئذ تواصل سيرها طوال الليل .. وقد ظلت فى حالة طيبة طوال الرحلة . على الرغم من ان منظر المنطقة كان كئيبا ، فقد كانت مليئة بالحمم البركانية التى

تغمر الارض بأطرافها المدببة ، حتى أصيبت أقدامنا بكثير من الآلام لكثرة انزلاقنا وسقوطنا فوق هذه الارض غير المســتوية ..

وكان من العسير أن نستريح فوق الحصباء خلال ساعات الراحة التى تقع بعد الظهيرة ، ومن ثم فقد أقمت فراشا تحت الخيمة ورقدت فيه ، وعلى الفور أقبلت « الزا » لتشاركنى فيه ... وأصبحنا ننام معا كل يوم ، وفى بعض الاحيـان كانت تبسط كل طولها فى الفــراش ، فلا أجد لى غير ركن صــغير منه !

ولم يفلت زمام « الزا » منى غير مرة واحدة ، كنا قد وصلنا المعسكر الرئيسى فى ساعة متـأخرة من الليل وقد بدأ الارهاق على الزا ، فتركتها بلا سلاسل لتستريح ... وفجـأة سمعنا زئيرا ، ورأيت جسدها المرن ينحنى كالقوس فى اتجاه القفص الذى تقضى فيه الحمير ليلتها ... وحطمت الزا الحاجز السلكى كأنه من الورق ، وعندئذ ارتفع صوت النهيق والذعر بين الحمــير ، التى انطلقت هاربة فى الظلام ، ولكننا حاصرناها وأعدناها وقد أصيبت بخــدوش طفيفة ... وبعدئذ انهلت ضربا بالســوط على جسد « الزا » وقيدتها بالسلاســل طوال الليل ، ويبدو أنها ادركت انها أساءت التصرف فأبدت أســفها قدر اســتطاعتها !

ويبدو أن اليزا تعلمت من هــذه التجربة ، اذ أنها لم تحاول أن تهاجم أى قطيع من الجمال او الماشية والماعز التى كنا نقابلها عند كل مورد ماء ، مهما يكن قريبا منها .

وكانت رحلة العودة أكثر مشقة ، فقد اجتزنا خلالها أرضا اكثر قفارا ووحشة ، ليس فيهــا من النباتات الا النزر اليسير، فى حين تكسو الحمم البركانيه أميالا كثيرة منها ، ولما كان أغلب الطريق خاليا من الماء فقد كان علينا أن نسير مسافات طويلة ، ومن حسن الحظ أن احمال الحمير كانت أخف منها عند الوصــول .

وكان فى استطاعتى أن أدرك مدى الجهد الذى بذلته « الزا » فى قطع هذه المسافات كلها ، اذ أن الاســود فى حياتهــــا الطبيعية ، لا تتجول مسافات كبيرة ما دامت تجد طعامها قريبــا .

وعنــدما انتهت الرحله أحسسنا ــ عــلى الرغم من المشــاق التى تحملناها ــ انهــا قد عززت الرابطة بيننا وبين « الزا » ، فقد كانت تبدو ســعيدة ما دامت موجودة معنــا ،

شاعرة بحبنا لهـا ... أما بالنسبة لنا ، فقد كنا نشعر بارتياح عميق لاننـا نحمل مسئوليـة مثل هـذا الحيوان الذكى المبتكر ... وكان من المناظر المؤثرة ، ان نرى كيف تجاهد للسيطرة على القوى الشـديدة التى تصطرع فى اعماقها لكى ترضـينا .

وفى الوقت الذى عدنا فيـه الى بيتنا ، كانت قد قطعت أكثر من ٤٨٠ كيلو مترا ، وشاهدت من الدنيا جزءا أكبر ممـا كانت تراه لو ظلت تعيش مع عشيرتها . ومع اننا كنـا نحب « الزا » الصغيرة كثيرا ، فاننا عندما كنا ننظر اليها ، كان علينا أن نواجه الحقيقه المؤلمه .. وهى انها لن تبقى صغيرة الى الابد... او تبقى منتمية الينا فترة طويلة ...

فقد كانت الزا تكبر بسرعة !

آلام متزايدة

كانت « الزا » قد بلغت الشـهر الثالث والعشرين من عمرها ، وهى تنضج بسرعة بين حين وآخر ، وبدا صوتها يتحول الى زمجـرة عميقة ، واكتسب فراؤها بريقـا نحاسـيا ، وزادت رغبتها فى اثارة الاهتمام كأية فتاة مراهقة ..ومع انها كانت تحب تسلق الاشياء ، فقد أصـبحت الآن تصـعد فوق أعلى الاشـجار التى تجدها امامها ... ولـكن « الزا » كانت حـلوة الشمائل ، وكنـا اذا افترقنا عنهـا ولو فترة قصـيرة استقبلتنا بتحية حارة وترحيب قلبى وهى تمسح رأسـها فى أجسامنا ، وتموء فى أنين خافت . وكانت تدرك على الفور شـعور الحب حيـالها ، وتستجيب فى ود وصـداقة . . . وكانت تحب مداعبـة ضـيوفنا العصبيين ، لا لانها تحاول ايذاءهم ، ولكن لانها تجد لذة فى ادخال الرعب الى قلوبهم !

وكان الاشخاص الذين لا يصدقون ان لبؤة مستأنسـة تعيش معنا ، يقبـلون كثيرا لرؤيتهـا بانفسـهم ، وعندما وصـل زوجان سـويسريان لرؤيتها ، انطلقت نحو سيارتهما بروح يملؤها الفضول وروح الصـداقة ، وكان الزائران يعتقدان انها عبارة عن شىء صغير يستطيعان التقاطه وتدليله ولـكنهما عندما شـاهدا الزا قادمة نحوهما بجسمها الذى يزن ١٣٥ كيلو جراما ، توقفا فى مكانهما رعبا .. وتطلب الامر بعض الوقت لاقناعهما بالنزول من السـيارة والانضمام الينا لتنـاول الغـداء ! وقد رحبت الزا بالضيفين الغريبين ، حتى اغرما بهـا والتقطا لهـا صـورا كثيرة معهما فى

كل وضـــع .

الجنس ونداء الادغال

وظهرت أمامنا مشكلة أخرى .. لقد أصبحت الزا أنثى ناضجة ، على استعداد للزواج... كانت تبدو أنها تجتاز مواسم الرغبـــة الجنسية مرة كل شـــهرين ونصف شـــهر ، ويظهر ذلك من هريرها المرتفـع والرائحـــة الخاصة التى تنبعث منهـا . وكانت تتبعنا عادة أينما ذهبنا ، ولكن حدث بعد ظهر أحد الايام أن قادتنا هى فى اتجاههـا وسرعان ماوجـــدنا آثارا حديثة لاقدام أسد ... وعندما حل الظلام ، تركتنا ورفضت أن تعود !

ورجعنا الى البيت بقلوب حزينة ، ولـكننا لم نلبث أن انطلقنا بالسيارة للبحث عنها ، فقـد كنا نخشى كثيرا على سلامتها .. وسمعنا زئير اسود يدوى على مسافة بضـع مئـات من الامتار ، فسرنا نحو الصوت ، حتى اسـتطعنا أن نرى بريق ثلاثة ازواج من العيون !

وأحسسنا بارتيـاح بالغ عنـــدما وجدنا الزا أخـيرا ... كانت تشم بأنفها بين الاشجار دون أن يصيبها أذى ، ولكنها تجاهلتنا تماما ،وعندما بدأت الاســود تناديها مرة اخرى ، سارت نحوها ...

وصحت قائلة : كلا يا الزا .. لا تذهبى .. سوف تقتلك .

فتوقفت مرة أخـــرى ، ونظـــرت الينـــا ، ثم التفتت وراءها الى أبناء جلدتها حائرة لاتدرى ماذا تفعل .. وأخيرا أطلق جورج رصاصتين فوق الاسود فأسكتها وجعلها تفر هاربة ، وعنـــدئذ انطلقنـــا عائدين بالســـيارة ببـــطء ، آملين أن تتبعنـــا الزا ، وما لبثت أن قفزت فوق سقف السيارة وعادت معنا الى البيت .

ولـــكنها لم تســـتطع أن تتجاهل نداء الطبيعة ... وعنـــدما عاودتها الرغبة فى الموسم التالى ، أخذت تزأر أثناء سيرها مع نورو، وأخيرا تركته واختفت فوق التلال ، وبعد ساعات من البحث والنـــداء ، رأيناها مقبلة نحونا ، وما لبثت أن ألقت بنفســـها عند أقدامنـــا وهى تلهث ، ولاحظت آثار مخالب دامية على سيقانها الخلفية وكتفيها ، وثقبين داميين على جبينها

وكثيرا ما تســـاءلنا بعد أن التقت « الزا » بالاسود عدة مرات ، لماذا لم تنجب اشبالا ... وعرفت فيما بعد من أحد الخبراء فى علم الحيوان أنه من المحتمل الا تكون الاتصالات التى تمت معها كافيـــة لحملها ... وعلى أية حال ،فقد أصبح لزاما علينا الآن

ان نواجه مشكلة تغيب « الزا » فى جولات كثيرة تقوم بها بمفردها وسط الادغال ، ثم تعـود الينا بعد بضـع سـاعات طلبـا للماء والطعـام لانها لاتزال تنظر الينا كأننا عشيرتها وكأن بيتنا هو بيتها ... .

وكانت الآن فى الشـهر السـابع والعشرين من عمرها ، وقـد اكتمل نضجها ، وكنـا نعرف جيدا أننا لن نستطيع الابقاء عليها معنا الى أجل غير مسمى ، وقـــد فكرنا أول الامر فى ارسالها الى حديقة حيـوان روتردام لتلحق بشقيقتيها ، ولكن مشروعاتنا لها لم تلبث ان تغيرت ، بعد أن رأينا أنها أصبحت تألف الادغال وتبدو أنها فى بيتها وهى تسـير وسطها .. وأصـبحنا على ثقة من ان « الزا » تستطيع ان تشق طريقها بنفسها اذا نجحنا فى تدريبهـا على الدفاع عن حياتها والاعتماد على نفسها ..

لم يكن هناك خيار أمامنا ... ان الزا يجب ان تعود الى احضـان الطبيعة لمصلحتها ومصلحتنا !

نعم الروابط

ولكن الامر لم يكن سهلا ...

لقد صحبناها معنا فى رحلة صيد الى منطقة مقفرة ، توجد فيها أسود كثيرة ، آملين أن نقدمها الى أبنـاء جلدتها ونعلمها كيف تصيد طعامها .. ونزعنا عنها طوقها ، كرمز على تحررها ، ولكن الزا لم تكترث لذلك بل ظلت رابضة فوق سقف السيارة وهى تفحص الارض الجديدة بنظرات كلها أنفة وكبرياء.. وعندما انزلناها لتطارد غزالا أو ضبعا ، أخذت تقفز وتثب ، وهى تسترق الخطى وراء الحيوان ، دون ان تقترب منه لتضربه أو تقتله .

وفى ذات صـبـاح ، تبعنا بعض النسور التى تحلق فى السماء ، حتى وجدنا أسدا يفترس حمارا وحشيا ، وينهش لحمه دون ان يعبأ بالالتفات الينا ... ونزلت الزا من السيارة فى حذر ، وأخذت تموء وهى تتقدم صوبه فى حرص شديد ، وأخيرا رفع الاسد رأسـه وتطلع الى الزا وكأنه يقول لهـا : « ألا تعرفين تقـاليد الاسود ؟ كيف تجسرين يا امرأة على التدخل فى شئون سـيدك وهـو يتناول طعـامه ؟ . . ان عليك ان تصيدى من أجلى ، ثم تنتظرى حتى آخذ أنا نصيب الاسد ، وعندئذ لك أن تأخذى ما تبقى منى ؟ .. »

ولم تعجب الزا بهذا الاسلوب ، اذ عادت سريعا الى ملاذها فى السيارة ، واستمر الاسد يتناول طعامه ونحن

نرقبه طويلا ، على أمل ان تستعيد الزا شجاعتها ، ولكنها ابت ان تبارح السيارة مرة أخرى .

وفى اليوم التالى كان حظنا أفضل من اليوم السابق ، فقد وجدنا اسدا شابا يستريح بين الحشائش وتحت أشـــعة الشمس ، ويبدو ان الزا أحست بميل نحوه ، فقلنا فى أنفسنا أنه أصلح زوج لهـــا ... وسرنا بالسيارة حتى اصبحنا على مسافة ٣٠ مترا من الاسد ، فتطلع فى دهشة الى عروسه المرتقبة وهى تجلس فوق سقف السيارة ... ولكنه استجاب لها بطريقة ودية . والظاهر ان الزا قد تغلب عليها خجلها فأخذت تموء بصوت خفيض ، وظلت فى مكانها حتى أقنعناها أخيرا بالهبوط ... ثم انطلقنا بالسيارة الى الوراء مســـافة قصيرة ...

وبعد تردد قصير ، استجمعت الزا شجاعتها وسارت صوب الاسد ، وعنـــدما أصبحت على بعد عشر خطوات منه ، نهض الاســـد وبدأ يسير نحوها ، وفى اللحظة الاخيرة أصابها الذعر ، فأطلقت لســـاقيها الريح نحو السيارة !

وقررنا أن نحاول اخذها مرة اخرى عندما تكون جائعة مستريحه النفس .

والتقينا لحسن الحظ بأسد وسيم آخر كان على وشـــك الانتهاء من تناول طعامه من جثة حمار وحشى صغير ، ولم يعد يمانع فى مشاطرتها له هذه الوجبة .. وكان هذا أفضل مايخدم هدفنا ..

وقفزت الزا من السيارة وانطلقت نحو الطعام ، وعندئذ أسرعنا بالسيارة بعيدا بأسرع ما نستطيع ، تاركين اياها بمفردها لتواجه مغـــامرتها الليلية ...

وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى ، ذهبنا لزيارتها ونحن نأمل أن نرى زوجين سعيدين ، ولكننا وجدنا الزا المسكينة بمفردها تنتظرنا فى نفس البقعة التى تركناها فيها ! ... واستبد بها الفرح لرؤيتنا ، فأقبلت تحتضننى وتمتص أصابعى ، وأحسست بالاسى والحـــزن لاننى آذيت احساساتها دون ان اتمكن من شرح مقصدى لها .. وهو أننا لا نفعل الا ما فيه خيرها .

وتركناها بعد ذلك فى مناسبات كثيرة ، ولكننا كنا نعود لنجدها دائما فى انتظارنا ، جائعة متعبة ... وفى احدى الليالى ، سارت ١٣ كيلومترا عائدة الى معســـكرنا وقد امتلأت بالخدوش وسالت منها الدماء .

كان كل ما تريده ، ان تبقى معنا مطمئنه الى جنبنا ..

وقد سررنا كثيرا يوم صادت الزا أولّ حيوان بنفسها لتأكله ، فقد أدركنا انها تعرف بغريزتها كيف تميت صيدها بأسرع طريق كعادة الاسود ، ومع انها لم تجد أما تعلمها كيف تتصرف مع الجثة ، فقد عرفت فعلا كيف تبدأ بالتهام الاجزاء الطرية من السيقان الخلفية ، ثم تمزق الاحشاء وتدفن الامعاء بحرص وتغطى كل أثر للدماء ، ولعل هذه طريقة غريزية تستخدمها الاسود لخداع النسور !.

وبعد ظهر أحد الايام ، كنا نتجول فى بقعة ظليلة الى جوار النهر ، وغفت الزا قليلا ، بينما أسندت رأسى الى خاصرتها ... وفجأة سمعنا زئير أسد فى أعالى النهر ، فارتعشت الزا ، وقفزت على قدميها ، ثم سارت بهدوء بعيدا عنا .

وفى ساعة متأخرة من تلك الليلة ، عادت الى خيمة جورج ، وظلت تمر بمخالبها حوله بلطف وحب ، كأنما تريد ان تقول : « أنت تعرف انني أحبك ، ولكن هناك صديقا فى الخارج يجب أن أذهب اليه » وانطلقت مرة أخرى ...

وفى صباح اليوم التالى ، وجدنا آثار أقدام أسد ضخم قرب المعسكر ، كان ولاريب ينتظر عودة الزا بعد ان تشرح الموقف لجورج .

وداعا يا الزا

كانت هناك حافة صخرية على بعد كيلومترات قليلة من معسكرنا ، هى المكان المفضل لالزا ، حيث تتمدد على صخرة كبيرة منبسطة وتتطلع الى المناظر التى تقع تحتها ..

وذهبنا الى هناك لنراها مستعينين بالنظارات المكبرة ، فشاهدناها ترقد فوق الصخرة ... فقررنا ان نتركها هناك .

ومع أننا أعددنا أنفسنا لهذه اللحظة حتى نكفل لالزا مستقبلا أكثر سعادة مما ستجده فى الاسر ، فقد أحسسنا بألم جارف عندما حان وقت الوداع .

لقد نشأت الزا على حبنا ، فهل تستطيع ان تنسى كل ما كان مألوفا لديها ؟ .. هل تستطيع ان تصيد طعامها عندما تجوع ، أم تنتظر عودتنا فى اطمئنان ، واثقة أننا لن نتخلى عنها ؟

وآن لها أن تعرف ان الامر قد تطلب منا قوة جبارة لكى نتخلى عنها ونعيدها الى أحضان الطبيعة ؟

***

وانتهى الاسبوع ، وعدنا لنرى كيف اجتازت « الزا » الاختبار ... وبحثنا عن آثار أقدامها فلم نجدها ، وبدأت أناديها ، وسرعان ما سمعنا صوتها المألوف ، ورأيناها مقبلة من ناحية النهر وهي تعدو بأسرع ما تستطيع .. ودل ترحيبها البالغ بنا على أنها افتقدتنا كثيرا ، فقد أخذت تتمسح بنا في حنـــان بالغ ... وصحبتنا الى النهر وجلست تستريح معنا ...

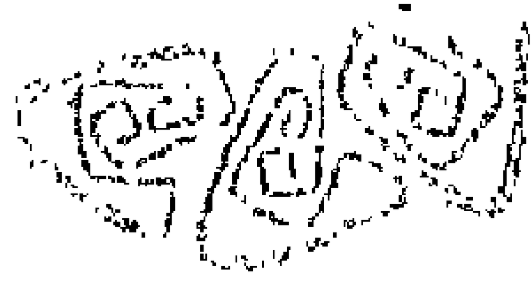
لقد أحسست الآن بالسعادة ، بعد أن اطمأننت على مستقبل الزا .. ولعلها أحست نفس الاحساس ، اذ أنها نامت على حجري كما كانت تفعلُ دائما ! ..

وفي تلك الليلة ، دخلت الزا مرة أخرى ولم تظهر بعد ذلك ... وفي صباح آخر أيام معسكرنا ، رأيناها من خلال النظارات المكبرة ، وهي تقبع فوق الصخرة العالية ...

وعندما مرت ســيارتنا من تحت الصخرة ، ظهرت الزا في الافق ، وأخذت ترقبنا في حنان ونحن نبتعد عنها .

لقد أصبحت الزا حرة الآن ، وان كنا قد دفعنا ثمنا مريرا لذلك .. ومازلت أذهب لزيارتها كل بضعة شهور ، حيث تبدو سعيدة لرؤيتنا ، وان كانت لاتفكر في العودة معنا .. وعندما تمسح وجهها في وجهي ، فانها تحاولُ ان تواسيني بقولها :

ـ ولكنني ولدت حرة !



سهرة ناجحة ..

عندما أقام الوالدان حفلة لبعض الاصدقاء، سمحا لطفلتهما بالبقاء ساهرة لتعنى بقبعات الضيوف ومعاطفهم ..

وتسللت الطفلة دون يراها احد الى المطبخ، واحضرت طبقا صغيرا وضعت داخلة قطعة نقود صغيرة ، ثم تركته على مائدة قريبة من مكان حفظ المعاطف ..

وعندما وصل أول الضيوف ورأى قطعة العملة في الطبق وضع هو الآخر فيه ربع دولار ..

وبعد انتهاء الحفلة، رأى رب الدار وزوجته ابنتهما وقد جلست تعد ارباحها التي بلغت حوالي سبعة دولارات !


احرقوا

كتاب الشهر

ملخص عن

The Night They Burned the Mountain

بقلم الدكتور توماس دولى

فى هذا الكتاب المثير ، يتحــدث الدكتورتوماس دولى عن مغامراته كطبيب فى شــمال لاوس على بعد ثمانية كيلو مترات من حدودالصين .. وكيف فوجىء هناك بنبأ اصـابته باخطر داء عرفتــه البشرية .. داء السرطانالرهيب .. وعلى الرغم من ذلك ، فقد عاد بعد شفائه يواصل اداء مهمته الانســانيةالنبيلة .

وفى نوفمبر ١٩٥٩ ، قدم الدكتور تشارلسمايو مدير مستشفى ـ مايو كلينيك ـ الشهير فى روشستر جائزة كريس الى الدكتوردوماسدولى لخدماته الانسانية ، وقال الدكتور مايو وهو يقدم الجائزة: ((اننى أعد عمل الدكتوردولى النبيل مظهرا صادقا عظيما لانســـان حر يساعد غيره ممن كانوا اقل حظا منه ... وان عمله ليعد مثلا رائعا للتعاون الدولى فى افضل صوره))

ليلة أحرقوا الجبل

كنا فى أواخر مايو ، وقد اقترب موسم الحــرارة الجــاف الطويل من نهايته فى لاوس ، ومع ذلك فقد كانت الحرارة لاتزال خانقــة لا تحتمل ، حتى فى الجبال الشمالية حيث يقع المستشفى الذى أقمناه ، ومن ثم فقد رحنا نعد الايام الباقية على بدء فصل الامطار الموسمية التى ستغرق الغابات بمياهها المنهمرة وتملأ الاخاديد الجافة والانهار ، وتعيد المياه الى الارض التى أصابها الجفاف .

وفى احــدى ليــالى مايو ١٩٥٩ ، وموسم الامطار يقترب ، كنت أواصل عملى الى ساعة متأخرة من الليل فى غرفة الجلوس بمنزلنا الذىيقع ضمن مبــانى المستشفى ، ولم يكن يعكر سكون الليل غير صوت آلتى الكاتبة واحتراق الزيت فى المصباح الموضوع على المائدة ... كان العــــرق يبلل أصابعى وقميصى القصــير الاكمام ، وقد غمرنىشعور بالكآبة والانقباض، وخامرنى احساس غريب بقلق لاأدرى

كنهه .

وخرجت اتلمس بعض الهـــواء المنعش ... كانت قريتنا « ميونج سنج » تقبع فى أحضان واد ، أشبه بكاس كبيرة ، تحف به جبال شاهقة الارتفاع ... وكانت « كأسنا » فى تلك الليله تغطيهـــا مظلة كبيرة من النجوم ، وقد لاحظنا ان سفوح الجبال كانت تتلألأ هى الاخرى بأضواء حية متراقصة ..

وظننت أول الامر أنهـــا بعض اليراع المنير ، ولكن الاضواء مالبثت ان ازدادت ضخـامة وارتفاعا ، وراحت تنتشر وتتفرع فى كتل كبـــيرة من اللهب ، وتسللت الى خياشيمى رائحة نباتات محترقة ، فأدركت أن النــار كانت تستعر فى أوراق الاشجـــار الجـــافة التى توجد بكثرة فوق الجبال ..

وانتشرت النيران فى كل مكان حتى بدا الوادى أشـــبه بكأس هائلة من اللهب وسرت موجات من الحرارة فى مبانى المستشفى ، وأضـــاء وهجها الجدران الموحلة ، وسرعان ما سمعت أصواتا وخطوات تهرول من ورائى ، ثم ظهر شبح أسود قصير الى جوارى ، ونظرت اليه فاذا به « نجوان » الذى يعد من أقدر مساعدى بين ابناء لاوس .. وقال فى هدوء :

ـ لا تنزعج ... انها الليلة التى يحرقون فيها الجبل

كنت قد نسيت تلك العادة البدائية التى تحرص عليها قبائل شمال لاوس ، حيث تقيم ذلك المهـــرجان التقليدى وتكرسه لزراعة الربيع ، فى ليـلة يختارها المنجمون والاطبـــاء السحرة قرب نهاية موسم الجفاف ... وتبلغ الاحتفالات ذروتها باحراق ســـفوح الجبال الجافة التى ستخصص لزراعة الارز .

كان هذا التفسير كفيلا بأن يجعلنى أتنفس الصـــعداء ، ولكنى بدلا من ذلك ، ازداد ذلك الشـــعور الغريب الذى كان مسيطرا على طوال الامسية .. واحسست بنذير شؤم غامض .

ولكن مم أخاف ؟ .. ان فى البنك مالا يكفى للانفاق على مستشفانا عاما آخر على الاقل ، ومع ان صحتى لم تكن على مايرام ، الا اننى نسبت ذلك للتعب والارهاق فى العمل ، وكنت أعتقد أن الراحة كفيلة بشفائى ..

وعدت الى البيت ، وألقيت بنفسى فى الفراش وذلك الاحساس لايزال يثقل على كاهلى ، بل انه ظل مسيطرا على عندما استيقظت بعد بضع ساعات وتطلعت الى الوادى الذى يغمره الدخان

الاسود .

كنت على ثقـــة ان شيئا ما سوف يحدث ... وسيحدث لى أنا بالذات .

***

كانت تلك سنتى الثالثة فى جنوب شرقى آسيا كطبيب يكافح المرض فى تلك المنطقة ... وقد بدأت سنتى الاولى عندما كنت ضابطا ناشئا فى الاسطول الامريكى عام ١٩٥٤ـ١٩٥٥ ولم أكن قد تجاوزت الثامنة والعشرين يوم عينت قائدا لمعسكر اجلاء الاهالى فى هايفونج فى فيتنام الشمالية ، وكنت حديث العمل بعد ان قضيت فترة كطبيب امتياز ، ثم وجدت نفسى فجاة مسئولا عن العناية الطبية بستمائة ألف شخص من اللاجئين فى فيتنام ، أكثرهم أصيب بأمراض لم أسمع عنها من قبل ، والبعض مصـــاب بجروح وتشويهات تتطلب جراحات عاجلة من جراح ماهر أكثر منى حنكة وتجربة

ومع كل ذلك ، فقد وجدت يومئذ ما يأمل كل طبيب ان يجده ... وجدت فرصة لتقديم الرعاية والحنان لمرضى فى أشد الحاجة اليهما ... وهكذا قدمت استقالتى من الاسطول فى عام ١٩٥٦ ، وعدت مرة أخرى الى جنوب شرقى آسيا ، وفى هـــذه المرة ذهبت الى (لاوس) وأقمت أول مستشفى من اكواخ الطين فى « فانج فينج » ثم أنشأت مستشفى ثانيا فى (نام ــ ثا) على بعـــــد ثمانيـــة كيلومترات من حدود الصين .

وقد ذكر لى بعض الامريكيين يومئذ أننى أدير عملية كتب عليها الافلاس ، وأننى أمارس طب القرن التاســـع عشر ، وكانوا على صواب ... ولكن الشىء الذى تناسوه ، هو أننى لم أكن أعالج اناسا يعيشون فى القـــــرن التاسع عشر فقط ، بل فى العصـــور الوســطى ، وكان هؤلاء النـــاس فى حاجة الى معونة طبية مهما تكن بدائية فى حساب المعايير الغربية ... وقد نجحت تجربتنا ، ولقيت استجابة حارة من الاهلين ومساهمة ماليـــة سريعة ... كان أطفـــــال المدارس يوفرون ملاليمهم للتبرع بها للمستشفى وعــرضت شركـات الادوية وأدوات الجراحة والطب امدادى بكل ما أريد ، وتطوع المئات من الاطباء والممرضات وطلبة الجامعات وغيرهم للعمل معى .

وفى نوفمبر ١٩٥٧ ســــلمت مستشفاى لحكومة لاوس ومعه فريق من المساعدين المدربين من ابناء البلاد ، والممرضات والقابلات وكل ما لدى من أدوات جراحيـــة وأدوية ، حتى يستطيع ابناء لاوس مباشرة العمـــل

بأنفسهم ، ثم عدت الى أمريكا لاضع مشروع المرحلة الثالثة ...

مولد « مديكو »

كان بين الاطباء الذين تطوعوا بخدماتهم الطبية ، طبيب يدعى بيتر كوماندوراس يتمتع بالكفاءة والخبرة وبعد النظر والقدرة على تنظيم المواقع الطبية على غرار عمليتى الاولى فى (نام - ثا) ... وقد اقنعه نجاح تجربتى بالاستقالة من عمله كمدرس فى احدى الجامعات الامريكية ليصبح سكرتيرا عاما لمنظمة التعاون الطبى العالمى (مديكو) التى انشأناها تحت رعاية لجنة الانقاذ الدولية ، وقد جمعت « مديكو » عددا من كبار الاطباء فى مجلس ادارتها ، وارتفع رصيدها من ارباح الكتب التى ألفتها والمحاضرات التى ألقيتها والتبرعات التى انهالت عليها من الشركات والافراد ..

وقام الدكتور كوماندوراس برحلات جوية الى ٢٣ دولة يبحث فيها حاجات المناطق المختلفة وفرص العمل فيها أمام جماعات منظمة (مديكو) .. وبعد ان اطمأننت على وجود المنظمة فى أيد قادرة أمينة ، قررت العودة الى لاوس فى يونيو ١٩٥٨ .

وفى هونولولو ، التقيت بدوايت دافيز وايرل راين ، الشابين الامريكيين اللذين تطوعا للعمل كمساعدين لى ، وأولهما فى السابعة والعشرين وكان طيارا بسلاح الطيران حارب فى كوريا ، وهو شاب طويل نحيل أزرق العينين ، له وجه صارم يخفى وراءه طبيعة تفيض رحمة وحنانا أما الثانى (ايرل راين) فيصغره بعام واحد ، وهو أقصر قليلا مستدير الوجه أسود الشعر ، وقد تدرب الاثنان على العمل الطبى فى أحد مستشفيات «أوستن» بولاية تكساس ، وقد تزوج كل منهما ممرضة ..

وتوقفنا فى طوكيو وهونج كونج لشراء بعض المهمات الاضافية ... وبينما كنت أراجع قائمة الاشياء التى نريدها قلت لزميلى :

- ينبغى ان نحصل على بيانو

فنظر الى الشابان فى دهشة .. وقالا معا :

- بيانو !

قلت :

- أجل .. ويجب ان يكون من نوع جميل ، معتدل الثمن ، يستطيع مقاومة جو الادغال ورطوبتها ...

وكان هناك ناد فى « كونكتيكت » قد ألح على فى قبول هدية شخصية منه ، وقرروا اهدائى آلة بيانو بعد

أن عرفوا أننى أهوى العزف عليه ، وقدموا لى شيكا بثمن البيانو .

ووجدنا فى هونج كونج بيسانو مبطنا بالزنك ... ومن هونج كونج ركبنا الطائرة الى سايجون حيث اشترينا سيارة جيب خضراء ، وانطلقنا الى (فنوم بنه) عاصمة كمبوديا حيث قمت بالترتيبات الخاصة بفريق جديد تابع لمنظمة (مديكو) ... وبعد أن انتهينا من عملنا فى العاصمة ، ذهبنا بالسيارة الى انجكور فات ذات الاطلال الاثرية الرائعة التى تضمها مدينة قديمة من عهد اسرة « خمير » ... وفى تلك الليلة سبحنا فى البركة الواسعة التى تقع وراء بلاط الملك المجذوم ، ثم جلسنا على الصخور المغطاة بالطحالب ...

وقلت بعد تأمل : عظمة وبؤس .. وجمال وقذارة ... هذه المتناقضات تملأ كل مكان فى جنوب شرقى آسيا ، حيث تجد الجمال الساحر للجبال التى تبهر الانفاس بفتنتها ، وأهل الجبال ذوى الطباع الرقيقة والثياب الزاهية الالوان ... وتجد أيضا صورا رهيبة من المرض والبؤس ...

لقد واجهت لاوس متاعب لا حصر لها ... ان أهلها يعيشون فى الماضى ويكافحون من أجل المستقبل ، وهم فى حاجة ماسة الى المساعدات الطبية العاجلة ، فليس فى البلاد كلها غير طبيبين فقط تلقيا دراسة طبية وفقا للمعايير الغربية ، فى حين تضم لاوس ثلاثة ملايين نسمة ... وفى المناطق النائية تزداد الامراض والجروح سوءا بسبب الاهمال والجهل والخرافات وعمل الاطباء السحرة ...

واستمع ايرل ودوايت الى حديثى فى هدوء ... ثم قال لى دوايت فى حزم :

ـ اننا نعرف ما نحن مقدمون عليه جيدا ... فلا تجعل القلق يساورك بشأننا ، فنحن قادرون على تحمل هذا العبء .

وصافحتهما فى حرارة ، ورحنا نسير وسط الاطلال الدارسة تحت ضوء القمر ، وانا اهنىء نفسى سرا بالحصول على مساعدة هذين الشابين الشجاعين الجادين ..

أهى بداية للمتاعب ؟

توجه ايرل ودوايت بالسيارة الجيب الى بانكوك عاصمة تايلاند للاشراف على شحن ٣٢ طنا من الادوية والمهمات التى شحناها من أمريكا ، بينما طرت أنا الى فين تشيان عاصمة لاوس حيث قابلت سانانيكون رئيس

الوزراء الذى كنت اعرفه عندما كان وزيرا للخارجية ، وقد أيد مشروعى لانشاء مستشفى جديد لجماعة مديكو (فى ميونج سنج) وان كان قد حذرنى قائلا : انه نظرا للموقف السياسى المتدهور فانوجود أمريكيين على بعد ثمانية كيلومترات من حدود الصين سيكون سببا للاستفزاز اكثر من ذى قبل ... ثم أكد لى ان كل جنود لاوس يحبوننا وانه سيصدر أوامره لهم بحمايتنا ، كما وعدنى باجابة كل مطالبى الخاصة بمعونة الحكومة واختيار بعض ابنـاء لاوس لمساعدتى .

ووصلت قافلة سيارات النقل من تايلاند حاملة مهماتنا ، ولكن المخزن الذى أعطى لنا فى لاوس لم يكن صالحا للاستعمال ، ومن ثم فقد أمرت السيارات باستئناف المسير الى بيت صديق من الموظفين الامريكيين كان مسافرا هو وأسرته ، وهناك أفرغنا الصناديق والمهمات التى تكدست فى الحديقة حتى أصبحت جدارا مرتفعا .

ومع أننى كنت لا أزال غارقا فى العرق وفى حاجة الى حمام منعش ، فقد انطلقت للبحث عن (تشاى) ، مترجمى الشـاب الضليع ، حلال المشكلات الذى اكتشفته فى عام١٩٥٧، واخذته معى فى فانج فينج وناموثا .. وقد عثرت عليه بعد هذين العامين زوجا سعيدا لحسناء كان يحبها ، وقد رحب هو وزوجته بالانضمام الينا فى رحلتنا الى الشمال .

وفى تلك الليلة ، تولى تشـاى ولفيف من اصدقائه حراسة صناديق الادوية والمهمات التى يبلغ ثمنها ربع مليون دولار ... وبعـد يومين ، شحنا ٨ أطنان من المهمات بالطائرة الى ليونجسنج ، ونقلنا الباقى الى مستودع لاوس ..

مديكو ... وسط الجبال !

ميونج سنج قرية تعـد نموذجا لقرى آسيا ، وهى تضم حوالى ٤٠٠٠ شخص ، يعيشـون فى واد يبلغ اتساعه ٤٠ كيلومترا ، ويبلغ عـدد سكانه المتناثرين فى مساحة واسعة حوالى ٤٠ الفا ، والقرية نفسها مربعة ذات اضلاع متساوية تقريبا ، وتحوى الف كوخ ومنزل فى صفوف منتظمة ، وتزدحم شـوارعها بالكـلاب والقطط والدواجن والاطفال ، وفى كل ركن من اركانها الاربعة ، قرية متصلة بها ، تشـبه كثيرا الاحيـاء الصينية او الايطالية فى البلدان الامريكية ، وهناك تعيش قبائل الجبل محتفظة بعاداتها وتقاليدها المتوارثة ولعل أهم مبنى فى

ميونج سنج هو القلعة الفرنسية القديمة ، وهى تشبه تلك القلاع التى نراها فى الافلام التى تعرض حياة الفرقة الاجنبية ، وتشغلها الآن كتيبة من جيش لاوس الملكى ، وعبر الطريق مباشرة تقع مجموعة من المبانى المتداعية التى تقرر ان تصبح مقرا للمستشفى ... وكانت تكفى نظرة واحدة اليها لندرك أنها فى حاجة الى عمل كثير شاق حتى تصبح منشأة نظيفة جديرة بمنظمة (مديكو) .

وبذلنا جهداً ضخما فى تحويل المبنى الكبير منها الى مستشفى ، ودعم بقية المبانى لتكون منزلا لاقامتنا ، وجدنا بعد ذلك مبنى متخربا كان يقع وراء المستشفى وجعلنا منه عنابر للمرضى ، وأوصلنا الابنية الثلاثة بممرات مغطاة بالقش استعدادا لموسم الامطار ..

وفى أحد أطراف الحديقة أقمنا مطبخا وخزانا للمياه ، وأنابيب من الخيزران تمتد حتى تصل الى خندق للمجارى .

كنت مهتما منذ البداية بتحقيق هدفى البعيد المدى لتدريب ابناء لاوس على القيام بهذه المهمة ، فطلبت من قائد القلعة أن يرسل لى عشرة من أفضل رجاله ، فوصلوا فى اليوم التالى ، وكانوا جماعة من الجنود الشبان الذين لا تجانس بينهم ، وكانوا حانقين ظنا منهم أنهم سيكونون عمالا فى المستشفى ، ولكنهم بعد أن عرفوا حقيقة العمل أقبلوا عليه فى حماسة شديدة ، وأثبتوا كغيرهم من أبناء آسيا انهم تلاميذ صالحون .

كان هؤلاء الفتيان يعانون طوال حياتهم من البؤس والمرض فى استسلام وخنوع ، وهاهم الآن يرون أن هناك أشياء يمكن عملها لوقف الوباء وتخفيف الآلام ، وهكذا أقبلوا على التدريب ومعالجة المرضى فى عطف وحنان ... ومالبثنا ان أضفنا اليهم ثلاث فتيات للتدرب على التمريض والولادة ..

وسرعان ما أصبحت الامور تسير فى سهولة ويسر فى المستشفى ... ولكن كانت هناك أوقات أحس فيها بالوحدة لاننى كنت كالقائد مسئولا وحدى عن النظام ، وعلى ان أبقى بعيدا عن الجماعة .

ساعات العمل

وانتشرت انباء حضورنا الى ميونج سنج حتى وصلت الى (نام ـ ثا) التى تقع على مسيرة يوم كامل عبر الجبال ، وهكذا أصبحت أرى مرضاى القدماء من أهالى نام ـ ثا يقفون فى

الطابور أمام المستشفى الجديد ...
لم يكونوا مرضى ، ولكنهم قطعوا هذه الرحلة الطويلة الشاقة ليقدموا لى احترامهم وتقديرهم فقط ، وكان البعض يحمل الهدايا والزهور ...

ومنذ اليوم الاول لافتتاح مستشفى (مديكو) الجديد ، أقبل عليه المرضى حتى ازدحم بهم ازدحاما شديداً ...
وفى كل صباح كنت أضع مقعدى أمام النافذة لارقب القاعة وهى تمتلىء بالناس ... كان هناك عجائز تملأ الغضون وجوههن ، ونساء بدينات تهتز أجسادهن من الضحك ، وأمهات جميلات ذوات بشرة سمراء وملامح رقيقة .. وأطفال يبدو عليهم الهزال والسقم .

كانوا يمرون أمامى يوما بعد يوم ، وأغلبهم مصاب بالملاريا والدوسنتاريا والامراض الجلدية والفطرية ، والالتهاب الرئوى والسل ، ونساء كثيرات يعانين من الآثار المروعة لاقسى وسائل الولادة ، واطفال يموتون من سوء التغذية بسبب الجهل لا نقص الطعام ، وجرحى تنبعث الروائح الكريهة من جروحهم العفنة ..

وفى كل صباح ، بعد الفجر مباشرة ، كان ايرل ودوايت يقومان بجولاتهما فى العنابر لتغيير الضمادات واعطاء الدواء للمرضى ؛ ويعالجان الحالات التى أجريت لها عمليات جراحية ، ويعدون غيرهم للجراحة التى سأقوم بها خلال النهار .. وبعد الظهر بقليل عندما ينتهى عملى فى العيادة ، كنت أقوم بمثل هذه الجولات بنفسى مع مجموعة من تلاميذى .

كان لدينا ثلاث غرف ، كل منها بها منصة مرتفعة ، وكنا نضع حصائر من الخيزران حول المنصات ، وكل منها تتسع لخمسة أو ستة من المرضى .

قليل من السحر

كان ايرل ودوايت يساعدانني فى عملى بغرفة العمليات ، بينما كان تشاى يقوم بدور رئيس ممرضى لاوس الذى يسيطر على زملائه من ابناء لاوس المدربين بيد من حديد .. وكان يجلس تحت أقدام مائدة العمليات ويصدر أوامره كأنه قائد أوركسترا .

كان تشاى مثلا رائعا لما يمكن عمله مع فتى من لاوس لم يتلق الا تعليما ثانويا ، وهو الآن فى الثالثة والعشرين من عمره ، وقد زاد وزنه على ما كان يوم وجدته فى عام ١٩٥٧ .. ولكنه كان من أفضل المرضين الذين رأيتهم فى حياتى ، وكان حريصا على ارتداء ثوبه الابيض النظيف ويرقب كل ما يدور فى غرفة العمليات .

وعلى الرغم من ذلك ، فقـــد كان تشاى كتلة من المتناقضات •• فهو لم يفقد ايمانه قط بوجود أرواح حيـة للاحجار والاشجار وغيرها من الجماد ••• كان يضع فى كل يوم تعويذة جديدة ويستعطف الارواح التى تسكن الاشجار والصخور والانهار •• وكان يدرك اصـــــول التعقيم والتطهير والتحصين ضد المرض ، ومع ذلك فقد كان لايزال يؤمن بطب السحرة •••

حدث مرة عندما كانت زوجتـــه مريضة ، أن أرسل تشاى يطلبنى • ولكنى ما كدت أصل • حتى وجدت الطبيب الساحر يجلس متربع الساقين الى جوار المريضة وهو يرتل (التعزيمات) والرقى ••• ونظر الى تشاى وابتسم فى خجل ثم قال : انها مريضة جدا •• ويجب ألا نترك أية وسيلة •

وكنت أحترم تشاى على الرغم من ذلك .. بل استخدم خرافاته احيانا، وقد عهدت اليه معالجة موضـــوع الاطباء السحرة فى المنطقة ، فقـــد كنت أدرك تماما مدى خطرهم علينا ، وانهم يمكن ان يكونوا اعداء خطرين، أو اصدقاء لا يؤذون •• ولكى نحول بينهم وبين انزال الاذى بمرضانا ، كنا ننتهج سياسة قديمة وهى «صادق من لا تستطيع هزيمته » ••• وهكذا عرضنا عليهم ان نعلمهم طريقتنا فى الطب ، على ان يعلمونا طريقتهم ••• وبهذا تفادينا أذاهم ••

نعمة الطفولة

كنت أفر من هذا العـــالم التعس بالجلوس أمام البيـــانو فى المساء ، وأترك أناملى تنطلق بى خلال العـــالم الجميل الذى صوره شوبان وبرامز وليست ، وكان الآخرون يحبون عزفى كما يبـــدو ••• كانوا يتوقفون عن القراءة أو الكتابة ، ويسود الصمت فى المطبخ ، ويقبـــل القرويون علينا ليجلسوا فى الشرفة الامامية فى هدوء للاستماع الى عزفى •

ولكنى أعتقد أن أطفال « ميونج سنج » كانوا ينشرون بيننا السلام والهـدوء أكثر مما تفعل الموسيقى ، وكانوا يجـددون ايماننـــا بالجنس البشرى ••• لقد عرفت لاوس باسم « أرض ملايين الافيـــال والمظـــلات البيضاء » ولكنها بالنسبة لى ستظل دائما « أرض الاطفال الصغار » ••• هؤلاء الذين كلمـــا سمعت ضحكاتهم ورأيت أدبهم الجم ، أو أعجبت ببسالتهم فى تحمل آلام المرض ، كنت أشـعر بالبهجة ، لان هؤلاء الاطفال الرائعين يمثلون المستقبل الحقيقى لآســـيا الحرة ••• ذلك المستقبل الذى لابد

ان يكون مشرقا حقا ...

الرحلة المشئومة

حدث ذلك فى فبراير ١٩٥٩ – أى قبل الليلة التى أحرقوا فيها الجبل بأربعة أشهر – عندما قمت بالرحلة المشئومة فى نهر (نام – تا) ...

ولعل الناس الذين يعيشون على طول النهر هم أكثر أهل لاوس مرضا وفقرا ، فلم يكن لديهم أى دواء غير بعض السوائل المخمرة التى يعدها لهم الاطباء السحرة ، ومن ثم فقد قررنا أن نقوم برحلة تستغرق ١٥ يوما فى الحوض الاسفل للنهر لزيارة القرى المنعزلة ومعالجة المرضى وتحصينهم ضد الاوبئة ، وقد سبق أن قمت بمثل هذه الرحلة مرارا فى عام ١٩٥٧ ، ومن ثم فقد كنت أعرف ان الخدمات الطبية العاجلة غير الكافية أفضل من لاشىء ..

وبقى ايرل فى ميونج سنج لادارة المستشفى ، وركبت أنا ودوايت وتشاى ومترجمنا نجوان طائرة حكومية مع لفيف من المرضين و ٤٥ كيلو جراما من الادويه والمهمات الى نام – تا .. والتقيت هناك بكثير من الاصدقاء القدماء الذين أقبلوا لتحيتى والترحيب بى ... وكان بيتنا القديم هناك عامرا بالذكريات . وقد احتله بعض تلاميذنا السابقين الذين أقاموا لنا مأدبة كبرى ، وفى اليوم التالى وضعنا مهماتنا فى ستة زوارق وبدأنا رحلتنا اسفل النهر ، وكنا نبدو ببنادقنا أشبه بجماعة تقوم بعملية غزو .. وبعد نصف ساعة تقريبا وصلنا الى أول جزء من الشلالات التى تعترض مجرى النهر ، فاندفعت الزوارق صوب الصخور ، وانهمر الماء فوقنا ، ولولا مهارة الرجال الذين يسيرون الزوارق لغرقنا جميعا ... وقد ظللنا نسير بهذه الطريقة حوالى أسبوعين .

وأمضينا الليلة الاولى فى قرية (بان سالى) الصغيرة حيث جاءنا فى الصباح أكثر من مائة مريض أغلبهم مصاب بالملاريا والالتهاب الرئوى والسل والانكلستوما وأمراض أخرى أسوأ من ذلك .

وفى اليوم الثانى عشر من رحلتنا ، وصلنا الى مصب نهر (نام – تا) الصغير السريع الجريان ، حيث تتدفق مياهه فى نهر « ميكونج » الكبير ، وكان علينا ان نقضى يوما فى تجديف شاق فى النهر الكبير نحو قرية (بان هوى ساى) حيث توجد محطة لدورية الحدود ومحطة لاسلكى ومطار صغير . ومن هناك كنت آمل ركوب طائرة الى

« فين تشيان » فى طريق عودتنا الى ميونج سنج .

وفى نهاية اليوم الاول من السير فى نهر ميكونج ، أصابنا ارهاق شديد ، فقررنا ان نقضى الليل فى قرية صغيرة تربض على قمة ضفة صخرية عالية على جانب النهر ... وتسلقت أنا وتشاى ضفة النهر لنقابل زعيم القرية ، ثم عدنا نهبط الى حيث كان رجالنا يفرغون عتادنا على الشاطىء .

ولست أدرى كيف فقدت توازنى فسقطت الى أسفل مسافة سبعة أمتار ونصف متر ، حتى استقررت فوق الصخور وقد تمزقت فروة رأسى وأصبت بكدمات وجروح فى كتفى اليمنى وجانب من صدرى ...

وكانت تلك الحادثة بداية محنة طويلة مؤلمة ...

أيام « نيام فون » السوداء

بعد أقل من اسبوع من الليلة التى أحرقوا فيها الجبل ، بدأ « نيام فون » ... أو موسم الامطار الموسمية ، وقد بدأ بعواصف رعدية استوائية بالغة الشدة ، وانهالت أمطار لا تنقطع حتى غمرت الوادى ، وكانت السحب المنخفضة تحول دون رؤية قمم الجبال بل كنا لانكاد نرى السماء ...

وأصبحت أحس بالايام تزداد طولا ... وزاد الالم فى صدرى ، ولكنى كنت أحس أننا فى حالة طوارىء تتطلب العمل رغم الارهاق الشديد ..

وفى ذات يوم هبطت طائرة صغيرة فى المطار الغارق فى المياه ، فركبتها الى « فين تشيان » وهناك ركبت طائرة أخرى الى « فنوم بنه » بكمبوديا لاقوم بزيارة مستشفانا الجديد .

وبينما كنت فى فين تشيان أحسست بكثير من الاوجاع والآلام التى عزوتها الى جروح صدرى وتقدم السن ... وعندما ركبت الطائرة الى ميونج سنج أحسست بصداع عنيف وحمى مرتفعة ، ولم نكد نهبط من الطائرة ، حتى كنت قد أصبت تماما بالملاريا مع رعشة وحمى بلغت درجة حرارتها الاربعين ... ولكن بعد ٢٤ ساعة من الراحة فى الفراش ، هدأت الرعشة والحمى ، وأصبحت لا أشعر بغير الارهاق ، ولكننى كنت عازما على العودة للعمل .

وازداد الالم فى جنبى حدة ، واكتشفت بروزاً فى الجانب الايمن من صدرى كان قد بدأ بعد سقوطى على الصخور بقليل ، ولكنه انتفخ الآن حتى اصبح فى حجم كرة الجولف ... وكانت ذراعى وكتفى تؤلماننى

أحيانا ألما شديدا حتى اضطر للتوقف عن العمل واطلب من احدى الممرضات تدليكهما .. ولم أستطع ممارسة هوايتى فى العزف على البيانو ، بل أصبحت ضيق الصدر كثير الانقباض

وفى أحد أيام يوليو بينما كنت اعمل فى المستشفى ، سمعت صوت طائرة ، فركبت السيارة الجيب وانطلقت الى المطار الذى تغمره الاوحال ، فوصلت الى هناك عند هبوط الطائرة ... ونزل منها صديقى القديم الدكتور بيلى فان فالين من كاليفورنيا ، وكان قد وعدنى منذ زمن طويل بزيارتى فى شمال لاوس ومساعدتى فى أعمال الجراحة .

الشىء الاسود العجيب !

وفى اليوم التالى ساعدنى بيل فان فالين على انجاز بعض العمليات الجراحية التى تكدست أخيرا وعندما جلسنا فى المساء بعد الانتهاء من العمل ، طلبت اليه ان يلقى نظرة على صدرى .

وبعد ان فحص صدرى ، وافقنى فى حذر على تشخيص هذا النتوء بأنه قد يكون كيسا دهنيا أو جلطة دموية ناتجة عن جراحى ... وقال فالين :

ــ مهما يكن هذا الشىء فانه يجب ازالته دون تأخير بعملية جراحية

وفى الصباح التالى رقدت على مائدة العمليات ، واعطانى مخدرا موضعيا ، وهكذا استطعت ان ارقب وجه فالين وان لم أستطع رؤية ما يفعله ... وعندما استأصل الورم ، رأيت مظاهر القلق تبدو على وجهه .

وسألته :

ــ أهو أسود حالك يا فالين ؟

فقال :

ــ أجل ... انه أسود حالك ياتوم .

كنت أعرف ان هناك نوعا واحدا فقط من الاورام السوداء ... انه شىء خطير يسمى الورم الاسود الخبيث ، ولكن العقل البشرى يستطيع ان يفعل أشياء عجيبة ، ومن ثم فقد اخترت ان اعتقد ان هذا الشىء الذى انتزعه فالين من صدرى ليس الا جلطة دموية تكلست وتصلبت ..

ووضع بعض اجزاء من الورم فى زجاجتين صغيرتين بهما محلول الفورمالين ، وقال انه سيأخذهما الى بانكوك بمجرد رحيله عن ميونج‌سنج

وفى خلال اسبوع ، اختفت آلام الجراحة ... ولكن آلام صدرى عادت ، وان كانت كثرة الاعمال قد غطت على فكرة السرطان الاسود الرهيب فلم تمر ببالى قط .

الاستعداد للحرب

فى أواخر يوليو ، نشب قتال فى (سام نيوا) حيث اكتسح الثوار كثيراً من القرى ، وفى ٥ أغسطس أعلن جيش الحكومة حالة التأهب العسكرى فى الاقاليم الشمالية ، فأرسلت ايرل فى مهمة الى فين تشيان ، ودوايت الى كامبوديا لابعاد الشباين عن مناطق الخطر ، ولكن بغير ايرل ودوايت أحسست بالوحدة ومزيد من الانقباض وزاد القلق الغامض فى صدرى ، وعندما عاد ايرل من فين تشيان ، أحضر لى رسالة من صديقنا العزيز هوراس سميث السفير الامريكى فى لاوس قال فيها أنه يخشى ألا يتمكن جيش لاوس من ضمان سلامتنا بصفة مستمرة ••• وان السفارة لا تستطيع أن تضمن الفرصة لاجلائنا بسلام اذا تطور الموقف بسرعة ••• ولكنى رددت على السفير بقولى اننى أشعر بأن واجبى يدعونى للبقاء فى المستشفى

وفى يوم السبت ١٥ أغسطس ، جاء أحد جنود لاوس وأبلغنى انه جاءت برقية باسمى عن طريق الجيش واننى أستطيع تسلمها فى كشك للاسلكى بالقلعة ، فتوجهت الى هناك حيث تسلمت رقعة رقيقة من ورق أزرق ••• وجلست الى جوار عامل اللاسلكى وترجمت الرسالة التى جاء فيها :

« من بيتر كوماندوراس • يجب عودة الدكتور دولى الى الولايات المتحدة فورا »

ولم أدر أى معنى لما جاء بالرسالة •

لماذا أعود الآن الى أمريكا ؟ ••• ما هو الامر العاجل الذى يتطلب عودتى ؟

هل حدث شيء لامى ؟ هل أفلست المنظمة ؟ •• هل طلب السفير من وزارة الخارجية استدعائى ؟

وقال ايرل فى قلق : مهما يكن الامر فانك يجب أن تسافر فورا •

وهكذا قبلت السفر •••

وفى العاصمة قال لى السفير انه لا يدرى شيئا عما جاء فى البرقية أو عن سبب استدعائى فقلت : اننى سأذهب الى بانكوك للاتصال تليفونيا بنيويورك ••

هذه هى الحقيقة ؟

قبل ظهر اليوم التالى هبطت فى مطار بانكوك الدولى فتوجهت فورا الى مكتب البريد لاطلب مكالمة تليفونية مع أمريكا ••• وانتظرت الى السابعة مساء حتى عرفت أننى لن أستطيع اتمام المكالمة ، فسافرت الى هونج كونج

حيث المواصلات التليفونية اسهل ..

كانت آلام صدرى قد زادت زيادة كبيرة وأنا أجلس فى أحد المطاعم ، وما كدت انتهى من الطعام حتى وجدت بيانو ، فجلست أعزف عليه قليلا ، وبينما كنت أعزف افتتاحية كونشيرتو تشايكوفسكى اذ سمعت شخصا يقول من ورائى :

ـ كيف حالك يا توم ؟

فتلفت خلفى ووجدت صديقى هانك ميللر مديرمكتب الاستعلامات الامريكى فين فين تشيان وزوجته الحسناء آنى .. واستطرد يقول :

ـ توم ... اننى لم أعهدك فى مثل هذه الصــــورة من قبل ... ماذا حدث ؟

وأخذت أســكب فى أذنيــه كل متاعبى فى بضع دقائق ... وأخـيرا قال :

ـ اننى أعرف سبب اســتدعائك للعودة ... ساقول لك الحقيقة ... هذا الورم الذى استأصله لك الدكتور فان فالين ثبت انه ورم خبيث فى المرحلة الثانية

وعلى الرغم من قسوة النبأ ، فاننى لم أشعر بصدمة أو خوف أو هلع .. مجرد تخدير يسرى فى أعصابى :

لقــد عرفت الحقيقــة الآن ... كنت كطبيب أعرف ان الورم الاسود الخبيث هو اسرع قاتل بين كل أنواع السرطان ..

وقررت العودة فورا الى نيويورك .

جبل شامخ

فكرت كثيرا فى الحياة والموت وأنا اقطع نصف العالم بالطائرة ... كنت أعرف أن الاحصاءات تقول ان حوالى ٥ ٪ فقط من المرضى بهذا النوع من السرطان يعيشون سنة واحدة ، ومع ذلك فاننى لم أكن مســـتعدا للتخلى عن الامل والايمان والحيــاة بسبب هذه الاحصاءات وكتب الطب التى تقول انه أكثر الاورام انتشارا فى اعضاء الجسم .

وفى السادسة من مساء الخميس ٢٠ أغسطس سنة ١٩٥٩ وصلت الى مطار نيويورك الدولى وهناك وجدت الدكتور بيتر كوماندوراس فى انتظارى .. وبعد يومين دخلت المركز التذكارى للسرطان والامراض المتحالفة معــه ، حيث قاموا بفحصى واختبارى والكشف على بأشعة X وكنت أعرف أن نتائج هذه الاختبارات قد تسفر عن ضرورة بتر ذراعى اليمنى وكتفى .. ولاشك ان جراحا بذراع واحدة لن يصلح للبقــاء فى لاوس ... او أى مكان آخر .

وفي اليوم التالى قال لى الطبيب : انه لن يكون هناك داع لبتر الذراع وانه سيقوم بازالة جزء كبير من الجلد والعضلات والعقد والاوردة والاعصاب والانسجة من الجانب الايمن لصدرى وابطى ••• وانهم سيأخذون جزءا من الجلد من فخذى لتطعيم جدار الصدر العارى •

***

عندما استيقظت بعد العملية ، تذكرت كوماندوراس وهو ينحنى فوقى قبل ان استغرق فى غيبوبة تامة ••• وبعد ثلاثة أيام من العملية كنت أجلس فى فراشى وانا أحس بآلام كالجحيم فى كل جزء من جسمى •

وأقبل الكثيرون لزيارتى •• كانت الصحف والاذاعات قد نشرت الكثير عن العملية ، وتلقيت أكداسا من الرسائل من كل انحاء العالم يتمنى لى اصحابها حظا سعيدا •

وبينما كانت الايام تمر ، كان الضجيج يزداد فى غرفتى •• فالى جانب ! الذين يقومون بتغيير ضماداتى ، والممرضات اللواتى يعطيننى الحقن ، كان هناك سكرتيرون يحضرون بريدى وأملى عليهم الردود •• وفى أول سبتمبر اصبحت منظمة (مديكو) هيئة مستقلة ، وانهالت عليها الهدايا والتبرعات .

وما كدت أخرج من المستشفى ، حتى قررت الذهاب الى هاواى للنقاهة على أن أذهب بعد ذلك للقيام بجولة لالقاء المحاضرات لجمع الاموال اللازمة للمنظمة ، ثم أعود الى لاوس فى عيد الميلاد ••

وفى الوقت الذى أكتب فيه هذه الكلمات فى أوائل ١٩٦٠ ، وقد عدت الى ميونج سنج وانهمكت فى عملى بالمستشفى ، فان السؤال الذى يسأله الجميع هو :

ـ ما هى فرصة شفائك يا دولى ؟

وأنا أقول بكل صراحة اننى لا أعرف ••• ليس علينا الا ان ننتظر ونرقب ، وان ندعو الله ونثق فى حكمته ••

اننى أعتقد ان الشىء الهام ليس المدى الذى نعيشه ••• بل ماذا نفعل فى الايام التى وهبت لنا ؟

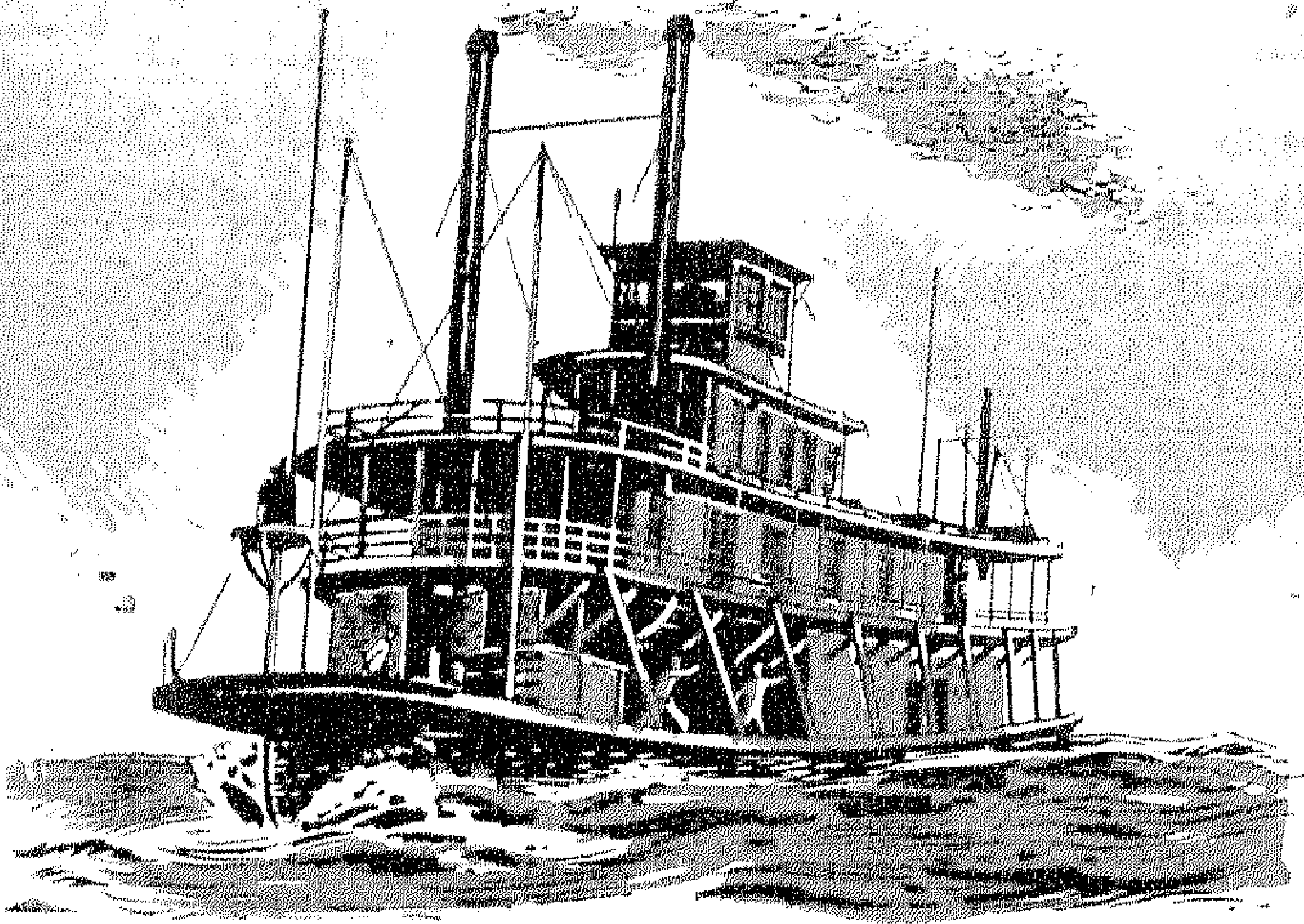
همسه !

كان موظف الحكومة يجلس مع زميله فى مقهى المصلحة يحتسيان القهوة .. وفجأة قال لزميله :

ـ يستحسن أن أعود الآن الى مكتبى حتى لا أتأخر عن موعد الانصراف .

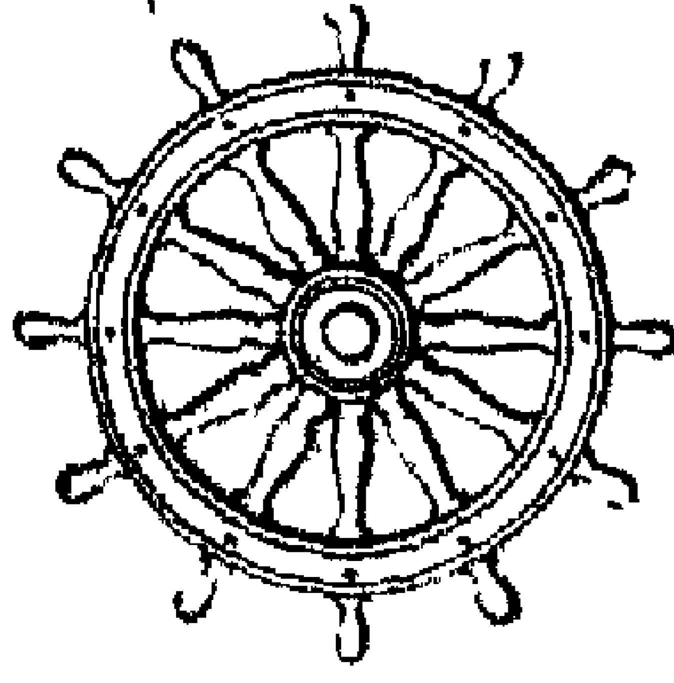
كتاب الشهر

حياتى فوق المسيسبى



لم تستغرق حيـــاة البواخـــر التى تعبر المسيسبى أكثر من ٦٠ عاما ، وهى حياة قصيرة ولكنها زاخرة بالمجد والفخار .. وقد نشأ مارك توين ــ واســـمه الاصلى صمويل لانجهورن كليمنس ــ وترعرع فى تلك الحقبة الزاهية من القرن الماضى ، عندما كانت هذه الصناعة فى قمة مجدها وذروة عظمتها .. ومنذ كان صبيا وقع مارك توين أسيرا لسحر المسيسبى الذى خلده فيما بعد فى كتبه الكثيرة ، حتى انه فر من بيته وأسرته وأصبح تلميذا لاحد مرشدى البواخر ...

وفى هذه القصة الكلاسيكية ، يتحدث عن غرامه بالنهر ، ويذكر مباهجـه ومتعه ، وما قاساه فى سبيل تعلم فن الارشاد فى حذق وبراعة ...

حياتى فوق  المسيسبى

عن كتاب **The life on the Mississipi**

بقلم مارك توين

عندما كنت صبيا لم يكن هناك غير مطمح واحد دائم يداعب خيال الرفاق فى قريتنا التى تقع على الضفة الغربية لنهر المسيسبى وهو أن نكون من رجال البواخر التى تمخر عباب النهر ..

وفى كل يوم ، كانت باخرة زاهية المنظر تصل الى البلدة فى طريقها الى أعالى النهر ، واخرى تتجه الى حوضه الاسفل .. ومازلت اتصور البلدة البيضاء الناعسة تحت أشعة الشمس فى صباح يوم من ايام الصيف شوارع خالية ، ومستخدما أو اثنين يجلسان أمام الحوانيت المتراصة على طول شارع الميناء ، وقد مالا الى الوراء مستندين الى الجدران بينما مالت قبعاتهما فوق جبهتيهما ، واغمضا عيونهما كأنما ارهقهما الجهد الذى بذلاه ، وهناك خنزيرة تتسكع مع صغارها على طول رصيف الميناء تلتهم قشور البطيخ وبذوره ، وكومتان صغيرتان وثلاث من البضائع متناثرة على ضفاف النهر ، بينما نام أحد السكارى فى ظل احداها وقد فاحت منه رائحة الخمر .. ونهر المسيسبى المهيب يدفع مده الذى يبلغ مداه ميلا ، وقد التمعت مياهه تحت أشعة الشمس .. وفجأة تبدو فى أعلى النهر طبقة رقيقة من دخان أسود ، وعلى الفور يطلق زنجى اشتهر بصوته الهائل صيحة عالية « باخرة مقبلة » .. وسرعان مايتغير المشهد كله ..

ويتحرك السكير ، ويستيقظ الموظفون النائمون .. وفى لمح البصر يصبح كل شىء فى المدينة الميتة حيا يتحرك .. العربات والرجال والغلمان الكل يسرع نحو رصيف الميناء ، ولا يكاد هذا الحشد يتجمع هناك حتى يحدقوا جميعا بأعينهم فى الباخرة المقبلة كأنما هى مشهد عجيب يرونه لاول مرة انها باخرة طويلة أنيقة ذات رونق جميل ، لها مدخنتان عاليتان يتأرجح بينهما شعار ذهبى اللون ، ومقصورة

للقيادة كثيرة الزخارف ، كلها من الزجاج ، ورموز تشبه المخطوطات القديمة على سطحها الاعلى حيث توجد مقاصير الضباط وصناديق عجلة المجاديف الفاخرة المظهر ، مع صورة أو شعاع ذهبى فوق اسم الباخرة ،وقد احيطت أسطح السفينة بحواجز بيضاء انيقة ، ورفرف فوق السارية علم كبير ، وفتحت أبواب الافران التى تتوهج فيها النيران بقوة، وامتلأت الاسطح العليا بالركاب ،بينما وقف الربان الى جوار الناقوس الكبير، هادئا مهيب الطلعة ، الكل يحسده .. وكميات ضخمة من الدخان الحالك السواد تنطلق من مداخن السفينة ، (وهو مظهر متعمد للعظمة ، ينتج من بعض الاخشاب التى ينبعث منها دخان كثيف) ، تطلقه البواخر قبل وصولها الى كل بلدة !.. ويتجمع البحارة فى اعلى مقدمة السفينة ، وتمد منصة انزال الركاب من الجانب الايسر لمقدمة السفينة ، ويقف احد البحارة فى عظمة عند طرفها وقد امسك بيده لفة من الحبال ، بينما ينطلق البخار الحبيس من خلال منافث اطلاق البخار يصيح بأعلى صوته ..

ويرفع الربان يده ويقرع الناقوس، وتتوقف العجلات ، ثم تدور للوراء فيتحول الماء من حولها الى زبد أبيض .. وتقف الباخرة ، وتبدأ حركة الصعود الى سطحها ، والنزول منها الى الشاطىء .. وتشحن بضائع وتفرغ بضائع ، وترتفع الصرخات واللعنات ، وبعد عشر دقائق ، تكون الباخرة قد استأنفت سيرها مرة اخرى ، وعادت البلدة الى الموت من جديد !

مثل هذه العظمة التى تثير الحسد فى النفوس لم يكن لها غير نتيجة واحدة .. اذ سعى كل غلمان البلدة للعمل فى النهر واحدا بعد الآخر ، فأصبح ابن القسيس مهندسا ، وعمل اربعة من ابناء اكبر تجار البلدة واثنان من ابناء القاضى مرشدين على البواخر .. وكان منصب المرشد هو أعظم مناصب الباخرة شأنا .. فقد كان المرشد يتقاضى فى تلك الايام ذات الاجور الضئيلة ، مرتبا يسيل له اللعاب ، كان أجر شهرين فقط يعادل مرتب القسيس لمدة عام ،فضلا عن تمتعه بالاقامة والطعام بلا مقابل .

وهكذا قررت ان اصبح مرشدا للبواخر .. ولكن اسرتى لم تقبل السماح لى بالعمل فى النهر .. ومن ثم فقد هربت من البيت قائلا انني لن أعود اليه حتى اصبح مرشدا ..

***

ومضت فترة طويلة لم أستطع خلالها أن أحقق ما تصبو اليه نفسى ، ولكننى خجلت من العودة الى البيت ، وهكذا ظللت طوال سنوات ثلاث أهيم فى كل مكان ، أمارس العمل فى مهنتى الاولى كعامل طباعة .. ثم حدث ذات يوم أننى حاصرت مرشداً فى السفينة « بول جونس » حتى استسلم الرجل بعد ثلاثة أيام من الجهد الشاق ، ووافق على أن يعلمنى طبيعة نهر الميسيسبى من « نيواورليانز » الى « سانت لويس » مقابل ٥٠٠ دولار تدفع من الاجور الاولى التى أتلقاها بعد تخرجى !

وبدأت مشروعى الصغير لاتعلم ١٢ أو ١٣ ميلا من نهر الميسيسبى الكبير فى ثقة واطمئنان وكنت أعتقد أن كل ما يجب أن يعمله المرشد هو أن يبقى السفينة فى النهر ، وهو شيء ليس بالعسير ، مادام النهر بمثل هذا الاتساع !

وأقلعت السفينة من نيواورليانز فى الرابعة بعد الظهر ، وتولى رئيسى مستر بيكسبى مهمة تسييرها فى طريقها .. وراحت الباخرة تشق طريقها،متجاوزة مؤخرة بقية السفن التى تقف متراصة على ضفاف النهر .. وقال لى الرجل : « والان امسك عجلة القيادة واقترب من هذه البواخر وكأنك تقشر تفاحة »

وأمسكت بالعجلة ، وخفق قلبى بسرعة ، اذ بدا لى أننا على وشك أن نحتك بجانب كل سفينة تقف فى هذا الصف ، وأمسكت أنفاسى ، وبدأت اتجه بالسفينة فى جنون لانتزعها بعيدا عن الخطر .. وبعد نصف دقيقة كانت هناك مسافة واسعة آمنة بين (بول جونس) والسفن الاخرى .. وفى خلال عشر ثوانى ، أبعدنى مستر بيكسبى عن العجلة فى خزى ، وراح يسلخ جلدى ويشوينى حيا موبخا اياى على جبنى ، وأخذ يقترب من السفن بصورة خيل لى معها أن الكارثة وشيكة الوقوع فى كل لحظة ..

وبعد أن هدأنا قليلا .. قال لى الرجل ان المياه الساكنة التى لاتيارات فيها تقع على مقربة من الشاطىء ، ومن ثم فاننا يجب أن نحتضن ضفة النهر ونحن فى طريقنا الى أعاليه حتى نتفادى التيار ، بينما نظل بعيدين عن الضفة اذا كنا متجهين الى أسفل النهر للانتفاع بالتيار

كان بيكسبى يوجه انظارى بين لحظة وأخرى الى أشياء معينة .. هذه علامة الميل السادس وتلك علامة الميل التاسع .. وهناك علامة الميل

الثانى عشر ، وكانت كلها تبدو متماثلة وكنت آمل أن يغير بيكسبى الموضوع ولكنه لم يفعل ، وكان يقـوم بدورة ضيقة حـول نقطـة ما ، محتضنا الشاطىء فى عطف ، ثم يقول لى : أن المياه الساكنـة تنتهى هنا .. والى جانب مجموعة من الاشجار يقول : نحن الآن ندخل التيار ..

وأعطانى العجـلة مرة أو مرتين ، ولكنى لم أكن أسعد من قبل ، فقـد كنت اما أن اقترب جدا من الشاطىء حتى أكاد أصطدم به، أوابتعد مسافة بعيدة جدا عن الشاطىء ، وعندئذ ينحينى بيكسبى عن عجلة القيادة فى خزى وعار !

وانتهت النوبة أخيرا .. وتناولنا العشاء ، وذهبنا الى الفراش ، وعند منتصف الليل توهج ضوء المصباح فى عينى ، وقال لى مراقب الليل : « هيا .. جاء دورك »

وكان ذلك شيئا جديداً على ... الاستيقاظ فى منتصف الليل للذهاب للعمل !.. كان شيئا فى عملية الارشاد لم يمر قط ببالى .. كنت أعرف أن كل السفن تسير طوال الليل ، ولكنى لم أكن أعتقـد أن هنـاك من يضطر للاستيقاظ ومبارحة فراشه الدافىء ليتولى ارشادها .

كانت ليلة غبراء .. وقـد بدت الشواطىء بعيدة جدا لايمكن تمييزها وقال لى ضابط السفينة : يجب أن نرسو عند مزرعة جونس ياسيدى

كنت أريد أن أسأل بيكسبى عما اذا كان يظن حقا أنه سوف يجد هذه المزرعة فى ليلة حالكة تبدو فيها كل المزارع متشابهة ؟ ولكنه اتجه نحـو الشاطىء ، وسرعان ماكان يحتك به كأن الوقت كان نهاراً .. ثم التفت نحوى قائلا :

ـ ماهـو اسـم أول نقطة بعـد نيواورليانز ؟

فقلت : لا اعرف

فقال بيكسبى :

حسنا.. انك انسان ذكى..ماهو اسم النقطة التى تتلوها ؟

وقلت مرة أخرى : لا أعرف !

قال : هـذا شىء مدهش لم أكن أتوقعه .. اذكر لى اسم أية نقطـة أو مكان من التى ذكرتها لك

وفـكرت برهة .. ثم قلت : لا أستطيع .. فقال صائحا :

ـ انك اغبى مغفل رأيته أو سمعت عنه .. لمـاذا تظن أننى ذكرت لك هذه الاسماء ؟

قلت : للتسلية كما اظن .

وزاده هـذا الرد هياجا ، فاخذ

يرغى ويزبد ، حتى انه اصطدم بمجداف الدفة فى احدى سفن الشحن وعندما اخذ ملاحوها ينهالون علينا بشتائمهم وسبابهم ، فتح النافذة بعنف واخرج رأسه منها ، وأخذ يرد عليهم فى غضب لم أر مثله من قبل . . ثم أغلق النافذة وقال لى فى لهجة رقيقة :

ـ يابنى . يجب أن تكون عندك مفكرة صغيرة . وكلما ذكرت لك شيئا اكتبه فيها فورا . هذه هى الطريقة الوحيدة لتكون مرشدا . أن تحفظ النهر كله تماما عن ظهر قلب . عليك أن تعرفه كما تعرف الحروف الابجدية

***

بعد ان قطعنا حوالى ٧٠٠ أو ٨٠٠ ميل فى أعالى النهر ، كنت قد تعلمت قدرا لا بأس به من كيفية ارشاد السفن خلال النهار ، وأصبح عندى مفكرة امتلأت باسماء المدن والجزر والقنوات والمنحنيات والسدود الرملية الخ . . ولكن هذه المعلومات كانت فى المفكرة فقط ، ولم يكن فى راسى شيء منها . . وكنت احس بالالم يحز فى قلبى عندما اذكر أننى لاعرف غير نصف النهر فقط ، اذ كانت نوبتنا تستغرق أربع ساعات فى العمل ومثلها فى الراحة ، ومن ثم فقد كانت هناك ثغرات فى مفكرتى فى كل مرة انام فيها . .

وفى سانت لويس ، تعاقد رئيسى للعمل فى باخرة كبيرة فى نيواورليانز ، فحزمت حقيبتى وذهبت معه . . كانت باخرة عظيمة ، وعندما وقفت فى غرفة القيادة ، كنت على ارتفاع شاهق من الماء ، حتى خيل لى اننى أربض فوق قمة جبل . كانت اشبه بمعبد فخم من الزجاج ، قد امتلأت بالستائر الحمراء والذهبية الجميلة وبها ارائك مهيبة ووسائد من الجلد ، ومقاعد مرتفعة ذات ظهور مريحة ، حيث يجلس المرشدون الضيوف ليسردوا علينا اقاصيصهم ، ويقوموا بمراقبة النهر . . وهناك عجلة عالية فى ارتفاع رأسى ، وخادم زنجى فى رداء أبيض مخصص لغرف الضباط وغرفة الارشاد لاحضار الفطائر والقهوة والمثلجات خلال نوبات الليل والنهار . . وبدأت أزداد هياما بالعمل من جديد ، وأرى فى الارشاد عملا ساحرا يرضى الخيال .

وما أن بدأت الباخرة فى المسير ، حتى أخذت اطوف بارجائها المتسعة كانت سفينة أنيقة نظيفة ، كأنها غرفة استقبال ، وصالونها الطويل المذهب اشبه بنفق فاخر ، وكانت

هناك لوحة زيتية معلقة فوق باب كل غرفة ، وقد تدلت من الاسقف شمعدانات ذات هدب منشورية الشكل ، وتدهجت أضواؤها بألوان جميلة كقوس قزح .. وكان سطح غلاية السفينة فسيحا كفناء الكنيسة ، وقد بدت السفينة فى عينى أنا وأغلب الركاب القادمين من المدن المنتشرة على طوال النهر ، أجمل شيء رأيناه ... كانت أشبه بدخول عالم جديد غريب علينا ، وعندما كان فريق الخدم ذوى المظهر الانيق ينادينى بكلمة «ياسيدى» فى احترام بالغ ، يصبح رضائى تاما على الباخرة !

***

عندما دلفت الى مقصورة الارشاد ، كانت « سانت لويس » قد بعدت ولم أعد أعرف طريقى .. ان هذه المنطقة من النهر كلها فى مفكرتى ، ولكنى لا استطيع أن أعرف رأسها من ذيلها ، اذ كانت معالمها معروفة لى من الاتجاه الآخر ..

واحسست مرة أخرى بالاسى ، اذ بدا لى بوضوح اننى ينبغى أن أتعلم هذا النهر المتعب من الجانبين .

كانت المقصورة زاخرة بالمرشدين الذين يريدون مراقبة النهر ، اذ ان المسيسبى يغير مجراه بلا انقطاع ، مما حدا بالمرشدين الى التوجه الى الحوض الاسفل للنهر لالقاء نظرة جديدة عليه كلما وقفت سفنهم فى ميناء ما لمدة أسبوع ، وكان أكثر الذين يقومون بهذا العمل من الزملاء الفقراء الذين لايحصلون على عمل فوق السفن الا فيما ندر ، وكانوا يأملون أن يفوزوا بعمل ما عن طريق معرفتهم الدائمة بالمواقع الجديدة كما كان كثيرون منهم يقطعون النهر جيئة وذهابا ، لانهم — بحسبانهم ضيوفا على الباخرة — يجدون أن « مراقبة النهر » أرخص لهم من البقاء على الشاطىء . وكان الضيوف المرشدون نافعين ، اذ كانوا على استعداد دائما ليلا ونهارا لقيادة قارب السفينة الصغير ، والمساعدة فى وضع علامات على مجرى النهر بالشمندورات ، أو مساعدة مرشدى السفينة بكل طريقة وكانوا دائما موضع ترحيب ، لان المرشدين جميعا يحبون الحديث عن النهر كلما اجتمعوا معا ، وهم لايملون هذا الحديث ، فالمرشد الحقيقى لا يهمه شيء فى الارض غير النهر وزهوه بمنصبه الذى يفوق كبرياء الملوك !

كان معنا ثمانية أو عشرة من هؤلاء طوال الرحلة .. اثنان أو ثلاثة منهم

يرتدون قبعات حريرية لامعة وقمصانا أنيقة ، ويضعون في صدورهم دبابيس ماسية ، وفي أيديهم قفازات جلدية ، وكانت لغتهم الانجليزية منتقاة ، يتصرفون بطريقة تناسب الرجال ذوي الكرامة والسمعة الطيبة .. وكنت أنا صفرا وسط هذا الفريق

وعند الغسق دق بيكسبي الجرس الكبير ثلاث مرات ، علامة الوصول الى الارض ، وخرج الربان ونظر اليه في تساؤل ، فقال له بيكسبي :

ـ سنقف هنا طوال الليل أيها الربان

ـ حسنا ياسيدي .

وكان هذا هو كل شيء .. لقد اقتربت السفينة من الشاطيء حيث أمضت الليل كله .. وبدا لي أن المرشد يستطيع أن يفعل كل شيء دون أن يستأذن الربان وهو أمر جميل .

وفي الصباح التالي انطلقنا نسير بسرعة ، للاستفادة بكثير من الفرص اذ كنا متلهفين « للخروج من النهر » ـ كما يقال عن الجهة التي نقصدها ـ قبل حلول الظلام .

ولكن المرشد الآخر الذي يعمل في النوبة التالية جعل السفينة تجنح مما أفقدنا وقتا كبيرا في اخراجها من ورطتها وأصبح من الواضح أن الظلام سيحل بنا قبل أن نصل الى مقصدنا بفترة طويلة ..

ولايهتم المرشدون وهم في طريقهم الى أعالي النهر بالماء المنخفض أو الظلام ، اذ لاشيء يوقفهم غير الضباب .. أما العمل وهم يتجهون الى أسفل النهر فشيء آخر اذ تكاد السفينة تصبح لاحول لها ولا قوة حيال تيار شديد يندفع من ورائها ، ومن ثم فقد كان من المعتاد أن تسير السفن خلال الليل في مياه منخفضة وهي متجهة الى حوض النهر الاسفل .

وكان هناك أمل واحد ضئيل في خروجنا من ورطتنا ، وهو أن نتمكن من المرور من تقاطع جزيرة (هات) المعقد قبل حلول الليل .. وظللنا جميعا نعمل ساعات طويلة في جو من التوتر المكبوت . وقبل غروب الشمس بساعة واحدة ، أمسك بيكسبي عجلة القيادة ، وطوال الثلاثين دقيقة التالية ، أمسك كل رجل بساعته في يده في قلق وسكون وأخيرا قال أحدهم :

ـ ان جزيرة هات لاتزال بعيدة ، ولن نستطيع الوصول اليها .

وكانت مقصورة المرشد مزدحمة

وقد سادها احساس بخيبة الامل ، وبدأ البعض يغادرها ، ويتسكع في أنحاء السفينة اذ لم يسمعوا دقة الناقوس التي تنبىء بالوصول الى الارض ... وغابت الشمس وراء الافق والباخرة تسير في ثبات نحو المنحنى ، وتبادل البعض النظرات المتسائلة ، وانحنت بعض الرؤوس في دهشة وعجب ، ولكن أحدا لم ينبس ببنت شفة .

وتجمع الرجال دون أن يشعروا وراء مستر بيكسبي ، بينما كانت السماء تزداد حلكة ، وبرز في السماء نجم أو نجمان .. وساد الصمت القاتل. وفجأة جذب بيكسبي الحبال ، فانطلقت نغمتان حلوتان عميقتان تمزقان صمت الليل .. وبعد سكون قصير ، انطلقت دقة أخرى من الناقوس ، تبعها صوت أحد الحراس يقول :

ـ قياس العمق من اليسار .. وقياس العمق من اليمين .

وارتفعت صيحات الرجال الذين يقيسون عمق الماء بحبال مثقلة بقطع من الرصاص تحمل علامات تبين طول كل مسافة منها .. وكانوا يعلنون عن ارتفاع الماء في كل مسافة وجذب بيكسبي حبال الناقوس مرتين، فرد عليه طنين خافت من غرفة الآلات التي تقع في أسفل السفينة، وهدأت سرعتنا .. واستمرت صيحات الرجال الذين يقيسون عمق الماء في نغمات غريبة خلال الليل .. وكان كل مرشد في الجماعة يرقب الافق بعينين ثابتتين..ولم يكن هناك من يقف في هدوء واطمئنان غير بيكسبي الذي كان يدير عجلته بقوة، ثم يثبتها في مكانها بوضع قدمه على أحد قضبانها الوسطى .

وفجأة توقفت المحركات كلها معا ، وراحت السفينة تنجرف مع التيار ، وما لبثنا أن رأينا ظلاما أشد سوادا مما يحيط بنا .. كان رأس الجزيرة التي تقترب منها .. لقد دخلنا في ظلالها العميقة ،وبدا الخطر وشيكا الى حد انني كدت أختنق .. ولكن بيكسبي كان لايزال واقفا الى جوار عجلته،صامتا متحفزا كالقط . وقد وقف كل المرشدين خلفه جنبا الى جنب .

وهمس أحدهم: لن تتمكن السفينة من المرور

وأصبح الماء ضحلا أكثر من ذي قبل ، بينما كانت صيحات الذين يقيسون عمقه لاتزال ترتفع معلنة أن عمق الماء يزداد انخفاضا ..

واتصل بيكسبى بمهندس السفينة عن طريق أنبوبه التخاطب قائلا :
قف الآن •
فأجاب حسنا يا سيدى ••
ولمست الباخرة قاع النهر ، وعلى الفور راح بيكسبى يقرع بعض الاجراس ويصيح فى أنبوبة التخاطب: أطلق الآن كل ذرة لديك من البخار
وأخذت السفينة تحتك بالارض وهي تشق طريقها خلال الرمال لاتفصل بينها وبين ذروة الكارثة غير لحظة قصيرة رهيبة • • ثم انطلقت فى طريقها •
ودوت صيحات المرشدين تمزق السكون محيية بيكسبى ••
لقد أصبح بيكسبى بطلا فى تلك الليلة •• ولكن حديث رجال النهر لم يدم طويلا عن هذا العمل الباهر الذى حققه !

***

وأخيرا أصبحت قادرا على أن أغلق عينى وأسرد سلسلة طويلة من النقط والمنحنيات والسدود ، دون أن أترك أكثر من عشرة أميال من النهر بين كل ٥٠ ميلا ،ولكن عندما كان السرور يبدأ فى السيطرة على حتى أتمادى فى ثقتى بنفسى ، كان بيكسبى يدبر لى أمرا يعيد به هذه الثقة الى موضعها • • ففى ذات يوم قال لى فجأة :
ـ ماهو شكل منحنى « الجوزة »؟
وبعد أن فكرت مليا ، قلت اننى لاأعرف له شكلا معينا ، وعندئذ راح ينهال على بالتوبيخ كالمدفع •• وظل يطلق نيران نعوته وأوصافه حتى نفدت •• ولكنه سرعان ما هدأ شيئا فشيئا •• ثم قال :
ـ يجب يابنى أن تعرف شكل النهر تماما •• انها الوسيلة الوحيدة للسير بالسفينة خلال الليل • • فالنهر لايكون له فى الليل نفس الصورة التى تكون له فى النهار • • ان الليلة الصافية السماء التى تضيئها النجوم ، تلقى ظلالا كثيفة على الاشياء حتى انك اذا لم تكن تعرف شكل شاطىء ما تماما ، فانك قد تتجه بالسفينة فى جنون بعيدا عن كل كومة من الاخشاب ، اذ قد ترى فى ظلالها السوداء رأسا صلبا • وقد تكون على مسافة ٥٠ مترا من الشاطىء فى الوقت الذى يجب أن تكون فيه على مسافة ١٥ مترا فقط • وقد لاتستطيع أن ترى جذع شجرة بين هذه الظلال ولكنك تعرف أين هى بالضبط ، اذ أن شكل النهر يكشفها لك عندما تقبل عليها •• وفى الليالى

الحالكة السوداء تبدو كل الشواطىء خطوطا مستقيمة ، وقد تسير بالسفينة حذاءها وأنت تعتقد أنها خطوط مستقيمة ، فاذا بك تندفع نحو مايبدو أنه صلب مستقيم، في حين أنك تعرف أن هناك في الواقع منحنى هناك .. واذا ساد الضباب الاشهب ، لم تجد أى صورة معينة للشاطىء ..

وختم بيكسبى حديثه بقوله : لهذا يجب أن تتعلم شكل النهر بتأكيد مطلق ، حتى تستطيع دائما أن تسير على أساس الشكل الذى فى رأسك دون ان تهتم بالشكل الذى تراه أمام عينيك ..

وبدأت أعمل لاتعلم شكل النهر، وكنت أركز كل اهتمامى على نقطة مليئة بالاشجار على مسافة أميال من النهر وأصور شكلها فى رأسى بدقة، حتى اذا اقتربنا منها ذابت تماما وتلاشت فى ضفة النهر! . ولم يكن هناك أى تل بارز يبقى بصورته فترة طويلة حتى أستطيع أن أتذكره فى رأسى . . لاشىء يحتفظ بنفس شكله ونحن فى الطريق الى حوض النهر الاسفل ، كما كان ونحن متجهون الى أعلى النهر .

وذكرت هذه المتاعب لمستر بيكسبى فقال لى :

ـ هذه هى المزية الرئيسية للشىء! فاذا لم تتغير الاشكال كل ثلاث ثوان فلن تكون لها أية فائدة .. أنظر الى المكان الذى نسير فيه الآن مثلا .. فاذا كان التل الذى يوجد هناك بعيدا مجرد تل واحد ، فاننى أستطيع أن أندفع رأسا فى طريقى ولكن ما ان ينقسم عند قمته ويبدو فى صورة حرف V حتى أعرف أننى يجب أن أميل بجانب السفينة الايمن بسرعة والا فاننى سأحطم رأس هذه السفينة على صخرة .. وفى اللحظة التى تتمايل فيها احدى شعبتى حرف ال V وراء الآخر ، فاننى يجب أن أتحرك بالجانب الايسر من السفينة بسرعة ، والا فاننى أكون قد أخطأت معرفة جذع شجرة قد يمزق قاع السفينة . . واذا لم يستمر هذا التل فى تغيير شكله ، فسوف تنشأ مقبرة للسفن من حوله فى خلال عام واحد !

***

وعلى مرور الزمن بدأت أتفهم هذا الدرس المعقد ، وعادت ثقتى بنفسى تحتل الصدارة مرة أخرى .. وكان بيكسبى على استعداد لذلك فقد فاجأنى بسؤالى عن كمية الماء

التى كانت توجد فى المعبر الاوسط من منطقة « ثغرة فى الجدار » خلال الرحلة قبـــل الاخيرة • فقلت أننى لأذكر لان الرجال الذين يقيسـون الاعمـــاق كانوا يرددون أغانيهم فى هذا المكان المعقد ثلاثة أرباع الساعة• فقال :

ـ عليك يابنى أن تذكره ••يجب أن تذكر البقعة والعـلامات بالضبط التى تـكون فيها السفينة وهى فى أقل المياه عمقا ، فى كل مـكان من الامكنة الضحلة بـين سانت لويس ونيوأورليانز وعددها ٥٠٠ مكان • ويجب ألا تختلط مقاييس وعـلامات احدى الرحلات فى رأسك بمقاييس وعلامات رحلة أخـــرى لانها لاتكون متشابهة فى أغلب الاحوال •

فقلت فى غضب :

ـ عندما أصل الى مثل هذه المقدرة فسيكون فى اســـتطاعتى أن أحيى الموتى ، وعندئذ لن أكون مضـطرا الى العمل كمرشــد لسفينة • اننى أريد ترك هــذا العمل لاننى لاأملك الذهن الكافى لاكون مرشدا

فقال : لا تقـــل ذلك •• اننى عندما أقول اننى سأعلم رجلا النهر يمكنك أن تعتمد على كلامى•• لاننى سأعلمه أو أقتله !

***

لم تكن هنـــاك فائدة فى مجـادلة شخص كهذا ، ومن ثم فقد بدأت على الفور أحمل ذاكرتى هذا العبء شيئا فشيئا • • • وبدأت أماكن المـيـــاه الضحلة وعلامات المعابر التى لاتحصى تبقى فى رأسى ، ولكن لم أكن انتهى من تعلم شىء معقد الا يظهر غـــيره أمامى •• وكنت كثيرا ماأرى بعض المرشدين يحدقون فى الماء ويزعمون أنهم يقرأونه كأنه كتاب •• ولكن هــذا الكتاب لم يكن يذكر لى شيئا الى أن حان الوقت الذى رأى فيـــه مستر بيكسبى أننى قد تقـدمت الى حد يسمح لى بأخــذ درس عن قراءة الماء • !

وبدأ حديثه بقوله :

ـ هل ترى هذا الخط الطويل المائل على صفحة النهر ؟ انه شعب وصخور• بل انها شعب زرقاء •• وهناك سد عمودى من الرمال الصلبة تحتها حتى كأنه جدار منزل •• وهناك ماء كثير على مقربة من هذا السد ، بينمـــا لايوجد الا القليل جدا على قمته ، فاذا اصطدمت به فانك قد تمزق السفينة• فهل ترى أين يتحدد الخط عنـــد الطرف الاعلى ويبدأ فى التلاشى ؟

ـ أجل ياسيدى

ـ حسنا • هذا مكان منخفض انه

رأس الشعب . ويمكنك الصعود فوقه دون أن تؤذى السفينة .أعبره الآن واستمر على مقربة من الصخور فهناك مياه سهلة، ولا توجد تيارات كثيرة .

وفي خلال نوبة بعد ظهر اليوم التالى ، غادر بيكسبى السفينة ، تاركا اياها فى عهدتى أنا وحدى فترة طويلة، حتى بدأت أزداد تفاخرا وكبرياء .. وكنت أترك السفينة تسير فى طريق مرسوم ، وأدير ظهرى لعجلة القيادة لافحص علامات المؤخرة وأردد بعض الاغانى ، وهو نوع من عدم الاكتراث كنت أعجب به من بيكسبى وغيره من كبار المرشدين . وفى ذات مرة طال فحصي للعلامات ، وعندما اتجهت للمقدمة مرة أخرى أحسست بصدمة عنيفة،فقد كانت سلسلة من الصخور الخادعة تمتد بطولها القاتل عبر مقدمة السفينة تماما ... وفى لمح البصر بدأت أفقد اتزانى .. ورحت أدير العجلة الى أسفل ، فاستجابت السفينة وتحولت بعيدا عن الصخور ولكن الصخور أخذت تتابعنا فى طريق مقدم السفينة .. وأوشكت الصدمه الرهيبة أن تقع .

ولم أتوقف لارى أين أسير ، بل أخذت أهرب بالسفينه كمن يتسلق شجرة مدلاة فى الهواء . . وكان الركاب يهرعون نحو المؤخرة كالفيران المذعورة ، عندما ظهر بيكسبى على سطح السفينة المسمى بسطح الاعصار وفي هدوء أخرج مسواكا من الخشب من فمه وراح يصدر أوامره فى لهجة رقيقة :

ـ أوقف عجلة مجاذيف الجانب الايمن . وعجلة الجانب الايسر .. أدر المحركين الى الوراء معا.

واهتزت الباخرة ثم توقفت .. وبدأت تتراجع الى الخلف فى بطء .

ثم أقبل بيكسبى على وقال فى بساطة ساخرة :

ـ عندما تتلقى نداء من الشاطىء يابنى ، فعليك أن تقرع الناقوس الكبير ثلاث مرات قبل أن ترسو حتى يتمكن المهندسون من الاستعداد.

واحمر وجهى خجلا ، وقلت له اننى لم أتلق أى نداء ..

فقال : حقا .! فما الذى كنت تريده اذن من هذا المنحنى ؟.. هل سمعت عن سفينة تتبع منحنى فى هذا الجزء من النهر ؟

قلت : كلا ياسيدى . ولم أكن أنا أحاول أن أتبع أى منحنى ، ولكنى كنت أحاول الابتعاد عن صخور خادعة فى

ـ لم تكن صخورا خادعة ٠٠ فليس هناك مثل هذه الصخور على مسافة ثلاثة أميال حيث كنت ٠

ـ ولكنى رأيتها ٠ ٠ لقد كانت أشبه بهذه الصخور التى تبدو هناك

ـ حسنا ٠٠٠ سر فوقها وسوف أتحمل أنا المسئولية ٠

ونفذت أمره ، وسرت متجها نحو الصخور رأسا وبينما كانت تختفى تحت مقـدمة السفينة ، أمسكت أنفاسى بقوة ٠٠ ولكننا انزلقنا فوقها كأنها من الزيت !

وقال بيكسبى : هـل رأيت الآن الفرق ؟ ٠٠ انها لم تكن الا صخورا من الرياح ٠ ان الرياح تفعل ذلك ٠

ـ أجل ٠ ولكنها كالصخور الخادعة تماما ٠٠ فكيف يمكننى أن أميز بينها؟

ـ لا يمكننى أن أذكر لك ٠ انها غريزة تتكون شيئا فشيئا ٠٠ سوف تعرف بالطبيعة كيف تميز بين أحدهما والآخر ، ولكنك لن تعـرف كيف تشرح لماذا وكيف تفرق بينهما !

وثبت أن هذا القول صحيح ٠٠ لقد أصبح وجه الماء مع الايام كتابا عجيبا يحكى لى أعـز أسراره دون تحفظ ٠ ولم يكن كتابا يقرأ مـرة ثم يلقى به جانبا ، بل كانت له قصة جديدة يرويها كل يوم ٠٠ وكانت كل صفحة من صفحاته خلال ١٢٠٠ ميل لا تخلو من متعة جديدة ٠

والآن وبعد أن سيطرت على لغة الماء ، أصبحت أعرف شيئا قيما ، ولكنى فقدت أيضا شيئا هاما ٠ ٠ فقدت شيئا لن أستعيده فى حياتى ٠ كل الجمال والبهاء والشعر تلاشى عند النهر العظـيم ، وبات بدلا من ذلك مادة كئيبة للقراءة ٠٠ فاذا راقبت غروب الشمس الجميـل على صفحة الماء ، فاننى أتطلع اليه دون وله وأعقب عليه فى نفسى قائلا : « هذه الشمس تعنى أننـا سنواجه رياحا فى الغد ٠ وهذه الكتلة الطافية تعنى أن النهر يرتفع ٠ وهذه العلامة المائلة على الماء تشير الى صخور خادعه ستقتل السفينة فى ليلة ما ٠٠ والخطـوط والدوائر التى تبدو هنـاك فى الماء الاملس ليست الا تحذيرا بأن هناك مكانا سيثير المتاعب ، وان مياهه تقل بصورة خطيرة »

كلا ٠٠ لقد تلاشى الخيال والجمال كله من النهر ٠ وكل قيمة لاى منظر فيه ، أصبحت بالنسـبة لى الفائدة التى يمكن أن يقدمها للمساعدة فى ارشاد السفينة !

***

هناك عامل ينبغى أن ينميه المرشد فى نفسه باستمرار .. ذلك هو الذاكرة .. ولابد له من أن يصل بها الى حد الكمال والا فلا فائدة من عمله. انه لايستطيع أن يكتفى بمجرد التفكير فى هذا الشىء وذاك ، بل ينبغى أن يعرفه جيدا ، وهكذا فان ذاكرة المرشد هى أعجب شىء فى العالم ، وذلك بالنسبة للمسائل التى تشتغل بها كل يوم .. ولكنك قد تسأل المرشد يوما عن الطعام الذى تناوله فى الافطار فلا يستطيع أن يجيبك !

ويجب أن يتمتع المرشد بحكم صادق وسريع على الامور ، وشجاعة هادئة لايستطيع أى خطر أن يزعزعها، ولا تصل الشجاعة الى مرحلة النضج الى أن يقوم المرشد الشاب بالعمل فى نوبة مستقلة،ومن ثم فمن الافضل أن يدرب المرشدون تلاميذهم بحيل استراتيجية مختلفة لمواجهة الاخطار فى هدوء ...

وقد جرب مستر بيكسبى بعض هذه الخدع معى فأوقعنى فى مآزق لن أنساها مدى الحياة ، ولكنه كان يظهر فى الوقت المناسب لكى يدلنى على حقيقة الخدعة .. وقد قال لى مرارا : « لاتدع أى شخص أو أى شىء يزعزع ثقتك فى معلوماتك وعندما تجد نفسك فى مكان خطر فلا تترك الجبن ليستولى عليك، فان هذا يزيد الامور سوءا » .

***

فى خلال العامين اللذين تدربت فيهما على العمل ، عملت تحت رياسة كثير من المرشدين حتى اكتسبت خبرة للعمل فى أنواع كثيرة من البواخر فى مختلف الظروف ..

وقد حصلت على شهادتى فى الوقت المناسب وأصبحت مرشدا كامل التدريب ، فأخذت أتنقل بين السفن المختلفة ولم تقع فيها أية كوارث لحسن الحظ خلال عملى ، وأصبح العمل المتقطع بديلا للتعاقد الثابت. وراح الزمن يمضى فى سهولة ويسر وكنت أفترض وأرجو أن أظل فى النهر بقية أيامى ، وأموت أمام عجلة القيادة الى أن تنتهى رسالتى .

ولكن أيام المجد التى شاهدتها بواخر الميسيبى كانت محدودة . فقد وقعت الحرب الاهلية فكادت تقضى تماما على هذه الصناعة فى أعوام كثيرة .. ثم جاءت السكك الحديدية التى تغلغلت فى كل مكان وبدأت تجتذب الركاب والسلع من البواخر ، حتى لم يعد هناك غير

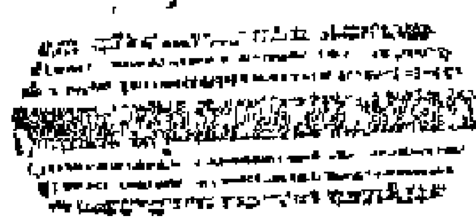
القليل من البضائع التي تنقلها السفن ..

وأخيرا ابتكر بعض العباقرة مشروعا لقطر شحنة عشر بواخر من ساحل الاطلنطي الى نيو أورليانز في ذيل قاطرة صغيرة ، وهكذا أصبح علم الارشاد شيئا من مخلفات الماضي .. وفقدت عملي ،واضطررت للبحث عن عمل آخر .. فاشتغلت في مناجم الفضة بنيفادا ، ثم عملت صحفيا ، ثم عاملا في مناجم الذهب بكاليفورنيا . وعدت اشتغل بالصحافة في سان فرنسيسكو ، فمراسلا خاصا في جزر ساندويتش، فمراسلا جوالا في أوربا والشرق .. ثم رحت ألقي المحاضرات ، وأخيرا أصبحت مؤلفا للكتب ..

وبعد غياب ٢١ عاما ، أحسست برغبة قوية في مشاهدة النهر مرة أخرى ، والتطلع الى البواخر الحبيبة ومن بقي حيا من رجالها ، فاتجهت غربا نحو سانت لويس ، وهناك شاهدت المجد القديم وقد غربت شمسه وأفل نجمه ..

لقد ولدت صناعة البواخر في الميسسبي حوالى عام ١٨١٤ ، وبعد ٣١ عاما كانت قد نمت واتسعت اتساعا هائلا .. وبعد أقل من ٣٠ سنة أخرى، ماتت وطواها النسيان.

انها حياة غريبة قصيرة لمخلوق له مثل هذه الروعة وذاك الجلال !



نفس المشكلة

كان أحد ابناء ولاية تكساس الامريكية يزور دولة اسرائيل عندما قال لمرافقه الاسرائيلي :

ـ انك في تكساس تستطيع أن تركب القطار فيسير بك أياما وانت لا تزال في تكساس

فقال الاسرائيلي وهو يحني راسه :

ـ اننا نعاني نفس المشكلة مع قطاراتنا

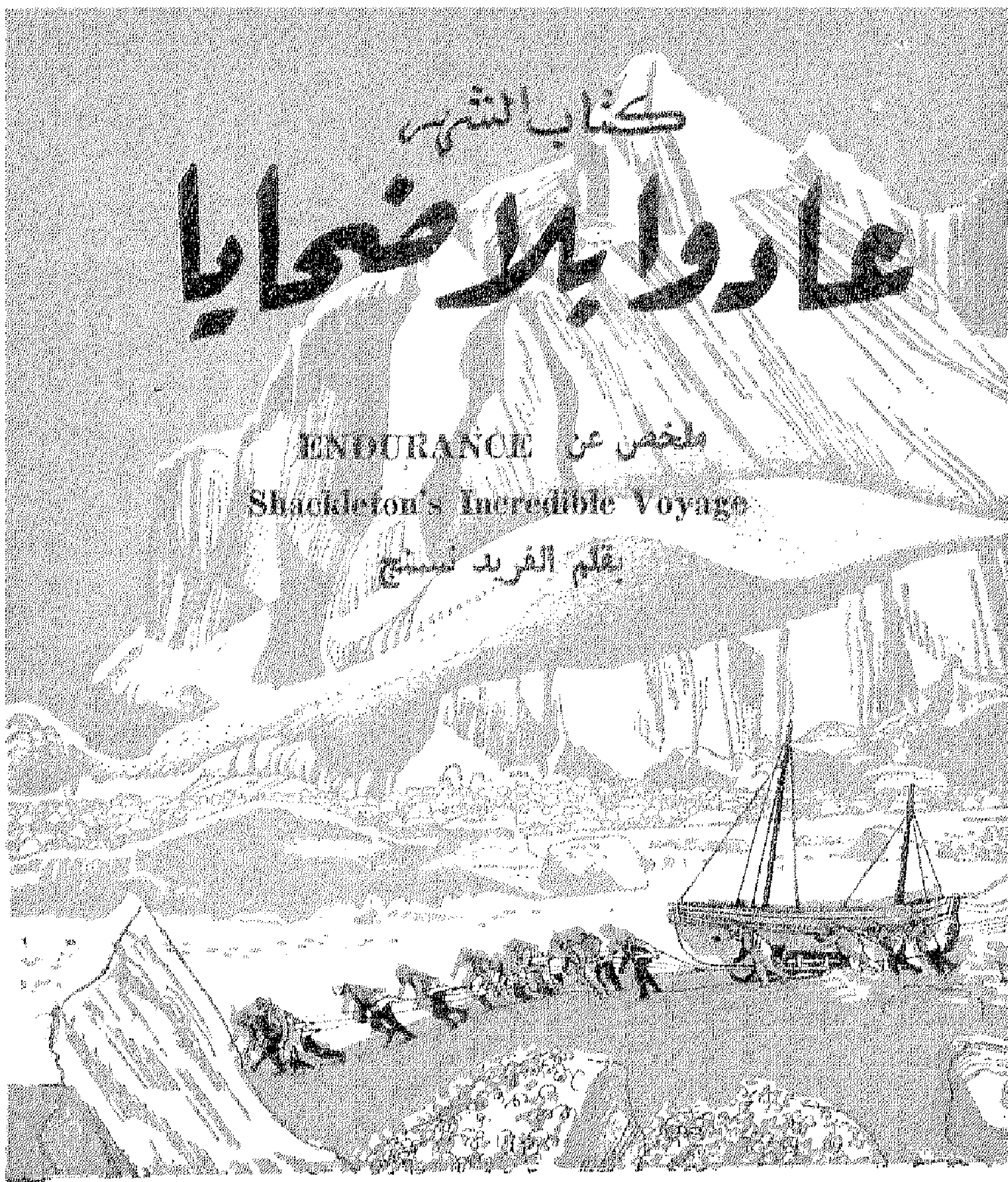


دقة بدقة

في احدى حفلات الكوكتيل قالت احدى السيدات لاخرى :

ـ ما أجمل الثوب الذي ترتدينه .. انني أحبه اكثر كلما رأيتك به .. فشكرتها الاخرى ثم أمسكت ثوب صديقتها وقالت :

ـ هذا قماش بديع جدا يا عزيزتي .. انني انصحك بأن تصنعي منه ثوبا !



عندما صدر الامر بمغادرة السفينة فى الساعة الخامسة من يوم ٢٧ اكتوبر ١٩١٥ ، استقباله اعضاء البعثة الامبراطورية لعبور القارة القطبية الجنوبية بارتياح، فان أيام العمل المرهق أمام مضخات الماء اكسبتهم نوعا من البلادة ، كما أن القرار الذى اتخذه قائدهم سير ارنست شاكلتون بعد تردد لم يكن مفاجأة لهم ، فقد كان كل رجل على ظهر السفينة يعرف أن مصيرها أصبح محتوما ... لقد ظلت السفينة « انديورانس » تسعة أشهر كاملة حبيسة بين قطع الثلوج التى تمتد

فى كل جانب عبر الافق ، وقد تجمدت داخلها «كاللوزة فى قطعة الشيكولاتة » كما وصفها احد رجالها .. ولم يحقق الربيع الذى تلا شهور الشتاء القطبية الثلاثة الامل الذى راودهم فى تحطيم هذه الثلوج لاطلاق سراح السفينة المسجونة ، بل على العكس تكونت أطواف ثلجية اكثر خطرا ، أخذت تضغط على جوانب السفينة بقسوة لا يمكن احتمالها حتى سحقتها ..

ولعل السفينة « انديورانس » كانت أقوى سفينة خشبية صنعتها الايادى ، فقد كان هيكلها الذى يبلغ طوله ١٤٤ قدما مصنوعا من كتل خشبية ضخمة كما كانت تحوى من الاخشاب المتقاطعة حوالى ضعف العدد المعتاد فى غيرها ، وقد استخدم فى صناعتها خشب البلوط الثقيل ، وكانت كتل أخشابها يبلغ سمكها قدمين ونصف قدم ، وقد احيطت بغلاف من الخشب لحمايتها من الثلج ، بلغ من ثقله أنه كان يزن أكثر من الحديد ، كما بلغ من صلابته أنه لم يكن فى الامكان صناعته بالعدد والآلات العادية ...

وقد اثبتت السفينة «انديورانس» ومعناها « الاحتمال » انها جديرة حقا باسمها ، اذ تحملت فى صلابة رائعة كتل الثلوج التى تحاصرها شهورا طويلة ، ولكن الضغط كان قاسيا لا يرحم ولا يمكن الاستمرار فى مقاومته الى النهاية ... وهكذا بدأت كتل السفينة الخشبية تئن تحت الضغط المتزايد عليها ، وعندما أصبح استمرارها فى تحمل هذا الجهد مستحيلا ، تحطمت بصوت مدو كطلقات المدافع ، وتفككت أسطحها ، بينما تطايرت مؤخرتها فى الهواء ، وتمزقت دفتها وانفصلت عنها .

***

ونقل فرانك وايلد ــ مساعد ربان السفينة ــ أمر « شاكلتون » الى زملائه قائلا :

ــ حان الوقت لترك السفينة .

وفى خلال ساعتين ، تم نقل كل العتاد الرئيسى من السفينة الى الثلوج ، كما نقلت قوارب النجاة الثلاثة ، وكلاب البعثة التى يبلغ عددها ٤٩ كلبا ، وأقيم معسكر لهذه الاشياء فوق طوف ثلجى متين يقع على مسافة قصيرة ... وبينما كان الرجال يقيمون خيامهم ، كانت مظاهر الارتياح تبدو عليهم لتركهم سفينتهم المعذبة !

ولكن سير ارنست شاكلتون لم يستطع أن يشاطر رجاله هذا الاحساس ، فقد كانت المسئولية

واقعة على عاتقه ، والموقف كئيبا يبعث على اليأس ...

كانوا معزولين فى القارة القطبية الجنوبية ، محصورين فوق القفان الثلجية لبحر (ويدل) الذى يقع فى منتصف الطريق بين القطب الجنوبى ، وهو أقرب المواقع الخارجية للعمران الذى يبعد حوالى ١٢٠٠ ميل الى الشمال . وكانت اقرب أطراف الاراضى المعروفة فى تلك المنطقة ، وهى شبه جزيرة بالمر ، تقع على بعد ٢١٠ أميال ، وهى منطقة غير مأهولة ... ولم يكن لديهم أى جهاز للاسلكى ، كما لم يكن هناك من يعرف فى العالم الخارجى أنهم فى محنة ، وكان من المشكوك فيه أن تتمكن فرق الانقاذ من الوصول اليهم مهما كانت الظروف .

وقرر شاكلتون أن يعبروا المحيط المتجمد سيرا على الاقدام فى طريقهم الى جزيرة (بوليت) وهى بقعة صغيرة من الارض تقع على بعد ٣٤٦ ميلا الى الشمال الشرقى ، ليصلوا الى مخازن الطعام التى يعرف انها مخبأة هناك ، وكان يشعر فى ثقة أنهم سيصلون فى النهاية الى المياه الفسيحة ، ولهذا قرر أن يجروا معهم قوارب النجاة الثلاثة فوق الزحافات .

كانت الجماعة التى واجهت هذه المحنة الضخمة تضم خليطا من الافراد الذين تباينت مشاربهم وثقافاتهم وأعمالهم ، فقد كان بينهم خريج جامعة كامبريدج ، وبعض صيادى الاسماك من يوركشير ، كما كان بينهم شخص تسلل الى السفينة فى بيونس ايرس ، ولكن ليالى القطب الطويلة التى عاشوها معا فوق ظهر السفينة ، صهرتهم جميعا فى بوتقة واحدة ، ووثقت بينهم الصلات ، وأشاعت بينهم روحا من المرح والعزيمة ... ومع انهم كانوا يعسكرون الآن فوق قطعة من الثلج لايزيد سمكها على ستة اقدام ، فوق الفى فرسخ من الماء ، فان روحهم لم يخالطها وهن ، وعزيمتهم ظلت صلبة لاتلين ..

وكان شاكلتون نفسه يبدو مرحا قوى العزيمة ، فقد كان رحالة نموذجيا ، من الطراز الكلاسيكى ، الذى يعرف كيف يعتمد على نفسه تماما ، هادئا فى تصرفاته وحديثه ، وكان يومئذ فى الاربعين من عمره ، متين البنيان ، يؤمن تماما بشعار اسرته النبيلة التى تقيم فى كيلدير ، وهو « الاحتمال يكفل لك الغزو » .

ولم تكن هذه هى أولى رحلاته الى القطب الجنوبى ، بل كانت الثالثة ،

فقد صحب الرحالة البريطانى الشهير سكوت فى رحلته التى قام بها فى عام ١٩٠١ ، ثم قاد بعثة خاصة فى عام ١٩٠٧ وصلت الى مسافة لاتبعد غير ٩٧ ميلا من القطب

بعد مرور ٣٦ ساعة على نزولهم فوق الجليد ، دعا شاكلتون رجاله ليتحدث اليهم عن الرحلة التى تنتظرهم .. قال ان عليهم ان يقللوا وزن مايحملونه الى أقل حد مستطاع ، وان كل واحد يجب أن يكتفى بالملابس التى يرتديها مضافا اليها زوجان من القفازات ، وستة أزواج من الجوارب ، وحذاء وكيس للنوم ، ورطل من الطباق ، ورطلان من العتاد الشخصى .. وقال ان أى شىء لاقيمة له اذا قورن بالبقاء على قيد الحياة .

***

فى اليوم التالى – ٣٠ اكتوبر ١٩١٥ – شرعوا فى المسير ، وتقدمهم شاكلتون وبعض الرجال للبحث عن أكثر الطرق استواء . وسارت بعدهم الكلاب التى تجر الزحافات وقد تكدست فوقها أشياؤهم ، وفى النهاية جماعة بقيادة فرانك دورسلى ربان السفينة (انديورانس) تقوم بجر القوارب وهى أكثر العمليات مشقة فقد اشترك ١٥ رجلا فى جرها وسط الجليد الناعم ، وكانت قوارب ثقيلة يزن الواحد منها أكثر من طن .

وفى اليوم الاول قطعت الجماعة ميلا واحدا ..وفى تلك الليلة هطل الجليد بغزارة ، وفى اليوم التالى كان التقدم أقل من اليوم الاول ، وعندئذ قرر شاكلتون انهم لا يستطيعون الاستمرار فى السير ؛ وكانوا يومئذ يقيمون معسكرهم فوق طوف ثلجى صلب يبلغ سمكه عشرة أقدام ، وقطره أكثر من نصف ميل ، ولهذا أعلن شاكلتون انهم سيبقون حيث هم ، حتى يدفعهم التيار الثلجى مسافة تنقلهم قريبا من الارض .

وأعيد فريق الكلاب الى المعسكر الاصلى الذى يقع الى الوراء حوالى ميل وثلاثة ارباع الميل ، لاحضار كل الطعام والعتاد الممكن نقله ، كما ارسلت جماعة اخرى تضم ستة رجال بقياد (وايلد) الى السفينة لانقاذ مايمكن انقاذه من الاشياء ذات القيمة الباقية فيها ، وقد وجد الرجال أن السفينة قد غاصت كثيرا فى الثلج وتحطمت ساريتها ، وتعقدت حبالها وقلوعها ، حتى أصبحت كل خطوة فوقها تشكل خطرا ، ولكن

لجماعة استطاعت أن تفتح ثغرة فى سقف مطبخ السفينة ، تسللت منها واخرجت مافيه من مخزونات .. وظلوا بضعة ايام يواصلون انقاذ المؤن ونقلها بالزحافات الى المعسكر الذى اقامته البعثة ، وأطلقت عليه اسم (معسكر المحيط) واخيرا غرقت السفينة انديورانس نهائيا فى يوم ٢١ نوفمبر ..

وامضوا فى « معسكر المحيط » حوالى شهرين ، وقد تكدسوا معا فى خيام صغيرة ، ولكنهم نظموا حياتهم على مواجهة هذه الحياة الشاقة ، وسط البرد الذى لامفر منه ، والبلل الذى يحيط بهم من كل جانب ..

كانت الايام تتوالى يوما بعد يوم ، وهم ينتظرون عبثا أن يتفتح الثلج امامهم .. فاذا لم يفعل ، راحوا يعزون انفسهم بأنهم يعرفون أن قطعة الجليد التى يقيمون فوقها تتحرك على الاقل شمالا بسرعة ميلين فى اليوم ... ولكن ما ان جاء شهر ديسمبر ، حتى تغير الحال ، وبدا من المؤكد أن الثلج يتجه بهم شرقا ... بعيدا عن الارض .

وازداد جو التوتر ، بعد ان انتهوا من ترتيب مستودعاتهم ، واصلاح قواربهم ، فلم يعد أمامهم شىء يعملونه .. وقد استولى القلق على نفس شاكلتون بسبب ذلك ، فقد كان العدو الاكبر الذى يخشاه بين أعدائه من البرد والثلج والبحر .. هو انهيار الروح المعنوية لدى رجاله .. ولم تكن هناك طريقة لرفع هذه الروح الا بالعمل ..

وهكذا دعا شاكلتون رجاله جميعا يوم ٢١ ديسمبر ، وابلغهم أنهم سيشرعون فى المسير مرة اخرى بعد يومين عبر الثلوج .. وسيكون سيرهم ليلا ، حيث تهبط درجة الحرارة الى أقل مستوى لها ، ويصبح سطح الثلج أكثر صلابة .

وقال شاكلتون أنه لما كان عيد الميلاد قد اقترب ، فانهم سيحتفلون به بالسماح لكل رجل أن يأكل ما يشاء قبل المسير ، اذ أنهم سيضطرون لترك مقدار كبير من الطعام خلفهم .

***

وفى الساعة الثالثة والنصف من الصباح التالى بعد وليمة عيد الميلاد ، شرعوا فى السير فوق الثلوج ..

وبعد خمسة أيام ، لم يتقدموا خلالها غير تسعة أميال ، قرر شاكلتون أنه لافائدة من التقدم ، فقد بلغ أكثر رجاله حدا من الارهاق لا مزيد بعده

كان موقفهم قد ازداد سوءا عما كان عليه فى أى وقت مضى .. فقد تركوا كميات كبيرة من الطعام وراءهم، وهم يقيمون الآن فوق طوف ثلجى لا يمكن الاعتماد عليه ؛ ولكن لم يكن هناك ما يستطيعون عمله فى تلك اللحظة ..

وظلوا ثلاثة شهور ونصف شهر مهددين بالموت جوعا . لقد كتب عليهم أن يبقوا فوق تلك القطعة من الثلج التى أطلقوا عليها تهكما اسم « معسكر الصبر » ، وتناقصت مؤونتهم من الدهن الى حد ينذر بالخطر ، حتى اضطر شاكلتون الى تخفيض مقدار الوجبات لكل شخص الى قدح واحد من الشراب الدافىء يوميا ، مع كوب من اللبن المسحوق فى الصباح .

ولكن العناية الالهية لم تتخل عنهم تماما ، فقد كان فى استطاعتهم أن يصيدوا عجول البحر ، بما يكفى لابقائهم أحياء ، وعندما ظهرت أسراب طيور البطريق المهاجرة فوق الثلوج فى ٢٠ فبراير ، استطاعوا أن يقتلوا منها حوالى ٦٠٠ طائر نقلت الى مخزن مأكولات المعسكر .

وكان البحث عن الطعام يقودهم أحيانا الى مخاطر لا تصدق .. حدث يوما أن كان أمين المخزن اورد ليز - وهو صياد ماهر - ينزلق فوق الثلوج المتآكلة عائدا بعد جولة لصيد عجول البحر ، فاذا برأس أسود خبيث ينبثق من الماء أمامه مباشرة ، فاستدار على عقبيه وأطلق لزحافته العنان ، وهو يصيح مناديا فرانك وايلد ، ليحضر بندقيته .. ولكن الحيوان الضخم - الذى يشبه الفهد البحرى - قفز من الماء وأسرع خلفه كالجواد الطائر ... كان الوحش العجيب أشبه بالديناصور ، وله عنق طويل كالافعى ، وقد أوشك أن يمسك بفريسته بعد بضع قفزات ، ولكنه فطس مرة أخرى فى الماء .

وكان أورد ليز قد أوشك على الوصول الى الطرف الآخر من الطوف الثلجى ، ليعبره الى كتلة الثلج الآمنة ، عندما انبثق راس الوحش مرة أخرى أمامه مباشرة ، فقد تابع الحيوان ظله من تحت الجليد ، واندفع نحوه بوحشية ، وقد فغر فاه وكشف عن صف ضخم من الانياب ، وارتفعت صيحات ليز يطلب النجدة وهو يعدو بعيدا عن الوحش ، الذى قفز مرة أخرى من الماء وراح يطارده ... وفى ذلك الوقت وصل وايلد مع بندقيته ، فاستدار الوحش نحوه لمهاجمته ،

وعندئذ ركع وايلد على ركبته ، وأخذ يطلق نيران بندقيته على الوحش المندفع صوبه .. حتى صرعه فى النهاية بعد أن أصبح على بعد تسعة أمتار منه .

***

فى أواخر يناير ، هبت عاصفة ثلجية من الجنوب ، بلغ من عنفها أنها كادت تكتسحهم من المعسكر ، ولكنهم تحملوها بغبطة ، فقد حملتهم فى الاتجاه الذى يريدونه ، ونقلتهم حوالى ٨٤ ميلا فى خلال ستة أيام ، واستمر التيار الثلجى يسير بهم فى اتجاه شبه جزيرة بالمر خلال الاسابيع التالية ، وهم يتطلعون فى أمل نحو الشمال .

وفى يوم ٩ مارس ، بدأوا يحسون بحركات الموج من تحتهم ، وذلك الارتفاع والهبوط الذى يدل على وجود المحيط الفسيح .. وتجمعوا فى جماعات قليلة وهم يتطلعون الى الحركات الرقيقة البطيئة التى تبدو فوق سطح الجليد .. وبعد مناقشات فيما بينهم ، ظنوا أنهم أصبحوا على بعد ٣٠ ميلا فقط من الماء .

ولكن شاكلتون وحده كان يدرك مدى الخطر الذى يهددهم من حركات هذه الامواج السفلى ... انه اعظم خطر واجهوه حتى الآن ؛ فقد كان يخشى أن تزداد هذه الحركات فتحطم الاطواف الثلجية ويتكسر الثلج قطعا صغيرة ، فلا يجدون مكانا يقيمون معسكرهم فوقه .

وزاد الطين بلة أن مشكلة الطعام أصبحت مشكلة خطرة ، فقد نفدت كمية الدهون الضئيلة التى حصلوا عليها من الطيور ، ومرت أسابيع لم يصيدوا خلالها شيئا من عجول البحر ، وفى ١٦ مارس انتهى آخر قدر من الدقيق الذى كان لديهم ، واضطروا الى اعدام كل ما كان معهم من الكلاب ما عدا مجموعتين لجر الزحافات .

واحس اكثر الرجال بآلام بدنية بسبب الجوع .. كان الجوع الشديد الذى لا نهاية له يزداد بسبب حاجتهم الى المزيد من الوقود لاجسامهم لمقاومة البرد المرير الذى يزداد وطأة .

وكان الكثيرون منهم يشعرون بالرغبة فى الزحف داخل أكياس النوم بعد ساعات قليلة من الاكل ، لمقاومة رعشة البرد حتى يحل موعد الوجبة التالية ، لعلها تبعث فى دمائهم بعض الدفء .

واخذ البعض يتندر ساخرا باقاصيص اكلة لحوم البشر ، وكان وورسلى وجرينستريت يسليان

نفسيهما بالتهديدبأكل جورج مارستون رسام الرحلة ، وهو أكثر الرجال بدانة فى المعسكر ، ويتشاجران حول اختيار المواضع التى سيحصل عليها كل واحد منهما من جسمه ، حتى بدأ الرجل يخاف على نفسه حقا !

وفى صـــباح ٢٣ مارس ، نهض شاكلتون مبكرا فى الصــباح ، ليقوم ببعض الرياضة ، فشــاهد جسما أسود على مسافة بعيدة ، وبعد أن تطلع اليه بضـــع دقائق ، هرع الى الخيام صائحا :

ــ ها هى الارض ... ظهـــرت الارض ..

وعلى الفور قفز بعض الرجال من خيامهم ليشاهدوها بأنفسهم ، بينما رفض الآخرون أن يخرجوا من أكياس النوم ، فقد كانوا يرتعدون بردا ... وخارت عزائمهم بعد أن تكرر خداعهم بمنظر الارض الوهمية ..

ولـكن الارض لم تـكن هذه المرة سرابا أو جبلا من الثلج . بل كانت جزيرة صغيرة تقع على مقربة من طرف شبه جزيرة بالمر ، وقد يمكن رؤية جزيرة (بوليت) من فوقها ، لانها تقع على بعد ٢٠ ميلا وراءها .

وظل الجميع ينتظرون تفتح الثلج حتى ينزلوا الزوارق فى الماء للوصول الى هذه الجزيرة الصغيرة ، ولـكن الثلج بقى كما هو ، وبالتالى فان منظر الارض التى بدت امامهم لم يكن غير عامل جـديد يذكرهم بموقفهم الذى يوحى باليأس .

ان الطوف الثلجى الذى يقيمون فوقه أصبح عبارة عن مساحة مثلثة صغيرة .. وقد حملهم التيار الثلجى الى أطراف شبه جزيرة بالمر ، ولكن احتمال الوصول الى الارض الآن أصبح مستحيلا ... ولم يعد بينهم وبين البحار الفسيحة الرهيبة ، فى أكثر المحيطات امتلاء بالعواصف العاتيــة غير موقعين اماميين يقفان كالحارسين من القارة القطبية الجنوبية ، همـا جزيرتا « كلارنس » ، و « اليفانت » وتقعـــان على بعد ١٢٠ ميــلا الى الشـــمال ... أما فيمـا وراء ذلك فلا شىء !

وخفضت وجبـــات الطعام مرة اخرى ، بعد أن كادت تنفد مؤونتهم ، فلم يعد لديهم من الدهن أكثر من تموين أسبوع واحد . وفى ٣٠ مارس أعلن شاكلتون أن الوقت قـد حان لاعدام الكلاب الباقية ، وتولى هذه المهمة فرانك وايلد والدكتور الكسندر ماكلين ــ أحد جراحى البعثة ــ وكان ماكلين يصحب فى كل مرة كلبا ويذهب

به وراء مرتفع من الثلج ، حيث يضع وايلد فوهة مسدسه على جبهته ويطلق الزناد .. وفى النهاية سلخت جثث الكلاب كلها ، ونظفت أمعاؤها ، لتصبح جاهزة للاكل ! ..

***

كان الموقف يزداد خطورة فى كل يوم .. بل فى كل ساعة . وفى يوم ٣ ابريل ، تضاءلت مساحة الطوف الثلجى الذى كانوا يقيمون فوقه حتى أصبح قطره لايزيد على ٢٠٠ ياردة بعد أن كان أكثر من ميل ، وأصبح مهددا بحركات الموج المستمرة ، وخطر الاصطدام بالثلوج الأخرى .

وكان الموقع الذى أصبحوا فيه يدل على أنهم تجاوزوا شبه جزيرة بالمر ، وأن جزيرة « اليفانت » تبعد عنهم الآن ٦٨ ميلا الى الشمال .. ومع أنه كان يبدو أنهم فى طريقهم اليها .. فقد كان القلق يملأ نفوسهم ، خوفا من أن ينحرفوا تدريجيا نحو الغرب .

وفى مساء يوم ٨ ابريل كتب هارى ماكنيش نجار البعثة فى يومياته :

« هناك حركات موج كبيرة منذ امس ، ولكنه لايضرنا الآن ؛ لان طوفنا الثلجى أصبح صغيرا جدا .. انه يرتفع وينخفض مع ..... »

وتوقف عندئذ عن الكتابة ، ولم يتم العبارة بعد ذلك .. فقد دوى صوت صدمة عنيفة ، بسبب حدوث تشقق فى الطوف الثلجى .

كان وورسلى يقوم بالمراقبة عندئذ .. فصرخ طالبا النجدة ، وهرع الجميع من خيامهم ، حيث وجدوا أن قاربين وكمية من مواد التموين كانت فوق الجزء الذى انفصل عن الطوف .. فاسرعوا بجذبها عبر الشق الذى يتسع باطراد .

وهكذا أصبحت قطعة الثلج التى يقيمون فوقها عبارة عن مثلث لايزيد اكبر اضلاعه على مائة وعشرين ياردة

وعند الضحى ، امتلأ المكان بالبرك وقنوات الماء ، وأخذت تتسع .. وفى الساعة العاشرة والنصف ، دوى صوت شاكلتون يقول :

ـ ارفعوا الخيام ، وأعدوا القوارب

وهب الرجال جميعا لتنفيذ الامر ، ودوى صوت فرقعة أخرى شديدة ، وانقسم الطوف مرة أخرى الى قسمين ، وحدث الشق هذه المرة فى المكان الذى كانت فوقه خيمة شاكلتون تماما ، وسرعان ما ابتعد القسمان عن بعضهما ، وابتعد مع احد القسمين قارب وكمية كبيرة من المؤونة .. وقفز الجميع فوق الثغرة

وراحوا يدفعون القارب والمؤونة نحو الجزء الذى يقيمون عليه .

وجلسوا بعد ذلك ينتظرون . . .
كانت أفكارهم نهبا مقسما بين الرغبة الجارفة فى انزال القوارب الى الماء مهما كانت العواقب . . وبين ادراكهم التام بأنهم لو فعلوا ذلك ، فان يستطيعوا العودة بعد ذلك !

ان الطوف الذى يقيمون فوقه لايزال هو الوحيد المناسب أمام أنظارهم ، برغم تضاؤل حجمه ، فاذا هجروه ، وتكدس الثلج قبل وصولهم الى مكان يصلح لمعسكر آخر ، فلن تتيسر لهم النجاة .

وتطلع الرجال الى شاكلتون فى تساؤل . .

ان الثلج مفتوح أمامهم الآن . . ولكن الى متى سيظل كذلك . ؟ والى متى يستطيعون البقاء حيث هم ؟

ان الطوف الثلجى الضخم الذى كان « معسكر الصبر » يقوم فوقه يوما ما ، أصبح الآن مجرد مستطيل غير منتظم لاتزيد مساحته على ٥٠ ياردة .

وفى الساعة الثانية عشرة والدقيقة الاربعين ، أصدر شاكلتون أوامره بصوت هادىء :

– انزلوا القوارب !

كانت الساعة قد بلغت الواحدة والنصف بعد الظهر عندما تكدسوا جميعا فى القوارب الثلاثة ، ووضعوا على جوانبها كل مجداف يمكن وضعه وراحوا يجدفون بكل قواهم نحو البحر الفسيح . . وبينما كانوا يبتعدون عن « معسكر الصبر » كان الثلج قد بدأ يتجمع مرة أخرى .

كانت الدقائق القليلة الاولى حرجة جدا ، وأخذوا يبذلون كل جهدهم فى التجديف بسرعة وقد كاد يصيبهم الجنون . . ولكنهم كانوا يجدفون دون خبرة سابقة ، وقد استبد بهم القلق ، والخوف من الاصطدام بالكتل الثلجية التى تحيط بهم . . ورغم ذلك ، فقد ظلوا سائرين قدما الى الامام . . فأفلتوا من المصير الرهيب الذى كان يهددهم .

وظلوا يواصلون تقدمهم حتى قطعوا مسافة لابأس بها ، وعند الساعة الخامسة والنصف ، كان الظلام قد بدأ يرخى سدوله ، وعندئذ قرر شاكلتون أن يتوقفوا خلال الليل ، وأن يقيموا معسكرهم فوق طوف ثلجى ثقيل كان يبدو متينا .

وأقامت الجماعة خيامها فوق الطوف وتناولت طعامها . . كان يوما مرهقا حقا ، ولكنهم لحسن

الحظ قطعوا مسافة سبعة أميال الى الشمال وهكذا اقتربوا من وجهتهم، وهي جـزيرة « كـلارنس » ، أو « اليفانت »

ونام الجميع بعد العشاء ماعـدا حارس الليل ، وعندما بلغت الساعة الحادية عشرة ، بدأ شاكلتون يشعر بالقلق بوحى الغريزة ، فارتدى ثيابه وغادر خيمته •• وعندئذ لاحظ أن حركة الموج قد ازدادت ، وبعد لحظة بدت فجوة عميقة ، ثم انقسم الطوف الى قسمين تحت قدميه مباشرة ،كما فصل خيمة كان ينام فيها ثمانية من رجاله ، فانهارت الخيمة ، وتدافع من تحتها سبعة رجال وهم يبحثون عن ثامنهم ••

وأسرع شاكلتـون وراح يمـزق الخيمة فى الظلام ، واستطاع أن ينقذ الثامن وهـو ارنى هولنس رجـل المطافىء ، الذى كان ينام داخل كيسه عندما وجد نفسه فى الماء فجأة !

واسـتؤنفت لرحلة فى الثامنـة من صباح اليوم التالى ، وبعد ثلاث ساعات ، وصلوا الى البحر الفسيح•

***

كانت هـذه هى اللحظـة التى يحلمون بها منذ أن أقاموا فى « معسكر المحيط » •• ولكن ممـا يبعث على السـخرية ، أن الواقع كان شيئاً يختلف تماما عن الحلم •• فما كادت القوارب تبتعد عن الحـدود الواقيـة للطوف الثلجى ، حتى تقاذفتها الريح الجبارة والبحـر الهائل ، وتدفق الرذاذ المتجمد على الرجال، وامتلأت القوارب بالماء بصورة خطرة • ومع أن القـوارب « دولى ووكـر » و « ستانكومب ويلز » و « جيمس كيرد » ، كانت قوية متينة ، فانهـا لم تستطع مقاومة هذه الحياة القاسية،

وبعد أن استمر سيرها فى البحر حتى الساعة الثانية ، أمر شاكلتون بأن تحتمى مـرة أخرى وراء الحـد الواقى من الثلج •

وتدافع الرجال المرهقـون نحـو طوف ثلجى قـريب ••• انهـم لم يناموا منذ ٣٦ ساعة ، ولكن الرياح العنيفة والامواج القوية أخذت تتقاذفه فى كل اتجاه ••• واسرع الرجـال قبل الفجر الى قواربهم مرة أخرى، ولم يحاولوا الاقامة فوق الثلوج مرة أخرى خلال الليل بعد أن تعلموا من هذه التجربة •••

ومـع ان الايام التاليـة كانت اقل مشقة ، فان اضطرارهم الى البقـاء فى قواربهم ليلا ونهارا كان فى حـد ذاته عاملا مرهقا لهم جميعا ، فقـد

كانت القوارب مزدحمة بالمؤن والعتاد، لاتترك لهم مكانا كافيا تتمدد فيه اجسامهم ، او للجلوس في اعتدال ، وكان البقاء بلا حركة في ذلك البرد القارس الذى تقل فيه درجة الحرارة عن الصفر يمكن أن تكون له نتائج خطرة، فقد تجمدت اطراف البعض ونفد الماء العذب ، وبدأ ظمؤهم يزداد قسوة ، حتى اضطروا الى مضغ قطع من لحم عجل البحر النيء حتى لاتجف حلوقهم ..

وفى اليوم الخامس ، شاهدوا قمم جزيرة « اليفانت » من بعيد .. لقد اصبحت الارض الموعودة على مسافة حوالى ٣٠ ميلا منهم ...

وظلوا يجدفون ساعة بعد أخرى ، ومعالم الجزيرة تكبر أمام عيونهم ببطء ... واستنفد بقاءهم فى العراء كثيرا من حيويتهم ، وبرغم ذلك فقد ظلوا ينحنون فوق مجاديفهم يجدفون فى يأس ... يأس رجال يجدفون من أجل حياتهم .

وفى الساعة الثانية ، ارتفعت قمم جزيرة « اليفانت » الجليدية أمامهم تبرز من الماء الى ارتفاع ٣٥٠٠ قدم ... وظنوا انها لاتبعد عنهم أكثر من عشرة أميال ، ولكن الجزيرة ظلت فى نفس الموقع بعد ساعة أخرى من التجديف ، وكأنها معلقة أمامهم ، لاتقترب ولا تبتعد ..!

لقد وقعوا بين براثن تيار عنيف ، وازدادت شدة الريح وسرعتها حتى أصبحت اعصارا ثلجيا عنيفا ، وظلوا يقاومون الاعصار طوال ليلة اخرى حتى هدات العاصفة .

واتجهوا بقواربهم الى الشاطيء القفر لجزيرة « اليفانت » بما تبقى لهم من قوة ...

ولاول مرة بعد ٤٩٢ يوما ، أصبحوا فوق الارض ... الارض الثابتة التى لاتغرق ولا تتحرك من تحتهم !

***

ولكن جزيرة اليفانت لم تكن مكانا كريما لضيوفها ... كان هناك حقا كثير من عجول البحر وطيور البطريق التى تكفل الغذاء ... ولكن الجزيرة كانت كئيبة قاحلة لاتصلح للسكنى ، وقد كانت على طول شواطئها صخور ترتفع وكأنها جدار ضخم يقف فى مواجهة البحر ، بينما ترتطم جبال الثلج بها وهى فى طريقها الى الماء ، كما كان المد العالى خطرا آخر يتهدد المقيمين فوقها .

وبعد جولة استطلاعية بالقوارب دامت تسع ساعات ، تبين أن هناك مرفأ واحدا أمينا يمكن اللجوء اليه ،

لايزيد طوله على ١٥٠ ياردة واتساعه على ٣٠ ياردة ، ويقع على بعد سبعة أميال من الغرب

وبعد أن اقامت الجماعة يوما فى الجزيرة ، اعلن شاكلتون فى اليوم الثانى أنه سيختار خمسة رجال يذهبون معه فى القارب « كيرد » الى منطقة (جورجيا الجنوبية) التى تقع على بعد ٨٠٠ ميل لاحضار النجدة والمدد من احدى محطات صيد الحيتان هناك .

ووقع الاختيار على كل من وورسلى وماكنيش النجار ، وفينسنت البحار القرى ، وكرين وماكارثى ..

وأعد القارب ، ووضعت فيه مؤونة تكفى ستة أسابيع مع الملابس الممكن الاستغناء عنها ...

وفى يوم ٢٤ ابريل ، اقيمت مأدبة للوداع ، سمح فيها شاكلتون بقطعتين اضافيتين من البسكويت وربع رطل من المربى لكل رجل ... وتبادل الجميع الحديث فى مرح تام ... وعند الساعة الثانية عشرة والنصف ، انطلقت الجماعة السداسية نحو الشمال ...

وأدرك الجميع عندئذ انهم قد لايتقابلون مرة أخرى !

كان شاكلتون يحس بقلق رهيب وقاربه يبتعد عن جزيرة « اليفانت » التى ترك فيها بقية رجاله ... ان الاثنين وعشرين رجلا الذين تركهم وراءه ، لم يكن يعرف محنتهم غير الرجال الستة الذين يقبعون فى هذا القارب الضئيل ...

كان البحر هو طريقهم الوحيد للخلاص من هذه المحنة ..

وفى خلال اليومين التاليين ، واجهوا فى ذلك الطريق أقسى ساعات حياتهم وأكثرها بؤسا ، فقد اغرقهم رذاذ الماء الذى تدفع به الريح ، بينما كان القارب يتمايل ويتأرجح على صفحة الماء المليء بالزبد والامواج ... وامتلأ القارب بالماء ، وبرغم ماوضع فيه من صخور صغيرة ليحتفظ بتوازنه فى البحر الثائر ، فقد كان كالريشة فى مهب الرياح ، وكانت اجسامهم ترتفع الى أعلى ثم تسقط مرة أخرى فوق الصخور .

وبين هذه العواصف الثلجية والامواج القاسية ، قطعوا ١٢٨ ميلا خلال يومين ، ووصلوا الى ممر « دريك » ، حيث تستعرض الطبيعة أقصى قوتها ... هناك حيث يطوق البحر الكرة الارضية ، كانت الرياح تسوق البحار وتدور كعقرب الساعة حول الدنيا منذ بدء الخليقة وكان

ارتفاع الامواج يصل الى حد اسطورى، اذ يتجاوز ارتفاعها أحيانا ٩٠ قدما، وتبلغ سرعتها ٣٠ عقدة ..

وبعد تسعة أيام من مغادرة جزيرة « اليفانت » ، هبطت سرعة الريح الثلجية، وبدت فوق رؤوسهم صفحة السماء الزرقاء ... وعند الظهيرة قال (وورسلى) انهم قطعوا مسافة ٤٠٣ وأصبحوا فى منتصف الطريق الى جورجيا الجنوبية .

وأخذوا يجففون عتادهم ويصلحون الحبال والقلوع ... وبعد يومين من السماء الدافئة والرياح المعتدلة ، انقلب الجو مرة أخرى .

كانت مهمة الملاحة التى يقوم بها وورسلى فى هذه الظروف تفوق طاقة البشر ، ولو أنه أساء التقدير قليلا، فانهم سيتجاوزون الجزيرة ، وينطلقون الى المحيط الذى يقع وراءها ويمتد مسافة ٣٠٠٠ ميل من القفار ..

كانوا يعتقدون انهم يقتربون الآن من هدفهم ، فقد دل تحديد موقعهم الاخير انهم لايبعدون عن الطرف الغربى لجورجيا الجنوبية أكثر من ٩١ ميلا ، وأخذوا يتوقعون مشاهدة علامات الارض ، كأعشاب البحر أو قطعة من الخشب الطافى على سطح الماء .. ولكن شيئا من ذلك لم يحدث طوال تلك الليلة او اليوم التالى لها ..

وفى مساء يوم ٧ مايو ، بدأت المخاوف تجتاح نفوسهم ... لقد كان من الواجب أن يكونوا على بعد ٥٠ ميلا فقط من الشاطىء ..

وأخذ الرجال يحملقون فى الظلام بعيون ملأها ملح البحر بحثا عن شبح الارض المنتظرة ، ويرهفون آذانهم تلمسا لصوت ارتطام الموج بالشاطىء دون جدوى ... لم يكن أمامهم غير الضباب ، ولم يطرق آذانهم غير صوت الريح وأنين البحر ..

ولاح ضوء الفجر دون أن يبدوأى اثر للارض .. .

وفى الساعة الثامنة صباحا كانت نوبة مراقبة شاكلتون قد أرشكت أن تنتهى ، ولكنهم جميعا كانوا قد تجمعوا يتطلعون بأبصارهم التى يعلوها مزيج من الخوف والامل ..

وفى الساعة العاشرة والنصف ، لمح فينسنت قطعة من الخشب ، وبعض الاعشاب البحرية فوق سطح الماء ... وعند الظهر عندما بدأ الضباب ينقشع . . صاح ماكارثى فى غبطة :

ــ هاهى الارض امامنا ...

وكانت صيحته حقيقية ... فقد بدت أمامهم صخور سوداء كئيبة ، وقد تعلقت بجوانبها قطع من الجليد

وحوالى الساعة الثانية والنصف كان القارب « كيرد » على بعد ثلاثة اميال فقط من الساطىء ، ولكنهم كلما اقتربوا ،دوت في آذانهم أصوات ارتطام الامواج بالشاطىء بقوة وعنف ... وأدرك شاكلتون انهم لن يستطيعوا الاقتراب من الشاطىء ، اذ أن الامواج الشديدة كانت كفيلة بتحطيم قاربهم على صخور الساحل فى ثوان معدودات

واضطروا الى العودة الى البحر مرة أخرى انتظارا للصباح ، على أمل التمكن من العثور على طريق آمن بين الشعب الصخرية المحيطه بالجزيرة .

وكاد اليأس وخيبة الامل يسيطران على نفوسهم ، خوفا من أن يسوء موقفهم أكثر مما كان ، ولا سيما بعد أن هبت عاصفة عنيفه دامت طول الليل والليلة التاليه ، حتى بلغت سرعتها ٨٠ ميلا فى الساعة ..

وأخيرا خفت حدة العاصفة : فبحثوا عن مكان آمن لنزولهم حتى عثروا عليه ، ونجحوا فى الهبوط الى الجزيرة فى الخامسة من صباح يوم ١٠ مايو ١٩٠٦ ، ولكن هبوطهم جاء لسوء الحظ عند الطرف غير المأهول من الجزيرة بعيدا عن محطات الحيتان الاربع المقامة فى (جورجيا الجديدة) ولم يكن فى استطاعة قاربهم ان يقطع بهم مسافة ١٥٠ ميلا أخرى للوصول الى الجانب الآخر من الجزيرة .

وقرر شاكلتون ان يصحب وورسلى وكرين لعبور الجزيرة التى تبلغ مساحتها ٢٩ ميلا ، سيرا على الاقدام . . وبعد ان امضوا تسعة ايام فى الاستجمام من عناء السفر بالبحر ، بداوا رحلتهم فى يوم كان القمر فيه بدرا والجو رائعا ... وبعد ٣٦ ساعة من العذاب والعناء الذى لامثيل له فوق حبال ترتفع آلاف الاقدام ، صخور مدببة كالانياب ، استطاعوا بلوغ الطرف الآخر من الجزيرة ، وهو ما لم يصنعه انسان آخر من قبل

كان رئيس عمال محطة « سترومنس » لصيد الحيتان يرقب بعض رجاله وهم يصلحون بعض عتادهم فى الميناء عندما شاهد فجأة أمامه أشباح ثلاثة رجال يتقدمون نحوه ببطء .

كانوا أغرابا يبدو عليهم الارهاق بأجلى معانيه وقد تمزقت ثيابهم وطالت لحاهم .. ولكن الشىء الذى أدهشه وحيره، أنهم لم يكونوا قادمين من ناحية الميناء حيث تأتى السفن،

بل جاءوا من الداخـــل • • حيث الصخور والجبال التى لايجرؤ أحـد على اجتيازها !

وقادهم الرجل الى مدير المحطة تورالف سورل الذى كاد يصعق عندما شاهد شاكلتون فى هذا المنظر - وكان يعرفه من قبل - وكاد يكذب نظره وهو ينظر اليه • • ثم أدار وجهه • • • وبكى !

وفى تلك الليلة بعد عشاء ممتع، استقل وورسلى سفينة من سفن صيد الحيتان وانطلق بها الى الجانب المقابل من الجزيرة حيث احضر زملاءه الثلاثة الباقين هناك •

ولم يضع شاكلتون وقتـــه فى الراحة ، بل استعار سفينة أخرى ضخمة تدعى «سماء الجنوب» وذهب بها الى جزيرة « اليفانت » لانقـــاذ زملائه الآخرين • • • وقد حاول الاقتراب من الجزيرة عبثا بسبب الامواج العاتية والكتل الثلجية التى تحيط بهـــا ، وعندما كاد وقودهم ينفد ، اضـــطروا الى الرجوع الى جزر فالكلانده •

وبذل شاكلتون محاولتين أخريين قبل أن ينجح فى الوصول الى الجزيرة فى سفينة قديمة استعارها من حكومة شيلى • • وفى هذه المرة وصل الى رجاله المعزولين عن العالم • • بعد أن انتظروه أربعة شهور وستة أيام وكانوا لدهشته فى حالة طيبة جميعا على الرغم من نفـــاد ما تركه لهم من مؤن •

ان النجاح الذى حققه شاكلتون بالعودة مع رجاله جميعا أحياء ، هو أعظم حدث فى تاريخ الكشف عن القطب الجنوبى ، ولاشــك فى أن مؤرخى القطب يتفقون جميعا على أن مافعله شاكلتون ، يفوق ما كان يريد عمله بعبور القارة القطبية على الاقدام •



لايعـرفه

كان احد اهالى الساحل الشرقى لامريكا يزور ولاية كاليفورنيا التى تقع على الساحل الغربى ، عندما توقف يوما لتنـــاول الغداء فى بلدة صغيرة • • • ولاحظ الرجـل ان فى مواجهـة المطعم كلية جامعية ، فقرر ان يلقى نظرة عليها • • • وعندما مر باحد الطلبة فى حرم الجامعة، سأله قائلا : ما اسم هذه الكلية ؟

فقال الشاب : آسف ياسيدى فانى لاأعرفه • انى العب فقط فى فريق كرة القدم بها • !

وداعاً يا ولدي

كان من الواضح ان شيئا ما قد حدث ، عندما اتصل بنا ابننا جيم من بلدة بعيدة في أواخر عام ١٩٥٦ وقال انه في حاجة الى مبلغ من المال فورا ، ثم قال انه سيكون من الافضل اذا لم يرنا فترة من الوقت

وأحسست أن جيم يعاني بعض المتاعب ، فاقترحت عليه أن يأتي الى المنزل لعلنا نتمكن من معاونته ، فقال انه فكر فعلا في ذلك الامر ، ولكن هناك أشياء لا بد له من انجازها أولا .. ثم قال وهو يضحك :

ــ ان في استطاعتي أن أعالج الامور يا أبي ... ولكن عندما يكون هناك هذا العدد الكبير من الناس يريدون رؤيتك ميتا ، فان الأمر يكون خطيرا حقا

كان هذا الكلام محيرا ومخيفا في وقت واحد . وعندما أنهى جيم حديثه ، أخذت أتحدث مع زوجتي في ذلك وقد استبد بنا القلق ... كانت زوجتي جين أكثر قلقا مني ، أما أنا فقد اعتقدت أن الامر لا يعدو مبالغة من جيم كلما واجه محنة . لقد التقى في خلال عمله كبحار بكل نوع من الناس في كل أنحاء العالم ، ولعله تورط في نزاع مع بعض الأنواع الخشنة ، ولم يكن في استطاعتي أن ألح عليه في معرفة المزيد من التفاصيل ، ولا سيما أنه كان شابا في التاسعة والعشرين منطويا على نفسه

وبعد مرور شهر على ذلك الحديث التليفوني ، وكان قد مضى يوم على عيد الميلاد ، تلقينا خطابا مسجلا من بلدة صغيرة بعيدة ، وكان لا بد أن تكون كل مشتملاته واضحة في ذلك الوقت ، ولكني اعتقدت فقط ما أردت اعتقاده ، وهو أن هناك من يطارد ابننا ، وانه في خطر قاتل ، ومن ثم فقد قررت أن أذهب اليه على الفور ، فانني على الاقل أستطيع أن أطلب حماية البوليس المحلي له ..

وبينما كانت جين تساعدني في حزم حقيبتي ، أخذنا نناقش رسالة جيم .. ترى هل أصابته هيستريا ؟ هل كان جيم يبدو في حالته الطبيعية عندما رأيناه آخر مرة ؟ هل كان يخفي عنا شيئا ؟ أو انه بدأ يفرط في شرب الخمر ؟

وعلى أية حال فانني عندما هبطت

من القطار بعد ٢٤ ساعة ورأيت جيم على رصيف المحطة ، بدا أن كل مخاوفى الأبوية لا أساس لها ، فقد كان يبدو فى حالة طيبة ، هادئا مطمئنا ، وثيابه أنيقة نظيفة ، وابتسم لى وهو يمسك حقيبة ملابسى ، وقد بدا بقامته الطويلة وبنيانه المتين كأنه حاجز بينى وبين كل ما كنت أخشاه ...

وقلت له : يبدو أنك لم تمت !

قال : أعتقد ذلك يا أبى . وشكرا على ارسالك النقود .. ولكن كان يجب ألا تترك عملك .

فقلت : لقد دفعتنى لهجة رسالتك الى الحضور . هيا بنا الى فندق نستطيع الكلام فيه

ولكن جيم أصر على أن يصحبنى الى الشقة ذات الغرفة الواحدة التى يقطن فيها ... وما كدنا نصل الى هناك ، حتى راح يضع أذنه على الباب ليتأكد من أن أحدا لا يقف فى الخارج ، ثم أغلق النوافذ حتى لا يستمع الينا أحد .. وأخذ يتحدث بعد ذلك أكثر من ساعة وقطرات العرق تنحدر من جبهته . كان يتحدث بطريقة منتظمة ، بأسلوب شخص يسرد سلسلة من الاحداث التى يصعب تصديقها ، ولكن دون أن يبدو أى ذعر فى كلماته

قال انه وقع فى مشكلة مع بعض البحارة على ظهر السفينة التى يعمل فيها ، وبلغت الامور ذروتها فى احدى موانى أمريكا الجنوبية عندما ذهب الى حانة مع شخص يعتقد أنه صديق له وشربا يحتسيان الخمر حتى ثمل جيم وتفوه بكثير من الاشياء التى تعد قذفا فى الفريق المضاد له من البحارة ، ثم اكتشف بعد ذلك أنه كان هناك جهاز تسجيل تحت المائدة يسجل كل كلمة يقولها ، وهكذا تضخم الموقف حتى أصبح متعقدا تماما ، وأقسم أعداؤه القتلة على الثأر منه

كانت القصة كما يذكرها خيالية تماما ، ولكنه كان يسردها بتفاصيل دقيقة ، وقد بدا عليه أنه صادق فى قلقه على أسرته ، شديد الاسف على الاشياء الحمقاء التى ارتكبها

وقال جيم انه سيظل مختفيا بضعة أيام حتى يجد وسيطا يستطيع أن يوفق بينه وبين هؤلاء المجرمين ، وأكد لى أنه ليس هناك أى خطر عليه ، وأنه يشعر بالامان فى هذا المكان اذ يبدو أن مطارديه قد فقدوا أثره .. وقال انه بعد أن يتم ذلك سوف يطير الى البيت ويقضى معنا أسابيع

وعدت الى البيت والقلق يستحوذ على قلبى ، لأجد خطابا يجىء فى اثرى وفيه يقول جيم : « أعتقد انهم فى

أعقابى مرة آخرى » وبعد ذلك بفترة قصيرة كتب لى جيم من بلدة أخرى على الساحل ، حيث كان يعمل فى احدى شركات السفن ، وقال انه ينوى أن يبقى هناك فترة كافية

ومرت أيام وأسابيع دون أن تصلنى كلمة منه ..

حقيقة .. أم وهم ؟

كنت أتحدث مع جين عن هذا الموقف دون انقطاع ، وبعد أن سردت عليها كل ماسمعته من جيم ، قالت : هل أنت متأكد من أنه ليس مريضا بأية صورة ؟ واعترفت لها بأن بعض ما فى القصة يبدو بعيداً جدا عن التصديق ، ولكنه يمكن أن يقع !

ومر شهران فى حيرة متزايدة ، ثم تلقيت ذات صباح مكالمة تليفونية من جيم . قال انه فى بلدة تقع على خليج المكسيك ، وانه امضى الليلة فى السجن ثم أطلقوا سراحه ... وذكر «انهم» وراءه مرة أخرى ، ثم سألنى : هل أستطيع أن أرسل له مالا ؟ وقال انه اذا تلقى النقود فانه سوف يقفز الى أول قطار ويعود رأسا الى المنزل

كان صوته ضعيفا يائسا ، وكلماته تقطعها نوبات من ضحكات تشنجية ، ثم قال ان « أحدهم » يقف خارج كشك التليفون ، وقد يقتله عندما يبارحه ... ثم أطلق ضحكة عالية وأعاد السماعة الى مكانها .

وبعثت النقود ببرقية ، ولكننا انتظرنا عبثا وصول جيم ، واتصلت بعد ذلك بالبوليس فى البلدة التى حدثنى منها ، فقال انه كان معتقلا فعلا بتهمة السكر والعربدة ولكنهم أفرجوا عنه بعد يوم وطلبوا منه مبارحة البلدة بعد ٢٤ ساعة .

وجاءت المكالمة الثالثة بعد يومين .. كان صوت جيم لايكاد يسمع ، وكأنه يهمس طوال الطريق من أوهايو ، وقد طلب منى ألا أقاطعه حتى ينتهى ، فالمسألة مسألة حياة أو موت .

قال : عندما غادرت القطار فى هذه البلدة ، أمسكنى ثلاثة منهم ، ولكنى دفعتهم بعيدا وأخذت سيارة أجرة الى قسم البوليس ، وهناك طلبوا منى أن أبتعد عنهم .. اننى أعتقد أن أحد المخبرين « منهم » .. ولا أدرى ماذا أفعل ؟

وطلبت منه أن يستقل سيارة أخرى ويتجول بها فى البلدة نصف ساعة ، ثم يعود للبوليس ، وفى نفس اللحظة سأتصل بالبوليس ليشمله بالحماية ، ثم استقل أول قطار اليه فى الصباح

واتصلت بقسم البوليس الذى كلمنى منه جيم ، فقال لى الضابط

انه مقتنع بأن أحدا لا يطارده وسألني بهذه المناسبة : هل سبق أن دخل الفتى مستشفى للأمراض العقلية ؟ فقلت مستنكرا : لا .. ومع ذلك فقد أحسست ببرودة تتسلل الى عظامى

وأصررت على أن يشمله البوليس بحمايته ، فوافق الضابط بعد أن وعدته بالحضور صباحا لتسلمه .

وأمضيت ليلة لم يغمض لى فيها جفن بالقطار ، وحجزت لنفسى غرفة فى أحد الفنادق ، ثم توجهت رأسا الى البوليس ، وبعد أن وقعت على تسلم الاشياء القليلة التى كانت فى حوزته ، أحضروه أمامى .كان يسير بخطوات عجيبة متصلبة ، وقد غطت عيناه سحابة معتمة ، وصافحنى فى سكون ، وقد بدا انه يسير وهو نائم ، والتعب يشمل وجهه غير الحليق

وقلت له : هيا بنا ..

فدار بأنظاره فى أنحاء الغرفة ، ثم اقترب منى وهمس :

ـ أبت .. هل أنت مجنون ؟ ألا تعلم أننا سوف نقتل قبل أن نقطع عشر خطوات خارج هذا الباب ؟

ولكنى تمكنت بعد مجهود من اقناعه بأن يثق فى ويخرج معى ، ثم ركبنا سيارة أجرة الى الفندق الذى حجزت فيه غرفة لى ، وهناك استطعت اقناعه بأخذ « دش » وارتداء ثياب نظيفة ، ثم أخذت أبحث معه موضوع العودة للبيت ، وقلت له ان أمه شديدة القلق ، واننى وعدتها باعادته معى .. ثم قلت : تعال معنا أياما قلائل اذا شئت .

ولكنه هز رأسه رافضا ، وعندما أمسكت التليفون واتصلت بأمه ، وافق على أن يتحدث اليها ، واستطاعت جين أن تقنعه بالحضور ، فقال لها : حسنا .. سأحضر لكى أراك فقط

***

كانت تلك أول مرة يركب فيها « جيم » الطائرة ، ولهذا فقد شغلته المناظر طوال الطريق وعندما دخلنا الى البيت كان يبدو فى اتزان تام .. ومنذ الدقائق الأولى أبدى اهتماما شديدا بأمه كما كان يفعل فى سابق أيامه .. ثم التفت الى وقال :

ـ أبى .. هل أقول لها ؟

فحنيت رأسى فى سكون ، وعندئذ بدأ جيم يسرد قصته ... حدثها عن الفرار من خليج المكسيك ، وأعضاء الخلية التى قابلها فى القطار .. والفتاة التى قرروا قتلها ، فأنقذها جيم بوضعها فى جيبه الصغير ! .. وازدادت كلماته سرعة وهو يصف اتساع المؤامرة ضده ، وسألنا : هل

اتصل بنا أحد ليبتز أموالنا ؟ هل نزل بعض الغرباء أخيرا فى حينا ؟ وقال انه رأى أحد جيراننا وسألنا : هل نعرف أنه واحد « منهم » ؟

واحسست بعينى زوجتى تبحثان عن عينى ، وعندما التقت عيوننا ، وجدتها تصطنع الابتسام ، ولكن عينيها كانتا تكشفان عن الحقيقة الرهيبة !

ابنك مجنون

اتفق طبيب الاسرة على ارسال أحد أصدقائه من الاطباء النفسانيين الى بيتنا فى اليوم التالى ، وعندما جاء الدكتور «بوتسفورد» ، قدمناه لجيم على أنه صديق للاسرة ، وذهبت مع جين الى غرفة مكتبى لكى ينفرد به .. وبعد قليل غادر الطبيب الغرفة لغسل يديه ، وعندئذ قال لى جيم فى سخط : هل تعرف انه طبيب أمراض عقلية ؟

قلت : أجل .. لقد مررت ياجيم بتجربة عاطفية ضخمة .. صدمة نفسانية ، قد تكون فى حاجة للتحدث عنها مع شخص أكثر منا ذكاء .

واستطاع جيم أن يحتفظ بهدوئه طوال حديثه مع الطبيب ، ثم ودعه حتى الباب فى أدب ، وقبل أن ينصرف الدكتور بوتسفورد ، قال لى : تعال الى عيادتى ظهر الغد !

وفى الموعد المحدد كنت أجلس أمام مكتبه الكبير .. وعندئذ قال فى صوت كله ثقة :

ــ اننى أقول لك بصراحة : ان ابنك مجنون .. انى أشك فى أنها حالة شيزوفرانيا مع مضاعفات من « البارانويا » . ولابد من ادخاله فورا الى مستشفى للامراض العقلية اليوم ان أمكن فهو خطر على نفسه وعلى الآخرين .

وأمسك سماعة التليفون وتحدث مع احد المستشفيات الخاصة فلم يجد به مكانا خاليا ، فتصل بآخر حتى وجد مكانا لجيم ، وسرعان ما أعد الترتيبات لادخاله فى نفس اليوم ، قائلا ان عامل السرعة فى العلاج قد يكون الفاصل بين الفشل والنجاح

وعدت الى البيت لأحمل النبأ الى جين .. ثم قلت لجيم أن الدكتور بوتسفورد يرى أنه لابد له من الراحة فى مكان هادىء ، واننى وجدت المكان الصالح لذلك ، وهو ليس مستشفى بالمعنى المفهوم ، بل هو مكان للراحة وقضاء وقت طيب ... ثم قلت مضيفا : « انهم » لن يستطيعوا الوصول اليك هناك ، حيث تستطيع أن ترسم خطتك التالية فى هدوء

كان المستشفى يبـدو من الخارج صغيرا •• ولكن جيم تطلع اليه بروح طيبة ، على أساس أنه سيمضى فيه فترة قصيرة للراحة •• وبعـد أن أدخلنـا موظف الاستقبـال ، أقبل موظف آخر ومعه استمارة طلب الى جيم أن يملأها ويوقعهـا قائلا انهـا مجرد شكليات •

وعندما سـمعت صرير القلم وهو يوقع الاسـتمارة ، أدركت أنه تخلى بنفسه عن حريته

نظرة الى الماضى

كان مستشفى جلنديل لابأس به ، يديره طبيب بارع من أطباء الامراض العقلية كما كان المرضون والممرضات ذوى قلوب رحيمـة ، وسأظل أذكر لهم حنانهم وعطفهم على جيم وعلينا

وطلب منى الدكتور بوتسنورد أن أكتب له تاريخا مفصلا لحياة جيم منذ طفولته ، وكل الاشياء التى أعتقد أن لها أثرا فى مرضه ، اذ انها ستكون وثيقة هامة فى تقرير حالته وعلاجه

وبدأت فى اعداد هـذا التـاريخ بمساعدة زوجتى جين •

كان جيم فى السابعة عندما انفصلت عن زوجتى بالطـلاق ، ولـكن ذلك الانفصال لم يستمر طويلا اذ سرعان ماعدت الى جين وتزوجنا مرة أخرى •• هذه المرة الى الابد •• أما جيم فكان يقيم مع أخته التى تبلغ الثالثة من عمرها فى بيت أبوى خـلال فترة الانفصـال عن زوجتى ، فهل يمكن أن تكون هذه التجربة قد خلفت فيه شعورا بالوحدة وعدم الاطمئنان ؟

وكان جيم شديد العناد منذ طفولته يصاب بنوبات عصبية كثيرة • وعندما انتقلنا الى بيت خاص ، بدأ سلوكه يتحسن ، ولكن مرت بنا أزمة أخرى ، فقد كنت أعمـل لحسـابى الخاص ، حتى اضطرتنى سنوات الكساد الشديد الى قبول عمل فى أحد المستشفيات بأجر هزيل ، واضطرت زوجتى الى العمل كمدرسة برغم انها كانت حاملا ، وعندما أتمت الوضع ، كان جيم يقيم بصفة مؤقتة عند عمة أمه ، ثم عند أختها ••

وعندما عادت جين أخيرا الى البيت ، كان جيم قد أصبح طفـلا مشاكسا لا يساس بسهولة ، واقترح أبى ، الذى كان طبيبا ، أن أذهب به الى طبيب للامراض العصبية اخصـائى فى سلوك الاطفال ••• واقترح هذا الطبيب أن نعزله فى غرفة خاصـة كلما أسـاء سلوكه •• وهكذا كان جيم يقضى أغلب أوقاته فى غرفته ، حتى فقد كثيرا من عناده

وفي اواخر سنوات طفولته ومطلع مراهقته ، فقد الكثير من عصبيته ، وتحسن سلوكه وازداد احتراما لي ولامه ، واصبح لطيفا مع أخته ، ونشأ طويلا متين البنيان ، وهكذا أصبح ابنا طيبا نفخر به ، يتمتع بروح مرحة حساسة

وعندمابلغ السابعةعشرة - وكان لا يزال في المدرسة الثانوية - قرر ان يذهب الى البحر ، وحاولت ان اثنيه عن عزمه ، ولكنه قال : انني نجحت في حياتي على الرغم من عدم تعليمي الجامعي ، وكنت قد وجدت نجاحا في الاشتغال بالاعلان ، فذهب جيم للعمل في البحر ، حيث امضى حتى الآن ١٢ عاما طاف خلالها العالم على ظهر السفن التجارية

وعندما انتهيت من اعداد تاريخ حياته ، كان الملف قد تضخم ، وجاء صورة صادقة عن فتى متزن انشاه والدان ليس فيهما شيء غيرعادي .. ولكن كبيرالاطباءفي مستشفى جلنديل قال لنا انه يحوي مادة تكفي لجعل شعر الرأس يقف هلعا !

وبعد اربعة أيام توجهنا لزيارة جيم للمرة الاولى ، وكنا نتوقع أن نراه شاحبا هزيلا ولكنه حيانا وقد بدا مرتاحا نظيفا ، ودلتنابسمته الحلوة على أنه سعيد لرؤيتنا .

وقدم مقعدا لامه ، بينما جلست انا وهو على الفراش ... وفجأة احسست بقلق شديد ، اذ اتجهت عيناه الرماديتان الصريحتان نحو عيني في عقاب صامت .. ثم قال بهدوء :

- هل كنت تعرف أنني عندما امضيت هذه الورقة كنت ألزم نفسي بالبقاء هنا ؟

قلت

- اجل .. ولكن هناك فترة قصيرة كما تعلم .. حتى تتحسن حالتك فقط ..

فقال وهو يضحك دون سرور :

انهم يضعون قضباناعلى النوافذ .. ويقولون انه بيت للراحة ! ... انني أريد الخروج ..

فقلت

- جيم .. انت مريض ، وأهم شيء هو أن تحاول نسيان ما مر بك

فهز راسه وقال :

- الا تصدق شيئا مما قلته لك ؟ .. هل « وصلوا » اليك انت ايضا ؟

ثم أضاف :

- انني اشعر بحرج شديد أمام مي لوجودي في مكان كهذا .

فقالت جين :

ـ ليس هناك ما يدعو للخجل في المرض العاطفي .. انه شيء لا صلة له بعقلك ، وانني أراهن على انك تستطيع أن تهزم أباك في الشطرنج .

ثم أخرجت من حقيبتها الكبيرة رقعة الشطرنج ووضعتها امامنا لنلعب معا .. ولكن جيم ظل طوال اللعب يعيد سرد تفصيلات مأساته .. جهاز التسجيل ، والتهديد .. والعصابة الغامضة التي تسعى لقتله .. كان يتحدث أول الامر بهدوء ، ثم ما لبث صوته أن ارتفع ولم يعد يعبأ بمن يستمع حولنا ، الى أن مر أحد المرضين ، وعندئذ خفض صوته قائلا انه يعتقد انه واحد « منهم » !!

ولم ينقذني منه الا دق جرس انتهاء الزيارة .. وقبل زيارتنا التالية ، تحدثنا مع الدكتور «جلودن» مدير المستشفى عن حالته ، فقال انه استطاع بفضل تاريخ حياة جيم الذي أعددته أن يبدأ العلاج بسرعة ، وان جيم يستجيب له بطريقة طيبة ... ولكن لم يحن بعد الوقت الذي يمكن فيه تقدير النتيجة ، فان جيم كان مريضا جدا .

كانوا قد بدأوا علاجه بالصدمات الكهربائية ، وقال الدكتور جلودن انه يرى انها الطريقة الوحيدة لعلاج حالة جيم ثم قال :

ـ عندما نزيد الجرعة فلا تنزعجوا اذا بدا انه فقد ذاكرته ، فهذا هو رد الفعل العادي .. وبعد حوالى ستة اسابيع من توقف العلاج بالصدمة الكهربائية سوف تعود اليه ذاكرته ، وان كان من المحتمل ان ينسى بعض اشياء نريد أن ينساها .

وسالته جين : هل ينتظر ان تتحسن حالته ؟

فأجاب جلودن في حذر : انني متفائل ، ولكن كلما طالت فترة المرض بلا علاج ، زادت صعوبة العلاج الفعال ، ولعل جيم كان مريضا منذ خمس سنوات أو أكثر رغم قدرته على اخفاء حقيقة حالته .

عندما زرنا جيم في المرة التالية ، قال لنا انه اكتشف أن « لهم » منظمة صغيرة داخل المستشفى ! وذكر لنا ان مريضا آخر ـ ليس مجنونا ـ احضر له رسالة منهم ، جاء فيها انه قد يصاب بسكين في ظهره قبل أن يخرج من المستشفى .. ثم قال :

ـ ابى .. يجب أن تخرجني من هنا فورا ..

وحاولت اقناعه بضرورة العلاج له ، وأن كل ما يصوره له خياله انما

هو وهم ، ولكن عبثـا ، فقد كان رده الوحيد :

ـ أبى .. اننى آسف من أجلك .. آسف حقا .

كان هذيان جيم المستمر ، وعدم قدرته على ادراك حاجته للعلاج أكثر من أن تتحمله أعصاب جين ، ومع اننا كنا لانزال نرى اصدقاءنا فى بعض الحفلات العارضة فاننا لم نذكر لاحد منهم شيئا عما نواجهه من متاعب حتى لا يؤذى ذلك سمعة جيم عندما يخرج ويبدأ البحث عن عمل ..

ولكن عندما ذهبت اليه وحدى فى المرة التالية ، قال انه فكر فى احتمال ان يكون كل ما ذكره لى لم يحدث حقا ، وانه أساء تفسير بعض الاحداث لحماية عقله الباطن من الواقع الذى لا يستطيع قبوله .. فوافقته على انه من المحتمل أن يكون قد شوه معنى بعض الاحداث الفعلية ليواجه بعض حاجاته العاطفية العميقة ... وعندئذ قال لى :

ـ اذا كنت على حق يا أبى ... فاننى مريض .

قلت :

ـ أن الطبيب يعتقد ذلك ، ولكن مجرد قدرتك على التفكير فى هذا الاحتمال يدل على تحسن مؤكد ..

وكان هذا أول صدع فى الجدار الذى يحيط بعقله .. وأسرعت الى جين أزف اليها هذه الانباء الطيبة

زيارة للمنزل

فى يوم الاحد التالى ، سمحوا لى بصحبة جيم الى بيت الاسرة فى زيارة قصيرة ، وقد سره الخروج وان كان قد احنقه أن تكون حريته محددة بيوم واحد .. وسرعان ما بدا أن هذا الصدع قد التأم مرة أخرى ، اذ راح يصر على ضرورة الخروج من المستشفى قائلا : ان الدكتور جلودن ضمن العصبة التى تطارده ، وانه لا يستطيع تحمل العلاج بالصدمات الكهربائية بعد ذلك ... وراح يصف لنا طريقة العلاج والآلام التى تصاحبها ، حتى انفجرت أمه باكية وهرعت خارجة من الغرفة ..

وعندما اعدت جيم الى المستشفى وجدت جين تبكى فى ثورة . وطلبت منى أن أتصل بالطبيب لوقف هذه الطريقة من العلاج ، لانهم يجعلون منه دمية ويسلبونه حقه فى التفكير .. ولكن الدكتور جلودن قال انه يعطيه حقنة مخدرة قبل بدء الصدمة الكهربائية مما يجعله لايحس بشىء من الالم كما يقول ، وعلى اية حال فانهم كانوا قد توقفوا من

تلقاء أنفسهم عن استخدام هذه الصدمات وبدأوا يجربون طريقة العلاج بصدمة الانسولين

كان مستشفى « جلنديل » مكانا يجرى فيه كل شيء بسرعة بالغة ، فالمفروض أن الحد الاقصى للبقاء فيه هو ستة اسابيع ، فاذا لم يشف المريض خلال هذه الفترة ، فلابد من نقله الى مكان آخر • وعندما اقترب هذا الموعد ، بدا أن مرض جيم لايزال حادا ، وان كانت حالته المعنوية قد تحسنت قليلا ، ولم يعد يشعر حيالنا بمرارة لادخاله المستشفى • ولم يسفر العلاج عن أية نتيجة ، وسرعان ما أوقف هو الآخر !

ولكي تزداد الامور تعقيدا ، قررت المؤسسة التي أعمل فيها أن تنقلني الى مقرها الاساسى الذى يقع على بعد ٩٥٠ كيلومترا ، ولم يكن لدينا مدخر من المال ما عدا منزلنا ، وكنت قد طلبت قرضا كبيرا من المؤسسة لابد أن يقره رئيس مجلس الادارة أولا ، ومن ثم فقد قررنا أن نبيع المنزل وسيارتنا الثانية ، ولكننا لم نجد مشتريا لأيهما !

وعند انتهاء الاسابيع الستة ، استدعانى الدكتور جلودن أنا وجين الى مكتبه لنبحث ما سنفعله بعد خروج جيم من المستشفى ••• كان قد تحسن فى الفترة الاخيرة واستجاب للعلاج النفسانى •• وبعد أن ناقشنا الوسائل التى يمكن اتباعها مع جيم ، نظر الى الدكتور جلودن وقال فجأة :

— هل تخاف جيم ؟

قلت فى حماسة : كلا بكل تأكيد

قال : اذن يستطيع أن يعيش معك بضعة شهور ، بينما يقوم طبيب نفسانى بعلاجه

ثم قال ردا على سؤال لجين انه لايستطيع أن يضمن لنا شيئا ، وان كان يعتقد أن الامور ستسير سيرا حسنا ، وهو متفائل بالنتيجة

وهكذا أعددت مكانا أعيش فيه مع جيم بعد أن انتقلت الى مقر عملى الجديد ، ولحق بى جيم الى هناك بعد أن قضى تسعة أسابيع فى جلنديل ، أما جين فقد بقيت فى بيتنا القديم حتى تجد له من يشتريه أو يؤجره

كان المسكن الذى استأجرته يقع فى حى متواضع ، فى أعلى عمارة حتى يناسب ميزانيتنا التى أرهقها ما أنفقناه على علاج جيم ، وهو يضم غرفة استقبال صغيرة وغرفة للنوم ومطبخا وحماما ، ويطل على مصنع مجاور ••• وأخذت أتبادل الرسائل مع جين دون انقطاع

واختار لى الدكتور جلودن طبيبة اخصائية فى الامراض العقلية والنفسانية فى البلدة التى انتقلنا اليها لتشرف على علاج جيم ، واتصلت بها وكانت تدعى الدكتورة ميلدريد نوردهوف وهى سيدة ذكية ذات قلب حنون ... وسردت عليها موجزا لحالة جيم ، وبعد أن انتهيت منها ، أخذت توجه الى بعض الاسئلة عن العلاقة بينه وبين الاسرة ، ثم طلبت منى احضاره لزيارتها

وقالت وهى تودعنى :

ـ ستكون كل زيارة حوالى ساعة ، والاجر ١٥ دولارا تدفع كل مرة الا اذا أردت أن تتفق على ترتيب خاص الآن .

وفى تلك الليلة ، أخذت أدرس ميزانية الاسرة .. سوف يعالج جيم مرتين كل أسبوع ، فاذا تحسنت حاله ، زاد العلاج الى ثلاث مرات أسبوعيا ، وسيحتاج أيضا الى ثياب ، أما الطعام فسوف نقوم باعداده فى المنزل ، وسأذهب الى عملى على قدمى ، ونغسل ثيابنا وجواربنا بأيدينا

بيت الأعزب

وقلت لجيم وأنا أطوف به مسكننا الجديد :

ـ أنه ليس قصر بكنجهام ... ولكنى آمل أن تحبه ..

وأعجب جيم فعلا بالمسكن على الرغم من تواضعه ، ثم جلسنا معا على أريكة صغيرة بعد أن خلعنا ثيابنا حتى النصف الأعلى ، ورحنا نرتشف بعض اللبن المثلج .. كان يوما حارا من أيام يونيو

وأشار جيم الى باب غرفة النوم ، والى النوافذ المفتوحة .. ثم قال وهو يبتسم :

ـ أنظر .. لا قضبان عليها

وسكت قليلا ثم قال :

ـ هل قال لك الدكتور جلودن انني مجنون ؟

قلت : المفروض انك مصاب بمرض عاطفى .

فقال : انني أعتقد انني مريض حقا ، ولكننى أريد أن يتولى طبيب نفسانى مهمة علاجى على أن نبدأ فى ذلك فورا .

وحدثته عن الدكتورة نوردهوف ، واننى اتفقت معها على أن يذهب اليها بعد ذلك ، فقال أنه يريد ان ينام قليلا .. وسرعان ماسمعت شخيره يرتفع من غرفة النوم

***

بدأت حياتنا الجديدة فى اليوم التالى .. وكنت شديد القلق بسبب

اضطرارى الى ترك جيم فى المسكن وحده دون شىء يفعله . وكنت اضطر أحيانا الى البقاء فى عملى حتى ساعة متأخرة ، فاذا عدت ، وجدته قد دخن عددا ضخما من السجائر ؛ واقترحت يوما أن نتناول طعامنا فى مطعم قريب ، وبينما كنا نسير فى الطريق ، لاحظت أن جيم لا يزال يسير متصلبا كأنمـا يربطه خيط مجهول . وعندما جلسنا على مائدة الطعام ، رأيت فى عينيه تلك النظرة المعذبة التى تبدو فى عينى رجل يواجه ضغطا لا يحتمل .

وبدأت أتحدث معه عن عملى فى المكتب ، ولكنه بدأ غير مهتم ، وان كان قد سألنى :

ـ كم عملية تقوم بها الآن يا أبى ؟

وظل يوجه الى نفس السؤال كل يوم طوال ستة أشهر .

كانت الدكتورة نوردهوف قد اقترحت أن أترك لجيم نفسه مهمة تقرير ما اذا كان سيذهب اليهـا بمفرده أم معى ... وعندما سألته ، قال انه سيذهب وحده .

وفى ذلك المساء ، جلست معه بعد العشاء ليحدثنى عن انطباعاته عن الدكتورة نوردهوف ، فقال انها سيدة طيبة ، وذكية وان كانت لا تبلغ عبقرية الدكتور جاودن . وقال انه أدرك فى النهاية أنه يسير فى الطريق الصحيح .

كنت قد اتفقت مع الدكتور جلودن على أن اترك الحرية لجيم فى الذهاب الى البحر مرة أخرى كما كانت الدكتورة نوردهوف تريد أن تجـرى بعض الاختبارات لمعرفة نوع العمل الذى يصلح له ، وكان هو شديد التحمس للالتحاق بعمل ليستطيع أن يدفع كل النقود التى أنفقناها على علاجه

وقال لى يوما :

ـ لقد كنت أعرف أن هؤلاء الناس لم يكونوا يطاردوننى حقا !..

فحنيت رأسى وقلت :

ـ اننى أدرك انه كان من العسير عليك أن تتأكد من ذلك لأول وهلة

واستمر جيم يمارس علاجه النفسانى ، فكان يزور الدكتورة نوردهوف مرتين كل أسبوع ، ولكنه كان كثير التقلب فى الاوقات الاخرى ، تجده هادئا مرحا فى لحظة ، ثائرا متوترا فى لحظة أخرى . وكان يقضى ساعات لا حصر لها راقدا على ظهره يحدق فى سقف الغرفة وقد ملأ جوها بدخان سجائره الازرق ..

واشتريت جهازا للتليفزيون وآخر لتكييف الهواء حتى يجد تسلية

تساعده على قضاء الوقت ••• وكنت أحاول أن أعهد اليه ببعض الاعمال المنزلية لكى أبدد سأمه ، فضلا عن أننى كنت لا أجد الوقت الكافى للقيام بها بمفردى ، ولكنه كان يقضى يومه كله فى الفراش

وكان يقول لى عندما أستحثه للعمل:

ـ اننى لا أحب عمل البيت يا أبى

وذهبت يوما مع جيم الى سهرة لدى بعض الاصدقاء القدامى ، بعد أن نصحتنى الدكتورة نوردهوف بمساعدته على الاتصال بالمجتمع قليلا ••• وكان آل باترسون الذين ذهبنا اليهم من أصدقائى القدامى ، ولكنهم لم يسبق لهم رؤية ابنى جيم •• وقد حاول خلال السهرة أن يبدو فى صورة طيبة ، وراح يحدثهم عن حياة البحر الجميله التى عاشها ، ولكنه ما لبث أن انقلب فجأة وأخذ يتحدث بصوت مرتفع ، وهو يقول انه جاهل لم يتعلم وانه سوف يستأنف تعليمه لينال أرقى الشهادات !

وبدت الحيرة فى عيون آل باترسون وأخذوا يتمتمون بكلمات يشوبها الادب ، واستطعت أخيرا أن أتجه بالحديث ناحية أخرى ، وعندئذ أمسك جيم عن الحديث ولم يعد يتكلم الا اذا وجه الحديث اليه مباشرة ، وحاول أن يتمسك بالهدوء بقية السهرة

وبعد بضعة أيام ذهبنا الى سهرة أخرى ، كان جيم نجمها اللامع ، اذ تخلص من عصبيته تماما واستعاد ذكاءه وسحر حديثه القديم ، حتى أثار اعجاب الجميع

جيم يحصل على عمل

فى نهاية الشهر الأول للعلاج ، قالت لى الدكتورة نوردهوف ان جيم محطم الشخصية وان لم يكن مصابا بمرض عقلى شديد ••• ان جهازه العقلى لم يصب بتلف ، ولكنه من الناحية العاطفية أشبه بطفل فى العاشرة ، كثير الاوهام ، لايثق بعالم الكبار ، وكان جيم يحرز تقدما محدودا كما قالت الدكتورة نوردهوف ، فقد قل عناده ، وتحسنت ارادته ، وأظهرت اختبارات الصلاحية التى أجريت له أن به ميلا نحو الرسم ، وفلاحة البساتين ، وكان يفكر فى الالتحاق بعمل يتصل بتشذيب الاشجار وتقليمها ، اذ كان هذا العمل يتفق مع ميله الطبيعى ، وقالت الطبيبة ان عمله سيساعد كثيرا على شفائه

وذهب جيم من تلقاء نفسه لمقابلة رئيس عمال شركة لتقليم الاشجار ـ وهذا فى حد ذاته دليل على تقدمه فى طريق الشفاء ـ وبعد ستة أسابيع

من حياتنا معا ، بدأ جيم يمارس العمل الذى يحبه ، وسرعان ما أحبه زملاؤه ، وبدا أن شعوره بالثقة عاد اليه وعندما حصل على أول أجر له ، أصر على ان يدفع بنفسه أجر الدكتورة نوردهوف ... كان يعود من عمله فى المساء متعبا ، ولكنه كان سعيدا ، واختفت مظاهر الالم من عينيه قليلا ، كما لاحظت أنه أصبح يتخذ قراراته بسهولة ... لقد كانت الدكتورة نوردهوف على حق فيما قالته ... فهذا هو العلاج الذى يحتاج اليه ..

مرحلة ((جيم الجنتلمان)) !

لم تكن جين قد استطاعت بيع البيت حتى ذلك الحين ، وكنت افتقدها كثيرا ، ولاسيما بعد أن ازداد الضغط على ، ولم أكن استطيع تركيز اهتمامى فى العمل حتى بالنسبة لاصغر المسائل ، وفى بعض الاحيان كان يصيبنى هلع شديد كلما فكرت فيما سوف يحدث اذا ادى القلق الى نضوب فكرى وضياع قدرتى على أداء عملى . وبعد بضعة أسابيع ، قرر جيم التخلص من عمله لانه لم يعد يحب الاشجار ، وقال انه يجب أن يجد عملا يعود عليه بالمزيد من المال ..واقترح يوما أن يعمل فى طلاء المنازل ، ثم قال انه يود أن يصبح أستاذا ...أو طبيبا للامراض العقلية ! . ثم قال انه سيقوم بعمل مهندس للمنازل !

وقالت الدكتورة نوردهوف اننى يجب أن أجد عملا آخر لجيم فى أسرع فرصة ممكنة ، حتى على ظهر السفن اذا لم يكن هناك بد ، ولكنى عندما ذهبت مع جيم الى اتحاد عمال البحر لتجدد أوراقه الخاصة بعمله كبحار ، قال لى أحد المسئولين هناك ان هناك وظيفة خالية لرجل يتولى ارشاد السفن عند رسوها على الرصيف ، وهى وظيفة كثيرة الجهد ولكن أجرها طيب وقبل جيم هذا العمل بغبطة بالغة ...

وفى اكتوبر ، توجهت الى كاليفورنيا لاقضى شهرا ، نصفه فى مهمة خاصة بعملى ، والنصف الآخر عطلة أقضيها مع زوجتى جين فى سان فرانسيسكو ... ولكن هذه الرحلة كانت لهما تعقيدات أخرى ، فعلى الرغم من قلة نقودنا ، واستمرار الانفاق على علاج جيم بمعدل ٤٥ دولارا فى الاسبوع ، فقد كان خالى الذهن من كل ذلك . وراح يطالب بثياب انيقة ومعطف فاخر ، واشتريت له بعض مطالبه.. ولما قلت له اننى لا أملك نقودا ، اتهمنى بالفقر !

الستائر السوداء

قبل راس السنة بأيام قليلة، اجرت جين منزلنا وقررت الحضور للانضمام الينا ، واتفقنا على أن تقيم معى فى المسكن الصغير حتى نجد مكانا أفضل منه ، على أن ينتقل جيم الى مكان آخر . . ووجدنا مسكنا معتدل الاجر يقع على مسافة شارعين من مسكننا ، وساعدته على نقل حاجاته القليلة الى هناك ..

كانت الغرفة تغمرها أشعة الشمس ، وكان منظرها مبهجا لولا الستائر السوداء التى توجد فوق النوافذ .

واستطاع جيم أن يحصل على عمل آخر فى أحد المتاجر ، ولكنه طرد منه فى اليوم السابق لعيد الميلاد ، واحسست أنا وجين بانقباض شديد ، وكنا نذهب كثيرا الى مسكن جيم الجديد لرؤيته ، وفى أحد الايام وجدته قد انزل الستائر السوداء فوق النافذة ، فبدت الغرفة كئيبة موحشة ..

وأسرعت أرفع الستار وأنا أقول : انها تشبه مشرحة لعينة ياجيم

ولكنه صاح : لاترفعها . . ان الضوء يزعج عينى ، والسماء تمطر كثيرا وقد يصيبنى برد

وعندما انصرفت ، التفتت الى جين وقالت وقد قطبت جبينها :

ــ هل لاحظت انه لم يستخدم الطلاء الذى أحضره لدهان الجدران الا فى دهان حائط واحد فقط ؟

فقلت : اننى أحسست بالقلق لذلك ، ولكن الشىء الذى يضايقنى اكثر من غيره ، هو تلك الستائر السوداء .

وحاولت اخراجه من مسكنه المقبض ، فعرضت عليه أن يأتى لتناول الغداء معى ، فوافق بعد الحاح ، وجاء فى الموعد وهو يضع نظارة سوداء على عينيه ... وكان حديثه أقرب الى الهمس حتى لايكاد يصل الى آذاننا ..

جيم يتخذ قرارا

اتصلت بى الدكتورة نوردهوف ذات ليلة تليفونيا ، وقالت ان جيم لم يصل فى موعده للعلاج ، وان هذه مسألة خطيرة ، ثم قالت مذكرة انها ستقضى ثلاثة أسابيع فى أوربا لقضاء عطلة سبق ان ارجات القيام بها مرتين بسبب جيم . وطلبت منى أن اذهب اليه على الفور لكى يتصل بها غدا صباحا على الاكثر ، حتى تتاح لها فرصة رؤيته قبل سفرها .

واسرعت الى مسكن جيم ... كان قد شكا لى عندما رايته آخر

مرة من اصابته بالانفلونزا وكان يبدو مريضا حقا ، وقد وجدته جالسا على مقعد وقد وضع على ركبتيه كتابا يطالع فيه وقلت له أن نورد هوف اتصلت بى لعدم ذهابه اليها ، فاعتذر بأنه نسى الموعد بسبب انهماكه فى النشاط الخاص بالكنيسة التى يتردد عليها ، واصابته بالانفلونزا . ولم تركه الا بعد أن تعهد بالذهاب الى الدكتورة نوردهوف فى اليوم التالى

وبعد زيارته لها ، اتصلت بى وقد بدا الاستياء فى حديثها ، وقالت انه يجب مراقبة جيم عن كثب خلال فترة غيابها ، خوفا من حدوث نكسة تعود به الى مرضه العقلى القديم ويفقد اتصاله بالواقع ...

وذهبت الى جيم ، واخذت احاول التعرف الى حقيقة حاله ، وعندما أدرك مقصدى ، طوح براسه الى الوراء وقال ضاحكا :

— لاتقلق يا أبى ... اننى لن اجن مرة أخرى ... فأنا لم أعد أظن ان هناك من يطاردنى . قد أكون لا ازال فى حاجة الى العلاج ، ولكن حالتى لن تسوء ثانية .

وجلسنا نتناول الطعام معا بعد ان رفض مصاحبتى لتناوله فى الخارج ، ولكننى لاحظت انه لم يتناول غير لقيمات قليلة ...

وتكررت زياراتى لجيم خلال الايام التالية ، وكنت مضطرا للذهاب وحدى لان جين اصيبت بالانفلونزا ولازمت الفراش ، وفى كل مرة كان القلق يزداد بين جوانحى ، فقد كان يغلق الباب بالمزلاج من الداخل ويسدل الستائر السوداء ، وعندما أطرق بابه ، اسمعه وهو ينهض من الفراش ليزيح المزلاج .. ثم يعود فورا الى فراشه .

وقد راعنى نحول وجهه وضمور جسمه ، فأخذت أملأ ثلاجته باللبن والمأكولات التى تكفيه بضعة ايام ..

وظننت ان شهيته قد تحسنت عندما كانت محتويات الثلاجة تتناقص ، ولكننى مالبثت ان اكتشفت انه كان يخفى الطعام ولا يأكله ، حتى يوهمنى بأنه يأكل ... وجدت بيضة فى حذائه ، وقطعة لحم فى جيب المعطف ، وعلب طعام محفوظ تحت السرير

لقد كان يميت نفسه جوعا !

وضاعت جهودى هباء فى محاولة اقناعه بالاكل ، فقد رفض أن يتناول أى شىء من الطعام ، وعندما حاولت ان اضع الطعام بالملعقة فى فمه ، اغلق شفتيه بقوة وادار وجهه نحو الحائط .

وأرسلت خطابا الى الدكتورة نوردهوف التى كانت على وشك العودة من رحلتها ، حتى تكون على بينة من حالته بمجرد عودتها ، وعندما وصلت الى عيادتها ، قالت لى ان هذا الانسحاب التام من الحياة صورة من صور الامراض العقلية ، وانها لن تتمكن من معرفة مدى خطورة الحالة الا بعد ان تتحدث اليه ، ولكن جيم رفض أن يتحدث اليها أو يقابلها ، وكانت عيناه تطفحان بالحقد والكراهية عندما أدخلناها مسكنه بخدعة !

وقالت الدكتورة نوردهوف أن جيم قد جن بكل تأكيد مرة اخرى ، ولابد من ادخاله المستشفى لمصلحة صحته الجسمانية قبل كل شيء ..

واستأجرت سيارة اسعاف لنقله الى المستشفى ، ولكنه رفض رفضا باتا أن يغادر مسكنه ، وأخذ يقاوم الرجال الذين احضرتهم لانزاله بكل قواه رغم ما أصابه من نحول وهزال ، واضطررت فى النهاية أن استعين بالبوليس لنقله الى المستشفى . . وكان الجهد الذى بذلته أكبر من أن تتحمله اعصابى ، فوضعت راسى بين يدى وأخذت أبكى بينما كان جسمى كله يهتز من فرط التأثر ..

وداعا يابنى ..

استجاب جيم للعلاج بسرعة ، واسترد الكثير من وزنه الذى فقده خلال فترة الاضراب عن الطعام ، وقال الاطباء انه استطاع ان يسترد ذكاءه وتقديره لموقف حياته ... واستمر العلاج والتحسن ، الى أن حان وقت اخراجه مرة اخرى من المستشفى ... وعادت مشكلة رعايته من جديد ...

قال الاطباء أن حياته معنا ليست حلا ، كما ان الحياة معى وحدى لم تنجح ، أما انا فقد كنت اعتقد ان افضل فرصة لجيم ، هى أن يعتمد على نفسه ، وعرضت على جيم ان يسافر الى فلوريدا ليعيش مع والدى ، فوافق ، وسافر الى هناك بعد خروجه من المستشفى بيومين ..

وتلقيت بضع رسائل من أبى يقول فيها ان جيم يبدو سعيدا هادئا ، وانه يساعده فى الاشراف على الحديقة ، ولكنه لم يذهب لرؤية الطبيب الجديد الذى عهدت اليه الدكتورة نوردهوف مهمة علاجه فى الخارج .

ولكن الامور عادت تزداد سوءا فى خلال الاسابيع التالية ، فقد عاد الى عزلته وأصبح يمضى أكثر اوقاته فى

غرفته وحيدا ، ورفض الذهاب الى الطبيب ، ثم قرر فى النهاية أن يذهب الى أقرب ميناء للبحث عن سفينة يعمل عليها ..

ورافقه أبى وامى الى موقف الاتوبيس، وتركاه هناك ينتظر قدومه ... ومنذ ذلك اليوم اختفى تماما عن الانظار ..

وقمنا بتحريات واسعة واستفسارات فى كل مكان يحتمل ان نحصل منه على معلومات عنه ... اتصلنا بنقابات البحارة ، والبوليس ، وعهدنا الى بعض وكالات البوليس الخاصة فى البحث عنه ، ولكن دون جدوى وبعد حوالى ستة شهور أرسل لى أبى رسالة جاءت اليه باسم جيم ، وكانت تحمل اسم احدى شركات البواخر ، وتتحدث عن ضريبة الدخل الخاصة بمبلغ ٥٠ دولارا حصل عليها جيم كأجر من عمله كبحار ..

وأدركنا أن جيم استطاع أن يعمل فترة طويلة فى البحر ... ولكننا لم نتلق بعد ذلك أية رسائل أخرى ..

وانتقلنا بعد ذلك للعمل فى هاواى حيث أعيش مع جين فى هونولولو ، على بصيص من الامل بأننا سوف نلتقى يوما بابننا وقد استعاد قواه العقلية تماما بمعونة الله والعلاج الذى أتمناه له ..

وفى بعض الاحيان نجلس فى شرفة أحد الفنادق المطلة على البحر ، نتناول العشاء ، ونرقب غروب الشمس ، حتى اذا اقتربت احدى السفن من الشاطىء فى تلك المنطقة راحت جين تحدق فى كل بحار شاب، ثم لاتلبث ان تشعر بخيبة الامل ..

ومع ذلك فانها لاتزال تأمل فى انها سوف تلتقى يوما بابنها الحبيب على ظهر احدى هذه السفن ، أو فى أى مكان آخر

انه أمل قد يتحقق ، ولكننى أقول منذ الآن ، وداعا ياولدى، وداعا للفتى الذى كنت أعرفه، ومرحبا بالشخصية الجديدة التى أومن دائما بأنها سوف تبرز أمامى يوما ما ...



ماذا فيها ؟

عندما أفكر فى ضرورة اشتراك الامريكيين فى السياسة ، اذكر ما قاله لى مهاجر ايطالى يوما ما . وهو : « هؤلاء الامريكيون لايقدرون الديموقراطية ، لانهم لا يعرفون ما فيها »

موراى لنكولن



وفتحت الجحيم أبوابها!

عن كتاب No High Ground

بقلم فلتشر كنيبل وتشارلس بيلي

في حقل جرجيز خارج طوكيو ، كان فريق من خبراء اللاسلكي في الاسطول الياباني يعملون في غرفة ازدحمت بعدد هائل من اجهزة الاستقبال القوية ، انهم من رجال سلاح الاشارة ، وهم يعملون ليلا ونهارا لالتقاط وتسجيل كل الاشارات اللاسلكية الصادرة من أجهزة الارسال الامريكية ... وفي تلك الساعة المبكرة من صباح ٦

أغسطس ١٩٤٥ التقط رجال نوبة الليل اشارة سبق أن سمعوها قبل ذلك لاول مرة منذ ثلاثة أسابيع .. وحددت الاجهزة مكان صدورها فى جزيرة « تينيان » ، ونظرا لانهم كانوا يسمعون هذه الإشارة يوميا طوال الفترة الاخيرة من شهر يوليو ، فقد أطلقوا عليها اسم « شركة المهمة الجديدة » ، ولم يستطع خبراء الشفرة فى طوكيو حلها ، وان كانت اجهزة الالتقاط اليابانية أصبحت تميزها على الفور .

وها هى الاشارة قد ترددت على الاثير مرة أخرى اليوم ... وكانت بالنسبة لليابانيين مجرد مادة أخرى تسجل وتبلغ ، ولم يكن بينهم من يعرف ان « شركة المهمة الجديدة » هذه هى سرب القاذفات رقم ٥٠٩ الذى تحيط به سرية بالغة ، والذى كانت مهمته الاخيرة هى انهاء الحرب بالقاء أول قنبلة ذرية !

كانت هناك محاولات تبذل للتفاوض ، ولكن الفرصة كانت قد ضاعت فى ٦ أغسطس ، فقد كانت الوزارة اليابانية تأمل فى اقناع روسيا — التى كانت لاتزال محايدة فى حرب الباسفيك — أن تعمل كوسيط لترتيب اتفاقية للصلح ، وكان وزير الخارجية اليابانية (شيجنورى توجو) قد عهد الى سفيره فى موسكو ناوتاك ساتو باثارة الموضوع مع فياشيلاف مولوتوف وزير الخارجية الروسية يومئذ ، وان يسعى للحصول على ترخيص لسفر مبعوث امبراطورى خاص الى العاصمة السوفيتية ..

كان ساتو دبلوماسيا محنكا ، وكان فى استطاعته وهو فى منصبه بموسكو ان يرى موقف بلاده اليائس ، وفى أول يوليو أشار على حكومته بانهاء الحرب بأية وسيلة ممكنة ، وأشار بصراحة الى ان اليابان أصبحت تقف وحدها دون صديق ، وان قبول أية شروط للاستسلام هو الطريق الوحيد للاحتفاظ بالامبراطور وكيان الدولة .

كانت نصيحة ساتو صائبة ، وكان كانتارو سوزوكى رئيس الوزراء ووزير خارجيته توجو يعرفان ذلك جيدا ، ولكنهما يعرفان أيضا حقيقة الصراع الذى يدور فى اليابان . فمنذ اليوم الذى تولى فيه سوزوكى منصبه فى ابريل ١٩٤٥ ، وهو يحاول الوصول الى نهاية للحرب ، يؤيده فى ذلك اثنان آخران من اعضاء مجلس الحرب الاعلى الذى كان يتولى

ادارة الامور في البلاد ، هما «توجو» وزير الخارجيـة و « يوناى » وزير البحرية ، ولكن انامى وزير الحربيـة ورؤساء أركان القوات المسلحة الثلاث كانوا يريدون الاستمرار فى القتال •

وكان الامبراطور هيروهيتو يريد أن ينهى الحرب ، وقـد راح يجس نبض كبار الساسة فى اليابان فى سكون منذ أوائل فبراير ، ولكن على الرغم من أن الامبراطور كان يتمتع بقدسيته بين رعاياه ، فانه لم يكن يتمتع بأى نفوذ سياسى ، ولايستطيع أن يملى سياسـته على مجلس الوزراء

وفى ١٨ يونيو ، وافق المجلس على أن يبدأ عن طريق بعض الدول المحايدة بذل مجهود للتفاوض من اجل الصلح وهذا لايمكن تسميته قرارا بالتسليم بل كان مجرد بداية ••

وفى نفس اليـوم ، عقـد المجلس الداخلى لمستشارى الرئيس ترومان فى الشـئون الحربيـة اجتماعا فى واشنطون ، ولكنه كان يهـدف الى اتجاه آخر تماما ، وفى نهاية الاجتماع وضع الرئيس خاتم موافقته لمشروع « أوليمبيك » •• وهكذا تحدد موعد غزو الاراضى اليابانية فى شـــهر نوفمبر •

***

ولكن الحرب لم تكن الشيء الوحيد الذى يضمه جـدول مواعيـد هارى ترومان فى يوم ١٨ يونيو •• ففى الولايات المتحدة كما فى اليـابان ، كان السعى للصلح يجرى حتى عندما كان الطرفان يتجهان الى المعـركة الاخيرة •• ففى ذلك اليوم ، اجتمع مستر جرو وكيل الخارجية بالرئيس ترومان اجتماعا خاصا ، ألح فيه على الرئيس ان يتيح لليابان فرصـــة الاحتفاظ بأمبراطورها اذا استسلمت •• قائلا : ان مثل هذا العرض سوف يسهل استسلامها • واقترح جرو ان يصـــدر ترومان بيانا يدعو فيـه الامبراطور الى الاستسلام مع الاشارة الى احتمال السماح له بالبقـــاء فى منصبه ، وأيد هنرى ستيمسون وزير الحربية هذا الاقتراح ، فقال ترومان انه يميل لهذه الفكرة ، ولكنه يرى ارجاء البت فيهـــا الى ان ينتهى من محادثات بوتسدام مع بقية الحلفاء •

وفى اليوم ذاته ، وبعد اجتمـــاع عاصف لمجلس الحـرب الاعلى ، طلب توجـو من هـسيروتا رئيس الوزراء السابق ان يجتمع بالسـفير الروسى جاكوب ماليك لمحاولة اقناع روسـيا بالعمل كوسيط فى محادثات الصلح واجتمع هيروتا بالسفير الروسى مرتين

في خلال اسبوع واحد ، ولكنه لم يحصل على أي تشجيع من الروس الذين التزموا الصمت •

كانت عقارب الزمن تجرى الآن بسرعة •• ولم تكن الوزارة اليابانية تدرك ان الوقت الباقي أمامها قليل جدا ••• فقد اتفق على صيغة الانذار النهائي الذى وجهه الحلفاء بعد اجتماعهم فى بوتسدام يوم ٢٤ يوليو دون الاشارة الى وضع الامبرآطور بصفة خاصة • وبعد ذلك بيوم واحد وافق الرئيس ترومان على أمر باستخدآم القنبلة الذرية اذا رفض اليابانيون انذار بوتسدآم النهائي ••• وكان هذا الامر هو أهم قرار أصدره ترومان بصفته رئيسا للجمهورية • وأرسل الامر بالطائرة الى جزيرة (تينيان) بالباسيفيك ، وفى يوم ٢٦ يوليو ، أصدرت أمريكا وبريطانيا انذار بوتسدام الذى آشتركت الصين فى توقيعه ، وكذلك الاتحاد السوفيتي باعتباره شاهدا !

وحدث ما توقعه جرو وكيل الخارجية الامريكية ، فان عدم الاشارة الى وضع آلامبراطور فى تصريح بوتسدام جعل من العسير على الوزارة ومجلس الحرب الياباني قبوله ، وهكذا قرر مجلس الوزرآء بعد مشاورات طويلة تجاهل الانذار •

وتلقى ترومان هذا النبأ ، فاقتنع بأنه لم يعد هناك مناص من تنفيذ الامر الذى آرسل الى جزيرة تينيان يوم ٢٥ يوليو •

وفى تلك الجزيرة الصغيرة ، كانت الاحداث التى تدور كفيلة بأن تكتسح كل المناورات الدبلوماسية والسياسية بضربة واحدة ساحقة •• ولكن الخطوات التي ادت الى هذه الاحداث بدأت قبل ذلك بست سنوات •

البداية الذرية

فى يناير ١٩٣٩ نشرت الصحف الامريكية انباء تقول ان العلماء الالمان نجحوا فى تفتيت الذرة ••• وبات واضحا منذ البداية ان هتلر قد يمتلك يوما سلاحا رهيبا لايدانيه أى سلاح آخر • وعقب نشر هذا النبأ ، توجه العالم المجرى ليو زيلارد الذى هرب من المعامل الالمانية بعد تسلم هتلر لمقاليد الامور ، وفى صحبته عالم مجرى آخر لمقابلة «البرت اينشتاين» فى مقره الصيفى بلونج ايلاند •كان الاثنان يمثلان جماعة من العلماء تأمل فى اقناع اينشتاين بتحذير الرئيس الامريكى روزفلت من التقدم الذى احرزته المانيا فى الميدان الذرى ،ولم يكن اينشتاين مطلعا على التطورات

الذرية الاخيرة ، ولكن مساعدته كانت هامة ، لا لتأثيره على الرئيس روزفلت فحسب ، بل ولصداقته للاسرة المالكة فى بلجيكا ، حيث كان الكونغو البلجيكى يومئذ المصدر الرئيسى لليورانيوم ، ووافق اينشتاين على ان يوقع على رسالة للرئيس روزفلت ، ثم توجه العالمان المجريان بعد ذلك الى (الكسندر ساكسا) المليونير الذى كان يعمل مستشارا غير رسمى لروزفلت ، حتى يسلمه الرسالة يدا بيد •

وحمل ساكس الرسالة الى البيت الابيض فى أكتوبر ١٩٣٩ ــ بعد أسابيع قليلة من نشوب الحرب العالمية الثانية فى أوربا ــ وبعد أن تناول الافطار مع الرئيس روزفلت ، أخذ يحدثه عن هذا السلاح الجديد الذى يوشك الالمان ان يحرزوه • وحث الرئيس على ان تعمل أمريكا لتكون أول من يمتلك السلاح الرهيب •••

واقتنع روزفلت •• واستدعى سكرتيره الجنرال ادوين واتسون ، وأملاه المعلومات المناسبة لبدء العمل فى المشروع •

وهكذا بدأت الحكومة الامريكية اهتمامها بالقنبلة الذرية •

***

وظل العمل يسير فى تراخ لمدة عامين (على الرغم من ان هتلر كان فى ذلك الوقت قد اكتسح أوربا ، كما كانت الجيوش اليابانية تجتاح الهند الصينية) وكانت هناك ابحاث ذرية غير متناسقة تجرى فى ذلك الوقت فى بعض الجامعات الامريكية ، ولكن تنقصها الاعتمادات المالية اللازمة فضلا عن عدم اهتمام المسئولين فى واشنطون بها ، ومع أن علماء الذرة كانوا يحيطون أعمالهم بسرية تامة ، فان السلطات الامريكية لم تكن تبذل أى جهد لحمايتهم ••

ولم تبدأ الحكومة اهتمامها الجدى بقسم اليورانيوم الذى انشىء فى لجنة الابحاث القومية بواشنطون الا فى أواخر ١٩٤١ ، وفى ذلك الحين ابلغ مدير مكتب الانتاج والابحاث العلمية انباء التقدم الذى احرزه القسم للرئيس روزفلت ، وفاز بوعد بالمزيد من الرجال والمال ، وفى يوم ٦ ديسمبر أعلن المدير هذا النبأ لزملائه ، وفى اليوم التالى هاجمت الطائرات اليابانية ميناء « بيرل هاربور » ••• وأعلنت أمريكا الحرب على دول المحور •

ومنذ ذلك الحين ، أصبح العمل فى جبهة الابحاث الذرية يجرى فى سرية تامة لانجاز اضخم المشروعات العالمية

والصناعية والحربية التى فكر فيها الانسان

مشروع مانهاتن العجيب !

فى أواخر صيف ١٩٤٢ ، كان حى المهندسين فى مانهاتن - حيث يقيم صانعو القنبلة الذرية - قد اصبحت له الاولوية التامة للحصول على الخدمات والمواد النادرة وغيرها مما يحتاج إليه ، وتولى الجنرال ليزلى جروفز الذى يبلغ السادسة والاربعين قيادة العمل فى المشروع فى شهر سبتمبر من ذلك العام ، وهو مهندس من الكليةالحربية فى «وست بوينت» وبدأ العمل دون أدوات معروفة أو تصميمات أو مواد ، لتحويل خليط غير منظور من معادلات ونظريات وعقائد علمية الى سلاح عسكرى عملى ... وفى سبيل ذلك حشد جروفز عددا كبيرا من ملوك الصناعة وجعلهم مجندين فى هذا العمل ، كما جند عددا من كبار اعضاء الكونجرس ، وطلب مبالغ خيالية من المال من الخزانة الامريكية ، وقد اصبح جروفز فى بعض الاحيان اكثر اثارة للجدل من القنبلة التى صممها له العلماء ، حتى لقد قال أحد المعجبين انه اصبح أعظم غرورا من نابليون !

كان مقياس العمليات فى مانهاتن غريبا ... فلم يكن هناك من يعرف أى الوسائل الثلاث المختلفة لفصل (اليورانيوم - ٢٣٥) افضل من غيرها ، ومن ثم فقد بدىء بالعمل بالطرق الثلاث معا ، وكانت كلها باهظة التكاليف ، وكلها تؤدى الى حلين لكل مشكلة ... وعلى الرغم من ان كمية تقل عن خمسين كيلوجراما من المواد الانشطارية قد تم انتاجها لصنع ثلاث قنابل فى صيف ١٩٤٥ ، فان المشروع كان فى ذروته يدفع أجورا لحوالى ٥٣٩ ألف شخص - وهو رقم يكفى لتكوين ٣٠ فرقة عسكرية للمشاة ! وعندما احتاج مصنع ذرى واحد الى ١٥ ألف طن من الفضة لاستخدامها فى عمل ملفات كهرو مغناطيسية ، قدم وزير الخزانة الامريكية هذه الكمية للمشروع ، الذى اعادها للحكومة بعد الحرب !

وأصبح حى مانهاتن البوتقة التى تتجمع فيها كل العلوم الامريكية ، فقد امتزج بعض علماء الطبيعة الحديثة من الامريكيين امثال « روبرت أوبنهايمر » بعلماء الطبيعة الذين يعملون فى برنامج بريطانيا الذرى ، وعلماء لاجئين من ايطاليا والمانيا والمجر ... وكان عدد من يحملون لقب الدكتوراه يزيد على عدد الكتبة

فى بعض مرافق المشروع ، بينما كان الفائزون بجائزة نوبل يعملون وكأنهم انفار من الجنود !

وبعد شهور من انشـــاء مشروع مانهاتن ، حقق المشروع نصرا تاريخيا ٠٠ فبعد ظهر ٢ ديسمبر ١٩٤٢ ، وفى فنـــاء ملعب الاسكواش تحت مدرجات كرة القدم بجامعة شيكاغو ، انتج العلماء أول سلسلة من التفاعلات تحت سيطرة الانسان • كان الجهاز الذى يعملون عليه بدائيا بالنســبة للاجهزة الحالية ، ولكن قبـــل أن يسود الظلام فى ذلك اليـوم ، كان العلماء قد ادركوا أن عملية انقسام الذرة التى خلقوها سوف توضع يوما فى سلاح لم يعرف العالم مثيلا له فى القوة •

وكانت لاتزال هناك مشكلات عملية كثيرة قبل الوصول لانتاج القنبلة ، وفى سبيل حل هذه المشكلات ، أقام المشروع معمـلا للقنبلة فوق هضـبة منعزلة على مقربة من (لوس الاموس) بنيومكسيكو ، وعين أوبنهايمر مديرا لهذا المعمل الذى تم فيه تصميم القنبلة وانتاجها • وقد أحيط العمل هنـاك بأكثر لوائح الامن صرامة ، فقد كان البـريد موضـــوعا تحت الرقابة ، والمحادثات التليفونية مراقبة ، والعلماء يراقبون أثنـاء انتقالهم من مدينة الى أخرى بعد مغادرتهم المصنع ٠٠ وعلى الرغم من أن شبكة الجاسوسية التى كان ينظمها الروس ـ حلفـاء أمريكا فى ذلك الحين ـ استطاعت أن تخترق نطاق هذه السرية ، الا أن أحدا من الاعداء ـ الالمان واليابانيين ـ لم يستطع الحصـــول على أية معلومات ذرية ذات قيمة •

الفرقة ٥٠٩ الفريدة

كان الجنـرال جروفز يشرف فى نفس الوقت على مشروع آخر يجرى فى صــــحراء أخرى ، وذلك لضمان وصول القنبلة التى لم تصنع بعد الى أهداف الاعداء ٠٠ وفى سبيل ذلك جمع ١٥٠٠ من الضباط والجنود فى فرقة مختلطه أطلق عليها اسم (٥٠٩) ومنحت كل ماتحتـاج اليه من أجل القتال والحياة ، من معـــدات للنقل وعتاد وطعام وصـــيانة وطائرات ، وقد اختير رجالها جميعا بدقة تامة •

ووقع الاختيار على الكولونيل بول تيبتس الصغير للقيام بالمهمة الرئيسية وهو طيار وسيم فى التاسعة والعشرين أسود الشعر ، ذو عينين فيهما لمحة من حزن ، وكان من قائدى القاذفات فى أوربا ، وهو الذى نقل بطائرته كلا من الجنرال مارك كلارك ثم الجنرال

ايزنهاور من انجلترا الى جبل طارق عند غزو شمال افريقيا .

وبعد ساعة واحدة من تعيين تيبتس لهذا العمل ، كان قد تلقى المعلومات الضرورية عن أسرار انقسام الذرة والامل الذى يداعب النفوس فيما تسفر عنه عسكريا ، وقيل له أنه اذا تم صنع أول قنبلة ذرية ، فانه سيقود الطائرة التى تلقيها . وكان عليه أن يقوم بتنظيم نواة الجماعة الطائرة للفرقة ٥٠٩ ، وأن يختار مطارا للتدريب . ووقع اختيار تيبتس على منطقة « وندوفر » بولاية أوتاه ، وهى متسع من الصحراء القاحلة ، خالية من الشجر ، صافية السماء مما يجعلها مثالية للعمليات التى سوف تتدرب عليها الفرقة الجديدة .

كانت الفرقة تتدرب كل يوم على القاء القنابل من ارتفاع ٣٠ الف قدم حيث تقوم كل طائرة بالقاء قنبلة واحدة زنتها ٤٥٣٥ كيلو جراما ، وكان الاهتمام كله مركزا على القاء القنابل فى ظروف تتيسر فيها الرؤية وهو مما حير الطيارين المخضرمين ، نظرا لان الايام الصافية السماء كانت نادرة فوق أوربا ، وهى أكثر ندرة فوق اليابان ولكن الاسباب كانت واضحة للمشتركين فى أسرار مانهاتن .. فالتدريب بقنبلة واحدة يشبه الرحلة الاخيرة بالقنبلة الذرية ، عندما تلقى قنبلة واحدة يساوى ثمنها مئات الملايين من الدولارات ، ولهذا يجب ألا يخطىء الطيار هدفه .. وتدرب الطيارون بعد ذلك على الابتعاد سريعا بالطائرة عن مكان الانفجار تفاديا لموجة الصدمة التى تتلو الانفجار .

جدول مواعيد القنبلة الذرية

لم يتراخ العمل قط فى حى مانهاتن لخلق القنبلة الذرية .. وفى ٣٠ ديسمبر ١٩٤٤ كانت الاشياء تسير على مايرام حتى أحس جروفز أنه أصبح قادرا على اعلان جدول مواعيده . فكتب فى مذكرة لرئيس اركان الحرب الجنرال جورج مارشال : « لابد أن تكون أول قنبلة ذرية جاهزة فى أوائل أغسطس ١٩٤٥ » . وهذا الموعد لن يسمح باستخدامها ضد المانيا التى كانت على وشك الانهيار .. ولهذا اقترح جروفز اخطار القيادة البحرية فى الباسيفيك بان الفرقة ٥٠٩ سوف تحتاج الى قاعدة للوصول منها الى اليابان .

ووقع الاختيار على جزيرة « تينيان » فى مجموعة جزر ماريانا ، حيث تحتوى على هضبة مستوية من الاحجار الجيرية يبلغ اتساعها عند الوسط حوالى عشرة

كيلو مترات ، وطولها ٢١ كيلو مترا وبها شبكة من الطرق الصالحة بناها اليابانيون ، ومطار يحتوى على أربعة ممرات تصلح كأكبر قاعدة للقاذفات فى العالم .

وفى ٥ ابريل اعتمدت وزارة الحربية الامريكية اسم « سنتر بورد » كاسم رمزى لعملية القاء القنبلة الذرية على اليابان . وفى أواخر ابريل ، بدأ رجال تيبتس ينقلون عبر البحار ومعهم ١٥ طائرة من طراز ب - ٢٩

وأقام البوليس الحربى فى جزيرة تينيان أسلاكا شائكة حول المناطق التى نزلت فيها الفرقة التى كانت موضع اهتمام الجزيرة وفضولها ، ولم يسمح لاحد بالدخول الى مقرها الا بترخيص خاص . وكان أعضاء هذه الفرقة لا يشتركون فى الغارات العادية بل يقومون بمهام فردية ، وبين حين وآخر يلقون بعض قنابلهم على احدى الجزر التى يحتلها اليابانيون أو يقومون برحلة ذهابا وايابا الى المدن اليابانية فيقطعون مسافة ٥٠٠٠ كيلو متر لكى تلقى كل طائرة قنبلة واحدة !

بداية العصر الذرى

ثبت أن جدول المواعيد الذى وضعه الجنرال جروفز لاتمام صنع القنبلة الذرية فى أوائل أغسطس كان مضبوطا تماما ، وقد اختير لتجربتها مساحة شاسعة من الارض الجرداء فى نيومكسيكو على مسافة ٨٠ كيلو مترا من « ألاموجوردو » . وفى الساعة الخامسة والنصف من صباح ١٦ يوليو بدأ العصر الذرى بوميض أضاء السموات الى مسافة ٤٠٠ كيلو متر بوهج يعادل وهج عدة شموس قوية وقد أصيب الرجال الذين نظروا اليه مباشرة على عكس الاوامر الصادرة اليهم بعمى مؤقت .. كانت هناك كرة هائلة من النار تحوطها ألوان أرجوانية وبرتقالية تنتشر الى مسافة أكثر من ١٥٠٠ متر .. وزلزلت الارض وتحولت لفحات الهواء الساخنة الى موجات عنيفة بينما تبخر البرج الذى وضعت فوقه القنبلة ويبلغ ارتفاعه ٣٠ مترا .. وارتفع عمود من الدخان الابيض الى السماء ، ثم تشعب حتى أصبح فى صورة عش غراب ، بلغ ارتفاعه فى النهاية أكثر من ١٢ كيلو مترا ..

وأحس الاهلون فى كل أنحاء الجنوب الغربى من أمريكا بفرقعة الرعد كما لاحظوا الطريقة العجيبة التى أشرقت بها الشمس ، وكيف تراجعت بعد ذلك بضعة أميال .. وكانت هناك سيدة عمياء صاحت قائلة أنها شاهدت نورا ..

وكان هناك بلاغ أعد للصحف مقدما ذكر تفسيرا كاذبا لهذه الظاهرة وسلم للصحفيين فى « البوكيرك » وجاء فيه أن مستودعا للذخائر انفجر فى قاعدة « الاموجوردو » سبب هذه الظاهرة التى شوهدت حتى مدينة جالوب التى تقع على مسافة ٣٧٨ كيلو مترا الى الشمال الغربى !

وأحس العلماء برهبة لهذا الانتصار .. وكتب الجنرال جروفز فى مذكرة سرية أرسلت الى وزير الحربية فى بوتسدام « نجحت التجربة بما يفوق أكثر آمالنا تفاؤلا » .

لقد ولدت القنبلة طاقة تعادل ٢٠ ألف طن من مادة ت.ن.ت الناسفة .

القرار المحزن

اتخذ القرار الخاص بالقاء القنابل الذرية على اليابان بعد تردد كثير وشهور من المناقشات . وكان بعض العلماء يأملون منذ البداية أن تفشل الابحاث التى تجرى فى مشروع مانهاتن وعندما تم صنع القنبلة الذرية ، كتب كثيرون منهم مذكرة حماسية وأعدوا التماسات بعدم استخدامها .

ولم يدخر الاميرال وليم ليهى وسعا فى اخفاء نفوره من القنبلة ، كما أعرب الرير أميرال لويس شستراوس والجنرال هاب ارنولد عن تحفظات قوية حيال استخدامها . وقال الجنرال دوايت ايزنهاور عندما أطلعوه على الموضوع فى بوتسدام ، «أنه يأمل الا تستخدم القنبلة ضد اليابان ، وأنه لا يحب أن يرى أمريكا أول من تستخدم سلاحا له مثل هذه القوة الخياليه من الموت والدمار » .

ولكن أغلب القادة العسكريين كانوا يؤمنون بأن القنبلة الذرية ليست أكثر وحشيه من القنابل الشديدة الانفجار والقنبلة الحارقة ولا سيما بعد أن أصبح القاء هذه القنابل على المدنيين أمرا شائعا فى الحرب العالمية الثانية . وفى غارة واحدة بالقنابل الحارقة على طوكيو يوم ٩ مارس ١٩٤٥ قتل ٧٨ ألف شخص !

وعقب وفاة الرئيس روزفلت فى ابريل ١٩٤٥ ، حث وزير الحربية ستيمسون الرئيس الجديد هارى ترومان على تشكيل لجنه لبحث النواحى الخاصة بالسياسة الذرية . ووافق ترومان وشكلت لجنة مؤقتة تضم ٨ أعضاء وأربعة من العلماء كمستشارين واجتمعت اللجنة فى ٣١ مايو بمدينة واشنطون ، وكانت أكثر مناقشاتها تتعلق بمستقبل الطاقة الذرية والاشراف عليها بعد الحرب ، كما نوقشت مسأله استخدام القنبلة ضد

اليابان •

وقد اقترح بعض العلمـــاء اجراء تجربة للقنبلة أمام مراقبين من الاجانب حتى يقتنع قادة الحـرب اليابانيون بالاستسلام، وعرض اقتراح آخر يرمى الى تحذير اليابان ضـمنا بمدى قوة السلاح الجـديد ، فاذا لم يستسلموا فى خلال أيام محددة ، استخدم ضدهم ولكن اعترض على ذلك بأن اليابانيين قد ينقلون أسرى الحلفـاء الى المناطق الرئيسية حتى تصيبهم هذه القنبلة •

وفى النهـاية امتزجت كل هـذه المناقشات فى سؤال واحد هو : هل هناك فرصة لانهاء الحرب بسرعة اذا استخدمت القنبلة الذرية ؟ •• وبدا أن الرد بالايجـاب • ومع ذلك فقد طلب من مجلس العلماء الاستشارى أن يبحث احتمالا ضئيلا بتنظيم مظاهرة ما تجعل غزو اليابان أمرا غير ضرورى وبذلك تنقـــذ أرواح عدد كبير من الامريكيين واليابانيين •

وبعد أبحاث استمرت أسبوعين ، قال العلماء أنه لا بديل لاســـتخدام القنبلة بطريق عسكرى مباشر !

وأوصى تقرير اللجنة الذى أرسل الى البيت الابيض بأن تلقى القنبلة على اليابان فى أسرع وقت مستطاع دون تحذير محدد • وكان الرئيس ترومان قد انتهى الى القرار نفســه بمفرده ،

وهكذا تقرر استخدام القنبلة ضد اليابان اذا لم تستسلم •

ولاحـــداث أقصى مايمكن من أثر ظاهر ، تقرر القاء القنبلة على مدينة لم تتأثر بالغارات الجوية نسـبيا • وتضمنت القائمة المقترحة أسماء كل من كيـــوتو ، وكوكورا وفيجـاتا ، وهيروشيما ثم أضيفت اليها نجازاكى فى اللحظة الاخيرة •

وفى النهـــاية وقع الاختيار على هيروشيما ، وأرسل أمر سرى فى ٢ أغسطس الى « جوام » بالقاء القنبلة يوم ٦ أغسطس على الحى الصناعى فى هيروشيما •

المدينة التى كانت !

كانت مدينة هيروشيما مشهورة فى أنحاء اليابان بجمالها الرائع ، وأشجار الصـــفصاف الجميلة التى تنمو فى أرجائها ••ولم يكن هذا الميناء الكبير والمدينة الصناعيـة الهامة قد أصيبا طوال ســـنوات الحرب بأكثر من ١٢ قنبلة معـادية ، ولم يكن فى المدينة يومئذ غير فرقة واحـــدة من الجنود تستعد للدفاع لا للهجوم ، واذا أضيفت اليها القوات المساعدة ، فقد كان هناك ٢٤ ألف جندى فى هيروشـيما •• وقد هدم أهل المدينة بأنفسهم حوالى

٧٠ ألف مبنى لاقامة حواجز عريضة ضد النيران ، مما أسفر عن جلاء حوالى ٩٠ ألفا من سكانها البالغ عددهم ٣٨٠ ألفا .

وكان يوم الاثنين ٦ أغسطس ١٩٤٥ لا يختلف كثيرا عن أيام الاثنين السابقة فقد كانت النساء فى كل بيت منهمكات فى اعداد طعام الافطار للاسرة ، بينما بدأت جماعات العمال فى القيام بأعمالها ومن ثم لم يلق الكثيرون اهتماما الى صفارات الانذار التى دوت فى الساعة السابعة وتسع دقائق ، وهؤلاء الذين تطلعوا الى السماء وكانت أبصارهم حادة ، رأوا طائرة واحدة تحلق على ارتفاع شاهق .. وقد عبرت الطائرة جو المدينة مرتين ، ثم انطلقت فى اتجاه البحر بعد ١٦ دقيقة .. وفى السابعة والدقيقة ٣١ أطلقت صفارات الامان .

كانت الطائرة من طراز ب - ٢٩ وهى من طائرات الاستطلاع الجوى واسمها « ستريت فلاش » وكان الامر الصادر بارسالها فوق هيروشيما قد أطلق عليه اسم « المهمة الخاصة لقاذفات القنابل رقم ٣١ » وعهد الى سبع طائرات من نفس الطراز بالاشتراك فى هذه المهمة .

وفى ٤ أغسطس عرض الطيار البحرى وليام بارسونز الذى كلف بالقاء أول قنبلة ذرية أفلاما سينمائية عن التجربة الذرية التى حدثت فى « ألامو جوردو » على ملاحى هذه الطائرات وبعد أن شاهدوا الآثار المرعبة لتدميرها ، أدركوا سبب تدريبهم على القيام بمناورات للابتعاد سريعا عن مكان الهدف . وحذر بارسونز الطيارين من التحليق داخل سحابة (عش الغراب) بسبب خطر الاشعاعات الذرية .

وفى اليوم التالى - ٥ أغسطس - تجمع العلماء والطيارون ورجال البوليس الحربى فى جزيرة «تينيان» لينظروا فى هيبة الى القنبلة الذرية وهى تتأرجح فى سلسلتها الرافعة . كانت القنبلة يبلغ طولها حوالى أربعة أمتار ونصف متر، وقطرها حوالى متر ونصف متر ، وتزن ٤٥٣٥ كيلوجراما مع أن المادة الذرية التى فى قلبها لاتزيد على ٢/١ ٪ من هذا الوزن وقد تمثلت فى قطعتين من اليورانيوم ٢٣٥ حشرتا داخلها « كقطعة صغيرة من الماس وسط كتلة من القطن » كما قال أوبنهايمر ذات مرة .. وقد تولى رسولان خاصان احضار القطعتين الى جزيرة تينيان داخل اسطوانة من القصدير يبلغ قطرها حوالى ٤٥ سنتم

وارتفاعها ٦٠ سم على ظهر الطرادة الامريكية انديانابوليس ، فوصلتا الجزيرة يوم ٢٦ يوليو . وقد غرقت الطرادة بعد ذلك بأربعة أيام بطوربيد يابانى !

وفى الساعة الواحدة والدقيقة ٣٧ من صباح يوم ٦ أغسطس ، انطلقت ثلاث طائرات للاستطلاع الجوى الى هيروشيما ، ومنهما الى كوكورا ونجازاكى وهما المدينتان البديلتان فى حالة وجود ضباب كثيف فوق هيروشيما •

وبعد ساعة واحدة ، انطلق تيبتس بطائرته « اينولا جاى » ذات الحمولة الثقيلة ، وتبعتها طائرتان أخريان من طراز ب – ٢٩ بين كل منهما والاخرى دقيقتان ، لتقوما بقياس قوة الانفجار والاشعاعات ، والتقاط صور فوتوغرافية بعد الانفجار •• وكانت هناك طائرة ثالثة قد رحلت قبل ذلك لتكون على استعداد لحمل القنبلة الى ايوجيما فى حالة وقوع متاعب للطائرة « انيولا جاى » •

واتجهت « انيولا جاى » نحو آيوجيما التى تقع على بعد ١٠٠٠ كيلومتر الى الشمال ، بينما أخذ بارسونز فى التجميع الاخيرة للقنبلة ، ولم يستغرق ذلك اكثر من ٢٥ دقيقة

وهكذا اصبحت القنبلة كاملة التسليح

وفى الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والخمسين ، التقت « انيولا جاى » فوق ايوجيما بالطائرتين المرافقتين لها ، ثم انطلقت الثلاث طائرات معا الى جزيرة « شيكوكو » فى الشمال الغربى من اليابان ، وقال تيبتس لرجاله فى جهاز الاتصال الداخلى انهم عندما يصلون الى اليابان فان أحاديثهم سوف تسجل للتاريخ، باعتبارهم حملة أول قنبلة ذرية فى العالم •

وفى الساعة السابعة وتسع دقائق عندما اقتربت طائرة الاستطلاع الجوى من « هيروشيما» استطاعت أن ترى المدينة كلها بوضوح ، فقد كان الجو صافيا فى ذلك اليوم فوق المدينة المسكينة •• وفى الساعة السابعة و٢٥ دقيقة أذاعت الطائرة تقريرها باللاسلكى عن حالة الجو • وقالت فى نهايته : « القوا القنبلة على الهدف الاول » •

وعندما سمع تيبتس الرسالة ، قال لملاح الطائرة ••• الى هيروشيما

وفى السابعة والدقيقة الخمسين ، مرت الطائرة « انيولا جاى » فوق أطراف جزيرة شيكوكو وبعد ١٩ دقيقة بدت فى الافق حدود هيروشيما ،

وعندئذ أعلن تيبتس فى جهاز المخاطبة الداخلى :

ـ اننا على وشك البدء فى القـاء القنبلة . وعندما تسمعون الاشارة ، ضعوا نظاراتـكم على أعينـكم حتى ينتهى وهج الانفجار .

وكان كل طيار قد زود بنظـــارة خاصة لا تسمح الا للون الارجوانى بالمرور من خلال عدساتها .

كانت هيروشيما ترقد عارية تحت الطائرة وهى تحلق على ارتفاع حوالى ٣٠ ألف قدم ، ومن خلال جهاز تحديد الهدف ، كانت نقطة التصويب موجهة نحو جسر رئيسى فوق نهـر أوتا .

وبدأ الميجـــور « تومى فيربى » فى الاستعداد لالقاء القنبلة ... وبعـد ٤٥ ثانيـــة ، فتحت ابواب المكان المخصص للقنبلة ، وعندئذ قفـزت الطائرة الى أعلى بعد ان خف وزنهـا حوالى ٤٥٠٠ كيلو جرام ، وفى نفس اللحظة ، اتجه تيبتس بمقدمها نحو اليمين فى زاوية مقدارها ٦٠ درجة ، ثم استدار بزاوية ١٥٨ درجة ممـا جعل هيكل الطائرة يصـــدر صوتا عنيفا بتأثير عنف هذه الحركة .

وبدأ تيبتس يقيس ٤٣ ثانية بعقله ... كانت كل لحظة تبدو الآن كأن لا نهاية لها وبعد مرور ثانية سأل مدفعى المؤخرة بوب كارون :

ـ ألم تر شيئا بعد ؟

فأجاب :

ـ كلا يا سيدى .

وفى تلك اللحظة اصبحت الدنيـا كلها تتوهج بلون ارجوانى امام عينى بوب مما دفعه الى اغلاق جفونه خلف منظاره على الرغم منه ، وخيل اليه انه اصيب بالعمى .. واصابه ذهول منعه من الكلام لحظة ... كان يتطلع الى كرة هائلة من النار تصل درجة حرارتها الى ٥٥ مليون درجة مئوية !!

لقد أصبحت هيروشيما مدينـــة مفقودة ! .

تشريح الكارثة !

فى الساعة الثـــامنة والربع ، اسقطت طائرة قياس مدى الانفجـار والاشعاعات ثلاث مظلات تحمل أجهزة آذاعة هذه المقاييس ، وعندما شاهد بعض أهل هيروشيما هـذه المظـلات هتف البعض ظنـا منهم ان طائرات الاعداء تواجه محنة ما وان طياريها على وشك تركها ... وفجـــأة ، ودون صوت ما ، لم تعد هناك سماء فوق هيروشيما .

كانت اللحظة الاولى من الانفجـار الذى حدث فوق هيروشيما ضـوءا شـديدا يعمى العيون ، وان كان على

درجة عظيمة من الجمال وتعـــــدد الالوان ، فقـــد تحول الوميض من اللون الابيض الى الوردى ، ثم الى لون ازرق .. وقال البعض أنهم شاهدوا خمسة او ستة الوان زاهية معا بينما شاهد فريق آخر وميضا ذهبيا وسط ضوء أبيض بمصباح هائل من مصابيح التصوير اشتعل فوق المدينة ..

كان الاثر الوحيد للانفجار بصريا ، واذا كان هنـــاك صوت فان احدا لم يسمعه ، كما أن الالوف لم يروا شيئا قط ، اذ احترقوا فى المكان الذى كانوا يقفون فيه من أثر الحرارة الهائلة التى أحالت وسط المدينة الى موقد جبار .. وألوف آخرون لم يعيشوا بعـد الانفجار أكثر من ثانية أو ثانيتين حتى مزقهم الزجاج المتطـاير أمام موجات الضغط أو سحقتهم الجدران المنهارة والاعمدة المتساقطة ..

كانت هناك عوامل عديدة تجمعت معا لتزيد من خراب هيروشيمـــا الى حد فاق كل ماكان يتوقعـــه خبراء الذرة ، ومن هذه العوامل :

أولا : دقة الاصـابة ، فقد كان التصويب متقنا تمـاما على الرغم من أنه حــدث من طائرة تتحرك بسرعة بالغة .

ثانيا : وقت الانفجار فان الآلاف من مواقد الفحم النبـاتى التى كانت مشتعلة فى تلك اللحظـــة فى أنحـــاء هيروشيما ، أصبحت بفضل موجات الانفجار شعلات من النيران أحرقت آلاف المنـازل المصـنوعة من الورق والاخشاب .

وكان أوبنهـايمر يتوقع أن تكون الخسائر فى الارواح حوالى ٢٠ الفـا عـــلى افتراض أن أغلب الاهلـــين سيلجأون للمخابىء ، ولكن الخسائر تجاوزت ٧٠ ألفا ، اذ لم تطلق صفارة الانذار قبل القاء القنبلة ، اعتمـادا على أن كثيرا من مثل هذه التشكيلات الصغيرة من الطائرات كانت تمر فوق المدينة دون أن تلقى شيئا .

ومع أن موجة الحرارة التى تبعت الانفجار لم تستمر غير برهة قصيرة الا أنها كانت من القوة بحيث صهرت الاسقف المصنوعة من القرميد وأذابت بلورات الكوارتز فى صخور الجرانيت ، وأحرقت أعمدة التليفون الى مسافة أكثر من ثلاثة كيـلومترات ونصـف كيلومتر ، ودمرت كل من حولها من بشر فلم يبق منهم الا حدود ظلالهم المحترقة فوق الارصفة أو على الجدران الحجرية ا

وعلى مســـافة ١٥ كيلومترا من المدينة ، أحس عمـدة قرية (كابى)

بحرارة تلفح وجهه وهو يقف في حديقته .. كانت الحرارة تحرق الجلود على مسافة أربعة كيلومترات من وسط الانفجار ، وقد احترقت الاجزاء الداكنة من ثياب المئات من النساء اللواتي كن على مسافة ٢٫٥ كيلومتر ، بينما ظلت الاجزاء الاخف لونا دون احتراق ، تاركة الجلد تحتها محفورا بنماذج الورود التي كانت في ثيابهن بكل تفاصيلها الدقيقة ..

لقد انهار كل شيء ، فلم تبق الا جدران بعض الابنية التي أنشئت خصيصا لمقاومة الزلازل ، ولكنها ظلت واقفة لا تحوي غير حطام ، لان سقفها انهارت كلها تحمل من كان بداخلها . وحطم الانفجار موارد الماء في كل مكان ، حتى أن رجال الاطفاء ـ الذين قتل ثلثاهم فورا ـ وقفوا عاجزين أمام آلاف الحرائق التي اشتعلت في ثوان ، فدمرت النار كل مبنى في مساحة قدرها ١٣ كيلومترا مربعا .

وبعد الانفجار والنار والموجات الحرارية ، واجه أهالي هيروشيما محنا أخرى ، فبعد دقائق قليلة من الانفجار ، بدا مطر غريب يسقط على المدينة .. كانت قطرات الماء كبيرة سوداء اللون ، وهذه الظاهرة المروعة نتيجة عن تبخر الرطوبة في كرة النار وتركيزها في السحب التي انبثقت منها .. ولكن المطر الاسود لم يكن كافيا لاطفاء النيران والحرائق المشتعلة ، بل كان كافيا فقط لزيادة الرعب والفزع في قلوب الناس الذين تحطمت أعصابهم من قبل ..

وبعد المطر ، هبت رياح عنيفة ، وازدادت قوة في الوقت الذي كان الهواء فيه يزداد حرارة فوق هيروشيما بسبب الحرائق الكبيرة .. كانت الرياح تقتلع الاشجار في الحدائق التي احتشد فيها من بقي حيا من السكان ، وأثارت أمواجا عالية أغرقت الكثيرين ممن لجأوا الى الماء فرارا من الحرارة والنيران !

يا الهي .. ماذا فعلنا ؟

اخذت الطائرة (اينولاجاي) تحلق جنوبا على طول ضواحي هيروشيما .. ولاول مرة رأى ملاحوها ما صنعوه بأيديهم ..

كان الغبار يرتفع من المدينة كلها ويدور في أعمدة رمادية مندفعا نحو وسط هيروشيما ، بينما ارتفع عمود من دخان ابيض ، وكانت قاعدته مصبوغة باللونين الاحمر والارجواني ، بينما اتسعت قمته في صورة عش غراب ، وفي خلال دقائق ، ارتفعت سحابة عش الغراب الى مسافة ستة

كيلومترات ونصف كيلومتر •

وطافت بعقول الطيارين انفعالات متضاربة وهم يحلقون فوق المدينة المنكوبة ••• كان البعض سعيدا لان القنبلة نجحت والامل يداعبه بأنها سوف تنهى الحرب ••• والبعض كان نهبا مقسما بين الفخر والفزع ••• وكان هناك فريق لم يستطع ان ينسب ما رآه الى الواقع !!

وكان الكابتن روبرت لويس الطيار المساعد هو أول من تكلم ••• فقال :

= يا الهى ••• ماذا فعلنا ؟

وأمر تيبتس بارسال اشارة لاسلكية الى جزيرة تينيان قال فيها أن « انيسولا جاى » ألقت القنبلة على هدفها الاول بنتائج طيبة •

بعد الكارثة فى اليابان

فى الساعة الثامنة والدقيقة السادسة عشرة ، لاحظ عامل اللاسلكى بغرفة المراقبة بمحطة الاذاعة اليابانية ان خطه التليفونى مع محطة هيروشيما اللاسلكية قد سكت • وحاول عبثا ان يعيد الاتصال بالمحطة •• وبعد عشرين دقيقة لاحظ موظفو قسم الاشارة بالسكك الحديدية بطوكيو ان خط البرقيات الرئيسى قد توقف عن العمل ، وان القطع حدث شمالى هيروشيما ••• وبدأت الانباء تتوالى من المحطات القريبة من هيروشيما بأن انفجارا ما حدث فى المدينة •••

وأبلغ رجال السكك الحديدية النبأ الى القيادة العامة للجيش ••• وفى الساعة العاشرة تلقى رئيس تحرير صحيفة « اساهى » اليابانية مكالمة تليفونية تقول ان هيروشيما اصيبت بانهيار تام بعد ضربها بقنابل الاعداء

وحاولت القيادة العامة فى طوكيو أن تتصل بمركز المواصلات بهيروشيما دون جدوى ، ولم تستطع أن تجد تفسيرا لذلك الا ان شيئا خطيرا قد حدث ولا شك •

وبعد الواحدة ظهرا ، تلقت القيادة العامة نبأ من قيادة الفيلق الثانى الذى يقيم فى هيروشيما بأن المدينة أبيدت بقنبلة واحدة وان الحرائق تنتشر فيها بسرعة •

وأخذت الانباء تترى بعد ذلك ••• وحوالى الرابعة بعد الظهر ، عرف الجيش ان ثلاث طائرات معادية فقط كانت فوق هيروشيما عندما انفجرت القنبلة ، وان طائرة واحدة منها فقط هى التى ألقت القنبلة •

وفى المساء وزعت السلطات بيانا على صحف طوكيو الكبرى جاء فيه أنها تعتقد ان القنبلة التى القيت على هيروشيما من نوع غير عادى ، ولكنها

الى ان تتحرى حقيقة النبأ ، ترجو ألا تبرزه الصحف بصورة غير عادية •

كان الجيش اليابانى يرتاب فى ان قنبلة هيروشيما قد تكون سلاحا ذريا ، ومع ذلك فان القواد أخفوا النبأ عن الشعب ••

وحوالى الساعة الواحدة من صباح ١٧ أغسطس - الظهر من يوم ٦ بتوقيت واشنطون - التقطت اجهزة وكالة « دومى » شبه الرسمية للانباء بيانا أذاعه الرئيس ترومان ووصف فيه القنبلة التى القيت على هيروشيما بانها قنبلة ذرية ••

وأبلغ النبأ الى سوزوكى رئيس وزراء اليابان ، الذى قال بعد سماعه: « اذا كان هذا النبأ صحيحا ، فلن تستطيع أية دولة ان تشن الحرب بعد ذلك ، اذ سيصبح من المستحيل على أية دولة ان تدافع عن نفسها ضد دولة تملك هذا السلاح ••لقدحانت الفرصة لانهاء الحرب » •

ومع ذلك فلم يكن الجيش راغبا فى قبول هذا الموقف ••• وحاول الجنرالات الذين حضروا الاجتماع الطارىء لمجلس الوزراء يوم ٧أغسطس أن يجادلوا بأن هذا السلاح مجرد قذيفة تقليدية ضخمة ، ورفضوا اقتراح وزير الخارجية بالبحث فورا فى الاستسلام وفقاالانذار بوتسدام ••• وأصروا على اخفاء بيان ترومان عن الشعب الى ان يقوم الجيش بتحقيق فى هيروشيما نفسها •

قنبلة نجازاكى

فى الوقت الذى اذيعت فيه النشرة الرسمية عن القاء القنبلة الذرية من واشنطون ، أصيب العالم كله بالذهول اذ كان النبأ يستحيل تصديقه ••• وجاء فى بيان البيت الابيض ان القاء القنبلة انما يستهدف حماية الشعب اليابانى من تدميرتام ،وحذر البيان اليابانيين مرة أخرى من خراب لميروا له مثيلا اذا رفضوا الاستسلام

وللتعجيل باستسلام الامبراطورية اليابانية ، قررت واشنطون شن حملة دعاية واسعة بالقاء ١٦ مليون نشرة على ٤٧ مدينة فى اليابان ، كما قدمت موعد القاء القنبلة الذرية الثانية على نجازاكى من ١١ أغسطس الى ٩ أغسطس ، لاقناع الزعماء اليابانيين بأن قنبلة هيروشيما لم تكن فلتة من الطبيعة •

كانت القنبلة الذرية الثانية من البلوتنيوم، بينماكانت قنبلةهيروشيما من اليورانيوم وقدحمل القنبلة الميجور تشارلس سوينى فى طائرته ، وكان هدفه الاول « كوكورا » ولكن الجو

كان رديئا جـدا فوقها مما دفعه الى الاتجاه الى نجـــازاكى الهدف البديل لكوكورا •• وكان الخراب الذى أحدثته هذه القنبلة هائلا ••

وفى اليوم التـــالى وافق مجلس الوزراء اليابانى على ارسال رسالة عن طريق سويسرا بقبول انذار بوتسدام بشروطه ، على أن يفهم أن الامبراطور سيبقى فى الحكم •• وهكذا انتهت الحرب العالمية الثانية !

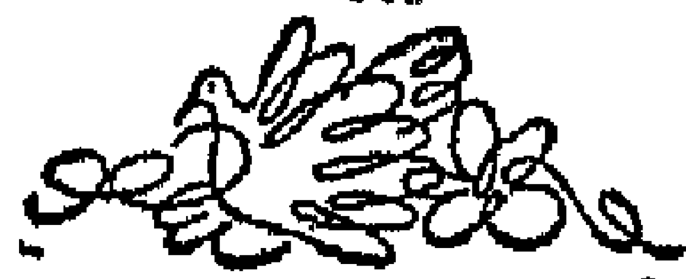
ويبقى بعد ذلك سؤال حائر يثير ضمائر الناس فى كل مكان ••

ترى هل كان من الصواب استخدام هذا السلاح ؟

لقد كان ترومان صريحا فى قبوله المسئولية والدفاع عن موقفــه ، فقد كان يعد القنبلة سلاحا عسكريا يجب اســـتخدامه ، وكذلك فعل تشرشل الذى قال أنه يحبـــذ استخدامها اذا ساعدت على انهاء الحرب •

ولكن هل كان هنـــاك خيار أمام ترومان ؟ انه فى الوقت الذى سمع فيه عن القنبلة كان قد أنفق عليها سرا ٢٠٠٠ مليـــون دولار ، فلم يكن فى استطاعته كزعيم سـياسى أن يرفض استخدامها بعد ذلك والا عد مسئولا عن أرواح الامريكيين التى ستضيع بعد ذلك فى غزو اليابان •

أما الاميرال ليهى قائد الاسطول الامريكى ، فقد كان حكمه عليها مريرا •• اذ قال بعد الحرب أن استخدام هذا السلاح البربرى فى هيروشيما ونجازاكى لم يفد شيئا فى انهاء الحرب ضد اليابان ، فقد كان اليابانيون على استعداد للاستسلام فعلا فى ذلك الحين !



تزييف

سئل غنى الحرب عما اذا كانت صور أجداده التى يزين بها قصره من رسم بعض كبار الفنانين حقا •• فاجاب الرجل الامين .

ـ انهم ليسوا اجدادا حقيقيين • !



وبعـد ذلك

قال الـكاتب الفكاهى كولمان جاكوب وهو يهنىء صـــديقه جـاكى جليســـون بداره الجديدة المبنية من المرمر :

ـ هـذا منزل تستطيع أن تقضى فيه بقية حياتك •• وبعد ذلك ايضا !


كتاب الشهر
شبح
من قلب

منحة من قلب أفريقيا

عن كتاب GIFT FROM THE AFRICAN HEART

بقلم اليزابيث باون

كان الموعد المحدد لوصول الطائرة الإمطار « روبرتس » في ليبيريا قد فات ، وهي لا تزال في مكان ما وسط الليل والامطار ، وقد عرف رجال برج المراقبة ذلك عندما تردد صوت الطيار الخافت في اجهزتهم اللاسلكية يقول : « هنا الطائرة رقم ١٥١ ... هل تستمعون الينا ؟

واجاب عامل اللاسلكي ببرج المراقبة.. ولكن يبدو ان شيئا ما قد حدث ، اذ ظل الطيار يردد : هل تستمعون الينا ؟.. وما لبث صوته ان ازداد خفوتا حتى اختفى تماما .. ثم ساد صمت تام ..

ترى ماذا حدث ؟ وكيف ؟ ولماذا .

كانت هذه هي الاسئلة التي ترددت في رأس اليزابيث باون لأول وهلة ، فقد كان زوجها هو قائد هذه الطائرة.. وفي الوقت الذي وجد فيه كل سؤال جوابه ، ظل هناك سؤال غامض لا يجد جوابا ..

وفي هذا الكتاب تتحدث اليزابيث عن رحلتهما الى قلب افريقيا حيث يكمن مفتاح هذا السر العميق ، وذلك في عبارات اخاذة مؤثرة ..

عندما دق جرس التليفون في ساعة مبكرة من ذلك الصباح ، مددت اليه يدي وأنا شبه نائمة .. وسمعت صوت رجل يقول :

ـ مسز فرانك باون ؟

فقلت وأنا ما زلت غير مستيقظة تماما : أجل

فاستطرد الرجل في سرعة ذاكرا اسمه ، قائلا انه أحد المسئولين في شركة الخطوط الجوية التي يعمل فيها زوجي .. ثم أردف :

ـ لقد كان زوجك أحد طيارينا في الرحلة رقم ١٥١ من جوهانسبرج الى نيويورك .

وتوقف الرجل برهة ، بدا خلالها انه يطهر حنجرته .. ثم قال :

ـ لقد فقدت هذه الطائرة في مكان ما فوق الساحل الغربي لافريقيا . وكان آخر اتصال لاسلكي لهامع برج المراقبة بمطار (روبرتس فيلد) بليبيريا حيث كان مقررا أن تهبط في الليله الماضية .

وعاد الرجل فتوقف عن الحديث قليلا .. ثم استطرد :

ـ هذا كل ما نعرفه..اننى آسف وسوف أتصل بك عندما نتلقى المزيد من المعلومات وأعاد سماعة التليفون الى مكانها .

سرت الرعشة فى يدى وأنا اعيد السماعة..لقد قال الرجل انالطائرة فقدت فوق الساحل ، فلا بد أنها اضطرت للهبوط اضطراريا فىالمحيط .. وحاولت أن أذكر ما سبق أن حدثنى عنه فرانك من تدابير الهبوط فوق الماء .

لقد كان يعرفها جيدا، وكانهادئا دائما فى حالات الطوارئ ..

ونظرت الى صورته الموضوعه الى جوار فراشى .. كان يبتسم لى .. لقد التقطت له هذه الصورة قبل ذلك بسبع سنوات خلال الحرب .. كم كان يبدو وسيما فى ثوبه الرسمى كطيار فى السلاح الجوى،طويل القامة كستنائى الشعر أزرق العينين ، وقد برزت ملامح وجهه القوية تحت قبعته الرسمية كضابط طيار

لقد تعذبت كثيرا فى تلك الايام باعتبارى عروسا شابة ، كلما أنطلق محلقا بطائرته .. وكان هو يسخر من مخاوفى فى أول الامر ، ثم أصر على أن أتلقى دروسا فى الطيران ، ففتح امامىعالماجديدا مثيرا .. وقد فرحنا معا عندما قبل فرانك وظيفة فى احدى شركات الطيران التى تدير خطا عبر المحيط ، وذلك بعد أن اطمأننت الى سلامة السفر جوا ..

كما أننى كنت أقضى معه كل أجازة فى استكشاف الاماكن المثيرة ، فزرنا ستوكهولم ، وكوبنهاجن، وباريس، ولندن ، ولشبونة وغيرها .

أما أفريقيا ، فقد طرت معه فوق جزء منها مرة واحدة فقط ، وكان ساحل ليبيريا مجرد بقعة على الخريطة بالنسبة لى

ونهضت من فراشى ، وأمسكت اطار الصورة، ونظرت الى فرانك عن كثب..انه فى أمان ولا ريب وسيعود الى .. لقد طمأنتنى عيناه الرقيقتان

وفجأة بدت صورة كبرى فىخيالى حالت بينى وبين كل تفكير آخر .. كانت صورة جبل .. لقد تخيلت الطائرة وهى تهبط فى الليل متجهة رأسا نحو جبل ما ..

رسالة من سانويى

كان لابد لى أن أعرف الحقيقة .. واتصلت تليفونيا بصديقتى مارى التى تعيش على مقربة من منزلى .. كان زوجها جيرى يعمل هو الآخر

طيـــارا فى الخط بين نيـــويورك وجوهانسبرج وسـألتها عن جيرى ، فقالت انه استيقظ الآن فقط ، فقلت لها :

ـ أرجو أن تسأليه ٠٠ هل يوجد جبل على مقربة من مطار روبرتس فيلد فى ليبريا ؟ فتمتمت فى دهشة ٠٠ وبعد فترة قصيرة عادت تقول :

ـ هناك بضعة جبال وتلال صغيرة يقول أن ارتفاعها لا يزيد على ٣٦٥ مترا ٠٠ ولكن لماذا تســألين هــذا السؤال بحق السماء ؟

ـ ان طائرة فرانك مفقودة ٠

وساد صمت مربك ٠٠ ثم قالت : اننا قادمان فورا

وجاءا ٠٠ وراح جيرى يطمئننى ٠٠ قال : « لا داعى للقلق ٠ اننى واثق أنهم ولا شك قد هبطوا فى المحيط ٠٠ ان هذه التلال تبعد مسافة ٨٠ كيلو مترا عن طريق الطائرة وأخذ يحدثنى عن الطريق الذى يمر فوق الغابات فى خط مستقيم حتى الطرف الجنوبى لساحل ليبيريا ٠٠ وبدأت خـــيرتى تخف وأنا أفكر فى الاحتمالات الفنية فقط ٠٠

ومر الصباح ٠٠ وبعد الظهر جاء أصدقاء آخرون يحملون لى طعـــاما وزهورا ٠٠ ولكن أحسست بمرض ودوار ٠٠ ســـــخونه وبرودة ٠٠ وأسرعت الى مخدعى ، وهرعت ورائى مارى فقلت لها وأنا أقف مســتندة الى الباب :

ـ هناك سر لم أذكره لاحــد ٠٠ اننى أنتظر مولودا

فلهثت تقول : يا الهى ٠٠ الافضل ان ترقدى الآن فى فراشك وسأتصل بالطبيب .

***

ساد السكون خلال الليل ٠٠ ولكن لم أنم الا قليـــــلا ، وفى اليوم التالى استمر شعورى بالكابوس ٠ ٠ وبعد الظهر جاء جـــيرى مسرعا الى غرفة نومى ، وقال فى تأثر :

ـ لقد رأت احدى طائرات البحث الحطام ٠٠ انه على مسافة حوالى ٨٠ كيلو مترا فى الداخل بعيدا عن الساحل

فقلت باكية : لعله ليس قريبا من هذه التلال ؟

قال : لا أدرى ٠٠ ولـــكن قائد طائرة البحث رأى أناسا يتحركون حولها ٠٠ وهو واثق من وجود أحياء ٠٠ ان هذه البقعة نائية جدا ، ولكنهم ينظمون الآن فرقا للبحث والذهاب الى الحطام ٠٠

وتواثب قلبى بين ضلوعى ٠٠ أن فرانك سليم ٠٠ شكرا لك يا الهى

وتذكرت شيئا حدث فى الليلة السابقة لاعلان نبأ فقد الطائرة •• لقد كنت أشاهد بعض عينات النسيج الذى سنضعه فى المنزل الحديث الذى كنت أنا وفرانك نعتزم الانتقال اليه، وعندئذ أحسست كأن أحدا وضع يدا باردة على ظهرى فارتعشت •• وشعرت برغبة فى البكاء •• وعندئذ تطلعت الى الساعة •

كانت الساعة الحادية عشرة والنصف •• فهل هذا هو الوقت الذى وقع فيه الحادث ؟ هل كان فرانك يحاول ابلاغى رسالة ما ؟

وسألت جيرى : هل عرفوا وقت سقوط الطائرة ؟

قال : يقول عامل اللاسلكى ببرج المراقبة انه فقد الاتصال بالطائرة حوالى الساعة ٣٠ر٣ من تلك الليلة - أي الساعة ٣٠ر١١ بتوقيتنا .

فصحت قائلة : كلا •• لابد أن احساسى كان خاطئا •• ان هناك أحياء •• وفرانك حى !

ولكن فى خلال النهار •• جاء « نورم رايس » من أصدقاء زوجي وجلس الى جوار فراشي كان وجهه شاحبا وكتفاه مرتخيتين •• وقال :

- لقد تلقت الشركة تقريرا ثانيا ب مطار « روبرتس فيلد » •• لقد اصطدمت الطائرة بتل على مقربة من قرية سانوَيى بليبيريا ، وقتل كل من فى الطائرة وعددهم ٤٠

صراع فى سبيل الايمان

تسلل ضوء الصباح المبكر الى غرفتى ، فدفنت وجهى بين الوسائد •

انه يوم جديد يمر على •• لقد انقضى أسبوعان منذ ذلك اليوم المشئوم من أيام يونيو ١٩٥١ ، يوم سقطت طائرة فرانك .. كنت أسير واتحرك فى ذهول ••

ورحت أطوف بأرجاء المنزل •• كانت ثياب فرانك معلقة فى دولاب كما تركها فى نظام وترتيب •• وفى غرفة الضيوف كانت حافظة أوراقه، مليئة بالاوراق الخاصة بطائرته التى لم يكن فى حاجة اليها فى رحلته الاخيرة ••

وذهبت الى المائدة المجاورة للفراش •• وأخرجت من درجها رسالة زرقاء من فرانك، أرسلها من مطار روبرتس فيلد فى الرحلة السابقة •• كنت قد حفظتها عن ظهر قلب •• كانت مليئة بالحب والآمال ومشروعات المستقبل•

أنه لم يكن يرغب فى الموت •• لم يكن ينوى أن يموت، ولم يكن هناك سبب يدعوه للموت •• وازدادت الغرفة ظلاما ، وتكاثر المطر فى الخارج

ترى هل سقط المطر فى تلك الليلة فوق التل ؟ •• هل كان يتساقط على وجهه دون رحمة ؟

من الملوم ؟

ليلة بعد أخرى كنت أشاهد نفس الحلم •• لقد عاد فرانك من رحلته الى افريقيا ، وجلسنا معا أمام مائدة المطبخ •• وفجأة رأيت فى وجهه نظرة رعب وهو يحاول أن يذكر لى ان طائرته سقطت •• ثم يختفى فجأة واستيقظ أنا والدموع تبلل وجهى •

وأحسست أننى لا بد أن أعرف سبب الحادث •• وقررت أن اشهد تحقيقات مجلس الطيران المدنى فى نيويورك •• كان التحقيق يدور فى غرفة كبيرة بأحد الفنادق ، وعرفت بعض الحاضرين وكانت الاجراءات قد بدأت عند وصولى ••

كان هناك رجل أشيب الشعر يقول:

ـ أجل •• يبدو أن هذه هى الطريقة التى وقع بها الحادث •• لقد اصطدمت الطائرة كما يبدو بقمة التل فتحطمت كأنها بيضة •• وقد أدى هذا الى اشتعال النار •• وعندما عثر أهل قرية سانويى المجاورة على الحطام بعد بضع ساعات ، كان الدخان يتصاعد من الرماد ، على الرغم من انهم قالوا أن أمطارا غزيرة سقطت ليلتئذ

وقلت لنفسى اذن كانت هناك أمطار

واستطرد الرجل يقول :

ـ لم يستطع احد التحقق من شخصية الجثث •• وقد بدأ التحلل يدب فيها ، وكان لابد من دفنها بسرعة

وسئل عما اذا كانت قد ترددت شائعة فى قريه (سانويى) بأنه يحتمل أن تكون الطائرة قد احترقت قبل سقوطها ؟ •• فقال :

ـ أجل لقد ترددت مثل هذه الشائعة ، ولكننا لم نجد ما يشير الى أى ظل من الحقيقه بصددها •

واستمعت الى بقيه التحقيق فى ذهول وأنا أعرف ما سيصدر به الحكم

وقد طالعت فيما بعد التقرير الذى أعده مجلس الطيران المدنى بعناية ، وقد تضمن القاء اللوم على رجال الطائرة الذين ماتوا •• وانه لم يكن هناك أى خلل فى الطائرة قبل الحادث •

اذا فهم يعتقدون انها غلطة فرانك!

وبينما كنت أقف فى البهو المواجه لغرفة الاجتماع ، جاء أحد المسئولين فى شركه الطيران ، وقدم لى مندوبا عن حكومه ليبيريا •• وحدقت فى الوجه الاسود والعينين العميقتين •• انه ولا شك يستطيع أن يذكر لى أكثر مما جاء فى التحقيق •• وسألته :

ـ هل لى أن أوجه اليك سؤالا ؟٠
اذا كان بعض أهالى القرى يقــولون انهم شاهدوا الطائرة تحترق قبــل سقوطها ٠٠ الا يمكن الوثوق بهم ؟

فابتسم الرجل قائلا : لا أعرف٠٠ اننى أعيش فى مونروفيا على الساحل ولم أذهب قط الى الادغال ٠

ـ ولكن اعتقد ان سانويى على مسافة ٨٠ كيلو مترا للداخل ٠

ـ أجل ٠٠ ولكن ليس لدينا غير طريق رئيسى واحد يوصل الى الداخل، وسانويى تقع على مسافة ١٨ ميلا من هذا الطريق ٠٠ والحياة هناك بدائية تقريبا ٠

وعدت أقول : اذا فانت لا تعتقد أن الطائرة احترقت وهى تحلق فوق سانويى قال ـ أعتقد أن التقرير كان جازما فى هذا الصدد !

بدء البحث

فى أواخر سبتمبر ، عادت أختى لويز وزوجها المدرس باحدى الجامعات الى نيــويورك بعد أن غابا طــوال الصيف ، وجاء الاثنــان لزيارتى على الفور ، ويبدو أنهما جزعا لمظهرى ، اذا أصرا على ألا أعيش بمفردى بعد ذلك ، وعثرا على غرفة لى فى العمارة التى يقيمان فيها وكنت أمضى أغلب ساعات يقظتى فى مسكنهما ، حيث يعيشان مع طفلتهما الصغيرة (لويزا) ولكن كنت أزداد يأسا وقنوطا

وبــعد ظهر يوم من أيام اكتوبر تلقيت رساله من شركه الخطوط الجوية التى كان يعمل فيها زوجى ، فقفــز قلبى من مكانه ٠٠ ترى هل تتضمن الرسالة نبأ عن وجود فرانك حيا ؟ كان هذا الامل يثير الرعدة فى يدى وأنا أمزق غلاف الرسالة ٠٠

ووجدت فى الخطاب كلمة من مدير الشركه ، مرفقه بصورة من رســالة تلقتها الشركة من شخص يدعى وليم ويلمرز ،قال انه خبير فى اللغات وأنه عمل يوما فى قرية (سانويى) وقد دافع فى رسالته عن أهل القرية وقال أنهم ليسوا متوحشــين كما زعمت الصحف، بل ان القرية مكان يسوده السلام والجمال ٠٠ »

وسرى فى جسدى احساس غريب، كأنما استيقظ شىء ما فى أعماقى ٠٠ ان الارض التى يرقد فيهــا زوجى يسودها الجمال والهدوء ٠٠٠ والامل!

وشعرت بشىء يجتذبنى نحو هذه القريه الغريبــه ، وعلى الفور كتبت خطابا الى خبير اللغات أشرح له كيف مست رسالته شغاف قلبى واشكر له عطفه ٠٠ لقد أحسست بحاجه ملحة تدفعنى لمعرفة المزيد عن قرية(ساتويى)

يجب أن تذهبى

ولد طفلى فى ينـــاير ، واسميته « فرانك » كأبيه •• كان يبدو شبه أبيه بصورة تدعو للدهشة •

وفى صباح يوم شديد البرودة ، بعد الوضع بتســـعه أيام ، غادرت المستشفى والطفل بين ذراعى •• ولما كانت الغرفة التى استأجرها صغيرة، فقد وضعت مهد الطفل فى مخـــدع شقيقتى ، فأضفت بذلك عبأ جديدا عليها هى وزوجها •• وكنت أحاول تخفيف العبء قدر استطاعتى بأداء كل ما يمكننى عمله •

ودق جرس التليفون يوما ، فاذا بى أسمع صوت المستر وليم ويلمرز يدعونى لتناول العشاء معه ••فقبلت

وفى المطعم الذى ذهبنا اليه، قال ان مجلس الارسالية تعاقد معهللسفر الى قريه سانويى لترجمة بعضالكتب الى لغة القبائل المحلية ثم قطبالرجل جبينه وقال : انالحياةفى تلكالمنطقة بدائية تماما ، وتســـودها الراحة ومع ذلك فقد تمتعت بها كثيرا •

قلت لقد أحسست من رسالتك أن هناك بعض الجمال•• وبعض الامل••

فابتسم قائلا فى لطف: أجل هناك شىء ما فى أهل القرية يبدو أنبعض الاجانب لايرونه ، والبعض يفتقدونه تماما ••

قلت : اننى أفكر فى الذهاب الى (سانويى) لاحقق الامر بنفسى •

فقال بحرارة : انها فكرة رائعة•• وأعتقد أنك يجب أن تذهبى الىهناك وتحدثنا بعد ذلك ساعات كثيرة •

لقد تحدد طـريقى الآن •• كنت أعرف اننى لابد أن أذهب الى ليبيريا

وعلى الرغم من أن أختى لم توافق على الرحلة ، فقد أبدت اســتعدادها للعناية بالطفل خلال غيابى••وأبدت شركه الطيران استعدادها لدفعنفقات سفرى ، وهى مجاملة اعتادت عملها مع أقاربضحايا حوادثالطائرات••

وفى خلال أسابيع قليلة ، كنت فى طريقى الى أفريقيا •

***

كان الوقت قدجاوز منتصفالليل عندما حلقت بنا الطائرة فوقالساحل الافريقى •• وبينما كنت أحدق خلال الظلام ، اذ طاف بخـــاطرى أننا قد نكون فوق نفس البقعة التى سقطت فيها طائرة فرانك

وأحسستبجسمى كله يرتعش•• وما لبثت الطائرة أن هبطت فى مطار روبرتس فيلد بعد قليل .. وهبط ركاب الطائرة •

وفى غرفه الانتظار المزدحمة التى

تضج جنباتها بالاحاديث والضحكات، تطلعت حولى باحثة عن عضو الارسالية الذى كان مفروضا أن يستقبلنى بناء على البرقية التى بعثت بها رئاسته فى نيويورك •• ولكن أحدا لم يقترب منى •• وعندما ذهبت أخيرا الى مدير المطار سلمنى رسالة جاء فيها :

« عزيزتى مسز براون •

« الرجل الذى كان مكلفا بمقابلتك أضطر للسفر الى منطقة بعيدة لحضور مؤتمر •سأحاول أن أرسل شخصا آخر غدا لاحضارك هنا » •

ل • باورز
توتوتا

وتطلعت حولى فى حيرة •• اننى لم أسمع من قبل عن مستر باورز أو عن مكان يدعى (توتوتا) • وبدا بوضوح أننى مضطرة لقضاء الليلة فى المطار وسألنى مدير المطار عما اذا كان معى حقائب ، فلما حنيت رأسى بالايجاب •• قال :

ـ لقد بحثت عنها فى كل مكان فلم أجدها •

وهنا أصبح فزعى وارتباكى كاملين لم يخفف منهما قول الرجل :

ـ سأعهد الى رجل باعداد سرير من أسرة الجيش لك فى الثكنات التى تقع فى مؤخرة هذا المكان •

فسألته : أليس هنا فندق ؟ الا أستطيع الاتصال تليفونيا بمونروفيا لارسال سيارة أجرة ؟

فقال لى : كلا •• ليست هناك سيارات أجرة ولا تليفونات •• ولا فنادق وهذا المطار مجرد مطار عسكرى من مخلفات الحرب الثانية !

وتقدمنى غلام أبنوسى الوجه الى احدى غرف الثكنات وتحتوى على سرير متنقل صغير تغطيه «ناموسية» وبعد أن أغلق باب الغرفة الخيزرانى خلفى ، القيت بنفسى فوق الفراش بملابسى الداخلية •• واستغرقت فى نوم متعب قلق •

رحلة الى توتوتا

فى الصباح التالى صحبنى مدير المطار الى بيته الصغير •• وقال :

ـ لقد حدثت زوجتى عن ضياع حقائبك، وسوف تعيرك بعض ثيابها •• اذا كان لديها شىء يصلح لك •

واستقبلتنا سيدة شابة ترتدى بنطلونا قصيرا لونه أزرق باهت ، ونظرت الى قامتى الطويلة ثم ضحكت، اذ كانت هى لاتكاد تصل الى كتفى •• وكانت قد بسطت بعض ثيابها وأحذيتها وملابسها فوق اريكة فى غرفة الجلوس •

وقدم زوجها قميصا طويل الاكمام

وبنطلونا قديما قائلا :

ـ يستحسن أن تأخذى هذا أيضا

فقالت زوجته معاتبة : لا تعطها هذه الاشياء القديمه يا عزيزى

فأجابها : اننى أفكر فى سيرها خلال مسالك الغابه حتى (سانوبى)

وعندما حاولت تجربه ثوب من ثياب الزوجه ، تبين أنه ضيق عند الوسط ، ولا يكاد يصل الى ركبتى، كما كانت الاحذيه ضيقه لا كعوب لها •• ومع ذلك فقد كنت سعيدة لاننى سأترك ثوبى المصنوع من الصوف ، الذى كان يضايقنى كثيرا فى هذا الجو الحار •

وظهر غلام أسود وقال: لقد حضر الرجل الذى سيصحب السيدة •

وتبعته الى الخارج •• كانت هناك سيارة نقل تقف فى انتظارنا أمام المبنى ، وكان الجزء الخلفى منها مغطى بمشمع ، وقد امتلأ بجبل من المون ؛ وركب فى الداخل ستة من أهل البلدة مستلقين على ظهورهم •• ووقف زنجى قصير يرتدى سروالا قصيرا قذرا وقميصا ممزقا ، يتحدث الى فتاة عارية الصدر ، وقد ضمت الى صدرها طفلا عاريا تماما •

والتفت الرجل نحوى قائلا : اننى أدعى سامى •• هل أنت السيدة الذاهبة الى تاتوتا ؟ لقد أرسلنا مستر باورز لاحضارك

فقلت وأنا أتراجع بوحى الغريزة: لا أعتقد أن لديكم مكانا لى •

فابتسم سامى وفتح باب مقصورة السائق وقال : سوف تجلسين الى جوارى •• لقد احتفظت لك بهذا المكان •

كنت لاأزال مترددة عندما أقبل مدير المطار يقول : انك سعيدة الحظ لعثورك على مكان فى سيارة مسافرة الى هناك •

وصعدت الى السيارة فى كآبة ، وودعنى المدير وتمنى لى حظا سعيدا • وجلست الى جوار «سامى» الذى جلس أمام عجلة القيادة ، ثم أقبلت الفتاة الزنجية وطفلها العارى فجلست الى جوارى ، فأحسست برعدة ونظرت الى سامى ، ولكنه تجاهل نظراتى، وانطلق بالسيارة •••

وفى خلال الطريق، انهمك سامى فى قيادة السيارة العتيقة ، بينما شغلت الفتاة نفسها بمداعبة طفلها الممتلىء ، وبدا الاثنان غير عابئين بى وكأننى بعض أكياس التموين التى تحملها السيارة فى مؤخرتها •

وبعد أن طالت الرحلة حتى أصبحت تبدو كأن لانهاية لها ، سألت سامى:

ـ كم تبعد تاتوتا ؟ •

فأجاب فى بهجة : لايزال أمامنا طريق طويل ياسيدتى •

وعندما وصلنا فى النهاية الى مبنى الارسالية ،كان آل باورت وأبناؤهما الاربعة على استعداد للجلوس على مائدة العشاء •• ولم يزل هناك طريق طويل الى قرية «سانوبى» اذ أن الرحلة كلها تستغرق ثلاثة أيام ••

وأنزلنى مستر باورز فى كوخ الضيافة، بينما أعارتنى زوجته ـ التى كانت تنتظر مولودها الخامس ـ ثوبا يناسبنى تماما ، واتفقا مع أحد شبان الارسالية على أن يصحبنى الى (يانوكويل) التى تقع فى منتصف الطريق بين « تاتوتا » و « سانوبى »

كان الشاب يدعى بول سليفر وقد جاء ظهر اليوم التالى ، وكان شابا أحمر الوجه يغمر النمش جلده وعلى فمه إبتسامة سقيمة ••وماكاد يحمل المؤن حتى ركبت الى جواره فى سيارة جيب ، وانطلقنا وسط الغابة •

كان الطريق الذى يخترق الغابه كثير الاشجار التى كانت أغصانها تصطدم برأسى ووجهى خلال سيرنا، وقد خدشنى أحدها فأسال الدم من ذراعى وعندئذ أصر بول على ضرورة وضع دواء مطهر على الجرح فورا ، قائلا ان شفاء الجروح فى هذه المناطق أمر عسير •• وكان أول جسر عبرناه يثير الرعب فى القلوب ، اذ كان عبارة عن كتلتين منفصلتين من الخشب •

وظللنا نسير عبر الغابة بضع ساعات ،حتى وصلنا الى جسر آخر من الكتل الخشبية ، وكان مجرى النهر متسعا فى تلك المنطقة ، فسرنا ببطء فوق الكتلتين اللتين تمتدا فوق المياه التى ترغى وتزبد •• وبينما كنا فى منتصف الجسر ، انفجر أحد اطارات السيارة الخلفية ،ولم يكن معنا عجلة احتياطية ، فاضطررنا الى مغادرة السيارة ، وأخذنا نزحف بحرص بالغ فوق الاخشاب حتى بلغنا الطرف البعيد من الشاطىء ••

وقال بول اننا اذا أسرعنا فقد نتمكن من بلوغ « يانوكويل » قبل الظلام ، اذ أن الطريق يكون خطرا خلال الليل •• كان الحذاء المستعار ضيقا يؤلم قدمى أشد الالم، وأحسست أن قدمى أصيبتا بقروح شديدة ، وأردت أن أسير عارية القدمين ،ولكن بول نصحنى ألا أفعل حتى لايصيبنى مرض جلدى ••

وأخيرا وصلنا الى قرية «يانوكويل» حيث يعيش سليفر وزوجته التى كانت تجلس فى انتظارنا وهى تحمل طفلها

الجميل الصغير الحجم ٠٠ وبعد العشاء رأيتها وهي تحيط فراش طفلها بستار كثيف صنعته بيديها ،وقالت ان في تلك المنطقة نوعا من النمل الكبير يأكل الاطفال أثناء نومهم ٠٠ أما الكبار فهم يشعرون به قبل أن يلدغهم ٠٠ وهناك حارس يطوف حول البيت ليلا لمراقبة أسراب هذا النمل ٠٠٠

وعندما لجأت الى الغـــرفة التى أنزلونى فيها تلك الليلة لم يغمض لى جفن ، وأخذت أسائل نفسى ٠ ٠ ٠ ترى لماذا جئت الى هذه الارض الرهيبة؟

مرحبا بسانويى ٠٠

جاء بول سليفر فى الصباح التالى وقال لى ان الغلمان قد وصـــلوا من سانويى لمرافقتى الى هناك ٠٠ وخرجت من غرفتى لاقابل عيونا متطلعة لستة عشر صبيا من أهل ليبيريا ٠٠ ورحت أحدق فيهم بثيابهم الرثة ، وعضلاتهم المنتفخة وأقدامهم العارية التى يكسوها التراب ٠٠ فخالجنى الخوف من الذهاب معهم الى الغابة بمفردى وأشـار بول الى أطول الغلمان ، وقال :

ـ هذا هو رئيسهم ٠٠ ان اسـمه « الفتى الكبير » (بيج بوى)

فحنيت له رأسى ، وعندئذ افتر ثغره عن أسنان بيضاء لامعة ،وحمل ثلاثة من زملائه محفة من القمـــاش طلبوا منى الجلوس فوقها ، ولكنهـم ما أن رفعوها فوق أكتافهـــم ، حتى وجدت نفسى فى وضـع كأننى راقدة على ظهرى ٠

وأمضينا ساعات كثيرة فى هــذه الرحلة الشاقة ، وعندما تعب الغلمان الاربعة الذين يحملوننى ، استبدل بهم أربعة آخرون ٠٠

ووصلنا فى النهاية الى قرية سانويى ، وكانت الشمس قد غربت مخلفة وراءها سماء ارجوانية اللون ٠٠ وسرنا وسط صفين من الاكواخ المصنوعة من الطين

وتوقف ركبنا أمام منزل قديم ذى شرفة طويلة تحيط بها الستائر ٠ ٠ وكانت هناك سيدتان تنتظران للترحيب بى ٠ ٠ كانت احداهما طويلة القامة ذات شعر أشيب وعـــلى وجهها ذلك الشحوب الذى تخلفه الملاريا ، وقد قدمت نفسها لى قائلة :

ـ اننى مس أوتو ، وأنا مكلفــة بالاشراف على هذا المكان ٠

ثم قدمت لى زميلتها ، وهى سيدة ممتلئة الجسم ،تصغرها سنا ،وقالت انها تدعى ماريانا بانجر ،وهى الممرضة المكلفة بالاشراف على الصيدلية

قبر فى أفريقيا

كان الرجـل الذى يشرف عـلى الارسالية غير موجـود ، لانه يقضى

عطلته مع أسرته ، وبينما كنا نتناول العشاء ، أخـــذت السيدتان ماريانا ومس أوتو تتحدثان عن كل شيء •• وعلمت أن المرضة لم تـكن موجودة عندما سقطت طائرة فرانك ••

ولـكننا عندما جلسنا فى الشرفة المظلمة بعد العشاء ••طلبت اليها أن تسرد على كل ماتعرفه • • فبدأت تقول :

« حلقت الطائرة فـوق القرية فى الساعة الثالثـة والدقيقة الخامســـة والعشرين صباحا ••

« وكان صوت الطائرة يدل على أن بها خللا ما •• ولكننى لم أعرف شيئا عما حدث لها آلا فى اليوم التالى عندما أحضر أحد أهالى القرية صورة لطفل، قال انه وجدها على التل البعيد حيث سقطت كرة نارية كبيرة •• »

لقد أثار الحادث ازعاجا كبيرا لنافقد جاء الاطباء من مزرعة (فايرستون) القريبة، كما جاء بعض رجال الارساليات وموظفى شركة الطيران، ولم يكن هناك مكان لايوائهم ،كما اضطروا لاستخدام كل قطعة من أخشابهم الثمينة لصناعة نعوش للضحايا • •

وقالت مس أوتو أن زعيم القرية ليس مسيحيا ،بل هو يعبد الارواح ، وقد ذكر يومئذ أنه يعتقد أن الارواح غاضبة جدا حتى انها قتلت كل هـذا العدد من الناس مرة واحدة ، ولهذا خاف أن ينقل الجثث ،ورفض أن يأمر قومه بالمساعدة فى نقلها ، ولكن بعض رجاله عادوا وساعدونا فى نقلها الى أسفل التل ، كما بقى عدد آخر لحفر القبر الكبير ، وظلوا يعملون طـوال الليل على ضوء المصابيح

وتنهـــدت مس اوتو قائلة : هل تريدين رؤية القبر ؟

وعندما حنيت رأسى ، استطردت تقول : حسنا •• سوف أصحبك الى هناك غدا •

ودلفنا الى الغابة الكثيفة، وواصلنا السير حتى بلغنا قطعة أرض منبسطة تكسوها الحشائش الخضراء التى تمتد مسافة ٨٠٠ متر •• ووراءها منطقة خالية من الطمى الاحمر وضعت فوقها قطع من الاخشاب فى هيئة صليب• انه القبر المشترك الذى ضم كل ضحايا الكارثة •

وتقدمت الى الامام ببطء ••وعندئذ أحسست بشعور غريب ••

لقد خيل لى أن فرانك يقول لى :
ـ آننى سعيد بقدومك

وتوقفت لحظة، ولكن الهواء الساخن جعلنى أحس أننى على وشك الاغماء ، فجلست فوق قطعـة من الصخور ،

وراحت الدموع تنهمر من عينى ..

وعدنا فى صمت .. كنت أفكر فى الرحلة الطويلة التى قطعتها فى المحيط والصحراء والغابة .. وساءلت نفسى : لماذا جئت ؟

وفجأة طاف بخاطرى هاتف مفاجيء .

التل !

لعلنى أجد الرد على سؤالى هناك .

اننى يجب أن أذهب الى التل الذى مات فوقه فرانك

وانقضى أسبوعان قبل أن أجد من يرضى بمصاحبتى الى هناك .. فقد وعدنى أحد المدرسين الوطنيين بالصعود معى فوق التل الذى شهد الكارثة ..

حطام فوق التل

وجاء اليوم الذى كنت أنتظره .. كان المدرس أفريقيا من نيجيريا يسمى « اليسون » وكان رجلا قصير القامة يرتدى قميصا وبنطلونا من القماش الابيض النظيف ،

وقد جاء ومعه ثمانية غلمان ممن اشتركوا فى حملى عند قدومى من « يانوكويل » ..

كان الجو شديد الحرارة عندما بدأنا السير .. وبعد أن سرنا قليلا ، حملنى الغلمان ، وظللنا نتمايل طوال الطريق الذى يخترق الادغال الكثيفة مدة ساعتين ، ثم ما لبث الطريق أن أصبح أكثر انحدارا .. وأمضينا ساعتين أخريين فى تقدم بطيء

وأخذنا نصعد منطقة مرتفعة .. حتى وصلنا الى المكان ..

كان حطام الطائرة المنكوبة يتناثر أمامى فى مساحة تبلغ مئات الامتار ، قطع من المعدن غير مستوية ، واطارات لنوافذ مستديرة ، وحشايا مقاعد محترقة ، وأدوات ملتوية ، وقطع الزجاج التى اشتبكت بين أغصان الغابة ..

وأشار اليسون عبر الوادى وقال : لقد جاءت الطائرة من هذا الطريق .

حلقت فوق القرية ، ثم اتجهت فوق الوادى ، وأخيرا استدارت وأقبلت نحو التل ..

اننى لم أرها وهى تصطدم به .

فقاطعته قائلة : ولكنك رأيتها تحلق فوق المكان ؟

قال : أجل .. كانت الليلة شديدة الحرارة ، ولم أكن قادرا على النوم .. وقد سمعت طائرة تحلق على ارتفاع منخفض ، فخرجت لأراها

وأخرجت من جيبى صورتين لفرانك وقلت له :

ـ هل رأيت شخصا كهذا ؟

فقال اليسون : أجل ... أذكـ

انني رايته .. كان رجلا طويلا نحيلا كستنائى الشعر ..

وسار قليلا ثم توقف على مقربة من بعض الاشجار .. وقال برقة :

ـ هنا .. هنا وجدته ..

وتطلع نحـوى ، وكانت عينـاه السوداوان مليئتين بالعطف .. فقلت وانا أكاد أختنق :

ـ كيف ؟ كيف وجدته ؟

ـ كان يرقد على وجهه ، وقـد قلبته بيدى .. لم يكن مصابا باى شىء .. فقط مؤخرة راسـه .. أعتقد أن رأسـه اصطدم باحـدى الاشجار عنـد سقوط جسـمه من الطائرة .. انه لم يتألم .

ووجدت عنـد قدمى قطعـة من قماش أسود محترقة ، لعلها قطعـة من معطف فرانك فامسكت بها اقلبها بين أصابعى ..

لقـد احسست أننى عرفت أخيرا كيف وقع الحادث ..

***

ولم أعد احاول الفـرار من حقيقة موت فرانك . . التى كنت أرفض قبولها حتى تلك اللحظة .. لقـد أصبحت الآن حقيقة كقطعـة القماش التى فى يدى .

وكان ضوء النهار قد بدأ يختفي ، فقال اليسون .

ـ يجب ان نعود بسرعة ، لاننا لن نجد الطريق بسهولة فى الظلام ..

وقررت ان ابحث فترة اخرى فى القرية .. كنت اشعر ان هناك شيئا يوشك أن يتكشف لى .. ربما كان السر الغامض الذى جذبنى الى هذه البقعة من الارض ..

وذهبت الى الـكنيسة ، وكان اليوم يوم احد .. ورايت النـاس يقبلون عليها زرافات ووحدانا فى ثياب أنيقة نظيفة .. وبعد الصلاة التمست أن القى كلمة فيهم .. ووقفت امام منبر الكنيسة وقلت :

ـ باسم كل الذين لم يتمكنوا من الحضور .. اريد ان اشـكركم على ما فعلتموه عندما سقطت الطائرة .. لقد أظهرتم حنانا وشجاعة لن أنساهما ماحييت ..

وبعد ان انتهيت ، احتشد حولى عدد كبير من اهل القرية ، واخـذوا يصافحوننى مرددين كلمـات مشجعة .. وفكرت فى فقـرهم وامراضهم الكثيرة ، وكفاحهم اليومى فى سبيل البقـاء ، فأحسست أننى يجب أن افعل شيئا من اجلهم ..

وفى طريق العودة ،مررنا بالعيادة القديمة ، فقالت الممرضة ماريانا :

اننا فى حاجة الى عيادة جديدة ، لان المبنى القديم يوشك أن ينهار ..

وعندئذ طافت الفكرة ببالى ... لقد قررت أن أكتب الى أسر واقارب الضحايا الذين دفنوا هنا ، وأحدثهم عما رأيت،وأطلب منهم المساهمة فى بناء عيادة جديدة لقرية سانوبى ..

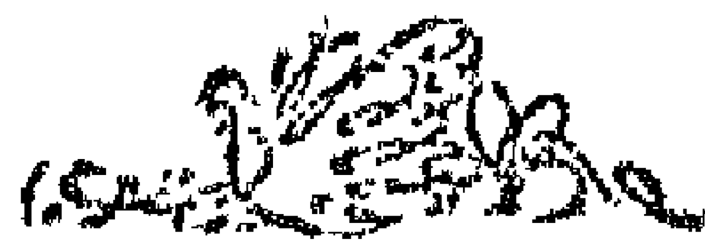
وفى تلك اللحظة ، أدركت لماذا جئت .. اننى لم أحضر لكى أعرف كيف أو أين مات فرانك .. ولكنى حضرت لكى استرد ايمانى الذى فقدته .. ولكى أجد سبيلة أفضل للحياة مع الآخرين .

وعدت الى نيويورك بالطائرة ، تغمرنى اللهفة على لقاء ابنى فرانك الصغير .. وعدنا الى البيت الذى كنت أعيش فيه مع زوجى فرانك فى احدى الضواحى ، ثم بدأت أكتب لاقارب ضحايا الطائرة عن سانوبى وكرم أهلها ، وحاجتها الى عيادة جديدة ..

ومر عام .. تجمع خلاله عدد كبير من الرسائل على مكتبى .. رسائل من بنسلفانيا ولويزيانا ، والبرتغال وسويسرا .. وجنوب افريقيا ، وبلغ مجموع التبرعات خمسة آلاف دولار ، وساهمت جماعة اللوثريين فى جمع ١٥ الف دولار اخرى .. وفى خريف ١٩٥٨ تم البناء الجديد،ويحوى أماكن ومعدات وأسرة تكفى لعلاج ١٣٠ مريضا .. وقد وضع على مدخله لوحة معدنية صغيرة تتألق فى ضوء الشمس كتب عليها :

« هذه العيادة قدمت لاهالى سانوبى » اعترافا بجهودهم النبيلةفى ٢٢ يونيو ١٩٥١

« وقد اقيمت تخليدا لذكرى ضحايا طائرةشركة«جريت ريبابليك»



نصيحة

على مقربة من احد المعسكرات الحربية ،وضعت لافتة فى الطريق العام تحذيرا لسائق السيارات جاء فيها :

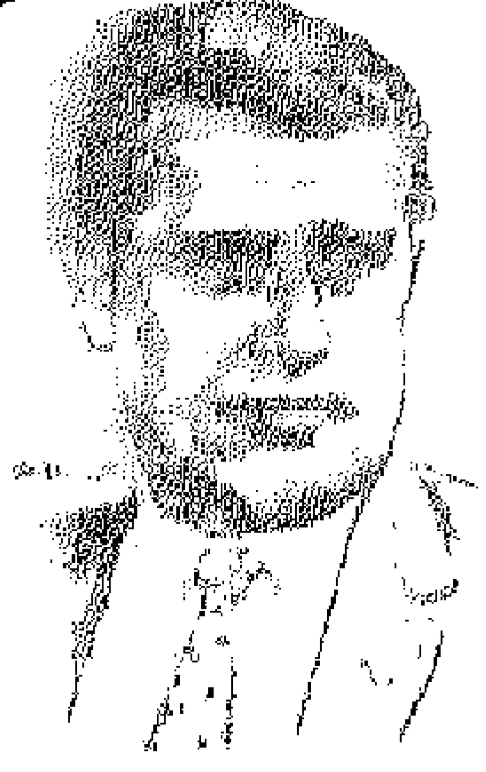
« الرجا السير ببطء .. لاتقتلوا جنودكم »

وتحت هذه اللافتة كتب بعضهم العبارةالتالية بالطباشير :

« بل انتظروا مرور الضباط !


كتاب الشهر
أول رجال
فى القمر!

سطور عن المؤلف



ليس بين علماء العالم الغربي من هو أقدر على ان يصور لنا غزو الفضاء من فيرنر فون براون مدير مركز جورج مارشال لرحلات الفضاء التابع لادارة الملاحة الجوية والفضاء الامريكية في هانتسفيل بولاية ألاباما ، والذي يبلغ الثامنة والاربعين من عمره .. فهو كما قالت عنه مجلة ((لايف)) ((أكبر علماء الصواريخ العمليين في العالم الغربي وأجرأ أصحاب النظريات في سفن الفضاء))

وعندما كان فون براون في الثامنة عشرة ، كان يطلق الصواريخ التي صنعها بيده في احد مستودعات القمامة التابعة لبلدية برلين ، وفي سن العشرين جعلوه مديرا لبرامج انتاج الصواريخ في الجيش الالماني ، وفي الثانية والثلاثين ، بنى الصاروخ (ف ــ ٢) القاتل الذي يعتبر أول قذيفة موجهة في العالم ، فتحت آفاقا جديدة في عالم الحروب .

ومع كل ذلك ، فقد كانت أحلام فون براون دائما تتجه بعيدا عن الاسلحة . وعندما سقط أول صاروخ من طراز (ف ــ ٢) على لندن ، قال لصديق له انه نجح تماما ، لولا أنه نزل في كوكب غير الذي يريده .. وفون براون هو اول من عمل جاهدا لكي تظل الولايات المتحدة محتفظة بمكانتها في سباق الفضاء .. وعندما كان يعمل في عام ١٩٥٢ لحساب الجيش الامريكي ، بدأ يدعو لبناء أول قمر صناعي ، وفي عام ١٩٥٤ قدم مشروعا لاطلاق قمر صناعي يدور في فلك الارض بصاروخ متعدد المراحل يقوم على أساس الصاروخ « ردستون » ، ولكن الامر صدر اليه بترك عملية اطلاق الصواريخ لمشروع « فانجارد »

وفي الليلة التي أطلق فيها الروس اول أقمارهم الصناعية منذ ثلاث سنوات ، كان فون براون يتناول طعام العشاء مع نيل ماكلروى وزير الدفاع الامريكي ، وولبر بروكر وزير الجيش ، فقال لماكلروى في توسل : « اذا اذنتم لنا فاننا نستطيع أن نرسل قمرا صناعيا يدور حول الارض في خلال ٦٠ يوما ، وعندئذ احتج بروكر قائلا : ((ليس في ٦٠ يوما)) ... ولكن فون براون عاد يقول : « بل في ٦٠ يوما » ومع أن الامر استغرق ٨٤ يوما لتنفيذ ذلك الوعد ، الا انه جعل أمريكا تحتفظ بمكانها في هذا المضمار ، وقد اطلقت الاقمار الامريكية الاربعة الاولى بنفس الصاروخ ((رد ستون)) الذي اقترح فون براون استخدامه في عام ١٩٥٤

ويقول فون براون اليوم انه سيصبح في الامكان ارسال رجال الى القمر واعادتهم سالمين في خلال عشرة أعوام . وقد أهدى كتابه هذا ((أول رجال يصلون الى القمر)) الى ابنتيه ابريس ومرجريت ، اللتين ستعيشان في عالم تصبح الرحلات الى القمر فيه امرا عاديا .

ولكن لماذا نذهب الى القمر ؟ ألا توجد لدينا على سطح كوكبنا مشاكل كافية ؟ ان فون براون يرد على ذلك بقوله ان قيمة الاكتشافات لا تتضح حقا الا في اعقاب الاكتشاف نفسه ، وليس هناك من يستطيع اليوم ان يتخيل ما يمكن ان يعود على الجنس البشري من برامج الفضاء ، أكثر مما استطاعت الملكة ايزابيلا ان تتخيل ما سوف تسفر عنه رحلات كولمبوس ! »

أول رجال في القمر

ملخص عن كتاب FIRST MEN TO THE MOON

بقلم فيرنر فون براون

استلقى « جون ماســـون » فى مقعده المستـــدير الذى الذى ربط اليـــه بشرائط جلدية ، بينما كان مكبر الصوت فى « الكابين » يردد الدقائق الخمس الاخـــيرة من عمليـــة العـــد العكسيـــة . . . وراحت عيناه تفحصان لوحة الآلات الموضـــوعة فوقه ... كان كل شىء فى الصاروخ الجبار ذى المراحل الخمس يبـــدو جاهزا للانطـــلاق ، ومن وراء العدد الكبير من المقاييس والمفاتيح ، استطاع أن يتطلع ببصره من خـــلال زجاج المقصـــورة نحو النجـــوم التى ترصع سماء هذه الجزيرة المرجانية الصغيرة التى تقع فى المحيط الباسيفيكى حيث تقف سفينة الفضاء فوق قاعدة اطلاقها ... كان يعرف أنه بعد دقائق قليلة سيكون بين هذى النجوم منطلقا فى أول رحلة يقوم بها الانسان الى القمر ...

وفى المقعد الذى يقع تحته ، استلقى « لارى كارتر » زميله فى الرحلة ، ومساعده الهندسى وفى قيادة السفينة ... ومســاعده فى كل شىء ، فقد أدرك العلماء من قبـــل انه لا بد من ارسال أكثر من رجل فى مثل هذه الرحلة الاولى ، فهنـــاك أشياء كثيرة جدا يجب عملها ، وأشياء أكثر من المحتمل أن يصيبهـــا الخلل ، بحيث لا يستطيع رجل واحد أن يعمل فيها بمفرده ... ولا سيما أن الرحـــلة التى يبلغ طولها ٣٨٤٥٠٠ كيلومترا سوف تستغرق حوالى ٦٠ ساعة فى الذهاب ومثلها فى العودة .

وكان هـــذان الرجلان بين الفريق الذى تلقى تدريبا دقيقا تمهيدا لهذه الرحلة ، حتى أصبح فى اســـتطاعة كل منهما أن يحل محـــل الآخر فى كل موقف ، وقد تدربا كثيرا فى جهاز يماثل ســـفينة الفضـــاء ، يكاد يكون صـــورة طبق الاصــــل للمقصـــورة الصاروخية التى يجلسان فيها اليوم ، واختبرت تصرفاتهما حيـــال كل نوع من المواقف الطارئة ، وقاما بتجارب

تدريبية بأجهزة أخرى تماثل عملية الهبوط فى القمر ، والعودة منه ، حتى أصبح الامر كله روتينا تاما فى ذهنيهما • وقد قضيا عدة أسابيع حتى يألفا التفصيلات الفنية الدقيقة للشبكة الكهربائية المنتشرة فى أنحاء سفينة الفضاء وأجهزة تكييف الهواء وتجديده ، وجهاز تنقية الماء ، والثلاجة التى يحفظ فيها طعامهما ، وقاما بعد ذلك برحلات متكررة للدوران فى فلك الارض لاكتساب الخبرة اللازمة لأية رحلة فى الفضاء ، ولا سيما مرحلتها الاخيرة وهى أكثرها خطورة ، مرحلة العودة الى الغلاف الجوى للكرة الارضية بسرعة تزيد على ٢٩ ألف كيلو متر فى الساعة دون أن تحترق السفينة كما تحترق الشهب والنيازك ••• وفى احدى الرحلات التى قاما بها ، دارا حول القمر ، والتقطا آلاف الصور لجانبه الآخر ••• وأصبحا الآن على استعداد للسفر الى القمر نفسه

وفجأة ، أضىء رقم سحرى فوق لوحة العد العكسى فى المقصورة المزدوجة •• كان باقيا ٦٠ ثانية •• يسمع ماسون الكلمات تتردد من مكبرات الصوت المتناثرة فى أنحاء الجزيرة كلها ، وعرف أنها نقلت الى ملايين من أجهزة الراديو والتليفزيون فى البيوت والمكاتب فى كل أنحاء الارض •

وخبت الاضواء داخل الكابين ، ودفن ماسون نفسه فى أعماق مقعده استعدادا لمواجهة صدمة الانفجار المقبلة •• كان كل شىء هادئا داخل الكابين ، حتى كاد صوت ضربات قلبه يطغى على طنين الاجهزة ، وحفيف أنابيب نفخ الهواء فى جهاز التكييف وعندما وصلت الارقام المتوثبة على لوحة العد الى الصفر دوت زمجرة هائلة ، وكأن أعاصير الدنيا قد أفلتت فجأة من أسرها !

وأخذ يرقب مؤشر السرعه أمامه وهو يرتفع ، بينما كانت محركات المرحلة الاولى لصاروخ السفينة ، تستهلك طنا بعد آخر من الوقود •• وبعد ١٢٠ ثانية من الاحتراق ، وصل المؤشر الى مرحلة (٨ـج) الخطرة ، •• وعندئذ أحس أنه من المستحيل عليه أن يستنشق الهواء ، ورأى يديه تقبضان على أطراف ذراعى المقعد المليئتين بالازرار ، بينما راحت أصابعه تتحركان ببطء يمينا ويسارا لتصحيح ما يظهر على ميناء احدى الآلات • وقد أدهشه أن أصابعه ما زالت تتحرك !

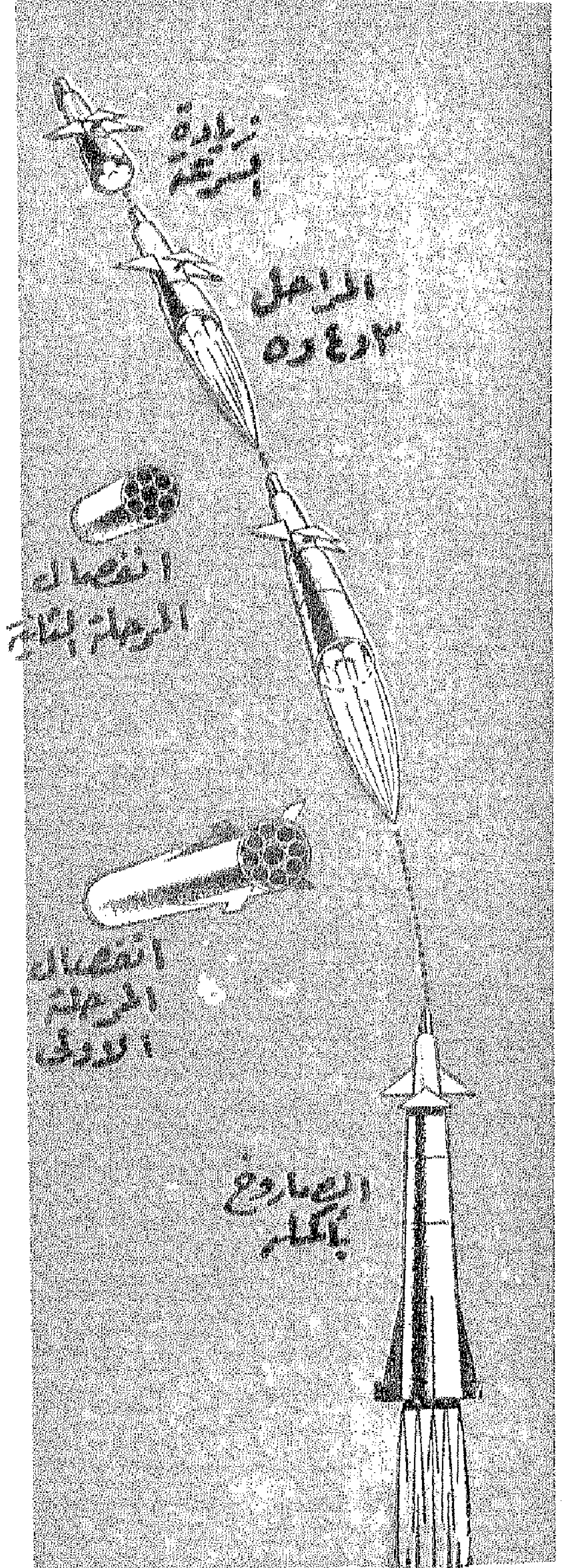
ومرت مهلة مؤقتة ، بينما كان

صاروخ المرحلة الاولى يحترق ثم ينفجر، ولكن لم تكد تمر ثوان قليلة ، حتى انطلقت محركات المرحلة الثانية تعمل ، وزادت السرعة الى (٩ - ج) ، ثم هدأت الشحنة مرة أخرى عندما توقفت المرحلة الثانية وانفصلت عن السفينة ٠٠٠

● يسير الصاروخ بوساطة غازاته العادمة ٠٠٠ والدفع لا يتم عن طريق ضغط الغازات على الغلاف الجوى ، اذ ان الصاروخ تزداد قوته في الفضاء الخالى من الهواء، ولكن الدفع يأتى بطريقة أخرى، وهى ان كل جزىء غازى ينبثق الى الوراء من فتحات العادم، يولد قوة ارتداد ضئيلة الى الامام اشبه بالارتداد الذى يحدث على كتفك عندما تطلق بندقية ، وهكذا فان الملايين من حركات الارتداد الضئيلة تخلق قوة الدفع »

ومن أجل الوصول الى القمر ، يجب ان تصل سفينة الفضاء الى سرعة ١١ كيلو مترا فى الثانية (حوالى ٤٠ الف كيلو متر في الساعة) ولا يمكن من الناحية العملية بناء صواريخ قوية بحيث تحقق مثل هذه السرعة فى دفعة واحدة ، وهذا هو السبب فى ان سفينة القمر تاخذ صورة صاروخ من خمس مراحل الذى يظهر فى هذه الصورة

فالمرحلة الاولى تدفع السفينة الى ارتفاع ٦٥ كيلو مترا ، ثم تستهلك وتنفجر فتنطلق بعد ذلك المرحلة الثانية فتزيد من سرعة السفينة ، ثم تنفجر هي الاخرى وتنفصل ، وتاتي المرحلة الثالثة لتمنح السفينة سرعتها انطلاقها الضرورية وهي ٤٠ ألف كم في الساعة ٠ وتبقى المرحلة الثالثة مع السفينة طوال الطريق الى القمر وهناك تستدير صواريخها مرة اخرى لكى تقلل سرعة السفينة وهي تقترب من القمر، وتجعل ذيلها الى الامام استعدادا للهبوط اما المرحلة الرابعة فتطلق سفينة الفضاء من سطح القمر فى رحلة العودة للارض، وتسقط بعد ذلك، وتتولى المرحلة الخامسة ذات الاجنحة ايصال السفينة الى الارض، لتهبط على اجنحتها اشبه بالطائرة الشراعية



وعادت الضجة مرة أخرى عندما تولت المرحلة الثالثة أمر السفينة ، وأخذ مؤشر السرعة يرتفع ويرتفع ، حتى اذا بلغت السرعة ١١ كيلومترا فى الثانية ، أدرك ماسون أن السفينة قد وصلت الى سرعة تكفى للاستمرار فى الانطلاق نحو القمر دون قوة محركة أخرى .. ان صاروخ المرحلة الثالثة سوف ينفصل أيضا ، وقد أوشكت لحظة الانتقال من السرعة العالية الى مرحلة انعدام الوزن أن تحل

لقد كان يخشى دائما هذا الجزء من رحلة الفضاء ... ولم يستطع أطباء الفضاء الذين درسوا هذا الانتقال أن يفعلوا شيئا لتهدئة الرعب الذى يصاحبه ، وعندما ينتهي كل شيء ، يشعر الانسان كأنما دخل حياة جديدة ..

ورأى ماسون وهو يرقب مؤشر الساعة الذى بلغ ١١ كيلومترا فى الثانية ، ان مقعده يجتذبه الى أعلى ، وأحس فى نفس الوقت أن نوبة مفاجئة من السرور تكاد تتفجر فى أعماقه ، مكتسحة الانقباض الرهيب الذى ساد نفسه خلال الثوانى الاخيرة القليلة .. لقد تلاشى وزنه ، وأصبح يتبع نفس مسار القذيفة نحو القمر دون أي قوة محركة كالسفينة التى حوله تماما .

لم تعد هناك أية قوى مخالفة بين جسمه وجدران الكابين المحيطة به .. وانتزع أشرطة الامان التي تربطه ، ودفع مقعده بخفة ، فوجد نفسه يطفو حرا في الفضاء !

وبتأثير الغرور الذى استولى عليه فى تلك اللحظة ، ضرب ماسون يده بشدة فوق خوذة زميله لارى وقال له :

ـ هل تحب أن تلقى نظرة على مكان بيتنا القديم يا لارى ؟

ومن غير أن ينتظر منه ردا ، ضغط على الزرار الخاص باتجاه السفينة ، فأخذت تدور بجانبها ببطء ، حتى عادت مقدمتها تتجه نحو الارض مرة أخرى !

وعندما استوت السفينة فى موضعها أخيرا رأى ماسون قوسا هائلة تمتد من اليمين الى اليسار ، الى أبعد مايصل اليه البصر ... كان الفجر يزحف

● وليس في ذلك خطر ما .. فمن الممكن تحويل سفينة الفضاء الى اى وضع اثناء انطلاقها دون قوى محركة على طول طريقها الى القمر ، فمن المستطاع قلبها رأسا على عقب ، أو امالتها على جانبها ، أو الى الخلف ، دون أن يغير ذلك من سرعتها أو اتجاه الرحلة . ويتم تغيير الوضع عن طريق دولاب الموازنة فى السفينة ، لتدور فى اتجاه مضاد للاتجاه الذي تريد أن تدور فيه السفينة، ويخلق عمل دولاب الموازنة رد فعل مماثلا ومضادا فى وضع السفينة نفسها ..

على الارض التى تقع تحتـــه بآلاف الـــكيلومترات وأخذت القوس تزداد اتساعا من لحظة لأخرى ، بينما كانت السفينة المسرعة تغادر ظل الارض . وسرعان مابدت هالة الشمس المتوهجة وتبعتها الشمس نفسها بكل ما فيها من بريق وسطوع ... وبدأ ساحل أمريكا الجنوبية يبدو الآن للأنظار، وبعــد دقائق قليـــلة ، ظهرت غابات البرازيل الخضراء ، وكانت المســافة بين الارض والسفينة تزداد اتســاعا بسرعة ، ومن حجم الكرة الارضية ، قدر ماسون انهما أصبحا على ارتفاع أكثر من ٦٥٠٠ كيلومتر ، مع انهما لم يغادرا قاعدة الانطلاق الا منـــذ دقيقة فقط !

وأخـــذ يفحص درجات حرارة الاوكسيجين السائل ، وخزانات المياه وخزانات الوقود وجهـــاز تكييف الهواء .. كان الضغط الجـــوى فى مقصورة السفينة يختلف كثيرا عن الضغط الجوى على سطح الارض ، فجو الارض على مســتوى ســطح البحر ، يبلغ ضغطه كيلو جــراما واحدا للسنتيمتر المربع ، وهو يتكون من ٢١ ٪ أوكســـيجين ، ٧٩ ٪ نيتروجين ، ولتوفير الثقل داخـــل الكابين ، فان الضغط فيه قد خفض الى ٥٦٠ جراما للسنتيمتر المربع ، ولتعويض النقص فى الضغط ، زيدت محتويات الاوكسيجين الى ٤٠ ٪ ، واســتبدل بالنتروجين الهليوم الذى يخفض الوزن ، ويمنع خطر الانسداد الوريدى فى مجرى دم الطيــــار اذا حدث أى هبوط عارض فى الضغط .

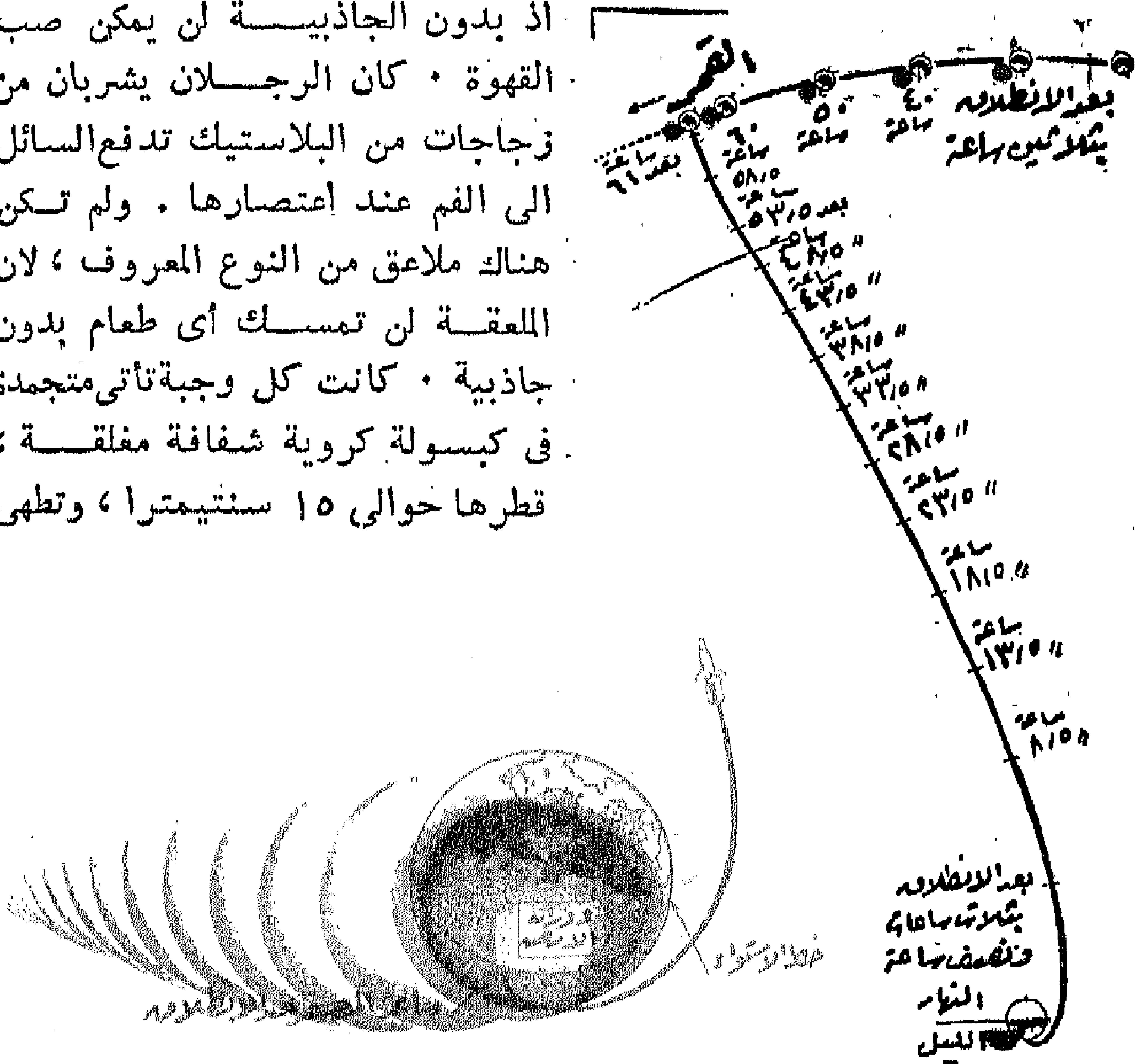
وفحص ماسون كمية الاشعاعات التى تجمعت لديهما من منطقة حزام « فان ألين » الاشعاعى التى تتكون من حلقتـــين ضخمتين من الذرات المشحونة بالكهرباء تحيطان بالـكرة الارضية على ارتفاع يتراوح بين ٢٤٠٠ و ٣٢٠٠٠ كيلومتر . وقد قرر العلماء بعد دراسات مضنية ، استغرقت سنوات ، أن الاقمار التي تحمل رجالا حول الكرة الارضية يجب أن تتفادى هاتين الحلقتين ، أما بالنسبة للرحلات الى أغوار الفضاء السحيقة فانهمـــا لا تؤثران فيها .. وقـــد اخترقت سفينة الفضاء هذه حزام فان الين فى ست ســـاعات ، وتشـــبع ماســـون وكارتر خلال هذه الســـاعات بنفس الجرعة الاشعاعية التى تعدها لجنـــة الطاقة الذرية حدا مســموحا به لمدة أسبوع ، ولما كان التعرض لهـــذه الاشعاعات قد انتهى بعد الســـاعات الست، فقد اصبحت الجرعة لاخطر منها

ولو كان هناك اى خطر ، لقرر العلماء وقايتهما منه بدرع رقيقـــة من مادة « البريلليوم » .

***

أصبحت الرحلة الآن روتينية .. لم يكن هناك عمل كثير يقومان به فى الفضاء ، مجرد فحص للاجهزة والآلات .. ونوم ، ثم وقوف ومراقبـــة ، وتطلع الى النجوم ، وارسال التقارير بين ساعة وأخرى الى الارض ...

وحتى التجربة الغريبـــة التى مرت بهما عند طهو طعامهما فى حالة انعدام الوزن فقدت بهجتها بعد مرتين ... لم تكن هناك أوان للطهى ، لان السائل الذى سيغلى عند انعدام الوزن سوف يثور من فقاعات البخار المتكونة فى القاع . ولم تكن هناك أقداح للقهوة ، اذ بدون الجاذبيـــة لن يمكن صب القهوة . كان الرجـــلان يشربان من زجاجات من البلاستيك تدفع السائل الى الفم عند إعتصارها . ولم تـــكن هناك ملاعق من النوع المعروف ، لان الملعقـــة لن تمســـك أى طعام بدون جاذبية . كانت كل وجبة تأتى متجمدة فى كبسولة كروية شفافة مغلقـــة ، قطرها حوالى ١٥ سنتيمترا ، وتطهى



فيه ثم تخرج من فتحة في جانبها مع ملعقة خاصة ذات غطاء لامساك الطعام الذى فقد وزنه ، حتى يصل الى الفم .

حتى تعقيدات الملاحة اصبحت روتينية ، بالمساعدة التى تأتى من الارض ، فقد كانت المحطات الارضية التى تتبع السفينة من الارض ترسل اليها اشارات بالرادار ، فيردها جهاز السفينة ، ولما كانت موجات الرادار تسافر بسرعة الضوء ، فان الوقت الذى يمضى على سفرها يقيس المسافة بين الارض والسفينة ، والمعدل الذى تتغير به هذه المسافة ، هو مقدار السرعة التى تسير بها السفينة .

وبعد مرور ٤٨ ساعة من الرحيل عن الارض ، صعد ماسون الى قبة السفينة الفلكية لمراقبة النجوم ، لتحديد مواضعها ، فوجد أن السفينة قد حادت قليلا عن طريقها ، وقرر ماسون أن الوقت قد حان لتصحيح هدف السفينة وسرعتها لاعادتها نحو هدفها بالضبط . وقدم المعلومات الملاحية الى العقل الالكترونى الصغير الموجود فى سفينة الفضاء ، وسرعان ما قام المخ باعداد ما يلزم للمناورة ، وحدد بالضبط المكان الذى يجب أن تتوجه اليه مقدمة السفينة ، والوقت الذى يلزم ادارة المحرك الصاروخى خلاله لتصبح للسفينة السرعة المطلوبة ..

وبعد انتهاء ماسون من القيام بتصحيح مسير السفينة وسرعتها ، بعث تقريره الذى يرسل به كل ساعة الى الارض .. لقد اصبحت المحادثات الشفوية على الارض اشبه تماما بالمحادثات التليفونية اللاسلكية بالموجات القصيرة ، والفرق الوحيد هو أن موجات اللاسلكى القصيرة على الارض يسمعها الطرف الثانى فورا لانها تسافر بسرعة الضوء : ٢٩٩٨٦٠ كيلومترا فى الثانية ، اما سفينة الفضاء ، فهى تبعد الآن عن الارض اكثر من ٣٢٠ الف كيلو متر ومن ثم فان أسئلة « ماسون » تستغرق اكثر من ثانية لتسافر من السفينة الى الارض ، وتستغرق ثانية أخرى لعودة الردود الى السفينة ثانية .. وقد ذكرت هاتان الثانيتان من الصمت ماسون أنه بعيد جدا عن الوطن ..

وبعد ٥٠ ساعة من انطلاق السفينة من الجزيرة المرجانية بالباسيفيكى ، تبين من مؤشر تحديد الموقع أن سفينة الفضاء اجتازت الخط الحيادى بين المجال المغناطيسى للارض ومجال القمر

المغناطيسى . وفى اندفاع السفينـــة الى أعلى ضد قوة الجاذبيةالارضية ، كانت تفقد بعض سرعتها ــ وهى ٤٠ ألف كيلومتر فى الساعة ــ باستمرار

وفىهذا الخط الحيادى الذىيقع على مسافة حوالى تسعة أعشار الطريق الى القمر ، كانت السـفينة تسـير بسرعة الطائرة النفـــاثة العادية ــ حوالى ١٦٠٠ كيلومتر فى الساعة ــ

ولكنها الآن سوف تبدأ فىالهبوط نحو القمر الذى لا يزال على مســافة ٣٨ ألف كيلومتر .

الآن سيبدأ الامتحان الاكبر ... لن يكون هناك نوم خلال الســاعات العشر الباقيـــة ، ولما لم يكن هناك غلاف جوى يمكن ابطاء السرعةفيه ، فان السفينة سوف تندفع نحو القمر بسرعة تبلغ ٩٥٠٠ كيلومتر فىالساعة اذا لم يعملا على ابطاء السقوط بقوة الصواريخ .

وأدار ماسون السفينة حولنفسها ببطء ، حتى أصبحت تتجه نحـــو القمروذيلها الىالامام ، وربط الرجلان نفسيهما فى المقعـدين المستديرين .

وبينما كان كارتر يختبر جهـاز عدة الهبوط ، قام جهاز قياس الارتفـــاع بموجات الرادار بادارة المحـــركات الصاروخية التى أخذت تبطىء حركة سقوط السفينة .

***

كان ماســـــون وهو مستلق على مقعده يرقب الارض المليئة بالفوهات البركانية وهىتقتربنحوهما بسرعة، وتظهر على شاشةتليفزيونالسفينة ، وبادارة مقبضين خاصين للضغط ، جعل شعرتين متقاطعتين تحيطـــان بالبقعة المختارة من قبـــل للهبوط ،

● اناصابةالقمر مهمة صعبةللغاية ، فهو يقع على مسافة ٣٨٤٥٠٠ كيلومتر من الارض وينطلق فى الفضـــاء بسرعة ٣٧٠٠ كيلو متر فى الساعة فاذا أطلقنـا القذيفـة عليه مباشرة فســوف تتجاوز نقطة التصويب بحوالى ٢٢٥٠٠٠ كيلومتر عندما تصل السفينة الى هناك . والاسوأ منذلك ، اننا لانطلق الصاروخ من موقع ثابت، بل من كرة أرضية تدور فىالفضاء بسرعة١٧٠٧ الاف كيلومتر فىالساعة . تلف حول محـــورها بسرعة ١٦٠٠ كم فى الساعة (عند خط الاستواء) ومن ثم فانه لكى نصيب القمر . علينا أن نضبط سرعتنا بدقة ، ولا نطلق السفينة حيث يكون القمر ساعة اطلاقها، بل حيث يكون بعدذلك باحدى وستين ساعة ونحن نطلق الصاروخ منالغرب الىالشرق حولالارض، بحيث أن السفينة تحصل علىأقصى قوة دافعة من دوران الارض منالغرب الىالشرق

ولما كان القمر أصغركثيرا من الارض فانقوة جاذبيته أصغر منها كثيرا ، ومن ثم فان السفينة سوف تنطلق الى اعلى ضد قوةالجاذبيةالارضية وتزداد سرعتها بطئا حتى تصبح على بعد تسعة اعشار المسافة الى القمر وتسير عندئذ بسرعة ١٦٠٠ كيلو متر فى الساعة. فاذا تجاوزت هذهالنقطة من حياد الجاذبية، فانها ستبدأ فىالسقوط نحو القمر ، الذى يكون على مسافة ٣٨٠٠٠ كيلومتر من هذه النقطة . وتزداد بعد ذلك سرعة سقوطها باطراد .

وهى فوهة بركانية غير عميقـة تقع على مقربة من القطب الشمالى للقمر، حيث الحرارة معتدلة بسبب ارتفاع الشمس المنخفض .

وعندما كانت السفينة على مسافة حوالى ٢٠٠٠ متر من أرض القمـر ، اشار ماسون الى كارتر ، وعنـدئذ امتدت أربع سيقان عنكبوتية الشكل الى أسفل ، وتبعتها سـاق خامسة وسطى انزلت من خلال أنبوبة العادم الملتهبة .. وهذه السـاق الوسطى ستكون أول ما يلمس القمر ، وهى عبارة عن وتد متين طوله حوالى أربعة أمتار ونصف متر ، مجهزة بواق من الصدمات . ولم يكن بين علمـاء امريكا من استطاع أن يتنبأ بمـدى صلابة تربة القمر عند نقطة الهبوط بالضبط .

كانوا يقولون أن السفينة قد تسقط على طبقة من الرماد البركانى عمقها متران ، أو على سـطح صلب من أحجار « الخفان » ، ولكن باستخدام الوتد تبين أن الهبـوط يكون أكثر أمنا من ناحيـة ذيل السفينة عندما سقطت على عدد متباين من الأسطح .

وراحت السفينة تستدير بظهرها ببـطء شـديد وكأنهـا تحوم فوق المكان ..

كان كل ما يستطيعه ماسون الآن هو أن ينتظر ويأمل .. ان الصورة التى تبدو على شاشـة التليفزيون كانت مطموسة تماما بسبب غبـار القمر الذى أثارته لفحات الصاروخ .. واحس ماسون بصدمة معتدلة تهز السفينة . كان الوتد يغوص فى الارض ، وبعد ثوان قليلة من التوازن غير المستقر ، استقرت سـفينة الفضاء على سيقانها الاربع البـارزة فوق سطح القمر ..

كان مشهدا مهيبا وان كان موحشا ، ذلك الذى رآه ماسون وهو يدفع الباب الخارجى لغرفة موازنة الضغط الجوى فى السـفينة .. كانت هناك شمس ساطعة تقبع على مقـربة من الافق وسط سماء سوداء كالمخمـل الأسود ترصعها النجوم ، وكانت قمم الجبال تلقى ظلالا سوداء طويلة خالية من كل لون عبر الفوهة البركانية التى هبطت فيها السفينة .. أما الفوهة نفسها فكانت رمادية اللون ، مع قليل من الالوان الكهرمانية أو الحمراء ، تتناثر هنا وهناك ... وفى مواجهـة الشمس تقريبا ، وكذلك قرب الافق ، كان هناك شيء جميـل مثير معلق ، يختلف عن كل ما حوله ... انهـا الاسطوانة المتعـددة الالوان للـكرة

الارضية التى انطلقا منها !

كان حوض الفوهة البركانية التى هبطت فيها السفينة يبدو فى الصور التى التقطت لها من الارض اشبه بهضبة ملساء تماما يحيط بها أخدود جبلى وعر شديد الانحدار ، أما هنا ، فانه يبدو مختلفا تماما .. ففى انحاء الفوهة الواسعة ، كانت هناك مناطق صغيرة ملساء ... كان القاع مغطى بقطع من الصخور من كل حجم وشكل ، وكانت أطراف الفوهة تبدو اقل تأثيرا مما هى فى الصور الفوتوغرافية .. لم تكن عالية أو وعرة كما تخيلها ماسون ، والظلال الطويلة التى تلقيها الشمس المنخفضة قد بالغت فى اظهار الارتفاعات .

وعندما هبط ماسون وكارتر من سلم النزول فى سفينة الفضاء ، عثرا على أول اكتشافاتهما .. كانت التربة ذات مسام وقشور ، كانت كالحمم البركانية الملساء ، والسير فوقها أشبه بالسير فوق جليد تجمدت فوقه طبقة رقيقة من الثلج ، وكانت قشرة التربة تتكسر تحت أقدامهما بصوت يمكن سماعه بسهولة من داخل البدلة المكيفة الضغط التى تحيط بهما على الرغم من أن الفراغ فى الخارج لا يمكن أن ينقل الصوت .

وتحت القشرة الهشة ، وجدت الاحذية الثقيلة موطئا ثابتا . وانحنى ماسون ليلتقط قطعة صخر ، ومع أنها كانت فى حجم البطيخة تقريبا ، فانه لم يشعر بثقلها فى جاذبية القمر الضعيفة .. وثقبها فوجد أنها مجرد قشرة صلبة تحيط بقلب هش مسامى .

كان ماسون وكارتر يتحدثان باستمرار من داخل خوذات الفضاء ، يصفان انطباعاتهما وكل شىء يريانه ويشعران به ، ليسجلها جهاز صغير موضوع داخل ثوبهما لكى تبحث هذه الاشرطة بوساطة العلماء المتلهفين على الارض ، لتجيب على الالغاز التى يتساءل عنها الانسان منذ أن تطلع بعينيه الى السماء .

وبينما كان ماسون يتحدث ، كان يجمع عينات مختارة من الصخور والتراب ويلفها فى قطع من القطن ثم يحزمها داخل أغلفة من البلاستيك لكى تحلل بعد ذلك فى معامل الارض . وقبل أن تنطلق السفينة الصاروخية الى الفضاء بفترة طويلة كان العلماء على الارض قد أعدوا قائمة دقيقة بالمعلومات التى يأملون فى جمعها خلال الايام الخمسة التى سوف يقضيها ماسون وكارتر على سطح القمر .

ان علمـــاء الفلك والجيولوجيـا يريدون قطعا من سـطح القمر لمعرفة أصلها والمـادة التى صنعت منهـا ، وعلمـاء الفلك الطبيعى ، وعلمـاء الاشعة يريدونها لدراسة آثار ملايين السـنين من الاشـعاعات الشمسية والكونية دون هوادة ، والمهندسـون يريدونها لاجراء التجارب عليها ليروا كيف يمكن استخدامها فى البناء على سطح القمر .

وهناك جمـاعة من العلمـاء تريد عينات من الغازات التى دلت الصور المأخوذة من الارض بالتلسكوب على وجودها على سطح القمر ، سواء أكان هناك غلاف جوى أم لا .

وهكذا راح ماســون .وكارتر يتجولان لجمع الغازات داخل أكياس من البلاستيك المفتوحة من أسـفل وادلائها فى الاخاديد والشـقوق ، ثم يقفلانها ويدحرجان الـسكيس باحكام لتركيز الغـاز الى حـد كاف بحيث يمكن سحبه بمضخة الى قوارير من الصلب .

وطوال الايام الاربعة التالية ، ظل الاثنان يتابعان تنفيذ الجـدول الذى أعد لهمـا من قبل بكل دقة .. كانا يأكلان وينامان فى الســفينة ، وكان ماسون يقضى ١٥ دقيقـة مرتين كل يوم فى السفينة لارسال انطباعاتهمـا ومكتشفاتهما باللاسلكى الى محطات الارض المترقبة فى لهفة .

وفى اليـوم الاخير فجرا عددا من الصواريخ الخاصـة فى أرض القمر لدراسة المادة التى صنع منهـا باطن القمر .. وهل هنـاك نواة من مادة منصهرة كتلك التى فى الارض ، أم أن باطن القمر صـلب ؟ وهل هو مجرد تجمعات من صخور متفككة ، أم أن هناك فجوات واسـعة تحت قشرة السطح ؟ .

وأخذ كارتر يقوم بفحص خزانات الوقود وحالة البطـاريات ومفـاتيح الضـغط ، ثم انضم اليـه ماسـون لاعداد أجهزة توجيه السفينة للتأكد من أنها سـوف تنطلق فى الاتجـاه الصحيح نحو الارض بعـد تحليقهـا العمودى .. كان هـذا الاعداد هاما تماما كتحديد وقت الرحيل بدقة ، فان وجهـة السـفينة ليست مجرد كوكب الارض البعيـدة ، بل جزيرة استوائية صغيرة فى وسط الباسفيك ، تدور حول محور الارض مرة كل ٢٤ ساعة .

وكان عليهمـا أن يتأكدا أنهما فى نهاية الرحلة التى تستغرق ٦٠ ساعة فى الفضاء الخارجى ، و٩٠ دقيقة فى

الغلاف الجوى للارض ، سوف يتمكنان من ادارة سفينتهما بطريقة لولبية الى أسفل الى أن يصلا الى مطار الجزيرة بعد وقف القوى المحركة ، اذ أن الوقود القليل الباقى لمحرك المرحلة الخامسة للسفينة كان لايكفى الا للدوران مرة واحدة حول المطار اذا لم يهبطا فوق الممر الارضى فى أول مرة .

***

وعندما حانت ساعة الصفر ، بدأ المحرك الصاروخى فى العمل ، واهتزت السفينة لحظة ، ثم قفزت الى أعلى .. وعلى شاشة التليفزيون رأى ماسون سطح القمر وهو يغوص ببطء ، فقال فى مكبر الصوت :

ـ لقد انطلقت السفينة .

وعلى مسافة ٣٨٤٥٠٠ كيلومتر على سطح الارض ، كان ملايين المستمعين تتصاعد أنفاسهم فى تلك اللحظة ..

وعندما احترق صاروخ المرحلة الرابعة ، كانت السفينة على ارتفاع ٦٩ كيلو مترا فقط من سطح القمر . وعلى مسافة ١٩٥ كيلو مترا من نقطة الانطلاق فى خط أفقى تقريبا من سطح القمر .. وبلغت سرعة السفينة ٩٤١٥ كيلو مترا فى الساعة أى حوالى سرعة الصواريخ متوسطة المدى ، وهى سرعة لا تكفى للخروج من مجال جاذبية القمر رغم ضعفها .

وبعد عشر ساعات ، عبرت سفينة الفضاء مرة أخرى الخط الحيادى الذى تتعادل عنده قوى الجاذبية الارضية والقمرية ، وعندما بدأت جاذبية الارض القوية فى اجتذاب السفينة ، ازدادت سرعتها ، وفى خلال الخمسين ساعة التالية ، ارتفعت السرعة الى ٤٠ ألف كيلو متر فى الساعة بدون استخدام أية قوة صاروخية .

أما فترة الامتحان الرهيب ، فسوف تحل فى نهاية هذه الخمسين ساعة .. وهى التخلص من السرعة الهائلة التى تسير بها السفينة ، دون أن تحترق فى غلاف الارض الجوى .

كان ماسون على اتصال مستمر باللاسلكى مع المحطات الارضية ، وقد انهمك هو وكارتر فى تحديد طريق عودة السفينة بكل دقة ، مستعينين بكل المعلومات التى أمكن الحصول عليها .. وكان يبدو أنهما سوف يهبطان فى مكان أبعد قليلا من المكان المقرر لهما ، وهذا يعنى أن قوة الجاذبية الارضية التى تزداد باطراد سوف تجعل طريق وصولهما ينحنى

بشدة حول الارض ، ولما كانت اكثر النقط انخفاضا تقع خارج الغلاف الجوى ، فان السفينة سوف تندفع نحو الكرة الارضية وتدور حولها ، ثم تنطلق نحو مدار القمر مرة أخرى .. ولكن القمر سيكون عندئذ فى مكان آخر ، فتنطلق بهما بعيدا وبعيدا الى أن يتركا مجال الارض المغناطيسى ، وتصبح السفينة كوكبا صناعيا للشمس !

كانت المشكلة الآن هى القيام بمناورة لتصحيح الموقف بحيث تلمس السفينة الغلاف الجوى للارض على ارتفاع ٥٥ كيلومترا فوق سطح البحر .

وقبل وصول السفينة الى الغلاف الجوى للارض بثلاث ساعات ، كانت كل مقتضيات مناورة التصويب قد تمت ، وان كان متوقعا أن تكون قصيرة قاسية ، لانها سوف تتطلب زيادة مفاجئة فى السرعة خلال لحظة قصيرة .. وتمت العملية بنجاح ، وأصبح اهتمام ماسون الآن موجها الى التقارير الخاصة بالجو .. ولكن هذه التقارير كانت تبدو غير طيبة ..

ان أول اتصال لهما بالغلاف الجوى للارض ستكون سرعة السفينة فيه تعادل أكثر من ٢٥ ضعفا لسرعة الصوت ، ولكن عندما خفضت هذه السرعة الى سرعة طائرة نفاثة ، كان عليهما أن يهبطا المسافة الباقية وقدرها ٩٠٠٠ متر بسرعة أقل من سرعة الصوت ، ثم يهبطا فى النهاية فوق ممر أرضى طوله ١٥٠٠ متر فى منتصف المحيط الباسيفيكى دون الاستعانة بأية قوة محركة .. وتقول التقارير الجوية أن الجزيرة التى سيهبطان فيها تغمر سماءها سحب ، وان مدى الرؤية فيها لا يزيد على ٨٠٠ متر .

وقلب ماسون السفينة ، بحيث اصبحا ينطلقان بها راسا على عقب ، وفى ظروف انعدام الوزن التى كانت لا تزال سائدة ، لم يغير هذا الانقلاب شيئا من الامور فى السفينة .. وفوق رأسه ، شاهد ماسون من بين السحب ، أرخبيل الجزر الاندونيسية ، وبعد دقائق قليلة ، رأى جزيرة غينيا الجديدة التى تشبه العصفور ، وأشار جهاز الارتفاع الى أن السفينة تسير على ارتفاع ١١٠ كيلومترات من الارض ، ولكن هذا الارتفاع كان يقل بمعدل ثلاثة كيلومترات فى الدقيقة .

وجذب ماسون عجلة القيادة من لوحة الآلات ، وهى تشبه جهاز القيادة فى الطائرة ، وأخذ يختبر أجهزة

القيادة بصفة مستمرة .. وبعد دقيقة، سمع صوتا كالفحيح فى ارجاء السفينة ، وفى نفس الوقت ارتفعت مؤشرات مقياس الحرارة ..

وعندما بدت امامه جزر « جالاباجوس » كان مقياس السرعة يدل على ٤٠٤١٠ كيلومترات فى الساعة، ومقياس الارتفاع ٥٦ كيلو مترا .

وفى الوقت الذى كانت السفينة تنطلق فيه فوق امريكا الجنوبية ، ورأساهما لايزالان الى أسفل ، بلغت حرارة الجناح ١٠٩٣ درجة مئوية ، ولكن ماسون ظل محتفظا بنفس الارتفاع طوال الطريق عبر الاطلنطى، وكانت السفينة تفقد سرعتها باطراد طوال الوقت .. وفوق الساحل الغربى لافريقيا ، غربت الشمس من خلفهما ، وبعد اقل من ٣٠ دقيقة ، شاهداها تبرز مرة اخرى من الشرق ..

وعلى ارتفاع ٩٠٠٠ متر فوق القاعدة التى انطلقا منها مباشرة ، اصبحت سرعتهما اقل من سرعة الصوت .. وكانا لا يزالان فوق السحب عندما انزل ماسون عدة الهبوط وجناحى السفينة .. وعلى ارتفاع ٦٠٠٠ متر، نزل بين السحب . وعندما خرج من الغيوم ، كان قد اصبح فوق الجزيرة الاستوائية فعلا، وكان الممر الارضى لمطارهما على مسافة ٨٠٠ متر امامهما .. وبعد لحظات ، توقفت السفينة فوق ارض الممر ، وسرعان ما هرعت اليهما أسراب من السيارات تعبر ارض المطار .. وفى خلال دقيقة واحدة ، كانت الجماهير تحيط بالسفينة هاتفة محيية .

ونظر ماسون الى كارتر وقال له يبدو أن الناس على سطح هذا الكوكب مجانين !

زوجة العم سام

كانت نانى لا تعرف كيف تقرا او تكتب ، ولكنها كانت تتمتع بروح مسرحية جميلة ، وطريقة لفهم كل موقف ولو استخدمت امامها عبارات تفوق مداركها .

وقد ظل مكتب الخدمة الاجتماعية فى بلدتنا يجاهد شهورا طويلة حتى اثبت استحقاقها للحصول على معاش بصفتها ارملة احد المحاربين القدماء .. واخيرا تلقت نانى شيكا بمبلغ ضخم عن الشهور السابقة كلها .

وذهبت يوما لازورها ، حتى ابين لها أن هذا المعاش لن يستمر الا اذا ظلت بلا زواج .. وعندئذ قالت نانى فى تاكيد :

ــ لا تخش شيئا يا عزيزى .. فانا الآن متزوجة من العم سام !

كتاب الشهر

أوفى الأصدقاء



عن كتـــاب

ON MAN AND HIS DOG

بقـــلم

أنتونى ريتشارد سون

كان « انتيس » كلب حرب بكل ما فى هذه الكلمة من معان .. لقد ولد فى ساحة احدى المعارك فى الحرب العالمية الثانية ، وتم تعميده وســـط القذائف المتساقطة فى خلال أسبوع واحد من مولده ، وواجه بعد ذلك من المعارك أكثر مما واجهه كثير من المحاربين المخضرمين ، وانقذ الكثير من الارواح البشرية .. وكان أول كلب غير بريطانى يفوز بأرفع الاوسمة البريطانية لعالم الحيوان .

كان انتيس بطلا عظيما ، ولكنه كان بالنسبة لصاحبه مجرد صديق مخلص لامثيل له ! ..

دوى صوت يصم الآذان ، وتبعه هدير عنيف ساحق .. كان الصوت رهيبا مروعا اهتز له كلب الرعاة الالمانى الصغير فى هلع ، فكافح لينهض على قدميه ، ولكنه سقط على وجهه لا حول له ولا قوة بعد أن أطلق صيحة مرتعشة .. كان الجوع قد أضعفه فلم يعد يستطيع الوقوف

كان البيت الريفى الذى يقيم فيه وسط مزرعة تقع فى الارض الحرام بين خطى « ماجينو » و «سيجفريد» كان اليوم هو ١٢ فبراير ١٩٤٠ ، وقبل ذلك بأيام قلائل ، هدمت قذائف المدفعية جدران البيت ، وقتلت أم الكلب الرضيع واخوته الصغار ، ودفعت الاسرة التى تقيم فى المزرعة الى الفرار .. وظل الجرو الصغير وحيدا فى المطبخ المتهدم ، يترنح كلما تكرر ضرب القنابل

ولكن دوى الانفجار الاخير لم يكن منبعثا من طلقة مدفع ، بل كان صوت سقوط طائرة استكشاف كانت تحلق على ارتفاع قليل ، تبعه انفجار البنزين وزمجرة اللهب . وبعد دقائق قليلة خرج من الطائرة أثنان من طيارى الاستطلاع الفرنسيين أسعدهم الحظ بالبقاء أحياء .. وشاهدا انقاض البيت الريفى ، ولما كان الطيار « بيير دوفال » قد أصيب برصاصة فى ساقه ، فقد اضطر زميله المدفعى جان بوزويتش الى التقدم الى الامام لاستطلاع الامر ..

وما كاد يدلف من باب المطبخ المتداعى وقد أمسك مسدسه فى يده ، حتى سمع صوت تنفس سريع ، فصاح وهو يصوب مسدسه نحو بعض الانقاض التى أثارت شكوكه :

ـ أرفع يديك واخرج

ولكنه لم يسمع ردا .. فتقدم نحو الانقاض وضربات قلبه تدق بسرعة ، ومالبث أن قهقه ضاحكا ..

وفى تلك اللحظة وصل بيير وهو يعرج بساقه المصابة التى يتساقط منها الدم ، وسأله فى لهفة :

ـ ماذا حدث ؟

فقال جان :

ـ لقد أسرت المانيا .

ومد يده بين الانقاض المكدسة فأخرج جروا صغيرا أسمر اللون من كلاب الرعاة الالمانية ، ومع أن الحيوان الصغير كان يرتعد خوفا ، فقد كشف عن أسنانه الصغيرة وزمجر فى تحد ، وكاد يعقر يده

وقال جان وهو يضربه على أذنيه الصغيرتين برفق :

ـ لقد نجوت من الاعدام .. فقد كنت على وشك أن أطلق عليك النار وكأنما اطمأن الجرو الى جان ، فاستكان بين ذراعيه فى استرخاء

كان الضباب يغمر المنطقة على ارتفاع منخفض ، وهو الذى حمى الطيارين الساقطين من عيون الالمان حتى تلك اللحظة ، ولكن هذا الضباب قد يتبدد فى أية لحظة ، ومن ثم

فليس من الحكمة محاولة السير نحو الخطوط الفرنسية قبل حلول الليل وهكذا جلس الاثنان ينتظران

واستراح بيير الجريح فى مقعد كبير واغلق عينيه ، بينما أخرج جان نصيبه من الشيكولاته وقدم قطعة منها للكلب الصغير بعد أن اذابها فوق لهيب شمعة صغيرة ودلك بها أصابعه .. وعندئذ بدأ الجرو يلعق أصابع الطيار فى غبطة وسعادة ، ثم ربض بين ذراعيه ، وأسلم عينيه للنوم ..

وبسط جان باحدى يديه خريطة صغيرة وراح يدرسها ، فرأى أن هناك غابة على مسافة ١٥٠٠ متر اذا أمكنهما بلوغها أصبحا فى أرض فرنسية .. وفى الساعة السادسة مساء ، أيقظ جان زميله بيير قائلا :

ــ لقد حل الظلام ، ومن الافضل ان نبدأ السير الآن

وتطلع الاثنان الى الجرو الصغير لحظة وهو ينام على الارض بهدوء .. لم يكن فى استطاعتهما أخذه اذ قد يكشف أمرهما للعدو ، ومن ثم فقد تركا بعض ما معهما من طعام الى جوار اناء للماء ، وأغلق جان الباب حتى لا يتمكن الجرو من متابعتهما .. ثم تسلل الاثنان الى الخارج . وبينما كانا فى طريقهما الى الغابة ، اذ عاد تبادل نيران المدفعية بين الجانبين ، فراحا يتقدمان ببطء شديد ، زاحفين على أيديهما وركبهما ، وقبل أن ينتقلا مسافة ٣٠ مترا ، اذ انطلقت شعلة متوهجة على مقربة من رأسيهما فأضاءت الارض ، وعندئذ انبطح الرجلان على وجهيهما ، وما كاد الضوء يتبدد ويعود الظلام حتى سمع جان الصوت الذى كان يخشى سماعه .. صوت عواء الجرو الصغير بعد أن اكتشف تخليهما عنه ..

وكان لابد من اسكات الحيوان بأى ثمن .. وتحسس جان سكينه ثم أشار الى زميله أن يبقى فى مكانه ساكنا ، وزحف هو عائدا الى المنزل ، حتى اذا اقترب منه وجده يحاول الخروج عبثا وهو يخدش الباب بمخالبه الصغيرة ..

والتقت عينا جان بعينى الكلب وجها لوجه .. فأدار وجهه ..

كان قتل الكلب بسكين أمرا لايمكنه التفكير فيه .. فاخذ يبحث عن عصا غليظة تفقد الحيوان وعيه فلم يجد .. وفكر فى زميله الراقد فى الظلام والدماء تنزف من جرحه فاستولى عليه الهلع .. لابد أن يسرع فى العودة اليه ، ثم سمع نحيبا محزنا من الناحية الاخرى لباب المطبخ ،

فتبخرت البقية الباقية من عزيمته ، ومد يده فى الظلام فأمسك الجرو ودسه فى طيات سترته الرسمية !

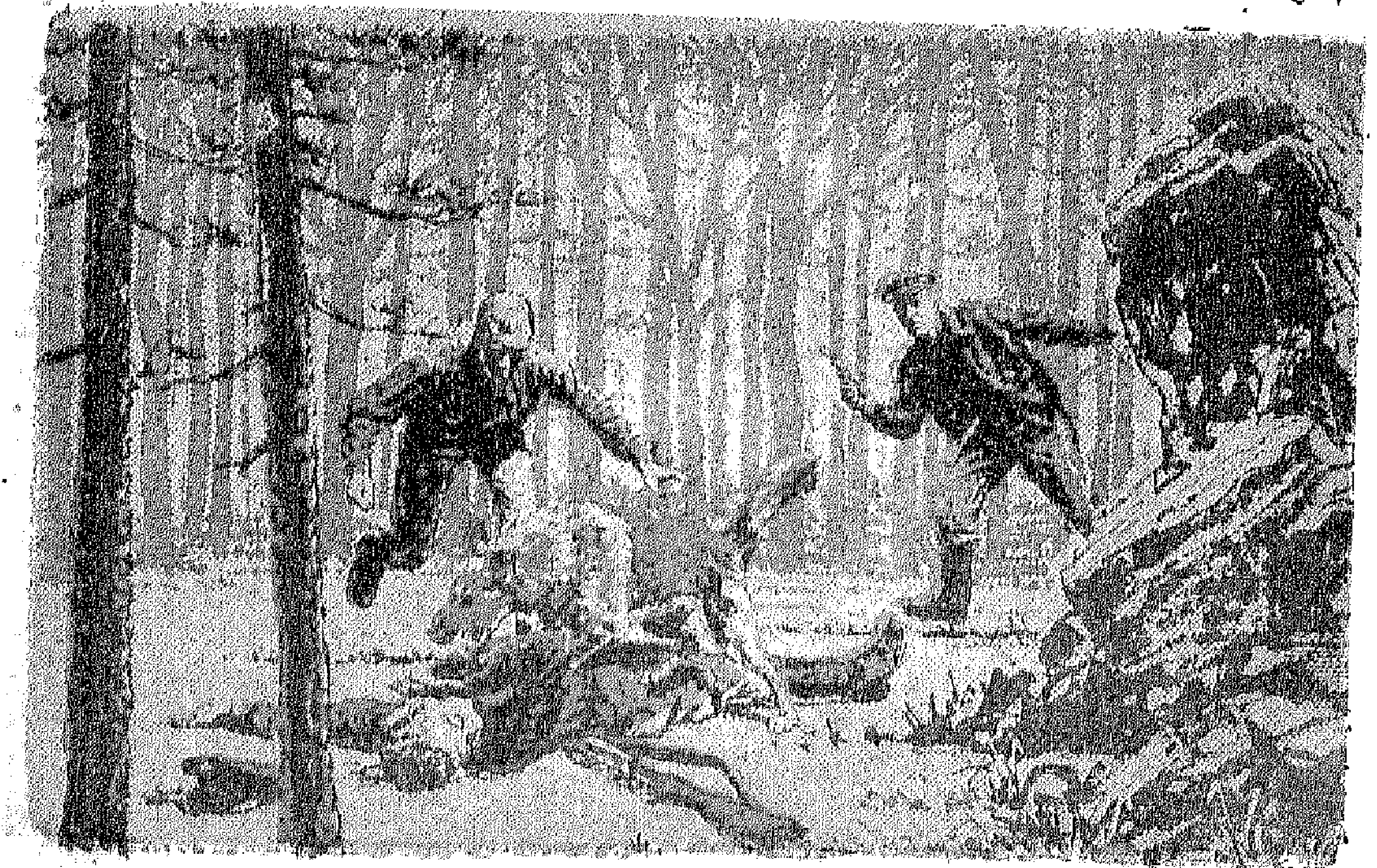
تعويذة للمبعدين التشيكوسلوفاكيين

ومضت سبع ساعات مليئة بالعذاب حتى بلغ الرجلان اطراف الغابة التى يحتميان بها وكان بيير قد نال منه الضعف بسبب دمائه التى تنزف ، كما أصيب جان بانهيار شديد ، وطوال تلك المحنة ، لم ينبس الكلب الصغير ببنت شفة .. ولكنه بدأ الآن يئن برغم أنفه ، وايقظ الصوت جان من شبه الغيبوبة التى أصابته ، فغمغم قائلا : أصمت

وقال بيير : أســـتمع .. انه يسمع شيئا لا نسمعه نحن ..

وما لبثا ان سمعا صوت أغصان تتحطم كأنها طلقات مسدس وسط سكون الظلام وبرز من وراء الاشجار ستة أشباح ، فقفز جان على قدميه وقد امسك الكلب باحدى يديه ومد مسدسه بالاخرى .. ولكن ثياب جنود المشاة الفرنسيين بدت على ضوء القمر فأدرك انهما بلغا بر الامان

وحمل اثنان من الجنود بيير الى اقـــرب حصن بعـد أن صنعا من معطفيهما وبنادقهما محفة لنقله .. وفى اليوم التالى أرسلوه الى المستشفى بينما عاد جان التشيكى الى قاعدة سربه الجوى فى « سان ديزييه » وهو



يتأبط كلبه الصغير

كان هناك سبعة من الشباب التشيكى المبعدين عن بلادهم وكانوا جميعا أعضاء فى السلاح الجوى قبل أن يغزو هتلر بلادهم ، ثم هربوا عن طريق بولندا ، وانضموا الى الفرقة الاجنبية فى أفريقيا ، ثم التحقوا بعد ذلك بالسلاح الجوى الفرنسى ليقاتلوا الالمان بأى ثمن . ولعل شعورهم بالتشريد هو الذى جعلهم يتأثرون سريعا بالجرو الصغير ، فأحبوه على الفور ، وقرروا أن يتبنوه ليجعلوا منه تعويذة تجلب لهم الحظ .. واطلقوا عليه اسم « أنتيس » تيمنا باسم قاذفات القنابل التى كانوا يأملون فى استخدامها عند عودتهم الى وطنهم ..

كان أنتيس ينام فى الليل تحت أقدام جان ، وعلى مر الاسابيع ، أخذ ينمو ويترعرع وكان حاد الذكاء سريع الالتقاط للمعلومات ، فتعلم كيف يصافح أيدى أصدقائه ، ولايدرى أحد مدى ادراكه لهذا العمل كرمز للاتحاد ولكن الايام كانت كفيلة باختبار مدى اخلاصه لهؤلاء الرجال الذين قدر له أن يخوض معهم الكثير من المتاعب

الكل للواحد .. والواحد للكل

ذاقت فرنسا طعم الهزيمة المرير عندما انطلقت جحافل هتلر المدرعة جنوبا بسرعة لا تصدق ، محطمة روح الفرنسيين المعنوية ، واخذ السرب الجوى يهرب من مطار الى آخر ، حتى اليوم الذى سقطت فيه باريس حيث اجتمع للمرة الاخيرة ، وقال لهم قائدهم : أيها السادة . لقد حلت ساعة الافتراق ، وأصبح كل رجل مسئولا عن نفسه . فليساعدكم الله

وعقد التشيكيون السبعة مجلسا .. وقال أصغرهم سنا ويدعى فلاستا :

ــ لقد جئنا الى هنا لنقاتل لا لنهرب .. اننى أقترح أن نتحد معا وأن نحاول الوصول الى انجلترا لنواصل القتال من هناك

ولم يعترض أحد على هذا الاقتراح .. وفى خلال ١٥ دقيقة ، كان السبعة قد كدسوا كل ما يمتلكون فى عربة عتيقة ، وانضموا الى ركب اللاجئين المتدفقين جنوبا بينما قبع (أنتيس) فوق حقائبهم .. وبعد أسبوعين ، وجدوا أنفسهم فى ميناء « سيت » الصغير الذى يقع على البحر المتوسط ، ومن هناك شقوا طريقهم نحو قاعدة جبل طارق البريطانية

وبعد أن اطمأن الانجليز الى أوراق

الطيارين التشيكيين ، الحقوهم جميعا بالسلاح الجوى البريطانى ، وأمروهم بالسفر الى ليفربول على ظهر سفينة صيد تسمى (نورثمان) وكانت هناك مشكلة صغيرة ، اذ لم يكن مسموحا بنقل الكلاب فوق السفينة ، لكن احد الطيارين استطاع أن يهرب «أنتيس» فى طيات معطفه ، ثم وضعه سرا فى مخزن الفحم على ظهر السفينة ..

وما كادوا يمضون يوما واحدا فى البحر ، حتى توقفت آلات السفينة ، وصدر الامر لركابها بالانتقال الى سفينة أخرى .. ومرة أخرى حاول الطيارون التشيكيون أن يهربوا الكلب الى ظهر السفينة الجديدة ، ولكن ضابطا بريطانيا لمح رأس الكلب يبرز من احدى الحقائب ، وأحسوا بخيبة أمل شديدة ، ولكن الرجل كان انسانا نبيلا ، اذ قال لهم :

ـ أخرجوا هذا المتسول المسكين والا خنقتموه ..

وسمح لهم باخفاء الكلب حتى لا يراه الربان ..

وتمت بقية الرحلة فى سلام ، ولكنهم ما ان أقتربوا من ليفربول ، حتى سمع الطيارون أنباء محزنة .. ان كل الحيوانات يجب أن توضع فى الحجر الصحى بالميناء لمدة ستة أشهر ، والحيوانات التى لا يدفع أصحابها رسوم اقامتها وطعامها طوال هذه المدة سوف تعدم ..

كانت النقود التى معهم جميعا لا تكفى ثمنا لاقامة أنتيس ثلاثة أسابيع فى الحجر الصحى .. ولكن هؤلاء الرجال كانوا واسعى الحيلة ، وقد عالجوا مشاكل أعقد من هذه المشكلة ..

وقبل الوصول الى الميناء اخفى جان الكلب فى حقيبة كبيرة من القماش السميك وتكاتف الطيارون فى خداع رجال البوليس البريطانى حتى استطاعوا اخراج أنتيس من منطقة الميناء ، والذهاب به الى أول معسكر لهم فى بريطانيا .. وكان ذلك فى يوم ١٢ يوليو ١٩٤٠

أنتيس يطلق الانذار

تعتبر العودة الى مدرسة الطيران أمرا ثقيلا على النفس بالنسبة للرجال الذين مارسوا القتال من قبل فى الجو ، ولهذا فان الطيارين التشيكيين كانوا أثناء وجودهم فى محطة كوسفورد ثم فى « داكسفورد » التابعتين لسلاح الطيران البريطانى يرحبون بالغارات الالمانية المتواصلة التى كانت تقطع عليهم دراساتهم

الروتينية .

وقد كرس جان أوقات فراغه لتدريب أنتيس ، ومع أنه لم يكن خبيرا فى الكلاب ، فقد كان يعامل أنتيس كأنه مخلوق بشرى ، واستجاب له الكلب باخلاص وطاعة عظيمين وسرعان ما تعلم بذكائه كل التعليمات وتلبية الاوامر ، وكان يغلق الابواب اذا طلب منه ذلك ، ويحضر قفازات جان عندما يراه يرتدى ثيابه استعدادا للخروج وبينما كان جان يتلقى دروسه ، كان أنتيس يبقى مع الجنود المكلفين بصيانة الاسلحة وتوزيعها ، وقد أكتسب خبرة فى اكتشاف طائرات العدو حتى انه كان يسبق أجهزة الانذار فى القاعدة الجوية بدقائق ، اذ كانت الاجهزة لا تعمل الا اذا كانت الطائرات تحلق على أرتفاع عال ، أما اذا اتت الطائرات على مستوى منخفض فان الاجهزة كانت لا فائدة منها ، وعندئذ كان أنتيس يتولى تحذير الجنود للالتجاء الى المخبأ فى الوقت المناسب

وفى ذلك الخريف ، عندما نقل الطيارون التشيك الى مطار «سبيك» على مسافة ٨ كيلو مترات من ليفربول اصبحت لمواهب أنتيس العجيبة أهمية بالغة ، اذ كانت ليفربول هدفا كبيرا لغارات جوية شاملة ، وكان تحذير انتيس دقيقا الى حد أن الرجال أصبحوا يعتمدون عليه فى تحذيرهم كلما اصبحت المنطقة مهددة بغارة جوية

بين الانقاض

فى ذات ليلة بينما كان جان وفلاستا عائدين من أجازة قصيرة بالبلدة ، أخذ الكلب يئن عندما اقتربا من طريق كبير يقع تحت قنطرة « سبيك » وكان الجو فوق ليفربول تغمره الاضواء الكاشفة ، والافق ممتلىء بالقنابل المتفجرة ، ومع ذلك فان صفارة الانذار لم تكن قد أطلقت بعد .. وعندما أزداد أنين الكلب ، قال جان :

ـ لابد أن الطائرات متجهة نحو هذا الطريق هيا نختبىء تحت هذه الاقواس التى تغطى الطريق .

وعلى الفور سمعا صوت محركات طائرات تقترب ، ثم دوى صوت انفجار القنبلة الاولى بينماكان يلقيان بنفسيهما تحت القنطرة .. وأخذت الانفجارات تتوالى ، ثم سقطت احدى الدعامات الحديدية فتحطم الرصيف الصخرى ، واهتزت جدران المبانى على جانبى الطريق ، وما لبثت كلها أن أصبحت انقاضا .. وتبع ذلك

صمت طويل قطعه صراخ شخص من تحت الانقاض ، فصاح فلاستا :

ـ هيا بنا .. يجب أن نخرجهم من الانقاض

وهرعوا نحـو الطـريق المهدم ، فاصطدموا برجل تنبثق الدماء من ذراعه الممزقة ، وقال صائحا :

ـ أنقذوها .. انها هنـاك تحت الانقاض ، حيث كنـا نجلس لتناول الشاى !

وضاع صوت الرجل وجلس على الرصيف يمزق قميصه وهو يبكى .

ووضع أحد عمال الانقاذ معولا فى يدى جان ، بينما أخـذ « أنتيس » يقفز فى اتجاه البقايا المحطمة لدولاب المطبخ ، وقـد دس مخالبه الامامية وسط قطع الصينى المحطمـة ، ثم أخذ يعوى .. وتطلع جان هناك ، فرأى أصابع تتحرك بين الانقاض ، فراح يحفـر بسرعة حتى عثر على امرأة تنزف منها الدماء .

وقال عامل الانقاذ :

ـ أنه كلب جيد احضره هنا . لابدأن هناك آخرين . يالها من مجزرة !

وتبع جان الرجل نحو كومة من الجير ينبعث منها الدخان وحولها أثاث محطم وأمر الكلب بالبحث فيهـا .. وسـار أنتيس فوق الكومة ثم توقف فى منتصفها وراح يشم بانفه ، وعندئذ أخذ أحـد الطيارين فى الحفر فى تلك المنطقة ، وفى خـلال دقائق كان



قد أخـرج رجلا مدفونا بأكمله بين الانقاض وقد فقد وعيه .

وقال عامل الانقـاذ :

لم أر كلبا مدربا لمثل هذا العمل من قبل .

فقال فلاستا :

ـ أنه ليس مدربا .. ولـكنه كلب جيد فقط ..

وواصلوا العمـل حتى الثـانية صباحا ، وعندما قـرر رئيس فرقة الانقاذ انتهاءالعمل ، كان شعر الكلب قد أصبحملبدا بالقاذورات ، وجرحت مخالبه ونزفت منها الدماء .

وقال فلاستا :

ـ لم يعد هناك مايمكن عمله هنا هيا بنا نعد للعناية بالكلب .

ولكن انتيس كان لايزال يواصل جهوده .. اذ جذب جان نحو حائط متداعى . فقال له جان :

ـ كفى يابنى .. لم يعـد هناك أحد تحت الانقاض .

ولكنه لم يكد يتم عبارته ، حتى انهار الحائط ، وأحس بزمام الكلب يهتز فى يده .. فصاح فى صـوت يصم الآذان :

أنتيس ! .. انتيس !

ـ وصوب فلاستا ضوء مصباحه اليدوى نحو المكان الذى كان فيـه الحائط المتهدم . كانت هناك أكداس من الحجارة والاخشاب تبلغ ارتفاع الرأس .. وعلى الفور ركع جان على ركبتيه واخذ يلقى بقطع الحجارة فى كل اتجـاه وهو ينـادى الكلب فى هستيرية ، وسمع ردا على ندائه نباحا خافتا من مكان ما وراء الانقاض .. وسرعان ماشق الرجـال طريقهم الى غرفة صغيرة مدفونة تحت الانقاض .. كانت هناك سيدة مستلقية على ظهرها تحت كتلة من المصيص .. وقد فقـدت حياتها .. أما انتيس فكان يقف الى جوار طفل صـغير لايزال حيا ..

وبلغ من تأثر رئيس فريق الانقاذ انه قال لانتيس :

ـ هل تعـلم يابنى اننـا لم نكن نستطيع القيام بهذا العمل بدونك !

السهر الطويل

فى أوائل يناير ١٩٤١ ، كان جان وستيكا وجـوزيف قد أتموا دروس الطيران وساعات التدريب ، والتحقوا بالسرب رقم ٣١١ لقاذفات القنابل ونقلوا الى قاعدة « ايست ريثام » للاشتراك فى القتـال ، وقد جمعتهم هذه الحـركة مرة أخرى بمواطنيهم التشيكيين الذين كانوا يتدربون فى مناطق أخرى .. وأتيحت لهم أخيرا

فرصة مقاتلة العدو .

ولكن هذا كان يعنى أن على أنتيس أن يعتاد لاول مرة الانفصال عن جان كثيرا .. فقد كانت رحلات القاء القنابل الليلية التى يقوم بها السرب تستمر غالبا من المساء حتى الفجر

وظل أنتيس عدة أسابيع فى حالة نفسية غير طيبة وقد غمرته الكآبة وتوثقت صلته بعمال الصيانة الذين كان معهودا اليهم العناية بالطائرة « سيسليا » التى يعمل عليها سيده جان .

كان أنتيس يصحب جان الى المطار ، ويراه وهو يمتطى الطائرة الكبيرة من طراز (ويلنجتون) ويتجه بعد ذلك نحو خيمة عمال الصيانة التى توجد عند اطراف المطار ، وهناك يربض طوال الليل ساكنا لا يتحرك .. حتى اذا أقبل الفجر ، نهض فجأة وانتصبت أذناه ، وعندئذ يعرف عمال الصيانة أن السرب قد عاد .. وما أن يسمع أنتيس صوت المراوح المعهود للطائرة (سيسليا) حتى يبدأ فى القفز والوثب فى تأثر ، ثم ينطلق ليرقب الطائرات وهى تقبل ، ويرحب بسيده جان ..

كانت هناك الطقوس لا تكاد تتغير قط .. ولكن حدث ذات ليلة من ليالى يونيو بعد أن قام جان بأكثر من عشر رحلات أن لاحظ العمال انحرافا حادا فى روتين الكلب فقد بدأ القلق يستحوذ عليه بعد منتصف الليل بقليل بصورة غير عادية .. فقال أحدهم متسائلا :

ـ ماذاحدث له ؟ أنه يتوقع زائرين ؟

فقال رئيس العمال آدميك : كلا اننى لا أتوقع شيئا الليلة ..

ووجه حديثه الى الكلب قائلا :

ـ تعال هنا يا انتيس واهدأ

ولكن الكلب تجاهل كلماته واتجه نحو طرف الخيمة ثم رفع فمه واطلق زمجرة حادة ، ورقد بعد ذلك فى الخارج وقد رفع رأسه الى أعلى كأنما يستعد لسهرة طويلة .

وفى منتصف الثانية صباحا ظهرت أولى الطائرات العائدة بنورها الذى يكشف عن شخصيتها ، ثم هبطت فوق الممر الارضى ، وتبعتها زميلاتها على فترات منتظمة حتى نزلت كلها ماعدا (سيسليا) .. ومرت ساعتان دون أن يبدو أى أثر لطائرة جان ..

وأخيرا قال أحد الميكانيكيين :

ـ لا أمل هناك ، لابد أن البنزين قد نفد منها الآن . وبعد ١٥ دقيقة أخرى ، قرر الرجال أن ينصرفوا لتناول الافطار .

وقال رئيس العمال للكلب :
ـ هيا معنا يا انتيس
ولكن الكلب لم يتحرك
وفي تلك اللحظة أقبل قائد الجناح جوزيف أوسيلكا بسيارته وكان من المعجبين بانتيس وقد وعد جان بالعناية به اذا لم يعد من احدى رحلاته .. وحاول أخذ الكلب معه ، ولكن الكلب رفض الانتقال من مكانه وقال اداميك :
ـ لا فائدة ياسيدى . انه لن يتحرك حتى يظهر جان .
فقال اوسيلكا :
ـ هيا بنا .. لعله يغير رأيه عندما يعضه الجوع بنابه .
وبعد الافطار عاد اداميك الى الخيمة يحمل طبقا من «الكبدة» ، ولكن انتيس تجاهله ، كما أنه لم يعبأ بالمطر الغزير الذى راح ينهمر فى الخارج .
وعندما أدرك اداميك عبث المحاولة لاقناع الكلب بمصاحبته ، بسط فوقه قطعة كبيرة من المشمع وتركه وانصرف ..
وتبين بعد ذلك ان غرفة العمليات قد تلقت نبأ بأن « سيسليا » قد أصيبت بقذيفة مضادة للطائرات فوق الساحل الهولندى ، ولكنها استطاعت أن تعود الى مطار كولتيشل وقد أصيب واحد فقط من رجالها ، هو المدفعى جان بوزويتش الذى نقل الى مستشفى « نورويتش » لعلاجه من جرح سطحى فى الرأس .
وابتهج الطيارون التشيك بالنبأ الطيب ، ولكن احدا منهم لم يعرف كيف ينقله الى انتيس ، الذى ظل طوال الليلة قابعا فى مكانه . وعندما عاد السرب فى الصباح كالعادة ، نهض من مكانه وانطلق نحوه .. وعندما انقضت ساعة بعد الفجر ولم تظهر أية طائرة ، بدأ يزمجر فى يأس وقنوط .
وقال أوسيلكا :
ـ سوف يموت جوعا اذا ظل كذلك .. علينا أن نفكر فى حل .
وكان الاب بوكنلى قسيس القاعدة الجوية هو الذى توصل الى الحل ، اذ اتصل تليفونيا بالسلطات الطبية فى نورويتش ، وشرح لهم الموقف ، ملتمسا ارسال جان بوزويتش فى سيارة اسعاف ليأخذ الكلب ويعود به الى المستشفى وبعد مشاورات طبية طويلة ، أجابوه الى رجائه .
وبعد الظهر ، أقبلت سيارة الاسعاف ، واجتمع شمل جان وانتيس مرة أخرى وعادا معا الى مستشفى نورويتش ، حيث أصبحا موضع رعاية الممرضات وتدليلهن



حتى شفى جان من جراحه ..

مالا تراه العين

بعد أن ظل أنتيس ينتظره سيده جان خلال ٣٠ رحلة من رحلات الطائرة سيسليا ، ظن كل الطيارين انهم عرفوا عاداته جيداً .. ولكن الكلب مالبث ان اختفى عن العيون ولم يعثر عليه فى أى مكان.. ومع ذلك فان احدا لم يساوره القلق عليه بعد أن اثبت أنتيس مراراأنه يستطيع أن يعنى بنفسه

وعندما كانت الطائرة سيسليا تحلق على ارتفاع ٢٤٠٠ متر ، ألقى جان نظرة أخيرة قلقة على مطار « ريشام » الذى غرق فى الظلام . . ومالبث أن أبعد الكلب عن ذهنه وركز اهتمامه حول مدافعه .. وفجأة سمع جان صوتا يتردد فى جهاز اللاسلكى الداخلى بالطائرة ..

ــ من عامل الدفة الى عامل اللاسلكى .. هل تستطيع سماعى ؟ أننى أكاد أفقد عقلى .. هل ترى ما اراه أنا ؟

كان هناك اضطراب مفاجىء يسود الطائرة .. ثم سمع جان صوتا يقول :

ــ لابد أنه تسلل الى فراش الطوارىء عن طريق انبوبة اسقاط الشعلات المضيئة . لقد نسى البعض أن يفحصها قبل الطيران . جان افتح باب برجك ، فلدينا متسلل على

ظهر الطائرة ..

وأدرك جان على الفور حقيقة ماحدث .. وفتح باب البرج ، وعندئذ زحف انتيس فى هدوء الى برج المدفعى ، واستقر بين قدميه !

وصاح جان :

ـ أيها الوغد .. يجب أن ألقيك مع هذه القنابل !

وواصلت الطائرة مسيرها ، بينما استغرق انتيس فى النوم .. وعندما وصلوا فوق الهدف ، امتلأ الجو بستار كسيف من القذائف المضادة للطائرات ، ولكن الكلب ظل محتفظا بهدوئه ما دام جان هادئا .. ووجد جان نفسه مضطرا للاحتفاظ برباطة جأشه على الرغم من احتدام المعركة ، وهكذا كان كل منهما يستمد الشجاعة من زميله .. وبعد دقائق زال الخطر ، واتجهت الطائرة فى طريق العودة .

ومنذ ذلك الحين ، أصبح انتيس عضوا منتظما من اعضاء هيئة قيادة الطائرة « سيسليا » وكان سلوكه الهادىء وسط النيران محل اعجاب الجميع ، اذ كان يساعد على تخفيف حدة التوتر بين الطيارين .. وكان انتيس يهرع الى الطائرة كلما استعدت للقيام برحلة جديدة ، وكأنه ذاهب فى نزهة ممتعة ، فكان مسلكه هذا يشيع الراحة والهدوء فى نفوس الطيارين الذين أرهقتهم الحرب بعبثها وكوارثها .

وفى احدى الغارات أصيب انتيس بجرحين خلال تأدية الواجب ، كان أولهما عندما مزقت احدى شظايا (شرانبل) أنفه فوق ميناء كييل الالمانى ، وجرحت اذنه اليسرى حتى جعلتها فى حالة ارتخاء دائم .

اما الجرح الثانى ، فقد أنهى حياة انتيس كطيار .. ففى أثناء الهجوم على هانوفر وبينما كانت الطائرة سيسليا تستدير استعدادا للعودة بعد أن أفرغت حمولتها من القنابل اذ انفجرت تحتها مباشرة قنبلة غمرت هيكلها برذاذ من الشظايا .. ولكنها لم تصب المحركات بأذى ، كما أن احدا من الركاب لم ينله ضرر .. ولكنهم عندما وصلوا الى المطار ، تبين أن العجلات أصيبت بخلل فاضطر الطيار الى الهبوط على بطن الطائرة .. واكتشف جان بعد نزوله أن انتيس أصيب فى صدره بشظية قنبلة ، فأسرع به الى المستشفى حيث عولج واحيط الجرح بضمادات

ومنذ ذلك الحين ، منع انتيس من ركوب الطائرة ، وبعد فترة من الوقت

أتم جان القيام باحدى وأربعين رحلة ـ شاركه أنتيس فى سبع منها ـ فأعفى من القيام برحلات أخرى ، وأمضى السنتين الباقيتين من الحرب معلما للطيران أولا ، ثم عضوا فى دورية مضادة للغواصات الى أن انتهت الحرب

سعادة قصيرة

كانت السنوات الاولى من السلام سنوات سعادة وهناء بالنسبة لجان وصديقه انتيس ، فقد عاد الى بلاده بعد أن تحررت من الالمان ، ومنح رتبة كابتن فى السلاح الجوى التشيكى ثم عين فى وزارة الدفاع الوطنى ببراغ وأصبح هو وكلبه من الشخصيات المحبوبة للجمهور ، بعد أن ألف ثلاثة كتب عن خدماته فى السلاح الجوى البريطانى ، كما نشرت الصحف كلها قصصا عن تجاربه فى القتال مع كلبه الذكى .

وتزوج جان من فتاة ذهبية الشعر تدعى « تاتيانا » فكان أنتيس من الشخصيات الهامةفى حفل الزفاف . . كما أصبح من أكثر المخلصين للعروس ولطفلها روبرت الذى أنجبته فى عام ١٩٤٧ ، بل لقد أخذ على عاتقه مهمة رعاية الطفل وحمايته من كل أذى كان يرقد قرب مهده ، فاذا استيقظ الطفل أو بكى ، استرق أنتيس الخطى نحو فراش سيدته ، حيث يضع أنفه البارد على كتف الام العارية ، فاذا لم تستيقظ ، جذب الغطاء عنها !

كانت فترة رائعة بالنسبة للجميع ، ولكنها لم تدم طويلا مع الاسف ..

ففى ٧ يوليو ١٩٤٨ ، اتصل به جان مازاريك وزير خارجية تشيكوسلوفاكيا تليفونيا ، وقال له :

ـ تعال الآن لمقابلتى ... ان عندى هدية لطفلك

وأدرك جان أن هناك شيئا فى الأفق .. لقد كان مع مازاريك فى اليوم السابق ، فلماذا يطلب هذا الصديق الطيب رؤيته مرة أخرى فى تلك الساعة ؟

وعندما التقى بوزير الخارجية ، قال له : انك على رأس القائمة السوداء للشيوعيين يا جان ... ومن الممكن أن تقع الضربة فى أية لحظة ، فأسرع بالخروج من تشيكوسلوفاكيا واحرص على أن تحتفظ بهذا السرلنفسك .. حتى زوجتك يجب ألا تعرفه !

كانت تلك هى هدية ما زاريك للطفل ... لقد كان الشيوعيون فى طريقهم للسيطرة على البلاد .. وبعد ثلاثة أيام لقى مازاريك حتفه ، وقيل أنه ألقى بنفسه من نافذة مكتبه بوزارة

الخارجية ..

كان جان بواجه ورطة مؤلمة .. انه لايستطيع أن يترك زوجته وطفله ، ولكنه اذا اعتقل فانهما سيكونان فى وضع أكثر سوءا مما لو فر من البلاد

وظل مترددا عدة أسابيع ... الى أن استدعى ذات صباح لمقابلة مدير المخابرات ، وعندئذ أدرك أن الأمر خرج من يديه ...

كان يعرف أنه مراقب منذ فترة طويلة ، بسبب المقالات التى كتبها والكتب التى وضعها عن تجاربه خلال الحرب فى بريطانيا ...

وبينما كان يسير فى الطريق وحيدا فى ساعة متأخرة من الليل ، اذ اصطدم برجل كان يعرفه منذ وقت بعيد .. وقال له الرجل ويدعى « برازوا » :

ـ هل أنت فى محنة ؟ الليلة فى الثامنة بقهوة بافلوفا كافارنا ... وكلمة السر هى « هل أقدم لك كأسا من الفودكا ؟ »

وفى تلك الليلة عرف أن هناك هيئة سرية للمقاومة تقوم بتهريب الذين تهددهم السلطات بالاعتقال ، وتلقى التعليمات اللازمة للفرار ..

وأصر جان على أن يصحب معه كلبه عند الرحيل على الرغم من اعتراض أعضاء المقاومة السرية .. وقد تبين فيما بعد أن أنيتس كان له الفضل الاول فى نجاة جان وصحبه عند فرارهم الى ألمانيا الغربية .. ولولاه للقى كل منهم حتفه أو وقع فى الأسر على أقل تقدير ...

السنوات الأخيرة

وفى خلال أسبوع من وصوله الى ألمانيا الغربية ، تلقى أنباء سارة من وطنه ... لقد التقى بلاجىء تشيكى يعرفه ، قال له ان تاتيانا وروبرت يعيشان فى هدوء مع والديها فى الريف ، وأن أحدا لم ينتقم منهما

وسافر جان الى بريطانيا حيث طلب الالتحاق مرة أخرى بالسلاح الجوى البريطانى .. وعند وصوله ، واجهته المشكلة القديمة ، مشكلة الحجر الصحى الذى يجب أن يقضى فيه الكلب ستة أشهر بأجر كبير ... ولما كان مرتبه الجديد ضئيلا ، فقد لجأ الى مستشفى الحيوانات المريضة فى لندن طالبا مساعدته ، بعد أن قدم له تقريرا كاملا عن تاريخ أنتيس وخدماته ..

وكانت استجابة المستشفى للنداء أبعد أثرا مما توقعه ... فانهم لم يتكفلوا فقط بدفع الاجر ، بل نشروا قصة أنتيس على نطاق واسع ، مما أدى الى منحه شرفا لم يسبق له مثيل ،

اذ كان أول كلب غير بريطانى يمنح وسام ديكين وصليب فيكتوريا لعالم الحيوان ••• وأهداه اليه المارشـال ويفل من كبار قادة بريطانيا خلال الحرب ، ولكن أنتيس لم يتمتع طويلا بهذا التكريم ••• اذ أنه ما لبث أن واجه الضعف والمرض مع تقدم السن ، كما ضعف بصره ولم يعد يتحمل الانفصال لحظة واحدة عن سيده المحبوب •• الذى أصبح بالنسبة له كل أسرته ••

وفى ليلة عيد الميلاد من عام ١٩٥٢ استيقظ جان على احساس بثقل غريب يجثم على صدره ••• وعندما فتح عينيه وجد أنتيس وقد وضع رأسه على صدره ••

وأدرك جان أن فى الامر شيئا غير عادى ، فأضاء النور وحمل كلبه الى فراشه وأخذ يدلك ساقيه طوال الليل •• ولكن الكلب ما لبث أن فارق الحياة بين ذراعى سيده وصديقه الأوفى الذى أمضى فى صحبته ١٢ عاما ، كانت بالنسبة لجان دهرا كاملا من السعادة والهناء !



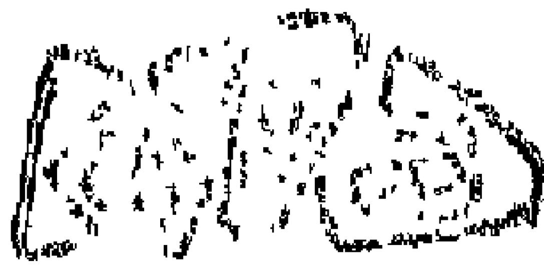
أذواق مختلفة

كان سير ولتر سكوت يتنزه فى يوم من أيام الربيع مع زوجته ليدى سكوت فى منطقة ريفية •• وعندما مرا بحقل ترعى فيه بعض الحملان والنعاج الصغيرة . قال سير ولتر :

ـ لا عجب ان كان شعراء العصور الاولى قد جعلوا من الحمل رمزا للسلام والبراءة ••

فقالت ليدى سكوت مؤمنة على قوله :

ـ انها حيوانات ممتعة حقا .. ولا سيما مع الحساء والنعناع !



منتهى الادب !

كان أحد خطباء الثورة الايرلندية القدماء يبدأ خطبه عادة بهذه الكلمات .

ـ ايها الاصدقاء .. يحق لى ان افخر دائما باننى طوال سنوات كفاحى الوطنى لم انطق قط بكلمة خشنة او عبارة قاسية . حتى عند حديثى عن هؤلاء البريطانيين الطغاة السفلة الرجعيين .. !

كتاب الشهر

الرجل الذى بـاع برج إيفل

الرجل الذي باع برج إيفل

تلخيص كتاب

THE MAN WHO SOLD
THE EIFFEL TOWER

بقلم جيمس جونسون كما قالها لفلويد ميللر

لن تجد بين كل قصص الجريمة مجرما يشبه فيكتور لاتيج ... فقد اتاحت له ترسانته الفريدة من المواهب أن يخدع بوليس قارتين ٢٠ عاما كاملة ، كان يتمتع بلباقة الدبلوماسي ، والغريزة المسرحية لمخرج الاستعراضات ، وأخلاق قرش البحر

وقد قام جيمس جونستون - من رجال الخدمة السرية الامريكية - بدور رئيسي في القضية التي قدمت هذا المجرم الكبير الى العدالة ... وفي هذه القصص العجيبة ، سرد جيمس كل المآسي والمفاجآت التي كانت العناصر الاساسية لهذه الشخصية التي تشبه الاساطير ! ..

كان يبدو أن ذلك المحتال العتيد الذي يطلق على نفسه اسم «الكونت فيكتور لاشيج» الى جانب ٢٣ اسما آخر - يتمتع بحصانة عجيبة ضد القانون ، ومع انه اعتقل ٤٦ مرة ، فان العدالة لم تستطع أن تدينه خلالها مرة واحدة .. فقد كان يعمل وكأنه ساحر مغناطيسي ، يسلب ضحاياه اموالهم واحدا بعد الآخر دون رحمة أو شفقة ، الى ان وضع رجال « الخدمة السرية » الامريكية نهاية لهذا المغامر وانقوا به وراء القضبان ليقضي فيها بقية ايامه.

ولما كنت احد العاملين في هذه المنظمة ، فقد ساهمت في الجهود التي وضعت حدا أخيرا لنشاطه الجهنمي .. ولكننا قبل ان نكلف بمطاردة هذا الرجل بسنوات طويلة ، تطوع هو نفسه باجتذاب انظار « الخدمة السرية » اليه ، وذلك بسبب جريمة احتيال اخرى كان قد دبرها في جو هوليوود المرصع بالنجوم . ونظرا لما في هذه القصة من احداث تكشف عن براعة هذا الرجل ، فمن الافضل ان نسردها منذ البداية ..

منتج برودواى .. النصاب

كانت الحفلة صاخبة تحوى كل ممنوع .. كانت هناك امرأة ترقص رقصة « الشارلستون » فوق بيانو كبير ، وكان الجو عابقا بالدخان الكثيف والثرثرةالفارغة .. ووسط الحشد الكبير الذى يملأ المكان ، كانت هناك ١٢ فتاةجميلة ينقلن بين المدعوين ، وهن يبتسمن ويتكلفن مختلف الاوضاع لعل أحدا من منتجى السينما يراهن فيسند اليهن دورا فى احد افلامه يرفعهن الى المجد .. كان هذا الاجتماع مهرجانا من النوع الوضيع الذى ساد هوليوود فى السنوات التالية لعام ١٩٢٠

ووسط كل هؤلاء المدعوين ، كان هناك رجل واحد يبدو وكأنه غير موجود فى المكان..كان وقور المظهر، متحفظا ، وسيم الوجه ، يرتدى ثوبا انجليزيا يبدو فيه التحفظ . .

ولم تكد تمر فترة قصيرة ، حتى دنا من احدى الفتيات ، وانحنى امامها مقدما نفسه لها باعتباره « الكونت فيكتور لاشيج » .

وما كادت الفتاة تسمع هذا اللقب حتى اتسعت عيناها .. وزاد اتساعهما عندما قدم الرجل نفسه مرة اخرى باعتباره منتجا سينمائيا . .

كانت الفتاة لاتزال فى الثامنة عشرة من عمرها ، لم يسعدها الحظ من قبل بأكثر من دور صغير فى فيلم من افلام الدرجة الثانية ، ولكن الرجل الغريب قال لها انها تبدو ذات مواهب فنية فريدة ، وانه سيجعل منها نجمة سينمائية .. وراحت الفتاة تستمع اليه فى ذهول تام .

ولم تكد تمر فترة طويلة على هذا التعارف ، حتى صحب الفتاة الى هافانا حيث نزلا فى جناح بأحد الفنادق الكبرى .. وكان هذا الجزء مجرد اعداد لمسرح الجريمة ، فقد كان لاشيج فى حاجة الى فتاة حسناء تضفى المزيد من التأثير على دوره كمنتج ، اما الخطوة التالية ، فهى البحث عن ضحية مناسبة .

وراح لاشيج يصحب الفتاة الساذجة وتدعى « استيل سويني » فى نزهات يقوم بها فى آنحاء المدينة، حتى يراهما الجميع ، وسرعان ماعثر لاشيج على أمريكى أشقر الشعر متوسط العمر، رأى فيه ضحية مناسبة للمؤامرة التى يدبرها ولم يكن هناك اسهل من تقديم نفسه اليه . .

كان الامريكى ثريا يدعى « رونالد دودج » يمتلك بعض المزارع ، ويبدو انه تأثر بلقب لاشيج الرائف ، ولكن

تأثره كان اشدعندما علم من الكونت يشتغل بالانتـــاج الفنى .. ! وقال له انه كان من المهتمين بالمسرح طوال حياته .

واخذ دودج يعدد المسرحيات التى ظهر فيها ، والجماعات التمثيلية التى حاول ان ينظمهـــا عبثا فى بلدته .. وختم حديثـــه بقوله انه على الرغم من نجـاحه فى اعماله الاخرى ، فانه فشل فى أن يحقق حلم حياته الاول .. وهو المسرح

واصغى لاشـــيج الى محدثه فى عطف واشفاق ، ثم انهى الحديث فى ادب بعد ان ألهب فضول دودج .. وسرعان ماراح دودج يتابعـــه فى كل انحاء هافانا وهويتلهف الى الجلوس والظهور مع هـــذا المنتج الكبير .. وكان لاشيج يسير فى عمـــله وفقا لخطتـــه المرسومة ، فأخذ يلمح فى احاديثه المغرية الى المسرحية الكبيرة التى ينوى انتاجهـــــا .. حتى اذا نضجت الضحيـــة ، أسر لاشيج الى دودج قائلا ان الشىء الوحيـــد الذى يحول دون اجـراء بروفات الرواية انه لايزال فى حاجة الى ٥٠ الف دولار من مجموع تكاليف الانتاج التى تبلغ ٧٠ ألف دولار

وسرعان ماعرض دودج فى حماسة أن يســـاهم بمبلغ ٣٤ ألف دولار فى انتـــــاج هذه المسرحية .. فتردد لاشيج قليلا ثم قال :

ـ رونالد .. انت صـــديقى ، وانا أكره الحــــديث عن النقود مع الاصـــدقاء ، ولا سيما اذا كان الامر يتعلق بمغامرة خطرة كهذه .. اذ اننا اذا فشلنا فقـــدنا كل مليم انفقناه : وانا بكل صراحة لا انصحك باستثمار نقودك فى أى انتاج مسرحى . ولكن دودج كان قدسقط فعلا فى الشرك .. فأخذ يجادل لاشيج مؤكدا رغبته فى المساهمـــــة فى هذا العمل المسرحى الكبير ، الى أن وافق لاشـــيج على مشاركته ، واتفق الاثنـــــان على ان يزور دودج فى بلدته «بروفيدانس» لتسوية التفاصيل النهائية

وظل دودج ينتظر لاشيج فى بلدته ثلاثة أسابيع ، وما كاد يصل حتى استبد الفرح بدودج .. وفى غرفة الفندق التى نزل بها لاشيج ، قدم الامريكى الساذج الى الكونت الزائف نصيبــــــه فى انتاج المسرحية وقدره ٣٤ الف دولار ، بينما قدم الكونت نصيبـــــه وقدره ٣٦ الف دولار ووضع المبلغين فى حقيبه خاصـــة ، وضعها فى دولاب الغرفة .. ثم اتفق الشريكان على الاحتفال بهذه المناسبة ،

وذلك بشرب كأس في حانة قريبة تبيع خمورا مهربة ! .

وبعد فترة قصيرة جاء احد خدم الفندق يقول ان هنالك مكالمةتليفونية خاصة للاشيج من لندن .. فقال الكونت في سرور :

ـ لعلها خاصة بحقوق الرواية في انجلترا .. سأعود اليك فورا

ومرت ٣٠ دقيقة ، بدأ القلق بعدها يستولي على دودج ، فغادر الحانة الى الفندق ، ولكنهوجد غرفة لاشيج خالية..لا ثياب ، ولا حقائب .. لقد اختفى لاشيج تماما .

واسرع دودج الى البوليس وهو ثائر غاضب ، وكاد البوليس يعتقل لاشيج في محطة السكة الحديد، لولا انه استطاع الفرار في سيارة سرقها من الطريق وانطلق بها الى مونتريال .. وهنالك اختفى بين معارفه من الوسط السفلي .. وبعد فترة قصيرة ، نجح في الفرار علىسفينة شحن الى فرنسا بجواز سفرزائف .

لاشيج يعمل مع الخدمة السرية !

بعد ان امضى « الكونت » فترة في فرنسا ، راح يفكر في كيفية العودة الى امريكا ، التي تعد كنزا بالنسبة لرجل يتمتع بمثل مواهبه .. كان يعرف ان موانى دخولالبلادموضوعة كلها تحت مراقبةدقيقة .. وفي مايو ١٩٢٧ توصل لاشيج الى حل جرئ .. وفي الاسبوع الاول من مايو ، استقل بكل ثقة « السفينة موريتانيا » في طريقه الى نيويورك .

وبينما كانت السفينة في عرض المحيط ، بعث لاشيج برقية لاسلكية الى ادارة « الخدمة السرية » بنيويورك ، قال فيها أن لديه معلومات هامة جدا ، وانه سيصل على موريتانيا يوم الاربعاء .. ووقع البرقية بامضاء « الكونت فيكتور لاشيج » . كان المحتال الذكي يعرف ان «الخدمة السرية » مكلفة بمقتضى القانون بعملين معينين فقط هما : حراسة رئيس الجمهورية ، واعتقال مزيفي النقود . وقد افترض مكتب الخدمة السرية في نيويورك أن لاشيج لديه معلومات عن مؤامرة لتزييف النقود ، فأوفد اثنين من رجاله في قارب خاص لمقابلة السفينة قبل رسوها في الميناء

واستقبلهما لاشيج في كابين من الدرجة الاولى وقد احاط نفسه بكل مظاهر الارستقراطية ثم قال لهما :

ـ لن استطيع الحديث معكما الآن .. انني احزم حقائبي وأودع اصدقائي ، ولكن بمجرد نزولي الى

الشاطىء سوف يسعدنى الحضور الى مكتبكم .. وقد تكون هناك صعوبة واحدة ، فقد ورداسمى فى حادث ما بسبب سوء تفاهم بسيط ببلدة « بروفيدانس » ولعل البوليس فى انتظارى لتوجيه بعض الاسئلة الى فى « رود ايلاند »

وقال بيتر روبانو ـ احد رجلى الخدمة السرية ـ : اذا كان لديك أية معلومات عن تزييف ، أو تهديد لرئيس الجمهورية ، فسيكون لهذا الامر الاولوية على كل شىء آخر .

وكما تنبأ لاشيج ، كان هناك أحد رجال البوليس السرى فى انتظاره لاعتقاله بمجرد رسو السفينة ، ولكن روبانو تدخل فى الامر واحاطه بحمايته قائلا ان اختصاص الحكومة الفيدرالية أوسع نطاقا .. وهنا هز البوليس السرى كتفيه قائلا :

ـ اذا كان لديكما شكوى ضده ، فأنتما أولى به ..

وفى مكتب الخدمة السرية بنيويورك ، اظهر لاشيج انه متعاون الى اقصى حد وراح يتحدث عن صفقة ضخمة من العملية المزيفة .. ولكنه لم يدل الا ببعض معلومات قليلة الفائدة ..واستمر روبانو يواصل استجوابه له اكثر من ١٢ ساعة دون ان يظهر لاشيج أى غضب أو سخط .. بل كان يقول معتذرا :

ـ ان بعض الاسماء والتواريخ تخوننى ذاكرتى بشأنها لسوء الحظ .. ولكنى واثق اننى سوف اذكرها بمساعدتكم . لقد جئتكم متطوعا ويسعدنى أن أعمل معكم ليلا ونهارا ..

وعند منتصف الليل كانت اعصاب رجل الخدمة السرية هى التى تحطمت ، فنسى أن لاشيج مطلوب فى مكان آخر .. وودعه الى الباب متمنيا له ليلة سعيدة وهكذا انطلق لاشيج فى شوارع نيويورك المظلمة .. لقد اصبح رجلا حرا !

***

كنت كلما ازدادت معلوماتى عن هذا الرجل الذكى ، ازداد افتتانى به .. كنت اتساءل ، ترى هل كل المغامرات الخيالية التى تنسب اليه قد حدثت حقا ؟

ورحت اتابع خطواته فى قارتين ، مقابلا ضحاياه ، فاحصا سجلات البوليس ، مقتفيا كل دليل يمكن الحصول عليه .. الى ان استطعت ان اجمع الكثير عن قصة حياته المدهشة .

مولد محتال

تلقى لاشيج تدريبه الاجرامى على

ظهور عابرات المحيط ، التى كانت قبل الحرب العالمية الاولى المكان المفضل للاثرياء من مختلف الدول .. وكان لاشيج قد فر من بيت اسرته فى تشيكوسلوفاكيا وهو لايزال حدثا فى سن المراهقة ، وقد أمضى بعض الوقت يعمل كلص صغير فى باريس ، ولكنه سرعان ماادرك ان المقامرة اكثر ربحا واقل مغامرة ، فضلا عن انها تتيح له معرفة الكثير من اصحاب الملايين الذين كانوا يمضون أوقات مرحهم على تلك « القصور العائمة » التى تعبر المحيط بعيدا عن الرقابة ..

وما أن أتقن لاشيج حرفة الورق والغش فى اللعب ، حتى بدأ عمله فوق السفن الكبرى .. وفى خلال رحلته الثالثة ، لاحظ لاشيج أن هناك مقامرا محترفا آخر يعمل على نفس السفينة ، وكان رجلا طويلا نحيلا ، يدعى « نيكى ارنشتين » وهو من أشهر المقامرين فى عصره ، وكانت اصابعه الرقيقة بارعة فى اللعب والغش بطريقة لايتقنها لاشيج نفسه .

وتعاون الاثنان معا فى العمل ، وقد كفلت له هذه الشركة دراسة لاتقدر بثمن لطرق الاحتيال والنصب .. وعندما عرقلت الحرب العالمية السفر فى المحيط ، عاد لاشيج مؤقتا الى مغامراته القديمة فى باريس .. ولكن ماكادت الحرب تنتهى ، حتى اتجه الى امريكا مباشرة ، وكان العصر الصاخب قد بدأ منذ عام ١٩٢٠ ، وهناك الكثيرون من الاغنياء الذين ربحوا ثروات فى البورصة .. الكل يحطم القانون ، ويشرب الخمور المحرمة .. وهكذا كان المسرح مهيأ تماما لاظهار مواهبه الناضجة .

كان لاشيج يفضل العمل وحده فى دنيا الجريمة ، فلم يختلط كثيرا بالعالم السفلى فى امريكا على الرغم من تعرفه بكثير من زعمائه ، وكان قد جمع ما قيمته ٢٥ الف دولار من السندات الحكومية المسروقة ، ولا يعرف احد كيف حصل عليها ، ولكنها اصبحت دعامة اساسية فى حرفته .

المحصول الذهبى

كان تورمات جرين مدير بنك الادخار الامريكى بمدينة « ساليفا » بولاية كانساس يلعن اليوم الذى جعله يتصل بمزرعة « مارستن » التى اضطر الى الاستيلاء عليها من صاحبها بعدان امتنع عن دفع اقساط الرهن عدة سنوات .. فهاهى المزرعة وقد تهدمت مبانيها ،

وتجمعت عليها الضرائب ، وليس هناك من يرغب فى شرائها ، فالكل يعرف انها مكان لايصلح لشىء ..

ثم حدث فى أحد أيام ربيع ١٩٢٢ أن ظهر شخص غير عادى المظهر فى مكتب مستر جرين .. كان الرجل يتحدث بلهجة مثقفة مشوبة بلكنة أجنبية ..

وقال الزائر الغريب : اننى ادعى الكونت فيكتور لاشيج ، وأنا أبحث عن مزرعة لشرائها . .

فقال جرين فى حيوية :

ـ مزرعة ؟

فأجاب لاشيج وهو يجلس على مقعد قريب :

ـ أجل ياسيدى .. اننى لاجىء من العالم القديم ، وقد ثار الفلاحون فى شرق التيرول واستولوا على كل ممتلكاتنا التى ورثناها ابا عن جد .. وعلى الآن ان ابدأ كل شىء من جديد .. وقد كنت اجول فى هذه المنطقة ، فوجدت مكانا احببته على الفور ، اظن انه يدعى مزرعة (مارستن) فهل تعرف اسم مالكها ؟

فقال جرين وكأنه فى حلم :

ـ اننى صاحبها .. وهى معروضة للبيع بالسعر المناسب .

وأخرج لاشيج مظروفا من جيبه الداخلى ، قدمه للمصرفى قائلا :

ـ لقد استطعت الهرب من النمسا ببعض مجوهرات الاسرة ، وعندما وصلت الى نيويورك حولتها الى هذا .. فهل يكفى ؟

وفتح جرين المظروف ، فاذا به سندات حكومية امريكية قدرها ٢٥ الف دولار .. فقال وهو لايكاد يتمالك نفسه :

ـ أجل .. اعتقد اننا نستطيع بيعها بهذا المبلغ

فأعاد لاشيج السندات الى جيبه بعناية ، ثم خرج مع جرين وزميله جون روز نائب مدير البنك لزيارة المزرعة .. وعلى الرغم من مظاهر الفقر البادية عليها ، فقد راح لاشيج يتحدث عن مشروعاته فيها بحماسة بالغة . ثم اقترح على الرجلين مقابلته فى غرفته بالفندق فى اليوم التالى لاتمام الصفقة .. ثم قال :

ـ هناك أمر آخر .. فسوف تنقضى بضع سنوات قبل أن تبدأ المزرعة فى انتاجها ولهذا فاننى سأحتاج الى راس مال للعمل . ولدى سندات اخرى تساوى ٢٥ ألف دولار فهل يمكننى الاقتراض عليها ؟ .

فأكد له جرين سهولة ذلك ..

وفى اليـوم التالى جاء الرجلان الى الفندق وقد احضرا معهما ٢٥ ألف دولار نقـدا ، وحجة بيع مزرعة مارستن .. وأخرج لاشيج من درج مكتبه حزمة من الورق ، فتح احد اطرافها ليكشف السندات التى داخلها . ثم قال :

هذه سندات قيمتها ٥٠ ألف دولار .

واعاد الحزمة الى مكانها .. ثم فتح درجا آخر اخرج منه زجاجة خمر .. ثم قال :

ـ اننا نقيم احتفالا صغيرا فى النمسا عند بيع الاراضى

ورحب الرجلان على الفور بهذا الاحتفال .. واخذا يحتسيان كؤوس الخمر بشراهة .. وبعدئذ قدم لهما لاشيج حزمة السندات ، واخذ منهما النقود وحجة البيع ثم ودعهما الى الخارج ، حيث ذهب جرين وزميله الى البنك لايداع السندات .

ولكن الاثنين ماكادايشاهدان مافى الحزمة ، حتى ذهبت آثار الخمر من رأسيهما وانطلقا عائدين الى الفندق .. ولكنهما لم يجدا شيئا ..

لقد اختفى الكونت . . واختفت النقـود .. وكانت الحزمة تحوى بعض أوراق الصحف القديمة !

وظن لاشيج ان الرجلين سوف يتكتمان النبأ حرصا على سمعة البنك ، ولكنه كان مخطئا فى تلك المرة ، وسرعان ماوجد نفسه عائدا بعد بضعة أيام الى البلدة وفى يديه قيد حديدى ، وقد رافقه فى هذه الرحلة أحد رجال البوليس السرى ، ورأى ألستون محامى البنك

وبدا على المحتال انه غير مكترث تماما بالموقف طوال الساعات التى استغرقها السفر ، واخذ يتحدث بطريقة غامضة دون هدف ظاهر .. ولكن سرعان مابدأ قصده يظهر بوضوح .. لقد كان يحاول التأثير على ألستون قائلا ان المحاكمة ستفقد الناس ثقتهم فى البنك الذى يخدع مديره بهذه السهولة فيفقد عملاءه ولا يكسب شيئا .. اما اذا تركوه ، فانه سيعيد لهم نقودهم ، ويتفادون الفضيحة ..

ومع أن اقتراح لاشيج كان مضادا لميول المحامى وعمله ، الا انه وجد فيه بعض المنطق ، وما ان بلغا شيكاغو ، حتى اتصل بموكله ، الذى وافق على اطلاق سراح المحتال بشرط ان يعيد النقود للبنك ..

وعندما اطمئن لاشيج الى هذه

النتيجة ، قال ان اعتقاله قد أضربه ، وسبب له اهانه لا تغتفر ولذلك فانه يطلب تعويضا قدره ألف دولار والا رفع دعوى ضد البنك !

وحصل على الالف دولار .. ولم تكن لديه نية لاعادة المبلغ الذى حصل عليه من جرين بطبيعة الحال ، فضلا ان الانباء تسربت الى أهل البلدة ، فضاعت ثقة الجمهور فى البنك الذى اضطر أخيرا الى اغلاق أبوابه !

براهن على الاشياء المؤكدة !

وفى مونتريال التقى لا شيج بضحيته التالية .. كان قد نزل كالعادة فى أفخر فنادق المدينة ، وسرعان ما استرعى نظره ظهور زوجين لاتناسب بينهما فى قاعة الطعام .. كان الرجل عجوزا يبدو عليه الوقار ، بينما كانت زوجته أصغر منه كثيرا ، حسناء وردية الوجه .. وعرف من تحرياته السرية ان الرجل يدعى « لينوس ميرتون » وهو من رجال البنوك فى بلدة (فيرمونت) ، وقد اعتاد ان يقضى أجازاته فى مونتريال مع سيدة يدعى كل مرة انها زوجته .. وادرك لاشيج أن ميرتون هو اصلح صحبة له ..

واستخدم الكونت ذكاءه الذى لايخيب ، فاستأجر ابرع نشال فى البلدة لنشل حافظة نقود ميرتون من جيبه .. ثم أعادها اليه على اساس انه وجدها ملقاة . كانت الحافظة تحوى ٥٠٠ دولار واوراقه الخاصة ، وعرض عليه ميرتون مكافأة ، ولكن لاشيج رفضها بأنفة وبرود ... وبعد يومين ارسل زجاجة نبيذ فاخرة الى مائدة ميرتون وزوجته ، فأسرع هذا بدعوته الى مشاطرته فى شربها ، وقد سره ان هذا الشخص النبيل قد غفر له خطأه عندما عرض عليه مكافأة ..

وسرعان ماتوثقت عرى الصداقة بين الرجلين .. وراح الكونت ينفق عن سعة مما أدهش ميرتون وجعل الفضول يستبد به .. كان يريد ان يعرف من أين يأتى بكل تلك الاموال ، ولكن الكونت كان متمسكا بالكتمان فى مبدأ الامر ، وعندما الح عليه ميرتون لمعرفة السر ، راح يحدثه عن اسطورة الارض التى ورثها عن اسلافه ثم ضاعت بسبب ثورة الفلاحين فى بلاده .. ثم قال

ـ اننى لم اتدرب على العمل للحصول على المال .. ولهذا كان على ان ارتجل ..

وهمس الكونت فى اذن ميرتون قائلا انه يحصل على المال عن طريق

الخيول .. وعندئذ قال ميرتون :
ـ هل تقامر ؟
ـ ليس بالضبط .. ولكنى اراهن على الاشياء المؤكدة فقط .
واستطرد الكونت يقول ان له ابن عم يدعى اميل يعمل فى مكتب التلغراف ، ولما كانت نتائج السباق الامريكية تأتى الى مونتريال ، فقد كانت مهمة اميل ان ينقلها الى مختلف دور المراهنة فى كندا . ثم قال ان اميل يعمد بين حين وآخر الى تأخير نقل نتائج السباق ، ريثما يبلغها للكونت تليفونيا ، فيعرف اسم الجواد الرابح .

ولكى يؤكد الكونت هذه المعلومات لصديقه ، قال له انه سيراهن باسمه بمبلغ ١٠٠ دولار وبعد الظهر سلمه الف دولار قائلا انها نصيبه من الربح على الجواد الفائز ..

وطلب ميرتون من الكونت ان يذهب للمراهنة معه فى اليوم التالى . ولكن لاشيج قال انه لايستطيع ان يصحب معه احدا من غير موافقة اميل .. ولكنه على ايه حال سيحاول نظرا لصداقتهما الوثيقة .. وفى الصباح التالى توجه الاثنان لمقابلة اميل .. ثم ذهبا بعد الظهر الى احد مكاتب المراهنة حيث شاهد ميرتون جمعا من الرجال ذوى المظهر الفخم ــ وهم فى الحقيقة من مجرمى مونتريال الذين دربهم لاشيج على هذا الدور ــ وكانوا يراهنون فى هدوء بمبالغ ضخمة تصل احيانا الى ٣٠ ألف دولار .

وتصاعدت الدماء الى رأس ميرتون ، الذى خيل له انه وجد أسهل طريق للحصول على ثروة ضخمة بين عشية وضحاها ..

وبعد أن كرر لاشيج تمثيلية المراهنة باسم ميرتون ، واعطاه مبالغ كبيرة قال انه ربحها باسمه .. كان الجشع قد بلغ غايته فى نفس ميرتون ، وعندئذ قرر لاشيج أن الوقت قد حان لتوجيه الضربة الكبرى .

والتقى الرجلان فى اليوم التالى كالعادة باميل ليسلماه نصيبه من الارباح ، ولكن اميل كان يبدو متجهما ، لم يبهجه المال الذى اخذه .. وبعد قليل قال لهما :
ـ سوف اترك عملى فى مكتب التلغراف .

ومرت لحظة من الصمت المتير .. سأله بعدها لاشيج قائلا :
ـ ماذا حدث يا ابن العم ؟
فقال اميل :

ان زوجتى مريضة .. ويقول الاطباء انها مصابة بالسل ولا بد من نقلها فورا من هذا الجو .

فصاح ميرتون قائلا .

ـ ولكن ألا تنتظر قليلا يارجل !

فقال اميل فى غضب :

ـ اتظن ان المال أهم عندى من زوجتى ؟ .. اننى راحل فورا .

وهنا تدخل لاشيج وهو يهدى اميل بقوله :

ـ ان صحة « الزا » اهم ولا شك من أى شىء آخر ..

فقال ميرتون متوسلا :

ـ ألا يمكننا ان نلعب مرة أخرى ؟ اننا نستطيع ان نضرب ضربة حاسمة .

فأجاب لاشيج :

ـ ولكن هذا الامر يتطلب مبلغا ضخما .. ولابد ان نوحد نقودنا فى المراهنة . اننى أستطيع أن أجمع حوالى ٣٠ الف دولار ، فهل معك مثلها ؟

فقال ميرتون فى تلعثم :

ـ اعتقد ذلك .

وعندئذ التفت لاشيج الى ابن عمه الزائف وقال له :

ـ مارايك يااميل ؟ .. هل توافق على ان تتيح لنا فرصة اخيرة ؟

فحنى الرجل رأسه وهو يصطنع الحزن . ثم قال :

ـ حسنا . . سوف نفعل من أجل الزا . . اننى أود ان اجعلها تقضى ايامها الاخيرة فى رفاهية

وفى اليوم التالى ذهب لاشيج مع ميرتون الى مكتب المراهنة وهما يحملان ٧٠ الف دولار ، وكان المصرفى المسكين فى حالة عصبية شديدة وقد بلل العرق يديه .. وفى الوقت المحدد دق جرس التليفون ، فرفع ميرتون السماعة ، وعندئذ سمع صوت اميل يقول :

ـ ضع المبلغ على « هيلدا » فى الشوط السادس ..

وراهن ميرتون بالمبلغ كله على هيلدا .. ثم راح يستمع الى نتائج السباق ، الذى كان التنافس فيه شديدا بين « هيلدا » وجواد آخر اسمه (ماى مان) ..

وفجأة اذيع نبأ فوز ماى مان .. بينما جاء « هيلدا » الثانى !

وغاضت الدماء من وجه ميرتون .. وكاد يسقط على الارض .. واضطر لاشيج الى مساعدته فى السير وهو يتمتم قائلا :

ـ ماذا حدث ؟ .. ماذا حدث ؟

واصطنع لاشيج الحزن هو الآخر

.. ثم قال :

ـ هل انت واثق مما سمعته من اميل فى التليفون ؟

واسرعا بالتوجــــه الى مكتب التلغراف حيث قابلا اميل الذى كان على وشـــك مبارحته .. وما كاد يسمع نبأ الخسارة حتى التفت الى ميرتون وقال له فى ثورة :

ايهـا الغبى المغفل .. لقد قلت « ضع » على هيلدا ، الا تعـرف ان « ضع » معناها انه سيأتى الثانى فى السباق ! .. لقـد خربت بيتى .. مسكينة انت ياالزا

فقال لاشيج :

ـ سوف نلعب مرة أخرى غدا

ولكن اميل زمجر قائلا :

ـ كلا .. اننى راحـــل .. لقد قررت ان اترك العمل فورا .

وراح الكونت يهـــدىء من ثائرة ابن عمــه المزيف ، وقال انه سوف يقرضه المبلغ اللازم لنقل روجتـــه الى بلدة أخرى .. ثم عاد بالضحية المسكينة الى غرفته فى الفندق قائلا له انهما سوف يعودان الى المراهنة مرة اخرى ، وانه ســوف يتصل به قريبا من أجل ذلك ..

وما لبث لاشيج ان جمع حقائبـه واسرع بمغــادرة الفندق والاختفاء عن الانظار ..

صفقة الـ ٧٠٠٠ طن

كانت الميزة التى تضع لاشيج فى مرتبة أعلى من كل المحتالين الآخرين ، هى قدرته على الارتجال بجرأة بالغة .. ولعل أصدق دليل على ذلك هو الحـــادث الذى دبره بعد ان طالع سطورا قليلة فى صحيفة فرنسية..

كان لاشيج قد سافر الى باريس بعد احتيـــاله على ميرتون ، وأمضى اسبوعا كاملا فى كســل تام ، يرشف الخمر فى مقاهى العاصمة الفرنسية ، ويطالع الصحف اليـــومية فى روية واناة .. وكان فى صحبتـــه فى تلك الفترة محتال صغير يدعى «دابردان» كولينز كان يقـدمه للناس باعتباره سكرتيره الخاص ..

وبينما كان لاشـيج يطالع احدى الصحف يوما ، اذ طوى الصـحيفة فجـــأة فى يده وعرضها على زميله قائلا :

ـ لقد وجدت « زبوننا » الجديد .. اننى لم إعرف اسمه بعد ، ولكنه سيكون من المشتغلين فى بيع الحديد الخردة .. اقرأ هذا .

وأشـــار لاشـــيج الى خبر قصير فى الصحيفة جاء فيه ان الاصلاحات المطلوبة لبرج « ايفـــــل » تتطلب

الوف الفرنكات ، وان الحكومة قد ترى أن تفكيك البرج أرخص لها من صيانته .

ومضى لاشيج يقول :

ـ لقد وفرت الصحيفة علينا مجهودا شاقا .. ان كل ماسنحتاج اليه الآن هو أوراق اعتماد حكومية وبعض خطابات مطبوع عليها اسم البرج ..

وبعد بضعة أيام ، تلقى خمسة أشخاص فى باريس خطابات بتوقيع : نائب المدير العام لمكتب برج ايفل ؛ يدعوهم لمقابلته بشأن بعض العقود الحكومية ، وذلك فى الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الجمعة التالى بأحد أجنحة فندق « كريون » بباريس .

وفى الموعد المحدد ، بدأ لاشيج الاجتماع بقوله : ايها السادة .. سوف اذكر لكم الآن سرا هاما من أسرار الدولة لايعرفه غيرى انا ورئيس الوزراء ورئيس الجمهورية فقط .. ان الحكومة تنوى ازالة برج ايفل وبيع حديده ..

وساد السكون المثير فترة ، استطرد يقول بعدها :

ـ انها ولا ريب صدمة لكم .. ولكننا يجب أن نواجه الحقائق..هل قرأتم عن التكاليف الضخمة اللازمة لاصلاح البرج ؟

فهزوا رؤوسهم موافقين .. بينما اردف هو يقول :

لقد اقيم البرج اساسا ليكون اعلانا لمعرض باريس فى عام ١٨٨٩ ، ولم يكن المقصود ان يكون من معالم المدنية الدائمة ، بل لقد اعتبره الكثيرون منذ البداية منافيا للذوق .. يجب ان ننظر الى الامر على ضوء هذه الحقائق ..

والواقع ان الخمسة الذين اجتمعوا فى الفندق يومئذ قد انحصر تفكيرهم فيما يمكن أن يربحوه من عملية بيع حديد البرج ..

وصحب لاشيج الجماعة لفحص البرج ، وهناك قال لهم انه تكلف اكثر من سبعة ملايين فرنك ، وفيه من احسن انواع الصلب حوالى ٧٠٠٠ طن .. ثم اخذ يتحدث بطريقة رجال الاعمال عن عدد الدعامات الحديدية الموجودة فى البرج واحجامها واوزانها وبعد ان انتهى من الحديث ، طلب اليهم ارسال عطاءاتهم لعملية ازالة البرج الى غرفته فى الفندق قبل الاربعاء التالى .. ثم قال :

ـ تذكروا ايها السادة ان ماقلته لكم يعد سرا وانا معتمد عليكم

فى كتمانه .

وفى خلال تلك الفترة كان لاشيج قد انتقى شخص الضحية المقبلة من بين هؤلاء الخمســة .. وهو رجل يسمى « اندريه بواسون » كان اصله فلاحا أثرى من التجاره والمقاولات ، ولكنه كان فاشــلا من الناحيــة الاجتماعيــة ، ومن ثم راح يعمل لتحقيــق المزيد من الارباح ليعوض هذا الفشل

وبعد أن تلقى لاشــيج مظاريف العطاءات ، بعث زميله كولينــز الى اندريه بواسون ليبلغه قبول عطائه ، وطلب اليه اعداد المبلغ الوارد فى العطاء ليذهب معه لتوقيع العقــد فى جناح لاشيج ..

ولاحظ كولينز ان الشــك يراود الرجــل بسبب استخدام الفندق للمقــابلات بدلا من مكتب ادارة البرج ، فأبلغ الامر الى لاشيج الذى فكر قليلا ثم قال :

ـ سوف نثبت له اننا من موظفى الدولة حقا

وعنـدما وصل « بواسون » الى الفنـدق بصحبة كولينز ، استقبله لاشيج بحرارة ثم قال لكولينز :

ـ تســتطيع العودة الآن للمكتب .. وسأكون هناك فى الثالثة .

وما كاد كولنــز ينصرف ، حتى التفت لاســيج الى أندريه بواسون وقال فى ذلة .

ـ سيدى . . . ان حياة الموظف الحـكومى ليست يسيرة .. فنحن مطالبــون بارتداء ثياب انيقة واقامة الحفلات والظهور بمظهر كريم .. ومع ذلك فنحن نتقاضى غير أجور ضئيلة . ولهـذا فاننا عندما نبرم عقودا حكوميــــة ، فمن المتاد ان يقبل الموظف ...

وعندئذ قاطعه بواسون قائلا :

ـ تقصد رشوه ؟

فقال فى خجل مصطنع :

ـ سيدى . انك صريح جدا

فقال بواسون

ـ اذا فاسب تقابلنى هنا بدلا من المكتب لهذا السبب .

فابتسم لاشــيج وقال وهو يحنى راسه :

ـ لمجرد الاحتياط

والقى بواسون براسه للوراء وراح يقهقــه بصوت عال وقد احس انه اذكى وارفع قدرا من هذا الموظف .. ثم قال :

ـ اننى لست فلاحا جــاهلا .. اننى اعرف كيف تسير الامور . .

ثم اخرج من احـد جيوبه شبكا

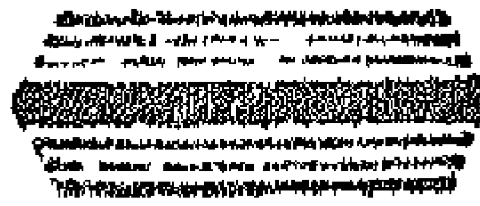
بمبلغ العطاء .. واخـــرج من جيب آخر حافظة منتفخة بالنقود ..

وفى خلال ساعة واحدة كان لاشيج قد صرف الشيك من البنك ، وانطلق الى النمسا بالقطار السريع !

وفى فينا أقام لاشـــيج فى أفخر الفنادق مع زميله كولينز لمدة شهر ، عكف خـلاله على مطالعة كل صحف باريس لعله يجد نبأ حادث احتياله الكبير ولكنـه لم يجد شيئا .. لقد فضـل بواسون ان يتكتم النبأ حتى لايصبح موضـع سخرية باريس بل وفرنسا كلها .. وشجع هذا الامر لاشيج على العـودة الى باريس وبيع البرج مرة ثانية ، ولولا ان الضحية الثانية رفع عقيرته بالصيـاح عندما اكتشف مدى غبـائه .. لاستطاع لاشيج أن يبيع البرج للمرة الثالثة.

واخـيرا جانت نهاية اكبر محتال عرفه العالم فى عصره الحديث ، عندما تورط فى الاشتراك مع صيدلى امريكى فى جريمة تزييف أوراق النقد الامريكى ، وكان لرجال الخـدمة السرية فى تلك المرة فضـل وضع حد لنشاطه الى الابد ، اذ ظلوا يقتفون اثره هو وشريكه الى ان ضبط الاثنـان وفى حوزتهما مليون و ٣٤٠ ألف دولار من الاوراق الزائفة ..

وفى ٥ ديسمبر ١٩٣٥ قدم الاثنان للمحاكمـــة حيث اعترف الصيدلى « واتس » باشـــتراكه مع الكونت الزائف فى عمليـة التزييف .. وبعد يومين حـكم على لاشـــيج بالسـجن ٢٠ عاما ، ونقل الى سجن (الكاتزار) لتمضية هذه الفترة ولكنه لم يقض منها غـير ١٢ عاما .. اذ مات فى عام ١٩٤٧



سر ..

فى الطـريق المؤدى الى بلدة (واتكنس) بولاية مينسوتا الامريكيـــة وضعت اللافتة التالية :

« مرحبـا بكم فى واتكنس .. ان السرعة المسموح بها هـــذا العـام ستظل سرا .. وسوف يحاكم من يخرقها .. »

كتاب الشهر

في أعماقك سر نجاحك

عن كتاب **Psycho-Cybernetics**

بقلم ماكسويل مالتز

على الرغم من تعقيداته التى لا حد لها، فان العقل البشرى الباطن والجهاز العصبى ، فيهما تشابه مذهل مع هذا العقل الالكترونى العجيب الذى صنعه الانسان ، حتى انه يبدو انهما يعملان على اساس نفس المبادئ العامة ، وهذه الحقيقة تكفل لنا مفتاحا لتحسين الذات وتحقيق السعادة والنجاح .. وفى هذا الكتاب يكشف لك أحد المشاهير فى جراحة التجميل ممن استخدموا هذا الاكتشاف فى عملهم بنجاح كبير ، كيف تستطيع ان تطبقه على نفسك ، فتغنى حياتك وتزيدها خصبا .

كل منا رسم لنفسه صورة فى عقله .. وهى صورة نفسية تحكم الكثير من سلوكنا ومظهرنا ، ولكى تجد الحياة مرضية الى حد معقول ، لا بد أن تكون لديك صورة لنفسك تستطيع ان تعيش معها ، وان تجد نفسك مقبولا من نفسك ... وان تكون لك ذات تحبها ، ونفس تستطيع ان تركن اليها وتؤمن بها .

وعندما تكون هذه الصورة الذاتية جديرة بأن تفخر بها، فانك تشعر بثقة فى نفسك ، وتحس انك حر فى ذاتك وفى التعبير عن نفسك ، وتؤدى عملك بأفضل ما تستطيع من جهد .. اما

اذا كانت تلك الصورة الذاتية شائنة ، فانك تحاول ان تخفيهـا بدلا من ان تعبر عنها .. وتغلق ابواب التعبير الابتداعى ، فتصبح معاديا للناس ، من الصعب العيش معك .

ولمـا كنت أعمل جراحا للتجميل ، فقــد اعتدت ان أدهش للتغييرات المفاجئة المؤثرة فى الشخصية والطابع .. وهى التغيرات التى تنتج غالبـا عنــدما اصلح عيبا فى بعض الوجوه (وهـو أمر له تأثير سيىء عادة على الصورة الذاتية للمريض) .. وكانت العمليـة التى أجريها تبدو أحيانا وكأنها تخلق شخصا جديدا تماما ، فلا تحـدث تحولا فى مظهر المريض فحسب ، بل فى حياته بأسرها .

فالاشخـاص المعروفون بالخجل والانطواء ، ما ان يتخلصوا من التشويه الذى كان يصيبهـم ، حتى يصبحوا على جانب كبير من الجرأة والشجاعة ، والفتى الضعيف العقليـة ، تحول فجـأة الى فتى واع طموح بعد ان أصلحت اذناه البالغتان فى الطول ، اللتان كانتا تثيران السخرية الدائمة منه .. وكان هناك بائع متجول تتملكه عقيدة راسخة بانه موضع اشـمئزاز من الآخرين بسبب حادث سيارة أصابه بجروح فظيعـة ، فاذا به يصبح مثالا للثقة بالنفس بعـد ان اختفت آثار الجروح ، ولعـل أكثر هذه الحالات روعة ، حالة مجرم عائد لم يكن يرجى اصلاحه ، فاذا به يفقد تحديه المرير للمجتمع بين عشيـة وضحاها ، ويفوز بالافراج الشرطى ، ويمضى فى الحياة ليقـوم بدور ذى مسئولية فى هذا المجتمع ..

ومع ذلك فقـد كانت هناك حالات استثنائيـة لم يتغير اصحـابها . فهناك فتاة كانت طوال حياتها تعيش فى خجل بسبب تقوس كبير فى انفها ، ولكنها ظلت تتصرف وكأنها بطة كئيبة المنظر فترة طويلة بعـد ان كفلت لها الجراحة أنفا كلاسيكيا ، ووجها جميلا حقـا .. وهناك كثيرون غيرها ممن اكتسبوا وجوها جديدة ، ومع ذلك فقد ظلوا يتقمصون نفس الشخصية القديمة .

وكل جراح من المشتغلين بعمليات التجميل استولت عليه الحيرة بسبب المرضى الذين يشكون من ان الجراحة لم تفعـل لهم شيئا ، ويصرون على انهم مازالوا يبدون فى نفس صورتهم القـديمة تماما ، وعبثا تحاول ان تقنعهم بالفرق بين صور « ماقبل » الجراحة ، و« ما بعـدها » .. فهم يقولون لك : « ان آثار الجـروح قد

لاتكون بادية الآن ، ولكنهـــا لاتزال هناك » .. ومثــل هؤلاء الاشخاص مازالوا فى الحقيقـــة واقعين تحت سيطرة صورة ذاتيـــة قديمة لايمكن تحملها ...

وهناك كثير من الناس يلجأون الى جراح التجميل لاصلاح عيوب وهمية تمـــاما ، أو قبح غير ظاهر بالمرة ، وتكون عيـــوبهم طفيفة جدا الى حد أنه ليس هنـــاك جراح أمين يفكر فى اجراء عمليـــة لهم .. وهم مع ذلك يتصرفون وكأنهم مصابون بتشويهات ، ويشعرون بنفس الخجل الذى يشعر به المشوهون ، وتنتابهم نفس المخاوف وأحاسيس القلق والعقبات النفسية ، والواقع ان « آثار جروحهم » عقلية وعاطفيـــة أكثر منها جسمانية ، واساس متاعبهم انما يكمن فى صورة ذاتية مدمرة ومشوهة ..

ومنذ بضع سنوات ، بدأت أدرك ان بعض الاشخاص الذين يأتون الى جراح التجميـــل يكونون فى أغلب الاحوال فى حاجـــة الى شىء أكثر من الجراحة ، بل ان البعض لايحتاج الى جراحة على الاطلاق .. وانه اذا كان على أن أعـــالج هؤلاء الاشخاص باعتبارهم مرضى بأشخـــاصهم كلها ــ لامجرد أنف أواذن أوطرف مشوه ــ فاننى يجب ان امنحهم شيئا اكثر من ذلك ، وان ابين لهم كيف يستطيعون الحصول على شىء روحى يرفع من شأن وجوههـــم ، وكيف يزيلون «آثار الجـــروح » العاطفية ويغيرون مسلكهم الاساسى .. وبعبارة أخرى ، كان على أن اتعلم كيف تعمـــل عقول النـــــاس .. وكانت تلك الدراسة مثمرة ومفيدة الى حد كبير ..

« عقولنا الالكترونية » الممتازة

منـــذ ١٥ عاما فقط لم تكن لدى العلماء أية فكرة عن كيفية عمل العقل البشرى والجهـــاز العصبى لتحقيق هدف ما (بطريقة عمدية) ولو كان ذلك الهدف قصير الاجل ، كالتقاط علبة سجائر من فوق المائدة مثلا .. وعن طريق الملاحظات الطويلة الدقيقة ، عرف العلماء مايحدث ، ولكن لم تكن هناك نظرية واحدة تقع تحت مبادىء يمكن ان تربط كل هذه الظواهر معا فى فكرة ذات معنى ..

وعلى الرغم من ذلك ، فان الانسان عندما بدأ يصنع « عقلا الكترونيا » وينشىء بيده أجهزة تسعى لتحقيق هـــــدف ما ، كان عليه ان يكتشف مبادىء اساسية معينة ويستخدمها . وقد اطلق على هـــذا العلم اســـم Cybernetico ــ أى ميكانيكيـــة

الآلات الحاسبة ـ (وهى مشتقة من كلمة يونانية معناها « رجل الدفة ») ..

وبعد ان اكتشف المبادىء العملية الضرورية ، بدأ العلماء يسائلون انفسهم : « هل من الممكن ان تكون هذه هى نفس الطريقة التى يعمل بها المخ البشرى أيضا ؟ .. هل من الممكن أنه عندما كان خالقنا يصنع الانسان ، زوده بلوحة توجيه للاشارات الالكترونية أكثر غرابة من أى (عقل الكترونى) راود أحلام العلماء ، وان كان يعمل وفقا لنفس مبادئه الاساسية ؟ » ..

وكان من رأى كثيرين من المشتغلين بالعلم الجديد ، ان الاجابة على هذه الاسئلة كلها هو .. « نعم » ..

وهذا الرأى الذى انتهوا اليه قد يكون له أثر لايقدر على سعادتك الشخصية أو تعاستك !

ومن الطريف ان هذا العلم الذى بدأ باعتباره دراسة للآلات والمبادىء الآلية ، قد مضى قدما لاعادة كرامة الانسان ، باعتباره كائنا فريدا خالقا .. وعلم النفس الذى بدأ بدراسة نفس الانسان أو روحه ، مالبث ان أصبح يسلب الانسان من روحه فى أغلب الاحيان ، ولهذا تجد ان الكثير من كتب علماء النفس استغرقت فى الحديث عن نواحى الشذوذ والذنب والغريزة ودورها فى تدمير النفس وما شابه ذلك ، حتى أصبح الانسان العادى يشعر انه عاجز عن مكافحة نفسه حيال مثل هذه القوى السلبية فى الطبيعة البشرية ، بل ان بعض علماء السلوك اعتبروا « الارادة » خرافة ، و «الوجدان» مجرد تفاعل كيميائى ، و « الفكر » مجرد حركات الكترونية !

أما علم ميكانيكية الآلات الحاسبة فانه لايقدم مثل هذه المزاعم .. انه لايقول لنا ان الانسان آلة ، بل يقول ان الانسان عنده آلة يستخدمها ، وهو يرى أن « العقل الباطن » المزعوم ليس عقلا على الاطلاق ، بل هو جهاز ، أو لوحة لتوجيه الاشارات الالكترونية ، يسعى لتحقيق هدف ، وهو يتكون من مخ وجهاز عصبى ، يستخدمهما العقل ويقوم بادارتهما .

هذا الجهاز الذى يكمن فى داخلنا آلى وليس شخصيا ، وهو كأى جهاز الكترونى آخر يجعلنا نستفيد بالمعلومات المختزنة أو « بالذاكرة » وهى تعمل بفضل المعلومات التى نضعها فيها ـ من افكار ومعتقدات

وتفسيرات الخ ـ وعن طريق مسلكنا وتفسيراتنا لمختلف المواقف ، نصف المشكلة لكى يقوم بمالجتها ، فاذا قدمنا معلومات تدل على اننا نحن انفسنا مصابون بنقص أو غير مؤهلين ، أو عاجزين (وهذه هى الصورة الذاتية السلبية) فان هذه المعلومات أيضا يجرى اعدادها والتصرف بمقتضاها فى حل المشاكل الجارية والاستجابة للمواقف القائمة .. وهكذا فان جهازنا الداخلى سوف يعمل بطريقة آلية لتحقيق أهداف النجاح والسعادة ، أو التعاسة والفشل ، وذلك وفقا للاهداف التى نسعى اليها نحن انفسنا .

نظرة الى الجهاز الآلى اثناء العمل

هناك نوعان من الاجهزة الداخلية الالكترونية فى اشخاصنا هما :

١ ـ حيث يكون الهدف معلوما .. والغرض هو الوصول اليه .

٢ ـ حيث تكون الاجابة غير معروفة والغرض هو العثور عليها .

ويعمل العقل البشرى والجهاز العصبى فى كلا الطريقين .

وخير مثال للنوع الاول ، هو الطوربيد الموجه توجيها ذاتيا ، أو القذيفة المطاردة .. فالهدف هنا معروف ، وهو سفينة أو طائرة العدو ، والغرض هو الوصول اليها .. فالطوربيد يحقق هدفه بالتقدم الى الامام ، وقد يرتكب بعض الاخطاء ويصححها تلقائيا عندما تصله معلومات بأنه اخطأ أو حاد عن طريقه ، وذلك من الاجهزة الحسية ، كالرادار ، أو جهاز كشف الاصوات أو كشف الحرارة .. الخ وهكذا يقوم بسلسلة من الانحناءات وهو يتلمس طريقه الى الهدف .

ويعتقد الدكتور « نوربرت فينر » ـ الذى كان من رواد الاجهزة الباحثة عن الاهداف فى الحرب العالمية الثانية ـ ان شيئا يشبه ذلك الى حد كبير يقع عندما تلتقط علبة سجائر مثلا من فوق المائدة .. فنحن نصل الى الهدف عن طريق جهاز آلى ، لا عن طريق الارادة وتفكير المخ الامامى وحدهما . وكل مايفعله المخ ، هو انه يختار الهدف ، ثم يحرك الجهاز للعمل ، ويلقى تعليمات آلية للعينيين لكى تغذيه بالمعلومات التى تصحح حركة اليد باستمرار ، واذا كان من الضرورى أن يتم كل ذلك بادراك ، فان عالم التشريح هو وحده الذى يستطيع ان يعرف أى العضلات فى الذراع واليد والكتف لازمة لهذه المهمة ، والى اى حد يلزم ثنيها .

ويستطيع جهازنا الآلى أن يتولى هذه المهمة ، لانه قام بحركات مماثلة من قبل ، « فتعلم » الاستجابة الصحيحة ، ويبدو عمله بوضوح فى الطفل الذى لم يتعلم غير استخدام عضلاته ، عندما يصحح حركات يده لتصل الى لعبة ، ولما كان الطفل لايملك غير معلومات قليلة مختزنة يرجع اليها ، فان يديه تتحركان الى الامام والخلف ، وهما تتلمسان الوصول الى اللعبة ، أما بعد ان يتم « تعليمه » ، فان تصحيح الحركات يزداد تهذيبا .. ونحن نرى ذلك فى سائق السيارة الجديد الذى يكثر من تصحيح حركاته وانحناءاته طوال الطريق فى مبدأ الامر ، ثم يقوم بهذا التصحيح فيما بعد دون تفكير .. بوحى من العادة فحسب

اصنع لنفسك صورة عقلية جديدة

كل مخلوق يأتى الى هذا العالم مزود بتركيب آلى للنجاح فى ذاته ، وبالنسبة للحيوانات السفلى يكون الهدف معدا من قبل ، مقصورا على حفظ النوع والولادة ، اما الانسان ، فنظرا لانه يتمتع بموهبة الخيال الخالق ، فانه يستطيع ان يعين هدفه بنفسه ، ونتيجة لتمتعه بهذه الميزة ، فانه من الضرورى للوفاء بحاجاته العاطفية والروحية ان يفعل ذلك .

ومن ناحية الاداء ، يشبه الانسان الى حد كبير ، الدراجة التى لاتحتفظ بتوازنها الا اذا ظلت متجهة الى الامام نحو شىء ما ، فنحن مصنوعون هندسيا ، كأجهزة تبحث عن هدف ، ونحن نشعر بالضياع اذا لم يكن لدينا هدف يهمنا ، والاشخاص الذين يقولون ان الحياة لاتستحق شيئا ، انما يقولون فى الواقع انه ليس لديهم أهداف شخصية جديرة بالاهتمام .

وجهازك الآلى الخالق انما يعمل للوصول الى اهداف ونتائج نهائية ، وما أن تمنحه هدفا معينا لتحقيقه ، فانك تستطيع ان تعتمد على جهاز التوجيه الآلى ليقودك الى هذا الهدف بطريقة افضل كثيرا مما تستطيع أن تفعله بالفكر الواعى ، ولكنك لكى تحقق ذلك ، لابد من ان يكون الهدف ظاهرا بوضوح حتى يصبح شيئا حقيقيا بالنسبة لعقلك وجهازك العصبى .

وهذا الامر ليس عسيرا كما قد يبدو لاول وهلة ، فان تركيبك الآلى لايستطيع ان يميز بين تجربة حقيقية ، واخرى مجرد خيال حى ، والمعلومات الوحيدة التى يمكن ان يجدها بشأن

أى موقف معين ، هى الاشياء التى تعتقد انها حقيقيــة ، وهكذا فاننا اذا استمررنا فى تصوير الفشل لانفسنا بمثل هــذه التفاصيل الحية حتى تصبح حقيقية بالنسبة لجهازنا العصبى ، فان هــذا التركيب الآلى « اللاشخصى » ســوف يجازينا باستجــابات وانفعالات من النوع الفاشــل ، والعكس بالعكس عندما نصور أنفســنا ناجحين واثقين من أنفسنا .

ان الصورة الذاتيــة التى تستقر فى اعماقنا ، هى مفتاح الفشل والنجاح لاعز مشروعاتنا وأمانينا ، واذا كانت هذه الصــورة غير ملائمة — ويقول علماء النفس ان اكثرنا يقلل عادة من شأن نفســه — فان من الواجب تصحيحها .. ونحن نفعل ذلك بالتخيل المنتظم ، أى ان نتخيل دائما اننا من الطراز الذى نود ان نكونه ، فاذا كنت شديد الخجل ، فتخيل انك تنتقــل بين الناس فى يسر ورزانة ، واذا كنت كثير المخاوف مفرطا فى القلق ، فحاول أن تتصرف فى هدوء وثقة وشجاعة .

وقد أجرى بعض علماء النفس يوما تجربة جديرة بالاهتمــام على ٤٥ شخصا من المحاربين القدماء ، كانوا يعالجون على اســاس انهم مصابون باضطرابات عصبية وعقلية .. فقد أجريت على هــؤلاء المرضى أولا اختبارات الشخصيــة المعتادة ، ثم طلب اليهم ان يجتازوا اختبارا آخر يجيب فيه كل منهم عن الاسئلة التى توجه له وكأنه شخص مثالى متزن .. فتبين ان ثلاثة ارباعهم قد تحسنت اجاباتهم ، وكان بعض هذا التحسن عجيبــا .. وقال علماء النفس ان هؤلاء المرضى الذين استطاعوا اثبات شخصيتهم مع غيرهم من الاشخاص العاديين ، استطاعوا ان يقصروا فترة اقامتهم فى المستشفى .

واذا تخيلنا انفسنا ونحن نتصرف بطريقة معينــة ، فان هذا التدريب للمخيلة يؤثر أيضا على عقلنا الباطن كما يفعل التصرف الفعلى تقــريبا ، وهذه الحقيقــة النفسية تتيح لنا فرصا لممارسة صفات وانواع جديدة من السلوك ، وتقدم لنا رافعة (عتلة) عظيمة القيمــة لتغيير الشخصية ، فضلا عن اكتساب مهارات جديدة ، وقد نشرت مجلة « الابحــاث » التى تصــدر كل ثلاثة اشهر تجربة عن آثار التدريب العقلى فى اصابة الهدف فى لعبة كرة السلة ، فقــد أجرى اختبار على فريقين من الطلبة اللاعبين استمر ٢٠ يوما ، فتدرب احد الفريقين

على القاء الكرة فترة معينة كل يوم ، وفى اليوم العشرين تحسنت اصاباتهم للهدف بنسبة ٢٤٪ أما الفريق الآخر فأمضى هذه الايام العشرين فى تخيل انهم يقـــذفون بالكرة الى الهدف ، والعجيب ان اصـــاباتهم تحسنت أيضا بنسبة ٢٣ ٪

ومثل هـــذه التدريبات العقلية ، امكن استخـدامها بنجاح ايضا على محترفى لعب الجولف وعازفى البيانو ، والبائعين المتجولين وطالبى الوظائف، وربما نجحت معك أيضا ..

تخلص من التنويم المغناطيسي

ان معتقـداتنا عن أنفسنا (وهى المعلومات الفعلية التى نقدمها لجهازنا الحاسب الداخلى) تفرض فى أغلب الاحوال حـدودا صلبة ووهمية على مايمكننـــا أن نحققه ، وعندما كان صديقى عالم النفس الشهير الدكتور « الفريد أدلر » تلميــذا صغيرا فى المدرســـة ، بدأ بداية سيئة فى علم الحساب ، حتى اقتنع مدرســه بأنه غبى بالنسبـــة للرياضيات ، وتقبل (ادلر) هذا التقدير بطريقة سلبية ، وبدا ان درجاته فى الحســاب تثبت صحة هذا الراى .. وعلى الرغم من ذلك ، فقد أحس يوما بوميض مفاجىء من الادراك جعله يعلن انه قادر على حل مسألة حسابيـــة كتبها المدرس على السبورة ولم يستطع بقيـــة التلاميذ حلها .. وضحك الفصل كله ، ولكن أدلر ســـار فى اشمئزاز نحو السبورة وحل المسألة فعلا ، وادرك وهو يقوم بذلك انه يفهم علم الحساب ، وشعر بثقة جديدة فى قدرته ، ومضى قدما ليصبح فيمـــــا بعد أحسن طالب فى الحساب !

والفـكرة التى تكمن فى ذلك ، هى ان « ادلر » كان خاضعـــا لتنويم مغناطيسى بعقيدة زائفة عن نفسه .. وهـــذا التنويم ليس مجازا ، بل هو تنويم حقيقى فعـــلا ، فقوة التنويم المغنـــاطيسى هى قوة العقيدة . فاذا كنت قد قبلت فكرة مامن نفسك أو من مدرسيـــك أو والديك أو أصدقائك او اى مصدر آخر ، واذا اقتنعت فعلا بأن هذه الفكرة صحيحة ، فسيكون لها عليك نفس السلطان الذى لكلمات المنوم المغناطيسى على وسيطه .

وعنـــــدما يستخـــدم التنويم المغناطيسى لزيادة قوانا بدلا من اصابتها بالشلل ، فان النتــــائج تكون غالبا رائعـــــة فى الاتجاه المضاد .. فقد اختبرت قوة المســـك لدى أحـد الرياضيـــــين بوساطة جهاز قياسى للقوة ، فتبين انها تعـــادل ٤٥ كيلو

جراما ، ولم تستطع كل جهوده ومحاولاته ان تزيد هذا الرقم .. ثم قام أحد المنومين بتنويمه مغناطيسيا وقال له : « انك أقوى مما كنت في أي وقت من حياتك » وفى هذه المرة ، استطاع الرياضى بسهولة أن يزيدقوة مسكه الى مايعادل ٥٦ كيلو جرما .

ان التنويم لايضيف شيئا الى قواه الفعلية بطبيعة الحال ، والايحاء الذى قدمه المنوم ، كان يستهدف جعله يتغلب على فكرة سلبية ، كانت تمنعه من الاعراب عن قوته الكاملة من قبل ـ وبعبارة اخرى ـ كان هذا الرياضى قد فرض حدودا على قوته ، بعقيدة سلبية تجعله يعتقد انه لايستطيع ان يمسك اكثر من ٤٥ كيلو جراما .. ولم يفعل المنوم اكثر من ازالة هذه العقبة العقلية : وتخليصه مؤقتا من اثر التنويم القديم الذى جعل عقيدته عن نفسه تفرض حدودا على امكانياته . والتفكير السلبى يمكن ايضا ان يقيد حدود كل منا اذا سمحنا له أن يفعل ذلك ، وعلى العكس فانك تتمتع فى داخليتك بالقوة على انجاز الاشياء التى لم تكن تحلم قط بأنها ممكنة .

انس الاخطاء الماضية

بعد ان شاهدت المؤلفة المعروفة « دوروتيا براند » عملية تنويم مغناطيسى ، قرأت عبارة كتبها العالم النفسانى ف . مايرز ، تقول انها غيرت كل حياتها ، فقد ذكر مايرز ان المواهب والقدرات التى يظهرها وسطاء المنوم المغناطيسى انما ترجع الى « تطهير الذاكرة » من الفشل الماضى .. وساءلت مس براند نفسها : لماذا لايستطيع الشخص فى حالة اليقظة استخدام نفس القوة التى يتمتع بها المنوم .. أى أن يطهر ذاكرته ، بتجاهل الفشل الماضى ؟؟ ؟

وقررت دوروثيابراند ان تتصرف وكأن القوى والامكانيات التى تريدها موجودة فعلا ، وفى خلال عام واحد تضاعف انتاجها فى الكتابة عدة مرات ، كما انها اكتشفت فى نفسها موهبة الخطابة العامة ، وهو شيء كانت تخشاه وتتحاشاه من قبل ، وبدأت الطلبات تنهال عليها لالقاء المحاضرات .

ان جهازنا الالكترونى الداخلى يحوى « ذاكرة » تضم حوادث الفشل والاخطاء الماضية ، وهذه التجارب السلبية لاتمنع عملية التعليم ولكنها تساهم فيها مادامت تستخدم بطريقة سليمة ، وينظر اليها باعتبارها انحرافات عن الهدف المرغوب أمكن اكتشافها .

واخطاؤنا وغلطاتنا وفشلنا ، وما نشعر به أحيانا من الذل ، هى خطوات لازمة فى عملية التعليم ، ولكن المقصود بها ان تكون « وسيلة الى غاية » ، وليست غاية فى حد ذاتها ، وعندما تستنفد اغراضها ينبغى ان تنسى ، اما اذا ظللنا نحتفظ بالخطأ فى عقلنا الواعى ، أو أحسسنا بالذنب بسبب هذا الخطأ ، وظللنا نقلل من شأن انفسنا بسببه فان الغلطة أو الفشل نفسه سوف يصبح — دون أن ندرى — الهدف الذى يبقى فى الذاكرة والمخيلة .

وذكريات الماضى يمكن ان تؤثر فى عملنا الحالى بطريقة عكسية اذا كنا ممعنين فيها ونتتهى الى القول فى حماقة بأننا « مادمنا قد فشلنا فى الامس فلابد اننا سنفشل اليوم » ولكننا فى اللحظة التى نبعد فيها مثل هذه الافكار من اذهاننا ونتوقف عن توطيد الماضى ، فان الماضى باخطائه يفقد سلطانه علينا .

سألنى يوما أحد مرضاى : « اذا كان تكون النسيج على اثر الجرح شيئا طبيعيا وتلقائيا ، فلماذا لايتكون مثل هذا النسيج عندما يقوم جراح التجميل بعمل قطع فى الجلد ؟ » .

والجواب على ذلك هو انك اذا جرحت وجهك فسيلتئم بطريقة طبيعية ، وسيتكون نسيج على اثر الجرح لان هناك قدرا معينا من التوتر فى الجرح وتحته مباشرة ، وهذا سوف يشد سطح الجلد ثانية ، صانعا فجوة تمتلىء بنسيج الندبة ، أما عندما يجرى جراح التجميل عملية فانه لايجذب الجلد معا ليقرب اطرافه بوساطة الخياطة فحسب ، بل انه يقطع أيضا قطعة صغيرة من اللحم تحت الجلد حتى لايوجد أى توتر ، ويلتئم القطع فى نعومة واستواء ودون ان يترك وراءه سطحا مشوها .

والمهم ان نلاحظ ان نفس الشىء يحدث فى حالة الجرح العاطفى ، فاذا لم يكن هناك توتر — أى انك يمكن ان تنساه ببساطة — فلن يتخلف عنه أى اثر لجرح أو تشويه عاطفى .

استخدم تركيبك الآلى بنجاح

أصبحت كلمة « التوتر » من الكلمات الشائعة فى لغتنا اليوم ، فنحن نسمى عصرنا هذا « عصر التوتر » .. والقلق والارق وقرحة المعدة اصبحت كلها شيئا مقبولا كجزء ضرورى من عالمنا الحديث ، ومع ذلك فاننى مقتنع بأنه ليس من الضرورى ان يكون الامر كذلك ، ففى استطاعتنا أن نخفف عن انفسنا عبئا كبيرا من

القلق اذا استطعنـا فقط ان نعترف بالحقيقة البسيطة القائلة • ان خالقنا قد أمدنا بمؤونة وفيرة تكفـل لنا النجاح فى هذا العصر أو أىعصر آخر، وذلك بتزويدنا بتركيب آلى للنجاح فى نفوسنا ذاتها ، ومشكلتنـا هى اننا نتجاهل هذا الجهاز ونحاول ان نحل كل مشاكلنا بالفكر الواعى . أو تفكير « المخ الامامى » .

والمخ الامامى اشبـه بالعامل على العقل الالكترونى ، فاننـا نفكر بهذا المخ الامامى ، ونشـعر باحساسنا بالذاتية ، وبهـذا المخ ندرب خيالنا او نحدد أهدافنـا . . ونحن نستخدم المخ الامامى لجمع المعلومات وعمـل الملاحظات ، وتقـدير قيمة المعلومات الحسية الجديدة ، وتكوين الاحكام .

ولكن « المخ الامامى » لايسـتطيع ان يخلق ، وهو لايسنطيع ان يؤدى العمل الذى يجب ان يعمله اكثر مما يسـتطيع العامل الذى يدير العقل الالكترونى ان يقوم بعمل هذا العقل بنفسه ، فوظيفة المخ الامامى هى ان يعين المشـاكل ويتحقق منها ولكنه بطبيعته ذاتها لم يصنع قط لكى يحل هذه المشـاكل كلها ، ومع ذلك فان هذا بالضبط مايحـاول الانسان الحديث ان يفعله . . وهو ان يحل كل مشاكله بالفكر الواعى .

ولمـا كان الانسان الحديث يعتمد اعتمادا كليا تقريبا على مخه الامامى، فانه اصبححريصاجدا،شديد القلق ، كثير الخوف من النتائج . . وعندما نصحنا المسيح « الا نفكر فى الغـد » اعتبر البعض هـذه النصيحة لغوا غير عملى . . ومعذلك فهذه النصيحة ذاتها قدمها لنا عالم النفسالمعروف « وليم جيمس » منذ سنوات بعيدة عنـدما قال فى مقـاله « انجيل الاسـترخاء » ان الانسان الحديث شـديد القلق ، عظيم الاهتمام بالنتائج ، بالغ القلق (وكان هـذا فى عام ١٨٩٩) وانهناك وسيلة أفضل وأسهل . . ان البصيرة والواجب ، وعواطف الطموح والقلق لها ولا شك دور ضرورى جدا فى حياتنا ، ولكن حاول ان تقصرها قـدر الامكان على الفرص التى تكون فيها مهتما باتخاذ قراراتك العـامة واكثرها بعدا عن التفاصيل . . وعنـدما تصل الى قرار ، فلا تبـد أى اهتمام بشأن النتيجـة . . أطلق العنان لاجهزتك العقلية والعمليةودعها تجر فى حرية ، وستكون الخـدمة التى تؤديها لك أفضل بنسبة مضاعفة .

ويمكن رؤية الدليل علىصحة هذا

المبدأ في تجارب الكتاب والمخترعين وغيرهم من العاملين في ميادين الخلق والابتداع ، اذ سيقولون لنا جميعا ان الافكار الخالقة ليست تفكيرا واعيا ناتجا عن تفكير بالمخ الامامي ، بل هي تأتي طوعا أشبه ببرق السماء ، وذلك عندما ينطلق العقل الواعي ويشغل بشيء آخر .. وهذه الافكار الخالقة لاتأتي بطبيعة الحال دون تفكير واع تمهيدي حول المشكلة .

وتشير كل الدلائل الى الجزم بأنه لكي تتلقى وحيا أو الهاما فان على الانسان ان يكون مهتما أولا بحل مشكلة معينة ، أي انه يجب ان يفكر فيها بطريقة واعية ، ويبحث كل سبل العمل الممكنة ، ولكن بعد ان يحدد المشكلة ويحصل على كل المعلومات التي يستطيع الحصول عليها ، فان أي كفاح اضافي لن يفيد ، بل يبدو انه يعرقل العثور على حل .

يقول برتراند راسل : « لقد وجدت انني اذا كنت مضطرا لكتابة بعض الموضوعات الصعبة ، فان أفضل وسيلة لذلك هي ان أفكر فيها باهتمام بالغ وبأعظم جهد استطيع ان ابذله .. وذلك خلال بضع ساعات أو بضعة أيام ، وفي نهاية هذا الوقت ابدأ في اصدار الاوامر .. اي ان يسير العمل تحت الارض وبعد بضعة اشهر ، أعود الى الموضوع في وعي ، فأجد ان العمل قد تم انجازه » .

فاذا كنت تكافح مشكلة ما دون ان تحرز أي تقدم واضح ، فحاول أن تبعدها عن ذهنك ، واجل اتخاذ قرار فيها الى ان تتاح لك فرصة « للندم عليها » . وقد قيل ان سير ولتر سكوت كان يقول انه كلما وجد ان افكاره لاتطاوعه ، قال لنفسه : « حسنا .. سوف اجدها في السابعة من صباح غد» ثم ينام .

ويجب ألا نفترض ان هذه العملية من عمل العقل الباطن مقصورة على الكتاب والمخترعين والذين يشتغلون بالاعمال الخالقة ، فنحن جميعا نقوم بأعمال خالقة ، سواء أكنا ربات بيوت نعمل في المطبخ ، أو مدرسين أو طلبة أو بائعين أو رجال اعمال .. كلنا لديه نفس التركيب الآلي للنجاح ، وسوف ينجح في حل المشاكل الشخصية ، كادارة محل أو بيع السلع ، تماما كما ينجح غيرنا في كتابة قصة أو اختراع .. وبعض علماء النفس يصفون مانسميه بأنه « عبقرية » على اعتبار انه عملية أو طريقة طبيعية يعمل خلالها العقل البشري لحل اية مشكلة .. وليس في

كتابة مؤلف او رسم صورة فقط .

ولكن هناك كلمةتحذير واحدة ..

وهى اننا لانستطيع ان نقوم الا بعمل واحد فقط فى الوقتالواحد .. فاذا كنت تستخدم عقلا الكترونيا ، فلابد من ان تخلى الآلة من المسائلالسابقة قبل ان تعهـد اليها بمسألة جديدة ، والا فان اجزاء من المسـائل القديمة أو الموقف السـابق سوف تستمر ضمن الموقف الجديد وتقدم لكالآلة اجابة خاطئة .

والعادة السخيفـة التى تجعلك تحاول عمل اشياء كثيرة فورا هى من اكبر اسباب الارتبـاك وخيبة الامل والعصبية .. فرجل الاعمال بدلا من أن يركز فكره على خطاب واحد يقوم باملائه ، فانه يفكر فى مؤخرة عقله فى كل الاشيـاء التى يجب ان ينجزها اليوم ، أو هـذا الاسبوع ، ويحاول عقله ـ دون وعى ـ ان ينجـزها كلها فورا .

اعمل على تخفيف هذا الضغط . حتى فى اكثر ايامك عمـلا ، فان اكثر الساعات زحاما تمر بنـا لحظة فى كل مرة ، ومهمـا كانت المشاكل أو الاعمـال أو انواع التوتر التى نواجهها كثيرة ، فانها تأتى الينا دائما واحدة واحدة .. فهذه هى الطريقة الوحيدة التى يمكن ان تأتى بها .

أفضل الصور الذاتية

طلب الى العـالم الفسيولوجى « ايفان بافلوف » وهـو على فراش موته ان يقـدم آخر نصائحه الى تلاميـذه عن كيفية احراز النجاح ، فأجاب : « العاطفـة والتدرج » فاذا أردنا أن نحسن أنفسنا الى حد كاف ، وكنا على استعداد لان نقوم بتدريبات منتظمة لهـذه الغاية ، فان تركيبنا الآلى الداخلى سـوف يكافىء جهودنا باخلاص ، والمكافأة بحرية الشخصية وحـدها يمكن ان تكون فائدتها لاتعد ولا تحصى ..

انمانسميه شخصيةليسفىالواقع غير التعبير الحـر الـكامل عن الذات الحقيقية . فعندما نقول ان لشخص ما « شخصية طيبة » فان مانعنيـه حقا هو انه اسـتطاع ان يحرر القوى الابتداعيـة فى نفسه ، وانه اصبح قادرا على التعبـير عن ذاته الحقيقية .. وكل انسـان مثلا يحب الطفل لا من أجـل ما يستطيع الطفـل أن يعرفه أو يفعله ، أو مايملـكه ، بل لمجرد أنه هو نفسه .. فالطفل أمين فى عاطفتـه دون ردع على الاقل .. وهو يمثـل الحد الاقصى للمبدأ النفسانى القائل : « كن نفسك »

ان الشخصيـــــة الضعيفة ، والشخصية المقيـدة ، هما شخصية واحدة ومتمـاثلة . فالفرد الضعيف الشخصية لايعبر عن النفس الخالقـة في اعماقه . انهيخاف ان يكون نفسه، ومن المحتمل ان يتدفق الفشل الناتج من ذلك الى كل مايفعل .

فدعونا لانقيد تقبلنا للحياة بشعور عدم الجـــدارة ، فقد اتاح لنا الله العفو والســـعادة اللذين يتأتيان عن تقبل النفس ، وهى اهانة للخالق أن ندير ظهورنا لهـــذه المنح ونقول ان الشيء الذى خلقه ـ وهو الانسان ـ لايستأهل شيئا أو لااهمية له !

ان أكثر صــور الذات واقعية هى ان تفهم نفســك باعتبار انك صنعت فى صورة الله ، وانك لن تستطيع ان تدرك هذه العقيــدة باخلاص الا اذا جربت احســـاسا جديدا عميقا من القوة والسلطان .

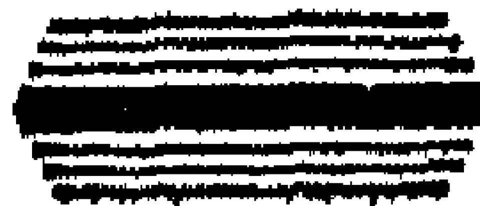
ملخصة عن كتاب « الدراسة النفسـية للعقول » بقلم الدكتور ماكويل مالتز



الفرق ..

سالت المضيفة ضيفها الضابط الكبير الذى عاد اخيرا الى واشنطون من ميدان القتـال عن رايه فى الحياة فى العاصمة الامريكية فقال :

ـ ان الحياة هنا اقسى منها فى اوربا خلال الحرب ... فان كل الاعداء هناك يرتدون ثيابا تكشف عن شخصيتهم ..!



استثمار جيد !

بعد ان امنت على حيـاتى بمبلغ ٥٠ الف دولار قبل قيامى برحلة بالطائرة .. صعدت على ميزان قريب ووضعت فيه قرشـا ، فاذا فاذا بى اجد وزنى مكتوبا على بطاقة ، تحمل على ظهرها هذه الكلمات :

« استثمار اخير قد يعود بارباح ضخمة »!

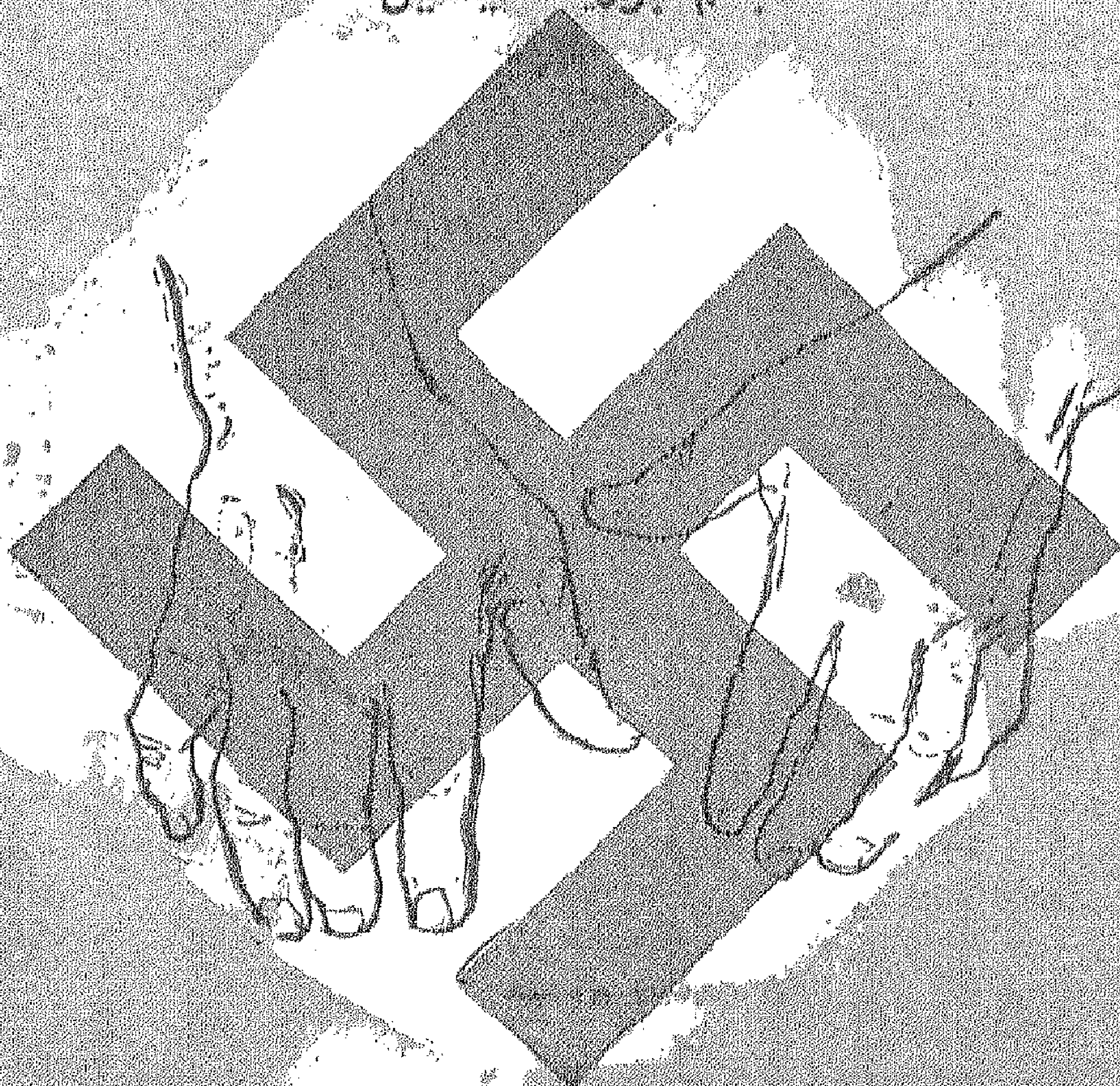
كتاب الشهر

الأصابع السحرية

عن كتاب

The Man with the Miraculous Hands

بقلم جوزيف كيسيل



صاحب الايدى الساحرة فى هذا الكتاب هو الدكتور فليكس كيرستن ، الطبيب الموهوب الذى أصبح له نفوذ عجيب على هنريخ هيملر، الذى يعد من افظع الشخصيات فى تاريخ العالم الحديث ... وقد عهد الى كيرستن ان يعالج الرجل الثانى فى المانيا الهتلرية ، فاستخدم نفوذه العجيب فى انقاذ ارواح كان مقدرا لها الفناء ...

كان كيرستن يختطف ضحايا هيملر من معسكرات الاعتقال وغرف الغاز اسبوعا بعد اسبوع وشهرا بعد آخر خلال السنوات الدامية بين ١٩٤٠ و١٩٤٥ ، حتى انقذ عددا من الصعب تقديره من الهولنديين والفنلنديين والنرويجيين وغيرهم .

وفيما يلى يحكى جوزيف كيسيل قصة الدكتور كيرستن العجيبة ، فى هذه الترجمة الحية لحياته التى نشرت اولا بالفرنسية باسم ((الايدى صاحبة المعجزة)) فى الصيف الماضى ، فنالت رواجا عظيما ..

لم يكن المبنى رقم ٨ بشارع الامير البريخت يختلف فى مظهره الخارجى عن أى مبنى عام آخر فى برلين قبل الحرب فيما عدا حجمه الكبير ، فقد كان بيتا ضخما رمادى اللون ، تخفق فوقه أعلام الصليب المعقوف ... ولكن هذا المبنى الكئيب المنظر كانت تحوطه حراسة لا تنقطع ليلا ونهارا ، وعندما يقترب منه الناس ، يسرعون الخطى ، ويبعدون أبصارهم عنه ، فقد كان هذا هو مقر القيادة العامة لهنريخ هيملر رئيس الحرس الحديدى ، وزعيم الجستابو ... وأكثر الرجال فظاعة فى كل المانيا .

وبعد ظهر احد أيام شهر مارس ١٩٣٩ ، توقفت سيارة فاخرة مغلقة يقودها سائق خاص أمام هذا العنوان .. وهبط منها رجل سمين ، اقترب من المبنى الرمادى وكأنه لا يعرف شيئا عن طابعه الشرير .. وطلب الرجل مقابلة هيملر .. فسأله احد الحراس :

ــ الرايخ فوهرر شخصيا .؟

(وهذا هو اللقب الذى اضفاه هتلر على رجله الاول)

ــ اجل ... شخصيا

واستمع الحارس الى اسم الزائر ، ثم اختفى سريعا داخل المبنى .. وبعد فترة قصيرة ظهر ضابط يرتدى القميص الاسود الخاص بالحرس الحديدى ، ورفع ذراعه بالتحية

---

* اشتهر جوزيف كيسيل فى فرنسا كقصصى وصحفى وكاتب للسينما ، وقد ولد فى ١٨٩٨ فى الارجنتين وامضى سنوات طفولته فى الاتحاد السوفيتى ، واستقر اخيرا فى فرنسا مع اسرته وهو فى العاشرة من عمره ، وفى الحرب العالمية الاولى خدم كيسيل فى السلاح العربى الفرنسى ، وفى الحرب الثانية انضم لقوات المقاومة السرية ، حتى اضطره الجستابو الى الفرار الى بريطانيا عن طريق اسبانيا ، وفى عام ١٩٥٩ فاز كيسيل بجائزة موناكو وقدرها مليون فرنك على كتاباته بالفرنسية .

النازية وصاح : هايل هتلر

ثم قال للرجل السمين : اتبعنى

لم يكن يبدو على هذا الزائر الذى يعامله الضابط باحترام بالغ شىء مما يميز الاشخاص الذين يأتون الى هذا المبنى ، وهم عادة من ضباط الحرس الحديدى ، ورجال البوليس ورجال الخدمة السرية ، والمبلغين ، والمشتبه فيهم يستدعون لاستجوابهم ...

وتقدم الضابط الزائر خلال ردهات تزدحم بالحراس والجنود ، ثم هبط الى ممر طويل حتى وصل امام أحد الابواب — وقبل أن يطرق الباب ، فتح الباب بعنف ، وظهر هيملر نفسه الذى كان يقف فى الانتظار ..

كان هيملر رجلا ضئيل الحجم ، ضيق الكتفين ، ذا شارب خفيف ، يرتدى بذلة جنرال فى الحرس الحديدى ، وقد برزت عظام وجنتيه وسط وجهه الشاحب اللون ، ووضع فوق انفه عوينات ذات اطار من الصلب

وقال هيملر وهو يقود زائره الى مكتبه :

— شكرا على حضورك يا دكتور ... لقد سمعت عنك الكثير . لعلك تستطيع أن تخفف هذه الآلام الفظيعة التى تعذب معدتى ، ولا تسمح لى بالحديث أو حتى بالجلوس فى سكون

وترك هيملر يد ضيفه واستطرد يقول :

— لم ينجح طبيب واحد فى كل المانيا فى شفائى ... ولكنهم أكدوا لى أنك تنجح حيث يفشل الآخرون .

ولم يجب الدكتور فليكس كيرستن ... ولكنه أخذ يحدق فى ملامح الرجل الذى يقف أمامه ... هذا الراس البارز العظام — ذو الشعيرات المتناثرة ، هو الذى فكر ونفذ التدابير التى أثارت الرعب فى نفوس الالمان وكل الرجال المتحضرين ... ولكن هذه الملامح الشاحبة المسترخية تكشف عن الآلام المروعة التى يعانى منها صاحبها .

وقال بعد قليل : هل تسمح بخلع ثيابك حتى الوسط ، والاستلقاء على ظهرك فوق هذه الاريكة ؟

وأسرع هيملر بالامتثال ... وجذب كيرستن مقعدا الى جواره ، ومد يديه يتحسس الجسم الممدد أمامه ...

كانت يداه مكتنزتين ، ولكن كل اصبع منهما كانت اكثر امتلاء من المعتاد .. ومضت اليدان تتنقلان فى كل مكان ، وأغمض الرجل السمين عينيه وأصبح كأنه تمثال لبوذا .. كانت الاصابع

تمر فوق الجسم بخفة وكأنها لاتكاد تلمسه ... فتحسست حلق هيملر وصدره وقلبه ومعدته ... ثم بدأت تتوقف عند نقط معينة لتضغط فيها الى أسفل ، وهى تبحث وتصغى ..

وفجأة اطلق الزعيم النازى صرخة مؤلمة ... لقـــد ضغطت الاصابع على الرغم من خفتها ونعومتها — على بقعة معينة فى معدته فانفجر منها الم حاد وكأنه نار ملتهبة ..

وقال كيرستن برقة : حسنا جدا .. انتظر قليلا .

وانطلقت صرخة الم أخرى عندما ضغط على امعاء هيملر ... وتوالت الصرخات واحدة بعد أخرى .. كان الرجل المرعب يئن ويعض على شفتيه وقد بلل العرق حاجبيه

وسأل كيرستن : انه الم شـــديد اليس كذلك ؟

فهمس هيملر من بين أســـنانه المقفلة : الى حد شنيع .

ووضع الدكتور كيرستن يديه على ركبتيه ، وفتح عينيه ثم قال :

— انها المعدة ولا شك .. والجهاز العصبى المتصل بها بصفة خاصة ..

وسأله هيملر متوســـلا : هل تستطيع مساعدتى ؟

— سنعرف ذلك الآن فورا

وفى هذه المرة دفع اصابعه السمينة بعمق فى معدة مريضه ، وامسك طية من اللحم واخذ يعجنها ويعتصرها .. ومع كل حركة كان هيملر يصرخ من الالم .

وبعد بضع دقائق انزل كيرستن ذراعيه ، وتراخى جسمه وكأنه ملاكم يستريح بين الجولات ... ثم قال :

— هذا يكفى لاول مرة ... كيف تشعر الآن ؟

وتوقف هيملر قليـــلا قبل ان يجيب ... ثم قال بعد تردد :

— هذا مدهش ... اننى اشعر بتحسن ..

ورفع جسمه بخفة لم يكن يقدر عليها من قبل ... وقال فى دهشة :

— لم تفلح اية أدوية فى تخفيف المى .. حتى المورفين .. والآن يحدث ذلك فى دقائق قليلة .. هـــذا شيء لايصـــدق .. دكتـــور .. ارجو أن تبقى قريبا منى ... سوف أسجل اســـمك فورا فى الحرس الحديدى برتبة كولونيل .

وتململ كيرستن فى قلق وهو يفكر فى هذا العرض الخيالى ولكنه أجاب فى لهجة جدية :

— اننى اقدر جيدا الشرف الذى تضفيه على يا سيدى .. ولكن من

المستحيل على قبوله لسوء الحظ .
ومضى يقول انه يعيش فى هولندا ... مع أسرته وفى بيته وله هناك زبائن كثيرون . ثم قال :

ــ اذا احتجت الى فاننى سأعود الى برلين وأبقى فيها خلال الاسبوعين القادمين لزيارة مرضاى هنا .

فقال هيملر : ضمنى اليهم اذن يا دكتور ... وتعال هنا كل يوم

ثم ضغط على جرس فوق مكتبه، فأقبل ياوره وأدى التحية العسكرية .. فقال له :

ــ ان الدكتور كيرستن ضيف مكرم نرحب به هنا فى كل وقت ... قل ذلك للجميع .

وظل كيرستن يعالج هيملر فى مقر قيادته طوال الاسبوعين التاليين . . ولم يكن يؤدى هذا الواجب عن رغبة بلّ انه لم يحضر قط الا اجابة لرجاء واحد من أقدم مرضاه وأصدقائه الحميمين ، وهـــو رجل من رجال الصناعة الالمان يدعى أوجست ديين ألح عليه فى زيارة هنريخ هيملر ... ورفض كيرستن فى أول الامر ، ثم قبلّ بعد أن عرف أن هيملر ينوى تأميم صناعة البوتاس وســـتكون مصانع صديقه بين أهدافه ... وقال الصديق :

ــ اننى أعرف من تجربتى مدى نفوذك على مرضاك عندما تشفيهم من آلامهم .. وكان القدر هو السبب فى موافقة كيرستن ... فقد أدى هذا القرار الى انقـــاذ الالوف من الارواح ..

القدر ... والدكتور (كو)

لم يكن فليكس كيرســتن طبيبا حقيقيا ... بل كان فى الحقيقـــة ــ مدلكا ــ ولكنه كان انسانا موهوبا، يتمتع ببراعة غير عادية فى يديه ..

ولد فى عام ١٨٩٨ فى استونيا ، ثم أصبح مواطنا فنلنديا بعد الحرب العـــالمية الاولى ، وبدأ يدرس فن التدليك فى هلسنكى ، حيث يعتبر العلاج اليدوى من أقدم العلوم وأكثر الفنـــون احتراما وكان من أكبر الاخصائيين فى هذا الفن يومئـــذ الدكتور كولاندر الذى أدرك ما يتمتع به كيرســـتن من مواهب طبيعية ، فشمله برعايته ، ونال كيرستن شهادة فى التدليك العلمى بعد دراســـة استمرت عامين ، ثم سافر الى برلين لمواصلة التدريب . وفى خلال مأدبة عشاء صغيرة أقيمت فى أحـــد أيام عام ١٩٢٢ التقى بطبيب صينى عجوز يدعى الدكتور (كو) ...

كان الدكتور (كو) قد نشأ فى

دير فى (التبت) حيث أصبح لاما ، وتلقى منذ طفولته فنون العلاج الروحانى والتدليك ، وبعد أن أنفق ٢٠ عاما فى هذه الدراسة ، سافر الى الغرب حيث حصل على شهادة فى الطب من انجلترا وبدأ يزاول عمله أولا فى لندن ثم فى برلين . وبرغم شهاداته الطبية فقد كان يعالج مرضاه باستخدام التدليك ..

وفى خلال المأدبة أبدى الدكتور (كو) اهتماما بالدكتور كيرستن الشاب الموهوب وعلمه الكثير من فنون التدليك التى تلقاها فى التبت .. وفى خلال السنوات الثلاث التالية أمضى كيرستن كل دقيقة مع الدكتور كو وشاهد المعجزات التى حققها بفنه ، والتى كانت تتجاوز احلام أكثر الاطباء فى كثير من الاحوال ... وفى عام ١٩٢٥ عاد الدكتور (كو) الى التبت بعد أن احال كل مرضاه الى تلميذه الدكتور كيرستن .

وبين عشية وضحاها أصبح الدكتور كيرستن ثريا بعد أن كان لا يملك شروى نقير ... كان المرضى من أصحاب النفوذ يتقاطرون عليه ، وسرعان ما ذاع صيته خارج حدود ألمانيا . وفى عام ١٩٢٨ دعى لمعالجة الامير هندريك زوج ملكة هولندا ولهلمينا ، فأحب هذه البلاد حتى انه نقل مقره الاساسى الى لاهاى ، وان كان قد ظل يحتفظ بمسكنه فى برلين ، مع ضيعة كبيرة خارج المدينة .

وتزوج كيرستن ، وكانت زوجته الحسناء (ايرمجارد) تعرف حبه للطعام الشهى ، فكانت تملأ مائدته بالذ الاصناف ... وانجب الاثنان ولدا ، وبدا أن السعادة تتدفق عليه من كل جانب ، فقد كان يعمل بين لاهاى وبرلين وروما ... وكان حريصا على عدم الاشتغال بالسياسة

سوف تنشب الحرب

كان رد فعل هيملر لخدمات كيرستن مدهشا .. حتى خلال الاسبوعين الاولين من العلاج ... كان الرجل يقوم بأكثر الاعمال غموضا وخسة ووحشية ، ويعيش بين الجواسيس ورجال الجستابو والمتعصبين ... والجلادين ... وقد جعله كل هذا كثير الشك والارتياب ، ولكنه بعد ان هدات آلامه واستراح بين يدى الطبيب ، احس باسترخاء غير عادى ... كان كيرستن يوقف التدليك كل خمس دقائق ليتيح للاعصاب فرصة للراحة ، وفى خلال هذه الدقائق ، كان هيملر

يتحدث ..

بدأ يتحدث أولا عن نفســه ... عن مرضه ، ثم عن تفوق الجنس الالمـانى ، وأمجاد الحرس الحديدى، وفى النهاية يدور حديثه حول هتلر ... وعنــدئذ لا يستطيع أحد وقفه .. كان الفــوهرر فى رأيه عبقــريا لا يظهر الا مرة كل ألف عام ولابد للشعب الالمانى من أن يتبعه فى خضـوع أعمى حتى يصل الى ذروة أمجاده .

لم يكن كيرستن يرد على هــذا الحديث متفاديا أى تورط سياسى ، محاولا أن ينظر الى هيملر باعتباره مريضا فقط ... ولكن حدث ذات يوم أن أحس برعشة تسرى فى أوصاله عندما قال هيملر فى هدوء ، وهو مسترخ فوق الاريكة :

ـ سوف نخوض الحرب قريبا .

وهتف كيرستن على الرغم منه : يا الهى ... ماذا تقول ؟

ورفع هيملر نفسه على مرفقيه وعلا صوته فى تأثر :

ـ ستكون هناك حرب ، لان هتلر يريد حربا ... ان الحــرب تزيد الرجال قوة ورجولة ، ولكنها ستكون حربا حقيرة .. قصيرة ، سهلة ، يتوجهـــا النصر ، فالديموقراطيات أصابها التعفن ، وسرعان ما تركع على ركبتيها .

وعندما عاد كيرستن الى هولندا بعد انتهاء الاسبوعين ، كانت آلام هيملر قد تلاشت ، وكان وداعــه لطبيبه مليئا بالعاطفة والشكر ، ومرت ثلاثة أشهر قبل أن يعود كيرستن الى برلين ، وفى ذلك الحين كان هيملر فى حاجة ماسة اليه ..

وبدأت جلسات العلاج من جديد وعاد الحديث عن الحرب التى يريدها هتلر ... كان الفوهرر قد استولى على بقية تشيكوسلوفاكيا ، وتحاشت الدول الديموقراطية الدخول فى صراع عام معه ..

وفى ذلك الخريف ، عندما هاجم هتلر بولندا ، وكذبت بريطانيا وفرنسا تنبؤات هيملر وأعلنتا الحرب على المـانيا ، وجد كيرستن نفســه فى موقف حرج ... وقرر أن يستشير سفارة فنلندا قبل عودته الى هولندا فى شهر اكتوبر ، نظرا لانه كان لايزال يحتفظ بجنسيته الفنلندية فضلا عن أنه كان ضابطا فى قواتها الاحتياطية .

والتقى كيرســــــتن بكثير من الدبلوماسيين الفنلنديين ، وقال لهم انه كان يعالج هيملر منذ بضعة أشهر وانه أفضى اليه خلال شهور علاجه ببعض أسرار عســكرية وسياسية

هامة .. ثم سأل : هل يستمر فى علاجه أم لا ؟

وكان الجواب : لا تتردد لحظة .. استمر فى علاجه ، واحتفظ بثقته ، واستمر فى ابلاغنا كلّ ما تسمع وتعرف ..

فى قطار هيملر الخاص

فى مايو عام ١٩٤٠ ، اصبح مركز كيرستن عسيرا للغاية ... فقد ضم الاتحاد السوفيتى وطنه الاصلى (أستونيا) ، واذا عاد الى هناك فسيواجه الموت بتهمة الخيانة العظمى ... أما موطنه القانونى فى هولندا فقد غزته قوات هتلر ، وكان انصار النازى فى هولندا يريدون اعتقاله لصلته الوثيقة ببلاط الملكة ولهلمينا ... وبلده بالتبنى (فنلندا) اغلق أبوابه فى وجهه ، بعد أن طلب منه الاستمرار فى علاج هيملر .

وفى المانيا ذاتها ، ازدادت القيود على تحركاته .. وفى منتصف مايو أمروه باصطحاب هيملر فى قطاره الخاص الى الجبهة ، وكانت الجيوش الالمانية تتقدم فى فرنسا بسرعة هائلة وقطار هيملر يضم كلّ الادارات التى يرأسها : الجستابو ، والحرس الحديدى ، والمخابرات ، ومكافحة الجاسوسية وادارة الاراضى المحتلة .

وكان كيرستن موضع كراهية وحسد ضباط هيملر ، اذ كان يستطيع مقابلته كلما اراد ، وكان الضابط الوحيد الذى لا يشاركهم فى ذلك الشعور هو الملازم الثانى رودلف برانت سكرتير هيملر الخاص ، فقد كان شخصا متواضعا محبا للسلام ، يحمل دكتوراه فى القانون ، وقد أكسبته ثقافته وذكاؤه وأدبه احترام رئيسه وثقته ... وكان (برانت) يشكو هو الآخر من آلام فى معدته ، فطلب هيملر من كيرستن أن يعالجه اثناء وجوده فى القطار ، وهكذا اصبح كيرستن وبرانت يلتقيان كثيرا ، وقد ابدى كلاهما حرصا بالغا فى البداية ، ولكن ما لبث كل منهما أن عرف حقيقة الآخر ، فتوثقت الصداقة بينهما .

الطبيب يحدد اجره

عاد هيملر الى برلين عقب سقوط باريس ، واستأنف كيرستن حياته العادية ... فعاد الى مسكنه وعمله ، ورأى أسرته واصدقاءه مرة أخرى ، ومع انه كان يبدو أن شيئا لم يتغير ، الا انه كان يحس بقلق خفى فى اعماقه ... وفى أواخر اغسطس وقع حادث كان بداية للخدمة الفريدة التى قدمها للانسانية خلال الحرب

لقد أصيب هيملر بنوبة شنيعة من الآلام ، فاستدعى كيرستن بسرعة الى مقر قيادته ... واستطاع الطبيب الساحر أن يخفف آلامه كالعادة ... ونظر هيملر الى كيرستن ، وهو لا يزال راقدا فوق أريكته .. وقال له :

ــ لست أدرى ماذا كنت أفعل بدونك .. اننى لا أستطيع أن أعبر لك عن مدى شكرى ، انك لم تأخذ منى شيئا قط ..

وأدرك كيرستن على الفور أنه اذا قبل أى مبلغ من هيملر فسوف يصبح فى نظره شخصا عاديا يخدمه مقابل أجر ، ولن يشعر بأى التزام حياله ... وكان يعرف أيضا أن هيملر فقير لا يملك غير مرتبه ، اذ كان متعصبا فى حبه للنازية ، حتى أنه يرفض استغلال الاموال السرية التى فى حوزته .

وقال كيرستن فى لهجة ودية : انت تعرف جيدا أننى لا أتقاضى أجرى عن كل زيارة بل بعد انتهاء العلاج ... كما أننى اغنى منك كثيرا

ــ ولكن ينبغى أن اعوضك عن تعبك هذا ... فقل لى كم تريد ؟

ولكن كيرستن رفض التحدث فى هذا الموضوع . وتأثر هيملر بهذا السلوك ، فقال وهو ينهض جالسا : عزيزى كيرستن .. لا أدرى كيف أشكرك .

وتذكر كيرستن فجأة أن احد مرضاه القدماء جاءه منذ أسبوعين يلتمس منه استخدام نفوذه لدى هيملر لاطلاق سراح ملاحظ مزرعته الذى اعتقل دون جريرة الا أنه كان يوما من الديموقراطيين الاشتراكيين

وأخرج كيرستن مذكرة عن الموضوع من حافظته ... قدمها لهيملر وهو يقول :

ــ ها هى فاتورتى يا سيدى .. اننى أريد حرية هذا الرجل !

وألقى هيملر نظرة على المذكرة .. ثم قال :

ــ اننى أوافق على طلبك .. لانك أنت الذى طلبته .

ونادى سكرتيره الخاص وسلمه المذكرة طالبا الافراج عن الرجل فورا

اختبار للقوة

ولكن هيملر بعد أن استرد صحته عاد ثانية مخلوقا قاسيا لا يلين ... حتى أمام طبيبه الساحر ... وفى ذات يوم قال له بجفاء :

ــ هل صحيح أنك مازلت تحتفظ ببيتك فى هولندا كما يقول رجالى ؟ لقد حذرتك مرارا ولن أستطيع

حمايتك طويلا . لابد أن تتخلص من هذا البيت . انني أمهلك عشرة أيام لتنفيذ ذلك ، وعليك ان تمر على مقر قيادة الجستابو فى هولندا كل يوم .

وما أن عاد كيرستن الى هولندا حتى تقاطر عليه الاصدقاء يحكون له فظائع الاحتــلال وانباء الاعتقالات والتعذيب والابعاد والاعدام السريع ... وكان اكثر ما يؤلمه انه لم يكن يستطيع أن يفعل شيئا حيال ذلك كله ..

وفى ذات يوم هاجم رجال الجستابو بيت صديقه (بنجل) تاجر التحف واقتادوه معهم ، فأسرع كيرستن الى ولتر روتر مدير الجستابو هنـــاك وابلغه النبأ ... فقال روتر وهو يحدق فيه :

ـ لقد كانوا ينفذون اوامرى ... ان بنجل خائن وعلى اتصال بلندن .. وسأقوم أنا باستجوابه بنفسى

وقال كيرستن : انه لم يفعل شيئا ضد المانيا وأنا أضمن براءته ... اطلقوا سراحه

وغضــب روتر من هــذا الاجنبى الذى يصدر اوامره له ، فدق المائدة بعنف قائلا :

ـ لن أفرج عن هذا الخنزير مهما كانت الظروف ... وخاصـــة لانك طلبت ذلك ..

وقال كيرستن ببرود :

ـ ارجو أن تصلنى تليفونيا بالهر هيملر .

وقفز روتر من مقعده وهو يقول فى ذهول :

ـ هذا مستحيل ... اننى عندما اريد محادثة هيملر لابد ان اتصل به عن طريق هيــدريتش مدير فروع الجستابو كلها .

فقال كيرستن مصرا : حاول ... وسترى .

ورفع روتر السماعة ، ونقل رغبة كيرستن فى الاتصال بهيملر ... ثم تظاهر بالانشغال بقراءة بعض الاوراق وبعــد خمس دقائق دق جرس التليفون ، فرفع السماعة .. ثم بدت على وجهـــه نظرة هلع .. وقدم السماعة للدكتور ...

كان هيملر نفسه يتحدث !. وقال له كيرستن انهم اعتقلوا صـــديقا حميما له وطالب باطلاق سراحه لانه يضمن براءته .. وعنـدئذ قال له هيملر :

ـ متى تعود ... اننى فى اشــد الحاجة اليك ..

كان الالم قــد عاد يفتك بالرجل الرهيب ... وكان فى تلك اللحظة

على استعداد لان يفعل أى شىء فى سبيل الحصول على كيرستن ... الذى قال له :

ـ اذا اعتقلوا صديقى فلن أحضر

وصاح هيملر : اعطنى روتر سريعا

وأمسك رئيس الجستابو فى هولندا سماعة التليفون وقد تجمد وجهه .. ثم قال :

ـ حسنا يا سيدى الرايخ فوهرر ... سأفعل فورا .

ووضع الرجل السماعة ثم قال فى ذهول :

ـ سوف نطلق سراح صديقك الآن !

رسائل غرام من هولندا

فى خلال الشـهور التالية تلقى كيرستن سـيلا من المعلومات من هولندا ... تفاصيل تتعلق باعتقالات مفاجئة وسرقات وعقوبات ظالمة .. وكانت الرسائل تصل اليه بأسـلم طريق ، اذ كانت تصل ضمن بريد هيملر الخاص ، وكان برانت يفرزها ويسلمها لكيرستن كما هى .. وكان كيرستن قد زعم لصديقه برانت .. ولهيملر نفسه أنه على علاقة غرامية ببعض نساء هولندا ، وانه يخشى أن يطلع الرقباء على رسائلهن اليه أو تراها زوجته ، فوافق هيملر فورا على اسـتخدام بريده لنقل رسائل صديقه الغرامية !

وكان كيرستن يختار الرسائل التى تؤثر فى نفسه أكثر من غيرها ... ثم يشير اليها عرضا فى حديثه مع هيملر وفى أوقات مناسبة ... وما لبث أن ابتكر طريقـة فنية لعرض التماساته ... وذلك خلال ازدياد الآلام على هيملر ، وقيامه باستخدام يديه الساحرتين فى تخفيف هـذه الآلام ... كان فى خلال هذه الفترات يلتمس عفوا أو افراجا عن معتقل أو الغاء لمرسـوم ، ولـكن هذه الفرص كانت نادرة ، ولا تكاد أزمة الالم تنتهى حتى يفقد كيرستن نفوذه ، ولهـذا بدأ يتملق غرور هيملر الذى لا حد له ، فيقول له ان الاجيال المقبلة سوف تقول انه أعظم زعيم للشعب الالمـانى وانه بطل لا مثيل له ، ومن ثم فانه يجب أن يكون كريما فى تصرفه

ولـكن ازدياد عدد الناجين من الخطر على يدى الدكتـور كيرسـتن اثار شكوك زعماء الجستابو ، وكان كيرستن يدرك أنهم سوف يعرفون السر ان عاجلا أو آجلا ، ولا سيما أن هيملر كان يطالبهم دائما بمواصلة الارهاب دون هوادة أو لين ..

مشروع الابعاد الخيالى

فى ظهر أول مارس ١٩٤١ وصل

كيرستن الى مقر قيادة هيملر ، ولكنه وجده مشغولا باجتماع هام فقرر انتظاره فى ميس الضباط .. واحس وهو يعبر القاعة المزدحمة أن احدا لم يعره أدنى اهتمام ، ولكنه تجاهل هذا الجو العدائى وجلس فى أحد الاركان يتناول قدحا من القهوة وبعض الكعك ..

وبينما كان يرشف قدحه ، أحس بضجة من حوله .. وتطلع بعينيه فرأى ولتر روتر ورينهارد هايدريتش مدير الجستابو الذى يلى هملر فى المرتبة يدخلان القاعة ويسيران فى اتجاهه ، ثم جلسا على مائدة قريبة منه دون أن يلحظا وجوده لانهماكهما فى حديث ينال كل اهتمامهما .

وارهف كيرستن أذنيه لسماع مايدور بينهما ، ومع انه لم يستمع الى الكثير الا أنه أدرك مما سمع ان هناك مشروعا جهنميا يدبر لهولندا وانه سينفذ فى موعد قريب ..

وبذل كيرستن جهدا كبيرا حتى انسحب فى هدوء ، وتوجه الى مكتب هيملر لعلاجه ، ولم يذكر له شيئا مما سمعه ..

وبعد ظهر ذلك اليوم اتصل كيرستن ببرانت تليفونيا وطلب مقابلته على انفراد ، واتفقا على اللقاء مساء فى مكتب برانت ، وهناك كرر كيرستن على مسامعه ما التقطته أذناه فى ميس الطعام وسأله :

ــ ماذا يجرى الآن ؟

وتردد برانت لحظة .. ثم اغلق الباب بالمفتاح وقال : اذا جاء احد الآن فسأقول انك تعالجنى . ثم اخرج من مكتبه مظروفا كبيرا كتب عليه « سرى جدا » وهمس قائلا :

ــ لاتنس بحق السماء اننى لم اذكر لك شيئا .. ولم تر شيئا .

وبدأ كيرستن يقرأ أوراق المظروف ، بينما وقف برانت امام النافذة يرقب الطريق .. كانت الوثائق تكشف عن مشروعات لابعاد ثلاثة ملايين هولندى الى اقليم (لوبلين) فى بولندا ، وقد خول هتلر ساعده الايمن هيملر تنفيذ هذه المشرعات !

وفى اليوم التالى عاد كيرستن الى مكتب هيملر بعد ان قضى ليلة مؤلمة لم يغمض له فيها جفن .. وبينما كان هيملر متمددا على الاريكة واصابع الطبيب الساحر تضغط فى رفق على مراكز اعصابه .. سأل كيرستن بصوت هادىء :

ــ ماهو موعد بدء عملية ابعاد الهولنديين ؟

وقال هيملر وكأنه واقع تحت تأثير

تنويم مغناطيسي :

ـ ٢٠ ابريل ... عيد ميلاد هتلر . وساد السكون الغرفة .. فجأة قفز هيملر جالسا وصاح :

ـ ولكن .. كيف جاءتك هذه المعلومات ؟

فقال كيرستن انه سمع روتر وهايدريتش يناقشان الموضوع في قاعة طعام الضباط ، فصرخ هيملر :

ـ يا لهما من غبين ثرثارين ..

وشكر كيرستن لانه ابلغه ذلك .. واستأنف الدكتور تدليكه برهة .. ثم قال بلهجة جادة :

ـ ولكن هذه العملية ستكون اكبر غلطة في حياتك

ولم يغضب هيملر أو يثر ، بل قال له انه لايعرف شيئا في السياسة ، وان خطة الفوهرر تكشف عن عبقرية تامة .. ثم قال : « لقد اخذنا بولندا ، لكن البولنديين يكرهوننا . ونحن في حاجة الى دماء المانية هناك .. والهولنديون المان على الرغم من خيانتهم ، وسوف يتعلمون في بولندا كيف يغيرون مسلكهم حيالنا لان البولنديين سوف يعاملونهم باعتبارهم اعداء ، وعندئذ يلتجئون الينا لحمايتهم .. اما هولندا فسوف نملؤها بالشبان الالمان من الفلاحين

فقال كيرستن :

ـ انني افكر في صحتك . لقد قلت لي منذ أيام ان هتلر طلب منك زيادة عدد الحرس الحديدي الى مليون بدلا من ٦٠٠ ألف ، وهذا عمل مرهق جدا بالاضافة الى واجباتك الاخرى التي تتعبك الى أقصى حد .. فكيف تضيف الى كل هذا عبء عملية الابعاد ؟

ـ لاخيار لي في ذلك .. انه أمر شخصي من الفوهرر .

ـ أيهما أهم .. زيادة الحرس الحديدي ام ابعاد الهولنديين ؟

ـ زيادة الحرس الحديدي دون شك .

ـ اذن يجب ان تؤجل الخطة الثانية الى مابعد النصر النهائي

ـ هذا مستحيل .. ان هتلر يريد تنفيذ الخطة الآن .

ـ عليك اذن أن تبحث عن شخص آخر يقوم بها

فدق هيملر المائدة بيده وقال غاضبا :

ـ ان مشروعا له مثل هذه الاهمية ، لايأتمن عليه الفوهرر أحدا غيري .

كفاح لانقاذ أمة

وكرر كيرستن محاولاته مع هيملر

خلال الاسـابيع التالية دن جدوى فقد كان خوفة من هتلر أقوى من نفوذ طبيبه عليـه .. وكانت الايام تجرى بسرعـة ، وفى أواخر مارس حدث شيء غريب .. فلأول مرة منذ عامين لم تشف اصابع كيرستن آلام هيملر .. وقال الطبيب :

ـ لقـد حذرتك من قبل .. انك لاتستطيع تحمل العبئين معا فى وقت واحـد . ان جهازك العصبى لم يعد يطيعك ، فاترك احـد العملين وانا اضمن شفاءك من الالم .

وفى أوائل ابريل ١٩٤١ هـاجمت القوات الالمانيـة يوغوسلافيا ، واقام هتلر مقر قيادته على مقربة من الحدود اليوغوسلافية واضطر هيملر لمصاحبته برغم آلامه الشـديدة ، ولم يكن يغادر فراشـه فى القطار الخاص الا لمقابلة هتلر .. وكان كيرستن يدعى لعلاجه ليلا ونهارا ، وفى خلال جلسات العلاج ، كان كيرستن يكرر له :

ـ انت مجنون ياهيملر .. هانتذا ترى بنفسك انك لاتستطيع عمل كل شيء بنفسك .. اجل عملية الابعاد ..

وقبل الموعد المحدد لتنفيذ العملية بأسبوع اشتـدت الآلام على هيملر وتضاعف عذابه ، وعندئذ زاد كيرستن حملته لاقناعـه بتأجيل الخطة ، فسأله هيملر :

ـ ولكن ماذا عساى اقول لهتلر ؟

ـ قل له انك لاتسـتطيع مباشرة المسئوليتين فى وقت واحد ، وان هناك نقصـا فى السفن وزحاما فى الطرق ، وان هذه العملية ستؤخر تجنيد فرق الحرس الحديدى الجديدة .

ووافق هيملر أخيرا .. وعاد هتلر الى برلين بعـد اتمـام احتلال يوغوسلافيا ، وتبعه هيملر ، وفى خلال رحلة العـودة ازدادت عليه الآلام ، وكان كيرستن يبطىء فى علاجه ليظل بلا حـول ولا قوة الى ان يعـود الى برلين ..

وما كاد هيملر يصل الى العاصمة حتى انطلق لمقـابلة هتلر .. وبعد ساعتـين اتصل تليفونيا بكيرستن وقال له :

ـ ان الفوهرر انسان كريم كما هو عبقرى .. لقد اجل خطة الابعاد

ومع ان هيملر لم يشك فى دوافع كيرستن للالحاح فى تأجيل هذه الخطة وكان يعتقد انهـا دوافع يمليها عليه واجب الصـديق والطبيب ، الا ان هايدريتش كان اكثـر شكا ، وقد حاول ذات مرة ان يعتقـل الدكتور كيرستن اثناء غياب هيملر فى ميونخ ، ولكن هيملر غضب غضبـا شديدا

وامره بالافراج عنه فورا

وفى سبتمبر ١٩٤١ ، ارسل هايدريتش الى مهمة خاصة فى بوهيميا .. ثم قتله الوطنيون التشيك فى براغ فى ٤ يونيو ١٩٤٢ .. وخلفه فى رئاسة الجستابو « ارنست كالتنبرونر » .

وفى ٢١ يونيو ١٩٤١ عندما اقدم هتلر على مغامرته الكبرى بالقاء بقواته ضد الاتحاد السوفيتى ، بدأ قطار هيملر رحلته صوب الحدود الشرقية وفى ركابه كيرستن .. وكان هيملر يلتقى كل ليلة بهتلر فى مقر قيادته المتحرك ببروسيا الشرقية ..

واستمر الزحف الالمانى السريع ثلاثة أشهر ، وكانت أعمال هيملر تزداد كل يوم وتزداد معها آلامه ، مما يضطر كيرستن الى البقاء الى جواره .. وعندما استطاع اخيرا العودة الى برلين فى اكتوبر ، كان الشتاء القارس المرير قد بدأ يشل حركة الجيش الالمانى

وفى ذات يوم من ذلك الخريف ، عندما توجه كيرستن لعلاج هيملر فى برلين ، وجده فى حالة قنوط فسأله عن السبب .. فقال هيملر :

ـ سأقول لك كل شىء .. فأنت صديقى الوحيد .. ان الفوهرر لم يعد يثق بى ثقة تامة ، والسبب فى ذلك اننى طلبت منه ان يسند عملية ابادة اليهود الى شخص سواى

عقد باسم الانسانية

بينما كانت الحلقة تزداد ضيقا حول المانيا ، كان غضب هتلر الجنونى لايعرف حدودا ، وعرفت المخابرات الامريكية انه فى احدى نوبات الغضب أمر هيملر بنسف معسكرات الاعتقال بكل من فيها بمجرد وصول الحلفاء الى مسافة ثمانية كيلو مترات منها .. وكانت هذه المعتقلات تضم فى ذلك الوقت ٨٠٠ ألف .. ولجأت امريكا الى السويد لمنع هذه المجزرة ، ولجأ وزراء السويد بدورهم الى الدكتور كيرستن خلال احدى زيارته لاستوكهولم ، لكى يمنع هذه المذبحة التى يبدو أن لامفر منها ..

وبينما كان كيرستن يعالج هيملر يوما سأله عن هذا الموضوع فأكده له قائلا :

ـ اذا كنا سنفقد الحرب ، فلابد ان يموت اعداؤنا معنا .

وراح كيرستن يثير فيه نخوة عظماء المانيا وقال له : انت الآن أقوى من هتلر . ان بلادك تنهار وجيوشها تتهاوى فى كل مكان . انك لاتزال تمسك فى يدك القوة الوحيدة الباقية ،

وهى الحرس الحديدى ، فكن كريما .

فقال هيملر :

ــ ومن الذى سيشكرنى على ذلك .؟

لا أحد .

ــ سوف يكون لك مجد انقاذ ٨٠٠ الف حياة ، ولن ينسى التاريخ ذلك .. واستمر كيرستن يوالى محاولاته يوما بعد يوم .. واخيرا كتب هيملر بخط يده فى ١٢ مارس ١٩٤٥ اغرب وثيقة من وثائق الحرب وقد أسماها « عقد باسم الانسانية » وتتضمن التعهد بعدم نسف معسكرات الاعتقال والسماح للسويد بارسال الهدايا الى المعتقلين .. ووقع هيملر على الوثيقة ومعه كيرستن !

وقال هيملر فى آخر مقابلة له مع طبيبه :

ــ لست أدرى الى متى أظل حيا .. ولكن مهما حدث ، ارجو الا تفكر فى تفكيرا سيئا . لقد ارتكبت اخطاء كثيرة حقا ، ولكن هتلر كان يريد منى ان اكون قاسيا ..

وعلى ضوء الصباح الباكر ، شاهد كيرستن دموعا تتألق فى عينى الرجل الذى امر بقتل وذبح اكبر عدد من الضحايا فى التاريخ ..

وبعد استسلام المانيا باسبوعين ، كان هيملر لايزال حرا طليقا ، الى ان اعتقله الحراس البريطانيون فى يوم ٢١ مايو ١٩٤٥ عند كوبرى بريموفورد فى الشمال الغربى لالمانيا متنكرا باسم هنريخ هتزنجر .. ولكنه أفلت من المحاكمة كمجرم حرب ، بالانتحار بقنينة سم بين اسنانه وهو فى السجن ..

واستقر كيرستن بعد الحرب فى السويد ، وفى عام ١٩٥٣ منح الجنسية السويدية لدوره الرائع فى انقاذ الوف المعتقلين .. وظل يمارس عمله الطبى فى كل من المانيا والسويد وهولندا وفرنسا الى ان توفى بنوبة قلبية فى ١٦ ابريل ١٩٦٠



ركاب ..

عندما توقف سائق احدى سيارات النقل لتناول طعام الافطار فى بلدة « كامنج » بولاية جيروجيا ، انطلقت اربعة عصافير صغيرة من تحت غطاء السيارة الامامى وراحت تلتقط قطعا من فضلات الطعام فوق أرض الطريق

وبعد نصف ساعة عاد السائق الى سيارته وادار آلتها ، وعندئذ طارت العصافير الاربعة بسرعة عائدة الى مكانها تحت الغطاء !

كتاب الشهر

رأسي في فم الأسد



ملخص كتاب

« Here, Keller... Train this »

بقلم جورج كيللر

رأسي في فم الأسد

طرحت صحيفتي اليومية جانبا ، وأمسكت سماعة التليفون الذى كان يدق عندئذ .. وسمعت صوت الموظف المختص بمخازن السكك الحديدية يقول لى :

ـ يستحسن ان تحضر الآن فورا يا استاذ .. وأحضر معك سيارة نقل ..

كان صوته يتهدج بالتأثر والانفعال .. فسألته :

ـ ماذا حدث ؟

ـ عندى شيء لك .. ولكن أسرع بالله ، ولا تنس سيارة النقل .

كان ذلك فى صباح يوم السبت ، ولم يكن فى جدولى دروس بكلية المعامين ببلدة « بلومزبرج » الصغيرة بولاية بنسلفانيا ، وكنت رئيسا لقسم الآداب فى الكلية .. وعندما دق جرس التليفون ، كنت أنعم بتناول افطارى على مهل ، وكانت زوجتى اليانور فى المطبخ ، ويبدو أنها لم تسمع رنين التليفون ، كما أننى لم أذكر لها شيئا ، فقد انتابتنى حالة عصبية عجيبة ، وظل هذا الاحساس المشئوم يساورنى عندما أوقفت سيارة النقل التى استعرتها من أحد اصدقائى أمام مخزن السكك الحديدية .. وعندما اقتربت من مكتب الموظف المختص ، سمعت زمجرة وزئيرا لحيوان متوحش .. ولما ازداد قربى ، سمعت صوت أخشاب تتحطم .

كان هناك حشد من الناس قد تجمع أمام باب المكتب الذى كان مفتوحا بما يتسع لدخولى فقط .. وسألت الموظف : ماذا حدث ؟

قال وهو يجذبنى الى الداخل ويغلق الباب خلفى :

ـ انظر بنفسك .. ولكن خذه من هنا قبل أن يفر ويأكل أحدا !.

كان هناك صندوق كبير مصنوع من ألواح خشبية وشبكة من الاسلاك فى غرفة شحن الاثاث ، وقد برز من الصندوق رأس أسد جبلى كامل النمو ، يحاول أن يشق طريقه الى عالم الحرية .. وبدا من منظر الثغرة التى أحدثها أنه على وشك الخروج من الصندوق فى أية لحظة .

وتناولت قطعة خشب من الارض ، ورحت أدفع رأس الاسد الى أسفل ، ثم ناولنى موظف المحطة مطرقة

وبعض المسامير ، وسرعان ما تمكنت من اصلاح القفص .. وكأنما احس الاسد بخيبة أمل فى محاولة الهرب ، فراح يزأر ويضرب الالواح والاسلاك بقوة .

وقال الموظف . عليك ان تخرج به من هنا .. انه حيوان خطر ، وهناك اناس كثيرون يكاد الرعب يقتلهم .

وتطلعت الى الوجوه الشاحبة المستطلعة التى بدت من فرجةالباب وساءلت نفسى

ـ ترى ماذا يتوقعون منى ؟ ..

كان الاسد غريبا بالنسبة لى كما هو بالنسبة لهم . وعدت بأنظارى الى الاسد .. لقد كان جميلا حتى وهو يبدو غاضبا من خلال الالواح الخشبية . كانت له أنياب طويلة وعينان خضراوان ينبعث منهما الشرر ، وكانت عضلات سيقانه منتفخة من تحت شعره الاسمر .. انه ولا شك يزن حوالى ٧٠كيلوجراما

وسألت الموظف : هل أنت واثق انه خاص بى ؟

فأشار الرجل الى ورقة الشحن الملصقة فوق الصندوق ، وقد كتب فيها بوضوح : « البروفيسور جورج كيللر » .

وعندما تبينت ان الاسد مرسل من « فلويد تايلور » بدأت أدرك اللعبة..

لقد كنت أنا وفلويد عضوين بنادى الطلبة بجامعة كولومبيا ، وكان دائم السخرية بى لهوايتى التى تدفعنى الى الاحتفاظ بكثير من الحيوانات الاليفة وتدريبها .. ونظرت الى سقف الصندوق ، فوجدت هذه الكلمات مكتوبة بحروف ضخمة « هاهو ياكيللر .. فدربه ! »

لعلنى كنت معبولا !

قالت زوجتى : ان رجلا فى مثل مركزك لايمكنه ان يحتفظ باسد فى الحديقة الخلفية .. يجب ان تتخلص منه سريعا ..

كنت قد اودعت الاسد فى حظيرة السيارة ، وكان يثير ضجيجا شديدا بزئيره ومحاولته تمزيق الصندوق بمخالبه وأنيابه ، وقد احضرت له ستة ارطال من اللحم اتى عليها فى لحظات .. وقالت اليانور :

ـ انك لن تستطيع تحمل ذلك طويلا .

ووافقتها على ذلك ، فان مرتب استاذ فى الكلية لايكفى فعلا ، ولكنى كنت أرى ان هذا الاسد سوف يساعدنى بطريقة ما على ان احقق الحلم الذى داعب خيالى منذ مطلع حياتى ..



ولم تتحدث اليانور كثيرا بقية اليوم ، وان كنت واثقا انها كانت تشعر برعب .. لقد كانت تحب حياتها معى باعتبارها زوجة لاستاذ محترم ، ولكن هواية الاحتفاظ بالحيوانات كانت تربكها وتخيفها ، فقد كنت أحتفظ بسبعة كلاب مدربة من كلاب الاسكيمو ، كما كان لدى ذئب ودب وسحلية طولها متران .. وها هو الآن أسد يزأر فى حظيرة السيارات !

ولكن تفكيرى فى الامر كان يزيد احساسى بالبهجة والسرور ، فقد كنت أعرف فى أعماق قلبى أننى سوف أحتفظ بالاسد .. وانها ستكون الخطوة الاولى نحو كل ماكنت اريده فعلا ..

لم يكن السبب فى ذلك كراهيتى للتدريس ، فقد كنت أحب عملى ، ولكنه أصبح شيئا روتينيا لا الهام فيه ، ووجدت القلق يزحف على نفسى وأنا فى الثانية والاربعين ، فازداد اتجاه أفكارى نحو أمنية طفولتى .. فقد كنت أريد أن أكون مدربا للحيوانات المفترسة .. كالاسود ، وهاهى الفرصة تسنح امامى فجأة ..

واتصلت بعم زوجتى الطبيب

وقلت له فى التليفون اننى أريد منه تخدير أسد فى منزلى .. ودهش الرجل ولم يصدق حديثى ، ولكنه جاء على أية حال وقد بدا عليه التأثر والحيرة ، وما كاد يرى الاسد فى صندوقه حتى صاح قائلا :

ـ يا الهى .. انه حيوان جميل ، ولكنك لن تستطيع ابقاءه معك ..

قلت : ولكننى سأقوم بتدريبه .

ونظر الى الطبيب وكأننى مخبول، ولكنى صنعت انشوطة أدليتها من خلال الالواح حتى أحاطت برأس الاسد ، وعندئذ أطلق زئيرا عاليا جعل زوجتى وابنتى الصغيرتين يهرعن الى البيت فى رعب .

واستجمعت كل قواى لامساك الاسد بالانشوطة ، بينما قام الطبيب بانزال قمع من الورق المقوى ملىء بقطع القطن المشبعة بالكلوروفورم ، وما أن لمس وجه الاسد حتى غاب عن وعيه ..

وساعدنى اثنان من الجيران على نقل الاسد الضخم الى قفص جديد كنت أحتفظ به كجزء من التذكارات التى كنت اجمعها عن السيرك ،وعدت الى البيت حيث وجدت الطفلتين تتحدثان عن احتمال ظهور مدرب للاسود فى الاسرة ..

وسألتنى جين فى حماسة : كيف تدرب الاسود يا أبى ؟

ولم أستطع أن أرد عليها .. فقد كنت مثلها فى العلم !

دانيال فى عرين الاسد

تطلب الامر أسبوعا لاستجمع شجاعة كافية قبل أن أتخذ الخطوات الاولى لتدريب الاسد وبدأ أصدقائى وزملائى يتحدثون عن الامر بحسبانه فكاهة ، حتى انهم اطلقوا على اسم (دانيال) وكثيرا ما سخروا منى .. ولكننى كنت أشعر برعب بالغ .

لقد كنت أحب الاسود لجمالها واستقلالها ، ولكنى كنت اخافها ، حتى عندما اعتدت رسم صورها وانا طالب فى الكلية .. وأخيرا أسدلت ستارا كثيفا من الاسلاك على نوافذ حظيرة السيارات ، ثم اشتريت مسدسا صوتيا وسوطا وعصا ، ولما كنت قد شاهدت مدربى السيرك يستخدمون مقعدا للدفاع عن انفسهم فقد أحضرت مقعدا من مقاعد المطبخ، واشتريت سترة سميكة من الجلد على امل أن تنقذنى من مخالبه .

وبعد أن انتهيت من عملى المدرسى ذات ليلة ، قلت لصديقى جارى جوجيجر ، وهارى تشمبرلين اللذين ساعدانى فى نقل الاسد الى قفصه

الجديد : اننى سـوف اخرجه من القفص فى تلك الليلة ودعوتهما للحضور معى ، فحضرا على مضض .

ودفعنـا القفص حتى أصبح فى منتصف احد الجدران ، ثم ادليت قطعة من السـلك حتى وصلت الى السلسلة التى تتدلى من عنق الاسد وربطت فيها قطعتى حبل ، امسك كل منها احد الصـديقين ، وكل منهما يقف فى اتجاه مضاد للآخر .

وارتديت سترتى الجلدية وامسكت الصوت فى يد والمسدس فى الاخرى ، ثم أشرت اليهما ففتحا باب القفص ، وهنا انطلق الاسد من البـاب كلمح البرق واتجه نحوى مباشرة ، ولكنى ابتعدت عنه ، بينما جذب الصديقان الحبال التى يمسكان اطرافهـا ، فلم يسـتطع الاقتراب منى ، ولكنـه استطاع أن يمد مخالبه الى سترتى فمزقها وكأنها مصنوعة من الورق . . وأحسست برعب مميت ، ولـكنى كنت مضطرا الى عمل شىء ما .

وامسكت المقعد وتقدمت منـه ، فأقبل نحوى ، وعندئذ ادركت فائدة المقعد للمـدرب ، اذ سيقانه الاربع تربك الاسـد فلا يعرف أيها يمسك بأنيابه . . كما انه لايستطيع أن يميز بين المقعد والرجل ويعتقـد انه جزء من المدرب . وعندما راى الاسـد انه لم يؤذنى بعقر المقعـد بأنيابه ، تخلى عن هجومه وتراجع للوراء .

وقلت لنفسى : حسنا . . لقـد اخرجنا الاسد من قفصه . . وعلينـا الآن أن نعيده اليه .

وجذب هارى حبـله الى ابعـد ما يستطيع بينما جذب جو الحبـل الآخر ، وسرت نحو الاسـد والمقعـد امامى فتراجع حتى بلغ باب القفص ، ثم قفز داخله ليتفادى الاختنـاق بالحبلين ، فأغلقت الباب خلفه .

واخذنا نوالى هـذه العمليـة فى الليالى التالية ، ولم اعد ارتدى سترة جـلدية بعـد أن أدركت أن الدفاع الوحيد ضد مخالب الاسد وانيابه هو المهارة فى معاملته واليقظة الدائمة

وصنعت منصة خاصة فى حظـيرة السيارة ليصعد الاسد فوقها اثنـاء تراجعه امام مقعدى ، وبعد ثلاث ليال أصبح الاسد يتوجه نحـو المنصـة مبـاشرة دون نخس وكأنه عرف انه يصبح فى امان فوقها . . وتطلب الامر بعد ذلك مجهودا غير كبير لتعليمه كيف يسـير فوق لوح رفيـع من الخشب مثبت فى حبل على طول الحافة التى تصل من منصة لاخرى . حتى أصبح يبدو وكأنه يسير فوق الحبل نفسه .

وقربت المنصات بعد ذلك بعضها من البعض الآخر ، حتى يستطيع أن يخطو من واحدة الى أخرى وهو عائد الى القفص .. ثم باعدت بينها شيئا فشيئا حتى اضطر أن يقفز فوقهـا وبعد أسبوع واحد جعلته يقفز حوالى متر ونصف المتر .

وكان على بعد ذلك أن اجعله يقفز من خلال طوق حديدى ، وهذا يعنى رفع الحبال عن عنقه .. وقد فعل الاسد بعد أن أزلنا الحبال كل ماعلمته اياه ، وظللت أوالى تدريبه حتى علمته كيف يقفز من خلال الطوق وهو ملتهب بالنار

مساعدة من اخوان رينجلنج

فتح باب مكتبى بالكلية ذات مساء ودلف منه صديق قديم لى ومعـه رجل لم أره من قبل .. كان يرتدى صديريا رمادى اللون ، وربطـة عنق يتوسطها دبوس ماسى كبير .. وقال الصديق باهتمام كبير :

ـ هذا هو الرجل المسئول عن الدعاية لسـيرك اخوان رينجلنج ، ويار نوم ومابلى واعتقد أنك تحب مقابلته ..

وقال الرجل فى صـوت عميق : سمعت أنك دربت أسدا جبليـا فى بيتك ؟

قلت : هذا صحيح .

وسررت عندما طلب منى أن اسمح له بمشاهدة الوحش .. ولكنه رفض أن يدخل معى الحظـيرة ، بل وقف يرقبنى من نافذتها الخارجية .

ونجـح العـرض الذى قمت به أمامه .. وعندئذ صافحنى مندوب السيرك فى حرارة وقال :

ـ هذا مدهش .. سـأدفع لك ٤٠٠ دولار اذا أردت أن تبيعه .

ولم أجب .. فاننى لم أفكر قط فى بيع الاسد .. ولـكنى ما لبثت أن انتهيت الى قرار . فقلت له : خذه .

وبعد أسبوع أو أسبوعين ، عادت الامور الى مجراها العـادى .. كان الناس لايزالون يتحدثون عن أسدى وان كانوا قد أحسوا بالراحة لذهابه ، بينما حزن أطفال المدارس وبكت بنتاى لان والدهما لم يعد مدربا للاسود .. أما زوجتى فقد اغتبطت كثيرا لزوال الخطر .

ولـكنى عـدت ابحث فى اعلانات الصحف عن « حيوان للبيع » وبعد أسبوعين قلت لاليانور :

ـ هل تذكرين الاربعمائة دولار التى حصلت عليها ثمنا للاسد ؟

ـ أجل .. انها فى البنـك أليس كذلك ؟

ـ كلا .. لقد اشتريت بها حيوانين

آخرين ! . . أسدا أفريقيا وفهدا .

وهبت العاصفة . . فقدحاولتأن أقنع اليانور برأيى ، واننى أريد أن أبدأ عملا خاصا لحسابى يجعلالحياة أفضل لنا جميعا . . ولكنها راحت تقول : اننى سوف أقتل نفسى بهذه الحيوانات المفترسة ، وان هذا ليس عمل أستاذ فى كلية . . انه عمل غير محترم . . ولعلها كانت على حقالى حد ما . . ولكنى قلت لها :

ـ قد تكون هذه آخر فرصةتسنح لى . . لقد كنت طوال حياتى أريدان أعمل مع الحيوانات . . ألا تفهمين ؟

ويبدو انها لم تفهم . . ولكننى لم استطع التراجع . . لقد كانت الحيوانات فى الطريق !.

اسود طائرة !

ولن يفهم الناس قط الى اى مدى كنت مولعا بالسيرك عندما كنت غلاما يافعا ، فقد كنت ارقب الحيوانات فى وله وخشوع . . فاذا انتهى العرض ، سرت نحو أقفاص الحيوانات حيث أمضى ساعات فى مراقبة الاسود . . تلك القطط الكبيرةالجميلة . . واذا رحلالسيرك، رحت اجمع مابقى من آثاره . . أوتاد وأجزاء منالعجلات المحطمة ، وسوط قديم . . و كان الكنز الاكبر الذى وحدته ، هو عبارة عن مقعد قديم لمدرب سباع تآكلت سيقانه من انياب الاسود . .

كانت الحياةتصبح جوفاء بالنسبة لى كلما رحل السيرك عن البلدة . . وفى احدى السنوات جمعت مع اخى «تيم» حوالى ٧٥ طفلا لنجرى امامهم استعراضا خاصا بنا وكان تيم يتولى تعليم الاطفال الذين يملكون افراسا صغيرة كيف يركبونها بلا سروج ، أما الذين كانوا يمتلكون كلابا أو قططا فقدكنتمختصا بهم . . ولكنى لم اكن راضيا عن هذه الحيوانات المنزلية الاليفة ، فقد كنت اريد اسودا . .

وبعد بضعة أيام قضيتها فىالصيد خلال الازقة ، جمعت ١٢ قطة أخذت ادربها كأنها اسود حقيقية . . وكنت كلما امسكت قطا ، أزلت كل شعره ماعداً دائرة حول عنقه وبعض الشعر فى نهاية ذيله . . وكنت احيانا أزيل كل الشعر وارسم فوق الجسم خطوطا تجعل القط يبدو كالنمر . . وبنينا حلبة من الاخشاب والاسلاك القديمة الخاصة بحظائر الدجاج . . وفى تلك الحلبة تلقيت أول درس فى تدريب الأسود .

كنت أسير بينالقطط مرتديا حذاء حتى الركبة ، وسترة بيضاء ثقيلة

وقبعة ضخمـــة كانت ملكا لعمى ، واحمل بنـدقية خشبية ، والسوط الذى وجدته بين بقايا السيرك والمقعد المتـــآكل .. وكانت القطط تحدث رعبا لرؤيتى وقدعلمتها كيف تتراجع وتجلس فوق المنصـــة وكنا نقيم استعراضات تشبه السيرك تماما .. هنود وبهلوانات وفرسـان وخيـول صغيرة ، تتوسط كل ذلك استعراضاتى مع قططى المدربة التى تقفز من خلال الطوق الملتهب ، والتى دربتها بنفس الطريقة التى استخـدمتها مع الاسد الجبلى بعد ٣٠ سنة !

ولم افتقد قط الحنين لان اصبح مدربا للاســـود طوال السنوات التاليـة .. وحتى بعد ان اصبحت استاذا ، ظللت أنقب وراء كل سيرك راحل بحثا عن بقاياه .. وذات ربيع وجدت قفصـــا قديمـا للاسود ، فأصلحته واحتفظت به ، وبعد بضعة اســـابيع جاءنى الصندوق العجيب وعليــه تلك الكلمات المثيرة : «ها هو ياكيللر .. فدربه!»

باليه الإسود

بينمـــا كانت حيواناتى فى الطريق بدأت أبنى أقفاصا لها ، ثم اشتريت ســـاحة مستعملة ونمرا أرقط .. ولو لم أكن غشيما الى هذا الحد لماحاولت أن أدرب فصـــلا يضم كل هـــذه الانواع المتبـــاينة من الحيــوانات ، فالحيوانات المختلفة أعداء بالطبيعـــة لبعضهـــا البعض ،



توحي اليها غرائزها أن يقتل بعضها الآخر .

ويتعلم مدربو الحيوانات في السيرك أدوارهم عن طريق المراقبة والعمل مع شخص مجرب ، ولكن لم يكن هناك من ارقبة واتعلم منه .. وكنت اعرف ان هناك نوعين من الترويض ، أكثرهما شيوعا طريقـــة « القتال » التي يستخدم فيها المدرب سوطه ومسدسه ومقعده في تحريك حيواناته ليوحي بأنها مفترسة .. والثانيـة طريقـة هــادئة ، لايبذل فيها المدرب أية محاولة لاظهار الجانب المتوحش من طبيعـــة الحيوانات ، وقد اخترت الطريقة الثانيـة على الرغم من انها ليست اسهل ولا آمن من الاولى ، اذ ان المدرب يحمل على الاقل مسدسه وسوطه اذا قرر الوحش الهجوم عليه في الطريقـة الاولى .. أما في الثانية فانه لايحمـــل شيئا يدفع به عن نفسه ..

وعندما بدأت العمل مع اول أسد جبلي ، لاحظت ، ان الضــغط المستمر للحبلين يضــطره الى التحرك بخطى بطيئة وثيقة ، وعندئذ برزت لي فكرة ، وهي انني اذا حركت يدي في توافق مع جذب الحبال ، فانني ابدو وكأنني اقود اوركسترا ، فاذا علمت الاسود أن تتحرك في الوقت المناسب مع تلك الاشارة ، فانها سوف تهتز في توافق مع حركة يدي وكأنهـا « باليه » من الاسود .

ولكي أجذب انتباه الحيوانات الى يدي ، ارتديت قفازا أبيض اللون .. ونجحت هذه الطريقة وتدربت عليها الحيوانات كلها ، وتعلمت كيف تدخل الحلبة وتذهب مباشرة الى منصاتها وتظل هناك حتى ادعوها للتمثيل .. ثم تعود الى مكانها ، وتغـادر الحلبة في نظام .. واعتـــادت الحيوانات صوت الموســيقى التي كنت اعزفها على اسطوانات ، وهكذا أصبح لدى خمســـة حيوانات مفترسة ترقص برشاقة على نغمات الموسيقى

وبدأت اســتعراضي الاول في ربيع ١٩٤٠ بعــد انتهاء الكلية مباشرة ، فاستأجرت مكانا على جانب الطريق خارج البلدة ، وأقمت خيمتين وبعض الاقفاص ، وشرعت في العمل بالاســد الجبلي ومجمـــوعة الحيوانات التي دربتها ..

وكان الاقبــال رائعا بصورة غير متوقعة .. ولكنه بعد ان بلغ ذروته في يوليو عاد يتناقص بصورة مزعجة ، واصبحت مثقلا بالديون ، وكنت في حاجة الى معجزة للخــروج من هذه

الورطة ..

كنت قد امنت على خيـامى بتأثير احد الاصــدقاء ، وفى اليوم التالى لتسلمى « البوليصــة » هب اعصار عنيف مزق خيـالى اربا ، فأتاح ذلك حصــولى على مبلغ التأمين الذى أنقذنى من ورطتى .

***

وعــدت الى بيتى فى الخـريف لامارس عملى كمـدرس ، وفى الشتاء اشتريت أسـدين آخرين وأردت أن ابدأ فى تدريبهما مبكرا ، فاستأجرت الطابق الثانى من حظيرة سيارات بها مدفأة ، ووافق الشابان اللذان عملا معى خلال الصيف على مساعدتى فى تدريبهما بعد ظهر كل يوم . .

وجاء الاسـد الاول الذى اوصيت عليـه فى صندوق كبير ، وكان اسدا كامل النمو فظننت اننى سأشتبك معه فى معركة حاميــة ، ولكنى لاحظت اننى عندما سرت قرب قفصه لم يلق اهتماما كبيرا الى ، ولم يبد عليه اى استياء لوجـوده فى قفص .. وبدأت اسائل نفسى عمـا اذا كان من الممكن تدريبه بلا حبال أو طوق ..

كانت فكرة رهيبــة ، ولكنها راقت لى ..

ووقفت الى جـوار قضبان قفصه الحـديدية ، كان معى مسدس خال ومقعد ، وعمود من الخشب لاصد به هجومه .. وعنـدما خرج الاسد من باب القفص ، بدا من نظـرات وجهه أنه يرغب فى أن نكون أصـدقاء .. وسرت نحوه بعد لحظــة ، واخذت أحــدثه فى هدوء فأصغى قليلا ، ثم استلقى وسط الحلبــة ، فاقتربت ممسكا المقعــد .. ثم ركعت الى جواره ولمست مؤخرة رأسه بيدى ، فبدأ عليه الارتيــاع أولا ، ولكنى تحدثت اليه برفق ، فتركنى أعود الى لمس رأسه ، ثم داعبته من خلف أذنه ، فأحب هـذه الحركة ، وحرك ساقيه لاسـتطيع الاقتراب منـه اكثر مما فعلت .

وظللت أكرر هذه الحركات فى الايام التالية ، وسرعان مااستبعدت المقعد تماما ، وكان ذلك بداية صداقة رائعة بيننا دامت ٢٠ عاما ، وقد اطلقت على هذا الاسد اسم « الملك ليو »

ووصل الاسد الثانى وكان اضخم حجما من ليو ، ولكنه يبدو ودودا هو الآخر ، ومن ثم فقد قررت ترويضه أيضــا بلا حبال ، وحملت المقعد والمسدس وعمود الخشب كالعادة ، وعنــدما فتح الباب وخرج الاسد تطلع حوله ، فرأى بعض الاصـدقاء

الذين اقبلوا لمشاهدة المنظر ، وعلى الفور بدأ هجومه !

ان الاسد لايترك الارض عادة ، فهو يعتمد على ثقل وزنه الذى يبلغ حوالى ٢٢٥ كيلو جراما لكى يقتنص ضحية ، ومن ثم فقد خفضت المقعد واطلقت المسدس ولكن الاسد قفز قفزة كبرى مزيحا المقعد وقدفتح فمه « فحنيت رأسى الى الوراء متفاديا فكيه وان احسست بأنفاسه تلفح وجهى ، وامسك بكتفى فاصطرنى للتراجع نحو قضبان الحلقة ، وسقط المقعد من يدى كما هوى الاسد على الارض ، وحاولت ان أرفع ذراعى لاصوب مسدسي نحو رأسه ، ولكن الذراع لم تتحرك ..

وأصاب الشلل مساعدى والمتفرجين ، ووقف الاسد يتطلع الى والدماء تتساقط من وجهى ، ثم استدار وعاد الى قفصه .. ولا شك انه أحس بخيبة أمل لاننى لم اسقط وظن اننى أصلب منه عودا ، مع ان قضبان الحلبة هى التى منعتنى من السقوط .

ونقلت الى عيادة طبيب قريب .. وكانت ذراعى قد كسرت فى موضعين ، كما أصبت بجرحين فى الكتف .

وواصلت عملى بعد ذلك مع « الملك ليو » ، ثم خطرت لى فكرة رائعة .. لماذا لا اضع رأسى فى فم الاسد ؟

كانت صداقتى مع ليو قد تقدمت الى الحد الذى سمح لى فيه بالجلوس فوقه ، والرقاد على جسمه المتمدد .. وعندئذ بدأت أضع يدى على وجهه ، وأدور بأصابعى حول فمه وفكيه ، فلم يحاول قط أن يقضم يدى .. ثم بدأت ادخل يد المكنسة داخل فمه برقة ، وفى اليوم الثالث دفعتها من خلال فمه بسهولة حتى اصبح مرفقى مستندا بين أنيابه دون أن يفعل شيئاً .. وبعد ان بلغت هذه المرحلة ، حنيت ذراعى قليلا لافتح فكى ليو ، وكنت أزيد الفتحة اتساعا كل يوم ، وفى نفس الوقت أضع رأسى على مقربة من رأسه .. وبعد اسبوعين ، استطعت ان افتح فم الاسد ليو على مصراعيه ، ثم وضعت وجهى بين فكيه فلم يغضب .. وأخذت طوال الشهر التالى اضع وجهى داخل فمه وادخله شيئا فشيئا حتى يصبح رأسى كله داخل الفم ، وعندما أحسست بأنيابه خلف أذنى ، أدركت ان اللعبة قد تمت ..

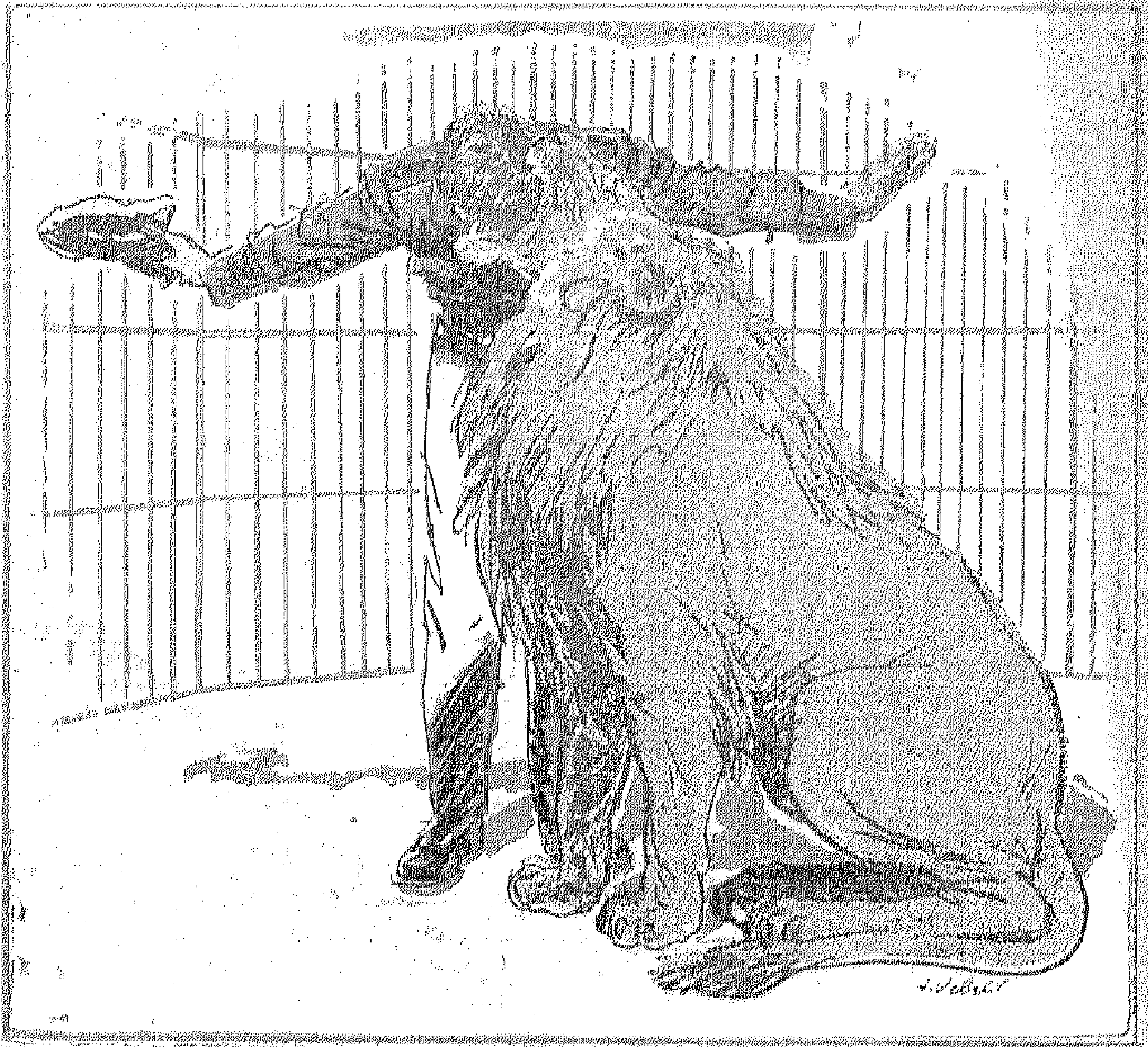
وكنت بعد ان ادخل رأسى ، أعد من واحد الى عشرة ببطء ، ثم اربت بيدى تحت ذقن الاسد ، كاشارة ليتركنى

اخرج رأسى .

ريجال يحقق نصرا ..

بينما كنت مســافرا فى الصيف التــالى مع سيرك صغير .. وقعت أولى معاركى فى الحلبة .. ففى اثناء العرض ، قفز الفهد الارقط « راجا » فجـأة على اسد يدعى (ريجال) وفى لحظة خاطفة كان الاثنــان قد اشتبكا فى قتال عنيف مميت ، ولما كان الفهد أسرع من الاســد ، فقد استطاع ان يقبض على حلق الاســد حتى كاد يخنقــه . كنت أقف على بعد اقدام قليلة منهما وقد كاد زئيرهمـا يصم آذانى ، حتى كدت انسى بقيــة الحيوانات الاخرى التى تتكدس من حولى ، وكل ما استطعت أن أراه ، هو فكا الفهــد الغــارقان فى عنق ريجال ، وذيله الذى يضرب بقوة ..

وامسكت الذيل ورحت أجـذبه بقوة .. وترك (راجا) قبضته لحظة



ليحصل على مسكة افضل ، وفي تلك اللحظة أسرع ريجـال بالانسحاب ونهض على اقدامه الاربع وانتهى القتال .

واسرعت بترك ذيل الفهد الذى كنت امسكه في يدى وكأنه حديد ساخن ، وتراجعت قبل أن يجد الفرصة ليستدير نحوى ، وفتح أحد مساعدى بوابة الحلبة بسرعة ، فأسرعت الحيوانات الى اقفاصها بانتظام . وما ان انتهى المشهد ، حتى حياني الجمهور بصوت كالرعد .

وعلى أية حال فقد كان اليوم نهاية سعيدة بالنسبة لى .. اذ بينما كنت أغادر الحلبة ، وجدت شخصا قدم نفسه لى باسم جورج حميد مدير مدينة كبيرة للملاهي بمصيف « اتلانتيك سيتى » وعرض على العمل عنده في الصيف التالى .. وبعد بضعة أيام ارسل لى عقدا لتوقيعه . واحسست بفرح بالغ لهذا النجاح .. ولكن حدث بعد ذلك شيء رهيب جعلنى ادرك حقيقة الخطر الذى يكمن في عملي .

كان الاسدان الجبليان قد تقدمت بهما السن الى حد يجعلهما غير صالحين للعمل ، كما كانا مثخنين بالجروح من القتال مع بقية الحيوانات التى يكرهانها ، ولا سيما الاسد الافريقى (ريجال) وكان أحد الاسدين الجبليين مولعا بايذاء ريجال بمخالبه كلما مر الى جواره حتى أحدث قرحة مؤلمة فى ساق «ريجال» . .

وقد ظل ريجال يتكتم آلامه فى نفسه ، ولم اكن اعرف انه حل المشكلة فى ذهنه ..

حدث يوما فى اواخر الموسم بعد ان أشرت الى الاسد الجبلى بالعودة الى قفصه ، ان كان ريجال يقف فى انتظاره .. فما كاد يمر من امامه ، حتى انحنى ريجال الى اسفل وصوب اليه ضربة قاضية لم أر مثلها من قبل .. واصابت الضربة عنق الاسد ففصلت رأسه عن جسمه وكأن ريجال قد استخدم بلطة حادة .

***

كان عملي فى « اتلانتيك سيتى » ناجحا جدا خلال الصيف .. واصبح عندى الكثير من الحيوانات المدربة ، ولا تكاد الاسود تصل كلها الى الحلقة ، حتى اعطى سوطى ومسدسى لاحد المساعدين ، واضع فى يدى قفازا ابيض استخدمه فى الاشارة بلا سلاح وكان العرض يضم قفزة من الفهد خلال طوق ملتهب ، ثم يسير النمر فوق رؤوس الزجاجات ،

ويرقص الفهد على نغمات الفالس ، ويرقد اسدان على الارض فأنام فوق ظهريهما .. وكنت اختتم العرض بوضع راسى فى فم ليو ..

وفى خلال المواسم التالية تحسنت الاتفاقات التى كنت أحصل عليها ، وبدات اعمل ايضا للتليفزيون .. وفى عام ١٩٥٠ كنت لاازال اقدم البرنامج نفسه ، عندما فكرت فى انهاء عملى لاعود الى وظيفتى كمدرس ، فقد كنت حتى ذلك الحين مضطرا للعمل كمدرس حتى استطيع الإنفاق على مايتطلبه السيرك .. ولكن المنتج الذى كنت اعمل معه يومئذ نصحنى بالاستقالة من عملى كمدرس والتفرغ للسيرك ، لان العرض الذى قدمه يختلف عن كل عرض آخر ..

وفكرت قليلا . ثم قررت الاستجابة لهذه النصيحة ، واعلنت استقالتى امام جمهور من مشاهدى التليفزيون يقدرعدده سبعة ملايين .

وفى الصباح التالى سافرت الى بلومزبرج لازف النبأ الى زوجتى اليانور ، وكنت فى حاجة الى تشجيعها ومساعدتها .. ولكنهاكانت ترى أن مكانها مع الاطفال الذين سيكونون موضعاهتمامها الوحيد ..

كنت اعرف حقيقة شعورها .. فلم يكن من السهل على فتاة نشأت فى بيت أبيها المدرس ، وتزوجت استاذا فى كلية أن تجد نفسها زوجة مدرب للاسود ..

وادركت ان الموقف يزداد تعقيدا بينى وبين اليانور ، وان الوقت قد حان لوضع حد لكل ذلك .. فقررنا الطلاق ..

وسافرت بعد أيام الى بيتسبرج لانفذ عقدا جديدا ..

لاأمان للحيوان المفترس

يعتقد البعض انه فى الامكان تحديد زمن الاستعراض بالدقيقة والثانية وان الحيوانات لابد ان تكون مستأنسة تماما داخل الحلقة ، وهذا غير حقيقى ، فالحيوان المفترس لايمكن ان يصبح أليفا كالكلب .. انه عدو للانسان بوحى الغريزة ، وهذه الغريزة تعززها عادة اتصالاته بالانسان ..

ويظن البعض ان مدرب الحيوانات يشترى حيواناته من حدائق الحيوان ، وانها نشأت وتربت فى الاسر حتى أصبحت غير مؤذية ، والواقع ان العكس هو الصحيح ، فالمدرب المحنك يفضل شراء حيواناته من تجار يستوردونها مباشرة من الغابات . . فمثل هذه الحيوانات التى لاتعرف

الكثير عن الانســـان اسهل كثيرا في تدريبها ومعاملتها .

ولقـد كنت اعتقد ان الشبل اذا أخـذ من أمه بعد ولادته مباشرة ، واطعم لبنا صناعيا كالطفل فانه يكون أكثر صـــداقة .. وقد نشأ الاسد الجبلي « زومبي » بهـذه الطريقة ، ولو رأيته أثناء العرض لظننت انه معاد لي ، في حين انه كان اكثر صداقة من أي حيوان آخر ، باستثناء (الملك ليو)

ولكن حتى هـذه الاسود الصديقة يمكن احيانا ان تكون شديدة الخطورة ، واذا ضايق انسان واحدا منها ، فان الوحش ســيرد بضربة تفصل جلد الانسان عن عظامه .. وقد حدث ذات مرة ان اســدا يدعى (تافتي) عمل معي خمس سنوات ، ثم مزق وجهي بأنيابه .. وحتى (الملك ليو) الذي كنت أثق فيــه أكثر من غيره كاد يقتلني يوما دون ان يقصد ايذائي ؛ اذ أمطرت السمــاء فجاة وانا اضع رأسي داخل فمه ، ولما كانت الحيوانات تخـــاف المطر خوفا مميتا ، فقد أحسست بعضلات فكي الاسد تتوتر بشدة .. وبعد أن عددت حتى عشرة كالمعتاد ، واعطيتــه الاشارة المعهودة ليطلق سراحي ، لم يستجب لهــا الاســـد .. وعدت أربت على فكيه بالاشارة ، ولكن فم ليو تصلب حول رأسي كالحديد .. واطلق بعض رجالي طلقــــات نارية في الهواء ليجتذبوا انظاره دون جدوى ..

وكنت على وشك الاختناق .. لقد نسيني ليو وقطرات المطر تنهمر على وجهه .. وفكرت في محاولة فتح فكيه بالقوة .. ولكنه قد يهز رأسه فيحطم عنقي .. وفقــدت الوعي .. ولم اشعر بما حولي الا وقناع الاوكسيجين فوق وجهي ، والطبيب يجــري لي تنفســا صناعيـــا ويفحص قلبي ونبضي ..

وقال الطبيب : لقـد كدت تختنق تماما .. ولحسن حظك ان الاســد تركك بمجرد فقــدك للوعي وانقطاع نزول المطر في تلك اللحظة ، وعلى الرغم من احتجاجات الطبيب ، فقــد عدت الى الحلبــة واستدعيت الاسد (ليو) وفتحت فكيه ، وادخلت رأسي في فمه مرة أخرى .. وبعد ان عددت عشرة أعطيته الاشــارة فأطاع على الفــور .. ولو لم افعــل ذلك لفقدت كل سيطرة عليه ..

ولكني عندما حاولت اعادة اللعبة معــه في الربيع التــالي ، رفض « الملك ليـــو » ان يفتح فمه .. لقد أدرك انه اخطأ ، وهو لا يريد ان يغامر

مرة أخرى حتى لايؤذينى .

لم أعد وحيـدا

كنت ابذل جهـدا شاقا فى السفر الذى يفرضه تعاقدى فى أماكن متباعدة، ولكن الاحساس بأننى وحيد لا دار لى كان يثقـــل على قلبى ، فالفنان فى حاجة للاحســـاس بأن له جذورا فى مكان ما .. انه قد يزور منزله لماما ، ولكنه فى حاجة دائما الى هذا المنزل .

وفى عام ١٩٥٥ كنت اقوم بألعابى مع سيرك عندما التقيت بمغنية السيرك وتدعى « جينى لاورى » . ومع انها لم تكن تعرف شيئا عن الحيوانات ، فاننى كنت اشـــعر بمتعة بالغة فى صحبتهـــا ، وكنا نخرج معا احيانا ، ثم انتهى تعـــاقدى مع السيرك ، وانفصل كل منا عن الآخر ولكنى لم أنس جينى قط .

وفى أواخر هـــذا العام تعاقدت العمل مع ستوديو والت ديزنى لاعداد برامج تليفـــزيونية ، ثم عرض على العمـــل ١٢ اسبوعا فى مدينة ملاهى والت ديزنى فقبلت ، وهناك التقيت مرة أخرى بجينى التى كانت تعمل فى الفندق الملحق بالمدينة ..

وبقيت مع ديزنى عشرة اشـهر ، زاد قربى خلالها من جينى ، واخيرا قبلت الزواج منى ، واخترنا منـزل احلامنا فى ضواحى لوس انجليس..

وهكذا انتهت وحدتى ، واحسست بسعادة لم اعرفهـا من قبل ، وزاد الاقبال على استعراضى حتى تعاقدت على العمل ٥١ اسبوعا خلال أول سنة من زواجنا ..

ولكن هـــذه السعادة لم تستمر كثيرا .. ففى منتصف يوليو ١٩٥٧ كان هناك عقد للعمل فى « ويشيتا » بولاية كانساس ، حيث كانت الحرارة تبلغ حوالى ٤٠ مئوية ، والســـيرك لامظلة له .. ولاول مرة فى حيـــاتى ارتديت قميصـــا بلا اكمام بدلا من بذلتى الرسمية ، وتطلعت الحيوانات الى فلم تعرفنى ممـا أدى الى هجوم النمر « شيبا » على ، وقبل أن اتمكن من ابعاده عنى كانت أنيابه قد غاصت فى لحمى ..

ونهضت على قدمى ببطء ، ورأيت الجروح الـــدامية من خلال التمزق الذى أصاب ملابسى ، ولكننى مضيت فى العرض ، بينما كان النمر يلعق دمى الذى يبلل وجهه ، وهو يقوم بنمرته العادية ! .

ولكن الجروح كانت اشد مما كنت اعتقد .. ولاول مرة لم استطع حضور عدة استعراضات متتالية ..

كان هذا الهجوم من (شيبا) راجعا

الى تغيير ثيـــابى ، حتى غابت عنه معرفتى . . ولكن المرة التالية التى هوجمت فيهـــا كان الموقف مختلفا تماما ، فقد كان الهجـــوم متعمدا لمعــــاقبتى ، وكانت النتـــائج أكثر

كنت قـــد استغللت زئير لبؤة فى قفص مجاور لاجعل الاسد (فوزى) يرد بزئير آخـــر وكأنه يتكلم بناء على طلبى له . . وظل الاســـد يعتقد اننى كلما أشرت اليه ليتكلم ، فممنى هذا ان هناك لبؤة قريبـــة منا ، وظل على هذا الاعتقـــاد سنوات حتى جاءت لبؤة فعلا فى الحلبة المجاورة فى السيرك الذى كنا نعمـــل به يوما ، فأخـــذ (فوزى) يرمقهـــا بعينين لاتطرفان ، ونسى العــــــرض ولم يلق بالا الى اشاراتى وأوامرى ، وعندئذ اقتربت منه وصحت : فوزى !

وفى تلك اللحظة زأر الاسد مرتين ، وقفز فوقى فسقطت معه على الارض ، واطلق مساعـــدى مسدسه ، فابتعد فوزى ، ولكنه كان قد أصابنى فعـــلا باصـــابة سيئة ، نقلت بسببهـــا الى المستشفى . . ولم أعد الى الحلبة الا بعد شهور .

وقد بدا لى اننى لن اســـتطيع العودة الى عملى مرة أخرى ، ولكننى تلقيت ذات مساء مكالمة تليفونية من شيكاغو ، بأن أحد الوكلاء حصل لى على عقـــد للعمل مع سيرك « اخوان وينجلنج ، بارنوم ومابلى » صـــاحبى أكبر استعراض فى العالم . . وذلك فى (ماديســـــــون ســـــــكوير جاردنز) بنيويورك . . .

وكان هذا هو الشىء الذى أحلم به منذ الطفولة . . .

وعندما جاء العقد وقعته بسرعة . . ورحت أعد الحيوانات التى اشترطها اخوان رينجلنج فى عقـــدهم وهى أن أعمـــل مع عشرة حيوانات . . وكان الموعد المحدد للعمل هو مارس التالى .

وصـــــادفنا الكثـــير من الحوادث وسوء الحظ خلال تلك الفترة ، فقد مرضت بعض الحيـــوانات ، ووقعت حوادث لسياراتنا التى تنقل الاسود . . وعلى الرغم من كل ذلك وصلنا أخيرا الى نيويورك لنبدأ العمل مع « أكبر استعراض فى العالم » . .

وفى الليلة الاولى ، قدمت عرضـــا رائعا لم أقدم مثله من قبل . . وكان معى يومئذ ١١ حيوانا مفترسا ، أى أكثر مما يتطلبه العقد . .

وعندما انحنيت للجمهور الانحناءة الاخيرة وتأهبت لمغــــادرة الحلبة ، اقبل مدير السيرك العالمى وصافحنى بحرارة ، وراح يربت على ظهـــرى فى

حماسة قائلا .

ـ ايها المحترف العجوز !

ووقفت لحظة اتطلع الى ألوف الناس الذين يجلسون فى صفوف متراصة من المقاعد ، صفا فوق آخر .. ومرت غمامة امام بصرى ، ومن وراء الانوار الكاشفة وبين ألوف الوجوه .. استطعت أن أرى حلبة مصنوعة من الاخشاب القديمة واسلاك اقفاص الدجاج ، تعدو داخلها القطط التى كنت اطاردها فى الازقة ، لاجعلها تبدو كالسباع ! .

حقا .. لقد كانت هذه الكلمة هى كل ماجاهدت من اجله وما املت فيه .. أن يقال عنى «مدرب محترف بين عظماء السيرك ! »

فى الوقت الذى كانت فيه اصول هذا الكتاب فى طريقها الى المطبعة ، اصيب البروفيسور جورج كيللر بنوبة قلبية فى الحلبة بعد ان انهى عرضه .. وحاول الاطباء انقاذه باجراء تنفس صناعى له ، ولكن الوقت كان متاخرا ، فلم يستيقظ مرة اخرى !.

ولا يزال الاستعراض مستمرا حتى اليوم تحت ادارة زوجته ومساعديه .



شعور رقيق !

كان المدير الاذاعى الراحل «مانى ساكس» مشهورا بتشجيعه الفنانين المكافحين ، وعطفه البالغ عليهم .. وامتناعه عن ايذاء شعورهم ..

وقد حدث يوما انه دعا ممثلة ناشئة الى العشاء ليقدم اليها ارشاداته فى حياتها العملية .. ولما كان لديه عمل عليه أن ينجزه بعد العشاء ، فقد قال لها كاذبا انه مضطر الى السفر الى شيكاغو بالطائرة بعد العشاء مباشرة .

وودعها ساكس ، ولكنها اصرت على ان تساعده على حزم حقيبته ، فلم يجد بدا من العودة معها الى مسكنه وحزم حقيبته بمساعدتها .. ثم شكرها وودعها مرة اخرى ، ولكن الفتاة أصرت على مصاحبته الى المطار .. وتردد ساكس قليلا ، ولكن الممثلة لم تمهله ، بل استدعت سيارة اجرة وركبت معه الى المطار ولم تتركه الا بعد ان ركب الطائرة الى شيكاغو ، ولوحت له بيدها مودعة .. !

وما كاد ساكس يصل الى شيكاغو ، حتى استقل طائرة اخرى عائدا الى نيويورك !



راسبوتين
الرّاهب المجنون

راسبوتين : الراهب المجنون

ملخص عن كتاب

Rasputin
The Mad Monk of Russia

بقلم هاينز ليبمان

كان فلاحا جلفا خشن الطباع ، ومع ذلك فقد كان يتمتع بقوى تشبه المعجزات • وكان رجل دين ، ولكنه انغمس فى حمأة الموبقات بين الخمر والنساء •• ولم يكن يشغل اى منصب رسمى ، ومع ذلك فقد اصبح اقوى رجل فى روسيا باسرها ••

تلك كانت الحياة الصاخبة التى عاشها الراهب الغامض راسبوتين ، الذى كان يتمتع بنفوذ عجيب على القيصر والقيصرة ، والذى اصبحت مغامراته اسطورة من الاساطير ••• والقصة الحقيقية لراسبوتين اعجب كثيرا من كل الاساطير ••• ومن ملفات البوليس السرى فى عهد القيصر - التى لم تذع حتى عام ١٩٥٧ - ونحن ننشر هنا الدور الحقيقى الذى قام به راسبوتين فى السنوات التى سبقت الثورة البلشفية ••• وهى قصة زاخرة بالدسائس والفضائح وجرائم القتل •• كما انها سجل مؤثر للمخلوقات البشرية التى كانت تعيش فى دوامة هائلة خلال حقبة من اكثر حقب التاريخ اهمية •

زادت حمى الرقص حول الاضواء المنبعثة من نيران الغجر وحشية وحماسة ، وارتفع صوت الغناء والصياح والتصفيق التوقيعى ، بينما راحت فتيات الغجر الحسان يدرن بجرار النبيذ يبعن الشراب للجموع المتزايدة •• ووراء الخيام وعربات القافلة التى تقف متراصة على ضفاف نهر (نيفا) ، كانت هناك عربات فاخرة كثيرة تقف فى الانتظار

ففى يوليو من ذلك العام - ١٩٠٧ - كانت زيارة قبائل الغجر الصيفية تجذب كعادتها شباب بطرسبرج ، ولا سيما المجموعة الراقية من أهل العاصمة •

وفجاة اندفع فلاح ضخم الجثة طويل اللحية يشق طريقه بين الحشود ، يتطاير شعره الاشعث الذى يصل الى كتفيه مع الهواء ، ثم امسك فتاة غجرية كانت تمر الى جواره ، وادناها منه ثم

بحنى رأسـها الى الوراء وقبلها ..
واختطف منهـا جرة النبيذ التى تحملها وراح ينهل منها فى نهم والفتاة تحدق فيه بدهشة ..

وصاح الرجل الضخم :

ـ هذه القبلة هى ثمن النبيذ .. والآن هاتى مزيدا من النبيذ . وما لبث ان اندمج وسط صفـوف الراقصين الصاخبين ...

وبينما كانت ساعات المساء تمضى بسرعة ، كان اعجاب شباب العاصمة المتجمع حول راسـبوتين يصبغه احساس بالرهبة ، فقد كانت قدرته على احتسـاء الشراب تكاد تكون غير محدودة ... وكلما بدأت أغنيـة جـديدة ، وانطلق الرجال للغناء والرقص .. كان الراهب المجنـون يرقص ويغنى بحماسـة أكثر من الباقين . !

وفى ذروة هذه العربدة ، اقبل احد الفرسان وترجـل عندما اقترب من الحشد الذى يشـاهد الرقص .. كان يرتدى ثيـاب رجال البلاط القيصرى . وهدأت الموسيقى وتوقف الرقص وسـاد الصمت .. وصاح رسول القيصر :

ـ باسـم القيصر .. هل هنا من يدعى جريجـورى ايفيموفيتش راسبوتين ؟

وأزاح الراهب شـعره بعيدا عن وجهـه الذى ينضـج عرقا ..
ثم قال :

ـ انا راسبوتين .

وقال مبعـوث القيصر انه مطلوب فى القصر الصيفى للقيصر ، اذ ان الامير الصغـير ولى العهد الذى لم يتجاوز السنوات الثلاث على شـفا الموت .. لقـد كان الامير مصـابا بداء « الهيموفيليـا » الوراثى الذى يمنع الدم من ان يتجمـد بسرعة . وكان الامير مشمـولا دائما برقابة دقيقة تفاديا لاصابته بجروح قاتلة . ومنذ اربعـة ايام سقط الطفل واصيب ببعض الكدمات ، وتورم خن الورك ، وارتفعت حمى الطفل ، فلم يستطع الاطباء ان يوقفوا النزيف الداخلى ، وراحت حالة الطفل تزداد سوءاً يوما بعد يوم .. ولم يعد هنـاك ملجأ غير الصلاة والدعاء .

وقال مبعوث القيصر لراسبوتين :

ـ لقـد سمعت القيصرة عنك وارسلتنى للبحث عنـك .. ارجو ان تأتى بسرعة فليس هناك وقت .

ووقف راسبوتين صامتا بلا حراك .. تتوهج عيناه الملتهبتان وتحدقان الى الامام ، ثم شحب وجهه . ويقول

الذين شـاهدوه أنه بدا أن وجهه وجسمه قد تغيرا فى تلك اللحظة ، وكأن كل شيء خشن ومبتذل فيه قد اختفي . ثم شبك يديه الخشنتين الطويلتي الاصابع، وركع على ركبتيه واغلق عينيه . . وسرت الرعشة فى جسمه بشدة وهو يصلى . .

وركع الجميع معه ، وسادالصمت . . وعندما نهض راسبوتين اخيرا ، ارتفع صـوته وتألقت عيناه وهو يقول :

ـ ان ولى العهد يحتضر . . اننى ابتهل الى الله من أجله . لقد انقضت الازمة فى تلك اللحظة وسوف يشفى .

وقفز فجأة فوق الجواد الذى جاء به رسول القيصر ، ثم دفع الرجل امامه وانطلق مسرعا .

قدم فى باب القيصر

كان الوقت يقترب من منتصف ليل ١٦يوليو ١٩٠٧ عندما دخل راسبوتين القصر الصيفى للقيصر لاول مرة . . وكان القيصر نيقولا الثانى وزوجته القيصرة الكسندرا فيودورفيا . حاكما اكبر امبراطورية فى العالم يجلسان فى انتظاره بصبر نافد

وهرعت القيصرة الوسيمة الوجه ذات السبعة والثلاثين عاما لترحب براسبوتين الذى جاء متعبا بعد الرحلة المرهقة ، وقد بدا اشعث الشعر رث الثياب . . وحدقت القيصرة فى خشوع الى وجه الفلاح الخشن الذى انحنى أمامها بدهاء وراح يرمقها بعينيه العجيبتين المغناطيسيتين . ثم قال بصوت اجش :

ـ ايتها الام الصغيرة . لقد صليت من أجل الامير الصغير منذ نصف ساعة . . انه لن يموت ، وقد تحسنت حالته منذ تلك اللحظة .

وشحب وجه القيصرة وارتعشت شفتاها . . وغمغمت قائلة

ـ أنت حقا صانع المعجزات ياجريجورى ايفيموفتش . . فمنذ نصف ساعة فقط تحسنت حالة الامير وهدأت الحمى

ـ لقد قلت لك انه سوف يشفى . . خذينى الآن اليه ايتها الام الصغيرة .

وظل راسبوتين الى جوار فراش الطفل طوال الليل ، بينما واصل القيصر وزوجته سهرهما معه بعدان عاد اليهما الامل . . لقد ظلا ساهرين الى جوار ابنهما الكسيس بلاراحة ثلاثة أيام وثلاث ليال . . وتغلب عليهما النوم اخيرا فاستغرقا فيه بين ذراعى المقعدين اللذين يجلسان فوقهما ، وعندما استيقظا كان الوقت قد

تجاوز الثانيـــة ، والضوء الوحيد الذى يســـود الغرفة ينبعث من شمعتين تحترقان امام ايقونة صغيرة .. وكان راسبوتين راكعا الى جوار الفراش تتحـرك شفتاه دون صوت وقد اغمض عينيه . وعندما فتحهما نهض من مكانه وقال فى صوت يغلبه التعب :

ــ أيتها الام الصغيرة . سينام أبنك فى سلام . لقد ذهبت الحمى . وسوف يعيش ، ما دمت الى جواره أرعاه .

وقفزت القيصرة على قدميهـا فى دهشة وانحنت على طفلهــا فتأكدت من صدق كلام راسبوتين ، فقد هدأت انفاس الطفل وانتظمت ، واعتـدلت حـــرارته .. واختفت الاورام التى اصــــابت الفخذ . تبادل الملكان البسمة لاول مرة منذ ايام .

ومدت القيصرة يدهـــا دون أن تدرى وقالت فى همس والدموع تنحدر على وجنتيها :

ــ ايها الاب جريجورى .. يجب ان تبقى معنا دائما ..

وأمسك راسبوتين بيديها ثم حنى راسه فى صمت ..

عندما غادر راسبوتين القصر فى ذلك الصـــباح ، تبعه اثنـــان من رجال البـــوليس السرى فى عهد القيصر



المعروف باســـم « أوكرانا » ، فقد أصبح منذ الآن شخصية هامة فى البلاد وراح البوليس السرى يتابع خطواته ويقدم تقـــارير تفصـــيلية عن كل مايفعله ، وقد خدمت هذه التقارير التاريخ خدمة كبرى

ففى عام ١٩٢٧ ، وبينمــــا كان العمـــال يحفرون مجـــارى جديدة فى أوديســـــا ، اذ كشفوا عن اقبية تحت اطلال مبنى رئاسة البوليس السرى القديم ، ووجدوا فيها حوالى ٥٠٠ صـــندوق خشبى كبير لمحفوظات

البـوليس السرى فى عهد القيصر ، أكثرها ملفات وصـــور ووثائق تم جمعها فى المدةمن ١٩٠٦ الى ١٩١٦ ، وتشمل الشخصيـات الرئيسية فى البلاط . وقد ظلت لجنة من المؤرخين توالى العمـل بضع سنوات لدراسة هذا العدد الضخم من الوثائق . وفى عام ١٩٥٧ شرعت المكتبـة التاريخية المركزية فى موسكو فى نشر نتائج هذه الدراســـــة التى أبرزت الكثير من المعلومات الجديدةالى الضوء . وبينها تفاصيل جـديدة مدعمة بالوثائق عن راسبوتين .

ولم يكن استـــــدعاء القيصر لراسبـــوتين فى منتصف تلك الليلة أمرا عرضـــيا قط ، وان كان سره مجهولا حتى لراسبوتين نفسه ، بل كان نتيجـــة لاستراتيجيـــة دقيقة وضعت بعناية . ففى عام ١٩٠٢ كانت الجمعيات الوطنية السرية فى روسيا قد بدأ يســاورها القلق لكثرة عدد الدجالين والمشتغلين بالعلاج الروحانى فى القصر ، وخشيت الجمعيـات ان تستغل مثل هذه الشخصيات التى تحوطها الريبـــة الاحساس الدينى العميق لدى الملكين ، لتزعم موجة من التضليل الدينى تصيب كل مجتمع سان بطرسبرج . ولوقف هذا الاتجاه الخطر قرر زعمـاء هذه الجمعيـــات الوطنية ايجـــاد شخص دينى يعمل لحسابها فى دوائر البلاط ، على ان يكون رجلا ريفيـا ، يصنع المعجزات بطريقــــة يشوبها الدهاء ، وكانوا يعتقدون ان مثل هذه الشخصية التى توجهها تعليماتهم سوف تطلعهم أولا فأولا على الدسـائس والمؤامرات التى تحـاك فى القصر وتألفت لجنة للعثور على الشخص المناسب لهذا العمل . .

وتقـول سجلات البوليس السرى ان راسبوتين كان يومئـذ فى التاسعة والثـلاثين من عمره ، وانه نشـأ فى الســـــهول التى تقبع خلف جبال الاورال ، وقد ظل ١٢ عـــاما يعمل حوذيا لعربات المقاولين فى توبولسك ، وكان مشهورا بفجوره ووحشيته ، كما كانت هناك ظلال معينة تحيط ببعض ماضيه ، فقد اعتقل ثلاث مرات وجلد بسبب اداء يمـين كاذبة ، كما قضى أربعة أشـــهر فى دير فيركوتورى ، وكانت له زوجة وثلاثة أطفال فى قريته الاصلية « بوكروبومشكوى » ولكنه لم يكن يراهم الا قليلا . وفى عام ١٨٩٠ ـ وهو فى الثـــلاثين ـ شرع يوجه حيـــــاته وجهة اخرى ، ليصبح راهبا ! .

كان راسبوتين قويا طائشا ، جلفا

أشعث الثياب ، ولكنه لم يرسم كاهنا قط ، وان قيل انه صانع للمعجزات، قادر على جعل الاعرج يسير والاعمى يرى .. وكان رئيس بوليس كازان يعرف كثيرا من ماضيه ، ويدرك أنه يستطيع اجباره على أداء أي عمل بتهديده بتقديمه للمحاكمة بتهمة قديمة سقطت منذ زمن بعيد بسبب عدم كفاية الادلة ، وهي تهمة اعتداء جنسي على سيدة .

والواقع ان الامر لم يكن يتطلب براعة كثيرة لادخال رجل آخر من المشتغلين بالعلاج الروحاني الى القصر ، فقد كان القيصر وزوجته على استعداد تام للايمان بمثل هذه الخرافات الدينية نظرا لما واجهه القيصر نيقولا الثاني من مآس وفواجع في حياته . وكان نيقولا رجلا صغير الجسم خجولا ، ودودا ، ولكنه لم يكن يصلح بتاتا لحكم تلك الامبراطورية الواسعة التي تهزها الاضطرابات الاجتماعية والحروب ، وتسيطر عليها فئة من الارستقراطيين الاقطاعيين ، والدسائس الكثيرة . .

ونشبت ثورات كثيرة في مختلف انحاء البلاد ، واصبح القصر اشبه بالقلعة المحاصرة ، وتخلى القيصر في يأس وهلع عن كل مظهر للسيطرة ، وأغلق أذنيه وعينيه ، ومنح السلطات المطلقة لوزرائه وأقاربه من الغراندوقات الذين عمدوا الى سفك الكثير من الدماء لاخماد الثورات بوحشية تامة .. أما القيصر فقد حبس نفسه في القصر واحاط نفسه ببعض صانعي المعجزات والدجالين والمصابين بهوس دفين ..

هذه الكوارث التي لانهاية لها اثرت تأثيرا عميقا في نفس القيصرة الكسندرا .. وهي اميرة المانية الاصل من اسرة هيس ، وحفيدة للملكة فيكتوريا ، وقد نشأت وترعرعت في المانيا وانجلترا ، وادركت منذ اللحظة الاولى لزواجها من نيقولا الثاني انها غريبة عن البلاط الروسي .

وبلغت متاعبها الذروة بعد ان اصيب ابنها الكسيس الذى أنجبته بعد أربع بنات بمرض الهيموفيليا القاتل ، مما اصابها بهوس واضطراب عصبي جعلها تلتمس التخلص من آلامها في الخرافات الدينية نفسها التي كانت تشغل بال زوجها .

اخطر انسان

وتعزز موقف راسبوتين في هذا الجو منذ اللحظة الاولى .. فكانت عربة خاصة من القصر تذهب لاحضاره كل يوم ، وكان يبقى احيانا الى مابعد

منتصف الليل ، وسرعان ما اصبح يتمتع بنفوذ غير عادى على الاسرة المالكة .. وبدأ راسبوتين يهذب من مظهره ، فسوى شعره الكث الاشعث ، ونظف لحيته وسواها ، واصبحت سراويله من المخمل الفاخر وقمصانه من الحرير اللامع المزركش ، وقد شغلت القيصرة احدها بنفسها وازدادت شهرته اتساعا ، وترددت شائعات كثيرة عن علاقته بالقيصرة ، وكان الكثيرون يلتمسون مساعدته كل يوم للشفاء من امراضهم ، ينتظرون خارج منزله طوال الليل ، البعض فى مقاعد متحركة ، والبعض جاء محمولا على الاعناق .. ويغادرون بيته وقد بدت علامات السعادة والرضا على وجوههم وكان متاعبهم قد زالت

وفى احدى الحفلات التى دعى اليها موريس باليولوج الذى اصبح سفيرا لفرنسا فى بلاط القيصر ، وصف راسبوتين وعينيه المغناطيسيتين وتأثيره فى المجموع فقال : ان هذا الفلاح الخشن القادم من السهول هو أخطر انسان قابلته فى حياتى .. النساء بصفة خاصة على استعداد للاستسلام له عند اول اشارة !

المتآمرون يكشفون عن أنفسهم

كانت تلك الحفلة مقامة فى بيت أخت « انا فيروبوفا » ، التى تتمتع بثقة القيصرة . وفى تلك الحفلة ، عرف راسبوتين السبب الحقيقى لاستدعائه الى القصر ، فقد دعاه أعضاء اللجنة التى اختارته دون ان يدرى لمقابلتها فى المكتبة .. ثم اغلقوا الابواب خلفه ..

كانت اللجنة تضم خمسة أشخاص ، هم الاسقف هيرموجين ، والنائب فلاديمير بوريشكيفتش وهو من أقوى الرجال يومئذ فى روسيا ، والاخوات الثلاث : أنا فيروبوفا ، والكونتيسة جلوفينا والبارونة بيستولكورس ، ولا شك ان احد الخمسة كان من عملاء البوليس السرى ، اذ تضمنت ملفاته كل كلمة ذكرت فى هذا الاجتماع ..

وبدأ الاسقف والنائب الحديث بسؤال راسبوتين عن علاقته بالاسرة المالكة فقال بصراحة :

ــ ان القيصر والقيصرة معا يتلهفان دائما لسماع آرائى . والقيصر لا يتخذ قرارا قبل ان يستمع الى رأيى .

وقالت فيروبوفا :

ــ سيكون شيئا طيبا ياجريجورى ايفيموفيتش اذا استشرتنا فى كل الامور الهامة التى يطلب القيصر رايك فيها . فنحن أصدقاؤك وأصدقاء

القيصر وامنا روسيا .

وقال النـــائب : بل اننا اكثر من اصـــدقاء .. اننا على استعداد للتضحيـة بأرواحنا من أجل روسيا والقيصر .. فاعمـل معنا فى سبيل أهدافنا المقدسة .

وبدأ الشك على وجه راسبوتين .. ثم قال ببرود :

ـ اليس صـــــوت الله مرشدا كافيا لى ؟

واخـذ الجميع يتحدثون فى وقت واحد لاقناعـه ، واخيرا قال الاسقف بصوت جهورى :

ـ ياجريجورى ايفيموفيتش . اننا نناشـد ذكاءك ووطنيتـك وعرفانك بالجميـــل ، فأنت لاتنسى ولا شك اننى انا الذى نقلتـــك الى هنا من الاقاليم ، وان الترخيص ببقائك صدر منى أيضا .

فقال راسبوتين

ـ أتعنى أنك قادر على اعادتى من حيث جئت ، والقضـــاء على نفس السهولة التى ارتفعت بها ؟

فحدق الاسقف طويلا فى الصليب الذى يحمله .. ثم قال :

ـ لاتسىء فهمى .. ليس هناك من يشـــك فى ان الله اختارك بنفسه ، ولكننا نريد فقط ان نساعدك ونقدم



لك النصح .

فقال راسبوتين :

ـ اننى مدرك تمـــاما لما تعنيه .. والآن يجب ان انصرف لافـــكر فى الامر مليا ..

واستدار لينصرف ، ولكن صوت النائب الحاد أوقفه بقوله :

ـ لاتنصرف الآن .. لايزال هناك شىء صغير نريد بحثه .

وأمسك النـــائب ورقه راح يتلو منها بعناية تفاصيل قضية الاعتداء الجنسى التى لاتزال مســـلطة فوق رأس راسبوتين .. وكانت الراقصة المجنى عليها قد اختفت من سنوات ،

ولكن رئيس بوليس كازان قد جمع أدلة كافية لمحاكمة راسبوتين وادانته

وادرك راسبوتين الآن ان العناية الالهية ليست هى التى دبرت أمر احضاره الى العاصمة وادخاله حياة الاسرة المالكة . . وكان مذاق هذه المعرفة مريرا ..

سنوات من السلطان المتزايد

ظل راسبوتين طوال السنوات الثلاث التالية ينقل الى النائب بيوريشكيفتش والاسقف هير موجين انباء هامة عن البلاط ؛ وفى خلال تلك السنوات نما الامير الصغير ولى العهد واصبح غلاما وسيما لم يصبه أى مرض او حادث ، وازدادت ثقة القيصر وزوجته براسبوتين زيادة مطردة ، فكانت القيصرة لاتبرم أمرا دون استشارته ، والقيصر يتلمس مشورته فى كل قرارات الدولة ، حتى انه بدأ يرفض مقابلة الوزراء ويرسلهم راسا الى راسبوتين .

وبينما كان نفوذ راسبوتين فى ازدياد ، كان عدد أعدائه يزداد أيضا ، حتى اصبح يضم اولئك الذين سعوا لاستخدامه ، وفى صيف ١٩١٠ عقدوا مؤتمرا يسوده القلق بمكتبة قصر الكونتيسة جولوفينا ، وتحدثوا فيما آل اليه حال راسبوتين وكيف انه يفعل مايشاء دون أن يعبأ بنصائحهم .

وكان لابد من معالجة هذا الفلاح الذى طغى وتجبر .. وكان اول مافكر فيه المتآمرون هو استخدام تهديد كازان القديم ، وتقديم قضية الاعتداء الجنسى الى القضاء .. وفشلت المحاولة بعد ان اكتشفوا ان رئيس بوليس كازان قد نفى الى سيبيريا وحل مكانه آخر عينه راسبوتين نفسه !

وكانت هناك وسائل اخرى للانتقام من الراهب الدجال ..

وبينما كان راسبوتين عائدا من القصر سائرا على قدميه فى ساعة متأخرة من مساء يوم ٢٧ اغسطس سنة ١٩١٠ ، اذ عرج على زقاق ضيق قليل الاضاءة على مقربة من بيته وفجأة سمع خطوات سريعة خلفه ، وانطلقت رصاصة مرقت قرب اذنه ... وعندئذ قفز راسبوتين بقوة وحطم مصباح الزقاق بقبضة يده فغرقت المنطقة فى الظلام ، وانبطح هو على الارض بينما راحت الرصاصات تدوى فوق راسه . . وسرعان ما اعتادت عينه الظلام ، وعندما اقترب المهاجمون وكانوا خمسة مسلحين بالمسدسات والسكاكين ، قفز عليهم ،

وامسك اثنين منهم من العنق وضرب جمجمتيهما ببعضهما البعض فمات احدهما فورا وسقط الآخر يئن من آلامه .. وقبـــل ان يهاجمه الثلاثة البـــاقون كان رجلا البوليس السرى اللذان يقتفيان اثره قد اسرعا لانقاذه .. ولم يصب راسبوتين الا بطعنـــة سكين طفيفـــة فى كتفه ، ولكنه ادرك ان الصراع بينـــه وبين اعدائه سوف يستمر دون هوادة !

التخلص من الاسقف

بعد ظهر احد الايامظهر راسبوتين فى حفـــــل استقبال أقيـــم فى بيت الكونتيســـة جولوفينا ، واتجه نحو قاعة المكتبـــة حيث كان المتـــآمرون الخمسة ضده يعقدون اجتماعا هناك .. وما كاد يدخـــل حتى حدقوا اليه بدهشة وصمت ..

ونظر اليهـــم راسبوتين بعينيه القاسيتين وقال :

ــ لم تعد هناك فائدة من التظاهر والتصنع .. اننى أعلم أنكم تحاولون القضـــاء على .. حسن جدا . اننى علىاستعدادلاقتراحاتفاقيةمشتركة ، فهل أنتم على استعداد للاصغاء الى

وصاح الاسقف هيرموجين :

ــ اخرج ايهـــا الشيطان . ارحل الآن ايها المحتال الملعون .

ولكن راسبوتين استمر يقول :

ــ انت احمق أيها الاسقف ، ولهذا لن تبقى فى منصبك طويلا .

ثم تجاهله وقال مخاطبا الآخرين:

ــ اننا نستطيع أن نصبح أصدقاء وفى امكانى ان افيدكم كثيرا ولكن لابد أولا من التخلص من هـــذا الاسقف الغبى الذى يرســـل القتلة فى اثرى .

وحاول الاسقف الاعتراض ، ولكن النائب بيوريشكيفتش طلب منـــه أن يواصل حديثه .. فقال :

ــ اذا ابعدتم هذا الاسقف التعس من صفوفكم فاننى مستعد للرحيـــل من روسيا فى خـــلال الاسابيع الثلاثة القادمة للحج الى بيت المقدس . وقد ابقى هنـــــاك للابد ، كما اننى على استعداد لاداء خدمة سياسية هامة لكم ، ولكنى لن اصرح بهـــا امام هذا الاسقف فابعدوه اولا .

وافلحت وقيعة راسبوتين ، فقد طلب النائب من الاسقف الانسحاب ، وبعـــــد ان اغلق الباب خلفه قال راسبوتين انهماذا تخلصوا منالاسقف هيرموجين فانه سوف يجعل القيصر يعين الكونت كوكوفيزيف رئيســـا للوزراء ، وهو مرشح الجماعة الوطنية التى تضم المتـــــآمرين .. وختم راسبوتين حديثه بقوله :

ـ فكروا في الامر مليـــا ٠٠ ثم ابلغوني رأيكم بسرعة .

وفى أول مارس سنة ١٩١١ نشرت صحف سان بطرسبرج ان الاسقف هيرموجين أوقف عن عمله ونفي الي دير في ليتوانيا . وفى ٣ مارس نشرت الصـــحف ان الكونت كوكوفيزيف سيصبح رئيســا للوزارة الروسية الجديدة .

وبعـــد عشرة أيام نشرت نفس الصـــحف ان الراهب راسبوتين سيرحل للحج فى بيت المقدس !

رسائل للقيصرة

كان راســبوتين يكتب للقيصرة بانتظام خلال سفره فى الخارج ، وكانت القيصرة تعتز بهـذه الرسائل اعتزازا عجيبــا ، وتنسخها فى صفحات مذكراتها برغم مافيهـــا من خرافات

وكان النـــائب بيوريشكيفتش واصدقاؤه يأملون أن يبقى راسبوتين فى الخـــارج الى الابد ، ولكن حوالى نهـــاية العـام ، عندما انتقلت أسرة القيصر الى القرم هربا من برودة شتاء الشمال ، كتب راسبوتين انه سيعود بسرعة الى روسيا ، وما لبث ان عاد فعلا ، وعنـــدئذ أوفدت الجمـــاعة رئيس الوزراء الـكونت كوكوفيزيف لمقابلتـه فى القرم ، وعرض عليه ٢٠٠ الف روبل ذهبى اذا اعتكف فى قريته بسيبيريا ، ولكنه رفض قائلا أنه لا يبيع نفسه لاحد ٠٠

نبوءة شــهيرة

وعاد راسبـــوتين مع القيصر الى سان بطرسبرج فى ينـاير ١٩١٢ ٠٠ وعادت الحياة سيرتها الاولى ، ولكن صفوف أعـدائه أصبحت تضم الآن عددا من أقوى الشخصيــــات فى روسيا ، وفى مقدمتهـم كبار دوقات الاسرة المالكة والقواد والاقطـــاعيون وأفراد الطبقة الارستقراطية ، ولـكن راسبـــوتين تجاهلهم جميعا ومضى فى طريقـــه وفجوره الذى لا ينقطع ٠٠ وعنـــدما قدم ١٩ من اعضاء الاسرة المـــالكة التماســـا الى القيصر لابعاد هذا الفاجر الخليع ، قال لهم : اننى اعرف راسبوتين على حقيقته ٠٠ انه رجل كبير القلب !

ولكن عنـــدما استشرى فجور راسبوتين وشاعت مآثمه ، بدأ القيصر يخشى على عرشه وحياته ، فاستدعى الراهب الى مكتبه ذات ليلة وصارحه بما يسمع ٠٠ ثم سأله ماذا يفعل :

وبعد صمت طويل قال راسبوتين امام القيصرة :

ـ اننى اعرف ان الاشرار يجاهدون ليسلبونى عطفكما وحبكما ، ولكنى

أحبكما وأعمل لحمايتكما .

وعندما تسافران الى القرم فى الشهر القادم سأبقى أنا هنا ، ولكنى سأنتظر دعوتكما لى ، فان لم تفعلا ذلك ، فسوف تفقدان عرشكما فى خلال ستة أشهر .. وابنكما أيضا

وحاولت القيصرة الاعتراض على ابتعاده ودموعها تنهمر على وجنتيها، ولكنه قال لها :

ـ اهدئى ياحمامتى الوديعة .. اننى اذا لم أرحل معكما فسوف تتوقف الشائعات الحمقاء التى تدور حولى ..

وثبت ان راسبوتين كان محقا فى تقديره ، فان حملة التشنيع توقفت قليلا بعد رحيل الاسرة المالكة الى القرم فى شهر ابريل دون ان يصحبها راسبوتين !

وقد انتشرت بين الناس أنباء تحذير راسبوتين للقيصرين بفقد ابنهما وعرشهما فى خلال ٦ أشهر

هل اموت الآن ياأماه ؟

بعد ستة أشهر على الافتراق عن راسبوتين ، كان القيصر وحاشيته فى طريقهم الى (جرودنو) للصيد .. وفى ٢٠ سبتمبر خرج ولى العهد الذى بلغ الثامنة فى رحلة بالزورق ، وعند عودته ، تعثر الامير وهو يقفز الى الشاطىء فاصطدمت ركبته بقطعة من الصخر ، وكانت تلك كارثة نظرا لاصابته بمرض الهيموفيليا ، اذسرعان ماحدث نزيف داخلى ، ولم يكد الامير يصل الى فراشه حتى أصيب بحمى مرتفعة وبلغت حرارته ٤٠ درجة ، وظهرت أورام فى قدمه وفخذه ..

وهرع اثنان من فضل اطباء روسيا الى جوار فراش الامير ، ولكنهما لم يستطيعا عمل شىء ، واستدعى البروفسور فيدوروف اشهر جراحى روسيا ببرقية عاجلة ، فقال بعد الفحص ان الامير أصيب بتسمم دموى شديد .. وفشلت كل الجهود لمنع انتشار التسمم وظل الامير غائبا عن وعيه أغلب الوقت .. وعقد الاطباء مؤتمرا انتهوا منه وعلى وجوههم سمات اليأس التام ..

وكانت صحف العاصمة وموسكو تصدر طبعات خاصة عن حالة ولى العهد ، وأجراس الكنائس لاتكف عن الرنين .. واسترد الامير رشده فترة قصيرة فرفع ذراعيه نحو امه وقال لها برقة :

ـ أماه .. هل أموت الآن ؟

وأطلقت القيصرة صرخة جزع وتوسلت الى صديقتها انافيروبوفا أن ترسل فى طلب راسبوتين فورا .

ولكن راسبوتين كان قد سافر الى بوكروفسكويا لرؤية زوجته ، ولم يكن من المستطاع ان يصلْ الى (جرودنو) في الوقت المناسب ..

وفى تلك الليلة ارتفعت حرارة ولى العهد الى ٤١ ، وتوقع الاطباء أن تكون النهايه فى نفس الليلة .. وجاء الصباح والكآبة تعم القصر ، وكانت سيدات ورجال البلاط نائمين فى مقاعدهم فى انتظار النهاية المؤلمة .. وفجأة ظهرت القيصرة فنهض الجميع يتطلعون اليها فى لهفة ..

وذهلوا جميعا ، فقد كانت تبتسم برغم شحوب وجهها .. وقالت بهدوء :

ـ لم يعد هناك مايدعو للقلق .. لقد تلقيت برقية من الاب جريجورى وسأقرؤها لكم « لقد رأى الله دموعكم وسمع صلواتكم فلا تقلقوا .. سيشفى الطفل »

وليس هناك تفسير طبى مقنع لما حدث فى الليلة التالية .. لقد كتب البروفسور فيدوروف ان شفاء ولى العهد كان معجزة حقيقية ، ففى الصباح فتح الطفل عينيه فى صفاء .. وكانت حرارته تداصبحت عادية وخفت الاورام ، واختفى النزيف الداخلى الرهيب .. وبعد اسبوعين عاد البلاط الى سان بطرسبرج ومعهم



الامير فى احسن حال !

تحذير لايلتفت اليه !

بعد هذا الحادث منع القيصر كل هجوم على راسبوتين فى الصحافة أو البرلمان .. وفى الاعوام السابقة مباشرة للحرب العالمية ، اصبح الحوذى السابق هو الحاكم الفعلى لروسيا .. كان يعين الوزراء ويطردهم كيفما شاء ، وهو الذى يقرر من الذى يقابله القيصر .. وبدا أن نفوذه لا حد له ..

وكان راسبوتين يقف يعارض دعاة الحرب ضد النمسا ، بينما كان الشعور ملتهبا ضدها فى الصحف وبين اعضاء البرلمان ، مما ادى الى زيادة اعدائه ، وانضمام واحد من اقوى الشخصيات اليهم .. هو الغراندوق نيكولاس

عم القيصر ، الذى قرر اخيرا ان يقوم بعمل مباشر ضد راسبوتين .

وكان الغـــراندوق قائدا لمنطقـة سان بطرسبرج العسكرية ، وقد عين فيما بعد قائدا عاما للقوات الروسية فى اكبر كارثة عســـكرية فى تاريخ روسيا ..

وبات واضحـــا ان راسبوتين هو الشخصيـــة الكبيرة الوحيدة التى تعارض محاربة النمسا ، فقد كانت القيادة العليـــا للجيش والوطنيون المتطرفون يريدونها ، والاحرار يأملون ان تســـفر عن دستور ديموقراطى ، والبلشفيك والفوضويون يريدونهـــا لانهـــــم يعتقدون انها ستؤدى الى الثورة ، ولـــكن القيصر كان جبانا ومنعزلا كعـــادته فرفض توقيع أمر التعبئة العامة ..

وفى عيد الفصح ، رفض الغراندوق نيكولاس الاشـــتراك فى مأدبة العشاء التقليـــدية التى تقام فى القصر الملكى لآل رومانوف فى هـــذه المناسبة . وعنـــدما سأله القيصر عن السبب ، قال انه لن يدخل القصر مادام فيـــه هذا الدجال راسبوتين ..

وكان هـــذا التحدى ضربة لهيبة القيصر انتشرت فى البلاد انتشار النار فى الهشيم ، وعادت الصـــحف الى مهاجمـــــة راسبوتين متجاهلة امر القيصر .. وتظاهر راسبوتين أولا بأنه لايكترث لهـــذه الحملة ولكنه بعد اسبوع اعلن انه عائد الى القرية التى ولد فيها .. ورحل فعلا الى سيبيريا فى أوائل مايو سنة ١٩١٤ بعـد فراق مرير غمرته القيصرة بدموعها !

وفى ٢٨ يونيو عندما قتل أحـــد أبنـــاء الصرب الارشـــيدوق فرانز فرديناند ولى عهد النمســـا ، قدمت النمسا انذارا نهائيا للصرب تتوعدها فيه بالانتقام .. واعلنت روسيا انها متضامنة كل التضـــامن مع الصرب وأمســـك العالم أنفاســه ، منتظرا القرار الاخــــير الذى يصدره ذلك القيصر الضعيف المتخاذل .

وظل القيصر يذرع القصر طـوال الليل على غير هدى لايدرى ماذا يفعل .. واخذ يرسل البرقية تلو الاخرى ، لراســبوتين بينمـــا كان الغراندوق نيكولاس فى مكتبه ينتظر أمر القيصر بالتعبئـة العـــامة وكان يدرك أن راسبوتين لن يتمكن من الرد على أية برقية .. فقد عهدت الجماعات الوطنية الى احدى السيدات باغتياله فى بلدته « بوكروفســكايا » ، وانتظرته طوال الليل امام عتبة باب بيته ، حتى اذا فتحه فى الصباح ليتلقى برقية ، طعنته

بسكين مرتين فى صدره ..

ومع ان الجرح كان خطيرا ، وقد ظل راسبوتين ينزف ثمانى ساعات قبل ان يصل اليه الطبيب .. فانه شفى منه بعد حين !

واخذت الاحداث تتوالى بسرعة ، واضطر القيصر فى ٣١ يوليو الى اصدار الامر بالتعبئة العامة - بينما كان راسبوتين لايزال فاقد الوعى فى المستشفى - وفى اليوم التالى أعلنت المانيا الحرب على روسيا .. واخذت دولة بعد اخرى تدخل المعمعة .. وهكذا بدات المذبحة العالمية .

وبعد بضعة أشهر ، زار القيصر سان بطرسبرج زيارة قصيرة، وصحب معه ولى العهد الى مقر قيادته فى الميدان ، ولكن القطار ماكاد يتحرك حتى توقف بهزة عنيفة فاصطدم الامير بباب العربة ، ونزف أنفه نزيفا لا يمكن وقفه .

وأعيد الامير بسرعة الى القصر .. وارتفعت حرارته ، وعادت القيصرة المذهولة تركع الى جوار فراشه كل ليلة ، وهى تلوم زوجها لانه ابعد راسبوتين عنهما ، واضطر القيصر الى ارسال برقية الى الراهب يتوسل اليه فيها أن يعود .. ولم تصله البرقية الا بعد يومين ، فعاد فورا ، وما كاد يصل الى القصر ويصلى الى جوار فراش ولى العهد ، حتى حدث تحسن مفاجىء فى صحة الطفل ، وتوقف النزيف وهبطت الحرارة ! ..

وقال راسبوتين للقيصر وزوجته : يجب أن تشكرا الله لانه وهبنى حياة ابنكما .. ولكن تلك آخر مرة اتمكن فيها من انقاذه ..

وكانت تلك أيضا نبوءة صحيحة من نبوءات راسبوتين الدجال !

لجنة من الجلادين

كانت الحرب العالمية المستعرة تثير هلع راسبوتين ، وقد ظل يجاهد لوقفها حتى استطاع اخيرا بمعونة القيصرة اقناع القيصر بوجوب انسحاب روسيا من الحرب ، وفى صيف ١٩١٦ دبر مفاوضات ثنائية لعقد صلح منفصل مع المانيا فى ستوكهولم ، ولكن أنباء هذه المفاوضات السرية تسربت الى الوطنيين ودفعت الغراندوق نيكولاس للتعجيل بالعمل ..

كان الموقف العسكرى يتدهور باستمرار ، والقوات الروسية تهزم على طول الجبهة ، وازدادت المظاهرات المعادية للحكومة ، وارادت بعض الجماعات الوطنية خلع القيصر وتعيين الغراندوق نيسكولاس مكانه ، ولكن

كان لابد أولا من ازاحة راسبوتين . وشكلت لجنة خماسية لتنفيذ هذه المهمة تضم كلا من الغراندوق ديمترى ابن أخي القيصر وهو شاب نحيل الجسم مولع بالنساء ، والامير فليكس يوسوبوف الثرى وعضو احدى الجماعات الوطنية ، والنائب بيوريشكيفتش الذى كان يعمل مع الصليب الاحمر والملازم ساكوتين والخامس طبيب بولندى بدين يدعى ستانيسلاس لاسوفيرت

ووضعت مشروعات التخلص من راسبوتين فى القطار التابع للصليب الاحمر ، فاقترح النائب استخدام السم لانه لايثير ضجة فوافق الباقون فورا ، وقال الامير يوسوبوف :

ــ ان أفضل مكان للتنفيذ هو بيتى ، فزوجتى الآن فى القرم ، وخدمى ممن يوثق بهم .

وتم الاتفاق على ان يدعو يوسوبوف راسبوتين الى بيته بعد منتصف الليل ، ليسهل التخلص من الجثة ، وظل الامير يفكر فى حجة مقنعة لدعوته فى مثل تلك الساعة ، ولكن راسبوتين كفاه مؤونة التفكير اذ قال له يوما فى احدى حفلات الاستقبال :

ــ ان زوجتك معروفة بأنها من اجمل نساء العاصمة .. هلا قدمتنى اليها ؟

فقال يوسوبوف :

ــ بكل تأكيد .. ولكن أفضل ان تأتى فى ساعة متأخرة بعد انصراف الخدم .

واتفقا على ان يذهب الامير الى راسبوتين فى منتصف يوم ١٦ ديسمبر بالسيارة لاحضاره .. وفى تلك الليلة اجتمعت لجنة الجلادين فى غرفة بالطابق الاسفل من قصر الامير حيث تقرر ان يجتمع براسبوتين ، وأعد الدكتور لاسوفيرت مسحوقا من سم « الهيدروسيانيك » القوى ووضعه فى ثلاث كعكات من النوع الذى يفضله راسبوتين ، وزيادة فى الاحتياط وضعت كمية اخرى فى النبيذ الذى سيشربه . . وبعد الانتهاء من ذلك صعد الجميع الى مكتب الامير فى الطابق العلوى ، بينما ارتدى الدكتور لاسوفيرت بذلة سائق السيارة وانطلق بها مع الامير ليحضر راسبوتين .

رجل لايموت

ماكاد الامير وراسبوتين يدلفان الى قصر الامير ، حتى سمعا صوت موسيقى وضجة تنبعث من غرفة المكتب ، فسأل راسبوتين بحدة :

ـ من هناك ؟

فقال يوسوبوف بهدوء :

ـ ان لدى زوجتى بعض الاصدقاء ، ولكن لاتقلق فسوف ينصرفون سريعا .. هيا بنا لنشرب بعض النبيذ .

واطمأن راسبوتين وتبعه الى الى أسفل .. وبعد أن جلس ، امسك الراهب بكعكة وشرع فى التهامها .. ثم قال انها لذيذة جدا ، والتهم الكعكات الثلاث المسمومة كلها وكانت تحوى من السم مايكفى لقتل عشرة رجال ..

واحس يوسوبوف بالعرق الغزير يغمر وجهه ، وصوت ضربات قلبه يزداد علوا ، وهو يتوقع سقوط راسبوتين بين لحظة وأخرى .. ولكن الراهب لم يبد عليه شىء غير عادى ، وعندئذ ملأ له يوسيوبوف كأسا من النبيذ فابتلعه دفعة واحدة .

ووضع راسبوتين يده حول حلقه وكأنما يعانى صعوبة فى البلع ، فسأله يوسوبوف :

ـ هل أنت بخير أيها الاب جريجورى ؟

فنهض راسبوتين ، وراح يسير فى الغرفة قائلا :

ـ أجل ولكننى اشعر بمذاق مر فى فمى . اعطنى مزيدا من النبيذ فاننى أشعر بظمأ .



وصب له الامير كأسا بيد مرتعشة .. وأشار راسبوتين الى قيثار على الحائط وقال :

ـ غن لنا شيئا .

ومع ان اعصاب يوسوبوف كانت قد تحطمت ، فقد امسك القيثار واخذ يعبث بأصابعه على أوتاره ، بينما أفرغ راسبوتين كأسه الثالثة فيجوفه وتبعها بالرابعة .

وكان الامير المذهول يأمل ان ينهار راسبوتين وينقذه من هذا الموقف المرعب ، ولكن الرجل العجيب ظل يصغى للعزف فى شغف .. وسمعت اصوات فى الطابق العلوى ، فسأل راسبوتين :

ــ ما هذه الضجة ؟

فقال يوسوبوف :

ــ لابد ان اصدقاء زوجتى ينصرفون الآن .. سأذهب لأرى ..

واندفع من الغرفة الى الطابق العلوى ، حيث وجد زملاءه وقد فرغ صبرهم فقال :

ــ لم يفلح السم .. اعطنى مسدسك ياديمترى .

وعاد بالمسدس الى الدهليز حيث كان راسبوتين لايزال جالسا يتنفس بصعوبة ..

وصاح يوسوبوف :

ــ ايها الاب جريجورى .. من الافضل ان تركع الآن وتصلى صلاتك الأخيرة .

وحدق فيه راسبوتين بدهشة .. كان الامير الشاب يرتعش من رأسه الى اخمص قدميه .. ولكنه ضغط على الزناد ، فدوى انفجار شديد ، وصاح راسبوتين ثم سقط بقوة وسمع الآخرون الطلقة فأسرعوا الى أسفل .. كان راسبوتين يتقلب على ظهره وقد اغلق عينيه ، ولكن ملامح وجهه لاتزال تتحرك ، وكانت هناك بقعة دم حمراء تملأ قميصه الحريرى الابيض على مقربة من القلب .

وبعد قليل توقفت كل حركة ..

وانحنى لاسوفيرت على الجثة وفحصها ، ثم أعلن وفاة راسبوتين برصاصة اخترقت قلبه .

كابوس مستمر

وانطلق لاسوفيرت مع ديمترى وساكوتين الذى ارتدى معطف راسبوتين المصنوع من الفراء ، وذهبوا بالسيارة الى بيت الراهب لتضليل البوليس السرى الذى يحرسه ، بينما ظل يوسوبوف مع النائب فى غرفة مكتبه بالطابق العلوى . وبعد قليل بدأ الشك يساوره ، فهبط الى الطابق الاسفل واقترب من جثة راسبوتين وتحسس نبضه الساكن ، ولكنه مالبث ان رأى جفنه الايسر يخفق ، وعضلات وجهه تتقلص .. ثم فتح عينيه وحدق فى

قاتله ! .

وفجأة وقعت المعجزة ! لقد نهض راسبوتين على قدميه والرغاوى تتناثر من شــــدقيه وعيناه تبرزان من محجريهمـــا ، واندفع نحو الامير وامسك بعنقه بقبضة من حديد ! ..

واستطاع يوسوبوف بمجهودهائل أن يخلص نفسه من قبضـــته وهرع الى أعلى ، حيث صـــاح قائلا للنائب بيوريشكيفتش :

ـ انه لايزال حيـــا .. اعطنى مسدسك بسرعة

ولكن النائب احتفظ بمسدسه فى يده .. وسمع يوسوبوف صوت اقدام فأسرع ليرى الامر .. كان راسبوتين يزحف على الســلالم الحجرية وهو يلهث حتى أســـتطاع بلوغ الباب الجانبى الذى يؤدى الى الســاحة الخارجيه للقصر ، ومع أنه كان مغلقا بالقفل ، فقــد فتحه راسبوتين وهو يحتضر بقوة .. وانطلق فى الظلام !

واسرع النائب خلفه .. واطلق عليه طلقتين من مسدسه ، فترنح قليلا ثم تابع السير نحو الشارع ، ودوت طلقة ثالثـــة .. ورابعة ، واخيرا سقط الراهب العجيب !

وظهر بعض النــاس وراء اسوار الحديقة واقبــل رجل البوليس الذى سمع الطلقـــات النارية وكانت جثة راسبـــوتين قد سقطت بين كوم من الجليد فلم يرها احد .. وقال الامير للجندى أن بعض أصدقائه كان يلهو باطلاق النار فى الهواء ، فانصرف .. وتفرق الجمع الذى تجمـــع أمام البيت .

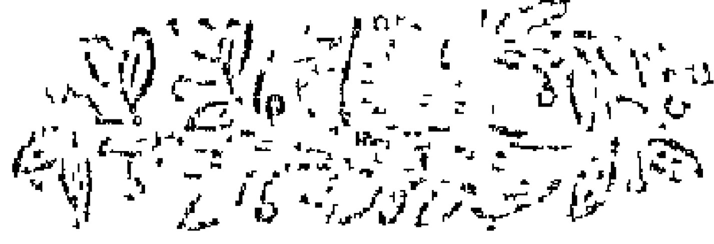
وحمــــل اثنان من الخدم جثة راسبـــوتين الى الغرفة التى تناول السم فيــها ، وعندما عادت السيارة بالمتآمرين الثـلاثة الآخرين ، وضعت الجثــة فى غطاء ، والقيت فى نهر نيفا من فوق كوبرى « بترو بافلونسك »

.. وتحققت النبوءة !

ومع ان المتآمرين الخمسة اقسموا على الا يبوح احـــدهم بالسر ، فقد تسربت الانبـــاء ، وعندما عرف أن راسبوتين اختفى ، امتلأت العاصمة بالشائعات عن المؤامرة التى قتل فيها ، واعتقل الامير يوسوبوف فى بيته بناء على اوامر القيصرة ، كما اعتقــــل الغراندوق ديمترى ، وطالبت القيصرة باعدامهما ، ولكن القيصر اكتفى بالأمر بنفيهما .

وأخرجت جثـــة راســبوتين وقد مزقتها الرصاصات من الماء ، ووضعت فى تابوت ثمــين وعرضت فى كنيسة القيصرة الخاصة ، ثم دفنت فى مكان

سرى لايزال مجهولا حتى الآن .
لقــــد قال راسبوتين يوما : ان المصير الذى ينتظر أعدائى أسوأ كثيرا من مصـــيرى .. وقــد تحققت النبوءة فأعدم الغراندوق نيكولاس برصــاص البلشفيك ، كما قضت الثورة الحمراء على النــــائب بيوريشكفيتش وبقية زملائه .. وفى خلال عام من مصرع راسبوتين ، أعدم الثوار القيصر نيقولا الثانى وزوجته وأولاده جميعا !



تقدم !

كانت جوليـــا وارد هاو تتحـدث مع السناتور تشارلس سامر عضو الشيوخ عن ولاية ماساشوستس ، فطالبت منه الاهتمام بقضية رجل فى حاجة الى مساعدته ، وعندئذ اجابها السناتور :

ـ جوليا .. اننى مشغول جدا الى حد أننى لا أستطيع أن أشغل نفسى بموضوعات الافراد .

فقالت جوليا :

ـ هـذا تقدم عظيم يا تشارلس .. فان الله نفسه لم يبلغ هذه المرحلة بعد !



غرام !

عندما كنت كاتبا فى مكتب الاستعلامات فى بيرل هاربور ، تلقيت مكالمة من فتاة تريد أن تعرف مكان صديقها المفقود .. وقالت انه بحار تعرفت به فى جزيرة « جوام » وبعد أن تبادلا الحب ، نقل الى بيرل هاربور ..

وسألتها عمـا اذا كانت تعرف رتبته أو قاعدته أو اسمه ، فلهثت قائلة :

ـ كلا .. ولكنى أعرف صوته عنـــدما اسمعه ..

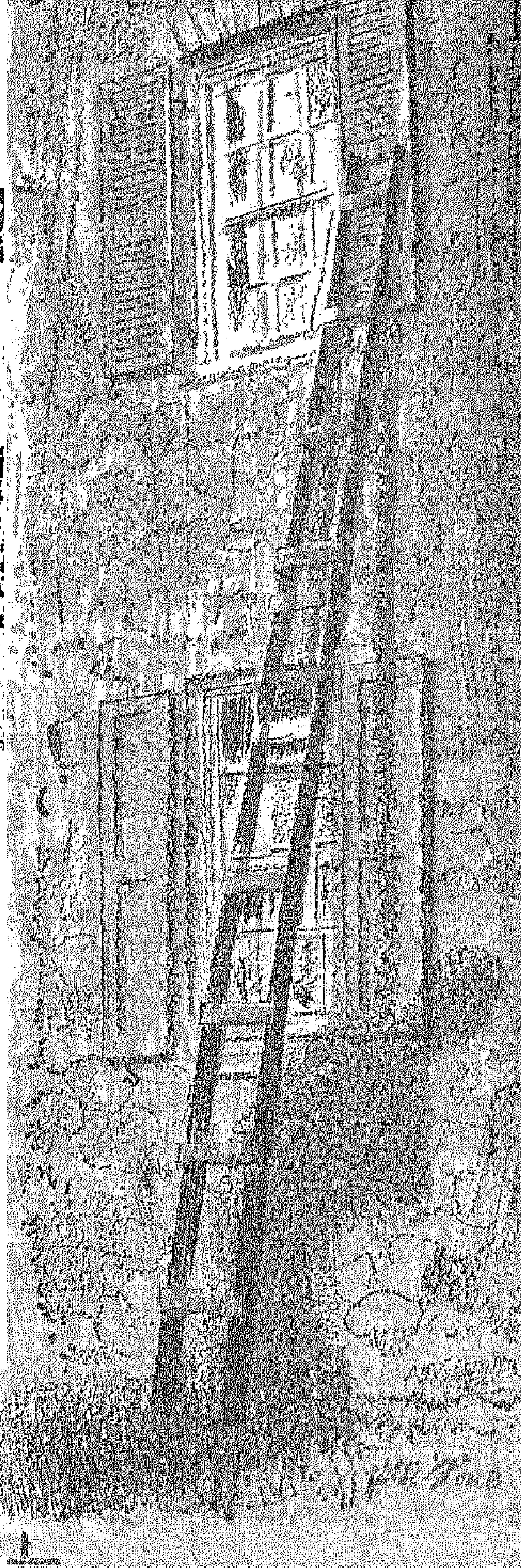


دنيا .. !

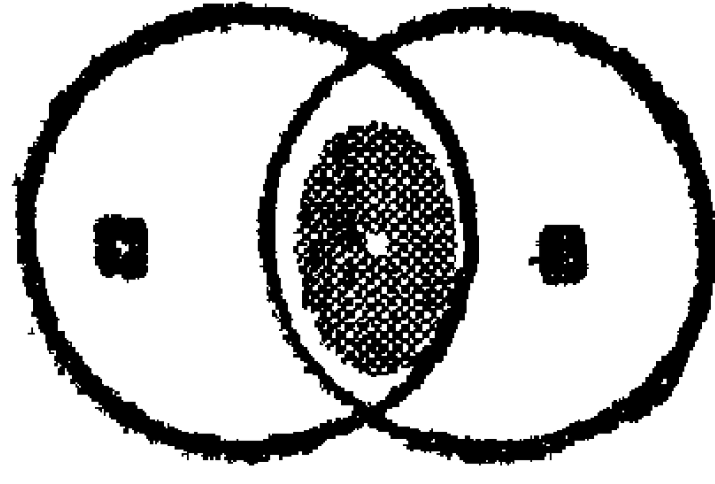
المخضرمون فى وزارة الخارجية الامريكيــة يذكرون أن فيلاندرفوكس وزير الخارجية فى الفتـــــرة من عام ١٩٠٩ الى ١٩١٣ ، كان لا يعود قط الى مكتبه بعد الغداء ، قائلا انه ليس هناك عمل يكفى لشغل يوم الوزير كله !..

كتاب الشهر

قصة اختطاف ابن الطيّار لندبرج



كان اختطاف تشارلس لندبرج الصغير في عام ١٩٣٢ أروع الجرائم التي وقعت في ذلك العصر ، كما أنها كانت سببا في صدور قانون ((خطف لندبرج)) الامريكي الذي جند كل موارد البوليس في البلاد ـ سواء أكان محليا أم تابعا للولاية أم الحكومة الفيدرالية للحيلولة دون وقوع مثل هذه الجرائم في المستقبل ، فلم يستعص على الحل منذ صدوره غير أربع قضايا خطف كبرى ..



قصة اختطاف ابن الطيار لندبرج

عن كتاب **KIDNAP**

بقلم جورج وولر

كان الوقت متأخرا عندما انتهى الكولونيل تشارلس لندبرج وزوجته آن من تناول العشاء فى تلك الليلة الباردة الكثيرة الرياح .. ليلة الثلاثاء أول مارس ١٩٣٢ . كان لندبرج قد أمضى يوما حافلا بمكتبه بشركة الخطوط الجوية التى يعمل بها بنيويورك ، فلم يعد الى بيته الجديد القريب من هوبويل بولاية نيوجيرسى الا فى حوالى الثامنة والنصف مساء .

وتوجه لندبرج وآن بعد العشاء الى غرفة الجلوس حيث جلسا على أريكة امام الموقد واخذا يتحدثان أمام الوهج الدافىء حتى جاوزت الساعة التاسعة بدقائق قليلة . وفجأة أدار لندبرج راسه وسأل :

ــ ماهذا ؟

وسألته زوجته آن عما يعنى ..

فقال انه سمع صوتا أشبه بصوت اخشاب تتحطم فقالت آن انها لم تسمع شيئا .. وبعد لحظة صمت استأنفا حديثهما بعد أن نسيا ما سمعه لندبرج الى فعل الرياح .

كان المكان منعزلا تماما ، وقد اختاره لندبرج عن عمد أملا فى الحصول على حياة هادئة بعدما لاقاه من متاعب الشهرة التى جعلت منه معبود الجماهير ، منذ أن قام برحلته الشهيرة لعبور الاطلنطى بمفرده فى طائرته الصغيرة عام ١٩٢٧ .. وبدت المزرعة التى تحيط بالبيت وتبلغ مساحتها حوالى ٥٠٠ فدان مكانا نموذجيا لما يريد ، فقد كانت قريبة من نيويورك ، تحدها من الشمال البرارى الواسعة التى تحيط بجبال « سورلاندز » ومن الجنوب مستنقعات وحقول جرداء .

لم يكن المنزل الجديد ذو الغرف العشر قد انتهى اعداده تماما ، وكانت أكثر النوافذ تنقصها المصاريع ، وقد اعتاد الزوجان الشابان قضاء عطلة

نهاية الاسبـــوع هناك ، ثم يقضيان بقية ايام الاسبوع فى بيت أم الزوجة بانجلورد ، ولكن فى خلال عطلة نهاية الاسبوع الاخـيرة ، اصيب طفلهمـا الوحيد تشـارلس بالبرد ، فقرر البقـاء فى هوبويل تفاديا للخروج بالطفـــل الذى لم يتجاوز الشهر العشرين من عمره .

وتحسنت صحة الطفل الاشقر ذى العينين الزرقاوين ، وبعد ظهر ذلك اليوم ، لعب كثيرا فى غرفة الخدم ، ودار حول المائدة التى كانت مربيتـه بيتى جاو تتناول عليهـا الشاى مع اوليفر هويتلى رئيس الخدم وزوجته الزى الطاهيـــة .. وبعد العشاء حملت آن لندبرج الطفل بمسـاعدة مربيته الى الطابق الثانى ، ولم تكد الساعة تبلغ الثامنــة حتى كان قد استغرق فى نوم عميق

وبعــد فترة قصيرة من الصوت الغريب الذى استرعى نظر لندبرج ، صعدت آن الى الطابق العلوى لتستعد للنوم ، بينما توجه لندبرج الى مكتبه لاداء بعض الاعمال ..

وفى العاشرة مساء ، دلفت المربية (بيتى جاو) الى غرفة الطفل المظلمة لتصحبه فى زيارة اخيرة لدورة المياه ، وبعد أن وقفت قليلا لتعتـــاد عيناها الظلمة ، أدركت انها لاتسمع صوت انفـــاس الطفل ، فانحنت بسرعة واخذت تتحسس المهد الصغير بيديها .. ولكنه كان خالية !

وظنت المربيـــة ان ام الطفل قد أخذته ، فانطلقت الى مخدعها ، ولكن الام قالت انها لم تأخذه .. فأسرعت بيتى الى الطابق الاسفل حيث كان لنـدبرج جالسا يقرا بعض الاوراق امام مكتبـــه .. فسألته بأنفاس لاهثة :

ــ هل اخذت الطفل ياكولونيل ؟

فحدق فيها ثم قال :

ــ كلا . . اليس نائما فى مهده ؟

ــ كلا ..

وانطلق لندبرج عدوا يقفز الدرجات الى الطابق الاعلى .. وكانت آن قد اسرعت الى غرفة طفلها ، وفتشت المهد ثم عادت الى غرفتها ، وجاء بعدها لندبرج فلم يجد فى المهد غير الدبوسين الكبيرين اللذين كانا يشبكان الاغطية بحشية الفراش .. كان الاثر الذى تركه راس الطفـل على الوســـادة لايزال ظاهرا بوضوح .

واسرع الاب الى غرفة نومه فأخرج بندقية من دولابه ، ثم عاد مسرعا الى مخدع طفله وزوجته خلفه .. والتفت اليها صائحا :

ـ آن .. لقد سرقوا طفلنا !

الآثار الاولى

وجد لندبرج فوق جهاز التبريد الموجود تحت الركن الجنوبى الشرقى لنافذة مخدع الطفل مظروفا فتركه حيث هو ، وحذر آن وبيتى من لمسه أو عمل اى شيء حتى يتم فحص الغرفة بحثا عن البصمات . كما حرص على ألا يلمس بعض قطع من طمى أصفر يميل الى الاحمرار لعلها آثار أقدام شخص ما . وطلب لندبرج من خادمه أوليفر ابلاغ النبأ لبوليس هوبويل ، بينما اتصل هو تليفونيا ببوليس نيوجيرسى ، ثم اتصل بصديقه ومحاميه الكولونيل بريكنريدج فى نيويورك وطلب منه الحضور فورا .. ثم انطلق هو الى الخارج ممسكا بندقيته ، وبدأ يسير على طول الطريق المتجه شمالا وقد سار خلفه أوليفر يقود السيارة ببطء ويعكس اضواءها الكاشفة على الحقول المظلمة ..

وعندما جاء مدير بوليس هوبويل ومساعده بعد دقائق ، قادهما لندبرج الى مخدع الطفل حيث قاما بفحصه ، ثم خرجا للبحث عن آثار أخرى ، وعلى الرغم من الظلام السائد فقد وجدوا مكان فجوتين فى الطمى تحت نافذة المخدع .. وعلى مسافة ٢٠ مترا وجد البوليس سلما متنقلا أو أجزاء من سلم بعبارة أدق .

كان السلم الخشبى قد صنع ببراعة من ثلاثة أجزاء حتى يتسنى حمله بسهولة ، وكانت الدرجة العليا والحاجز الجانبى لاحد أجزائه قد تشققا ، وبفحص الاخشاب المتكسرة تذكر لندبرج الصوت الذى سمعه وهو فى غرفة الجلوس ، فلابد أن خاطف الطفل كان يحمله فى تلك اللحظة .

وما لبث الكولونيل شفارزكوف مدير بوليس ولاية نيوجيرسى أن أقبل مع ثلاثة من مساعديه وجاء بعدهم الكولونيل بريكنريدج صديق لندبرج فقادهم لندبرج مرة أخرى الى مخدع الطفل مشيرا الى الآثار المختلفة ، ولا سيما المظروف الموضوع على جهاز التبريد . ولم يصل خبير البصمات الا بعد منتصف الليل ، وبدأ يبحث عن بصمات فوق المظروف فلم يجد شيئا .. وساد الغرفة صمت تام بينما كان أحد الضباط يفتح غلاف الرسالة ، ويسلم الورقة التى فى داخلها الى لندبرج .. وكان مكتوبا فيها :

« سيدى العزيز

« عليك أن تجهز ٥٠ ألف دولار ،



ان مورو سميث

نصفها من أوراق النقد فئة ٢٠ دولارا و١٥ ألفا من فئة ١٠ دولارات وعشرة آلاف من فئة خمسة دولارات . وبعد يومين أو أربعة سوف نبلغك أين تضع النقود . اننا نحـــذرك من اذاعة أى شيء أو ابلاغ البوليس . طفلك تحت عناية طيبة .

ستكون علامة كل الرســائل هى التوقيع وثلاثة ثقوب » .

وكان التوقيع غريبا . ولكنه واضح وهو عبارة عن دائرتين تتداخل احداهما فى الاخرى لتكونا شـكلا بيضاويا فى صورة بيضـــة ، وكانت الدائرتان مرسومتين باللونين الازرق والاحمر ، وهناك ثلاثة ثقوب مربعة الشـــكل تخترق كل أجزاء الرسم الثـلاثة فى خط افقى .

***

لم يكن مبلغ ٥٠ ألف دولار يثـير اية مشكلة ، فقـــد كان الكولونيل لندبرج يومئذ مستشارا فنيا لشركتين كبيرتين من شركات الخطوط الجوية ، بينما تنتمى زوجتـه لاسرة من أغنى الاسر الامريكية .. ولكن المشكلة هى كيف تصل هـــذه النقود الى خاطفى الطفل ؟ لقد حذرت الرسالة من ابلاغ البوليس ، وقد اتخذ هذه الخطوة فعلا فقد التفت الى كل الموجودين فى مخدع الطفل وقال لهم أنه لا يريد أن يقوم البوليس بأى نشـــاط أو أن تنشر الصحف شيئا يمنعـه من دفع الفدية واستعادة طفله ..

لقد حذرناك ..

ولكن الوقت كان قد فات فعلا لمنع النشر فى الصـحف .. فبعد مرور ٣٠ دقيقة على اتصال أوليفر بالبوليس كانت ٣ ولايات قد تلقت النبـأ على أجهزة البرقيات الموجودة لدى البوليس وكان الصـــحفيون يعيـدون تنظيم صفحاتهم الاولى ..وسرعان ما انطلق الالوف من الصحفيين والفضوليين الى بيت لنـدبرج .. وعنـــدما ظهـرت صحف الصباح وفى صدرها العناوين

الكبيرة عن « خطف طفل لندبرج » تردد صدى الحادث في كل مكان • وأبدى الرئيس الامريكي هوفر أسفه للجريمة ، وبعث كثيرون من رؤساء الوزارات في الخارج برقيات تعرب عن اسف شعوبها وعطفها على لندبرج

كان لندبرج لا يريد تدخلا من البوليس ، ولكن وجود البوليس الآن أصبح ضروريا لابعاد الحشود الضخمة التي تحاصر البيت ، وبعد يومين نشرت كل الصحف الامريكية الكبرى - بناء على رجاء الام المنكوبة - قائمة مفصلة بالطعام الذي يتناوله الطفل ، وفي نفس اليوم نشرت الصحف نداء تعهد فيه لندبرج وزوجته بأنهما لن يحاولا جلب أي أذى على كل من له صلة بالجريمة اذا أعاد لهما طفلهما •

وفي اليوم التالي - ٤ مارس - تلقى لندبرج رسالة تحمل نفس الرمز العجيب وقد جاء فيها :

« سيدي العزيز

« لقد حذرناك بألا تذيع شيئا أو تتصل بالبوليس ، وعليك الآن أن تتحمل العواقب •• اننا سنحتفظ بالطفل حتى يهدأ الجو • لاتخف على الطفل فنحن نطعمه وفقا للتفاصيل التي نشرت • لقد طلبنا منك ٥٠ألف دولار كفدية ، ولكن المبلغ سيكون ٧٠ ألفا • وسنخطرك فيما بعد أين تسلم النقود ، ولكن بعد أن يخرج البوليس من القضية وتهدأ الصحف»

وبينما كان البوليس يفحص الرسالة لاحظ وجود كلمتين ألمانيتين وردتا خطأ في الهجاء • ولما كانت الرسالة تقول « نحن » فلابد أنها من احدى عصابات العالم السفلي • وأعلن « آل كابوني » - أكبر زعماء العصابات في أمريكا » انها جريمة بشعة ، وعرض عشرة آلاف دولار لمن يعيد الطفل ، كما عرض استعداده لاعادة الطفل بنفسه اذا عادت اليه حريته - وكان يومئذ في السجن لقضاء فترة ١١ عاما حكم بها عليه بتهمة التهرب من الضرائب •

ومع أن السلطات تجاهلت عرض آل كابوني ، فقد قرر لندبرج الاستعانة بشخص له صلة وثيقة بالعالم السفلي ، ووقع اختياره على موريس روزنر مفتش البوليس السابق ليكون وسيطا مع العالم السفلي

أستاذ عجيب من برونكس

كان الدكتور جون كوندون المدرس المتقاعد رجلا منتصب القامة قوى العضلات على الرغم من بلوغه الثانية والسبعين ، وقد اهتم اهتماما بالغا بمتابعة القضية •• وفي يوم ٥ سبتمبر

كتب رسالة لصحيفة (هوم نيوز) التى تصدر فى برونكس عرض فيها استعداده لدفع ألف دولار - هى كل مدخراته - بالاضافة الى الفدية المطلوبة حتى تسترد الام المسكينة طفلها ، وقال أنه على استعداد للذهاب الى أى مكان على نفقته الخاصة، وانه لن يذكر شيئا عن أسماء الخاطفين .

ونشر الخطاب يوم ٨ مارس ، ومنذ ذلك الحين أخذ جرس تليفونه يدق باستمرار ، ولكن المتحدثين كانوا من أقاربه وأصدقائه الذين خافوا عليه العواقب .. وفى مساء ٩ مارس وجد بين بريده رسالة استرعت أنظاره . وكانت تحوى هذه الكلمات :

« سيدى . اذا كنت ترغب فى العمل كوسيط فى قضية لندبرج فاتبع هذه التعليمات بدقة . سلم الخطاب المرفق الى لندبرج شخصيا وبعد أن تحصل منه على النقود ، انشر ثلاث كلمات فى صحيفة « أمريكان » التى تصدر فى نيويورك تقول فيها « ان النقود جاهزة » . وانتظر فى بيتك من السادسة حتى الثانية عشرة من مساء كل ليلة ..

واتصل الدكتور كوندون فورا ببيت لندبرج وتلا عليه الرسالة فقال له فى لهفة :

- أرجو أن تقرأ لى الرسالة الموجهة لى ..

وفتح كوندون المظروف المغلق .. وقرأ :

« سيدى العزيز . قد يقبل مستر كوندون العمل وسيطا بيننا . تستطيع أن تعطيه ٧٠ ألف دولار بعد أن تجعل منها لفافة واحدة فى حجم الصندوق المبينة ابعاده هنا . وبعد أن نتسلم النقود ، سنذكر لك أين تجد ابنك . ويمكنك اعداد طائرة فان المكان يقع على مسافة ٢٤٠ كيلو مترا » .

وفى أسفل الرسالة كان هناك رسم عجيب عبارة عن دائرتين متشابكتين يكونان بينهما رسما بيضاويا ، وثلاثة ثقوب قطعت عبر الرسم كله ..

وماكاد لندبرج يسمع وصف هذه الرسوم ، حتى قال فى لهفة : سأحضر اليك فورا بالسيارة ..

فقال كوندون : بل سأحضر انا اليك

ووصل كوندون الى هوبويل فى الثانية صباحا . وبعد أن فحص لندبرج الرسالتين اقتنع بأنهما فعلا من خاطفى طفله ، ولاسيما أن الصحف لم تذكر شيئا عن الدوائر المتشابكة . وطلب لندبرج من كوندون أن يعمل وسيطا له ، وأن يبقى تلك الليلة فى بيته ،

فوافق ٠

موعد بين المقابر

في صباح اليوم التالى عاد كوندون الى بيته يحمل رسالة من لندبرج تخوله العمل كوسيط فى القضية ٠ وبعد الظهر نشرت صحيفة «أمريكان» النيويوركية الكلمات التالية : « ان النقود جاهزة » ٠٠ وفى السابعة مساء من يوم ١١ مارس الذي نشرت فيه الكلمات ، دق جرس التليفون ، وسمع كوندون صوتا عميقا يسأله عما اذا كان قد تلقى الرسالة ، فقال انه تلقاها ، وعندئذ سمع محدثه ينقل اجابته لشخص آخر ويقول له بالايطالية « اسكت » ثم عاد الصوت الاول فقال: انهم سوف يتصلون به ٠

وفى الثامنة والنصف من مساء الليلة التالية ، دق جرس الباب ، وعندما فتحه وجد سائق عربة يسلم مظروفا طويلا ثم انصرف ٠٠ وكانت الكلمات التى تحويها الرسالة تطلب منه التوجه الى منصة مهجورة لبيع السجق حيث يجد رسالة أخرى موضوعة تحت حجر ٠ وهناك وجد رسالة تقول : « أحضر النقود معك»

ولكن النقود لم تكن قد أعدت بعد ٠٠ ومع ذلك فقد انطلق كوندون الى المكان بسيارة صديق له ٠٠ وكانت الليلة باردة كثيرة الرياح ٠٠ وفى المكان المحدد وجد رسالة أخرى جاء فيها : « أعبر الشارع ، وتابع السور من اتجاه المقابر حتى شارع رقم٢٣٣ وسأقابلك هناك »

ووصل الى شارع ٢٣٣ وسار حتى مقابر « وودلون » وكانت أبوابها مغلقة ليلا ، ويحيط بها سور حديدى ارتفاعه تسعة أقدام ٠٠ وأخذكوندون يسير فى الشارع الخالى فى طريقه نحو بوابة المدفن ، ومع انه لم يكن يرى شيئا بسبب الظلام الشديد ، فقد كان يشعر أن هناك من يرقبه ٠٠ وبلغت الساعة التاسعة والنصف دون أن يقع شىء ، فبدأ يشعر بالقلق ، ثم لاح أمامه شيء ابيض وسط الظلام كان هناك شخص يقف داخل ساحة المقابر ، يلوح له بيده من بين القضبان الحديدية للسور المحيط بها ، فاقترب منه ، فرأى أمامه وجها لا يبدو منه غير عينين اذ كانت القبعة تغطى الجزء الاكبر منه ٠٠

وسمع نفس الصوت العميق النبرات يقول له :

ـ هل أحضرت النقود ؟

ـ كلا .. لم أستطع أن أحضرها حتى أرى اللفافة أولا .

وكان يقصد الطفل المخطوف ..

وفجأة سمع صوت أقدام تسير بين المدافن فصاح الرجل الآخر : « هناك شرطى » .. ثم قفز بسرعة فوق السور واسرع يطلق لساقيه العنان، ولكن الدكتور كوندون العجوز انطلق وراءه بينما اختفى الرجل وراء مجموعة من الاشجار، واستطاع أن يلحق به أخيرا ويمسك بذراعه .. ووقف الشبح ساكنا صامتا ، فجذبه كوندون نحو احد مقاعد الحديقة ، وظل الشاب صامتا وقد احاط وجهه بياقة معطفه .. ثم قال أخيرا :

ـ انها مهمة خطيرة جدا .. قد تعنى ٢٠ سنة فى السجن أو الكرسى الكهربائى .. هل يعدموننى اذا مات الطفل ؟

فسأله كوندون فى ذعر : هل مات ؟

ولكن الرجل طمأنه بسرعة انه حى وفى صحة طيبة . وسأله كوندون عن اسمه فقال :

ـ جون .

وسأله كوندون عن العصابة، فقال جون انه مجرد وسيط ، وان هناك خمسة آخرين فى العصابة

فقال الاستاذ العجوز : دعهم يا جون .. وسوف أقنع الكولونيل لندبرج بمساعدتك وفقا للقانون



شارلس اوجستس لندبرج

فقال جون فى اصرار : كلا .. لقد ظللنا عاما نستعد لذلك .

وقال جون انه يجب أن يرحل ، وطالب كوندون باحضار النقود فى المرة التالية ووعد بارسال ثوب نوم الطفل لاثبات اتصاله بالعصابة فعلا ... وسرعان ما اختفى وسط الظلام ..

فشل المفاوضات

وبعد أيام تلقى الدكتور كوندون ثوب الطفل فى البريد ، وقد فسر لندبرج ذلك بأن العصابة تثق فيه تماما ، واطمأن الى أن مفاوضات الفدية تسير فى سرعة وهدوء ولكن قبل انتهاء الاسبوع ، حدث تطوران غريبان ألقيا ظلا من الشك على

الافتراضين فقد جاء مع ثوب الطفل رسالة تطالب لندبرج باظهار استعداده لدفع الفدية قبل أن يرى الطفل ، فاذا وافق فلينشر اعلانا فى صحيفة (أمريكان) يقول : قبلت • النقود جاهزة وامتثل لندبرج ، ونشر الاعلان يوما بعد يوم دون استجابة من جون ، ثم جاء شخص يدعى « جون هيوز كيرتيس » من أهالى نورفولك ليقول للكولونيل لندبرج انه على اتصال مباشر بخاطفى الطفل .. وقد صحبه فى زيارته الاسقف دوبسون بيكوك رئيس كنيسة نورفولك والامير الجاى بوراج قائد البارجة التى أعادت لندبرج الى أمريكا بعد رحلته التاريخية عبر الاطلنطى ..

وقال كيرتيس ان رجلا يدعى سام من مهربى الخمور اتصل به ذات مساء وقال له ان عصابة الخطف التمست منه الاتصال بكيرتيس ليطلب منه تشكيل لجنة من بعض المواطنين البارزين لاجراء مفاوضات بين لندبرج والعصابة .. لان العصابة تخشى العالم السفلى فى نيويورك ونيوجيرسى الذين سيطالبون بجزء من الفدية .. ولكن لندبرج قال انه يعتقد انهم خدعوا ، وان الطريقة الوحيدة لاقناعه بصدق سام ، هى احضار رسالة من العصابة موقع عليها برمز خاص ..

وفى نفس الوقت أعاد الدكتور كوندون نشر اعلان آخر جاء فيه « المبلغ جاهز • نرجو تزويدنا بشفرة خاصة لاستخدامها .. »

وبعد ٤ أيام من الانتظار والقلق ، رد جون أخيرا برسالة جاء فيها :

« لا داعى لاية شفرة • أنت تعرف برنامجنا جيدا • سوف نحتفظ بالطفل فى مكان مأمون حتى تتسلم النقود • اذا ظل لندبرج مترددا فسوف نضاعف المبلغ » •

ولما كان لندبرج يخشى أن يفقد الخاطفون صبرهم أخيرا ، فقد نشر اعلانا فى يوم ٣١ مارس بالموافقة على شروط العصابة .. وفى اليوم التالى ارسل جون رده الى كوندون يقول فيه : « اذا كنتم على استعداد للعمل مساء السبت فدعونا نعرف ذلك • واذا كان الرد بالايجاب فانشروا فى الصحيفة « نعم • كل شىء على ما يرام » •

وابلغت وزارة المالية التى أعدت النقود وفقا للتعليمات المطلوبة ، أن رجالها لن يقوموا بأى دور الا اذا سجلوا الارقام المسلسلة لكل أوراق الفدية النقدية .. فقبل بعد تردد ..

وفى مساء يوم السبت كان لندبرج

وكوندون قد أتما استعداداتهما الاخيرة لتسليم الفدية ، فوضعت النقود فى حزمتين احداهما تحوى ٥٠ الف دولار من أوراق النقد التى يصدرها « بنك الفيدرال ريزرف » وشهادات ذهبية .. والحزمة الاخرى تحوى ٢٠ ألفا من أوراق النقد الذهبية . ووضعت كلها فى صندوق خشبى أعده كوندون لهذا الغرض

وفى الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والاربعين اقتربت عربة من بيت كوندون، وسلمه سائقها مظروفا ثم رحل ، وكانت الكلمات التى فى الرسالة تطلب منه البحث عن رسالة اخرى أمام حانوت للزهور قرب مدافن « سان ريمون » ، فحمل لندبرج نفسه كوندون الى هذا المكان ووجدا الرسالة وقد جاء فيها :

« سر فى شارع هوايتمور جنوبا . احضر النقود معك وتعال وحدك .. »

ولكن كوندون ترك الصندوق على المقعد بجوار لندبرج قائلا انه يريد أن يتحدث أولا مع جون ..

وعلى مسافة من بوابة المدافن رأى شبحا ينتظره .. وسرعان ما وجد انه جون فسأله : هل احضرت النقود ؟

ـ كلا .. انها فى السيارة . ولن تأخذها حتى تعطينى ايصالا يكشف عن مكان الطفل .

فقال جون انه سيحضر الايصال بعد تسلم النقود بدقائق .. فقال كوندون :

ـ ان لندبرج ليس غنيا كما تظن فلماذا لا تكون كريما معه .. لقد طلبتم أولا ٥٠ الف دولار فلم يستطع تدبير المال ، فلماذا تزيدون الفدية ٢٠ الفا ؟

فقال جون : حسنا .. اذا لم يستطع احضار ٧٠ الفا فسوف نكتفى بخمسين الفا ..

وعاد كوندون الى السيارة وابلغ لندبرج بنتيجة المساومة ، ثم تناول الصندوق بعد أن أخرج منه الحزمة ذات العشرين ألف دولار .. وعاد الى المكان الذى ترك فيه جون وهناك قدم له رسالة قال ان فيها بيانا بمكان الطفل ، ولكنها يجب الا تفتح الا بعد ٦ ساعات .. فوافق كوندون وسلمه صندوق النقود قائلا : لا تحاول خداعى .

وعاد كوندون الى السيارة حيث سلم الرسالة الى لندبرج قائلا ان جون طلب عدم فتحها الا بعد ست ساعات ، ومع ذلك فهو يريد فتحها فورا .. فوافق لندبرج ، ووجدا

فيها :

« الطفل موجود على السفينة « نيللى » وهى مركب صغير طوله ٨ر٥ متر . تجدونه فى مكان ما بين شاطئى هورسنيك وجاى هيد على مقربة من جزيرة اليزابث »

البحث يبدأ ...

على الرغم من نجاح كوندون فى توفير ٢٠ الف دولار من الفدية ، فقد اثار هذا العمل خيبة رجال وزارة المالية التى أعدت النقود ، اذ كانت الحزمة الاخيرة تحتوى على ٤٠٠ ورقة من فئة الخمسين دولارا الذهبية ، وهى أوراق يسهل تتبعها عندما يبدأ خاطفو الطفل فى انفاقها .

ونظم لندبرج خطة للبدء فى البحث عن السفينة (نيللى) التى تقول الرسالة ان طفله فيها وركب لندبرج بنفسه طائرة برمائية ذات محركين ، وظل يحلق بها فوق المنطقة الوارد ذكرها فى رسالة العصابة طوال اليوم حتى الغروب دون جدوى .. وأعاد الكرة فى اليوم التالى بلا ثمرة .. وفى ذلك اليوم نشر الدكتور كوندون اعلانا فى الصحف طلب موالاة نشره يوميا وقال فيه : « هل حدث خطأ ما .. هل خدعتمونا ؟ .. نرجو تعليمات أفضل »

وعندما جاء يوم ٦ ابريل ، ولم تصل أية كلمة من جون ، قرر لندبرج ان يطلب معاونة الحكومة ، ووافقت وزارة المالية فورا على اذاعة نشرة تحوى الارقام المسلسلة لنقود الفدية على كل بنوك كندا وأمريكا . ولم تذكر النشرة شيئا عن قضية ابن لندبرج تفاديا لتنبيه العصابة ومع ذلك فقد تنبه بعض الصحفيين الى الصلة بين الحادثين وأشاروا اليها . وخشى لندبرج أن يؤثر ذلك على طفله فأذاع بيانا بأن الفدية دفعت والطفل لم يعد ، وانه لم تكن هناك نية لاذاعة أرقام النقود المدفوعة ، ولكن نظرا لان خاطفى الطفل لم يحافظوا على اتفاقهم ، فلابد من استخدام كل وسيلة لاستعادة ابنه

وبعد يومين أذاعت صحيفة (هوم نيوز) التى تصدر فى برونك قصة الدور الذى قام به الدكتور كوندون .. وقال الرجل العجوز انه على ثقة من أن العصابة سوف تحتفظ بثقتها فيه ، وان السبب الوحيد للفشل المبدئى هو خوف العصابة من تدبير شرك لها .

اشارة صوتية من الصارى الامامى

بعد اسبوع كان لندبرج يعتقد أن الخاطفين يحاولون الاتصال به من جديد وبعد أن فشلت المحادثات مع

جون ، أصبح تواقا لمعرفة ما احرزه جون هيوز كيرتيس من نجـاح فى الاتصال بالعصابة .. وقال هيوز ان العصابة اتصلت به وطلبت اليـه الحضور بمفـرده فى بيت بنيوآرك وهناك قابل سام ورجلين آخرين ، أحدهما ربان السفينة التى يوجـد فيها الطفل والآخـر يدعى جـون ، عرض على كيرتيس بعـض الاوراق الماليـة التى تحمـل ارقام نقـود الفدية .. وقال كيرتيس ان العصابة ترغب فى تدبير موعد مع لندبرج فى البحر ..

وفى فترة ١٩ - ٢٠ ابريل اتصل كيرتيس بلندبرج وقال ان بعض افراد العصابة صحبوه الى السفينة ،وهى ذات صاريين واسمها (مارى موسى) .. وقال انه رأى سـيدتين على الشاطىء تتصلان بالسفينة بوساطة جهاز لاسلكى يختفى داخل سيارة قديمة من طراز فورد .. وقال ان العصابة طلبت فدية اخـرى بشرط الا يذكر لندبرج ارقامها المسلسلة لاحد .

ووعد لندبرج ان يفعل ما تريده العصابة ، ورتب موعدا معها فى المياه القريبة من جزيرة « بلوك » ولـكن الاجتماع لم يتم لان العصابة وجدت ان هناك سفنا كثيرة فى تلك المنطقة وطلبت موعدا جديدا على مسـافة ٣٠ كيلو مترا من شاطىء فيرجينيا .

وذهب لندبرج الى المكان على ظهر يخت خاص بصحبة اللازم البحرى جورج ريتشارد والـكابتن كنيث هوتينج قائد محطة نورفولك البحرية والجوية ، وصديقه ادوين بروس .. ولكنهم لم يجدوا شيئا ، وعلى الرغم من سوء الجو فقد ظل لندبرج ملازما اليخت طوال الاسبوع التـالى دون جدوى .. وبعد موعد آخر فاشل فى مياه نيوجيرسى ، عاد كيرتيس يقول ان العصابة غيرت المكان مرة اخرى الى منطقة (فايف فاتومز) وطلبت ان تكشف كل سفينـة عن نفسـها باطلاق وميض من الضوء من الصارى الامامى .. وذهب لندبرج الى (فايف فاتومز) على ظهر السفينة «كاشالوت» وكان الجو رديئـا والمطر غزيرا .. ومرت ساعات وهو يرسل اشارات ضوئية من الصارى الامامى دون أن يتلقى اى جواب ..

نهاية البحث

بعد ظهر ذلك اليوم كان وليام الن بعود سيارة نقل تحمل شحنة خشب فى الطريق المؤدى من برنستون الى هوبويل والى جواره زميله اورفيل

ولسون . وعلى مقـــربة من قرية (مونت روز) أوقف الن الســيارة ليقضى حاجة فى الغابة المجاورة ... وبينما كان يشق طريقه وســط الاشجار اذ شاهد شيئا يرقـد فى حفرة صغيرة وقد كاد يدفن تحت أكوام من أوراق الاشجار المعطنة .. وحدق فى هذا الشيء فاذا به يرى قدما بشرية صغيرة تبرز من الحفرة، فأسرع عائدا الى السيارة وقال لزميله صائحـا : يا الهى .. هنــاك طفل ميت !

وانطلق الن بالسيارة الى هوبويل وأبلغ الامر للبـوليس ، وسرعان ما صحبه الى المكان أحد ضباط البوليس، وأخرج من جيبه صورة طفل صغير ووضعها الى جــوار رأس الجثـة الصغيرة .. ثم هز رأسه فى أسف.

وبعد دقائق وصل مفتش البوليس هارى والسن من بوليس مدينـــة جيرسى وبعد أن فحص بقايا الثياب التى ترتديها الجثة ، اتجه بسيارته الى بيت لندبرج وطلب من (بيتى جاو) مربية الطفل وصفا لثياب الطفل التى يرتديها أثناء نومه ، فأحضرت له قطعة من القماش الذى صنعت منه قميص نوم للطفل ليلة خطفه ، فتبين انهـا تنطبق تمـاما على الثوب الذى وجد مع الجثة الصغيرة !

لقـد انتهى البحث الطـويل عن تشارلس أوجستس لندبرج الصغير!

وأبلغ النبأ الى الاب المفجوع الذى كان لا يزال قابعا فى السفينة يأمل فى الاتصال بالعصابة واسترداد طفله !

انه طفلى !

امتلأت الغابة القريبة من هوبويل بالسيارات وأفراد الجمهور ، بينما كان البوليس يقوم بحراسة الحفرة التى وجدت الجثة فيها .. وجـاء الكولونيل لندبرج عارى الراس .. وسار الى الغرفة القريبة التى وضع فيها الجثمان الصغير .. ثم سار نحو المائدة المغطاة بغطــاء أبيض ، وأزاح الغطاء ببطء ..

وحدق لندبرج فى الوجه الصغير ، ثم اندفعت الدماء الى رأسه ، وانحنى فوق الوجه ففحص الفم ، وأحصى الاسنان .. ثم تأكد من العيب الوحيد الذى ولد به طفله ، وهو اصــبعان متشابكتان فى القدم اليمنى .. وأخيرا قال :

ــ اننى مقتنع تماما بأن هذا هو طفلى !

واعلن الكولونيـل شـفارز كوف رئيس بوليس نيوجيرسى انه سيبذل كل جهد ممكن لاعتقال الخـاطفين ،

بعد ان كان حريصا على عدم عرقلة محادثات الفدية ...

وكانت الخطوة الاولى هى معرفة كل المعلومات التى حصل عليها الدكتور كوندون ، وجون هيوز كيرتيس ، والمفتش روزنر خلال اتصالاتهم بالعصابة .. واستدعى الثلاثة الى بيت لندبرج ، فقص الاول قصته من البداية واجاب عن كل الاسئلة التى وجهت اليه وقال ان كل خطوة قام بها كانت بموافقة لندبرج وصديقه بريكنريدج

وجاءروزنر فقال ان كل اتصالاته كانت بصغار المجرمين الذين يحاولون استغلال الحادث أما كيرتيس فقد تبين أنه لا يذكر كثيرا من النقط الحيوية ، ولاسيما المنزل الذى التقى فيه بجون ، أو المكان الذى قابل فيه السيدتين اللتين تتصلان بالسفينة لاسلكيا ... وقد أدى هذا الى أثارة الشك فى نفس مفتش البوليس والشىء الذى انفرد به ، وظل يعتصره بأسئلته المحرجة مدة ساعتين ،، حتى انهار فى النهاية واعترف أن كل قصته عن السفينة والعصابة ملفقة تماما !

واعتقل كيرتيس وحوكم بتهمة تضليل العدالة وصدر الحكم بسجنه ستة أشهر !

غربلة المشتبه فيهم

كان بوليس نيوجيرسى لايزال حتى الآن يحتفظ وحده بالقضية ، يرفض كل مساعدة معروضة من الهيئات الرسمية الاخرى ولا سيما مكتب المباحث الجنائية ... ورجال الامن الفيدراليين الذين عرضهم الرئيس هوفر نفسه بعد العثور على جثة الطفل واخذت الصحف توجه الانتقادات الى بوليس نيرجيرسى لعجزه عن معالجة هذه القضية الهامة .

واخذ الكولونيل شفارزكوف يستعرض ما قام به رجاله حتى الآن ... لقد كرس ٣٠ من مخبرى وضباط الولاية الوف الساعات لجمع كل دليل ، واستجواب كل مشتبه فيه . وقاموا بالتحرى عن خدم اسرتى لندبرج ومارو واقاربهم واصدقائهم وسافر أحد الضباط الى بريطانيا ملتمسا معونة سكوتلنديارد للتحرى عن ماضى مربية الطفل ورئيس خدم لندبرج ...

وكان من الواضح ان للعصابة مساعدا فى داخل البيت ... والا فكيف تسنى لها معرفة أن الطفل سيقضى الليلة مع ابويه فى هوبويل ليلة الثلاثاء ، مع ان عادة الاسرة أن تقضى بقية الاسبوع فى بيت مستر

مارو حماة لنـــدبرج ؟ • • وكيف عرفوا موضع غرفة الطفل أو الساعة المناسبة لخطفه ؟

واتجهت الشبهات الى اثنـين ••• أحدهما شـاب نرويجي يدعى هنرى جونسون وهو صديق لمربيـة الطفل (بيتى جاو) وكان يعــرف ترتيب غـــرف البيت اذ جاء لزيارتها ثلاث مرات كما انه كان يعرف ان لندبرج وأسرته سيكونون هناك ليلة الجريمة، لان بيتى الغت موعدها معــه بسبب ذلك • • • • ولـكن هنرى اقنـــع البوليس بأنه لا دخل له فى الجريمة أما الشخص الآخر الذى احاطت به الشبهات ، فهى خادمة تدعى فيوليت شـارب تعمل فى بيت مارو - وهى انجليزية الاصل حسناء فى الثامنــة والعشرين ، وكان معروفا أن رئيس الخدم يحبها وينوى الاقتران بها ••

وسـئلت فيوليت عن المكان الذى كانت فيه ليلة الجريمة ، فقالت ان شخصا من معارفها صحبها للسينما ، ولكنها قالت انها لا تذكر اسمه ، ولا تعرف شيئا عن دار الســـينما التى ذهبـا اليها • • • وزادت الشـكوك بسبب ذلك ، فظـــل المفتش والشى يلاحقها بأسـئلته المحرجه حتى حطم اعصـــابها • • • وفى اليوم التـالى شربت فيوليت كأسا مسموما فماتت، وقال البوليس للصحفيين أن انتحارها دليل قوى يؤيد الشكوك فى اشتراكها فى الجريمة ••• ولكن ما لبث أن جاء شـــاب يدعى ارنست ميلر وقال انه صـــحب فيوليت الى السينما فى تلك الليلة واثبت صدق روايته بأدلة لا تقبل الشك •

المطاردة تضيق • •

على الرغم من حــرص بوليس نيو جيرسى على عدم اشراك أحد فى القضية أو اذاعة شىء عن الادلة التى وصـــل اليهـــا ، فقـــد حاول بعض المحققين الآخرين المشاركة فى حل الغاز هذه الجــريمة • • وكان بينهم (جيمس فين) من بوليس مدينة نيويورك •

وبدأ فين يتـــابع ظهور أوراق الفـــدية المـــالية التى بدأت تتسرب الى الاســـواق فى حذر ، وتظهر بين حين وآخر فى المتاجر والبنوك • • وكلما ظهرت واحدة منها ، كان (فين) يضع دبوسا على مكانها فوق خريطة خاصـــة • • وظلت شبكة الدبابيس تزداد فوق الخريطة ولكن فى بطء

وتذكر فين طبيبـــا نفسانيا فى نيويورك يدعى « دولى شوينفيلد » سمع ان له نظرية خاصة عن قضية لنـــــدبرج تتلخص فى ان مرتكب

الجريمة رجل واحد لاعصابة ، وان المجرم مدفوع لذلك بعوامل نفسية حادة ، اذ انه يتوهم فى نفسه القدرة التامة ، وقد اعتبر لندبرج البطل منافسا له بعد ان اصبح معبود الجماهير ، فقرر أن يهاجمه بطريقة ما ويؤذيه ليثبت انه أعظم من لندبرج ! .. ودلل شوينفيلد على صدق نظريته - عندما التقى باللازم فين - بأن مبلغ الفدية المطلوب يعد تافها بالنسبة لعصابة منظمة ، ومن ثم فلابد أن الخاطف هاو منفرد يغامر وحده مغامرة كبرى كما فعل لندبرج فى عبور المحيط !

وطلب الدكتور شوينفيلد الاطلاع على الرسائل التى بعث بها جون للدكتور كوندون ، فاتصل فين ببوليس نيوجيرسى الذى وافق لاول مرة على ذلك الطلب ، وارسل صورا فوتوغرافية لها الى الطبيب النفسانى ..

وبعد دراسة الرسائل ، جاء شوينفيلد الى (فين) بوصف مفصل لجون .. قال انه ألمانى الاصل ، اذ كانت الاخطاء الواردة فى رسائله حقيقية وليست مفتعلة ، وقد ارتكبها مهاجر مازال يفكر بالالمانية

شرلوك هولمز الاخشاب !

بعد حادث الخطف بحوالى عام ، عاد الكولونيل شفارزكوف يفكر فى السلم الخشبى المتنقل الذى استخدم فى الجريمة .. لقد فشلت كل الجهود التى بذلت فى العثور على بصمات عليه كما فشلت الابحاث التى أجراها عليه الفنيون وخبراء النجارة بمكتب المقاييس والمعايير .

وسمع شفارزكوف ان ارثر كوهلر رئيس الاخصائيين الفنيين فى شئون الخشب بمعمل الغابات الامريكى من ابرع الخبراء فى الاخشاب فقرر الاستعانة به ..

وبدأ كوهلر بتفكيك السلم كله ، بعد ان وضع ارقاما على كل درجة من درجاته وكل حاجز جانبى من حواجزه الستة . ثم بدأ يفحص كل جزء بالميكروسكوب ليكشف عن أسرارها ، فوجد اربعة ثقوب لمسامير فى الحاجز الايسر من الجزء الاعلى للسلم ، تدل على أنها صنعت بمسامير مضلعة من النوع القديم . وركز كوهلر اهتمامه بعد ذلك على أخاديد صغيرة لا تكاد ترى على الجانبين الداخليين للحواجز ، وعرف من هذه الاخاديد الدقيقة انها ناتجة من عيب فى نصل السكين العامل الذى قام بتقطيع

لوح الصنوبر الاصلى الذى صنع منه السلم .. واستطاع كوهلر بعد دراسة صور مكبرة لآثار السكين على الخشب ، أن يعرف الصفات الرئيسية للآلة التى قطع بها هذا الخشب . وكتب كوهلر الى كل مصنع لقطع الاخشاب بين نيويورك والاباما وعددها ١٥٩٨ يسأل كلا منها عما اذا كانت لديه آلة تنطبق على الاوصاف التى توصل اليها ..

وعندما جاءت الردود حصر بحثه فى ٢٣ مصنعا ، ارسل الى اصحابها يطلب عينات من الواح خشب الصنوبر مقاس ٥ر٢ × ١٠ التى تعدها آلاتهم . واخيرا وجد نفس الاخاديد التى اكتشفها على اخشاب السلم ، على عينة واردة من مصنع فى كارولينا الجنوبية ..

وحصل كوهلر من هذا المصنع على قائمة بكل الشحنات التى شحنت من هذا المقاس من الاخشاب خلال التسعة والعشرين شهرا السابقة ، وظل اشهرا طويلة يتنقل بين الولايات التى شحنت اليها هذه الاخشاب بصحبة مفتش للبوليس يسمى لويس بورنمان حتى انتهى به البحث اخيرا فى منطقة وليامز برج فى (برونكس) .. وهناك وجد أخشابا مماثلة للقطعة التى صنع منها سلم الجريمة فى احدى شركات الاخشاب ..

ولكن تبين أن الشركة لاتحتفظ بسجلات لمبيعاتها لانها تبيع بالنقد فقط ، وعمالها لايذكرون شيئا عمن اشترى منهم هذا النوع ولا سيما انه بيع منذ عامين !

وعلى اية حال فان هذه الابحاث كانت كافية لتأكيد ان المجرم الذى صنع السلم يعيش فى برونكس أو يعرفها جيدا على الاقل .

طفل جديد

استأنف لندبرج عمله بعد مصرع ابنه ، وان كان قد بدا أكبر سنا ، وفقد حوالى ١٤ كيلو جراما من وزنه . وفى أغسطس ١٩٣٢ وضعت آن لندبرج طفلها الثانى الذى أسمياه (جون) .. وقد حرص لندبرج يومئذ على ابعاد طفله الثانى عن كل دعاية التى اعتبرها مسئولة عن مأساة طفله الاول ..

ولم تكن مخاوف لندبرج على غير أساس . . فمنذ خطف ابنه الاول ، ازدادت جرائم خطف الاطفال بصورة مرعبة ، على الرغم من صدور (قانون لندبرج) فى ٢٢ يونيو ١٩٣٢ الذى جعل من جريمة الخطف جريمة

فيدرالية وشـدد عقوبتها ، وتلقى لندبرج نفسه رسائل تهديد بخطف ابنه الثانى جون !

الشبكة تزداد ضيقا

تضاعفت الدبابيس التى يضعها فين فوق خريطتـه حتى اصبحت اشبه بغابة صغيرة ، وبات من المؤكد ان المجرم يعيش فى برونكس ، فقد كانت الخطوط الرئيسية للدبابيس تلتقى هناك بل انها بدات تكشف عن ملامح الرجـل ، اذ كانت أوصاف صرافى البنوك والمتاجر والمستخدمين فى الاماكن التى تقـدم فيها الاوراق النقدية التى كانت بين اموال الفدية ، تكاد تتفق على الوصف الذى ذكره الدكتور كوندون عن جـون ، وهو : عينان زرقاوان حادتان ، ووجنتـان مسطحتان ، عظامهما مرتفعة وذقن مدبب ، كمـا انه يتحـدث بلغـة اجنبية .

وتخـلى بوليس نيوجيرسى عن انفراده بالتحقيق ففتح ملفاته لبقية الهيئـات المشتركة فى المطاردة ، وبدأت وحدات الامن الثلاث ـ بوليس نيوجيرسى ونيويورك ووزارة العـدل ـ تعمل معا فى تناسق وتعاون .

وفى أوائل سنـة ١٩٣٤ ازدادت احتمالات اعتقـال جون قوة ، فقد أمرت الحكومة الامريكية باعادة كل الذهب ـ عملة وسبائك وشهادات مصرفيـة ـ الى بنوك الاحتياطى الفيدرالية لاستبدال عمـلات أخرى بها وذلك لمكافحة الكساد الذى ساد البلاد فى تلك الايام .. ومع ان عددا هائلا من الاوراق الذهبية كان لايزال باقيا لدى الافراد ، فقد اعتبرت غير مشروعة من الناحية الفنية .

وبدا أن حصـيلة جون من الاوراق فئة خمسة دولارات قد نفدت ، وبدأ ينفق من شهادات الذهب فئة عشرة دولارات ، ويتبعها بفئة ٢٠ دولارا .

ولما كانت المعلومات التى حصـل عليهـا فين تدل على أن جـون يستخدم سيـارة فى تنقلاته ، فقد بعث بنسخـة من الارقام المسلسلة لاموال الفدية الى كل محطات البنزين فى ولاية نيويورك مع رجاء بأن يكتب مستخـدموها رقم ترخيص كل سيارة تدفع ثمن زيتهـا أو بنزينها بهذه الاوراق على الورقة نفسها .

وعادت أوراق الفدية الى الظهور بصفة منتظمة فى الاسـبوعين الاولين من سبتمبر .. وفى صباح يوم الاحد ١٥ سبتمبر توقفت سيارة «دودج» مقفلة زرقاء اللون امام محطة بنزين فى الشارع رقم ١٢٧ وطلب الرجل

الجالس خلف عجلة القيادة خمسة جالونات من البنـزين ، ثم اخرج شهادة ذهبية من فئة ١٠ دولارات واعطاها لولتر ليل مدير المحطة . .

وتذكر ولتـر قائمة الاوراق المسلسلة الخاصة بأموال الفدية التى وزعت على محطات البنزين . ولكنه كان قد القى بها بعد ان تمزقت واختفت معالمها ، ومع ذلك فقد حرص على أن يكتب رقم سيارة الزبون على ظهر الورقة بعد انصرافه .. وكان الرقم ٤ ى - ٤١ - ١٣ نيويورك .

وفى يوم ١٨ سبتمبر لاحظ كبير صرافى البنـك الذى أودعت فيه الورقة ضمن حصيلة محطة البنزين وجود هـذه الورقة التى يدل رقمها على انها من أوراق الفدية ، فاتصل بالبوليس فورا ... وما كاد فين يرى الورقة حتى شاهد رقم السيارة مكتوبا خلفها ، فتوجه الى محطة البنزين وهناك قال مديرها انه يذكر الورقة والزبون ، وكان الوصف الذى ذكره له ينطبق تماما على (جون) .

ودل الكشف فى مكتب سيارات ولاية نيويورك على ان هذه السيارة يمتلكها شخص يدعى ريتشارد هاويتمان ويقيم فى رقم ١٢٧٩ ايست بالشارع رقم ٢٢٢ فى برونكس

وفى فجر اليوم التالى - الاربعاء ١٩ سبتمبر - كان فين و ١٢ جنديا من رجال البوليس الفيدرالى الذين اختيروا بعناية تامة ، يختفون بين الاشجار الكثيفة فى الغابة التى تقع فى شمال شرقى برونكس ، وقد اغلقوا كل طريق محتمل للفرار وأمسكوا مناظيرهم المقربة ووجهوها نحو منزل متواضع من طابقين طلى بالمصيص الاصفر اللون .. وهم على ثقة من ان خاطف طفل لندبرج الذى ظلوا يطاردونه عامين ونصف عام موجود داخل هذا المنزل !

(البقية فى الشهر القادم)



أسعد حظا ..

قال الرجل لصديقه :

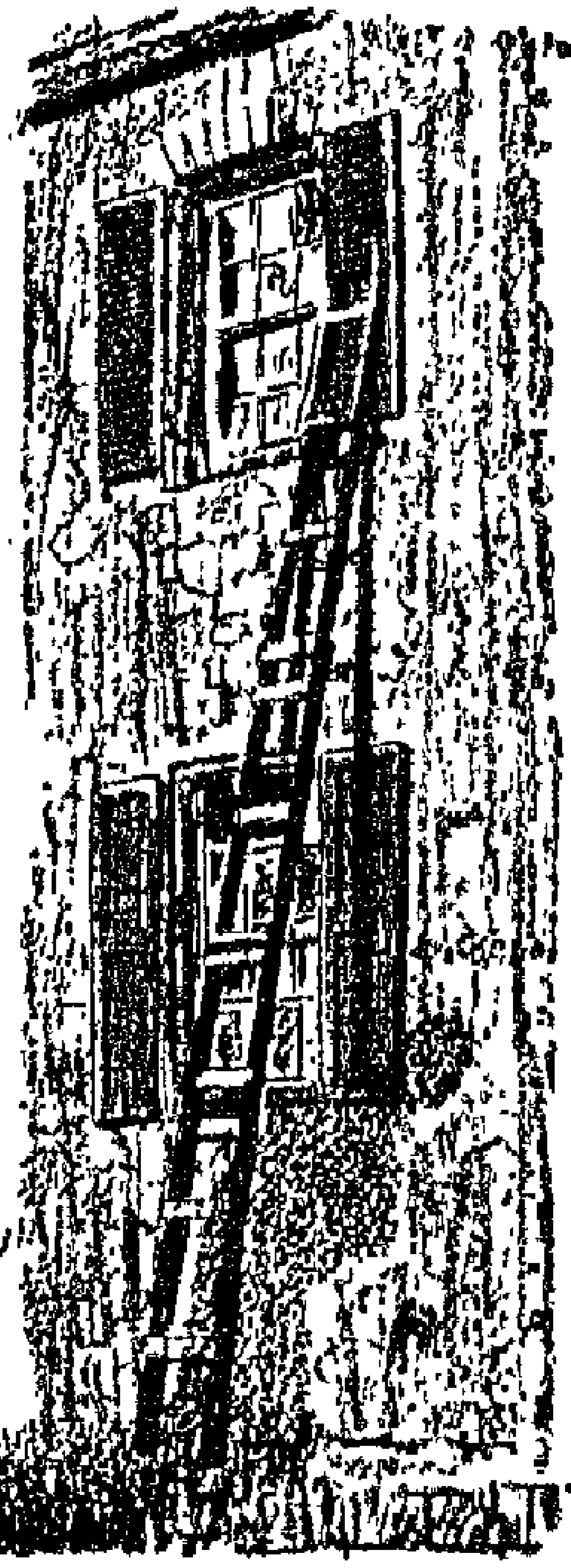
- لقد رأت زوجتى حلما مضحكا ليلة امس .. فقد حلمت انها زوجة مليونير .

فتنهد الصديق قائلا :

- أنت سعيد الحظ .. فزوجتى تحلم بذلك فى النهار !

كتاب الشهر

قضية اختطاف ابن الطيار لندبرج



عن كتاب KIDNAP

بقلم : جورج ويلر

باعتقال برونو ريتشارد هاوبتمان بلغ البحث الطويل عن خاطف وقاتل ابن لندبرج ذروته ، وقد أثار نبأ اعتقاله ضجة جديدة شملت العالم كله ..

وفى هذا الجزء الثانى والاخير من كتاب جورج ويلر وصف تفصيلى للمأساة التى تلت ذلك الاعتقال ، ومحاكمة هاوبتمان التى لا تنسى .. وقد سيطرت هذه المعركة القانونية التى اشتهرت باسمه .. (محاكمة القرن العشرين) على اهتمام العالم ، وشهدت خلالها دار القضاء لحظات من أكثر اللحظات التى مرت بها اثارة ..

وهاهى القصة الحقيقية المشحونة بالمفاجآت ، للتحقيق الدقيق الذى أدى الى ادانة هاوبتمان ، والمعركة المريرة التى خاضها محاموه دفاعا عن حياته ..

انه كتاب ملىء بالمواقف المثيرة والمأساة التى جعلت من قضية لندبرج قصة حافلة بالاسرار والمواقف المحيرة ..

ظلت شراذم البوليس السرى وضباط البوليس المختفين فى ثيابهم المدنية ، يكمنون طوال الليل فى الغابة الكثيفة التى تحيط بالمنزل رقم ١٢٧٩ ايست بالشارع ٢٢٢ ، يرقبون الدار بعيون لا تغفل ..

وما أن بدأ ضوء الفجر الاشهب يتسلل من بين الاشجار ، حتى كان الملازم « جيمس فين » من بوليس نيويورك يصوب منظاره المقرب على المنزل ذى الطابقين ..

لقد كان على ثقة من أن المجرم

الذى يسعى وراءه البوليس الامريكى أكثر من غيره يقبع فى هذه الدار .. انه قاتل تشارلس لندبرج الصغير وخاطفه ..

وقد أعد الملازم فين ترتيبات دقيقة لاعتقاله ، بالاشتراك مع ضابط البوليس السرى توماس سيسك التابع لوزارة العدل ، وآرثر كيتون من بوليس نيوجرسى ، وكانت النية تتجه أول الامر الى اعتقاله داخل البيت ، ولكن فين أعترض على ذلك قائلا ان ابقاءه فترة طويلة فى الاعتقال يتطلب دليلا قويا على انه على صلة قوية بالجريمة ، وقد لايجدون مثل هذا الدليل فى البيت اذ قد يكون المجرم حريصا باخفاء نقود الفدية بعيدا عن داره . وقال فين أن أسلم طريق يجب اتباعه هو ترك هوبتمان يغادر بيته ، واعتقاله فى الخارج وفى جيبه بعض الاوراق المالية المأخوذة من الفدية ، وبهذا يحصلون على دليل كاف لاعتقاله .

كان الضباط الثلاثة ومعهم تسعة من جنود البوليس التابعين للولاية والحكومة الفيدرالية موزعين فى مثلث استراتيجى حول المنزل لاغلاق كل منفذ محتمل للفرار منه .. وراحت الشمس ترتفع فى السماء فى ذلك اليوم - ١٩ سبتمبر ١٩٣٤ - ولا تزال مراقبة الدار مستمرة ، وفى الساعة التاسعة صباحا خرج شخص من الباب الامامى للبيت .. وصوب فين منظاره المكبر نحوه .. كان رجلا متوسط الطول ، متين البنيان ، طويل الساقين ، تتفق كل ملامحه وأوصافه مع أوصاف الرجل الذى أخذ فدية ابن لندبرج .. واتجه الرجل نحو حظيرة سيارات ففتحها . . وبعد دقائق خرج منها راكبا سيارة من طراز « دوج » ذات لون أزرق داكن .

وأسرع المراقبون الى سياراتهم التى أخفوها فى الغابة ... وظلت قافلتهم تتابع السيارة الزرقاء فى حذر بالغ مسافة ثلاثة كيلو مترات ، حتى اذا اقتربت من شارع (ايست مونت) حيث يمكن أن يضيع أثرها وسط زحام المواصلات ، اضطرت السيارة الى تهدئة سيرها عندما مرت امامها سيارة لرش الشوارع بالماء ، وعلى الفور انطلقت سيارة البوليس الامامية نحوها حتى سارت بجوارها ، ثم سبقتها وأغلقت الطريق أمامها ، وقفز منها أحد ضباط البوليس ، وأسرع بفتح الباب

الايمن للسـيارة الزرقاء ، ودلف بسرعة الى المقعد الامامى .. ثم دفع مسدسه بين ضلوع السائق . وقال له :

ـ قف الى جوار الطريق .

وحدق الرجل فى آسره .. ثم قال فى دهشة :

ـ ما هـذا ؟

ولـكنه لم يرد على سؤاله . . وتوقفت السيارة على جانب الطريق وعندها هرع اليهـا ضابط آخر يحمل القيود الحـديدية بين يديه ، وقيد بها يدى هاوبتمان ..

وفتش الضباط هاوبتمان بسرعة فلم يجدوا معه اى سلاح ، فاخذوا يفتشون ملابسه بدقة حتى أخرجوا حافظة نقوده ، فوجدوا بهـا ورقة ماليـة من فئـة ٢٠ دولارا ذهبية كان رقمهـا من بين أرقـام فدية لنـدبرج .

وسئل من أين له هـذه الورقة الماليـة ؟

فأجاب فى هدوء انه اعتاد جمـع أوراق العمـلة الذهبية خوفا من التضخم المالى الذى شاهده من قبل فى بلده ... المانيا . وقال ان لديه ١٠٠ أخرى من هذه الورقة فى بيته .

وصـحبوه فى احدى سـيارات البوليس المغلقة ، نحو البيت الاسمر الصغير ذى الطابقين .

تفتيش بيت هاوبتمان

وقفت أنا وهاوبتمان تحـدق فى ذهول وصـمت ، بينما كان رجال البوليس يغيرون على مسكنها ... يدفعون قطع الاثاث بأيديهم ويفتحون الادراج بعنف .. ويفتشون فى كل من أركان البيت .. ثم رأت زوجها والقيود الحديدية فى يديه ، فهرعت نحوه صائحة :

ـ ريتشـارد .. ما هذا ؟ هل ارتكبت شـيئا ما ؟

فهز رأسه قائلا : كلا يا انا .

وطلب ضابط البوليس مشاهدة الصـندوق الذى قال هاوبتمان انه يحوى اوراق النقـد الذهبيـة ، فأحضره لهم ، ولـكنهم لم يجـدوا فيـه غير ٦ قطـع ذهبية من فئـة العشرين دولارا .. ولما قالوا له انها ليست أوراق نقد ذهبية ، قال انه كان يعنى هذه القطع فقط !

وانهالت عليه الاسئلة فى سرعة وحـدة : اين باقى أوراق النقـد الذهبية ؟.. ومن أين حصل عليها ؟ أليست هذه أموال تشارلس لندبرج ؟

ولـكنه قال انه لا يعرف شـيئا من فدية لندبرج ! . ووجدوا لديه

نظارة ميدان المانية مكبرة غالية الثمن ، فسألوه : ماذا كنت تفعل بها ؟ فقال : انني من عشاق الطبيعة !

وكان البوليس على ثقة من أن خاطف الطفل كان يرقب البيت من الغابة القريبة ليلا لدراسة روتين الحياة فيه ...

ولم يجدوا شيئا آخر في البيت له اهمية في القضية .. كانت هناك فقط بضع خرائط من النوع الذي تقدمه محطات البنزين بلا مقابل ، بينها خرائط لنيوجيرسي حيث يقع بيت لندبرج ، وبعضها لولاية ماساشوستس التي زعم خاطف الطفل انه موجود في سفينة قريبة من سواحلها ... ولكن هذه كلها لاتثبت شيئا .

ولاحظ « سيسك » اثناء التفتيش أن هاوبتمان كان ينتهز كل فرصة يعتقد خلالها ان احدا لا يرقبه ، فيرفع جسمه قليلا من مقعده ، ويرسل انظاره عبر النافذة .. وتابع سيسك اتجاه بصره ، فاذا به يتجه صوب حظيرة السيارات التي تقع على مسافة حوالي ١٥ مترا ... فسأل هاوبتمان :

ـ هل اخفيت النقود هناك ؟

ـ كلا ... ليس لدي اية نقود .

ولكن سيسك امر بالبحث في الحظيرة وتفتيشها بدقة .. بينما تقرر نقل هاوبتمان بعد الظهر الى مركز البوليس الذي يقع في شارع جرينويتش بحي مانهاتن .

رباطة جأش عجيبة

وفي مركز بوليس «جرينويتش» ـ الذي اختير لقلة تردد الصحفيين عليه ـ اتخذت الاسئلة الموجهة الى هاوبتمان اتجاها جديدا .. لقد كان متهما حتى الآن باغتصاب نقود لندبرج بطريق الاحتيال فقط .. ولكن البوليس قرر بعد ذلك أن يشدد الهجوم عليه ويتهمه بالخطف والقتل ..

وسألوه : ألم يذهب الى هوبويل ليلة الثلاثاء أول مارس ١٩٣٢

فقال في صوت هادىء : كلا .

ـ لماذا تكذب ؟ لقد ذهبت في تلك الليلة الى بيت لندبرج وخطفت الطفل من مهده .

ـ كلا .. لست أنا هذا الرجل

ـ ماذا كنت تفعل اذن في ذلك اليوم

ففكر لحظة .. ثم قال أنه كان يعمل يومئذ في عمارة « الماجستيك » بحي مانهاتن ، وانه أمضى اليوم يقوم بأعمال مختلفة ثم ذهب قبل السابعة مساء الى المخبز الذي تعمل فيه زوجته (أنا)

فى حى برونكس ليقابلها ، لانها تعمل فى المخبز كل ثلاثاء الى ساعة متأخرة وقد اعتاد تناول العشاء معها فى المخبز وقال انهما عادا الى البيت بعد ذلك مباشرة وناما الى الصباح •

وعاد المحققون يسألونه : ألم يقابل الدكتور كوندون وسيط لندبرج فى مدافن «سانت رايموند» مساء السبت ٢ ابريل ١٩٣٢ وأخذ منـــه الفـدية ومقـــدارها ٥٠ ألف دولار ؟ فأجاب هاوبتمان أن هذا غير صحيح •• وانه يذكر هذا اليوم بصفة خاصة ، اذ كان آخر أيام عمله فى عمارة «الماجستيك» كما كان أول يوم سبت فى الشهر ، وفى تلك الليلة عاد الى داره مع صديقه هانز كلونبرج وأمضيا الليلة فى ترديد الاغانى الالمانية القديمـــة على نغمات جيتار صديقه ، كعادتهما فى مثل هذه الليلة من كل أول شهر !

وسألوه : لقد ظللت عاطلا منـــذ ربيع ١٩٣٢ ، ومع ذلك فقد استطعت أن ترسل زوجتك فى رحلة الى المانيا ، وتقوم برحلات صيد فى ولاية « مين » ، واشتريت جهـــاز راديو بمبلغ ٣٩٦ دولارا •• فمن أين لك كل هذه النقود وأنت عاطل ؟

فقال : اننى أضارب فى البورصة ؟

وعرضوا عليه الثوب الصوفى الذى كان يرتديه الطفل ليلة اختطـافه ، فزعم أنه لم يره من قبل ••• فقالوا له : ألم تصنع سلما خشبيا وتضعه امام بيت لندبرج وتصعد فوقه وتخطف الطفل ؟

وسرت الرعشة فى جسمه لحظة ، وامسك ذراعى مقعده بقوة •• واهتز صوته لاول مرة وهو يصيح : كلا •• كلا •••

وعاد الهدوء يســـود الغرفة مرة أخرى •• وتهالك هاوبتمان فى مقعده ثم طلب بعض اللبن ، فأحضروه له •• وأحس بالانتعـــاش بعد أن شربه ، وارتاح فى مقعــده منتظرا المزيد من الاسئلة •• !

العثور على الذهب

فى الوقت الذى كان يجرى فيـــه استجواب هاوبتمان ، كان فريق آخر من رجال البوليس يركز اهتمامه على زوجتـــه أنا •• والبحث عن النقود المختفية فى بيت هاوبتمان •

لم تكن أنا تتمتع بقوة أعصـــاب زوجها ، ومن ثم فقد ظهر الخوف فى عينيها خلال سيل الاسئلة الذى كان ينهمر عليها •• وعندما سـئلت عما كانت تفعل ليلتى أول مارس و١٢ ابريل

أخذت تعتصر ذاكرتهـا قليـــلا ، ثم ذكرت قصة تتفق مع ماذكره زوجها

وعندما قالوا لهـا أن زوجها متهم بخطف ابن لندبرج وقتله ، صاحت قائلة :

ـ كلا ٠٠ انه لا يمـــكن أن يفعل ذلك ٠٠ ان لنا طفلا يحبه ريتشارد حبا جما ٠٠

وأخفت وجهها بين يديها وانطلقت تبكى ٠٠ كانت تبدو مثال الزوجـة الالمانية التى لاتعرف شيئا عن نشاط زوجها بعيدا عن الدار ، وتصدق كل مايقوله لها ٠

وتركوها تنصرف على أن يجدوها فى بيتها فى صباح اليوم التالى

وأمضت الليلة عند قريبة لهاكانت ترعى طفلهمـــا ، وعنـدما عادت فى الصباح وجدت البوليس وقد انتهى من تفتيش البيت ، وطلبوا منهـا أن تصحبهم الى حظيرة السيارات

وعكف رجال البوليس على تفتيش كل شبر من أرض الحظيرة وجدرانها وسـقفها ، فانتزعوا الالواح الخشبية وحطموا قطع البلاط ٠٠ وبعد قليل وجدوا خلف أحد الالواح رفا صغيرا فوقه لفافتـــان من أوراق الصحف ، تبين بعد فتحهما أنهمـا تحويان رزما من أوراق النقد ذات الختم الذهبى ٠٠

وبعد قليل وجدوا مخبأ آخر فى احدى صـــفائح البنزين ، يحوى كثيرا من اللفافات التى تشبه الاولى ٠

وتبين من مراجعة الارقام أنها جميعا من أموال فدية ابن لندبرج !

وظن المحققون أن هاوبتمان سيفاجأ بهذا الكشف ، وأنه سينهار ويضطر للاعتراف ، ولكن ريتشارد هاوبتمان ظل ثابت الجنان هادىء الاعصاب ، وقال أنه كان يخفى هذه النقود لانه يخشى أن يحاكم بتهمـــة الاحتفـاظ بأوراق عملة ذهبيــة مخالفـــا بذلك القانون الصادر أخيرا ٠٠ ثم قال أن هذه النقود ليست له ، بل هى لصديق يدعى « ايزيدورفيش » ٠

وزعم هاوبتمان بعد ذلك أن فيش كان شريكه فى بعض صفقات تجارية ثم ضارب فى البورصة فأفلس واضطر للاقتراض منه ، وقال ان فيش كان يعانى بعض الامراض فقرر السفر الى المانيا لرؤية أقاربه ، وأنه قبل سفره أحضر له هذه اللفـــافات ليحفظها له دون أن يعرف مابداخلهـا ٠٠ ولكنه اضطر الى فتحها أخيرا فوجد فيها هذه النقود ، فاقترض بعضها على أساس انه سداد للقرض الذى سبق أن أخذه منه فيش ولم يرده !

وسئل : وأين فيش الآن ؟

قال : مات فى ليبزج منذ ستة شهور !

واستمرت الاستجوابات طويلة مرهقة ، ولكن هاوبتمان ظل صامدا لايتزعزع ، فلم يعترف قط بأن له أى دور فى الحادث ..

محاكمة القرن العشرين

وفى أوائل اكتوبر ، بدأت اجراءات محاكمة هاوبتمان فى بلدة فلمنتجون عاصمة مقاطعة هانتردون التى وقعت فيها جريمة الخطف .. وطالب ديفيد ويلنتز المدعى العام الشاب لولاية نيوجيرسى ادانة هاوبتمان بتهمة القتل ..

واحتشد أكثر من ألف شخص فى يوم ١٩ أكتوبر، لرؤية هاوبتمان عند نقله الى السجن الصغير الواقع وراء مبنى دار القضاء فى بلدة فلمنجتون وكان هذا الحشد مجرد الطليعة ، اذ مالبثت البلدة الصغيرة أن ضاقت على سعتها بالقادمين من كل أنحاء أمريكا لمشاهدة هذه المحاكمة الفريدة ، وتلقى فندق « يونيون » الوحيد فى البلدة أكثر من ٦٠٠ رسالة وبرقية تطلب حجز غرف فيه ، بالاضافة الى ٣٠٠ من الصحفيين ومندوبى الاذاعة واضطر كثيرون للاقامة فى القرى والمدن الاخرى القريبة من بلدة فلمنجتون التى لم يعد فيها متسع لاحد

وقام عمال التليفونات والتلغرافات بايصال ٤٠ خطاتليفونيا وتلغرافيا الى غرفة صغيرة تقع فى أعلى مبنى المحكمة لارسال كل كلمة تدور فى القاعة بمجرد صدورها ، وأعلنت شركات الانباء العالمية أنها أصبحت مستعدة لارسال مليون كلمة يوميا عن المحاكمة

اما الرجل الذى أثار كل هذه الضجة فى أمريكا والعالم كله ، فقد كان انسانا له ماض مظلم ، قبل أن يحضر الى أمريكا ..

فعندما عاد برونو ريتشارد هاوبتمان فى عيد الميلاد عام ١٩١٨ بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى الى بلدة « كامنتز » الالمانية التى نشأ فيها كانت الامور سيئة فى كل أنحاء ألمانيا حيث سادت البطالة ، وقلت كميات الطعام بصورة خطيرة .. ولم يكن هناك أى أمل فى المستقبل المظلم الذى يتهدد الجميع .. كان برونو يومئذ فى التاسعة عشرة من عمره ، ومع ذلك فقد قضى عامين يحمل مدفعه الرشاش فى صفوف الجيش ، وقد استطاع أن يبرز بين زملائه .. أما الآن وبعد أن انتهت الحرب ، فقد وجد نفسه مخلوقا تافها لا أهمية له ، فقرر أن يفعل مايشاء بنفسه !

وفي مارس ١٩١٩، ارتكب هاوبتمان اربع سرقات .. استخدم في الاولى منها سلما صعد عليه الى نافذة في الطابق الثاني .. وفي الثانية اشترك مع رجل آخر في سرقة سيدتين تجران عربتي أطفال وسلبا طعامهما تحت تهديد السلاح .. واعتقل وحوكم، وامضى أربع سنوات في السجن، وخرج في عام ١٩٢٣ ليعود الى السجن مرة أخرى بعد شهور وهو يحاول بيع بضائع مسروقة . وبعد يومين هرب من الاعتقال، وغادر البلدة كلها بعد أن ترك ثيابه على باب السجن والى جوارها بطاقة كتب عليها « مع أفضل تمنياتي للبوليس » !

ووصل الشاب برونو هاوبتمان الى هامبورج، حيث تسلل الى ظهر السفينة الحربية « جورج واشنطون » واختبأ في أحد عنابرها ولكنهم اكتشفوه في الطريق وأعادوه، فكرر هذه العملية بعد شهر آخر وضبط .. وفي المرة الثالثة نجح في الهبوط الى ميناء نيويورك وكان ذلك في ديسمبر ١٩٢٣ .

وزاول بعض الاعمال في العالم الجديد، فاشتغل بغسل الاطباق في بعض المطاعم، ثم عمل نجارا وكانت عملية البناء تواجه رواجا عظيما في تلك الايام حتى بلغ متوسط أجره الاسبوعي ٥٠ دولارا وفي ربيع ١٩٢٤ التقى بأنا شوفل الفتاة الالمانية الكادحة التي جاءت الى أمريكا حديثا فتزوجها في الخريف .

وعاش الاثنان في سعادة ورخاء وانتقلا للاقامة الى حي « برونكس » حيث اشتغلت أنا في أحد المطاعم .. ولكن صناعة البناء أصيبت بنكسة في عام ١٩٣١، واستمر الكساد حتى العام التالي، فقل دخله كثيرا، وكان يتعطل عن العمل فترات طويلة ..

وفجأة أعلن هاوبتمان لزوجته في شهر ابريل ١٩٣٢ نبأ مثيرا .. قال انه لن يعمل بعد ذلك، لانه وجد طريقا لا يفشل للحصول على المال .. وهو البورصة !

وبدأت النقود تتدفق بين يديه خلال الشهور التالية، وحصلا على كثير من الاشياء الكمالية الفاخرة، وامتلأ مسكنهما بأثاث جديد، كما بعث زوجته للقيام برحلة في المانيا، وان كان هو لم يستطع الذهاب لانه كان لايزال مطلوبا من البوليس هناك وفي السنة التالية انجب طفلا جميلا أشقر الشعر أزرق العينين .. وتلقى رسالة من أمه تدعوه الى العودة قائلة : ان جريمته سقطت بالتقادم

وانها تتلهف لرؤية حفيدها ، فكتب لها فى صيف ١٩٣٤ طالبا انتظارهافى عيد الميلاد .. ولكنه لم يقم قطبهذه الرحلة اذ اعتقل بعد أسابيع متهمـا بخطف وقتل ابن لندبرج ..

محـامى الدفاع البليغ

اذا كان احتمال تبرئة هاوبتمـان من هذه التهم يبدو ضـئيلا بالنسبة لاغلب المراقبين ، فانه لم يـكن يبدو كذلك بكل تأكيـد أمام ادوارد رايلى المحامى اللامع الذى وافق على الدفاع عن هاوبتمان عندما عرضت احـدى صـحف نيويورك أن تدفع جزءا من أتعابه مقابل انفرادها بنشر مقالاتهعن هاوتبمان وزوجته .. وقدأعلنرايلى منذ البداية أنه مقتنع تمـاما ببراءة هاوبتمان ..

كان رايلى من أنجحالمحامينوأصلبهم عودا فى أمريكا ، وكانت دور القضاء تزدحم بصفوف المعجبين بسماع دفاعه ولا سيما أن رصيده من أحكام البراءة فى قضايا القتل كان ضخما الى حد يثير الدهشة .. ولكن رايلى لم يكن مرتاحا تماما لمسلك موكله فى هـذه القضية . فقد كان هاوبتمان شديد التمسك بعزلتـه وبروده الذى يثير الاعصاب ، لا يتكلم الا فيمـا ندر وكثيرا ماكان يتفادى الرد على بعض الاسئلة الهـامة التى يوجههـا اليـه المحـامون ، ويصر فقط على أنه غير مذنب ..

وقد دامت محاكمـة هاوبتمان ٣٢ يوما ، ولكن أكثر لحظاتها اثارة وقعت خلال الساعات الاولى من بدء المحاكمة وكانت القاعة تزدحم بأكثر من ٥٠٠ شخص عندمانهضويلنتز ممثلالاتهام ليبدأ مرافعته ، وكان المتهم قابعا بين جنديين وراء مائدة الدفاع ، بينمـا جلس تشارلسلندبرج وزوجته آن فى مكان لا يبعد عنه كثيرا

وعرض المدعى العام القضـية فى عبارات حاسمة واضـحة ، فقال أن المتهم سطا على بيت لنـدبرج بقصد خطف الطفل ، ولكنه بينما كانيهبط من النـافذة فوق السـلم الخشبى ، تحطم السلم وهوى هو والطفل . وكانت السقطة عنيفة ، فقتل الطفل على الفور .

وأخذ المدعى يصور الخطوات التى وقعت بعد ذلك خارج البيت ، وكيف حمل المتهم جثمـان الطفل الى الغابة القريبة حيث حفر له قبرا بسرعة . وراح المدعىالعامخلال الساعاتالتالية يلخص الاحداث التى وقعت خـلال الايام والشهور التالية الى أن حصل المتهم على أموال الفـدية .. وختم

مرافعته بالمطالبة برأس المتهم •

ونهض ادوارد رايلي محامي الدفاع ليطالب بالغاء اجراءات المحاكمة بحجة أن المدعى العام ألهب مشاعر المحلفين بأقواله ، ولكن القاضي توماس ترنشارد رفض الطلب ، وبدأ ويلنتز يقدم أدلة الاتهام ، فاستدعى الشاهد الاول ، وهو المهندس الذى بنى بيت لندبرج فتحدث عن تفاصيل البناء •• واستدعيت بعد ذلك آن لندبرج الى منصة الشهود ••

وساد القاعة صمت مثير وهى تؤدى اليمين ، وكان الجمهور يراقب وجهها الشاحب وأصابعها التى تهتز فى عصبية ••

وطلب منها ويلنتز أن تذكر ماحدث فى ليلة اختطاف طفلها ، فأجابت فى عبارات ملؤها التأثر ، ولاسيما وهى تصف طفلها الجميل وشعره الاشقر وعينيه الزرقاوين •••

وعرض عليها المدعى العام بعض ثياب طفلها ، فتعرفت عليها واحدا بعد الاخر ، وكانت تبذل جهدا بالغا لضبط أعصابها ، وعندما انتهى ويلنتز من توجيه أسئلته اليها ، قال محامى الدفاع أنه يقدر آلام مسز لندبرج ومن ثم فانه لن يوجه اليها أية أسئلة

لندبرج على المنصة

واستدعى تشارلس لندبرج للشهادة بعد زوجته ، فاتجه نحو منصة الشهود بخطوات طويلة ثابتة ، وأخذ يجيب على الاسئلة التى توجه اليه بصوت قوى واضح •

وسأله المدعى العام عن حادث مصاحبته للدكتور كوندون ليتسلم نقود الفدية وانتظاره فى السيارة على مقربة من مدافن « سانت رايموند » ، عندما سلم الدكتور النقود للشخص الذى أطلق على نفسه اسم « جون » •• وقال لندبرج أنه سمع صوتا ينادى الدكتور كوندون من بين المدافن فسأله المدعى العام :

ـ ألم تسمع هذا الصوت مرة أخرى

فقال : أجل سمعته

وكان لندبرج قد ذهب متنكرا بعد اعتقال هاوبتمان الى مكتب وكيل نيابة برونك واستمع الى صوت هاوبتمان يردد نفس الكلمات التى نادى بها الدكتور كوندون ••

وسأله المدعى ويلنتز :

ـ لمن كان هذا الصوت ؟

فقال لندبرج بصوت حازم : صوت هوبتمان •

ونظر الى المتهم رأسا لاول مرة ، وفى تلك اللحظة شاهد الجمهور بعض

الدماء ترتفع الى وجهه الشاحب

ونهض رايلى محامى الدفاع ليوجه اليه بعض الاسئلة •• وحاول الدفاع أن يتجه بالشكوك نحو خدم لندبرج وسأله ان كان قد قام بتحريات عنهم قبل أن يلحقهم بخدمته •• ثم قال له

ـ هل كان فى استطاعتك أنت وزوجتك وأنتما تتناولان طعام العشاء ليلة الجريمة أن تشاهدا سلم الخدم •

فقال لندبرج : كلا

ـ أكان من الممكن أن يأخذ أى شخص من الخدم الطفل ويسلمه لشخص آخر فى الحديقة أثناء تناولكما الطعام ؟

ـ كان ذلك ممكنا ••

وأخذ الدفاع يواصل هجومه فى هذا الصدد • فقال ان آل لندبرج كانا يعيشان فى تحفظ تام وان الطفل لم يكن معتادا الغرباء •• وأنه لا يعرف غير أبويه والخدم والمربية ، ثم قال ان المربية عندما أعلنت نبأ اختفاء الطفل لم تكن تبكى أو فى حالة هستيرية .

وراح يثير الشكوك حول المربية «بيتى جاو» وينظر الى المحلفين مؤكدا هذه الشكوك بنظراته البارعة • ثم انتقل الى الحديث عن دور الدكتور كوندون الوسيط فى تسليم الفدية ، فلم يسلم هو الآخر من احاطته بالشكوك ، وقال أنه كان يحرص على أن يقوم باتصالاته بجون بمفرده ، كما أنه حمل حقيبة النقود وحده ، وعاد الى لندبرج بدونها •

رايلى يصور الجريمة

فى يوم الاثنين ٧ ينساير ـ وهو الاسبوع الثانى من المحاكمة ، وقفت المربية بيتى جاو على منصة الشهود ، وراح الدفاع يوجه اليها أسئلة وتلميحات لاذعة ، ولكنها ظلت هادئة رابطة الجأش ، تجيب على أسئلة المدعى العام بهدوء •• فأخذت تصف حياة الطفل وعاداته وكيف كانت تضعه فى فراشه وتنتظر حتى يستغرق فى نومه •• ووصفت كيفية اكتشافها لاختفاء الطفل من مهده •• كانت تتكلم وهى تلهث ، ثم أجهشت بالبكاء !

وساد المحكمة سكون عميق حتى استردت هدوء أعصابها ، واستأنفت شهادتها ، حتى اذا انتهت منها نهض المحامى رايلى ليوجه اليها أسئلته ••

وبدأ رايلى بسؤالها عن صديقها هنرى جونسون ، وهل أبلغته أن الطفل وأمه سيبقيان فى هوبويل يوم الثلاثاء على غير عادة لندبرج كل اسبوع ، فاعترفت بأنها أبلغته ذلك لتعتذر عن خروجها معه فى هذا اليوم كما اعترفت بأنها تلقت مكالمة تليفونية

من جونســون فى الســاعة الثامنة والنصف من مســاء ليلة الخطف ٠٠ وعندئذ قال المحامى ان هذه المحادثة كان المقصود منها أن يعرف جونسون ان كان الطريق ممهدا أم لا ٠٠

ودوت همهمة بين الجمهور ، فدق القاضى مطرقته لاعادة النظام ، بينما استطرد المحامى قائلا : كان الطفل مصابا بالبرد ليلة الجريمة ، ومع ذلك فان المربية لم تحاول زيارته مرة واحدة من الثامنة الى العاشرة مساء عندما اكتشف غيابه ٠٠ فهل يعد هــذا سلوكا مثاليا من مربية مخلصة فى عملها ، أم أنها ابتعدت عن الغرفة كجزء من المؤامرة ؟

وتقدم المدعى العام لانقاذ المربية من هذا السيل المحرج من الاسئلة ، فقال ان النيابة تمكنت من اثبات شرف العلاقة بين بيتى وجونسون ، ثم شكر المربيــة على الخــدمة التى قدمتها للعدالة •

دعم صرح الاتهام

كانت أكثر الادلة المقدمة تعتمد على الظروف والملابسات ، ولــكن المدعى العام ويلنتز بدأ يدعم صرح الاتهــام خطوة خطوة ٠٠ وكان أول من استدعاهم بعد ذلك للشهادة ، الدكتور كوندون ومر ويلنتز بأسئلته على المقدمات مرورا سريعا حتى بلغ ليلة ٢ ابريل ١٩٣٢ ، وهنا سأله عما اذا كان قد توجه مع لندبرج فى سيارته فى مساء ذلك اليوم الى مدافن سانت رايموند

فقال كوندون : أجل ٠٠ لقد ذهبنا بناء على رسالة من خاطف الطفل ٠٠ وفى داخل ساحة المدافن قابلت جون وسلمته صندوقا يحوى ٥٠ ألف دولار

ـ ومن هو جون هذا ؟

فقال كوندون فى صوت واضح كله ثقة :

ـ جون ٠٠٠ هو برونو ريتشارد هاوبتمان ٠٠

وأثبت المدعى للمحلفين أن الدكتور كوندون قدم وصفا للبوليس بعــد العثور على جثمان الطفل فى الغــابة ينطبق تماما على أوصاف هاوبتمان الجالس الآن فى قفص الاتهام •

ونهض رايلى ليوجه سيلا عنيفا من الاسئلة الى الشاهد ، ولكنه فشل فى أن يزعزع شهادته أو يحيط بالشكوك هــذا الاســتاذ العجوز الذى تطوع للوساطة بين لندبرج والمجرم •

وفى اليوم التالى ، دعا المدعى العام أحد موظفى وزارة الماليــة الامريكية فشهد بأنه منذ اعتقال هاوبتمان لم تظهر أية ورقة أخرى من نقود الفدية فى الاسواق ، كما شهد بعده الدكتور

أوسبورن ـ وهو من أكبر خبراء الخط فى أمريكا ـ على أن خطابات طلب الفدية كتبت بخط ريتشارد هاوبتمان وأيده فى ذلك سبعة من خبراء الخطوط الآخرين .

قطع من باب المقصورة

ومضى ويلنتز يعزز حلقة الاتهام ويزيد الشبكة احكاما حول عنق المتهم .. فاستدعى هنرى بروكمان كبير مفتشى البوليس السرى فى برونكس للادلاء بشهادته .. وجاء بروكمان يحمل لوحا صغيرا من الخشب قال أنه انتزع من الجزء الداخلى لباب مقصورة فى مخدع هاوبتمان . وكانت هناك بعض كلمات وأرقام مكتوبة بالقلم الرصاص على هذا اللوح بخط هاوبتمان .. وتبين أن هذه الكلمات والارقام هى عنوان الدكتور كوندون ورقم تليفونه .. وهذا دليل على أنه كان يتعامل مع الدكتور . ولكن هاوبتمان قال انه نقلهما من الصحف التى كانت تنشر أنباء حادث ابن لندبرج ، وانه كان مهتما به كغيره من القراء .

وجاء للشهادة بعد ذلك أحد خبراء وزارة المالية الذى شهد بأنه راجع السجل الدقيق الذى كان هاوبتمان يسجل فيه عملياته المالية ومضارباته فى البورصة ، وقد عثر البوليس عليها فى بعض الكراسات ببيت المتهم .. وقد تبين من مراجعته أن هاوبتمان وزوجته بدآ ينفقان عن سعة منذ تاريخ دفع الفدية لخاطف الطفل .. وقد قاما برحلات كثيرة فاخرة ، فى حين ان الدفاتر لاتثبت أية ارباح كبيرة من اية عملية .

وقال الشاهد ان مجموع المبلغ الذى ضبط فى حظيرة سيارات هاوبتمان هو ١٤٦٠٠ دولار كلها من اموال فدية ابن لندبرج ، فاذا اضيف هذا المبلغ الى مجموع ماانفقه هاوبتمان وزوجته منذ تاريخ دفع الفدية ، كان المبلغ بالكامل هو ٤٩٩٥٠ دولارا اى اقل ٥٠ دولارا فقط من مبلغ الفدية .

وفى يوم ٢١ يناير ، وجه المدعى العام ضربة قاضية الى الدليل الذى قدمه هاوبتمان لاثبات وجوده بعيدا عن مكان الجريمة ليلتى الخطف ودفع نقود الفدية .. فقد شهد ادوارد مورتون المشرف على العمل بعمارة «الماجستيك» بأن هاوبتمان لم يعمل هناك الا بعد الجريمة بثلاثة اسابيع كما أنه لم يحضر للعمل يوم ٢ ابريل .. يوم تسلم مبلغ الفدية .

وتقدم للشهادة بعد ذلك أرثر

كوهلر الخبير الحكومى فى الاخشاب ، الذى بذل جهـــدا جبارا فى تتبع الاخشـــاب التى صنع منها السلم الخشـــبى الذى استخدم فى خطف الطفـــل ، وشــــهد كوهلر أنه قام بالبحث فى بيت المتهـم بعد اعتقاله ، فثبت له ان احد حاجزى السلم كان جزءا من لوح خشبى فى احـــــدى الغرف العليا ببيت هاوبتمان .

وحاول المحامى ادوارد رايلى ان يحطم شهادة كوهلر بأسئلته المضادة ، ولكن الخبير البارع ظل ثابت الجأش ، يجيب على كل سؤال ببرد فنى مقنع ، فــلم يســـتطع الدفاع أن يزعــزع شهادته ..

هاوبتمان على منصة الشهود

بدأ الدفاع مرافعتـــه بكلمة لويد فيشر ــ المحـــامى الشاب الذى اســـتعان به رايلى لمساعدته فى الدفاع ، وكان يبـــدو من كلماته انه مقتنع تماما ببراءة هاوبتمان .. ثم أخذ رايلى يستدعى شهوده ، وكان أولهم .. برونو ريتشارد هاوبتمان

وراح رايلى يمهـــــد له الطريق ببعض أسئلة عـــابرة عن حياته فى المانيا ، ثم مر مرورا سريعا بجرائمه السابقة ، ودخوله امريكا خلسة .. وكانت أسئلته مصوغة بعناية تامة بحيث لا تتعدى الاجابة عليهـا بنعم أو لا فقط .

وســـأله الدفاع عن الجريمة : فنفى انه ذهب فى ليلة أول مـارس سنة ١٩٣٢ الى بيت لندبرج وخطف الطفـــل ، ثم كرر قصة عن صديقه ايزيدورفيش الذى زعم انه ســـلمه النقود ليحتفظ له بها قبل سفره الى المانيا ، واعترف بأنه اخطأ فى قــوله انه كان يعمل فى عمارة الماجستيك فى ذلك التاريخ ، ولكنه أصر على انه كان هناك يوم دفع نقود الفدية .

واشـــار رايلى الى احد موظفى المحكمـــــة ، فأحضر ثلاث قطع من الخشب وضعها أمام هاوبتمان والمحلفين مباشرة .. وسأله :

ــ ألم تصـــــنع هــذا السلم بنفسك ؟ .

فنظر هاوبتمان الى القطع الخشبية وقال ساخرا :

ــ اننى نجار ممتاز ..

ــ هل صنعت هذا السلم ؟

ــ كلا بكل تأكيد .

ــ ألم تكتب أية رسائل خاصـــة بالفدية ؟

ــ كلا .

ــ ألم تذهب الى مدافن ســـانت رايموند يوم ٢ ابريل ١٩٣٢ وتقـــابل

الدكتـــور كوندون وتأخذ منه ٥٠ الف دولار ؟

ـ كلا لم افعلْ .

ـ هلْ ضربك البـــوليس بعد اعتقالك ؟

ـ اجلْ .

ـ هـلْ أجبروك على كتابة بعض الكلمات بطريقـــة خاصة لتبدو ان هجاءها خطأ ؟

ـ اجلْ

وانتهى الدفاع من سؤال شاهده، وجاء دور المدعي العـــام .. فأخذ يتحدث عن ســـوابق هاوبتمان فى السرقـــة والخطف ، والفرار من البوليس فى المـــانيا ، وقال ان بين جرائمـــه السابقة جريمة استخدم فيها سلما للصعود الى نافذة الطابق الثاني ، وأخرى سرق فيها سيدتين تجران عربتى اطفال .

وبدأ القلق يظهـــــر على وجه هاوبتمان وحركاته ، وأخرج منديله ومسح به وجهه .

واخـــــرج المدعى دفترا احمر صغيرا وجــــده البوليس فى مسكن هاوبتمان واعترف المتهم بأنه له .. وعندئذ اثبت ويلنتز أن الكلمات التى يدعى المتهم أن البوليس أجبره على كتابتهـــا خطأ ، مكتوبة بنفس الخطأ فى دفتر هاوبتمان، مما يدلّ على كذبه فى مزاعمه عن اعتداء البوليس . .

وكانت هـــــذه الكلمات قد وردت بنفس الهجاء فى رسائل الفدية التى كتبها (جون) .

واجمع المعقبـــــون والصحفيون ومندوبو الاذاعة فى ذلك اليوم ــ ٢٥ يناير ــ على ان موقف المدعى العام ازداد قوة ، بينما ازداد موقف الدفاع تخاذلا وضعفا ..

وازدا موقف المتهـــــم تدهورا عنـــدما اخذ المدعى العام يثبت مرة بعـــد اخرى كذب المتهم فى اقواله التى أدلى بها فى المحكمة . فأثبت من أوراق المتهم نفســـه انه كان يخسر دائما فى كل مضارباته فى البورصـــة التى زعم أنه كان يربح منها كثيرا !

وبرزت عضلات هاوبتمان من عنقه ووجهه ، وازدادت قبضـــته احكاما على ذراعى المقعد الذى يجلس فوقه ، وأخذ جسمه يهتز يمينا ويسارا .. ثم صاح فى هيستيريا :

ـ كفى .. كفى ..

وعندما انتهى الادعاء من اسئلته المحرجة فى صباح الاربعاء .. نهض هاوبتمـــان ليعود الى مكانه فى قفص الاتهام ، وكان قداسترد هدوءه رغم مرور ١٧ ســـــاعة على اســـتجوابه

بوساطة الدفاع والادعاء .. وبينما كان عـائدا الى مكانه ، التفت الى المحلفين وابتسم ابتسامة غريبة !

الدفاع ينتهى

كان رايلى مطمئنا الى مركزموكله .. ولكن كلما تقـدمت المحاكمة ، اخذت ادلة النفى التى يقدمها تزداد ضعفا .. فقد فشل صاحب المخبز الذى تعمل فيه أنا هاوبتمان فى أن يتذكر بصفـة حاسمة أن ريتشارد هاوبتمان جاء لزيارتها ليلة الجريمة .. واستطاع المدّعى العام أن يحطم شهادة الكثيـرين من شهود النفى الذين استعان بهم الدفاع ، بعد ان اثبت انهـم جميعا من المجرمين السـابقين أو شـهود الزور .. واخيـرا أعلن الدفاع انه انتهى من شهود النفى ..

وحاول رايلى فى دفاعـه أن يهيل الشكوك على أشـخاص آخرين غير هاوبتمان ، ولا سيما خدم لندبرج ، ومربية الطفل وصديقها .. وهاجم شهادة خبراء وزراء المالية وغيرهم ممن استعان بهـم المدعى العام .. وختم دفاعـه قائلا انه مؤمن تماما ببراءة هاوبتمان من تهمة القتل .

وتلاه المدعى العـام فى اليـوم التـالى ، فأخذ يستعرض الادلة ويدعمهـا بسرعة ، ثم اشار الى المتهم قائلا :

ــ هـذا هو عدو الجمـاهير رقم واحد فى العالم .. انظروا اليه وهو يجلس هناك . انظروا اليهوهو يغادر القاعة اليوم كالثعبان الخبيث ،تلمع عيناه فى ارتياح شرير ..

وتحولت انظـار المحلفين جميعا نحو هاوبتمان .. وبدا وجهه أحمر مبللا بالعرق الغـزير . واخرج منـديله يجفف وجهه ، ثم غاص فى مقعده .. بينما ختم ويلنتز كلمتـه قائلا :

ــ لاتاخـذكم بهذا الرجل شفقة .. انه اقذر الثعابين التى دبت على هذه الارض واكثرها شرا ..

وفى يوم ٣ فبـرابر ، اختلى المحلفـون فى غرفتهم ليصدروا قرارهم .. ومرت الساعات وهم فى الداخل ، بينما كان جمهور غفير يملأ المحكمة والشوارع المؤدية اليها ..

وأقبل الليل ، وكان عدد الواقفين فى الخـارج يزيد على عشرة آلاف

وفى الساعة العاشرة والدقيقة ٤٥ مساء ــ اى بعـد مداولات استمرت ١١ ساعة ــ عاد المحلفون الى مقاعدهم .. وسكنت الاصـوات كلها داخل المحكمة وخارجها ..

واخرج تشارلس والتون مقرر هيئة المحلفين ورقة مطوية من جيبه قدمها للقاضي وهو يرتعش .. ثم راح يقرأ بصوت مهتز :

ـ نحن المحلفين نرى أن المتهم مذنب في جريمة القتل العمد مع سبق الاصرار والترصد .

ووقف المتهم في صمت ، يحدق في القاضي ترنشارد وهو ينطق بحكم الاعدام ويحدد تاريخ التنفيذ في الاسبوع الذى يبدأ في ١٨ مارس

وفي أواخر يونيو قدم الدفاع التماسا الىمحكمة الاستئناف بولاية نيوجيرسي ، ولكن المحكمة أيدت الحكم في أوائل الخريف باجماع قضاتها .. وقدم المحامون التماسا الى المحكمة العليا الامريكية ، ولكنها رفضته في ٩ديسمبر ، وحدد القاضي الاسبوع الذى يبدأ في ١٣ يناير ١٩٣٦ لتنفيذ حكم الاعدام

منفى اختيارى

ماكادت الضجة التي أثارتها المحاكمة تنتهي ، حتىحاول تشارلس لندبرج وزوجته آن أستئناف حياتهما العادية دون جدوى ..

وفي يونيو أعلن معهد روكفلر الابحاث الطبية ان تشارلس لندبرجاشترك مع العالم الدكتور الكسيس كاريل الفائز بجائزة نوبل في اختراع القلب الصناعي الاول في التاريخ ..

وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت سيول من خطاباتالتهديد والشتائم تنهال على لندبرج ، تهدده بخطف وقتل طفله الثاني جون ـ الذى كان قد بلغ السنه الثالثة من عمره ـ

واخيرا قرر لندبرج وزوجته ان يرحلا عنامريكا،ويستقرا فيبريطانيا، في بيت صديق عرضه عليهما،ليجدا السلام والطمأنينة اللذين افتقداهما في أمريكا .. وفي يوم ٢١ ديسمبر ١٩٣٥ تسلل لندبرج وزوجته الى ليفربول في سفينة بضاعة !

وفي مساء الجمعة ٣ابريل ١٩٣٦ جلس هاوبتمان علىالكرسي الكهربائي .. كان وجهه قاسيا خاليا من أى تعبير ، بينما سرى التيار الكهربائي في جسمه فأسكته الى الابد .



في الظلام !

ظلت الفتاة تخرج مع الشاب اكثر من عام.. وعندما سالها ابواها عما تعتقد انهيعتزمه حيالها ، قالت :

ـ انني لست على ثقة تماما من ذلك ...فانه يبقيني في الظلام فترة طويلة !!

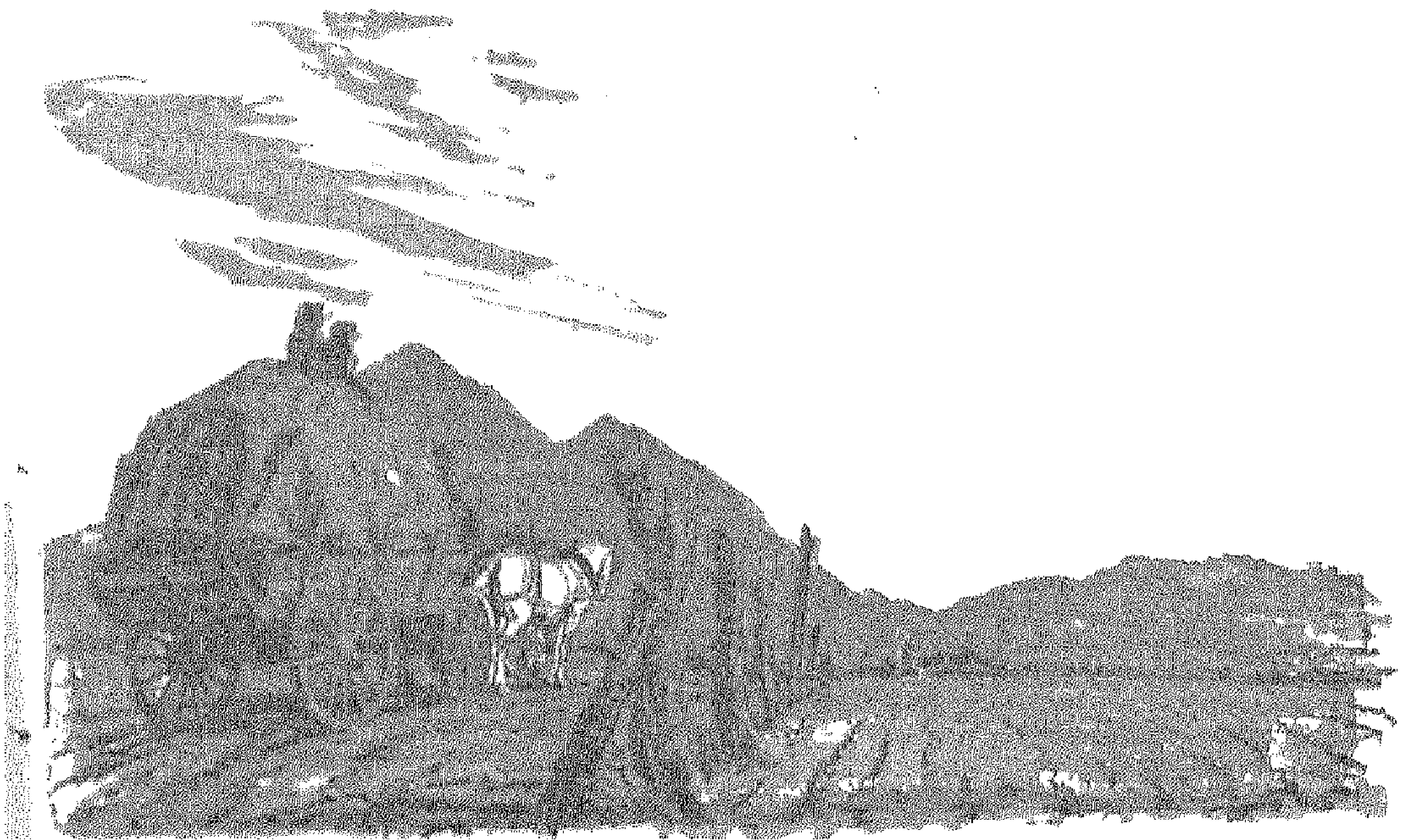
كتاب الشهر

روّاد أم مشرّدون

عن كتاب

Aram in the Thicket

بقلم فرانك روبرتسون



كتب فرانك روبرتسون كثيرا من الكتب الناجحة عن الحيـــاة فى ولايات غرب أمريكا ، ولعل أكثرها جاذبية تلك القصة الرائعـــة التى سردها بامانة واخلاص عن أسرته التى عانت الكثير من ضروب الحياة الخشنة ، وعاشت حياة قاسية حافلة بالاخطـــار على الحدود الشمالية الغربية للولايات المتحدة ..

ويقول روبرتسون – الذى ولد فى عام ١٨٩٠ – « لو أن هذه الاحداث وقعت قبل ذلك بسنوات قليلة لكان من المحتمل أن يطلق علينا الناس اسم « الرواد » . أما فى أيامنا ، فقد كنا مجرد أشـــخاص مشردين يعيشون فى عربات » .

ان قصة الشقاء الطويل والبـــلايا التى تحملتها هذه الاسرة ، ونجاحها فى النهاية فى اجتياز الاوقات العصيبة ، جعلت من كتاب « كبش فى الغـــابة » شيئا ليس من السهل نسيانه . »

رواد أم مشردون

عندما انتهيت من دراستى الابتدائية وأنا فى الثـــالثة عشرة من عمرى ، ظن أبى ان هـــــذا القدر من التعليم كاف لغلام يعيش فى مزرعة على الحـــدود ، وعلى أية حال لم تكن هناك مدرسة ثانوية قريبة منا ، فمنذ خمسين عاما ، كانت المدارس الثانوية قليلة العدد فى ريف ولاية «ايداهو» تفصل بين كل منها والاخرى مسافة بعيدة .

وفى الوقت الذى كنت أفقـد فيه عاما بعد آخر من الدراســة ، كانت نيران الثورة تتأجج فى أعماقى ، لولا أن الفقر الذى كنا نعيش فيـــه كان شيئا لايمكن التغلب عليه .. وأخيرا وجدت نفسى رجلا فى الثامنـــة عشرة من عمره لا مستقبل له ... يعمـــل راعيا للاغنـــام ، وهو أدنى الاعمـــال وأكثرها حقارة فى ولايات الغرب

ان قصص الحياة فى ولايات الغرب تصور راعى الغنم مخلوقا جاهلا – وقد يكون مخبولا – وتجعـــل منــه لصـــا للمزارع ، ومن عمله أحقر وأقل المهن مغـــامرة ... والواقع أن أغلب رعاة الغنم الذين عرفتهم كانوا رجالا أذكياء يكرهون الجماهير ... أما فيما يتعلق بالمغامرات ، فقد شهدت أكثر مشاهد الرعب فى حيـــاتى عندما كنت أرعى

الغنم !

حدث يوما أنني بعد أن تناولت الغداء ، رحت أتسلق على مهل ، الربوة التي كان القطيع يرعى فوقها ... وكنا يومئذ في أواخر الربيع ، وأعالي الاخاديد وحدها هي العارية من الجليد ، وفجأة أجفلت الاغنام وبدأت تندفع في جنون منطلقة نحو السفح دون أن تعبأ بي ... وصعدت الى القمة ، ولاول وهلة لم أستطع أن أرى شيئا غير عادي ، ثم سمعت ثغاء خافتا ، وعندما سرت فوق الجزء المعلق من المنسف الثلجي الفخم ، رأيت الى أسفل حوالي ٢٠ رأسا من الغنم وقد نفقت أو توشك أن تنفق ... ثم غاصت قدماي وسط الجليد الهش ، ووجدت نفسي وقد دفنت حتى مرفقي ولم أعد قادرا على الحركة ... وعلى مسافة أربع أقدام مني ، برز وجه دموي لأنثى ذئب ضخمة ، وقد تقلصت شفتاها في زمجرة شريرة .. لقد كان في استطاعتها لو أرادت أن تمزقني اربا في دقيقة واحدة !

وتملكني ذعر بالغ ، فلم يكن في استطاعتي أن أفعل شيئا لحماية نفسي ... وحاولت أن أصرخ ، فلم يخرج من حلقي غير صرير أجش ليس فيه شيء من صوتي .. وكان هذا كافيا ، فقد ربضت الذئبة برهة ، ثم دارت حول نفسها ، وسرعان ما غابت عن ناظري ، بعد أن قتلت أكثر من ٢٠ رأسا من الغنم ... وعدت بما بقي من أغنامي الى بر الامان ، وبعد يومين ، عثر بعض رجالنا على جحر الذئبة ، فحفروه وقضوا على صغارها الاربعة ، ومنذ ذلك اليوم لم تعد تثير امامي شيئا من المتاعب .

وفي أواخر تلك السنة نفسها ، أدى العجز غير العادي في الطعام الى وقوع مغامرات أخرى تعسة ، عندما كانت جماعات الرعاة المنافسة تحاول أن تأتي الى مجالنا بأغنامها ، ولكنني كنت أتمكن دائما من ابعاد أكثر هؤلاء الغزاة بحيل وخدع مختلفة ... الى أن جاء رجالنا يوما بأنباء مقلقة ، تقول ان راعيا ألمانيا من ولاية «يوتاه» اشتهر باجرامه ومشاكسته يقترب من مزرعتنا بأغنامه ، وكان هذا الرجل يحمل دائما مسدسه الاوتوماتيكي ، وقد أطلق النار منه على رجال كثيرين في طريقه .. بل ان أصحاب القطيع الذين كانوا يستخدمونه ، كانوا يخافون اثارته أو الاصطدام به !

واتخذت لنفسي مكانا فوق منسف ثلجي كبير والخوف يملأ جوانحي .. وسرعان ما ظهر الالماني وقطيعه من

الاغنام ... كان رجلا ضخم الجثة كث الشارب خشن الاخلاق ، وما أن رآنى ، حتى ربت بيده فوق جراب مسدسه وصاح مهددا :

ـ ابعد هذه الاغنام عن طريقى

وأمسكت بندقيتى ، وتصلبت عضلاتى من الخوف .. الخوف من هذا الالمانى اذا حاولت منعه من المرور ، والخوف من أن أفقد عملى اذا لم أفعل .. ولكننى كنت أعرف جيدا أن المدى الذى أقف فيه أبعد من أن تصل اليه رصاصات مسدسه ، فى حين أنه يقع فى نطاق رصاص بندقيتى .. وقلت لنفسى : اذا ازداد منى قربا فسوف أطلق النار عليه ، فاذا لم توقفه طلقة التحذير وأجاب عليها ، فسأضطر لقتله ..

وأشرت اليه أن يبقى الى الوراء .. وثار الالمانى مزمجرا .. وهدد وتوعد ، ولكن لم يكن فى استطاعتى التراجع الآن ... واحسست بفراغ رهيب فى فم معدتى ، وراحت يداى ترتعشان ، واضطررت الى الركوع على احدى ركبتى والاستناد بمرفقى على الاخرى حتى أوقفت هذه الرعدة ، ولا بد أن الامر بدا للألمانى كأنه عمل يدل على برود أعصابى وهدوئها ، فقد دار بأغنامه وانطلق فى الطريق الآخر .

وعندما سمع رئيسى عن هذا الحادث ابتسم قائلا :

ـ لم أكن أعتقد يافرانك أنك تتمتع بكل هذه الشجاعة وقوة الاعصاب

والحقيقة أننى لم أكن أتمتع بشىء من ذلك .. كنت انسانا خجولا ، مغرما بالقراءة ، بل اننى لم أكن حتى من الرعاة الطيبين ، فقد كنت أنفق كل لحظة فراغ أجدها فى المطالعة ، كلما وقع فى يدى شىء يقرأ .. وظللت عدة سنوات أقرأ كل مايقع فى يدى ، حتى المجلدات الهامة عن موضوعات لا أعرف عنها شيئا ، كادارة المجالس البلدية .. فلم أكن أترك كتابا يصل الى دون أن أقرأه ، وعندما كان أخى « تشونسى » يأتى الى ببعض الثياب النظيفة التى أرسلتها أمى ، كان يحضر معه كيسا مليئا بالمجلات الرخيصة ، فقد كان يعرف أن ظمأى للقراءة لا يرتوى ..

كان تشونسى يعمل رئيسا للعمال فى مزرعة لتربية الماشية ، وكان من أبرع راكبى الخيل ، وقد أصيب فى حادث اصابة أدت الى بتر ساقه منذ بضع سنوات ، ومع ذلك ، فقد استطاع بساقه الخشبية أن يركب صهوة أى حيوان ذى شعر .. وكان مولعا باقتناء القبعات والقمصان الزاهية

اللون ، والاحذية ، وكان لا يمتطي غير صهوة جواد من أكرم الجياد ..
وكان من أكثر الاشخاص الذين عرفتهم في حياتي جرأة واندفاعا ..
لقد كانت رؤيتي لاخي تشونسي تجعلني أشعر بالأسى على مظهري الذي يثير الحزن ، فقد كانت ثياب العمل التي أرتديها متآكلة عند الركبتين ، وكانت قامتي تثير السخرية ، وقد اعتدت أن أسير منحنيا من فرط خجلي لطول قامتي التي تبلغ ست أقدام في حين أن وزني لا يزيد على ٦٠ كيلوجراما وقد نشأنا معا على أطراف الحدود ، وعشنا حياة قلقة زاخرة بالتنقلات ، حيث كان أبونا يبحث عبثا عن حقول أكثر اخضرارا .. ولكن كان يبدو على تشونسي أنه انتصر على كل أنواع الفقر والحرمان الذي كان يخيب آمالي ويملأ قلبي سخطا وثورة ..
ولم يخطر ببالي قط أن هذه الحياة الشاقة التي تشبه حياة البدو الرحل قد تصبح لها قيمة كبرى لي ولاخي ..

الى الغرب ...

كانت امي تعمل مدرسة في مدارس البراري ، وكانت تعول أسرتها منذ كانت في السادسة عشرة ، وعندما بلغت الثامنة والعشرين ـ وكانت تعد عانسا في تلك الايام ـ تزوجت أبي
لقد التقت به أول مرة في احدى كنائس قرية صغيرة نائية من قرى « نبراسكا » ، وعندما جلس ذلك الغريب الطويل القامة الى جوارها حاولت أن تبتعد عنه قدر استطاعتها ، فقد كانت قبعته الكبيرة ومهمازه الذي يجلجل كلما تحرك ، يدلان على أنه من رعاة البقر ـ أي أنه خشن الشخصية ـ ولكن ما أن بدأ ترتيل الاناشيد ، وارتفع صوته الذهبي فجأة بين المنشدين ، حتى انضم اليه المصلون في حماسة لا مثيل لها ، وقالت أمي لنفسها : « ان رجلا يرتل الاناشيد الدينية بمثل هذا الاخلاص لا بد أن يكون رجلا صالحا » وبعد الصلاة قدمهما صديق مشترك لبعضهما البعض ، فازداد اعجابها براعي البقر الذي سافر الى أماكن كثيرة ، وبعد بضعة أسابيع ، تزوجا على الرغم من الاعتراضات الشديدة التي أثارها أقاربها وتنبؤهم بأن هذا الزواج لن يثمر غير الكوارث
وكان بعض تحذيرهم صادق الاساس .. فان أبي كان على عكس رعاة البقر ، لا يشرب ولا يقامر ، ولكنه كان مصابا برذيلة ثالثة من رذائلهم ، هي أنه كان دائم الحنين الى التنقل والترحال لا يكاد يستقر في

مكان ما ... لقد جرب أبى أعمال الزراعة ، ومدالطرق الحديدية ، وقطع الاخشاب وغيرها من الاعمال المختلفة الكثيرة ... وعلى الرغم من أنه كان يتحدث دائما عن الفرص العظيمة ، ويهاجم كل مشروع جديد بنشاط عظيم ... فانه لم يستطع قط أن يعول أسرته ، وكلما زادت مسئولياته العائلية بازدياد أبنائه ، كانت أعصابه تزداد توترا ..

ولم يكن أبى سعيدا تماما بأبنائه .. فأكبر الاطفال «تشونسى» كان أكثر نشاطا مما يناسبه ، وثانيهم «أوب» كان يشبه أمه كثيرا فى طيبته ورباطة جأشه .. أما أصغرهم — وهو أنا — فقد كان نحيلا ، مترددا لم يبرع فى شىء وهو ماكان يخيب أمله دائما .. ومع ذلك فانه فى الاوقات التى لايكون فيها ثائرا ، كان يظهر وده وحنانه وكرمه فى حدود امكانياته !

كان بيتنا خلال جزء كبير من طفولتى عبارة عن عربة كبيرة مغطاة بالقماش السميك ، قد تشبه عربات الرواد فى السنين الخوالى ، أما فى أيامنا فقد كانت مجرد عربة أخرى من عربات الآفاقين المشردين . وكانت أمى تكره هذه الحياة التى لا جذور لها ، ولكنها كانت تحاول التمشى معها ، وكانت تؤمن بأن الله سوف يعوضها خيرا فى النهاية ...

وهاجرت الاسرة الى « ايداهو » وما كدنا نصل الى هناك ونستقر فى منزل مجاور لبيت « آل ماتيوز » حتى أصيبت البلدة بالبلاء الاكبر الذى يقع فى معسكرات الرواد .. وباء الدفتريا

وفى مثل هذه الاوقات يبدو أبى فى أفضل حالاته .. كان يتنقل من بيت الى آخر كلما احتاجوا اليه للمساعدة ، يقضى أياما كاملة بلا نوم ، جالسا الى جوار مريض أو يساعد فى دفن ميت ، لقد كان حصن المستعمرة يومئذ ، وكثيرون من الاطفال يدينون له بحياتهم ...

وكان أكثر الجيران يخافون الهواء المنعش خلال شهور الشتاء ، فيغلقون كل الابواب والمنافذ بالمسامير عدا باب واحد ، ويخشون كل شق حتى ثقب المفتاح بالخرق ... وكان أول عمل يقوم به أبى هو تمزيق هذه الخرق وفتح النوافذ وهو يقول فى سخط ان الاطفال لا بد أن يتنفسوا هواء منعشا ..

وقاومته السيدة « بل ماتيوز » الى أن مات أحد أطفالها فأذعنت ، وأنقذت بذلك بقية أسرتها

وفى ذلك الشتاء لم يمت فى قريتنا

غير أطفال قلائل على الرغم من الوباء ، فى حين فقدت المناطق الاخرى القريبة الكثير من سكانها ...

ما بعد الكارثة

استمع أبى الى الحاج «واين ماتيوز» فاشترى ٤٠ فدانا بهامنزل صغير .. ولأول مرة انتقلت الاسرة الى مكان تملكه ـ وان كان مثقلا بالرهون ـ ولكن المزرعة كانت أصغر من أن تعول أسرة فى تلك الايام .

وبعد أن زرع أبى ٢٠ فدانا بقمح الربيع ، ذهب يبحث لنفسه عن عمل آخر ، تاركا أخى « تشونسى » ليقوم بحرث الارض فى الصيف .. وكانت مهمة عسيرة على غلام لا يكاد ذقنه يصل الى يد المحراث ، ولكن تشونسى كان كفئا ، وكان يحب التفاخر بما يعمل ، وسرعان مابدأت القرية تتحدث عن ابن روبرتسون الشجاع القوى

وعندما عاد أبى فى احدى زياراته للبيت ، أشاد بما عمله تشونسى ، وقال ان القمح سوف ينتج بمعدل ٤٠ بوشلا للفدان ، واننا قد نحصل على دولار لكل بوشل .. وعلقت أمى أيضا آمالا كبارا على هذا القمح الذهبى ، وقدرت اننا سنحصل منه على ٨٠٠ دولار ، وهو مبلغ يبدو خياليا .. وكان أبى سيحصل أيضا على اجر عمله فى تلك السنة ..

ولكن ما ان جاء وقت الحصاد ، حتى وقع الكساد ودب الذعر فى الاسواق ، فأغلقت البنوك ابوابها فى كل مكان ، وانخفض سعر القمح من ٨٠ سنتا للبوشل الى ٢٥ سنتا ، ولم يكن هناك من يشترى .

وزاد الطين بلة بسقوط المطر ، وكان المحصول قد انتهى درسه ، فتمزقت الاكياس وغرق القمح فى ماء المطر ، وسرعان ما أصبح مجرد كتل من عفن أخضر !

وبدا أبى كالمخبول ... كان قد اشترى بعض الدواب ليستخدمها فى نقل القمح الى السوق ليكسب أموالا أخرى ، ولكن الكارثة جعلته لا يستطيع الحصول على مليم من المائتى دولار التى يجب أن يدفعها أجورا .. كان يجلس ساعات كاملة صامتا يحدق من النوافذ التى أغرقها المطر ... وهو يفكر : لا مال ولا عمل ! وانتهى الى الحل المألوف : لقد جمعنا متاعنا ، وانتقلنا الى مستعمرة أخرى !

أبى يختفى !

كانت تلك سنة عسيرة علينا .. فلم يجد أبى عملا طوال الشتاء ، وعندما أقبل الربيع كان لا يزال متعطلا .. وفى ذات يوم ارتدى أفضل

حلله ، وقال لأمي انه ذاهب الى بلدة « موسكو » مع بيلي بوكانان الذي يمتلك أرضا •• ولم يعد أبي ، ومرت شهور طويلة دون أن نعرف ان كان حيا أم ميتا !

كانت ظروف اختفائه غامضة تماما ، وقد عاد بيلي بوكانان ليقول لأمي ان آخر مرة رأى فيها أبي كان يبدو في حالة طيبة ، وانه اشترى لنفسه حذاء جديدا وثيابا جديدة ، فقالت أمي : من أين أتى بالنقود ؟ انه لم يكن يحمل غير دولار ونصف دولار !

فقال بيلي : لا أدري ••• ولكنني عرفت أنه ركب القطار ورحل عن البلدة •

وقال الرجل ان في استطاعتنا أن نبقى في أرضه اذا أردنا ، وانه سوف يستأجر تشونسي للعمل في حقوله •• وبدأت أكياس الدقيق والبطاطس تأتي أمام بابنا دون أن نعرف من الذي يحضرها •• وجاء رجل لا تعرفه أمي يدعى « جورج بو » ، قال انه مدين لأبي بثمن بعض الاخشاب ودفع لها ٢٥ دولارا •••

وقبلت أمي هذه الهدايا بالروح التي كانت تقدم بها ، ثم راحت تسعى لمعرفة ما حدث لأبي ، وكتبت لعمة عجوز لأبي كانت تعرف انها قريبته المفضلة ، وسرعان ما تلقت أمي ردا منها قالت فيه ان أبي ذهب الى تكساس ليزور شقيقيها ، وان عمه مالكولم مات في الشتاء الماضي وخلف له ٥٠٠ دولار ، وقالت العمة انها على استعداد لارسال بعض النقود الينا اذا كنا في حاجة اليها •• أو أردنا اللحاق بأبي في تكساس

وضحكت أمي وهي تقرأ الخطاب •• ولكنها لم ترسل شيئا لعمتي ولا لأبي ، قائلة انه اذا لم يعد بمطلق ارادته ، فان الحياة معه تكون غير محتملة •• ومع أن الصيف كان شديد القسوة علينا ، فقد احتملت وانتظرت في صبر

وفي ذات ليلة استيقظت من نومها لتجد ضوءا يتوهج أمام عينيها ••• وأغمضت بصرها وهي تخشى أن تكون قد نامت وتركت المصباح مشتعلا •• ولكن أبي انحنى على وجهها وطبع عليه قبلة •••

لقد عاد أبي أخيرا الى البيت ••

وابتسمت أمي وقد أحست بارتياح بالغ وقالت له :

ـ كيف حالك يا ويل ؟

ـ بخير •• وكيف حال الاولاد ؟

ـ على ما يرام •• هل أنت جائع يا ويل ؟ هناك خبز ولبن ••

وأخــذت ترقبه في اعجـاب وهو يتناول الخبز واللبن بشهيه ‥ فقد كان متعبــا تماما بعد أن قضى اليوم كله فى سير متواصل

وعاملته أمى كما كانت تفعل فى المرات السابقة عندماكان يغيبطويلا فى أعماله ‥‥ لقد فهمت أنه أنفق المال الذى ورثه من العم مالكولم فى البحثعنشىء أفضل لأسرته ، ولكن المال ضاع منه دون أن يدرى !

تشونسى ينال استقلاله

لا يمــكننى أن أذكر متى تعلمت القراءة لأول مرة ‥ ولكنهذا الامر حدث قبل أنأذهب الىالمدرسة بوقت طويل ، فقد كانت تنقلاتنــا الكثيرة تجعلالدراسة المنتظمةشيئامستحيلا، وعندمااستقربنا الامرفىبلدة أستطيع الالتحاق باحدى مدارسها ، وضعونى فى فصــل ابتــدائى ، وبدأت أتعلم الحروف الابجديه ‥ ورفض المدرس أن يستمع الىوأنا أحاول ابلاغه أننى أعرف هذه الحروف ، فقد كان يعتقد أننى احاول التهــرب من الدروس . وهطل الجليد بعد أسبوعين ، فتركت المدرسة دون أن أتعلم منها شيئا !

وكانأخواىتشونسىوأوب يبتهجان كلما تمكنا من التهرب من المدرسة . على الرغم من أنتشونسى كان تلميذا مجتهدا ، وكان شعره الاسود اللامع ومظهرهالوسيم وذكاؤه تجعلهمحبوبا من التلاميذ والمدرسين علىالسواء ‥ كانيتعلمالدروسبسهولة ، وينساها بسهولة مماثلة ، ولكنه اضطر لهجر الدراسة وهو لميزلفىطورالمراهقة ، فقد كانت حالتنا سيئة جدا الى حد أننا كنا فى حاجه الى نصف الدولار الذى يستطيع العمل به فىاليوم ‥

وأخيرا قرر أبى أن أفضل فرصة لى انما تكمن فىتطهير أراضى الادغال لا فى الزراعة ، ووجد قطعة منغابة مساحتها ٨٠ فدانا كانأصحابها على استعداد لبيعها دون قسط مقدم مع أن شروطهم مجحفــة جــدا ‥ فقد اشترطوا على أبى أن يقدم لهم ١٠٠ عرق من عروق الخشب لــدة خمس سنوات فى بلدة (موســكو) ‥ وما كدنا نبدأ العمل لتنفيــذ الاتفــاق ، حتى زاد ثقلالعمل على أبى ، وجعله كثير الشجار لا يحتمل أىضغط ‥

أما تشونسى فقد كان يتناولأجرا أفضل ممــا يحصل عليه بقية أفراد الاسرة ، اذ كان مكلفا بنقلالاخشاب الى البــلدة على عربة يقــودها ، وقد أصبحسائقاخبيرا يعرفكيفيستخدم سوطه الطويل فى احــداث أصــوات كطلقــات الرصــاص ‥ وكان يعود

دائما الى البيت ومعه تفاح وبرتقال وأشياء أخرى لذيذة ، لكى نأكلها على الرغم من زمجرة أبى الذى كان يقول اننا لا نتحمل ثمن هذه الاشياء

وعندما استمر تشونسى فى عصيان أوامره قرر أن يوطد سلطته عليه بصفة دائمة ، فصنع لنفسه عصا ، وأمره بالخروج معه ليضربه •• ولكنه ما كاد يرفع يده بالضربة الاولى حتى كان تشونسى ذو العضلات الفولاذية قد ألقاه أرضا !

ومنذ ذلك الحين أصبح تشونسى سيد نفسه ، وان كان تحرره قد جعل الحياة أشد كربا وجحيما على الاسرة كلها ••

وألقى أبى اللوم فى ذلك على أمى وتشونسى •• وأنا !

رسالة من المورمون

عينت أمى مراقبة لمدرسة الاحد الصغيرة التى كانت تجتمع فى دار المدرسة ذات الغرفة الواحدة •• وفى أحد أيام السبت ، جاء رجلان يرتديان معاطف سوداء محلاة بالفراء ، ودعتهما أمى الى الحديث معها ، واتضح أنهما من طائفة « المورمون » •• وتحدث أبى مع الرجلين فى مذهب الطائفة التى ينتميان اليها ، وقالا له ان الانسان يستطيع أن يجد لقمة العيش بسهولة فى « جنوب ايداهو » حيث معقل الطائفة ، فهى بلد طيب للرجل الفقير ••

وقرر أبى أن ينضم الى هذه الطائفة مع أمى ، وقال لها انهما اذا فعلا ذلك فسوف تلحق بهما نصف البلدة •• وحدث ذلك فعلا !

وتخلصنا من قطعة الارض التى جلبت علينا المتاعب مقابل زوجين من الجياد ، ورحلنا جميعا الى «ايداهو» •• وفى بلدة «لاجراندى» توقفنا لنمضى فصل الشتاء ، وهناك عادت الامور تتعقد من جديد ، فقد مات اثنان من الجياد ، وأصيب أبى بالجدرى ، وعجز «أوب» عن العثور على عمل ، وأصبح تشونسى مرة أخرى العائل الوحيد للاسرة • ثم حدثت النكبة الكبرى عندما أصيب «تشونسى» فى حادث أدى الى بتر ساقه •

وبكت أمى كثيرا ، فقد كان تشونسى هو صاحب أفضل جسم رياضى فى الاسرة ، وكان يحب ركوب الخيل والعدو ، واستعراض قوته •••

وقرر أبى أن نواصل الرحيل ، على أن أركب معه فى العربة ، وتلحق بنا أمى وبقية الاسرة فى القطار ••

وفى خلال تلك الرحلة أصبحت صديقا لأبى لأول مرة •• وبعد أن

قطعنا خمس الرحلة ضاع كل مامعنا من نقود ، فأخذنا نبيع كل ما لدينا شيئا فشيئا ...

وفي « تشسترفيلد » التأم شملنا مرة أخرى ، ورأينا تشونسي لأول مرة يسير على عكازين ، وان كانت بسمة التحدي على شفتيه تميت كل احساس بالاشفاق من أجله

واستدان أبي لشراء منزل خشبي صغير ومخزن للحبوب ، وأعلن أنه ينوي تربية الدواجن بعد أن يتمكن من بناء الحظائر اللازمة لها ، ووضع تشونسي ساقا خشبية مكان ساقه المفقودة ، وأخذ يرعى قطيعا من البقر يمتلكه أحد الجيران .. وفي خلال سنوات قليلة أصبح من أفضل مروضي الخيول البرية ورعاة البقر في منطقة « جنوب ايداهو » كلها .. أما أنا وأخي أوب ، فقد حصلنا على عمل في مصنع للطوب ..

أبي يغازل الرخاء !

كان أبي يبدو أسعد مما كان في هذه المنطقة الجديدة .. وقد زادت سعادته بمساهمته في أعمال الكنيسة ومدرسة الاحد ، ولكن كل أعماله المالية كانت تصاب بالفشل ، وعندما بلغت ديونه من الاشياء التي يشتريها حوالي ٥٠٠ دولار ، عرض عليه «ناثان بارلو» صاحب متجر البقالة أن يشاركه في تربية قطيع من أبقار الحليب ، على أن يأخذ نصف اللبن ونصف الناتج من العجول .. وقبل أبي العرض بعد أن وافق «بارلو» على بناء حظيرة للأبقار .

وأشرك أبي كلا من تشونسي واوب في المشروع ، وسرعان ما ازدهرت مؤسسة « روبرتسون وأولاده » ، وبلغ دخل أبي منها حوالي ٣٠٠ دولار شهريا ، ولكنه كان يستخدم ذكاءه ليغرق في الديون من جديد .. فبنى حظائر جديدة للدجاج في الوقت الذي كان سقف كوخنا فيه لا يزال قذرا محطما !

***

وعندما بلغت الخامسة عشرة من عمري بدأت أدرك أنني لن أنال من التعليم أكثر من السنة الاخيرة من الدراسة الابتدائية ، فشعرت بمرارة تملأ قلبي .. وانسحب شقيقاي من مشروع الالبان ، فبدأ ينهار ، وأصبح دخل الاسرة الاساسي يعتمد على ما يحصل عليه أوب من عمله

وقالت أمي يوما لأخي أوب : ان فرانك يكره الزراعة ، ولكنني على ثقة من أنه سوف يتمكن من عمل شيء اذا استطاع الحصول على قسط من

التعليم ..

فقال أوب بعد تأمل : أستطيع أن أبعث به الى المدرسة الثانوية ، والى الجامعة ، لولا ديون أبى !

كانت الديون موجودة دائما ... لم تكن كبيرة جدا ، ولكنها كانت تجرفنا فى اليأس كالتيار العنيف .. وصحت أنا قائلا :

ـ لا أريد الذهاب الى المدرسة .. لقد أصبحت كبيرا بالنسبة لها .

وبعد فترة قليلة أصيب أخى أوب بمرض فى عينيه منعه من العمل حوالى سنتين .. واضطررت فى النهاية الى أن أعمل فى رعى الاغنام !

اتجاه الى الكتابة

تولد الحملان بلا عقول ، وهى قل أن تكتسب عقلا فى حياتها بعد ذلك ، وعندما تصاب الاغنام باضطراب تقفز وتتبع أى شىء يتحرك امامها ؛ ومن ثم فان راعى الغنم قد يضطر الى أن يخوض فى الماء ، وأن يفقد نصف وجباته ، وهو يعمل من الفجر الى المساء ، ثم يقبع أغلب الليل ليمنع القطيع من مبارحة مكانه الذى يبيت فيه ..

وفى بعض الاحيان تكون حياة الراعى شيئا يحسده عليه أصحاب الملايين ، ففى الصيف تلتمس الاغنام مكانا ظليلا هربا من حرارة الجو ، ولا تتحرك من مكانها الا فى المساء ... وحتى ذئاب البرارى كانت تتوقف هى الاخرى عن ممارسة نشاطها فى تلك الفترة ، وعندئذ يستطيع الراعى أن يفعل ما يشاء .. يصيد الاسماك والحيوانات ، أو يزور معسكرا آخر للرعاة أو يقرأ .

وكنت أفضل القراءة ..

كانت صحف تلك الايام زاخرة بالمقالات التى تكشف الفساد السائد يومئذ فى دنيا الاعمال والسياسة ، وقد جعلتنى هذه النصائح المنشورة فى الصحف ، وتجاربى القاسية مع الفقر أمتلىء حنقا وسخطا على المجتمع .. وكنت أجد فى أمى وبعض الآخرين من يشاركنى فى هذا السخط والضجر .. وما لبثت ان اكتشفت فى جارنا الجديد « جورج هيبز » روحا قريبة من روحى ؛ فقد كان اشتراكيا متحمسا ، وأمدنى بأكوام من المطبوعات والكتب الاشتراكية ، بعضها من تأليفه ـ فقد كان على جانب من الثقافة ـ وهو أول كاتب عرفته فى حياتى ... وكنت أضطجع أحيانا فوق الحشائش عندما تهدأ الاغنام فى الظل ، ويداعبنى التفكير فى أننى سوف أكتب يوما ما ،

ولكن هذا الاحتمال كان يبدو بعيدا عن الخيال ..

وعندما شفيت عين أخى « أوب » تركت رعى الغنم مؤقتا ، واشتغلت معه بأعمال أخرى مختلفة ، فعملنا فى البناء ، وفى المزارع ، وأعمال الحصاد ، وكنا نضطر الى ارسال أكثر ما نربحه الى البيت

وفى احدى مدن «ايداهو» الصغيرة ، اضطررنا للبقاء بلا عمل فى انتظار موسم حصاد الدريس .. وفى ذات يوم بعد أن أعيانى السير بحثا عن عمل ، جلست أقرأ صحيفة محلية ، فاذا بمحررها يكتب فى مقاله الافتتاحى ، مهاجما أولئك « المتشردين الافاقين » الذين تجمعوا فى المدينة بلا عمل ، وقال انهم يعيشون فيها كالطفيليات ، حتى اذا وجدوا عملا انتقلوا من البلدة !

وأحسست أن هذا الصحفى انما يكتب عنى أنا وأخى ، وبحثت عن ورقة وقلم ، ورحت أكتب ردا أدحض فيه مزاعمه ، وقلت له اننا يسعدنا أن نجد عملا نقوم به ، وأضفت الى الرد بعض الملاحظات عن الآراء الاشتراكية فى مشكلة البطالة ... وذهبت بنفسى أحمل مقالى الى المحرر ، وتدافعت الدماء الى وجه الرجل وهو يطالع مقالى ثم صاح قائلا :

ـ لن أنشر شيئا من هذه القذارة الاشتراكية فى صحيفتى .. انها انما تثبت أن كلامى صحيح

وأرسلت المقال الى مجلة اشتراكية تدعى « اينلاند ايكو » تصدر فى « لويز تاون » بعد أن أضفت المزيد الى مادته ، وعندما اشتريت نسخة من عددها التالى ، وجدت مقالى منشورا فى صفحتها الاولى ! وابتهج « أوب » كثيرا واقترح أن أحاول كتابة مقال آخر لنفس المجلة ، ففعلت ، وعندما نشروه ، رحت أمطرهم بمقالاتى ، حتى أصبحت تظهر كل أسبوع تقريبا

وكتب لى صديقى «جورج هيبز» يقول انه فخور بى ، واقترح فى لباقة أن أتعلم شيئا من النحو ، فاشتريت كتابا فى النحو ، ولكنه لم يفدنى شيئا ، وابتعت آلة كاتبة صغيرة رحت ادبج عليها مقالات أخرى

قبلت الاستقرار !

عندما بلغت الخامسة والعشرين ، أذعنت لمشورة الاسرة ، وقدمت طلبا للحصول على قطعة من الاراضى العامة لكى أستقر وأصبح مزارعا ، ومع ذلك فقد كنت لا أزال آمل أن أجد وسيلة لتحصيل التعليم الذى افتقدته بأقصر طريق ..

وحصلت على مكافأة من مخدومى

الاخيرقدرها١٢٠ دولارا ، فاستثمرت جزءا من المبلغ فيالتعليم بالمراسلة ، وعدتأحمل١٦مجلدا ضخما ، سألنى عنها أبى فقلت له :

ـ انها كتب فى القانون

ـ كم دفعت فيها ؟

ـ ٧٠ دولارا

وغطت الكآبة وجهه وبدت عليه خيبة الامل ٠٠ ودخل على أمى ثائرا وهو يصيح :

ـ هذا الغـلام الاحمق أضاع ٧٠ دولارا فىشراء كتب لا تساوى شيئا

فقالت أمى مدافعة عنى :

ان التعليم لا يؤذى أحدا يا ويل

***

كان كل ما أستطيع أنأفعله بهذه المجـلدات ، هو أن أمر بيدى فوق جلودها الملساء الجميله ، ثم أطرحها جانبا ، فقد كانت مشـاكل الارض التى استغلهـا تأخـذ كل وقتى ، وشاركنى أخى أوب فى زراعة أرضى وحرثها ، وأشركناأبىفىهذا المشروع

ووعدتنى مدرسـة المراسلات أننى أستطيع أن أنتهى من دراسة القانون فى خـلال ثلاث سنوات اذا واصلت العمل بجد ، ولـكن مشـاغل الحياة والعمل كمزارع لمتترك لى وقتاكثيرا للدراسة ٠٠ وفى الشتاء كنت ألقى عبء العمل على أخى لأستذكر قليلا أما فى الصيف فلم أكن أجـد وقت فراغ قط ، وفى الخريف كنت أنسى أغلب القوانين ولا أكاد أحفظها حتى تبدأ عملية حرث الارض فى الربيع فأنساها ثانية !

ومع اننى لم أفد شيئا من دراسة القانونبهذهالطريقة ، الا أنهاأفادتنى كثيرا بذخيرة من الكلمات والالفاظ ، وجعلت الرغبه فيالعلم حية فيأعماقى

وكثرت مشاجراتى معأبى ، الذى كانيتهرب كثيرا منالعمل فيالمزرعة ، وأصبحت خلافاتنا أعمق من أن تجد حلا ٠٠ ولم يستطع أخى «أوب» أن يوفقبيننا ، وأخيراقبلتشراء نصيب أبى على الرغم من الثمن الخيالى الذى طلبه لهذا النصيب ٠٠

البحث عن مخرج

ظللت أواصل العمـل فى الزراعة طوال سنوات ثلاث ، حتى اكتسبت حقا قانونيـا فى قطعة الارض التى حصلتعليها ، وفيذلكالحين تزوجت ابنة أحد جيراننا الجدد ، وهى فتـاة هادئة جميـلة سحرتنى من النظرة الاولى ٠٠٠

وعلى الرغم من امتلاكى للأرض ، بعـد كنت أدرك أن الزراعة لا تتفق معميولى ، واننى انما لجأت الىدراسة

القانون بحثا عن مخرج من هذه الورطة .. وقررت أن أبذل مجهودا أخيرا للنجاة بنفسى من هذه الحياة

وحصلت على مجموعة من مجلات قديمة كانت تحوى مقالات عن كيفية كتابة القصص الصغيرة ، وفى احدى هذه المقالات وجدت نصيحة للكتاب المبتدئين وهى ألا يكتبوا الا عن الاشياء التى يعرفونها جيدا

وتذكرت الايام التى قضيتها فى رعى الاغنام ، وعلى الرغم من أن عملى فيها كان يقوم أساسا على حمايتها والدفاع عنها من الحيوانات المفترسة ، فاننى كنت أشعر دائما بعطف خفى على ذئاب البرارى التى كانت تفوقنى فى الذكاء أحيانا كثيرة ..

وكتبت قصة عن ذكرياتى عن هذه المعارك التى كانت تدور بين ذكاء الانسان ودهاء الذئاب ، وكانت القصة عن ذئبة عجوز تسير على ثلاث أرجل فقط ، وتضطر للقتال والكفاح من أجل البقاء .. ضد الجوع والبنادق والسموم والشباك ، وعندما انتهيت منها أرسلتها الى احدى المجلات

وظللت أتكتم النبأ عن المعارف والاصدقاء حتى لا أصبح أضحوكة بينهم ، فلم أذكره الا لزوجتى وأمى وأخى «أوب» ومرت أسابيع مشحونة بالقلق الى أن وجدت يوما فى صندوق البريد مظروفا أزرق به رسالة قصيرة وشيكا بمبلغ ٣٥ دولارا .

ولن انسى قط الاثر العظيم الذى مر بى فى هذه التجربة

ونظر الى أخى «أوب» وكأنه يرانى لأول مرة .. ثم قال فى مهابة :

— يا الهى .. انت كاتب !

ولكن قصة واحدة لا تصنع من الانسان كاتبا ... وقد مضت فترة طويلة قبل أن أجد وقتا كافيا لكتابة قصة أخرى عن المغامرات فى مناطق الحدود ، وكنت أكتبها وأنا أقف وسط أكداس القمح التى حصدناها من الحقل .. وبعد أسبوع تلقيت ٣٥ دولارا أخرى ومع أن هذا الاجر كان مغريا ، فان عمل المزرعة لم يكن يترك لى وقتا للبحث عن أفكار لقصص أخرى .

وفى تلك السنة ساءت حال المزرعة ، وازدادت ديوننا فى الخريف، فبدأت احاول كتابة قصة طويلة عن الحياة فى الغرب .. ولما كان أخى تشونسى هو اكثر من عرفت شجاعة ومغامرة فقد جعلته نموذجا لبطل قصتى ، وانتهيت من كتابة القصة فى شهر فأرسلتها الى المجلة ولم يكن يخامرنى أمل كبير فى بيعها ، ولكن

بعد اســـبوعين فقط تلقيت شـيكا بمبلغ ٨٥٠ دولارا ٠

واخذت اكتب المزيد من القصص فى جنون ٠ ٠ ٠

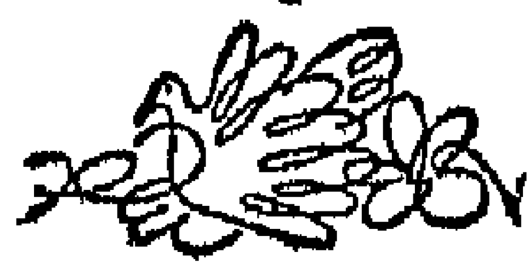
وفى بدايه الامر كان الكثير منها يعاد لى بعد رفضه ٠ ٠ ٠ ولكن ماكاد يمر عام واحـــد حتى كنت ابيع كل ما اكتبه ، واستطعنا ان نســدد كل ديوننا ٠

ومع ان الاسرة كلها قد ابهجهـــا نجاحى هذا ، فان أبى ظل يؤمن بأن كتابة القصة ليست طريقـة محترمة لاكتساب لقمة العيش ، وكان يرفض قراءة اية قصة مما اكتب !

وكنت أتقاسم ما أكسب مع أخى (اوب) باعتباره لايزال شريكا لى فى كل شيء ، ولـكنه بعـد أن كسرت ساقه ولم يســتطع العمل رفض أن يأخذ نقــودا منى ، واقنعته أمى ان يجرب كتابة القصص هـو الآخر ، مع انه لم يبق فى المدرسـة اكثر من سنة واحدة فى حياته ٠٠

وكان (اوب) يتمتـــع بموهبـة فريدة ، وهى ان يتابع سرد قصصه ساعات دون ان يمل السامع ، وعندما قرأت قصـــته الاولى ، ادركت انه قصصى موهوب على الرغـم من انها كانت مكتــوبة بطريقة بدائيـــة ، وادركت على الفور اننى استطيع ان اجعل منها قصة يمكن بيعها ، فقد كان ابطـــالها يحلون مشاكلهم بعقـولهم بدلا من قبضات ايديهم وبنادقهم ٠

وهكذا ٠ ٠ ٠ بعد حياة كاملة فى الفقر والحرمان ، احست امى بالراحة والرضا بعد أن ازدهرت اسرتهـــا ، ولاسيما بعد أن أصبح أخى تشونسى رئيســـا للعمال فى احدى مزارع الماشية وتزوج ابنة صاحب المزرعة ، واصـــبحت انا واخى أوب نكسب اكثر مما نحلم به ، ودعيت لالقـــاء محاضرات صحفيه فى جامعة (بريجهام يونج) ٠ ٠ وبعد خمس ســنوات فقط من ظهور أول قصـة لى ، ظهر اسمى فى دليل اعلام امريكا ٠



متى يلتقيان !

قال النجم الراحل همفرى بوجارت معلقا على الازياء النسائية المتغيرة كل عام :

ـ اننى اتطلع الى الوقت الذى يلتقى فيـــه الصدر المنخفض مـــع الذيل المرتفع ، وعندئذ تستطيع النساء الاستغناء عن الحزام ، ولن يكلفنا الثوب مليما واحدا !

كتاب الشهر

نهاية الأسطورة

عن كتاب

The Rise and Fall of the

Third Reich

بقلم وليام شيرر



كيف دفع الغرور والغضب الجنوني هتلر الى اتخاذ قراراته التى ادت الى كارثة اشعال نيران الحرب العالمية الثانية ؟

كيف ادى العناد والغباء الى اكبر هزيمه في تاريخ الجيش الالماني في ستالينجراد ؟

الى اى مدى كان فشل موسوليني وحسده لمنافسه الناجح سببا فى تعريض غزوات هتلر الاولى للخطر ؟

ان الاجابة على هذه الاسئلة وغيرها ذكرها وليام شيرر فى كتابه الرائع « نشوء وانهيار الرايخ الثالث » ، تلك الدراسة الخالدة عن عصر النازى التى تطلبت من المؤلف خمس سنوات كاملة ، غربل فيها أطنانا من الوثائق الالمانية السرية التى سقطت فى أيدى الحلفاء بعد استسلام المانيا ، واضاف اليها معلوماته ومشاهداته المباشرة كمراسل صحفى فى المانيا.

وفى هذا الجزء الثانى والاخير من الكتاب ، تجد وصفا دقيقا للفترة التى وقعت فيها اعظم انتصارات هتلر ٠٠ وهزيمته الاخيرة الحاسمة.

انها قصة لاتبرح المخيلة فترة طويلة بعد أن تنتهى من تقليب آخر صفحاتها الرائعة ٠٠ »

عقب انهيار فرنسا فى يونيو ١٩٤٠ ، بدأ أن هتلر لايساوره أدنى شك فى ان بريطانيا سوف تتلهف على الصلح ٠٠ ان الجيش الالماني يقف الآن متأهبا للهجوم على شواطىء بريطانيا الخالية من أى دفاع تقريبا ٠٠ فما الذى يجعل الانجليز يواصلون القتال بمفردهم فى وجه احتمالات لا أمل فيها ؟

وحتى عندما أعلن ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا أن بلاده لن تتخلى عن القتال ، لم يصدق هتلر ذلك ، وقد شاهدته فى مساء ١٩ يوليو ١٩٤٠ وهو يصعد الى منصة الرايشستاغ ليقدم عرضه للصلح الى بريطانيا ٠٠ كان حديثه فى تلك الليلة معتدلا ، ألقاه فى لهجة تفيض بالثقه التامه تناقض تماما خطبه الهستيريه الكثيرة ٠٠

وقال هتلر يومئذ : « أرى من واجبى أن أناشد العقل والادراك السليم لدى بريطانيا ، وانني أعتبر نفسي فى مركز يتيح لى توجيه هذا النداء ، فأنا لست مقهورا يلتمس معروفا ، بل أنا منتصر يتحدث باسم العقل ، انني لا أرى مايبرر استمرار هذه الحرب » .

لم يكن أحد من المسئولين الكثيرين

الذين اختلطت بهم بعدانتهاء الجلسة يساوره أدنى شك في أن الانجليز سوف يقبلون عرض هتلر السخى على الفور ، ولكننى لم آكد أصل الى محطة الاذاعة لأبعث بنص خطاب هتلر الى امريكا حتى التقطت اذاعة بريطانية موجهة باللغة الالمانية تحوى ردا على عرض هتلر ... وكان الرد هو : لا

وعلى الرغم من الثقة التامة فى التفوق العسكرى لألمانيا ، فان هتلر وقيادته العليا لم يفكروا قط فى كيف يمكن شن الحرب على بريطانيا وكسبها ... وتلك واحدة من المتناقضات الكبرى فى التاريخ الثالث .. ففى نفس اللحظه التى كان هتلر يقف فيها وهو فى أوج قوته العسكرية ... لم تكن لديه اية فكرة فى كيفية استغلال نجاحه الباهر والوصول بالحرب الى نهاية منتصرة !

الحرب الجوية تبدأ

ولكن التفاؤل كان هو العنصر المسيطر فى ذلك الحين .. وفى ٣٠ يونيو ١٩٤٠ كتب الجنرال الفريد يودل رئيس العمليات الحربية الالمانية يقول : « ان انتصار ألمانيا النهائى على بريطانيا ليس الا مسألة وقت .. ومع ذلك فان غزو بريطانيا لايمكن تنفيذه الا اذا حصلت ألمانيا على السيادة فى الجو » . وفى سبيل بلوغ هذه الغاية ، قرر المارشال هيرمان جورنج القائد العام للسلاح الجوى الالمانى أن يشن عملية « النسر » وهى هجوم جوى شامل يستهدف طرد الطائرات البريطانية من السموات . ولم يكن جورنج يخامره أى شك فى النصر ، فقد كانت لديه قوة جوية تضم ٢٣٠٠ طائرة ، بينما لايملك المدافعون عن بريطانيا أكثر من ٨٠٠ مقاتلة

وفى ١٢ أغسطس بدأت العملية بهجمات عنيفة على محطات الرادار ، ومطارات الطائرات المقاتله ، وفى ١٥ أغسطس وقعت أولى المعارك الكبرى فى السماء ، فقد شن الالمان ٨٠١ غارة لالقاء القنابل على بريطانيا ، وبعثوا ١١٢٩ مقاتلة فى ٤ هجمات شاملة ، استطاعت احداها أن تتغلغل حتى لندن ، فأصابت أربعة مصانع للطائرات وأتلفت خمسة مطارات للمقاتلات الانجليزية ... ولكن الالمان فقدوا ٧٥ طائرة مقابل ٣٤ طائرة بريطانية .

وهنا ارتكب جورنج أول غلطتين فى التكتيك الحربى ... فقد كانت براعة قيادة المقاتلات البريطانية فى

اعداد طائراتها للقتال فى وجه قوات مهاجمة تتفوق عليها فى العدد كثيرا ، تقوم على مهاراتها فى استخدام الرادار .. فمنذ اللحظة التى تحلق فيها الطائرات الالمانية من قواعدها فى أوربا الغربية كانت تظهر على شاشات الرادار البريطانية ، ويتم تحديد طريقها بدقة بحيث تعرف قيادة المقاتلات البريطانية بالضبط أين ومتى تستطيع توجيه هجومها اليها بأفضل الطرق .. ولكن الهجمات الاولى المدمرة على محطات الرادار البريطانية لم تستمر .. وفى ١٥ أغسطس أوقفها جورنج كلية .

وكان هناك عامل ثان من عوامل النجاح فى الدفاع عن سموات بريطانيا يتمثل فى «محطة القطاع» وهى عبارة عن مركز عصبى تحت الارض ، يجرى منه توجيه الطائرات المقاتلة من طراز (هاريكين) و (سبيتفاير) الى المعركة بوساطة التليفون اللاسلكى وفقا لآخر المعلومات الواردة من محطات الرادار ومواقع المراقبة الارضية والطيارين فى الجو وقد فطن الالمان الى أهمية هذه المراكز بعد أن سمعوا أحاديث مستمرة على الموجات الهوائية بين محطات القطاعات والطيارين المحلقين فى الجو . وفى ١٤ أغسطس حولوا تكتيكهم الى تدمير هذه المحطات ، وكانت تلك ضربه لناحية حيوية فى الدفاع الجوى عن بريطانيا

وفى المدة من ٢٤ أغسطس حتى ٦ سبتمبر ، ظل الالمان يرسلون طائراتهم بمعدل الف طائرة يوميا . ودخلت معركة بريطانيا مرحلتها الحاسمة ولكن على الرغم من ارهاق الطيارين الانجليز فقد قاتلوا ببسالة ظهرت آثارها فى كثرة الخسائر الالمانية . واستطاع الالمان اتلاف خمسة مطارات امامية للمقاتلات فى جنوب انجلترا ، وضربوا ست محطات قطاع من المحطات السبع التى تحيط بلندن حتى أوشك نظام الاتصالات اللاسلكيه كله على الضياع .

وكان أسوأ شىء هو أن السلاح الجوى البريطانى فقد ١٠٣ طيارين ، وجرح ١٢٨ باصابات خطرة ، وهذا يعادل ربع مالدى بريطانيا من طيارين . ولو ظل الحال على هذا المنوال أسابيع قليلة أخرى ، لما وجدت بريطانيا أى دفاع منظم عن سمواتها .

وفجأة ... ارتكب جورنج غلطته الثانية ، فأنقذت السلاح الجوى البريطانى المحطم المترنح ، وكانت من نقط التحول الكبرى فى تاريخ أكبر

معركة جوية فى التاريخ ، اذ حول السلاح الجوى الالمانى هجومه فى ٧ سبتمبر الى غارات ليلية شاملة على لندن ، مما خفف العبء عن المقاتلات البريطانية .

فما هو سر هذا التغيير المشئوم فى تكتيك جورنج ؟

ذروة المعركة

كان هناك خطأ صغير فى الملاحة الجوية ارتكبته ١٢ قاذفة ألمانية ليلة ٢٣ أغسطس ١٩٤٠ . فقد أرسلت لالقاء حمولتها على مصانع الطائرات وناقلات الزيت فى ضواحى لندن ، ولكنها أخطأت وألقت قنابلها وسط العاصمة فقتلت بعض المدنيين . وظن الانجليز أنه أمر متعمد ، فردوا عليه فى الليلة التالية بالانتقام وضرب برلين بقنابلهم .

ومع أن الغارة لم تكن كبيرة ، اذ لم يستطع أكثر من نصف الطائرات البريطانية وعددها ٨١ طائرة أن يجد هدفه ، وكانت خسائر الغارة المادية طفيفة ... ولكن أثرها على الروح المعنوية للالمان كان هائلا ، فقد كانت هذه أول مرة تقذف فيها برلين بالقنابل ، وهو أمر لم يعتقد الالمان بامكان حصوله .

وفى الليلة التالية جاءت القاذفات البريطانية بقوات أكبر .. ولاول مرة قتلت بعض الالمان فى عاصمة الرايخ . وثار هتلر ، وألقى خطابا رد فيه على هذا التحدى بقوله : « عندما يلقى البريطانيون ثلاثة أو أربعة آلاف كيلو جرام من القنابل فى ليلة ، فسوف نلقى عليهم ٣٠٠ ألف أو ٤٠٠ ألف كيلو جرام .. واذا أعلنوا أنهم سيزيدون هجماتهم على مدننا ، فسوف نمحو مدنهم من وجه الارض » ..

وهكذا صدر الامر بتحويل غارات الطائرات الالمانية الناجحة فى ضوء النهار على طائرات السلاح الجوى البريطانى ومطاراتها ... الى غارات ليلية شاملة على لندن . وكان هذا قرارا سياسيا وعسكريا لتدمير عزيمة البريطانيين على المقاومة بمحو عاصمتهم ، ولو نجح ذلك لما كانت هناك أية حاجة للغزو من البحر .

وفى مساء ٧ سبتمبر بدأ الهجوم الجوى الكبير على لندن ، فقتل فى الليلتين الاوليين ٨٤٤ شخصا وجرح ٢٣٤٧ ، وأصيبت العاصمة بخسائر كبرى ... واستمر الهجوم طوال الاسبوع التالى ليلة بعد ليلة ، ثم قرر السلاح الجوى الالمانى القيام بغارة نهارية كبرى على العاصمة

المحطمة المحترقة ، فدارت رحى معركة من أكثر المعارك الحاسمة فى الحرب يوم الاحد ١٥ سبتمبر ١٩٤٠ .. اشتركت فيها حوالى ٢٠٠ قاذفة المانية تحرسها ٦٠٠ مقاتلة ، وكانت المقاتلات البريطانية مستعدة لملاقاتها فاعترضت سبيلها قبل اقترابها من لندن ، وفرقت الكثير منها وأسقطت بعضها .. وعاد تشكيل ألمانى أكثر قوة من الاول ، فدحر هو الآخر .

وتبين الآن أن السلاح الجوى الالمانى لن يستطيع شن هجوم كبير ناجح على بريطانيا فى وضح النهار بعد أن منح قيادة المقاتلات البريطانية أسبوعا تسترد فيه قواها .

وفى ١٧ سبتمبر أجل الفوهرر مشروعه لغزو بريطانيا الى أجل غير مسمى ...

ولاول مرة أصيبت خطط هتلر لغزو جديد بخيبة أمل ، وظلت بريطانيا رابضة كقاعدة للغزو المحتمل للقارة من ناحية الغرب.. ولكن هتلر لم يدرك ذلك حينئذ ، اذ كانت أفكاره قد تحولت الى جهة أخرى .

اختلف اللصان !

فى خلال صيف ١٩٤٠ انتهز ستالين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى فرصة انشغال الالمان .. فزحف الى دول البلطيق والبلقان ... ومنذ ذلك الحين بدأت العلاقات بين موسكو وبرلين تزداد مرارة .. لم يكن فى استطاعة هتلر وجيوشه مشغولة فى الغرب أن يمنع الروس من احتلال لتوانيا ولاتفيا واستونيا ، بالاضافة الى اقليمين من رومانيا .. ولكن كان لابد من وقف زحف الروس الى الغرب، ولاسيما عن رومانيا التى كان الفوهرر يعتمد على بترولها اعتمادا كبيرا ...

وطالبت المجر وبلغاريا ببعض أجزاء من رومانيا ، فخشى هتلر أن تنشب الحرب فى البلقان ويحتل الروس رومانيا كلها .

وفى ٢٨ أغسطس أصبح الموقف خطرا .. فأوفد هتلر وزير خارجيته فون روبنتروب الى فينا للاجتماع بوزيرى خارجية رومانيا والمجر ويقنعهما بقبول تحكيم النازى فى الخلاف وتمت المهمة بنجاح .. ولكن هذا العمل أثار الروس الذين اتهموا ألمانيا بانتهاك الميثاق المعقود بينهما الذى يدعو للتشاور حول المسائل التى تهم البلدين ..

وازداد هتلر سخطا ، وقرر أن يجعل روسيا تركع على قدميها بأسرع مايستطاع ، وفى ١٨ ديسمبر ١٩٤٠ أصدر هتلر أمره السرى رقم ٢١

بعنوان « عملية بربا روسا » وقد بدأ بقوله : (يجب أن تكون القوات الالمانية على استعداد لسحق روسيا في حملة سريعة قبل انتهاء الحرب ضد بريطانيا .. ولابد من اتمام الاستعدادات قبل ١٥ مايو ١٩٤١) ولكن قبل تنفيذ (عملية بربا روسا) كان لابد من تأمين الجناح الجنوبي الذي يقع في البلقان . وهنا واجه الفوهرر متاعب غير متوقعة من حليفه بنيتو موسوليني

موسوليني يخدع شريكه

في أكتوبر اجتمع هتلر وموسوليني في ممـــر (برنر) .. وفي هذا الاجتماع لم يتحدث هتلر في ارسال قوات ألمانية الى رومانيا ـ التي كانت ايطاليا تطمع فيها هي الاخرى ، وعندما علم الدوتشي بذلك بعد أيام قلائل ، استبد به السخط وقال لوزير خارجيته وزوج ابنته الكونت شيانو (ان هتلر يواجهني دائما بالامر الواقع ... ولكنني سأدفع له هذه المرة بعملته نفسها

(وسيعرف من الصحف انني احتللت اليونان وهكذا يعود التوازن بيننا ..)

وفي ٢٢ أكتوبر حدد موسوليني موعد هجومه المفاجيء على اليونان في ٢٨ أكتوبر ، وفي نفس اليـــوم كتب لهتلر رسالة جعل تاريخها ١٩ أكتوبر ، ألمح فيهـا الى ماينوي عمله ولكنه جعل الموعد المحـــدد للهجوم مبهمـــا اذ خشي أن يأمره الفوهرر بالتوقف . وأحس هتلر بما يدور في رأس موسوليني فأمر روبنتروب أن يدبر اجتمـاعا عاجلا بينه وبين الدوتشي . فاقترح موسوليني أن يتم يوم ٢٨ اكتـــوبر في فلورنسا ... وعندما نزل هتلر من قطاره في ذلك الصـــباح استقبله موسوليني في اغتباط تام وقال :

ـ أيها الفوهرر ، اننا نزحف الآن لقد عبرت القوات الايطالية المنتصرة الحدود اليونانية الالبانية فجر اليوم !

فثار هتلر على هذا العمل الطائش الذي تم في أسوأ وقت من السنة ، والذي يهدد بقلب خططه في البلقان . ولم يكد الفوهرر يعود الى برلين ، حتى كانت الكارثة قـــد حاقت بجيوش الدوتشي في اليونان .. وفي خلال أسبوع تحول الهجوم الايطالي المنتصر الى انكســـار ... وزاد الموقف سوءا ان البريطانيين أرسلوا قواتهم الى الارض اليونانية نفسها فهددوا موقف الالمان في البلقان كله .

ولمواجهة هـــذا الخطر ، أصدر هتلر أوامره باعداد خطة سريعة لغزو

اليونان عن طريق رومانيا وبلغاريا. وفي الاسبوع الثالث من فبراير ١٩٤١ حشد الالمان جيشا ضخما يضم ٦٨٠ ألف جندي في رومانيا ، وفي ليلة ٢٨ فبراير عبرت وحدات من الجيش الالماني نهر الدانوب واحتلت مواقع استراتيجية في بلغاريا التي انضمت في اليوم التالي الى الميثاق الثلاثي .

أخطر قرار أصدره هتلر

لم يكن اليوغوسلافيون ذوو البأس الشديد مرتاحين كثيرا لما يحدث ، ولكن بعد التهديدات المعتادة ، وقع رئيس وزراء يوغوسلافيا ووزير خارجيتها قرار انضمام بلدهما الى الميثاق الثلاثي وقد سر هتلر كثيرا من ذلك لانه سيسهل هجومه على اليونان ... ولكن الوزيرين اليوغوسلافيين ماكادا يعودان الى بلغراد حتى نشبت ثورة شعبية قلبت الحكومة والوصي على العرش في ليلة ٢٦ مارس ، وسرعان ماعرض النظام الجديد توقيع ميثاق عدم اعتداء مع ألمانيا ، وان بدا بوضوح انه لن يقبل أن يكون ألعوبة كما يريد هتلر .

وفي خلال حماسة الاحتفالات التي أقيمت في بلغراد ، بصق بعض الجمهور على سيارة الوزير الالماني المفوض ... واعتبر هتلر ذلك اهانة شخصية له ، واستبد به غضب جارف لم يشعر بمثله في حياته . وفي غمرة غضبه وثورته ، اتخذ قرارات مفاجئة كانت كارثة تامة على مصير الرايخ الثالث .

لقد أسرع هتلر باستدعاء قواده العسكريين الى دار المستشارية للانتقام من يوغوسلافيا التي طلب سحقها دون رحمة ... وأمر جورنج بتدمير بلغراد تماما ... ثم قال لقواده ان بدء (عملية برباروسا) يجب تأجيله أربعة أسابيع . وكان هذا أشأم قرار اتخذه في حياته ... فقد أضاع بذلك فرصته الذهبية لكسب الحرب ، وقد تذكر تلك الحقيقة كل من الفيلد مارشال ولتر فون براوشتيش القائد العام للجيش الالماني ، والجنرال فرانز هالدر رئيس أركان الحرب الموهوب ، عندما فاجأهما الجليد الكثيف ، والبرودة التي تقل عن درجة الصفر كثيرا في روسيا ، قبل الموعد الذي حدداه للنصر النهائي بثلاثة أو أربعة أسابيع !

وفي فجر ٦ ابريل انقضت جيوش هتلر على يوغوسلافيا واليونان عبر الحدود من بلغاريا والمجر وألمانيا ، وتقدموا بسرعة بعد غارات وحشية

من السلاح الجوى •

ومحيت بلغراد من الوجود كما طلب هتلر ، بعد أن ظلت الغارات مستمرة عليها ليلا ونهارا طوال ٣ أيام ، فقتل ١٧ الف من المدنيين ، وجرح أكثر من ذلك ، وأصبحت العاصمة اليوغوسلافيه كتلا من الانقاض المحترقه •• وفى ١٧ ابريل استسلمت يوغوسلافيا •

ولم تستطع اليونان الصمود امام الغزو الالمانى ، فانتهى كل شىء فيها فى آخر ابريل • وبينما تشتت موسولينى فى ذلك طوال الشتاء ، نجح هتلر فى بضعه أيام من الربيع!

ولم تكن البلقان هى المكان الوحيد الذى أنقذ فيه هتلر شريكه الصغير المخذول ، بل وافق متبرما على ارسال فرقة مدرعه خفيفه الى شمال أفريقيا بقيادة الجنرال روميل بعد أن أبيدت القوات الايطالية فى ليبيا •• وهاجم روميل برقة فجأة فى اليوم الاخير من مارس ، وبعد ١٢ يوما أعاد احتلال الاقليم كله ، واحتل طبرق ووصل الى (البرديه) التى تقع على مسافة أميال قليلة من الحدود المصرية ، وبات مركز الانجليز فى مصر والسويس مهددا بخطر بالغ ، وكذلك مركزهم فى شرق البحر الابيض المتوسط • ولكن هتلر بدلا من ان يتابع انتصاره فى هذه المنطقه ، اعلن أنه أن يستطيع البت فى شن هجوم على قناة السويس وطرد الانجليز من مواقعهم هناك الا بعد اتمام عمليه بربا روسا •

لقد كان دمار الاتحاد السوفيتى يأتى أولا ••• اما كل شىء آخر فيجب ان ينتظر ! وكان هذا خطأ مدمرا فقد كان فى استطاعه هتلر بجزء صغير من قواته ان يوجه للامبراطورية البريطانية ضربة ساحقة قاتلة •••

وكان لابد الآن من اتمام غزو روسيا فى وقت أقصر مما كان مقررا اصلا خوفا من شتاء روسيا الذى هزم شارل الثانى عشر ، ونابليون ••••• أى أنه لم يعد امام الالمان غير ستة شهور لغزو بلاد شاسعة لم يسبق غزوها من الغرب قط ••

غزو روسيا

فى صباح الاحد ٢٢ يونيو تدفقت جيوش هتلر المصفحه التى [illegible] على روسيا بسرعة. وفوجىء الجيش الروسى بالغزو على طول الجبهة كلها • وفى خلال أيام قلائل بدأ عشرات الالوف من الاسرى يتدفقون ، وطوقت جيوش بأسرها • وفى أوائل الخريف ظن هتلر أن روسيا قد

انتهت حقا ، فاعلن فى ٣ أكتوبر للشعب الالمانى أن العدو فى الشرق قد سقط ولن تقوم له قائمة .

ولكن هذا التفاخر كان سابقا لأوانه ، فقد بدأ الروس فى يوليو يزيدون من مقاومتهم بصورة لم يعهدها الجيش الالمانى من قبل ، وذلك رغم الحصار وفقد أفضل الجيوش الروسية . واستمر الروس يقذفون فى المعركة بفرق جديدة لم تكن مخابرات هتلر تعرف عنها شيئا

أهداف حيوية !

ومما زاد صعوبات الجيش الالمانى تعقيدا ، نشوب أول خلاف كبير حول الاستراتيجية فى القيادة الالمانية العليا بسبب قرار اتخذه الفوهرر على الرغم من احتجاج كبار القواد .

وكانت المسألة تتعلق بمجموعة جيوش الوسط ، وهى أقوى وأنجح الجيوش الالمانية الثلاثة الاساسية ، وهل يجب أن يدفع بها مسافة ٣٠٠ كيلو متر من موضعها الحالى فى الطريق الى موسكو ، أم يجب التمسك بالخطة الاساسية التى وضعها هتلر ، وتقضى بأن تكون الدفعات الاساسية موجهة للجناحين الشمالى والجنوبى ؟

وبعبارة أخرى ... هل موسكو هى الهدف الاول ، أم أنه لينينجراد وأوكرانيا ؟

لقد ذكرت القيادة العليا لهتلر ان موسكو مصدر حيوى لانتاج الاسلحة فضلا عن أنها مركز هام للنقل والمواصلات الروسية ، فاذا سقطت فان الروس لن يحرموا من الاسلحة فقط ، بل سيكونون عاجزين أيضا عن نقل امداداتهم وقواتهم للجبهات البعيدة التى ستضعف وتنهار .

ولكن هتلر كان يصوب نظراته على أوكرانيا حيث الطعام والمناطق الصناعية ، والى آبار الزيت وراء القوقاز أما موسكو فانها تستطيع الانتظار ، وأرسل أوامره بذلك للقواد فى عبارات مهينة ، ونفذت على الرغم من كل احتجاج .

وكان الهجوم فى الجنوب نصرا كبيرا ، فقد انتهت معركة كييف فى ٢٦ سبتمبر باستسلام ٦٦٥ ألف أسير روسى ، واعتبرها هتلر أكبر معركة فى تاريخ العالم ..

واضطر هتلر بعد تردد الى أن يخضع لضغط جنرالاته باستئناف الزحف على موسكو ، ولكن الوقت كان متأخرا جدا .. وبدأ الهجوم الكبير يوم ٢ أكتوبر وأطلق عليه اسم (الاعصار) ليدمر آخر القوات

الروسية المقاتلة أمام موسكو ، ويقضي تماما على الاتحاد السوفيتي

وانطلق الزحف الالماني أول الامر كالعاصفة على طول الطريق الذى سلكه نابليون من قبل الى موسكو ، وفى ٢٠ أكتوبر كانت القوات الامامية المصفحة على مسافة ٦٥ كيلو مترا فقط من موسكو ، وبدأت الوزارات الروسية تخلي مبانيها بسرعة ولكن أمطار الخريف بدأت ٠٠ وجاءت الاوحال ، واضطر الجيش الكبير الذى يسير على عجلات الى التوقف تقريبا ، فقد غاصت كل عرباته فى الوحل ولم تستطع حتى الجرارات أن تتحرك الا بصعوبة بالغة ، وكان أثر ذلك على القوات المرهقة مروعا ٠

وبدأت عبارات الشك تتسلل الى عبارات القواد الالمان ٠٠ وتلتهمها عبارات اليأس الذى انتشر بين كل الضباط والجنود فى الميدان ٠٠ وبدأ شبح مصير جيوش نابليون يسيطر على أحلام الغزاة الالمان ٠

شتاء ٠٠٠ الشقاء

وأقبلت كثبان الجليد الكثيفة مبكرة عن موعدها اذ بدأ يتساقط في ٦ كتوبر واستمر فترة طويلة ، وبدأ البرد القارس يصيب الجنود الالمان بعد أن انخفضت الحرارة الى ٢٢ مئوية تحت الصفر ، وأثر البرد على المدافع والآلات أيضا ، فاجتاحت الرياح الثلجية كل شيء فى طريقها ٠ وأحس الجنود أن ثيابهم لاتكفيهم ، وكانوا شبه جياع ٠

ولكن موسكو كانت تبدو على وشك السقوط فى قبضة هتلر فقد وصلت جيوشه الى نقطة لاتبعد أكثر من ٣٠ كيلو مترا عن هدفها بعد أن قطعت أكثر من ٨٠٠ ميل وقال هتلر وهو ينظر الى خرائطه : « دفعة واحدة أخيرة ٠٠ وسننتصر » ٠

وتحدد للهجوم الاخير على قلب الاتحاد السوفيتى يوم أول ديسمبر ١٩٤١ ٠

ولكن الجيش الالماني الذى يضم اكبر قوة من الدبابات ركزت فى جبهة واحدة ، تعثر أمام مقاومة حديدية ٠ وفى ٢ ديسمبر تغلغلت احدى الكتائب الاستطلاعية التابعة للفرقة الخامسة والعشرين مشاة الى احدى ضواحى موسكو واصبحت على مرمى البصر من أبراج الكرملين الحلزونية ٠٠٠ ولكن بعض الدبابات الروسية طردتها فى اليوم التالى ٠٠

وفى ٤ ديسمبر هبطت درجة الحرارة الى ٣٥ مئوية تحت الصفر ٠٠ وفى اليوم التالى هبطت الى ٣٨ ٠ ٠

وقال الجنرال جودريان أن دباباته لم تعد قادرة على الحركة تماما .

وكان يوم ٥ ديسمبر يوما عصيبا توقف فيـــــه الالمان فى كل مكان من الجبهة وتحطمت آمالهـــم فى سحق روسيـا .. وفى اليوم التـــالى بدأ الجنـرال الروسى جورجى زوكوف هجومه على طول الجبهـة التى تبلغ ٣٠٠ كيلو متر امام موسكو ، وألقى فى هذا الهجوم بمائة فرقة من الجنود المدججـــين بالاسلحة المدربين على القتـــال فى البرد القارس والجليد الكثيف .

وكانت الضربة التى وجهتهـا هذه القوات مفاجئة وساحقة لم يفق منها الجيش الالمانى قط .. وظلت القوات الالمانية تتراجع طوال الاسابيع التالية والروس يواصلون اختراق جبهتهم ، وبدا أن الالمـــان سيهلكون فى جليد روســـيا . ومرت لحظات عصيبة كثيرة ، ولكن ارادة هتلر الفـولاذية ، وشجاعة الجندى الالمانى أنقذتا جيوش الرايخ الثالث من هلاك مؤكد شامل .

ولاول مرة بعد أكثر من عامين من انتصارات عسكرية متواصلة ، بدأت جيوش هتلر تتراجع أمام قوة أكبر منها ..

وتحطمت خـرافة الجيش الذى لايقهر !

الفوهرر يفى بعهده !

فى يوم الاحد ٧ ديسمبر ١٩٤١ ، وبعد ان شن زوكوف هجومه المضاد الكبير ، وقع حـــدث على الجانب الآخر للـكرة الارضية جعل الحرب الاوربية تنقلب حربا عالمية ، اذ هاجمت القاذفات اليابانية ميناء بيرل هاربور ، وفى اليوم التالى أسرع هتلر بالعودة من مقر قيـادته فى الشرق الى برلين ليفى بالوعـد الذى قطعه على نفسه حيال اليابان .

لقد فوجئت برلين بالهجوم اليابانى كما فوجئت به واشــــنطون تماما ، ولكن لاشـك ان ضربة اليابان القوية قد الهبت شـــعور هتلر واعجابه ، كما أنه ضاق ذرعا بانتقادات روزفلت لألمانيـا النـازية . ونفد صبره من الاعمـــال شبه الحربية التى يقوم بها الاسطول الامريكى ضـد الغواصـات الالمانية فى الاطلنطى ..

وفى الساعة الثانية والنصف من يوم ١١ ديسمبر أعلنت المانيا الحرب على امريكا رسـميا . وهكذا وضع هتلر نفســه امام اكبر ثلاث دول صناعية فى العالم فى صراع تعتمد فيه القوة العســـكرية الى حد كبير على القوة الاقتصادية فى المدى البعيد .

وعلى الرغم من ان حماقة هتلر فى رفضه السماح للجيوش الالمانية فى روسيا بالتقهقر فى الوقت المناسب قد أدى الى خسائر جسيمة ، فلا شك فى أن ارادته المتعصبة للاستمرار فى القتال ساعدت ايضا على عرقلة التيار الروسى الزاحف .. ففى ٢٠ فبراير فقد الهجوم الروسى قوته ، وعند نهاية مارس بدأ موسم الوحل العميق ، فجلب هدوء نسبيا الى الجبهة التى كان الطرفان مرهقين فيها .

وجاء فى تقرير للجيش الالمانى فى ٣٠ مارس ١٩٤٢ أنه لم يبق من ١٦٢ فرقة مقاتلة فى الشرق غير ٨ فرق مستعدة للهجوم ، وان الفرق المصفحة وعددها ١٦ لم يبق فيها كلها غير ١٤٠ دبابة صالحة للعمل ، وهو عدد لايكفى فرقة واحدة من الدبابات

وبينما كانت القوات تستريح وتعيد تنظيم نفسها ، كان هتلر مشغولا بمشروعات الهجوم الذى سيقوم به فى الصيف القادم ، وكان يأمل فى الفوز ببترول القوقاز قبل أن يبدأ هجوم الصيف ، وكذلك كان موقف ستالين ، وهذا هو سر معركة ستالنجراد فان احتلال الالمان لها كان كفيلا باغلاق الطريق الاخير الى روسيا الوسطى .

وكان هتلر فى حاجة الى رجال لملء الثغرات فى صفوفه بعد ان بلغت خسائره فى الجنود فى نهاية الشتاء مليونا و ١٦٧٨٣٥ قتيلا . واتجهت القيادة الى حلفاء ألمانيا للحصول على قوات اضافية . كما اجتمع هتلر بموسولينى الذى وعده بارسال المزيد من الجنود الايطاليين الى الجبهة الروسية . وفى صيف ١٩٤٢ ، وقبل الوثب على القوقاز وستالنجراد ، احرز المحور نصرا مثيرا فى شمال افريقيا ، استأنف روميل هجومه ، حتى بلغ العلمين فى أواخر يونيو على مسافة ١٠٥ كيلو مترات من نهر النيل . ولكنه بلغها ومعه ١٣ دبابة فقط ، ورفض هتلر ان يدعم قواته لانشغاله فى الجبهة الروسية .

وفى أواخر صيف ١٩٤٢ بدا ان هتلر يتربع على قمة العالم .. فقد كانت الغواصات الالمانية تغرق كل شهر ٧٠٠ ألف طن من الشحنات الامريكية والبريطانية فى الاطلنطى ، وكانت القوات الالمانية تقف متحفزة من المحيط القطبى الى مصر ، ومن الاطلنطى الى حدود آسيا الصغرى .

وتوقف الزحفان التوأمان على القوقاز وستالنجراد بفضل مقاومة الروس الصلبة ، واستمر القتال

المرير فى شـــوارع ستالنجراد طوال شهر اكتوبر ، وكان الالمان يقذفون فى اتون المعـــركة بفرق جديدة سرعان ماتتحطم ..

وفى نفس الوقت بلغت الفـــوهرر انباء أخرى سيئة .. ان قوات روميل فى مأزق ، فقدتلقى الجيش الانجليزى فى مصر امدادات قوية ، وعندما بدأ هجومه الكبير فى أواخـــر اكتوبر كان روميل فى فيينا فى أجازة مرضية ، وما كاد يعود الى جيشه حتى كانت المعركة قد خسرت فعلا ، وبذل روميل جهودا يائســة لنقل فرقه المحطمــة ليبســـدد الهجمات المختلفة عليها ، ولكنه أدرك ان موقفــه ميئوس منه فشرع فى الانسحاب ولكن هتلر أمره بالصمــــــود الى آخر رجل وآخر بندقية ! ..

وكان معنى اطاعـــة هذا الامر فناء القوات الالمـــانية والايطالية كلها .. وبعد صراع مرير مع ضميره ، أصدر روميل أوامره بوقف الانسحـــــاب ، ولـكنه بعـــد يومين قرر أن ينقـذ مابقى من قواته بسحبهـــا ، مخاطرا بتقديمه لمحاكمـــة عسكرية ، وترك المشاة واغلبهـــم من الايطاليـــين ليستسلموا ، وفى خلال ١٥ يوما كان روميـــل قد تراجع ١١٢٥ كيلو مترا وراء بنغازى .

وجاءت بعـــد ذلك مباشرة انباء أخرى أكثر ســـوءا .. لقد نزلت القوات البريطانيـــة الامريكية بقيادة الجنرال دوايت ايزنهاور على شواطىء مراكش والجزائر فى الساعة الواحدة والنصف من صباح ٨ نوفمبر ١٩٤٢ ، وارســـــل هتلر ربع مليون جندى للتمســـــك بتونس ، ولو انه بعث بخمس هذا العدد الى (روميل) قبل ذلك ببضعــة شهور ، لاجتاح ثعلب الصحراء وادى النيـــل ، ولما نزل الحلفاء فى شمال افريقيــا ، وضاعت كل فرصـــة على الحلفاء فى البحر الابيض .

وفقد هتلر كــــل دبابة ومدفع وجنـــدى بعث بها الى تونس هذا الشـــــتاء .. ومعها بقايا الفيلق الافريقى ! .

الدمار التام فى ستالنجراد

فى نفس اليـــوم الذى هبط فيه الحلفاء فى شمال افريقيـا ، اخترقت قوات روسية ضخمة خطوط المحور شمال غربى ستالنجـراد لمحاصرته واكراه الجيش الالمـــانى السادس على التـــراجع أو محاصرته ، وكان مجرد اقتـراح التراجع يثير جنون هتلر فصـــاح قائلا انه لن يترا

الفولجــــا .. ورد على الرســالة اللاسلكية التى جاءته من الجنرال باولوس قائد الجيش الســادس بأن جيشه سيزود من الجو حتى يتسنى فك حصاره ، ولكن هــذا كان كلاما عقيما ، فجيش باولوس كان فى حاجة الى ٧٥٠ طنا من الامدادات يوميا . وكان من الممكن انقاذ الجيش السادس لو ســمح له هتلر أن يشق طريقــه للخروج من المدينة المحاصرة ، ولكنه أصر على البقـــاء فى ستالنجــراد ، ورفض كل اقتراح باجلائه على الرغم من حالة اليأس والجوع التى سيطرت على ٢٠٠ الف من جنوده فيها .

وعرض الروس الاستســلام على الجنود المحــاصرين بشروط مشرفة ولكن هتلر منعهـــم من ذلك ، وبعد انتهاء المهلة المحــددة للاستسلام فى صباح ١٠ يناير بدأت المرحلة الاخيرة فى معركة ستالنجــــراد بقذائف من ٥٠٠٠ مدفع روسى .. واســـتمر القتـــال الدموى المرير الذى حارب فيه الطرفان بشجاعة وتهور وسط الخرائب والانقـــاض .. وفى خلال ســـتة أيام ، انخفض عدد القوات الالمانية فى المدينـــة الى النصف ، وفى ٢٤ يناير انقسمت الى قسمين وفقدت المطار الصغير الاخير .

وللمرة الثانية عرض الروس على عدوهم الشجاع فرصة الاستسلام ، وناشـــد الجنرال باولوس هتلر أن يسمح له بقبـوله ، ولكن هتلر منعه من ذلك وطلب اليه القتال حتى آخر رجل .. وفى مساء ٢ فبراير ١٩٤٣ انتهت هــذه المعركة الاسطورية ، وسار ٩١ الف جندى المانى حطمهم الجوع والبرد والخروج وسط الثلج والجليد فى طريقهـم الى معسكرات أسرى الحرب فى سيبريا .. وهم كل من بقى من الجيش الغازى الذى بلغ عـــدده ٢٨٥ الف رجل قبل ذلك بشهرين .

وبعــد أسر قوات المحور بشمال افريقيــا فى أوائل مايو ١٩٤٣ ، بدا بوضوح ان جيوش ايزنهاور سوف تتحول الى ايطاليا نفسها .. وكان موسولينى فى ذلك الحين مريضا ، خائب الامل ، وقد انتشر دعاة الهزيمة بين شعبه ، وبدأ النظام الفاشى يترنح بسرعة ، وتبع غــزو الحلفاء لتونس نزول القوات الانجليــزية الامريكية الناجح فى صقليــة يوم ١٠ يوليو . ولم يكن الايطاليون راغبين فى القتال عن ارض بلادهــم ذاتهــا ، وسرعان مابلغت هتلر أنبــاء انهيار الجيوش الايطالية ، وان موسولينى أصبح فى

حالة سيئـــة من التعب والارهاق والشيخوخة المبكرة .

وفى ٢٥ يوليو استدعى موسولينى الى القصر الملكى ، حيث أقاله الملك ، ونقل بعد اعتقاله الى ادارة البوليس فى ســـيارة اسعاف دون ان تطلق رصاصة واحـدة ، ولم يرتفع صوت واحد دفاعا عنه ، بل ساد السرور العـــام انحاء ايطاليا لسقوطه ، وانهارت الفاشية بالسهـــولة التى نشـــأت بها . . وشكل المارشال بادوليـــو حكومة غير حزبية من الجنرالات والموظفين المدنيين ، وأعلن حل الحزب الفاشى .

ونزلت قوات الحلفـــاء فى كعب الحـــذاء الايطالى يوم ٣ سبتمبر ، وبعد خمســة ايام اعلنت الهدنة بين ايطاليـــا وحلفاء الغرب ، واصبح موقف القـــوات الالمانية فى جنوب ووسط ايطاليـا حرجا خلال يوم أو يومين ، فقد كانت هناك خمس فرق ايطالية تواجه فرقتين المانيتـــين فى ضواحى روما . . ولو ان اســطول الغزو المتحالف الذى ظهر قرب نابولى يوم ٨ سبتمبر تحـرك شمالا وانزل رجاله قرب العاصمة لضاعت سبع فرق المانيـــة وايطاليـــة . . ولكن الجيوش المتحالفة نزلت جنوب نابولى ، واستسلمت القوات الايطالية دون ان تطلق رصاصـــة واحدة ، وقد اتاح هذا للالمان الاستيلاء على ثلثى ايطاليا بما فيها الشمال الصناعى الذى كانت مصانعه تنتج أسلحة للالمان . .

وقام هتلر بضربة جريئـة عندما خطف موسولينى من آسريه الايطاليين ، وجعله رئيس حـــكومة لجمهورية ايطالية فى المنفى .

وفى ٥ يوليو ١٩٤٤ شن هتلر هجومه الكبير الاخير ضد روسيا ، ألقى فيه بزهرة الجيش الالمانى وعددهم حوالى نصف مليـــون رجل ، ضد النتوء الروسى الكبير غرب «كورســـك» ، ولكن القوات الالمانية أصيبت بهزيمة حاسمة ، فقـــــد كان الروس على استعداد لهـــذا الهجوم . وفى ٢٢ يوليو توقف الزحف الالمـــانى تماما وبدأ يتـــراجع وشن الروس هجوما مضادا سرعان ماشمـــل الجبهة كلها . . وســـــقطت خاركوف فى ٢٣ اغسطس ، وبعد يومين طرد الالمان من سمولنسك التى تقع على مسافة ٥٠٠ كيلو متر الى الشمال الغربى .

الغزو والثورة

فى ٦ يونيو ١٩٤٤ تسلل اسطول هائل للحلفاء عبر بحر المانش فى جو ظن الالمان إنه لايســمح قط بمحاولة

الغزو ، وبدأ الاسطول ينزل ألوفا بعد ألوف على شواطىء نورماندىا ، وفوجىء الالمان بهذا الغزو . فاستطاع الامريكيون والانجليز تثبيت اقدامهم على ثلاثة شواطىء وتغلغلوا مسافة تتراوح بين ٢ و ١٠ كيلو مترات داخل فرنسا .

وتدخل جنون هتلر مرة أخرى ليزيد من وقع الكارثة . فقد قرر ان يقتصر حق استخدام فرق «البانزر» في الجبهة الغربية على اذنه هو وحده . وعندما التمس القواد السماح لهم بارسال فرقتين للدبابات الى نورماندىا بسرعة ، رفض الجنرال يودل ، وذهب هتلر الى فراشه ولم يستطع أحد ازعاجه حتى الساعة الثالثة بعد الظهر ، وعندما استيقظ ووافق على ارسال الفرقتين كان الوقت متأخرا جدا .

ودعم الحلفاء مراكزهم بعد ان اخترقوا جدار الاطلنطى ، وطردوا السلاح الجوى الالمانى من الجو والاسطول الالمانى من البحر ، ولكن المعركة لم تنته بعد ..

وفى هذا الحين ، دبرت جماعة من الضباط مؤامرة للاطاحة بهتلر فى حركة يائسة قبل ان يجرف المانيا معه الى الهاوية .. وكان نزول الحلفاء الناجح على شاطىء نورماندىا سببا فى اشاعة الارتباك فى صفوف المتآمرين ، فقرروا اغتيال هتلر بأى ثمن ليثبتوا للعالم ان رجال المقاومة الالمان اقدموا على خطوة حاسمة وخاطروا بأرواحهم لتخليص بلادهم من الطاغية .

وفى ٢٠ يوليو نجح الكونت فون ستوفنبرج وهو ضابط برتبة لفتنانت كولونيل فى تهريب قنبلة الى مقر قيادة الفوهرر فى بروسيا الشرقية خلال اجتماع على مستوى عال ، وصدرت الاوامر لبقية أعضاء المؤامرة ببدء ثورة شاملة فى برلين .

وفى الساعة الثانية عشرة والدقيقة ٤٢ انفجرت القنبلة فنسفت الثكنات التى عقد فيها الاجتماع ، وتطايرت انقاضها فى الهواء ، وقذف الانفجار بكثير من الجثث من النوافذ ، ولكن هتلر لم يقتل ، وان كان قد اصيب بهزة عنيفة ، واحترقت ساقاه وأصيب فى ذراعه اليمنى بشلل مؤقت ، كما أوشك شعره أن يحترق كله ، وخرج من بين الانقاض فى صورة لايكاد يعرفه بها أحد !

وفشلت الثورة التى تم اعدادها فى برلين بعناية ودقة بسبب نجاة هتلر اذ خاف الكثيرون الانضمام اليها بعد ان علموا أنه مازال حيا ..

وبلغ غضب الفوهرر ونورته على المتآمرين حد الجنون ، فأمر بموجة جارفة من الاعتقالات ، تبعها تعذيب وعنف ومحاكمات صورية ، واحكام بالاعدام بلغ عددها كما ذكرت بعض المصادر ٤٩٨٠ .

الهجوم الاخير

لم يكد هتلر يشفى من صدمة القنبلة حتى واجه ضياع بلجيكا وفرنسا ، وغزوات الروس الكبرى القادمة من الشرق .. ففى منتصف ١٩٤٤ وصلت القوات الروسية الى حدود بروسيا الشرقية واخترقت فنلندا ، وبعد ستةأسابيع وقفت امام وارسو ، بينما شن الروس هجوما جديدا فى الجنوب أدىالىغزورومانيا وحقول بترولها . وفى ٢٦ أغسطس انسحبت بلغاريا منالحرب رسميا ، وفى الشهر التالى انسحبت فنلندا وانقلبت على القوات الالمانية التى رفضت الجلاء عن اراضيها .

وفى أواخر اغسطس فقدت الجيوش الالمانية فى الغرب نصف مليون رجل ، وكل دباباتها ومدافعها وسيارات النقل تقريبا ، فلم يعد مايكفى للدفاع عن المانيا ذاتها ، واعتبر المارشال رونشتد ان الحرب قد خسرت فى سبتمبر ١٩٤٤ .

ولكن هتلر لميعترف بذلك ، فقد كان يعد هجوما كبيرا جديدا من جبهة «الاردين» حيث بدأ الغزو الكبير لفرنسا سنة ١٩٤٠ فقد عرفت المخابرات الالمانية انه ليس هناك غير ٤ فرق امريكية خفيفة للدفاع عنها .

ولكن كانت هناك نقطة ضعف واحدة فى هذا الهجوم .. وهى ان الجيش الالمانى الباقى أصبح اضعف وأقل عددا وموارد مما كان فى سنة ١٩٤٠ ، وحاول كبار الضباط معارضة خطة هتلر ، ولكنه أصر عليها ، فاضطروا الى تنفيذها وهم يؤمنون فى قرارة نفوسهم بفشلها .

كانت ليلة ١٥ ديسمبر حالكة الظلام شديدة البرودة ، والضباب الكثيف يطوى التلال الوعرة التى يكسوها الجليد فى غابة « الاردين » عندما تحرك الالمان الى مواقعهمالمعدة لشن الهجوم .. وفاجأت قواتهتلر القيادة العليا للحلفاء مفاجأة تامة ، واحرزت عدة انتصارات بعداختراقها للجبهة الاولى فى ١٠ ديسمبر ،ولكن الموقف مالبث ان تحول لصالح الحلفاء بعد أن صفا الجو واستطاعت طائراتهم ان تشن هجمات شاملة على خطوطالالمان ، واصبحت المسألة

الآن هى محاولة اخراج قواتهم من الممر الضيق قبل أن تحاصر وتتم ابادتها .. ولكن هتلر رفض مرة أخرى أن يصغى لاى طلب بالانسحاب

وجاءت النهاية سريعا للرايخ الثالث فى ربيع ١٩٤٥ .. ففى ٨ فبراير بدأت جيوش ايزنهاور زحفها على الراين ، وكان هتلر قد اصبح انسانا محطما منهارا ، فقد كل سيطرته على نفسه ، وازدادت ثوراته الهستيرية بسبب الانباء السيئة القادمة من مختلف الجبهات .

وفى ١٦ ابريل ، وهو اليوم الذى وصلت فيه القوات الامريكية الى نورنبرج ، انطلقت جيوش زوكوف الروسية من رؤوس جسورها على نهر الاودر . وبعد ظهر ٢١ ابريل بلغت ضواحى برلين .. وبعد اربعة أيام قابلت دوريات الفرقة ٦٩ من المشاة الامريكيين العناصر الامامية للفرقة ٦٨ من الحرس الروسى عند بلدة (تورجو) على نهر الالب على مسافة حوالى ١٢٠ كيلو مترا جنوبى برلين .. واصبح شمال المانيا وجنوبها مقطوعين ، وهتلر محصورا فى برلين

زواج على رقصة الموت !

فى ٢٥ ابريل وصلت ايفا براون الى برلين لتلحق بهتلر ، وكان هتلر حريصا من قبل على اخفائها عن كل العيون مع انها كانت عشيقته منذ ١٢ عاما ..

وكان الجو فى مخبأ دار المستشارية فى برلين أشبه بمستشفى للمجاذيب بعد ان ادرك هتلر الحقيقة المفزعة ، وهى ان عاصمة الرايخ على وشك السقوط فى أيدى الروس الذين أعلن منذ سنوات أنه حطم جيوشهم تماما .. وفى ٢١ ابريل أمر بشن هجوم مضاد شامل على الروس فى ضواحى برلين يلقى فيه بكل جندى يمكن الحصول عليه ..

وانقطع اتصال هتلر بالعالم الخارجى فيما عدا بعض اتصالات لاسلكية بوزرائه ، والمعلومات التى كان البعض يستطيع تهريبها اليه من خلال حصار الروس .. وكان أقسى نبأ سمعه هتلر فى مخبئه يوم ٢٨ ابريل ، هو النبأ الذى أذاعته الاذاعة البريطانية عن عرض هيملر استسلام الجيوش الالمانية فى الغرب للجنرال ايزنهاور ، وقال هتلر يومئذ ان هذه اسوأ خيانة شهدها فى حياته .

وضاعف من أثر الصدمة أنباء اقتراب الروس من ميدان بوتسدام الذى يقع على مسافة شارع واحد من المخبأ الذى يقيم فيه هتلر واستعدادهم للانقضاض على مبنى

المستشارية فى صباح ٣٠ ابريل •
كانت تلك هى علامة النهاية •• التى أكرهت هتلر على اتخاذ آخر قرار فى حياته •

وفى صباح ٢٩ ابريل وافق هتلر على اجابة رغبة ايفا براون الاخيرة ، وعقد زواجه عليها رسميا ، وبعد حفل القران تناول هتلر وحاشيته طعام الافطار فى جناحه الخاص ، ودار الحديث عن ذكرى الايام السابقة المجيدة •• وبعد الحفل تسلل بعض الضيوف الى غرفهم والدموع تتساقط من مآقيهم ، وأخيرا توجه هتلر الى غرفة مجاورة واستدعى أحد سكرتيريه وبدأ يملى عليه وصيته الاخيرة •

وبعد الظهر تلقى هتلر فى مخبئه نبأ وقوع موسولينى فى أيدى الوطنيين الايطاليين واعدامه مع عشيقته بطريقة مهينة ، فقرر ألا يلاقى هو وايفا براون مثل هذا المصير •

وفى ظهر ٣٠ ابريل جاءت الانباء بأن الروس أصبحوا على مسافة يسيرة من مبنى المستشارية ••• وهكذا حانت لحظة تنفيذ قرار هتلر الاخير

وأنهى هتلر وايفا وداعهما الاخير، ولجأ الى غرفتهما •• بينما وقف جوبلز وبعض الحاشية ينتظرون فى الممر القريب •• وبعد دقائق سمعوا طلقة مسدس ، انتظروا سماع طلقة أخرى ، ولكن الصمت ساد المكان •

وبعد فترة مناسبة دخلوا الغرفة ، فوجدوا جثة أدولف هتلر ملقاة فوق أريكة والدماء تقطر منها ••• وكان الفوهرر قد أطلق النار فى فمه ••• ورقدت الى جواره ايفا براون التى ابتلعت سما ورفضت أن تستخدم مسدسها كهتلر •

وهكذا رحل هتلر عن العالم فى الساعة الثالثة والنصف من بعد ظهر الاثنين ٣٠ ابريل ١٩٤٥ - أى بعد احتفاله بعيد مولده السادس والخمسين بعشرة أيام، وبعد ١٢ عاما و ٣ شهور من اليوم الذى اصبح فيه مستشارا للرايخ الثالث •

ووسط اصوات القذائف الروسية التى كانت تسقط فى حدائق دار المستشارية ، حملت الحاشية جثتى هتلر وايفا ، حيث وضعتا فى حفرة خلفتها احدى القنابل وسكبت عليهما بعض البنزين ، ثم أشعلت النيران فى الجثتين •



كانت فتيات جامعة كاليفورنيا يرتدين ثيابا قصيرة جدا ، حتى لقد تضايق احد الاساتذة العصبيين أخيرا وقال لهن :
- ارجعن قليلا الى الوراء ، أو اتركن الفصل الى أن اصبغ الجزء الاسفل من نظارتى باللون الاسود !


العبقري الأحدب
ساحر الكهرباء

ساحر الكهرباء

تلخيص كتاب
The Hunchbacked Genious of the Liberty Hall
بقلم فلويد ميللر

كان شتانيمتز العظيم معروفا لدى الجمهور بانه عبقرى غريب الاطوار ارتاد أسرار الكهرباء ومجاهلها ، واستطاع بعمله ان يسعد حياة الوف الملايين من الناس فى انحاء العالم ..

ولكن هذه القصة الانسانية المؤثرة تتغلغل الى ما تحت سطح هذا الرجل الذى عرف باسم « ساحر الكهرباء » ، لتكشف عن انسان وحيد كان يبحث عن الحب الانسانى ..

لقد حنى شتانيمتز راسه للقدر الذى كتب عليه ان يكون قزما مشوها ولكنه كان ماردا فى عقله وقلبه ..

قطب ضابط الهجرة الامريكى جبينه وهو ينظر الى الشخص التالى فى الصف الذى يقف أمامه .. كان ذلك فى يونيو ١٨٨٩ ، وقد انتهت السفينة الفرنسية (لاشمبانى) لتوها من افراغ شحنة جديدة من المهاجرين ، وبدا أكثرهم متعبا بعد الرحلة المرهقة التى قطعوها أما هذا المهاجر فكان مظهره لايوحى بأى أمل بصفة خاصة .

كان قزما لا يزيد طوله على ١٥٠ سم ، هزيل الجسد ، يشوه مظهره حدبة كبيرة فوق ظهره ورأس كبير الحجم يعلوه شعر أشعث ووجه منتفخ نتيجة برد شديد أصاب رأسه .

وكانت عويناته التى استقرت فوق أنفه تهتز مع كل نوبة سعال ..

وسأله الضابط بفظاظة :

ـ ما اسمك .. ؟

فقال الرجل الضئيل الحجم :

ـ كارل أوجست رودلف شتانيمتز

ـ المهنة .. ؟

فأجاب بالالمانية :

ـ عالم فى الرياضيات وباحث ..

ـ أمعك أية نقود .. ؟

فلم يجب ، ولكن ثيابه الرثة البالية

نابت فى الرد عنه ..
ــ هل تتحدث الانجليزية .. ؟
ــ قليلا ..
فزمجر ضابط الهجرة قائلا :
ــ لا انجليزية .. ! ألديك أى عمل فى أمريكا .. ؟
ــ كلا ..
واتجه الضابط الى رئيسه لاستشارته .. وقال له :
ــ انه لايعرف الانجليزية ، وليس معه نقود ولا عمل له .. فضلا عن أنه عليل .. وأحدب ..
وهز رئيسه رأسه وقال :
ــ امنعه من الدخول ..
وأشار موظف الهجرة لشتانيمتز نحو باب كتب عليه بخمس لغات : (غرفة الحجز) .
واتجه الاحدب الهزيل نحوه وهو يدب على ساقيه النحيلتين .. كان يعرف أن معنى هذا هو الابعاد ، وشيء أكثر من ذلك بالنسبة له .. هو السجن ..
لقد هرب من جامعته فى (بريسلاو) بألمانيا فى منتصف الليل بسبب نشاطه السياسى المعادى لحكومة المستشار الحديدى بسمارك ، ونجا من الاعتقال بصعوبة، فقد كان بوليس بلاده يجد فى أثره .. وبينما كان فى منتصف الطريق الى غرفة الحجز اذ سمع صوتا يناديه :
ــ كارل .. كارل .. الى أين انت ذاهب .. ؟
وما لبث أن هرع نحوه زميله فى السفر (أوسكاراسموسن) الدنمركى الاشقر الضخم الجثة ، وكان هذا الرجل هو الذى أقنعه بالحضور الى أمريكا ودفع بنفسه نفقات الرحلة .
وهز شتانيمتز كتفيه وقال :
ــ سوف يبعدوننى ..
فانفجر الدنمركى قائلا :
ــ هراء .. سنغير ذلك سريعا ..
واخذ اسموسن يتحدث الى موظف الهجرة .. لقد كان يتمتع بميزات كثيرة على صديقه الالمانى الضئيل الحجم ، فقد كان يتحدث الانجليزية بطلاقة ، وكان وسيما أنيقا .. ومعه نقود .. وبعد مناقشة قصيرة انقلب الحال . وسمح لشتانيمتز بدخول أمريكا ..
وبعد دقائق وجد شتانيمتز نفسه مع صديقه فى أحد شوارع مانهاتن ، فسأله فى دهشة :
ــ ماذا قلت لهم ؟
فاخرج أسموسن رزمة ضخمة من الاوراق المالية ولوح بها قائلا فى مرح :

ـ لقد قلت لهم أنك عالم المانى غني ومشهور ، وأنني أحفظ أموالك معي .. !

لقدكان لهذه الخدعةالصغيرة التي أبقت شتانيمتز وعبقريته الفذة لامريكا آثار لا تحصى على نمو صناعة الكهرباء الوليدة فى تلك البلاد،فضلا عن انها حلت المشكلات التى كانت تواجه شتانيمتز فى ذلك الحين ، وأولاها حاجته الماسه الى عمل .

شتانيمتز يغير اسمه

كفل أقارب اسموسن فى بروكلين مكانا لاقامه شتانيمتز ، فاخذ يحاول الالتحاق ببعض الورش للعمل فيها كمهندس كهربائى ، ولكن الرد كان دائما بالرفض .. وعندما ذهب الى مصنع توماس اديسون فى نيوجرسى رفضه رئيس العمال قائلا أن هناك وباء من الكهربائيين اجتاح أمريكا أخيرا ..

لقد أغلقت كل الابواب فى وجهه ، لا لندرة الاعمال أو لانه كان أجنبيا مشوه الجسد ، بل بسبب هزاله وضعفه قبل كل شيء ، فقد كان أصحاب الاعمال يلقون عليه نظرة واحدة متشككة ثم يقررون أنهأضعف من أن يتحمل العمل الشاق .

وأعطاه صديق رسالة توصية الى (رودلف ايكماير) الذى يمتلك مصنعا فى يونكرز لانتاج آلات صناعةالقبعات

وقدم الاحدب الصغير رسالة التوصية الى ايكماير الذى كان طويلا ضخم الجثة ، ذا لحية تكسبه وقارا .. وتحدث الرجلان اللذان كان التناقض بينهما كبيرا فى المظهر ، فاذا بهما يتشابهان كثيرا فىالعقول والقلوب .. فقد كان ايكماير قد اصطدم هو الآخر فى شبابه مع حكومة المانيا ، واضطر للفرار من الجامعة الى العالم الجديد ، وكان يشاطر شتانيمتز سخطه على بسمارك وخياله فى عالم حر خال من الحروب والدكتاتورية .

وبعد ساعتين من الحديث عن السياسة والادب والفلسفة حصل شتانيمتز على وظيفه رسام بمرتب ١٢ دولارا فى الاسبوع .

وعندما قدم طلبا للتجنس بالجنسية الامريكية توقف قليلا أمام المكان المخصصلاسمه . وأخيرا كتب (تشارلس بروتيوس شتانيمتز) . فاذا كان عليه أنيصبح آمريكيا فلابد له من أن يختار اسما أكثر امريكية من (كارل) .

عبقرية تظهر

كان رودلف أيكماير نفسهمخترعا متوقد الذكاء ، وهو نفسه مخترع آلة

صناعة القبعات التي يتولى انتاجها ، وقد أثرى من صناعتها ، ولكن جانبا كبيرا من اهتمامه كان موجها الى المحركات الكهربائية في الوقت الذي جاء فيه شتانيمتز ، وسرعان ما أمر بنقل شتانيمتز من مكتب الرسامين وأعطاه معملا صغيرا وكلفه بالعمل في المشروع الجديد ، وكان ايكماير يحاول تحسين محرك ضخم للترولي ولكن كل النماذج التي صنعها تقريبا كانت حرارتها ترتفع وتتوقف عن العمل ، وكان سبب هذه المشكلة هو أثر القوى المغناطيسية على قلب المحرك الحديدي ، ولم تكن القوانين التي تحكم هذا الاثر معروفة على الاطلاق ، بل ان كثيرين من المهندسين كانوا يشكون حتى في وجودها ، وكان الاجراء الوحيد الممكن يومئذ هو بناء محرك حتى اذا زادت حرارته ، قاموا بتفكيك أجزائه ، وأعيد بناؤه من جديد أملا في الوصول الى محرك أفضل ، ولكن الانتاج بالجملة كان شيئا مستحيلا في مثل تلك الظروف .

وعالج شتانيمتز المشكلة ، وراح يوالى جمع بيانات شاملة عن كل المواد المغناطيسية المعروفة في ذلك الحين ، ثم أخذ يرسم ويحسب بلا انقطاع .

وقد استغرق التقرير الذي انتهى اليه هذا البحث بعد حوالى عامين ، ٢٠٠ صفحة من العمليات الحسابية أكثرها عسير الفهم ، ولكن شتانيمتز وجد ماكان يبحث عنه ، وهو القانون الثابت الذي يحكم ضياع القوى بتبديل المغناطيسيه وأسماه القانون الهيستيرى ..

ولم يكن مثل هذا الكشف ليثير اهتمام الجمهور العادى ، ولكنه عندما قرأ القسم الاول من بحثه أمام معهد المهندسين الكهربائيين الامريكيين في يناير ١٨٩٢ أحدث هزة كبرى .. فقد قدم شتانيمتز بصوته المرتفع وكلماته الانجليزيه المتعثرة ، لهؤلاء العلماء القانون الذي كان الكثيرون منهم يبحثون عنه منذ سنوات ، وهو القانون الجوهرى بالنسبة لعملهم ، واستطاعوا بفضله تصميم محركات كهربائية وانتاجها بالجملة . وسرعان ما أشاد الجميع بشتانيمتز واعترفوا بعبقريته الرياضية الفذة .. وكان شتانيمتز يومئذ في السابعة والعشرين من عمره .. !

واشتهر شتانيمتز بعد ذلك برقة قلبه وغرابته وشذوذه .

ولم يكن أقل من ذلك غرابة مفاوضاته مع شركة (جنرال الكتريك)

فان هـذه الشركة التى تكونت بعـد وصـوله الى أمريكا بثلاث سنوات ، عقدت العزم على استخدام أفضـل العقول فى ميدان الصـناعة ، وسمع المسئولون فى الشركة عن هذا العالم الرياضى الشاب الذى يعمل مع ايكماير فاوفدوا اليـه مستر رايس الصغير (الذى أصـبح مديرا للشركة فيما بعد) ليقدم تقريرا عن مدى صلاحيته للعمل فى الشركة .

وكتب رايس فيما بعد يقول :

« لن أنسى أبدا لقاءنا الاول ، فقد أحسست بالذهول وخيبة الامل الى حد ما بسبب المنظر العجيب لهـذا الجسد الضئيل الهزيل الذى يعلوه رأس ضخم ، والسيجار الطويل الذى يتدلى من فمه ، والسترة الصوفية العتيقة التى يرتديها ، وكان يجلس متربع الساقين فوق مائدة العمل فى المعمل ، ولكن خيبة أملى ما لبثت أن اختفت تماما فى اللحظـة التى بدأ يتحدث فيها ، فقد أحسست على الفـور بتلك القوة الغريبـه لعينيـه النفـاذتين اللتـين تفيضـان حنانا وحماسة ، وأفكاره الممتلئة ثقةوقوة، وادراكه العجيب للمشكلات الهندسية »

وبناء على توصية رايس ، عرضت شركة جنرال الكتريك على شتانيمتز وظيفةهامة وتسهيلات كبرى للابحاث وابتهج الرجل الضئيل الحجم فى مبدأ الامر بهذا العرض ، ولكنه ما لبث أن اعتذر من عدم قبوله آسفا بعدأسبوع واحـد ، قائلا ببساطة : « ان مستر ايكماير لا يريد أن يتخلى عنه » .

وقال رايس :

ــ اننا على استعداد للمسـاومة يامستر شتانيمتز . . ويمكننـا أن نرفع مرتبك أكثر من عرضنا الاول . فما رأيك فى ألفى دولار أخرى . . ؟

فقال : ليس للنقـود أى دخل فى رفضى هذا . ولو أعطيتمـونى عشرة أضـعاف هذا المرتب فلن يغـير من الامر شيئا . لقـد أتاح لى ايكماير عملا عندما كنت فى حاجة ماسة اليه، فاذا كان فى حاجة الى الآن فمن واجبى البقاء معه . . اننى آسف . .

ولم يسـتسلم رايس لذلك ، بل أوفد اثنين من المسئولين فى الشـهر التـالى الى (يونكرز) لفحص دفاتر ايكماير وتحليل براءات اختراعاته . . وأخيرا ابتاعت شركة جنرال الكتريك شركة ايـكماير بأسرها ، ونقـلت شتانيمتز الى مصنعهـا الجـديد فى (شتكتادى) . .

لقدكانت تلك هى الطريقةالوحيدة للحصول عليه .

وبعد هذه الخطوة التى تمت فى ١٨٩٣ أمضى شتانيمتز الاعوام الثلاثين التالية فى (شنكتادى) يكافح اسرار الكهرباء ، وقد ارتاح لعمله الجديد وتسهيلات البحث الكثيرة التى أتيحت له ، فراح يعمل بنشاط عنيف ، وسرعان ما اصبح الركن الاساسى فى فريق المهندسين اللامعين بالشركة ، والشعلة التى تلهب الحماسة فى قلوب الجميع ، وتدفعهم لبذل الجهد اللازم لتحقيق المستحيل

كان على حق دائما فى خيالاته وتقديراته التى لا تخطىء ، حتى لقد أصبحت ادارة الشركة تشير اليه باعتباره (المحكمة العليا) فى كل خلاف أو رأى ، وكلما اراد أحد المهندسين البدء فى مشروع جديد يقولون له : « اذهب الى المحكمة العليا ... فاذا قال شتانيمتز آنه سينجح ، فسنعطيك المال اللازم له » .

انقلاب فى التيار المتغير

كان من أعظم الانتصارات التى حققها شتانيمتز اختراع خطا بصناعه الكهرباء خطوات كبرى للامام ، وقد توصل اليه بعد عمله بشركة « جنرال الكتريك » بوقت قصير ... فقد كانت الكهرباء الوحيدة التى يمكن الحصول عليها يومئذ هى التيار المباشر الذى كان يتدفق فى اتجاه واحد فقط ، وله خواص مستمرة ومن السهل التحكم فيه ، ولكن كان له عيب كبير واحد ، وهو أنه لايمكن نقله لاكثر من خمسة كيلومترات ، وكان هذا عائقا يمنع انتشار الكهرباء فى كل انحاء الولايات المتحدة .

وكان شتانيمتز يؤمن بأنه من الممكن حل مشكلة نقل التيار باستخدام التيار المتغير بينما كان أكثر المهندسين الكهربائيين لايؤمنون بذلك .

وأخيرا أعلن شتانيمتز انه حل المشكله باستخدام الرياضة البحتة ، وكان عملا محيرا ، بلغ من تعقيده أن عددا قليلا من زملائه استطاع أن يفهمه فى مبدأ الامر ، وقد ملأ شرحه الكامل لنظريته عن تعقيدات التيار المتغير فى النهاية ثلاثه مجلدات لم يظهر آخرها الا فى عام ١٩١٧ .

وقد شك الكثيرون من المهندسين فى نجاح نظريته فى التطبيق العملى ولكن الشركة قررت اختبارها ، وفى عام ١٨٩٤ قامت ببناء مولد للتيار المتغير بشلالات نياجارا لمعرفة قدرته على نقل التيار الى « بافالو » التى تقع على مسافة ٤٢ كيلو مترا ، وقد نجح المولد فى توليد الكهرباء اللازمة لمدينة كبرى لاول مرة من مسافة لم يسمع

عنها من قبل ••• وهكذا تلاشت كل معارضة من أنصار التيار المباشر ، وسرعان ماانقلت الكهرباء آلوف الكيلو مترات ، وبدأت عملية كهربة البلاد كلها

قاعة الحريه

بعد أن أدركت الصحف أهمية هذا العمل بدأت تجعل من شتانيمتز شخصيةشهيرة ، ووضعته فى مصاف أديسون وماركونى وبل • ومنحته الشركة الحرية المطلقه لاجراء أى بحث يقع عليه اختياره

كان شتانيمتز يعيش خلال السنوات الاربع الاولى التىقضاها فى (شنكتادى) فى غرفه مفروشةباحد المساكن المؤجرة ، ولكنه استأجر فى عام ١٨٩٧ بيتا كئيبا من الطراز الفيكتورى يتكون من ثلاثه طوابق ، وأنشأ فيه معملا كاملا ليستطيع أن يواصل أبحاثه فى أيةساعة ، وأحضر معه بعض المهندسين غير المتزوجين الذين أصبحوا من اصدقائه

وأنكر شتانيمتز على نفسه كلحق للزواج ، فقد كان الجيل الثالثالذى أصيب بالعاهة التى تستقر فوقظهره من بين أفراد أسرته ، ومن ثم فقد اقتنع بعدم تجربه حظه حتى لاينقل هذه النكبة الى أطفاله ، وقرر أن يجعل نفسه آخر فرد فى أسرته •

ولعل قسوة هذا المصير كان لها أثر فىاختياره للحيوانات التىاحتفظ بها فى بيته « قاعه الحرية » اذ كان بيته يحوى بعض المخلوقات العجيبة سحليه كبيرة الحجم وبعض التماسيح الامريكية ، بالاضافة الى مجموعة كئيبة من نبات الصبار والسرخس•• وكان هناك غرابان يستقران على كتفى شتانيمتز بمجرد عودته الى المنزل ، وقد أطلق عليهما اسمى جون ومارى

الرجل الذى حضر للعشاء !

فى عام ١٩٠١ ، بعد أن قضى فى (قاعة الحرية) خمس سنوات ، اشترى شتانيمتز قطعه أرض بشارع ويندل الذى يقع عند أطراف المدينة، ثم بنى منزلا فيها ، بدأه باقامة معمل من طابقين ، وقد أنفق عليه بسخاء ، حتى أصبح يقضى كل أوقات عمله هناك •

ولما كانت شركة «جنرالالكتريك» تدرك أنشتانيمتز منأكبر أرصدتها، فقد أصبحت تهتم كثيرا بصحابه والطريقة التى يعمل بها دون هوادة ، وحاولت الشركه الحرص على قواه فأحاطته بستة من المساعدين فى المعمل ، من بين صغار خريجى كليات الهندسة ، وكانوا مكلفين بانجاز

الابحاث الروتينية التي يقوم بهـا ، واعداد الأجهزة التي يطلبها ،وتنظيف المعمل ، وتزويده بكل مايحتاج اليه، والقيام بكل عمل يكلفهم به •• وكان المهندسون الصغار يعملون فيحماسة واخلاص ، وقد أحبوه الى حد العبادة وأحبهم هـو الآخـر ، وكان هنـاك مهندس صغير يشعر بمحبة خاصـة حيـال شتانيمتز ، وهـو « جوزيف ليروى هايدن »

وظلا طوال عامين كاملين يعمـلان معا فيانسجام وصنه وثيقه متزايدة، وعندما كشف شتانيمتز عن مشروعه لاقامة بيت خاص على الارض المجاورة للمعمل ، ساعده هايدن على تنفيـذ مشروعه ، وارتفع المنزل الجديد ثلاثة طوابق على الطراز السـائد في عصر اليزابيث ، وكان أضخم من أن يؤوى رجلا واحدا فقط ••

وفي أحد أيام ابريل سنه ١٩٠٣، أعلن هايدن أنه قرر الزواج من فتاة يعرفهـا تدعي « كورين روسـت » وطلب أجازة لمدة اسبوع لقضاء شهر العسل فوافق شتانيمتر ••

وقال هايدن مطمئنا رئيسه :

ـ لقد طلبت من كورين أن تبحث لنـا عن مسكن قريب من المعمل حتى لايؤثر ذلك على عملنا معا ••

فابتسم شتانيمتز وحني رأسه في ذهول !

وتزوج هايدن في مايو ، وأمضى أسبوع العسـل مع عروسـه ، وفي أمسـية أول يوم لعودتهمـا ، توجـه شتانيمتز الى مسكنهما الجديد ••• ورحب هايدن برئيسه ترحيبا بالغا ، وجلسا يتناقشان في بعض التجارب التي أجـراها شتانيمتز خلال غيـاب العروسـين ، وانهمـك الاثنـان في المناقشـة حتى نسـيا كل شيء عن الوقت •• حتى غابت الشـمس ، وأخيرا قاطعتهمـا العروس في حـدة قائلة :

ـ حان وقت العشاء •

ونظـر شتانيمتز الى ساعتـه ثم وقف مغمغما :

ـ لم أكن أدرى أننى بقيت كلهذا الوقت •

ودعاه هايدن لتناول العشاء معهما ••• ومع أن هذه الدعوة قد أزعجت العروس التي كانت تريد قضاء أول ليله في مسكنها الجديد مع زوجها ، فانهـا اضـطرت للاذعان ••• وفي خـلال الطعـام استأنف الرجـلان محادثاتهما العلميه دون أنيوجها اليها كلمه واحدة •••

وكانت تلك الامسية مثـالا لكل

الامسيات التاليه ، فقد أصبح تقليدا ثابتا أن يتناول شتانيمتز عشاءه معهما كل ليلة !

وجهة النظر الالمانية عن النساء !

كانت كورين روست هايدن فتاة وسيمة تنحدر من أصل كندى فرنسى ، وكانت تعرف منذ البداية أن شتانيمتز سيكون مشكلة فى زواجها ، وقد ساورتها الشكوك فى أن المنزل الكبير الذى يشيده قد يكون مجرد شرك ٠٠ وفى اليوم الذى انتهى فيه البناء لم يدهشها أن يصحبها العالم الكبير مع زوجها للطواف بالغرف الكثيرة التى يضمها المنزل ٠٠٠ وما لبث أن التفت اليها قائلا :

ـ لماذا لاتأتين أنت و « ليروى » للاقامة معى ؟

وكان رفضها من وحى الغريزة وبطريقة آلية ٠٠٠ فقد قالت على الفور :

ـ انه كرم منك ياسيدى ، ولكن مسكننا يكفينا تماما ٠

وانتهت المناقشة فى تلك الليلة عند ذلك الحد ، ولكنها لم تضع حدا للمسألة ، اذ سرعان ما أخذ زوجها يشير الى اقتراح شتانيمتز قائلا انه منطقى جدا ، فالمنزل فسيح ، والرجلان يعملان فعلا الى ساعة متأخرة من الليل

وقالت كورين فى خلال احدى المناقشات : ولكنه المانى آ

فقال ليروى : وماذا فى ذلك ؟

ـ ان لديه وجهه نظر المانية حيال النساء ٠٠٠ فهن جميعا فى نظره خادمات لايصلحن الا لانجاب الاطفال وتنظيف المنزل ، وانا لا أريد أن أكون خادمة ٠

وانفجرت باكية وهرعت الى مخدعها وأغلقت بابها خلفها

وكان فى كلماتها بعض الحقيقة ، فان شتانيمتز وقد استبعد النساء من حياته لم يكن يفهمهن ، بل كان يضيق بهن ٠٠ ولكنه لم يكن ذلك المخلوق الصارم كما كانت تظنه كورين ، وكما اكتشفت بعد ذلك

وعندما وجدت فى النهاية إنه لامفر لها من الاستسلام ، قررت أن تحصل على أفضل ماتستطيع من شروط ، فذهبت الى شتانيمتز وقالت له بصراحه :

ـ اذا أردت أن نعيش معك فلا بد من أن أتولى ادارة المنزل بالطريقة التى أراها مناسبة ٠

ووافق شتانيمتز وهو يخفى سروره

شتانيمتز تصبح له أسرة

حرص شتانيمتز على الوفاء بوعوده

لكورين بنية حسنه ، ولكن بعضها كان الوفاء به خارجا عن ارادته ، فقد كان من المستحيل مثلا أن يترك هو وليروى التجربه الهامة التى يجريانها لمجرد الجلوس للاكل ، ولكنها عندما كانت تضطر أخيرا الى سحبه من ذراعه الى المائدة كان يمتثل طائعا وعلى شفتيه بسمة تنم عن الخجل .

وكانت مشكلة المال أكثر صعوبة ، فقد كانت كبرياء كورين تدعوها الى المطالبة بدفع ثلثى نفقات البيت هى وزوجها ، ولكن تحقيق ذلك كان مستحيلا ، فقد وجد شتانيمتز مئات الظروف التى تجعله يتيح لهما كماليات لايحلمان بالحصول عليها .. وفى مقدمتها سيارة كهربائيه فاخرة أهداها الى كورين

وقد تطلب الامر وقتا طويلا قبل أن تدرك أن شتانيمتز لايستخدم المال الا لكى يجلب السعادة للآخرين ، وأن الهدايا التىيضطرها هى وزوجها لقبولها لم تكن رشاوى بل هى من عمل قلب كريم ودود .

وتحسنت العلاقات بين شتانيمتز وكورين تحسنا مطردا ، فكانت تضحك لفكاهاته وتحاول أن تتغاضى عن اسرافه ، وتصبر على نسيانه ، وتحرص على العناية بمظهره وملابسه ومواعيده المهمة

وتمت الخطوة الاخيرة من التغير عندما رزق هايدن وزوجته بطفلهما الاول ، اذ عرض شتانيمتز عليها أن يتبنى زوجها ليروى رسميا ، وقال انه عرض الامر على ليروى فوافق ولكنه ينتظر موافقتها هى أولا ...

وأخيرا رفعت رأسها عن طفلها الوليد ، وابتسمت فى وجه الرجل الضئيل الحجم الذىيطويه القلق... وقالت :

ـ اننى موافقة ياجدى

وسرعان ماتمت اجراءات التبنى الرسمية ، وهكذا أصبح لشتانيمتز أخيرا أسرة خاصة،لعلها كانت الاسرة التى كان يحلم بها عندما أقام هذا المنزل الكبير

بالغ فى دنيا الاطفال !

رزق هايدن وزوجتهخلالالسنوات القليلة التالية بطفلين آخرين ، ونشأ الاطفال الثلاثه ، جو ، وميدج ، وبيلى فى أسرة تضم ثلاثة من الكبار ، هم الاب والام وشتانيمتز..وكان الشك يساور الاطفالأحيانا فى أنشتانيمتز من الكبار حقا ، فانه لم يكن أطول قامه من (جو) ابن التاسعة ، وذلك على الرغم من لحيته الكثة ، وكان حبه للاطفال وحديثه معهم يزيد

اعتقادهم بأنه واحد منهم

وأقام شتانيمتز أرجوحات وألعابا للاطفال فى حديقه بيته الكبير، وكانت أصوات الاطفال وهم يلعبون ويمرحون لاتزعجه قط ، بل ان كل اتصال له مع الصغار كان يزيده انتعاشا ، وكانت قصص النوم التى يقصها على أولاد هايدن شيئا مهما جدا …

حدث يوما أن جاء هنرى فورد الى شتانيمتز يحمل مشكله تتعلق بضعف مصابيح سياراته الامامية أثناء وقوفها … ودعى فورد للعشاء مع الاسرة ، وبعد الطعام لجأ مع شتانيمتز الى المكتب ، وبينما كان الاثنان منهمكين فى دراسة المشكلة اذ فتح الباب على مصراعيه وبدت الطفلة « ميدج » فى بيجامتها وقالت :

ـ لقد حان وقت النوم ياجدى

فحنى شتانيمتز رأسه ، ثم نهض واقفا وقال لفورد :

ـ لقد حان موعد القصة التى أحكيها لهم قبل النوم … انتظرنى وسأعود لك بعد ربع ساعة .

وأحس فورد بصدمة وذهول ، فانه لم يكن معتادا مثل هذه المقاطعة ولا سيما من أطفال صغار .. وسرعان ماهبط تقديره لشتانيمتز الى الحضيض ، ولو كان هناك قطار يغادر البلدة فى تلك اللحظة لاستقله على الفور …

ولكنه اضطر الى أن يذرع شوارع بلدة «شنكتادى» لمدة نصف ساعة .. ثم عاد فى تردد الى شارع ويندل ! وكان ذلك من حسن حظه ، فان شتانيمتز عندما هبط من الطابق العلوى كان قد انتهى من حل المشكلة الخاصة بأضواء سيارات فورد !

الأخ شتاين

يبدو أن حياة الاسرة كان لها أثر طيب على شتانيمتز ، فقد اختفت الحيوانات الكئيبة من حديقته ، واستبدل بها قططا وكلابا ، وأصبحت الحديقة تحوى زهورا بدلا من نبات الصبار الكئيب المنظر ، ووجد مساعدوه أن طباعه أصبحت أكثر ليونة ، ومرحه أقل سخرية وان ظل حبه للمقالب كما هو

وقد بدا حب شتانيمتز للشباب بأجلى صورة فى كلية « يونيون » فى شنكتادى حيث ظل يقوم بتدريس الهندسة الكهربائية ، طوال عشر سنوات منذ سنة ١٩٠٣ ، وكان يعامل الطلبة كأنه واحد منهم تماما ، فيشاركهم فى ألعابهم، ولم تفته مباراة رياضية واحدة من مبارياتهم ، كما كان يبادلهم مرحا من نفس مستواهم، حتى لقد أطلق عليه الطلبة اسم «الاخ

شتاين» وكانوا يرددون نكاته واجاباته الساخرة التى يلقيها خلال محاضراته

ولـكن اهتمـام شتانيمتز بالتعليم كان يتسم بطـابع الجـد ، وقد أتاح الفرصـة للطلبة البـارزين لاستخدام مرافق شركة جنرال الـكتريك التى لا مثيل لهـا فى تدريبـاتهم ، وذلك بفضل التوسع الكبير فى أعمال الشركة ففى عام ١٩١٠ ظهرت خدمات كثيرة جديدة وأنشئت أقسام عديدة للانتاج ، وكان لكل منها مشكلاته الملحة حتى لقـد أنشأ شتـانيمتز قسما خاصـا للاستشارات الهندسية للمساعدة على حل هذه المشكلات ، وقد أحيـل الى هذا القسم كثير من المشروعات ، حتى زادت الابحاث الضرورية على ما يمكن لمعمل شارع « ويندل » أن يقوم به ، واحتلت طابقا بأكمله فى احدى عمارات الشركة الجديدة

وكان لشهرة شتانيمتز الفضل فى اجتذاب فريق من أفضل علماء أمريكا الى هذا القسم الجديد ، وعندئذ وجد الفرصة مناسبة لاتاحة المجال للشباب اللامع للتدرب العملى الى جانب الدراسة النظرية ، وقد تخرج تحت يديه عدد كبير من ألمع علماء أمريكا

وكان بين المشـكلات المحـيرة التى شغلت بال شتانيمتز فى شركة جنرال الكتريك مشكلة الصواعق ، وهى آفة صناعة الكهرباء ، فان ذلك العدو العنيد كان يصهر أسلاك الكهرباء ، ويحرق المحولات ، بل ويعود الى محطات التوليد ليصهر الاجزاء الحيوية فيها ، وكانت كل عاصفة تعنى انقطاع التيار الكهربائى فى مكان ما عدة أيام فى بعض الاحيان

فكيف تستطيع الشبكات الكهربائية أن تمتص مثل هذه الدفعـة الهـائلة المفاجئة من الكهرباء القادمة من السماء ؟

كانت المشكلة بالغة التعقيد بسبب مراوغة الصواعق الى حد يجعل اجراء التجارب عليها أمرا يكاد يكون مستحيلا .. وحاول شتانيمتز أن ينشىء برجا فوق تل كان على مر السنين عرضـة للاصابة بالصواعق ، وأوصل بالبرج كل أنواع المقاييس والادوات ، واحتفظ هناك بدوريات من العلماء للمراقبـة ليلا ونهارا ، ولكن الصواعق لم تقترب من هذا التل قط طوال ذلك الصيف

ولكن حدث فى أحـد أيام ربيـع ١٩٢٠ أن أتاحت الطبيعة لشتانيمتز مسـاعدة لم يكن يتوقعها ، فقد كان هو ومساعده اميل ريمشاير منطلقين بالسيارة الى كوخه الصيفى فى منطقة « كامب موهوك » عنـدما وجـدا أن صاعقة قد دمرته كله . وراح شتانيمتز يدرس الفوضى الناتجة عن الصـاعقة

فى سرور ، وقال لاميل :

ـ عد بالسيارة الى البلدة واحضر آلة تصوير ، فاننى أريد تصوير كل شىء بالتفصيل .

وعندما عاد اميل بالآلة كان شتانيمتز قد أعاد تصوير الحادث .. كانت الصاعقة قد أصابت شجرة طويلة على مقربة من المدخل الامامى للكوخ ، وسرت فى الشجرة ثم حطمت احدى النوافذ لكى تصيب مصباحا معدنيا كان موضوعا على مائدة ، ومن هناك سرت فى أسلاك الكهرباء فصهرتها كلها حتى وصلت الى سلك خارجى كان ممتدا خارج المبنى ، وقد ارتفع فوق وتد خشبى ، والتوى فى ١٢ عقدة ... وعندما وصلت الصاعقة الى هذه المنطقة ، عملت العقد كمكثف لزيادة قوة الفولت عدة مرات ، وأخيرا أفرغت الصاعقة شحنتها فى جدران الكوخ ، والظهر الفضى لمرآة فى غرفة النوم .

وتطلع شتانيمتز الى قطع الزجاج المتناثرة ثم قال فى سرور :

ـ هذه المرآة يا اميل هى أهم أثر حصلنا عليه .. لا تدخل حتى أنتهى من اعادة تجميعها فى مكانها

وأمضى بقية عطلة نهاية الاسبوع وهو راكع على يديه وركبتيه يبحث عن أصغر الشرائح الزجاجية ، ويجمعها جنبا الى جنب بدقة كأنها من ألغاز الصور المقطعة التى تنشرها الصحف ، وعندما أعاد تجميع المرآة المحطمة أخيرا بين لوحين كبيرين من الزجاج العادى ، وأحكم لصق أطرافها بشريط صمغى ، ظهر الاثر المحرق للصاعقة على ظهر المرآة الفضى

وقال شتانيمتز : أنظر هنا يا اميل .. انها صورة الصاعقة .. أنظر أين أصابت ضربتها .. سوف نستطيع الآن أن نحسب قوة الصاعقة بقياس المسافة من نقطة الصدمة حتى نهاية الأشرطة الرفيعة المصهورة

ومن هذه البداية ، بدأ شتانيمتز بحثا مرهقا دام عامين ، تضمن رزما من الاوراق والتقديرات الحسابية ، واستعان بجهاز كبير غريب الشكل ، وعهد الى العلماء الذين يعملون معه باجراء أبحاث كثيرة كان يبدو أنها لا ارتباط بينها ...

وتسربت الانباء بأنه يحاول أن يخلق صاعقة ، فقد كان ميالا الى تعلم كيف تحدث الصاعقة ، وكيف يوجهها ويتحكم فيها ...

واستمرت التجارب الصعبة المرهقة فترة طويلة ، وأخيرا توجت بالنجاح فى شتاء ١٩٢٢ ، وعندئذ وجه شتانيمتز

دعوة الى توماس اديسون وغيره من الشخصيات الشهيرة ، والصحفيين والمصورين وكبار المسئولين فى الشركة لمشاهدة ماسيعرضه أمامهم

وفى اليوم المعين أدخل الزائرون الى المعمل ليجدوا أمامهم آلة ضخمة غريبة المنظر ••• انها آلة الصاعقة ! كان ارتفاعها يبلغ حوالى طابقين ، وهى تتكون من حمالات بعضها فوق بعض من الالواح الزجاجية الكبيرة المغطاة برقائق معدنية ، وقد استخدمت هذه كمكثفات لتقوية التيار الكهربائى الى فولت مرتفع جدا ، وزيدت قوة التيار المحلى بوساطة محولات ثم أجرى تمريره خلال أنابيب زجاجية تعرف باسم « كنيترون » تقوم بدورها بشحن مكثفات الالواح الزجاجية •• وعندما سرى التيار ، أخذت الكهرباء تتجمع حتى أفرغت كل المكثفات شحنتها فى وقت واحد ، وكانت هناك قبتان من النحاس وضعتا فى مكان لتحويل الصاعقة عندما تحدث

ووقف الحاضرون خلف ستار واق من السلك لمشاهدة ما يحدث ••• وجاء شتانيمتز وحيا المدعوين ، وتحدث مع بعض مساعديه ، ثم التفت الى مصورى الصحف وسألهم : كيف تقترحون التقاط صورة الصاعقة ؟

وبعد أن شرحوا له آراءهم ، اقترح عليهم بعض التعديلات ••• وأحضر أخيرا نموذجا لقريه كاملة ، ببرج كنيستها وشوارعها التى تحيط بها الاشجار ، ووضعها بين القبتين النحاسيتين •••

لقد أصبح كل شىء على استعداد •• وساد الصمت بين الحاضرين ، ثم حنى شتانيمتز رأسه ، فأدار أحد مساعديه مفتاحا ، وعندئذ دوى طنين خفيف ، وبدأت المكثفات تجمع شحنتها من الكهرباء بينما أمسك الحاضرون أنفاسهم ووضع بعض الخائفين منهم أيديهم فى آذانهم ••

وظهر وميض ملتهب كالبرق تبعه دوى قاصف كالرعد هز الغرفة كلها ، وامتلأ الجو بالغبار ورائحة الأوزون ، وما أن استعاد الحاضرون أنفاسهم اللاهثة ، حتى نظروا الى نموذج القرية ، فاذا بها قد ذهبت •• اختفت كلها وكأنها تبخرت فى الهواء !

وشرح شتانيمتز للحاضرين كيف تعمل الصاعقة ، واستطاع بعد ذلك اختراع جهاز فعال لوقف الصواعق ، وهذا الجهاز مهد الطريق للتخلص من أضرار الصواعق وجعلها تقفز الى الارض دون أن تصيب شبكات الكهرباء بأى أذى ، وهذا يعنى كل شىء لصناعة

الكهرباء ، وقد نشرت صحف العالم كلها هذا الحدث الكبير بعنوان : « جوبيتر العصر الحديث يقذف الصواعق والرعود كما يشاء »

شهادة على الايمان

أصبح أبناء هايدن الآن فى طور المراهقة ، فقد بلغ جو السابعة عشرة من عمره ، وميدج الخامسة عشرة ، وبيلى الثالثة عشرة ، وأصبحوا جميعا يعملون على وقاية شتانيمتز وحمايته ، بينما واصل هو بدوره تدليلهم وغمرهم بمزيد من الهدايا الغالية

وعندما دعاه المعهد الامريكى للمهندسين الكهربائيين لالقاء خطاب فى مؤتمره السنوى فى « دل مونت » بولاية كاليفورنيا فى أكتوبر ١٩٢٣ ، وجد أن الفرصة مناسبة للقيام برحلة للأسرة الكبيرة خلال العطلة ••• وامتدت الرحلة غربا حتى أصبحت جولة كبيرة وانتصارا لشتانيمتز ، ففى كل محطة كانت الجماهير تتقاطر على القطار لتلقى نظرة على « جوبيتر العصر الحديث » ، وكان العمد وحكام الولايات يتدافعون ويتزاحمون لكى تلتقط لهم صور معه ، وكانت الدعوات تنهال عليه لالقاء الخطب فى كل مدينة ، وقد قبل الكثير منها •• وفى هوليوود دعاه أشهر نجومها يومئذ ، وهما دوجلاس فيربنكس الكبير وزوجته مارى بيكفورد ، واستمرت الجولة حوالى ستة أسابيع ممتعة ولكنها كانت مرهقة الى حد غير عادى ، وعندما عادوا الى « شنكتادى » فى ١٢ أكتوبر ، شكا شتانيمتز من بعض التعب ••• ولكنه قال لكورين فى خبث :

ـ فى العام القادم سوف نقوم برحلة بحرية فى البحر المتوسط

وفى اليوم التالى كان لايزال متعبا ، فاستدعوا له طبيبا ، قال انه ارهاق عام وأمره بالراحة التامة فى الفراش ، وزمجر ساحر الكهرباء ، ولكنه امتثل على الرغم منه •••

وفى صباح ٢٦ اكتوبر ١٩٢٣ ذهب بيلى الصغير الى غرفة جده يحمل له طعام الافطار •• فوجده ميتا !

كان وجهه هادئا لا يبدو عليه أى أثر لألم أو قلق •• لقد توقف قلبه بسهولة كأنه محرك كهربائى انقطع عنه التيار ، وكانت سنه يومئذ ٥٩ عاما •

وهكذا ودع ساحر الكهرباء العالم الذى غمره بالضوء والامل فى مستقبل أفضل •

***

الحب اعمى ، اما الصداقه فانهـا تحاول الا تعير الامر التفاتا

كتاب الشهر

عشت في وادي الأمل



عشت في وادي الرمل

تلخيص كتاب ONLY WHEN I LAUGH

بقلم جلاديس ويركمان

ان سكان وادى « امبكوا » بولاية اوريجون نسيج وحدهم .. فهم ذوو قلوب تمتلىء عطفا وحنانا .. فهناك « ايب العجوز » الناسك الذى يعيش فى عشة دجاج ، سعيدا بصحبة البط والماعز والظربان . وهناك الحطابون ، وهم رجال يشربون الكثير من الخمر ، ويستطيعون الجلوس للعب الورق ، فى الوقت الذى تكون فيه مياه الفيضان قد رفعتهم عن مقاعدهم .. ومهما كانت نزواتهم الشخصية ، فان هؤلاء المخضرمين ينظرون الى كل قادم جديد نظرة مليئة بالشك .. ومع ذلك فقد استطاعت الوافدة الجديدة جلاديس ويركمان أن تعيش فى الوادى على الرغم من عدم اطمئنانهم اليها .. بل واصبحت هى نفسها من المخضرمات ..

وفى كتابها « عندما أضحك فقط » صورة تتسم بالشجاعة لمنطقة عجيبة !

عندما انتهينا من بيع منزلنا الذى يقع فى ضواحي «روزموند» بولاية كاليفورنيا ، وابتعدنا مسافة ١٤٥٠ كيلو مترا لنقيم فى كوخ مهجور بوادى « امبكوا » بولاية أوريجون ، طلبنا من أصدقائنا القدامى أن يأتوا لزيارتنا فى أى وقت .. ولما كانت المسافة التى تفصلنا عنهم تشبه السفر بين نيويورك وشيكاغو فاننى لم أكن أتوقع أن يأتى كثير من الزائرين .. ولكننى كنت مخطئة فى ظنى ..

فعلى الرغم من المكان البدائى الذى اقمنا فيه ، حيث الاثاث المصنوع من صناديق التفاح ، والاطباق المصنوعة من الصفيح ، والاغطية المعلقه فوق الفجوات التى سنضع فيها يوما ما نافذة أو بابا .. على الرغم من كل ذلك، فاننا لم نلبث أن بدأنا نستقبل سيلا من الضيوف ، فقد عاد أحد أصدقائنا الى كاليفورنيا بأنباء مضللة بعض الشيء عن الوقت الذى أمضاه فى ضيافتنا ..

وقد أدى تدفق الضيوف فى مبدأ الامر الى ابطاء العمل فى الكوخ الذى قررنا أن يصبح دارنا الجديدة .. وكان زوجي نورمان ، وابن أخى جاكسون ـ أو نورمان الصغير ـ قد

شرعا فى بناء شرفة أمامية ، وعندما ارتفعت جدرانها قليلا ، أحسسنا أننا حققنا عملا ضخما ، وبينما كنا نهنيء أنفسنا ذات مساء ، اذ سمعنا صوت سيارة تقف خارج الكوخ ، ثم سمعنا طرقا على الجدار ، فقلت لنورمان :

ـ أنظر من الذى يقف أمام الغطاء !

ولكنه قبل أن يصل الى الغطاء الذى يغطى فتحة الباب ، فوجئنا بزوجين شابين يدلفان الى الداخل ..

كان الرجل يرتدى ثوبا رياضيا ويحمل فى يديه حقيبتين ومجموعة مختلفة من أدوات صيد الاسماك ، أما زميلته فقد كانت طويلة كشجرة الصفصاف ... ترتدى معطفا من الفراء ..

وقال الشاب فى سرور :

ـ ها نحن أخيرا ..

وفكرنا لحظة وقد استولت علينا الدهشة ... اننا لم نرهذين الاثنين من قبل ..

وقلت فى ابتسامة :

ـ ألا تتناولان قدحا من القهوة ؟

فقالت السيدة وكأنها تبصق الكلمات من فمها :

ـ قهوة ؟ .. لقد جئنا بالسيارة طوال الطريق من سان فرانسيسكو اننى أريد طعاما ..

فقلت مقترحة :

ـ لدى بعض الاسماك ..

فصاح زميلها :

ـ أسماك .. ما رأيكم فى أن نصيدها بانفسنا ؟

ونظرت الى نورمان الصغير ، فابتسم قائلا :

ـ هيا معى .. سأريك بركة نحصل منها على الاسماك دائما ..

فأعولت الفتاة قائلة :

ـ لن تذهب ..

ولكن رفيقها كان قد ذهب فعلا .. وفجأة جلست فوق احدى الحقائب ، ودفنت وجهها وسط الفراء .. ثم قالت فى صراخ :

ـ ان المكان موحش جدا هنا .. والغابة ملأى بالذئاب ..

قلت :

ـ هراء .. فليس هنا أية ذئاب ، بل بعض الدببة فقط ، ونحن نحب وجودها حولنا لكى تذكرنا بأن الريف ما زال ريفا حقا ..

كان الرعب يسيطر فعلا على الفتاة المسكينة .. ولكنها ما لبثت أن هدأت بعد قليل .. وسألت :

ـ هل أستطيع أن أرى غرفة الحمام ؟

فقلت فى ارق لهجه مستطاعة :
ـ أخشى أن أقول انه ليس لدينا غرفه حمام ...
فضمت معطفها المصنوع من الفراء حول جسمها وقالت بسرعة :
ـ اذن خذينى الى غرفتى ... فسأنام فى الفراش ..
قلت :
ـ ليس لدينا غير هذه الغرفة . ولكن لدينا الكثير من أكياس النوم !
وانتظرنا فى قلق حتى عاد الرجلان مع بعض الاسماك التى قاما بطهى بعضها .. ثم شربت السيدة القهوة .. وما ان انتهيا ، حتى وضع نورمان الاطباق التى تحوى فضلات الطعام فى الشرفة الامامية ، ودخلنا فى أكياس النوم ..
وساد السلام فى الكوخ ..
وفى حوالى الثالثه صباحا ، تمزق الهدوء الذى يسود الاحراش .. فقد استبد الذعر بالقطط الخمس التى نحتفظ بها ، فأثارت ضجيجا عاليا حول فضلات الطعام ، واندفعت نحو الشرفة الامامية ، فتفرقت القطط وهى تدور حول الجدران ، حتى استطاعت تسلقها ، ثم انطلقت بعيدا فى الظلام ..
وفجأة عاد الهدوء ..
وفى ضوء القمر رأينا ما أثار ذعرنا ..
كان هناك دب صغير يقبع فوق الارض وقد أمسك ببقايا سمكة بين مخالبه ...
وصحت قائلة :
ـ دب ! ..
وراح زوجى ونورمان الصغير يقرعان بعض الاوانى النحاسية لاخافة الدب وابعاده .. وقبل أن أحضر مصباحا لاشعاله كان ضيفانا قد أقبلا ، وكانت الفتاة ترتعش بشدة .. حتى لقد ظننت أن اهتزازها سيخرجها من معطف الفراء الذى تدثرت به فوق قميص نومها ..
واتجهت الى زميلها وسألته :
ـ أريد أن أعرف شيئا واحدا .. ما الذى جعلكما تأتيان الينا ؟
فصاح قائلا :
ـ لقد حدثنا البعض عن بيتكما .. ولكن قولى لى .. ما الذى يجعلكما تتقاضيان أجرا عاليا للاقامه فى مكان قذر كهذا ؟
وأسرع الاثنان الى سيارتهما وانطلقا بها بعيدا عن الانظار ..

المخضرمون ...
والذين جرفهم التيار !

هناك نوعان من الناس فى وادى

« امبكوا » : المخضرمون ، والذين جرفهم التيار ، وقد كنا نحن من النوع الثاني ...

وقال المخضرمون عندما جئنا : سوف يرحلون فى خلال ستة أشهر!

ولقد مرت بى لحظات خشيت فيها أن يكونوا على صواب حقا .. فعندما وصلنا الى الوادى وجدنا أهله القدامى يقفون ضد العالم الخارجى .. العالم الذى لا يكادون يؤمنون بوجوده .. لقد كانوا يعيشون قرب أرضهم تحت السحب المندفعة .. يعرفون طرق الرياح والنهر ، ويعرفون فى تفصيل دقيق كل شىء .. عن كل شخص .. حتى مدى الوقت الذى تستغرقه فى لبس جوربك ... يعرفون مركزك عند البنك ... وعند الله ! ..

ويبدو أن ما عرفوه عنا لم يثر اعجابهم .. كانوا لا يرون بأسا فى وجود زوجى ونورمان الصغير ، أما أنا ـ زوجة نورمان ويركمان ـ فقد كنت فى نظرهم لا أصلح للحياة فى الوادى .. وقالوا اننى سيدة حمقاء .. واننى يجب أن اعرف أن سيدة المدينة لا تستطيع أن تعيش فى كوخ كهذا أو تتوقع أن يكسب زوجى المريض عيشه هنا ..

***

لقد بدأنا نفكر فى الرحيل عن كاليفورنيا فى اليوم الذى انهارت فيه صحة زوجى ونحن نقيم فى بيتنا فى بلدة « روزمين » وعندما قال لنا الطبيب ان دم زوجى قد أصيب بتسمم من المواد الكيميائية التى يستخدمها فى مصنع مواد الصباغة الذى يديره ، ادركنا أننا يجب أن نذهب الى الريف ، لنستريح طويلا

ولم يكن الحصول على المكان مشكلة .. فقد أمضيت جانبا من طفولتى فى (أوريجون) ، وكان وادى « امبكوا » لا يزال ماثلا فى ذهنى فى صورة أرض خضراء ساحرة .. ولكن أصدقاءنا كانوا يشكون فى قدرتنا على هذه الحياة .. وقالوا لى : « انكما لم تعودا صغارا فأنت فى السادسة والاربعين وزوجك نورمان جاوز الخمسين .. فأين ستقطنان ؟ »

ووجدنا الرد عندما قمنا بأول رحلة الى أوريجون ، فقد كان أصدقاء طفولتى يعرفون أرضا معروضة للبيع خارج بلدة (سكوتسبرج) .. فانطلقنا ذات يوم بالسيارة الى الوادى ، وتفرقنا عند حقل يقع على مقربة من نهر امبكوا .. كانت هناك اشجار تفاح برية ، واشجار شربين ضخمة متناثرة فى كل مكان .. وعلى

مسافه اقل من خمسة أمتار وعول ترعى الكلأ عند الخط الذى تلتقى فيـــه حدود الغابة بالحقل

وأشار بول أبلجيت ـ وهو واحد من المخضرمين القلائل الذين تطوعوا لمساعدتنا ـ الى كوخ قديم وقال :

ـ تستطيعـان أن تجعلا من هــذا الكوخ منزلا صغيرا جميلا .

كان الكوخ صغيرا ، يتكون من غرفه واحدة ذات نوافذ فى كل جانب من جوانبه ، أحداها محطمـة ، وكانت هناك كتلة خشبية خشنة تســـند الجدران ، بينما كانت الارضية تميل بصورة خطرة . كان المكان فى حالة يرثى لها بسبب القدم والشيخوخه

وسألت نورمان بعد أن خرجنا منه :

ـ ما رأيك ؟

فابتسم وهو يفكر .. وقد امتلأ اعجابا بمنظر الوادى ورائحته .. وفى تلك اللحظة استقر رأينا على الاقامة هنا .. ولم يمض وقت طويل ، حتى بدأ بيتنا فى (امبكوا) يصبح حقيقة واقعة .

وفى تلك الايام كافحت فى معركة خاسرة مـــع الموقد الخشبى الذى انشأناه .. وكنا نتناول اكثر وجباتنا مع بول ابلجيت وزوجته مود اللذين يعيشان على مقربة من الطريق العام .

وفى ذات يوم دعتنى مود لمصاحبتها فى جولة لشراء بعض الاشياء من متجر (هيدن) .

كان (هيدن) فى طليعة المتاجر فى ذلك الجزء من ولاية « أوريجون » ، وعندما كنت طفلة صغيرة سمعت عن سيروس هيدن ـ الرائد العجوز الذى كان يكدح السير يوما خلال الغـابة عندما هاجمتـه عصـــابة من اليهود الحمر ، فاستطاع أن يحمل صديقا أصيب بسهم فى بطنه ... وسمعت أيضا عن حفيدته « ايما »

كان المتجر يقبع بين «جرانج هول» وكنيسة القرية .. وكانت هنــاك حانة للجعـة ومنازل قليـــلة عبر الشارع ...

وكانت تلك هى سكوتسبرج !

وكان متجر هيدن اشـبه بمناظر روايات رعاة البقر التى يعرضـــها التليفزيون .. واجهة زائفة تواجه الطريق العـام ، مع نوافذ كبيرة على جانب الباب .. وفى الداخـل دلاء لامعة تبرق فوق رفوف عالية ، وكانت هناك سروج للخيل ومطارق ، ولفات من القماش ، وأكوام من السراويل المصـــنوعة من القــطن الخشــن .. وتنتشر فى أنحـاء المبنى كله روائح الجـــلود والبسـكويت ، والزيت

والموز ! ..

وكانت ايما هيدن تقف خلف صف من صناديق البريد عندما وصلنا الى هناك .. ورأيتها امرأة متوسطة الحجم ، يسرى الشيب فى شعرها ، وتضع على عينيها عوينات عتيقه ، وبعد أن حيتنى باقتضاب ، استأنفت مع « مود » حديثا لابد أنه بدأ منذ سنوات .. تحدثنا عن أخبار المرضى ومشروعات القرية ، والطفل الذى ولد حديثا .. ومعركة دارت فى الحانة فى الليلة السابقة بين سيدتين مزقت كل منهما ثوب الاخرى ، ثم اتحدتا على الرجل الذى خدعهما معا ..

وأحسست بشىء من الغثيان .. وساءلت نفسى :

ـ أى مكان سكوتسبرج هذا ؟

لقد كنت أتخيلها قرية ريفية هادئة .. زاخرة بسلالات بعيدة للرواد الذين اشتهروا بصلابة مراسهم ..

ولكنى بدلا من ذلك سمعت ايما تقول:

ـ لقد حدث اضطراب جديد فى معسكر الحطابين ولابد أن أذهب الى هناك وأطرد الكثيرين منهم ..

وعندما غادرت المتجر ، سألت مود :

ـ أليس هناك بوليس فى سكوتسبرج ؟

فأجابت :

ـ كلا .. ان ايما هى رجل البوليس الوحيد لدينا ... وهى تستطيع أن تعالج أى سكير فى الوادى عندما تمسك بعصا الغسيل فى يدها ! ..

مأدبة متفجرة !

كنت أتمتع بالوادى وانا ارقب نورمان وهو يسترد صحته شيئا فشيئا ، وكنت أساعد فى تجميل الكوخ وتنظيمه ، بوضع نوافذ وأبواب وستائر جديدة .. ولم يكن يزعجنى غير موقف المخضرمين من سكان الوادى حيالنا .. فقد كانوا يعتبرون أنفسهم معصومين من الخطأ .. أما الوافدون الجدد ، فانهم جديرون بكل لوم ..

وعندما حاولت أن أكون جارة طيبة .. حدثت مأساة ، مازال بعض المخضرمين يتحدثون عنها بأنها «الليلة التى حاولت فيها جلاديس أن تقتلنا جميعا » .. فقد اخذتنى مود يوما الى « ريدزبورت » لجمع بعض المحار والقواقع .. وعندما وصلنا الى قارب هايز العجوز الذى استأجرناه فى هذه العملية ، قال لنا الكهل :

ـ هل قرأتم ما نشرته الصحيفة عن « المد الاحمر » ؟

قلت :

ـ كلا .. ما هو هذا المد الاحمر ؟

ـ انه الوقت الذى تصبح فيــه الميــاه حمراء كلها ـ ولست أدرى سبب ذلك ـ ولكنه يجعل المحــار والقواقع سامة ..

وضحكت قائلة :

ـ يبدو ان المد اليوم ازرق جميل .. ولهذا أعتقد أننا فى أمان ..

وانطلقنا نحو ضفاف النهر الرملية وبعد بضع ساعات ، ملأنا كيســين بقواقع كبيرة ذات مظهر يغرى ..

وفى الليلة التالية أقمت أنا وزوجى نورمان مأدبة احتفالا باتمام منزلنــا الجديد .. لقد أصبح الكوخ الآن منزلا أنيقا أبيض اللون ، له حمام ومطبخ ، ومدخل تغطيه الستائر .. ودعونا الى هذه المأدبة آل أبلجيت ، وجين وكين ميرفى ، ودوروتى دولتر بالمر ، وماجى بيرتون وزوجها هارى وروك فراير ..

وبعــد أن اختفى المحار كله من الموائد بفترة قليلة .. همست مود فى أذنى قائلة :

ـ آلا يبدو روك فراير مضحكا ؟

ونظـرت الى روك الذى اشتهر بوجهه الاسمر المتورد ، فوجــدته شاحبا .. وكان يقول فى أنين :

ـ اننى أشعر بآلام مروعة .. آلام فى معدتى لم أشعر بمثلها قط .

وومضت فكرة مروعة فى خاطرى .. فصحت قائلة :

ـ المد الاحمر !

وذكرت لهم ما قاله هاينز العجوز، فقال زوجى نورمان :

ـ يستحسن أن نعطى روك شيئا .. سأحضر له قليلا من ماء الصودا

وابتلع روك خمسة أكواب من هذا الماء .. ثم سار يترنح نحو الحمام ، بينما توجهت أنا نحو التليفون .. واتصلت بأجنس هدسون الذى يدير خط القرية التليفونى وقلت فى هلع :

ـ أعتقد أننا تناولنا محارا مسمما

وكانت هذه الكلمات كافية لانهــاء الهدوء فى البيت .. فقــد أخــذ جرس التليفون يدق بين دقيقــة وأخرى ، لاسمع نصائح مختلفة عن كيفية علاج التسمم من المحــار .. البعض يقول : تناولى بعض المــاء الساخن الممزوج بالملح ..

ووســط رنات جرس التليفون ، شحب وجه بول ابلجيت .. وقال لزوجته :

ـ مود .. لقــد أصبت بالتسمم أنا أيضا ..

ثم صاحت ماجى بيرتون :

ـ اننى أشعر بآلام مروعة ..

وقال صوت فى التليفون :

ـ عليكم بزلال البيض .

وكان لدينا صندوق جديد فيه ١٨٠ بيضة .. فبدأ أربعة منا يفصلون البياض عن الصفار ، وبعد قليل سمعنا صوتا آخر فى التليفون يقول :

ـ امزجوا الملح بماء الصودا ..

وكان للمياه الممزوجة بالملح اثر كبير ، فقد كانت أشبه بالمتفجرات التى لا ضابط لها .. واهتز الكوخ الصغير تحت نيران هذه المدفعيه ! كان البعض ينحنى فوق حوض المطبخ ليتقيأ ، والبعض يهرع الى المراحيض التى تقع فى الحديقة الخلفية ، أو يسرع نحو اشجار التوت التى تصطف على جانبى الطريق .

واخذت الضجة تهدأ ببطء .. حتى بدا أخيرا أن روك فراير هو الوحيد الذى لا يزال عليلا ، فنقله بعض الرجال الى المستشفى .

ايب العجوز والفرسان الصغير

تحسنت حال نورمان الصحية ، فخطر لنا أننا يجب أن نجد وسيلة ما لاكتساب عيشنا ، ومن ثم فقد بدأنا نطوف بأرجاء الوادى بحثا عن شىء يفعله نورمان ... وبعد بضعة أيام كنت أقوم باطعام طبيبين صغيرين أرقطين يأتيان دائما الى فناء منزلنا لتناول طعام الافطار ، عندما أقبل نورمان الصغير مسرعا وقال :

ـ عمتى جلاديس ... لقد اشترى نورمان ثلاثة أطنان من أبصال النرجس الاصفر ودفع ثمنا لها ٣٠٠٠ دولار

وكان هذا هو كل المبلغ الذى نمتلكه !

وجاء نورمان بعد قليل شاحب الوجه ، وأحاطنى بذراعه قائلا :

ـ ما رأيك فى أن تكونى زوجة مزارع يزرع النرجس ؟

ولم يكن نورمان يعرف شيئا عن الزراعة ، ومن ثم فقد اتصل باحدى الصحف المحلية تليفونيا ، وطلب نشر اعلان قال فيه « مطلوب رجل لادارة مزرعة نرجس صغيرة »

وردا على هذا الاعلان ، تلقينا رسالة من شخص يدعى ف. مارتين قال فيها انه مارس هذا النوع من الزراعة طوال السنوات الثمانى الاخيرة .

وفى الصباح التالى توقفت سيارة نقل صغيرة أمام الكوخ وخرجت منها سيدة صغيرة الحجم وقالت :

ـ اننى ادعى فال مارتين .. اننى مكسيكية برتغالية ... هل تحبون المكسيكيين أم البرتغاليين ؟

كانت فال مارتين قصيرة لا يزيد طولها على ١٥٢ سنتيمترا ، هزيلة لا تزن أكثر من ٤٠ كيلوجراما ، وكان

شعرها الاسود مغطى بمنديل أحمر ، وكانت لها بسمة تشيع بهجة ومرحا ، بينما تدور عيناها السوداوان في كل مكان .

ولا أذكر أننا تعاقدنا مع فال رسميا ، ومع ذلك فقد بقيت معنا عشر سنوات ، وفي ظل ارشادها أتقن زوجي ونورمان الصغير زراعة النرجس .. فقد استأجر نورمان حقلا وتعلم من فال كيف يحرث ويعزق ، ويشق الخطوط لغرس الابصال .

وسرعان ما أصبحت « فال » من أقرب الصديقات الى أمي التي جاءت للاقامة معنا خلال موسم زراعة أبصال النرجس ... وقالت فال لأمي :

ـ ان سيدة عجوزا سمينة مثلك يجب أن يكون لها زوج ..

وكان أبي قد مات قبل ذلك بسنوات بعيدة ... فضحكت أمي وقالت :

ـ هل هناك شخص تفكرين فيه ؟

فقالت فال : سوف أجد هذا الشخص .. وسترين

وظلت فال تذكر مرشحا للزواج كل بضعة أيام ، وتبين أن أيب العجوز هو مرشحها المفضل .

وقالت لأمي : يجب أن تتزوجي هذا العجوز ... ان لديه معزتين ، وتستطيعين ان تشتغلي معه بصناعة الجبن . وسأطلب اليه الحضور لرؤيتك

وجاء أيب العجوز في اليوم التالي .. كان صورة نموذجية للناسك المتعبد ، يحب كل الحيوانات ، يعيش في كوخه الجبلي مع دجاجاته وبطه وقططه وعنزتيه .. ووقف عند الباب الخلفي ثم رفع قبعته في تأدب ، وتساقطت شعرات صفراء من أعلى رأسه ، وكان يرتدي سروالا يحمل آثار مئات من الوجبات التي يتناولها الأعزب .. بقع بيض وآثار لحم ولبن ومربى !

وعندما طلبنا اليه الدخول ، قال : أجل .. أجل .. انه يوم جميل (مع أن الامطار كانت تهطل بغزارة) ، وتبادلنا الحديث معه ، ولكننا لم نفهم شيئا مما يقوله ، ما عدا كلمة أو كلمتين .. وعندما تأهب للانصراف ، قدمت له بعض المربى فقال : أجل ، انني أحب المربى المصنوعة في البيت

وخرج بعد ذلك الى الامطار ... وانطلق بعيدا .. وفي تلك اللحظة دق جرس التليفون .

وسمعنا صوت بول ابلجيت يقول : سمعت أن أيب العجوز عندكم .. متى سيرحل ، انني أريد أن أراه بعد أن أخذ حماما اليوم

ومنذ ذلك الحين أصبح أيب العجوز

يأتي لزيارتنا مرة كل أسبوع .. لم يكن يقرأ أو يكتب ، ولكنه كان يصغى جيدا ، وهي ميزة قل أن تجدها في ذلك المكان .

عمل مربح

ومر الشتاء الطويل الاشهب الممل .. وما أن أخذ نورمان يستعد لأول موسم لقطف النرجس في منتصف فبراير — وهو الموسم الذى يعتمد عليه مستقبلنا الحالى — حتى هبط الترمومتر وتساقط الجليد يومين كاملين . وعندما ذهبنا الى حقول النرجس ، كاد قلبي يتمزق بعد أن شاهدت النظرة التى بدت على وجه نورمان ... كانت الاوراق الخضراء الطويلة ترقد على الجليد في استرخاء ، وتمددت البراعم ، وبدا أن أول محصول للنرجس قد كتب عليه الفناء

وقالت فال في المساء : لا تدعوا القلق يسيطر عليكم .. ان الجليد لا يؤثر على النرجس

وحدق نورمان في وجهها دون أن يقول شيئا .. ألم ير بنفسه النرجس وقد رقد على الجليد بلا حياة ؟

ومع ذلك فقد وقعت المعجزة ، وارتفعت البراعم الصفراء بعد أن استمر المطر الدافيء بضع ساعات وسطعت الشمس فوق الحقول .

وأنت حين تزرع النرجس ، تثمر كل واحدة من أبصاله زهرة واحدة في العام الاول ، ولكنها تبقى في الارض لتواصل نموها .. وفي السنة الثانية تصبح ذات أنفين أو ثلاثة ، كل واحد منها ينتج زهرة .

واستطعنا في العام الأول أن تقطف ٩٠ ألف زهرة ، ووجدنا لها سوقا طيبا . وفي الصيف زادت أطنان النرجس التى اشتراها نورمان من ثلاثة الى ستة ، وباع نورمان الفائض الى متجر للزهور ... وهكذا نجح مشروع النرجس

ايما تروض الحطابين

عندما ذهبت الى « سكوتسبرج » أول مرة ، رأيت رجلا فقد ذراعه اليسرى ، وآخر فقد يده اليمنى وثالثا انحنى جسمه حتى كاد لا يستطيع المسير ، ورابعا برز من أحد أكمامه خطاف مقوس .. لقد كان أولئك هم الحطابين يحملون علامات مهنتهم القاسية !

لقد عاش أهل الوادى معيشة قاسية فترة طويلة ، ولكنهم كانوا يتمتعون بها حقا ، وقد ساعدنى هذا على فهم ايما هيدن جيدا ، فقد رأيتها في متجرها وهي تقرأ رسالة لرجل أمي ، ولكن كان من العسير أن أتصورها

فى دور قاتل جبـار ٠٠٠ أما الآن فقد عرفت أنها من أقوى النساء فى العالم ٠

***

ان أكثر ما يخافه سكان الوادى شيئان : النـار والفيضـان ٠ وقد رأيناهما بأنفسنا ، وان كنت لم أشهد فيضان وادى امبكوا الكبير الذى حدث سنة ١٨٦١ .

كانت الامطار الاولى المنهمرة مجرد رذاذ خفيف حقـا ، يجلو التراب عن أوراق الاشجار القرمزية ، ويجعـل الوادى أكثر اشراقا ٠٠ ثم بدأ المطر الغزير الذى اشتهرت به ولاية أوريجون ولم تمض غير فترة قصيرة حتى كان النهر يجوس خلال أشجار الصفصاف والحسك ، وبيوت الدجاج المترنحة ، والزوارق المنقلبة ٠٠٠ وأخيرا أصبح سيلا جارفا يبلغ اتساعه ٤٠٠ متر ٠ ومع أن بيتنا كان يقع فوق ربوة عالية عن النهر ٠٠ فاننا آدركنا ان الكثيرين كانوا يواجهون الخطر ٠ وفى ذات ليلة كنا نرقب مياه النهر وهى ترتفـع باطراد ، وعندئذ جذب نورمان الصغير مصباحا يدويا وجرى خلال العاصفة ليحـذر بعض الجيران الذين وفدوا حديثا على الوادى ، وماكاد يصل الى بيتهم ، حتى كان النهر قد بلغ مستوى النافذة ٠٠ وخاض الماء الى الداخل ، وأضـاء مصباحه اليدوى فى أنحـاء الغرفة التى امتلأت بالماء ، فشـاهد طفـلا ينـام فوق حشية تطفو فوق الموقد !

وفى الطـابق الأعلى كان الرجـل وزوجته نائمين تماما ، فأيقظهما وقاد الاسرة الى بيت ايما الذى كان يمتلىء باللاجئين ٠٠٠ ورأى ايما على وشك الخروج وهى تقول :

ـ هناك جماعة من الحطابين السكارى يلعبون الورق فى كوخ بجوار النهر ، ولا يريدون مغادرته

وارتدت ايما حـذاء طويلا ومعطفا للوقاية من المطـر ، وانطلقت تشـق طريقهـا فى الظلام ، وعنـدما بلغت الـكوخ ، كان النهر قد بلـغ أقدام اللاعبين ٠٠ وقالت لهم بهدوء :

ـ هيا أيها الرجال ٠٠ ألا تحسون ؟ انهضوا قبل أن يصبح المكان كله فى النهر ٠

فقال صاحب الكوخ : هونى عليك يا ايما ٠٠٠ اننى أتمتع الليلة بأكبر حظ فى حياتى ٠ ولن أخرج الآن

وخرجت ايما ٠٠ ولكنها لم تستطع أن تنسى السـكارى ٠ وبعـد بضع سـاعات عادت تخوض المـاء وكان اللاعبون ما زالوا جالسين وقد غمرت

المياه مقاعدهم .. وقالت لهم :

ـ هيا اخرجوا الآن فورا

فقال أحد اللاعبين : سأخرج . لقد تعبت من الجلوس فوق الماء البارد !

وقال صاحب الكوخ : لقد ربحت كثيرا ولن يهمني ما يحدث بعد الآن

ودفع المائدة من خلال الباب ، فأخذت تطفو فوق الماء ، ثم قذف مقعده وراءها ، وقالت زوجته وهي تقهقه ضاحكة :

ـ هيا بنا

وأخذا يقذفان أثاثهما قطعة بعد أخرى وسط الفيضان ، ثم سارا في الماء الى الفراش ، وكانت حشيته ترتفع فوق الماء بحوالي عشرة سنتيمترات .. ومالبثا أن استغرقا في النوم العميق !

الخط الجماعي

يمكن أن يكون لديك تليفون وأن ترحب به .. وانني أعرف أنه من المستطاع في عصرنا الحالي أن تتحدث بالتليفون من الشاطيء الغربي الى الشاطيء الشرقي لأمريكا ، ويتباهى رجال شركات التليفون بأجهزتهم ، وهم يأملون أن يجعلونا ننسى كيف قتلوا بطريقة شائنة خطوط التليفون الريفية ، وهي أجمل أداة اخترعت للاتصال البشري

فعندما كان في الوادي خط تليفوني جماعي ، كانت كل دقة جرس تسمع في كل جهاز ، وفي استطاعتك أن تلتقط مكالماتك في أي مكان تكون فيه ... وكان الناس يصغون بطبيعة الحال الى مكالمات ليست من شأنهم .

وقد تضاربت الاقوال حول هذه التسلية الطريفة ... فالبعض يقول صراحة أن الاصغاء لمحادثات الغير شيء غير مشروع ، والبعض يرى أنه الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يفعله الجيران .. وآخرون يقولون أنه لايهمهم من هذا كله الا أن كل سماعة ترفع تمتص جزءا أكبر من الحرارة من الخط التليفوني . وعندما يزداد عدد الأنوف التي تصغى ، لا يستطيع أحد أن يسمع شيئا . وكان هذا حقيقيا بكل تأكيد ، ولكن كان هناك حل لذلك ، وهو أن الذين يستطيعون الاستماع كان يسرهم دائما أن ينقلوا الحوار الذي سمعوه !

وكانت مكالماتنا التليفونية محبوبة دائما اذ كنا نتلقى كثيرا من المكالمات من مسافات بعيدة ، وسرعان ما تعلمت كيف أميز شخصية المستمعين الينا .. فالبعض لديه ساعة ذات دقات عالية ، وثان يتأرجح فوق مقعده الهزاز الذي يحدث صريرا مرتفعا . وفي ذات ليلة اتصل بي شخص من شيكاغو ، وكان

هناك شخص يصغى الى محادثاتنا ، وهو مصاب بحالة سيئة من الزكام الى حد أننى لم أستطع أن أسمع شيئا من المحادثة واخيرا قلت له :

ـ بالله عليك نظف أنفك جيدا ، وسوف ننتظرك حتى لا تفقد شيئا من الحديث .

فقال لى : حسنا يا جلاديس ..

وانتظرته فعلا . وسرعان ماعاد ، واستأنفت الحديث مع شيكاغو

وفى كل الحالات ، كان الخط التليفونى الجماعى يربطنا معا ، ولا سيما فى حالات الطوارىء . وقد حدث بعد ظهر يوم مطير أن دخل أيب العجوز متجر ايما وقد بدا موحشا كالجو نفسه وقال :

ـ لقد احترق كوخى ... ضاع كل شىء فيه ... الفرن وكل شىء ، ولم أنقذ غير الماعز والدجاج

ورفعت ايما سماعة التليفون وقالت :

ـ من الذى يسمعنى ؟

فردت أصوات كثيرة .. وعندئذ قالت ايما :

ـ لقد احترق كوخ أيب العجوز ليلة أمس ... يجب أن نفعل شيئا لمساعدته .

وظل جرس التليفون يدق بلا انقطاع طوال الساعة التالية ..

البعض يعرض بيتا للدجاج يستطيع الاستغناء عنه ، والبعض سيضع ألواحا يمكن نقل البيت عليها

وقبل حلول الظلام ، كان المشتركون فى الخط التليفونى قد استعاروا جرارا ، وسحبوا بيت الدجاج الى أيب العجوز وأقاموه فوق أساس من أحجار الحقل ، وقاموا بطلاء الجدران بالجير ، وصنعوا فراشا ومقعدا هزازا وموقدا خشبيا صغيرا ... وأحضروا له كثيرا من المؤن والطعام وبعض الاقمشة والمناشف

خبرة فى الصلصال !

كنت فتاة صغيرة عندما قابلت نورمان لأول مرة ، وأعتقد أنه مازال يعتبرنى طفلة حتى اليوم يجب أن يتركها تفعل ماتشاء ... وقد تحمل كثيرا من مضايقاتى ونزواتى ، بل وتمتع بها ... وعندما أصبحت فجأة أستاذة فى صناعة الخزف ، هزته الصدمة ، ولكنه لم يتحطم !

وقد بدأ هذا الامر عندما جاءت صديقة لى من لوس انجليس تسمى ستيلا هاردى ، تحمل الصلصال والالوان وسألتنى :

ـ هل يمكننا أن نفتتح فصلا لتعليم صناعة الخزف هنا ؟

وجلبت لها بعض الفتيات ... وسرعان ماشرعنا نلقى عليهن الدرس

الاول ، ولكن لسوء الحظ أن ستيلا دعيت للعودة فجأة الى لوس انجليس ، واضطررنا الى التخلي عن المشروع

وبعد بضعة أسابيع شكت لي الكثيرات من تلميذات ستيلا من توقف دروس الخزف ، وهددت بعض الفتيات اللواتي يعملن في قطف محصول النرجس بالامتناع عن الحضور اذا لم تستأنف هذه الدروس • واضطررت للسفر الى لوس انجليس حيث غرقت في عالم جديد غامض ••• لدراسة صناعة الخزف وتلوينه كما تعلمت كيف أصنع الزهور الجميلة من الصلصال

وكان اهتمامي في بداية الامر أن أعلم الفتيات القليلات اللواتي خدعتهن ستيلا بسفرها ، ولكن ما لبثت أن اقتنعت بفتح فصول جديدة ، وسرعان ما امتلأ المنزل ، ثم حظيرة السيارات بالادوات

واخيرا بنينا ستوديو جميلا

وأخذت التلميذات يتدفقن من المناطق الريفية البعيدة ، وبعض سيدات المجتمع الراقي ••• وكان شعارنا الاول هو « الخزف من أجل المتعة » ، ولكن بعض التلميذات استطعن انتاج قطع قيمة من الخزف وفي النهاية اجتذب الخزف اهتماما كبيرا في أنحاء الولاية ، وبدأت أكتب مقالا ثابتا في مجلة «بوبيلار سيراميك» وشملت فصولي ذوي العاهات والمصابين باضطرابات عقلية كما تلقيت دعوة لالقاء خطب ومحاضرات في معارض الهواة والنوادي السياسية في المدن البعيدة •

وداع « فال »

وانتشرت دعوة « الخزف من أجل المتعة » في أنحاء الولاية كلها حتى أصبحنا في بعض الاحيان نمد أكثر من ٢٠٠ ستوديو بمنتجاتنا ، وقد أدهشني نورمان عندما أعلن في نهاية العام أننا ندير عملا بمبلغ ٤٠ ألف دولار سنويا

وألهاني انشغالي بهذه الفصول حتى لقد نسيت أننا نعمل أيضا في زراعة النرجس ••• الى أن جاءت فال مارتين يوما الى المطبخ وقالت :

ـ يجب أن أقول لك يا حمامتي الصغيرة أنني لا أظن أنني سأعود مرة أخرى

قلت : لماذا ••• هل حدث شيء يا فال ؟

فقالت ضاحكة : كلا ••• ولكني أعتقد أنكما تعلمتما كل شيء الآن عن زراعة النرجس

وغادرتنا فال بعد وداع باك •• وكانت قد أمضت معنا عشر سنوات

رائعة تعلمنافيها الكثيرمنها ، وأصبح نورمان خبيرا فى زراعة النرجس ، كما ساهم بابتكاراته فى تحسين زراعة هذه الزهور فى الوادى كله

ما الذى جاء بك الى هنا ؟

كانت الدعوة للانضمام الى نادى الزراع فى « سكوتسبرج » - وهو المركز الاجتماعي للوادى ، هى أكبر نصر حققناه فى الوادى ، فقد كانت تعنى أن قبولنا قد تم أخيرا

وكانت الليلة التى قدمنا فيها الى النادى ليلة لا تنسى ، فقد قال جيمس فان ناتا الذى قدمنا :

- أود أن أحدثكم أيها القوم الذين تملكون الحقوق الاصلية فى هذا الوادى انكم تملكون أرضكم بطريقة قانونية خالية من كل عيب .. ولكنكم بمعنى آخر لا يمكنكم امتلاكها .. فمن الذى يستطيع أن يشترى أو يبيع جمال ظبى أو قوة سمكة تكافح فى النهر ؟ من يملك الصفاء والهدوء الذى نشعر به ونحن نرقب الليل وهو يزحف حثيثا فوق تلك الجبال ؟ انها جميعا ملك الله

وساد القاعة سكون عميق ... بينما التفت جيمى الينا وقال :

- هذه الاشياء تشملكم أنتم أيضا ، لانكم صنعتم لأنفسكم مكانا فى الجماعة ونحن نرحب بكم كأصدقاء وجيران

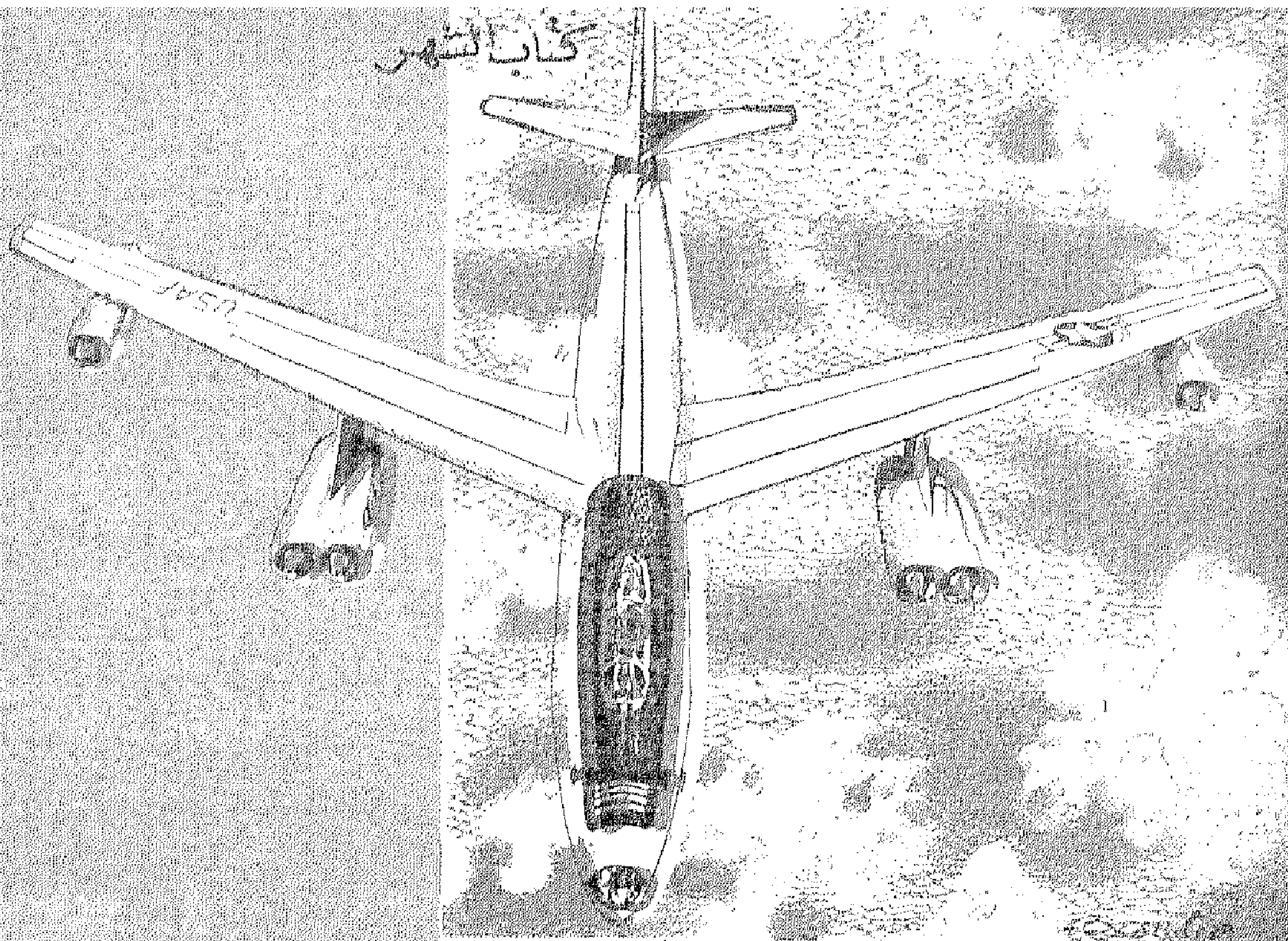
ولا تزال كلمة جيمس فى تلك الليلة باقية فى ذهنى كأنها قصيدة من الشعر ... وأحسست أن نجاحى فى عمل الخزف يبعدنى عن الحياة والناس الذين أحببناهم فى الوادى ، فقررت أن أقلل كثيرا من دروسى ومحاضراتى ، واحتفظنا بالاستوديو كهدية صغيرة للقرية

وكان أجمل شىء فى تقاعدنا عن العمل ، هو أنه أصبح لدينا الكثير من الوقت لانفاقه مع جيراننا وضيوفنا .. ولا يزال الزائرون يفدون الينا من أماكن بعيدة للتمتع بهدوء الغابة والنهر ، ومنظر القنادس وهى تلهو معا كالاطفال ، والغزلان وهى تحدق بعيونها من وراء أشجار الريحان

شذوذ .. !

قالت فتاة المدينة لصديقها الجديد .

- تقول انك لم تذهب قط الى اى طبيب للامراض العصبية والعقلية . لابد انك مجنون!



أسيران من السماء

عن كتاب The Little Toy Dog

بقلم

وليام هوايت

أسيران من السماء

عندما سمعت كونستانس ماكون دقة الجرس على بابها الامامى ظنت أنه غلام من الموزعين ٠٠ كانت تلك نهاية يوم عصيب ، وكانت تطوى الملابس الموضوعة فى منتصف أرضية غرفة الجلوس ٠٠

ولكن القادم كان الكابتن تبيزو وزوجته مارى ، وقد دلفا على الفور قبل أن تدعوهما لذلك ، وكان هذا عجيبا ، فان آل ماكون لم يكونوا وثيقى الصلة بآل تبيزو الى هذا الحد ، ولم يكن الوقت مناسبا لمثل هذه الزيارة

وقال سام : «اجلس» ٠٠ ثم التفت الى زوجته مارى وقال :

ـ عودى أنت يا مارى للعناية بالاطفال

وما كادت مارى تغادر الغرفة حتى قال :

ـ لقد تلقينا الآن أنباء بأن طائرة جون مفقودة ، والمعتقد أنها سقطت فى بحر بارنتس ٠

فقالت كونستانس : يالله ٠٠ ان الجو شديد البرودة هناك

ولما كانت زوجة لاحد ضباط القيادة الجوية الاستراتيجية ، فقد كانت تعرف الكثير من الجغرافيا ٠٠ ومضى الكابتن تبيزو يقول :

ـ علينا أن نبحث الامر فورا ، لان أول نشرة للانباء ستذاع فى الثامنة

وفى نفس اللحظة ، كان ثلاثة ضباط آخرون يقفون فى ثلاث غرف أخرى للجلوس على مقربة من قاعدة « فوربس » الجوية فى توبيكا بولاية كنساس ، ليقولوا نفس الشىء لثلاث زوجات أخريات يعمل أزواجهن فى القيادة الجوية الاستراتيجية ، وكانوا جميعا أعضاء فى نفس الطائرة التى يعمل عليها جون ماكون

وكانت « جيل أولمستيد » زوجة مساعد الطيار بروس اولمستيد ، وطفلتهما الصغيرة كارين تقيمان فى بيت أبويها فى « بلينفيلد » بولاية نيوجيرسى ، ولما كانت أمثال هذه الرحلات التى يقوم بها زوجها عبر البحار تدوم فى الغالب حوالى ثلاثة شهور ، فانها كغيرها من الزوجات الشابات كانت تفضل انتظاره فى بيت أبيها ٠ وكان لجيل سبب آخر يدعوها لذلك ، وهو أنها كانت تعتقد أن هناك طفلا آخر فى الطريق ، ولكنها لم تذكر الامر لزوجها قبل رحيله ، لانها لم تكن على ثقة من ذلك ٠٠ وكانت تفكر فى تلك اللحظة فى الكيفية التى تزف

اليه النبأ بها فى رسالتها التالية ..
وعندما أمكن معرفة المكان الذى تقيم فيـه ، كان قد انقضى على الموعد المحدد لوصول الطائرة ست ساعات، ونظمت عملية للبحث عنها بحراوجوا فى منطقة بحر بارنتس ، وقالوا لها أنهم يتصـلون بها بمجرد معرفة أى شىء آخر .

وعندما أبلغت « نادين بالمر » زوجة قائد الطـائرة ويلارد بالمر بأن طائرة زوجها مفقودة ، وربماتكون قدسقطت فىالبحر ، قالت « أنها لاتعتقد ذلك، لانه اذا كان هناك شىء يستطيعزوجها أن يفعله جيدا .. فهو أن يطير » .. لقد كانت ثقتها تامة فى براعته الى حد أنه لم يساورها أى قلق عليه ..

طائرة غريبة

كان الكابتن بروس أولمستيد هو أول من شاهد المقاتلة الروسـية .. ولما كان مساعدا لقائدطائرة استطلاع من طراز (ر.ب ـ ٤٧) تابعة لسلاح الطيران الامريكى فقد كان بينواجباته أن يساعد الطيار على مراقبة الطائرات الاخرى . وقال لويلارد فى جهـاز الاتصـال الداخلى عندما شـاهد ذيل البخار يسير موازيا لطريقهم : « هناك طائرة مجهولة الى يمين طائرتنـا .. وفوقها »

فقال ويلارد: استمر فىمراقبتها. كانوا يطيرون عندئذ فوق الميـاه القريبة من الشاطىء القطبىالسوفيتى .. وظلت الطـائرة السوفيتية تسير فترة من الوقت على مسافة ثابتة منهم أولا الى اليمين ، ثم الىاليسار ، وأخيرا هبطت واختفتتحتهم .. وعاد ملاحو الطائرة الامريكية الى تركيز اهتمامهم فى أعمالهم الخاصة غير العادية

كانت طائرتهم صـورة معدلة من الطائرة بـ٤٧ (وهى القاذفة النفاثة ذات المحركات الستة التى تستخدمها القيادة الجوية الاسـتراتيجية) وقد أخلى داخلها من القنـابل ووضع بدلها صناديق ألكترونيةسوداء ، وهوائيات وكانت مؤخرتها مليئة بالاجهزة الىحد يضطر الداخل اليها الى الزحف على يديه ، وكانت هناك مقصورة منفصلة للاخصائيين الالكترونيين وهم الميجور يوجين بوزا ،والكابتنأوسكارجوفورث والـكابتن دين فيليبس ، وكانوا هم وأجهزتهم الغرض الاساسى من هـذه الرحلة التىتمت فى أوليوليو ١٩٦٠

وكانت القـاذفة « ر.ب ـ ٤٧ » تعمل بعيدا فى المياه الدوليـة ، كما تفعل الطائرات والغواصـات وسفن الصيد الروسية التىتجوسباستمرار حول خطوط الدفاع عن حدود أمريكا

•• وكان هناك جهاز للرادار على مكتب صغير فى مقدمة الطـائرة يستخدمه الكابتن جون ماكون للتأكد من موقعهم بالضبط •• وفى السـاعة الثانية والدقيقة السـابعة والخمسين بعد الظهر بتوقيت (زولو) وهو التوقيت الموحد لكل عمليات القيـادة الجوية الاستراتيجية فى كل أنحـاء العالم ، دلت آلات الرادار على أن السـاحل السوفيتى يقع على مسـافة حوالى ٨٠ كيلومترا من جناحهم الايمن • وعلى طول خط الساحل نفسه الى الامام ، كانت تبدو حدود رأس « سافاتوى نوز » أو « الانف المقدسـة » ، وهى النقطة التالية للتأكد من موقعهم ، وقد بدت بعيدا على شاشة الرادار الذى يبلغ مداه ١٠٠ كيلومتر ، ودلت المؤشرات الاخرى على أن الطائرة تحلق على ارتفاع ٩٠٠٠ متر بسرعة ٤٢٥ عقدة فى الساعة ، وبعد برهة سـيحين موعد الامر الذى يصدره «ماكون» ملاح الطائرة بالتغيير التالى فى الطريق ، بالاسـتدارة الى اليسار ، والتوغل وسـط قفار بحر بارنتس الباردة ، بعيدا عن الساحل السوفيتى •

وقبل أن يصدر الامر بتغيير الاتجاه دهش بروس أولمستيد عندما نظر نحو الجناح الايمن للطـائرة فرأى طائرة قصيرة من طراز ميج على مسـافة ١٢ مترا من طرف جناحهم ، وكانت قريبة الى حد أنه اسـتطاع أن يرى الطيار تحت مظلته ••

وأسرع بابلاغ النبـأ الى بالمر قائد الطائرة ، الذى قال له فى اقتضاب :

ـ من أى جحيم جاء هذا الرجل ؟

ثم ركز اهتمامه على تنفيذ تعليمات الملاح لتغيير الاتجـاه ، ولم تكن تلك مناورة مفاجئة ، بل دورة بطيئـه تتطلب دقيقتين لاتمامها •

وما كادت الطائرة تبدأ انحدارها ، حتى انحرفت الطائرة « الميج » متجهة نحو الشـاطىء ، وما لبثت أن عادت واقتربت من مؤخرتهم ، وفجأة رأى بروس مدفعها وقد انبعث منه وميض متتابع فى اتجاه جناحهم الايسر

وعلى الفور حاول أولمستيد أن يرد على النار مصوبا مدفعى الطائرة بوساطة الرادار ، ولكن الميج كانت قريبة الى حد أنها ملأت شاشة الرادار •• وما كاد يبدأ فى اطلاق النـار مستعينا بنظره ، حتى بدأت طائرتهم تدور ، واشتعل اللهيب فى محركين من محركات الجناح الايسر الثلاثة

وحاول أولمستيد أن يساعد الطيار على استعادة سـيطرته على الطائرة ، وكادا ينجحان معـا ، لولا أن دوى

عندئذ صوت طلقـــات مدوية أخرى دامت حوالى ٢٠ ثانية • وسمع صوت الميجور بالمر فى جهاز الاتصال الداخلى يقول• « استعدوا •• استعدوا ••• »

وعاد الطيار ومســاعده يكافحان ١٠ ثوان أخرى للسيطرة على الطائرةدون جدوى •• وأخيرا ســـمع أولمستيد وماكون صوت بالمر يصيح :

ـ اقفزا من الطائرة •• اقفزا

مهمــة خطرة

ولكن لمـــاذا كلفت احدى طائرات السلاح الجوىالامريكى بالقيامبدورية فى تلك المنطقة النائية القريبة من قمة العالم ؟

لكى تعلم مدى الحاجة الى مثل هذه المهام ، لابد أن تزور غرفة المراقبة بمقر القيادة الجوية الاستراتيجية التى تقع على مقربة من (أوماها) بولايةنبراسكا •• فهناك التليفون الاحمر وهو الاداة الوحيدة التى يمكن أن يأتىمنها الامر النهائى من رئيس الجمهورية للطائرات الامريكيـــة بضرب أهداف العدو •• ولكن أية أهداف تلك التى ينبغى أن تسعى الطائرات لضربهــا •• وكيف يتسنى الوصول اليها ؟

ان كل عملاء العــــدو يستطيعون الوقوف أمام « كيب كانافيرال » أو قرب قاعدة فاندنبرج الجوية ، فىحين أن أى أمريكى لم يرقط قواعد الاطلاق الصاروخية فى آسيا الوسطى ، ومن ثم فان على القيادةالجوية الاستراتيجية أن تعمل بجد ، وبمخـــاطرة عظيمة لتعرف القليـــل الذى يجب أن يعرفه المراقبون الامريكيون عن مثـــل هــذه الاهداف ••• هذا فضلا عن أن لكل طرف مصلحة حيوية فى معرفة أنظمة دفاع الرادار الخاصه بالطرف الآخر والتى تحـذره من اقتراب الطـائرات المغيرة •

ولقد كان هنـــاك سبب آخر يدعو نادين بالمر ، وكونستانسماكونوجيل أولمستيد للفخر بأزواجهن ، فقد منح الثلاثة قبل رحيلهم الى انجلترامباشرة لقب « ملاح أول » ، وأقام آل بالمـــر مأدبة صغيرة احتفالا بهذه المناسبة ، وكانت ابنتهما ميشيل مارى التىتبلغ الحـــادية عشرة من عمــرها قد زينت المنـــزل ، وأعدت هدية رمزية لابيها وضعتها فى غلاف أنيق ، عبـــارة عن لعبة من البلاستيك فى صورة كلب

وكان الـــكلب الصـــغير فى جيب الـــكابتن بالمر وهو يكافح للاحتفاظ بسيطرته علىطائرته فوق قمم الامواج البيضاء لبحر بارنتس !

فى البحر

انتظر بروس أولمستيد سماعالامر

بالقفز مرة أخرى ، اذ لم يستطع أن يصدقه فى المرة الاولى ، وعندما تكرر جذب الحلقة المعدنية التى تقذف بمقعده بعيدا عن الطائرة ، فاذا به ينطلق الى أعلى كالقذيفة ، واصطدم بالطائرة التى كانت تنطلق بسرعة ١٠ كيلومترات فى الدقيقة ، فحطمت احدى فقرات ظهره ، وفقد الوعى عندما بدأ يهوى نحو بحر بارنتس الذى يقع على مسافة ٨ كيلومترات الى أسفل

أما جون ماكون ، فقد قذف مقعده الى أسفل بقوة تعادل قوة الجاذبية تسع مرات مما أفقده وعيه مؤقتا هو الآخر ، وظل يهوى حوالى دقيقتين حتى فتحت مظلته الهابطة على ارتفاع ٤٣٠٠ متر بطريقة آليه •• وعندما اقترب من البحر فك ماكون طوفه المطاطى الذى ينتفخ بالهواء تلقائيا ، وكان الطوف وعدة الانقاذ يتأرجحان من حبل من النايلون طوله ١٥ مترا : وما كاد يصل الى الماء حتى جذب الحبل المتصل بالطوف الصغير ، وصعد فوقه •• لقد أصبح فى أمان •• فى تلك اللحظة على الاقل ••

أما أولمستيد فقد فتحت مظلته على ارتفاع مماثل ، وقد شعر بصدمة مؤلمة فى ظهره المحطم عندما أبطأ سقوطه فجأة من ٢٢٠ كيلومترا فى الساعة الى حوالى ٢٥ كيلو مترا وغاب عن وعيه مرة أخرى ، ولكنه استرد الوعى فى الوقت المناسب ليفك معدات الانقاذ ، وبينما كان يسقط فى الماء ، شاهد رجلا آخر يسقط فى البحر على مسافة قريبة منه ••

وعلى الرغم من ظهره المصاب ، فقد استطاع أولمستيد الصعود فوق الطوف وفى غمرة ارتباكه ، ترك جهاز اللاسلكى يسقط فى الماء ، وكانت برودة الماء القارصة قد بدأت تستنزف قواه ، وكان يعلم أنه سيضطر للقفز من الطوف قبل أن تتجمد أطرافه ولا يقوى على الحركة •• ومع ذلك فقد عاد الى فقد وعيه مرة أخرى بعد وقت غير طويل ••

وظل أولمستيد يتقلب بين اليقظة والاغماء •• وفى فترات وعيه كان الرعب يتملكه من شدة البرد الذى يشعر به ، ومدى الضعف الذى حل به وبطء ضربات قلبه •• وقال لنفسه أنه لن يعيش طويلا ، ثم جاءت فترة راحة قصيرة ، اذ وجد فى عدة الانقاذ قطعا من كحول جاف تستخدم فى الطهى مع علبة ثقاب محصنة ضد الماء فأعد قطعة مشمع كبيرة كالخيمة ، ثم أشعل الكحول وأشاع الدفء فى الهواء داخل الخيمة ، ثم أحس بالرغبة فى

النوم من جديد ..

واستيقظ أخيرا على صيحات تتعالى من بعيد .. كان هناك رجل آخر يجلس فوق طوف يلوح بيده لسفينة مقبلة فى الافق .. فانتزع أولمستيد مشمعه وراح يلوح به فى جنون نحو السفينة ، كما لوح لطائرة خضراء اللون بدت فوقه وأخذت تهز جناحيها

وبعد بضع دقائق ، وجد أولمستيد نفسه يرفع الى سفينة صيد روسية ، ثم حملوه الى غرفة الغلايات الدافئة ، وهناك أعطته سيدة يبدو أنها طبيبة السفينة عقارا مهدئا لتخفيف آلامه .

وبعد أن وفروا له سبل الراحة ، أشار البحارة الروس بايماءاتهم الى أنهم أخرجوا رجلا آخر من البحر ، وعرف من حركاتهم الوصفية أنه لابد أن يكون « جون ماكون » ــ الذى كان فى تلك اللحظة جالسا فى غرفة أخرى للغلايات يحتسى الشاى الساخن ، ثم نقلوه الى سرير ، ووضعوا فوقه أغطية من جلود الماشية .. وكان سلوك البحارة الروس معهما وديا

الاتجاه الى موسكو

ظلت سفينة الصيد تسير لمدة ست ساعات فى دوائر مهتزة ، ولعلها كانت تبحث عن أحياء آخرين من ملاحى الطائرة ، ثم ما لبثت أن سارت فى طريق مستقيم لمدة ست ساعات أخرى وأخيرا توقفت ، ونقل الامريكيان الى سطحها من أماكنهما المنفصلة وشاهد كل منهما الآخر لاول مرة .. وكانا الحيين الوحيدين من بين ملاحى الطائرة الستة .

واقتربت احدى سفن حرس السواحل من سفينة الصيد ، ثم طلب اليهما الصعود اليها ، وهناك أظهر البحارة شعورا وديا ، وطلب ماكون الاتصال بالملحق الجوى الامريكى فى موسكو ، فقيل له ان رؤساءهم سوف يعنون بهذا الطلب وقال لهما ضابط يتحدث الانجليزية انهما كانا فى مكان كان يجب ألا تكون طائرتهما فيه ، وان ذلك قد يؤدى الى حدوث شىء هام

وهنا عرف أولمستيد وماكون أنه من المحتمل أن يكونا فى الطريق لمواجهة متاعب جديدة .

ومن رصيف الميناء نقل ماكون وأولمستيد الى مطار صغير ، حيث استقلا طائرة هبطت الى مطار يبدو أنه فى بلدة كبيرة لعلها « أركانجلسك » أكبر ميناء روسى فى القطب ، وهناك تولى ثلاثة من الضباط الروس البحريين استجوابهما . وعلى الرغم من اصرار ماكون على أن طائرتهم لم تقترب من البحر الابيض قط ، فقد أحضر الضباط

خريطة بحريه ، وأشاروا الى أن الطائرة سقطت فى المياه الروسيه

ونقل الرجلان بعد ذلك الى طائرة متجهة الىموسكو ، ومن مطار العاصمة نقلا فى سيارةبوليس الى أحدالسجون حيث وضع كل منهما فى زنزانة مستقلة .

وعندما استجوب أولمستيد لاول مرة فى موسكو ، جلس أمام خمسةمن المحققين الروس ، وتولى أحدالمترجمين ابلاغه الاسئله ونقل ردوده .. وكان أول سؤال :

ـ هل تعرف لماذا أسقطت طائرتكم؟

ـ كلا

ـ لقد أسقطتكم طائرةروسية لانكم اخترقتم المجال الجوى الروسى

ـ لا أعتقد أننا اخترقنا المجال الجوى الروسى .

وهنا انحنى ضابط كبير فى حوالى الخامسة والخمسين من عمره مبتسما وقدم له علبةسجائر وعرف من المترجم أنه الكولونيل بانكراتوف(ويبدو أنه هو الذى تولى التحقيق مع فرنسيس جارى باورز قائد طائرة التجسس ى ـ ٢)

وكان السؤال التالى هو : قل لنا أسماء زملائك من ملاحى الطائرة ؟

كان هذا سؤالا محرجا لاولمستيد، الذى لم يعرف هل يحق له كضابط فى القيادة الجوية الاستراتيجية أن يذكر هذه الاسماء أم لا .. ولم يكن يعرف أنه بمجرد اعلان فقد طائرتهم ، أذيعت أسماؤهم ورتبهم وعناوينهم فى كل صحيفة واذاعة وتليفزيون فى أمريكا

ولكن أولمستيد لم يذكر غير اسمى جون ماكون ، والميجور ويلارد بالمر الذى ظن أنه لايزال حيا .

بحث بلا جدوى

وعبر الاطلنطى ، كانت زوجات الملاحين الستة يجلسن أمام أجهزة الراديو .. ولكن لم تكن هناك أية أنباء عن الطائرة المفقودة ، ولعل خروشوف نفسه لم يكن قد عرف بعد شيئا عنها ، فقد كان يقوم اذ ذاك برحلة ودية للنمسا مع بعض رجاله ، وفى ٣ يوليو سأله صحفى أمريكى فى سالزبورج عن الطائرة (ر.ب ـ ٤٧) فنظر اليه ثم قال فى برود : لا أعرف شيئا مطلقا عن هذه الطائرة

وكان يبدو حقا أنه هو وبقية حاشيته لايعرفون عنها شيئا

ولكن فجأة .. وبعد ثلاثة أيام ألغيت كل مقابلات الوفد الروسى بطريقة غامضة ، واعتكف الزعماء الروس فى فنادقهم ، حتى ظهر خروشوف أخيرا ليعلن أنهم قرروا

اختصار جولتهم فى النمسا بحجة أنه متعب ..

وحزم الروس الكبار حقائبهم للعودة سريعا الى موسكو .

لعبة ذكاء

ان بروس أولمستيد وجون ماكون صورة نموذجية لرجال القيادة الجوية الاستراتيجية ، فقد أحب كلاهما زوجته وهو لم يزل طالبا ، وتزوجها بمجرد تخرجه تقريبا ، وكلاهما اضطر للعمل أو اقترض نقودا ليتم تعليمه ، ولكنهما يختلفـــان فى المزاج ، فجون ماكون شخص ثابت الجنان ـ وهى صفة طيبة فى ملاح الطائرة ـ أما أولمستيد فهو من النوع المندفع ، ولكنه على عكس ماكون الذى لم يتحول قط عن رغبته فى أن يعمل فى السلاح الجوى ، اذ كان أولمستيد ولا يزال يميل الى أن يصبح من رجال الدين

وبعد أسبوعين ، نقل الطياران الى (لوبيانكا) ـ وهى أشـــهر سجون المعتقلين السياسيين فى روسيا ، ولم يتوقف استجوابهما بلا هوادة .

كان كل من الرجلين يتساءل : ترى أى الاســئلة ينبغى الاجابة عليهـا ؟ انهما يذكران أن قواعد السلوك الخاصة بأسرى الحرب تقضى بأنهم أحرار فى أن يذكروا لآسريهم ، أســـماءهم وأعمـارهم ، ورتبهم العســكرية ، وأرقامهم المسلسلة ، أما ماعدا ذلك ، فان عليهم « أن يقـــاوموا أية أسئلة أخرى قدر استطاعتهم » فهل يعنى هذا أن يتمسكا بالصمت تماما ؟

احتجـاج روسى

فى ١١ يوليو أذاعت موسـكو أن طيارين من ملاحى الطائرة (ر.ب-٤٧) وجدا على قيد الحياة واعتقلا .. وجاء فى نشرة تاليــة أن الروس عثروا على جثة واحدة من جثث بقية الملاحين ..

وقالت نادين بالمر على الفـــور : « هذه جثـــة ويلارد » .. فان قائد الطائرة هو آخر من يغـــادرها وفقا للتقاليد ، وقد ثبت صـــدق حدسها عندما أذيع اسم القتيل

وسرعان ما واجهت الزوجات ضغطا شديدا من الصـحفيين الذين أخذوا يتصـــلون بهن وتوجيـــه كل أنواع الاسئلة اليهن .. وقد امتنعت الزوجات فى البداية عن الادلاء بأى شىء قد يكون فيه مساس بأزواجهن .. ثم قررن بعـد أيام قلائل أنه لامانع من الادلاء ببعض الوقائع عن تاريخ حياة الازواج

وواجهت واشنطون أيضـا مشكلة جديدة ، فقـــد كان على الحـكومة الامريكية أن تواجه مذكرة احتجاج روســية ملتهبـــة ، تتهم الطـائرة

(ر ٠ ب ـ ٤٧) باختراق حدود الدولة السوفيتيه على مسافه ٢٢٫٥ كيلومتر شمالى رأس « هولى نوز » ، وجاء فى المذكرة أنه على الرغم من أن مقاتلة سوفيتية أشارت الى الطائرة أن تتبعها فان الطائرة المغيرة واصلت توغلها فى المجال الجوى الروسى ، ومن ثم اضطرت الى اسقاطها فوق المياه الروسية الاقليمية · وقالت روسيا فى مذكرتها أنها ستقدم الطيارين الاحياء الى المحاكمة وفقا للقانون السوفيتى

وعقب اذاعة هذه المذكرات ، أجاب خروشوف فى موسكو على أسئلة أكثر من ٢٠٠ صحفى لمدة ساعتين ، وأعلن أن الكابتن فاسيلى بولياكوف الذى أسقط الطائرة الامريكية سيمنح وساما رفيعا ·

وجاء الرد من الغرب مدويا ·· لقد اتهمت واشنطون المذكرة الروسية بأنها تضليل متعمد وتحريف للوقائع لان الطائرة لم تقترب فى أى وقت من الاراضى الروسية · بل كانت على مسافة ٥٠ كم منها ، وان المهمة التى كانت تقوم بها الطائرة هى واحدة من سلسلة من الرحلات الجوية الخاصة بأبحاث الكهرومغناطيسيه فى الجو ، وهى أبحاث تجرى منذ عشر سنوات خارج المجال الجوى الروسى

وطالبت أمريكا باطلاق سراح الطيارين المعتقلين ، وأن يسمح لمندوب من السفارة الامريكية بمقابلتهما فورا مع الاحتفاظ بالحق فى طلب التعويض الكامل ، واعادة جثة الميجور بالمر للمسئولين الامريكيين ·· وكان هذا الطلب الاخير هو وحده الذى أجابه الروس !

··· فى الامم المتحدة

لم تصل أية كلمة من هذا الضجيج الدولى الى جون ماكون وبروس أولمستيد فى معتقلهما ، وفى ١١ يوليو ، قيل لهما أن أسرتيهما أبلغتا عن وجودهما على قيد الحياة ·

كانت ساق أولمستيد قد أصيبت بتلف يجعل من العسير اصلاحها ، فقد اكتفى فى مبدأ الامر بعلاجها علاجا سطحيا ، وأخيرا التقطت لها صور بالاشعة ، ووضعت فى جبيرة وتوقف استجوابه أسبوعا بسبب خطورة حالته ··

ونقل أولمستيد وماكون بعد ذلك الى مكتب ادارى ، حيث تلا عليهما ضابط برتبة كولونيل التهم الموجهة اليهما ، وعرفا أن القانون الروسى يسمح باعتقالهما لمدة تسعة شهور دون محاكمة أو صدور أمر بالاعتقال ، أو مقابلة لاى محام ، كما أن مسألة

الادانة أو البراءة مسـألة يقررها المحققون قبل المحاكمة ، وتكون المحاكمة بعد ذلك بمثابة تصديق رسمي على القرار ، وتقدير مدة السجن •

ووقع الرجلان على اقرار بمعرفتهما التهم الموجهة اليهما حتى يمكن تقديمهما للمحاكمة وفى حوالى الاسبوع الثالث من يوليو ، قيل لاولستيد أن روسيا ستحتج لدى مجلس الامن على هذه الرحلات العدوانية •

قنبلة فى المجلس

عندما سمعت زوجات الطيارين أن القضية ستعرض على مجلس الامن ، راودهن الامل فى حضور الاجتماع ، ولكن ولم تكن هناك وسيلة تمكنهن من الانتقال من بلدة (توبيكا) بولاية كنساس حيث تعيش أكثرهن ، الى نيويورك ، كما كانت لوائح السلاح الجوى تمنع ركوبهن طائرة عسكريه دون ترخيص من وزير الدفاع ، ولكن رجال السلاح الجوى حلوا المشكلة بأنفسهم ، بجمع تبرعات من أعضاء الجناح الخامس والخمسين لقاذفات القنابل من طراز (ر•ب ـ ٤٧) تكفى لشراء تذاكر للسفر الى نيويورك ذهابا وايابا لزوجات الملاحين الستة

وفى اليوم التالى وقف « فاسيلى كوزنتسوف » رئيس الوفد السوفيتى فى المجلس ليسرد اتهامات بلاده ، فشرح حادث الطائرة من وجهة النظر الروسية ، وقال أن هذه الطائرة كانت كزميلاتها اللاتى تقوم بدوريات منتظمة فى المناطق القطبية محملات بالقنابل الذرية والهيدروجينية ، وأنها تجاهلت الاوامر التى صدرت لها بالهبوط ، وواصلت اتجاهها نحو مدينة « أركانجلسك » الروسية •• ثم قال أن الطيارين الامريكيين يضحى بهم على مذبح سياسة عدوانية ، ثم يذرف المسئولون عن هذه الرحلات دموع التماسيح عليهم بعد ذلك !

ونهض بعده هنرى كابوت لودج المندوب الامريكى ليقول ان الطائرة الامريكية كانت فى الوقت الذى أسقطت فيه على مسافة ٨٠ كم من الشاطىء الروسى •• ثم ألقى قنبلة كانت كفيلة بادهاش حتى ملاحى الطائرة المنكوبة وهى أن لدى أمريكا جهازا علميا استطاع أن يحدد موقعها بالضبط طوال رحلتها ، وعرف العالم لاول مرة أنه بينما كانت الطائرة تحلق فوق شبه جزيرة (كولا) ، كانت هناك أعين صديقة ترقبها ، وتحتفظ بسجل دقيق لخط سيرها •• ولكن هذه العيون الصديقة لم تستطع أن ترى قذائف مدفعية الطائرة الروسية التى حطمت

محركات الطائرة (ر٠ب ـ ٤٧) بعد ذلك ، وان ظلت ترى الطائرة نفسها، حتى بعد أن فقد ويلارد سيطرته عليها

ومضى كابوت لودج يقول ان ملاحى الطائرة كانوا من العسكريين الامريكيين الذين يقومون برحلة مشروعة فوق المياه الدولية ، وان الحكومة الروسية رفضت الاستجابة لاقتراح يهدف لاجراء تحقيق مشترك فى الحادث ٠ ثم قدم لودج مشروع قرار يقضى بتشكيل لجنة دولية لزيارة مكان الحادث ، وفحص بقايا الطائرة وسؤال الطيارين الاحياء وغيرهم من الشهود حتى يمكن حل الخلافات بين روسيا وأمريكا فى هذه القضية ٠

وحان وقت الاقتراع ٠٠ واضطر الروس الى استخدام الفيتو رقم ٨٨ للحيلولة دون اقرار المشروع الامريكى كما استخدموا « فيتو » آخر لاحباط مشروع قرار ايطالى يقضى بالسماح للصليب الاحمر بمقابلة ماكون وأولستيد فى معتقلهما

ليست رقابة !

يبدو ان السلطات الروسية قررت أنه ليس من الحكمة تجاهل الرأى العام العالمى اذ تلقت كونستانس ماكون وجيل أولستيد رسالتين من السفارة الروسية فى واشنطون فى خلال أسبوع واحد ، جاء فيهما :

« سيدتى ٠٠ نبلغك أن زوجك سمح له بتبادل الرسائل مع أسرته»

وأسرعت الزوجتان بالكتابة على الفور ٠٠

وفى موسكو قيل للزوجين أن فى استطاعتهما الكتابة لزوجتيهما ٠٠٠ وسأل أولستيد :

ـ هل ستكون هناك رقابة على الرسائل ؟

فقيل له : كلا بالطبع ٠٠ ولكن يجب أن تقول أولا أنك فى حالة صحية طيبة وأنك آسف لما فعلت ، وأنك ترى أنه يجب ألا تعبر الطائرات الامريكية الحدود الروسية مرة أخرى لمصلحة السلام العالمى

ورفض أولستيد هذه الشروط ، فقيل له : سنمهلك أياما لتفكر فيما تكتبه ٠٠

وفى ٨ أغسطس ، قيل له : « لن نملى عليك شيئا ، ولكن سنقول لك فقط الاشياء الممنوع كتابتها »

وكتب أولستيد ٠٠ وأدخلوا بعض تنقيحات على ماكتبه ، وأعيدت كتابة الخطاب عدة مرات ، وطلبوا اليه ادخال بعض تغييرات فرفض ٠ وبعد حوالى أسبوع قالوا له أنهم أرسلوه بالبريد

وحدثت مشكلة مماثلة مع جون ماكون حول رسالته الاولى .. وكان يعرف من تدريباته السابقة أن واجبه الاول هو ارسال نبأ عن وجوده على قيد الحياة وأين يوجد .. ومن ثم فقد قبل كل الشروط فى أولى رسالاته .. وقد كتب فيها :

« من جون ماكون الى كونستانس
٣ أغسطس . الرسالة الاولى

عزيزتى كونى والاطفال

هذه رسالتى الاولى اليك .. لقد كان الروس كرماء اذ سمحوا لى بارسالها ، وسأشرح لك ماحدث يوم أول يوليو ١٩٦٠ . لقد قمنا بالرحلة على طول حدود الاتحاد السوفيتى فى منطقة شبه جزيرة كولا ، وما أن انحرفت طائرتنا نحو حدود روسيا البحرية حتى أسقطوها ، فقفزت منها وأنقذتنى سفينة روسية بعد ذلك ، وكنت أشعر ببرد شديد ، وقد ساعدنى الروس على الشفاء »

***

واستمرت المراسلات بين الطيارين الامريكيين وزوجتيهما .. كانت جيل تكتب لزوجها بروس أولمستيد بمعدل مرة كل أسبوع ، ولكن خمسا من رسائلها الاولى لم تصل ..

شهادة غامضة

فى آحد الايام الاخيرة من أغسطس ، سيق الكابتن ماكون الى غرفة تزدحم بوجوه جديدة ، وكان هناك ضابط روسى يرتدى ثوب طيار ، يزين صدره وسام العلم الاحمر ، قدموه له باسم الكابتن فاسيلى بولياكوف . وعرف أنه هو الذى أسقط طائرتهم .. وكان بولياكوف قد ثبت أنظاره على ضابط طيار برتبة أعلى ، وهو يسرد شهادته أمامه قائلا :

« انطلقت من قاعدتى بعد أن تلقيت الامر بالتحليق فى خط مواز لسير الطائرة المغيرة داخل المجال الجوى الروسى ، وكان فى استطاعتى أن أرى خط الساحل بسهولة ، وقبيل أن تعبر الطائرة حدودنا ، اتصلت بى محطة تتبع الرادار وطلبت منى تسليح طائرتى .

وبعد أن اقتحمت الطائرة الامريكية المجال الجوى السوفيتى وتجاوزت رأس (هولى نوز) فى شبه جزيرة كولا ، حتى أصبحت أطير جنبا الى جنب الطائرة المغيرة التى كانت متجهة الى « أركانجلسك » . وأشرت اليها لتتبعنى ، ولكنها بدأت تبتعد عن الحدود البحرية والجوية للاتحاد السوفيتى ، متجهة يسارا .. ولما

كانت قد تجـاهلت تعليماتى فقـد اضطررت لاسقاطها ٠٠ وكان الوقود الذي معى قليلا ، ومن ثم فقد عدت الى قاعدتى »

وعرضوا بعد ذلك خريطة ظهرعليها طريقا الطائرتين ٠٠ وسئل بولياكوف عمـا اذا كان الطريقـان صحيحين ، فقال أجل ٠٠ وعندئذ طلب الى جون ماكون أن يفحص الطريقين ٠٠ وبعد أن تمعن فيهمـا قليلا ، التفت نحـو بولياكوف وقال له بوساطة المترجم :

ـ ماهى الاشارة التى أعطيتها لنا؟

ـ لقد هززت جناحى طائرتى ٠

ـ ولكن الاشـارة الدولية المتفق عليها هى السير جنبا الى جنب الطائرة الاخرى ، واطلاق طلقـات نارية من مدافع الطـائرة للتحـذير والامـر بالهبوط ٠

***

ظل جون ماكون مستيقظا عدة ليال بعد ذلك ، وهو يفكر مرة بعد أخرى فى كل ماتعيه ذاكرته عن حادث اسقاط الطائرة من تفاصـيل ٠٠ وموقعهـا بالضـبط ٠٠ وهل كان على اتصال بقاعدته فى اللحظة التى أسقطهم فيها بوليا كوف ؟ ٠٠ وهل أبلغتـه عن موقعهم ؟ وهل أصدرت له أمرا باطلاق النار ؟ ان أحـدا لم يسأل بولياكوف هذه الاسئلة

بولياكوف يغير لهجته

فى ١٠ أكتوبر استدعى جون ماكون لمواجهة ثانيـة مع الكابتن فاسـيلى بولياكوف ٠ وفى هذه المرة كان هناك ضابط كبير برتبة جنرال يتولى مهمة المدعى العسكرى ٠٠ كان رجلا عسكريا حقا يحاول الوصول الى الحقائق ، فلم يوجه الى ماكون أى سؤال سياسى أو يحاول اكراهه على الاعتراف بشىء ما ٠٠ وكانت أسئلته لبولياكوف واضحة حاسـمة ٠٠ وبدأ ماكون يدرك أنهم عرفوا الآن أنه كان هناك خطأ ما فى الامر ، وهم يريدون معرفة مدى هذا الخطأ ٠

وأعاد بولياكوف الادلاء بشهادته ولكنه فى هذه المرة لم يحضر خريطة يبين فيهـا الطريق الذى سـلكه ٠٠ وأقسم بوليـاكوف أنه لم يترك قط المجال الجوى الروسى طوال رحلته ، وهو تغيير هام فى شهادته الاولى التى أقسم خلالها أنه اضـطر للخروج الى المياه الدولية ليفاجىء الطائرة المغيرة

وبعد انتهاء بولياكوف من شهادته التفت الجنرال الروسى الى ماكون وقال:

ـ هل كنت تعرف باعتبارك ملاح الطـائرة (ر٠ب ـ ٤٧) أنك عبرت الحدود البحرية الروسية ؟

ـ لو كنا فعلنا ذلك ، فلا بد أنها

مصادفة غير متعمدة ، ولكنى واثق أننا لم نفعل ..

وراح ماكون يؤكد أنه كان يعرف موقعهم بالضـبط بفضل المغناطيسين وثلاث بوصـلات وجهاز للرادار ، بالاضـافة الى مخ ألـكترونى يحدد خطوط الطول والعرض بالضبط على ميناءين يتحركان أثناء سير الطائرة ، كما يرشد عن سرعة الرياح والتغيرات المغناطيسية

وأصغى الجنرال الروسى الى ماكون بامعان ، وبعد أن انتهى ، سأله :

ـ ألديك أية أسـئلة للـكابتن بولياكوف ؟

النية الحسنة

فى ٢١ ينـاير ١٩٦١ ـ أى بعـد الاحتفـال بتنصيب الرئيس الجديد جـون كنيـدى بيوم واحـد فقط ـ استدعى خروشوف السفير الامريكى لويلين تومسون الى مكتبه بالكرملين ، وتحدث اليه عن قضية ماكون وأولمستيد وقال له أنه على الرغم من أنهما مذنبان فانه مستعد لاطلاق سراحهما ، كابانة لنيته الطيبة ، وذلك اذا أمكنه التأكد من أن الحكومة الامريكية الجديدة سوف تقبل الامر على هذا الاساس .. ثم أثار خروشوف موضـوع الرحلات التى تتوغل فوق الاراضى الروسية ، فقال السـفير ان حكومة كنيدى قررت فعلا الاستمرار فى حظر هـذه الرحلات ، وهو الحظر الذى فرضه ايزنهاور بعد حادث طائرة التجسس (ى-٢)

وأخذت البرقيـات تعبر الاطلنطى ذهابا وجيئة للوصـول الى تفاهم بين البلدين ، حتى تم الاتفاق على أن يذاع الاعلان عن ذلك القرار فى وقت واحد فى كل من واشنطون وموسكو ، حتى يذيعه كنيدى فى مؤتمره الصـحفى الاول .

وفى مساء ٢٣ ينـاير أبلغ ماكون وأولمسـتيد أنه من المحتمل أن يفرج عنهما قريبـا جدا ، وفتحت أبواب زنزانتيهما ، والتقى الاثنان ، وسمح لهمـا بالخروج للنزهة ومشـاهدة التليفزيون والتحدث معا كما يشاءان

وفى اليوم التالى أبلغا رسميا نبأ الافراج عنهمـا ، وقدمت لهما ثياب جديدة وأكياس تحوى رزما من رسائل أسرتيهما ، ومئات من بطاقات التهنئة بعيد الميلاد ..

وحملتهما سيارة سوداء كبيرة الى السـفارة الامريكية يوم ٢٤ ينـاير ، حيث وقعت الاوراق الرسمية باثبات تسـليمهما للحكومة الامريكية .. ورحب بهما السفير ، ثم صحبهما الى المطار حيث استقلا طائرة الى أمريكا

هذا هو الرئيس

حوالى الساعة الخامسة الا ربعا من بعد ظهر اليوم نفسه ، تلقت كونستانس ماكون وجيل أولمستيد مكالمتين تليفونيتين متماثلتين من واشنطون جاء فيهما :

ـ أنا الكولونيل ماك هيو ياور الرئيس كنيدى أن لدى أنباء سارة • ففى الخامسة بعد الظهر سيعلن الرئيس للشعب الامريكى أن زوجك فى طريقه الى الوطن ، ويريد الرئيس أن يعرب لك عن مدى سعادته بذلك وأرجو ألا تذكرى شيئا عن ذلك الى أن يذيع الرئيس بيانه

وجلست الزوجتان أمام أجهزة التليفزيون ، فى انتظار أول مؤتمر صحفى للرئيس الشاب وقال كنيدى « نتيجة لتبادل وجهات النظر ، التمست الحكومة السوفيتية عن رغبة صادقة فى وضع أسس مرحلة جديدة فى العلاقات بيننا ، من رياسة مجلس السوفيت الاعلى ، اعفاء الطيارين جون ماكون وبروس أولمستيد من المسئولية الجنائية »

وبعد انتهاء اذاعة الرئيس بخمس دقائق ، سمعت جيل أولمستيد نفس الصوت قادما اليها عن طريق التليفون •• يقول :

« أنا الرئيس كنيدى •• أرجو أن تعلمى أننا نشاطرك جميعا سرورك بعودة زوجك للوطن ، وسأراك عندما تأتين الى واشنطون »

***

عندما هبطت الطائرة التى أقلت جون ماكون وبروس أولمستيد فى مطار واشنطون كان الرئيس جون كنيدى فى انتظارهما عارى الرأس •• ورفع ماكون يده بالتحية العسكرية ثم صافح الرئيس ، وتبعه أولمستيد •• وهرع الرجلان بعد ذلك الى زوجتيهما اللتين كانتا تقفان فى الانتظار خلف الرئيس

وتبادل الازواج القبلات الحارة أمام عدسات التليفزيون ، وتبع ذلك حفل استقبال أقيم فى البيت الابيض ، حيث تحدث الرئيس طويلا مع الطيارين العائدين من الاسر الذى آمضيا فيه شهورا طويلة

وهكذا انتهى فصل آخر من المأساة!

طريقة بسيطة

ابتكرت ادارة حفظ الغابات والحيوانات البرية فى بنسيلفانيا طريقة بسيطة هينة للمساعدة على اعادة زراعة الغابات ••• فمع كل ترخيص بالصيد ، تعطى للطالب حزمة من بذور الصنوبر الابيض ، وتطلب منه أن يلقى بذرة على الارض كلما استطاع ، ثم يطأها بقدمه حتى تغوص فى الارض !

كتاب الشهر



عن كتاب

Mother Was a Rebel

بقلم ماري كوبرن

أمى الثائرة

في مطلع القرن الحالي ، كان من العسير على امرأة شابة من أسرة طيبة أن تكسب عيشها من المسرح ، ولكن عندما ترملت مارى ديفيز كوبرن وهى فى الثامنة والعشرين من عمرها، وتركت وحدها لتعول طفلتيها لم يكن امامها ما تختاره ... وقادتها مواهبها الطبيعية من الجمال والصوت الصادق والشجاعة التى لاتقهر الى عالم المسرح ، وعلى الرغم من شخصيتها غير العادية وتناقضها قليلا مع هذا المجال ، فقد انتصرت اخيرا وتألق نجمها ...

وقد جاءت قصتها كما تحكيها ابنتها مارى الصغيرة قطعة رائعة نادرة ، يشيع فيها الدفء والحنان ...



استيقظت فجأة وأنا أعرف انني في مكان غريب .. كنت الى جوار أمى فى فراش ضيق فى أحد جوانبه ستائر خضراء ، وعلى الجانب الآخر نافذة تطل على حقول وأشجار تمر بنا سراعا بطريقة مثيرة ! .. لقد كنا فى الفراش السفلى فى أحد القطارات ، بينما كانت أختى « لوسيل » ذات السنوات الخمس ترقد وحدها فى الفراش العلوى ، وهى تحاول الهبوط والانضمام الينا .

وقالت بلهجة وديعة : ان أمى تأخذنا الى نيويورك .

ومع أننى لم أكن قد بلغت الثالثة بعد ، فقد أحسست بطريقة ما ان هذه المناسبة كانت ذات أهمية بالغة

والواقع انها كانت نقطة تحول فى حياتنا .. خطوة أساسية اختارت بها أمى أن تعيش فى استقلال متقلقل كمطربة محترفة فى مطلع القرن العشرين ، يوم كانت التقاليد الصارمة تجعل مكان المرأة مقصورا على بيتها .. ولكن أمى نشأت ثائرة ، وظلت كذلك طوال حياتها ..

لقد هربت لتتزوج أبى ، متحدية موافقة أسرتيهما معا ، وكان أبوها صمويل تيلور ديفيز عملاقا ايرلنديا

ذا لحية حمــراء ، وعقيدة متقدة ، فقد كان قسيسا لاحـــدى كنائس دنيفر ، متعصبا الى حد لايمكن تخيله اليوم ، وعلى الرغم من انه أحس ولا ريب بارتيـــاح لتخلصــه من أمى « مارى آن » التى كانت أكثر بناته اثارة للمتاعب ، فانه أسف لزواجها من المصرفى الشــاب روبرت هيويت كوبرن لانه كان من طائفة دينية غير التى ينتمى اليها !

وقد استقبل جدى لابى ــ وكان أرمل ثريا ــ هذا الزواج أيضا ببرود ، فقـــد كان آل كوبرن الذين يتركز كثـــرهم فى نيويورك ينتمــون الى لكنيسة الاسقفية ، وكانوا فخورين حقا باسمهم والدماء التى تجـرى فى روقهم ، ولم يستطيعوا أن يغفروا بى زواجه من فتـــاة مجهولة من ولورادو مهما كانت جميلة .

ولكن الزوجين وقفا فى وجه كل عارضة بحزم وقوة ، فقد كان أبى بد أمى منذ أول لحظة رآها فيها . كانت نحيلة متوسطة الطــول بد تجمع شـــعرها الاسمر المائل حمرة فوق وجهها الشاحب الرقيق ظام ، ولما كانت تنحــدر من عائلة لندية ، فقد كانت على جانب كبير الحيــاء ، ولكن عينيها الزرقاوين الكبيرتين كانتــا ترقصـــان مرحا ، وكانت تسير برشاقة وكبرياء لا تكلف فيهما ، تجتذبان اليها الرجال دون مقاومة ، وقد ظل الرجال يجتذبون اليها كما يجتذب العسل الذباب طوال حياتها ، ولم يفقد أبى متعته قط فى حسنها ومرحها ..

واستقر الزوجان الشابان فى منزل كبير من الطراز الفيكتورى فى ضواحى « دنيفر » ، وأسســا أسرة أصبحت تضم طفلتين ، وجوادين للسباق ، وخادما سويدية وطاهيـــا وبستانيا يقود العربة فى الوقت ذاته .. وعندما تحررت أمى فجأة من صرامة الحياة مع أبيها رجل الدين ، أحست بنشوة الزواج المستقل ، وتعلم أبى الجاد التفكير كيف يسخر من الحياة ، فكان المنزل يزخر دائما بالاصـــدقاء .. وكانت هناك مآدب للعشاء ، وحفـــلات فى الحديقة ، وأمسيات موســيقية كثيرة تغنى فيها أمى ، فقـــد كانت تتمتع بصوت صاف غنى ممتلىء ، ينفذ الى قلب المستمع رأســـــا وكانت تلك سنوات سعيدة حقا ..

وفى أحد أيام أكتوبر ، عاد أبى الى البيت مبكرا يشـــكو من صـــداع وانقباض فى الصـــدر وفى تلك الليلة أصـــابته حمى جامحة ، وقال الاطباء

انه مصاب بالتهاب رئوى ، وبعد أربعة أيام مات أبى ولم يكن قد تجاوز يومئذ السابعة والعشرين !

قرار جرىء

ظلت حياتنا تسير على وتيرتها المعتادة فى المنزل الكبير حوالى سنتين تقريبا ، فقد عقدت أمى عزمها على الا تعانى طفلتاها أية متاعب بسبب وفاة أبيها ، ولكى تكفل لنا ما يعولنا ، ألقت بنفسها فى أحضان الموسيقى .. تتعلم وتعطى دروسا ، وتغنى فى كل كنائس البلدة ..

وازداد صوت أمى صفاء واصبح أكثر جمالا ، وازدادت بشرتها بياضا ، وتألقت عيناها .. كانت حيثما تذهب يعرض عليها الاصدقاء رجالا للزواج منها .. كانوا يقولون لها انها لم تزل فى الثامنة والعشرين وان عليها أن تعول طفلتين ، ولم تكن قد تدربت على الوقوف وحيدة فى العالم ، وكان الزواج هو الحل الوحيد لمشكلتها !

ولكن أمى كانت تزداد رفضا كل يوم .. فهى بعد السنوات الرائعة التى قضتها مع أبى لا يمكنها التفكير فى زواج بلا حب ، وعندما بدا فى النهاية أنه لن يكون هناك مال يكفى لتربيتنا وتعليمنا ، بدأت تبحث عن طريقة لاعالتنا ..

لقد كانت تلميذة فى الكلية ، ولكن شيئا مما تعلمته هناك لم يكن من الممكن استغلاله بصفة خاصة ، كما ان الغناء فى الكنائس وحفلات الزواج لم يكن يكسبها غير القليل جدا ، وكان اعطاء دروس فى الغناء مهنة غير ثابتة ، كما كان تدريبها الموسيقى ضئيلا الى حد لا يكفى لفتح الابواب الى اى ميدان موسيقى أفضل أجرا ..

وكانت النتيجة شيئا لا مناص منه .. لقد كان رصيدها الاكبر هو صوتها ، ولكنها لكى تستغله كان عليها أن تذهب الى نيويورك للدراسة الجادة ، وعلى الرغم من كل نصائح الاصدقاء ، فقد باعت البيت والخيول والاثاث ومكتبة أبى ، وانطلقت الى محطة السكك الحديدية وأبتاعت لنا ثلاث تذاكر للسفر الى نيويورك .

ارملة من الغرب

تنبأ جدى لابى بعواقب مروعة لهذه الخطوة ، ولا شك انه أحس بالانزعاج للسرعة والمهارة اللتين وجدت بهما أمى مسكنا فى المدينة ، وقد أحضرت طاهية ومربية للعناية بنا ثم انطلقت للبحث عن معلم للأصوات ، وصادفها حظ غير عادى ، فقد كان بين رسائل التوصية التى حملتها خطاب لمستر « هيرمان كلين » الذى

عاد لتوه من جولة ناجحة فى لندن ، حيث ابتكر طريقة لتعليم الغناء أراد الآن أن يجربها فى أمريكا . وكان يبحث عن تلميذ يتمتع بنوع معين من الاصوات وقد وجد هذا النوع فى صوت أمى الصافى العالى ذى النغمات الصادقة التى يشيع منها الدفء .. فقد كان صوتها من النوع المرن الذى يستطيع أن يفعل به أى شىء .. وأعجب أبى بأمى واخلاصها للفن الذى أرادت تعلمه ، وبراعتها فى التقاط تعليماته وتطبيقها بصورة رائعة .

وحاولت أمى منذ البداية أن تسدد كل ما تستطيع من نفقات أرباحها الحالية ، وساعدها هيرمان كلين وزوجته فى الحصول على أعمال فى بعض الحفلات الموسيقية وحفلات الاستقبال .. وبدأت الارملة الشابة التى تفيض حيوية ، القادمة من دنيفر تتمتع بقدر معين من ذيوع الصيت .

أمى تجد طريقها ..

بعد أن قضت أمى حوالى سنة فى نيويورك ، قال لها هيرمان كلين « سوف تكونين على استعداد للظهور أمام الجمهور بعد ١٢ شهرا » ..

لقد بذلت أمى جهدا كبيرا فى دراستها ، وأحبت كل لحظة من عملها ، ونجحت فى حفلات الموسيقى المنزلية ، وبدأت تظهر فى برامج تضم كبار الفنانين .. وأصبح لها أصدقاء جدد كثيرون ، وان لم يكن أحد منهم أكثر قربا لها من أسرة كلين ، بما فيها شقيقا هيرمان ، وهما تشارلز الكاتب المسرحى ، ومانويل الملحن .

وكنت أنا ولوسيل نعيش فى انتظار تلك اللحظة التى تجلس فيها أمنا كل مساء لتسرد علينا حكايات يومها ، وتغنى لنا قبل أن ننام .. وكانت مشكلة رعايتنا تشغل بالها دائما .. وقد بذل آل كلين محاولات أخرى لاقناعها بالزواج للخروج من أزمتها ، ولكنها كانت ترفض فى غضب ..

وجلست أمى يوما تقدر المصروفات المطلوبة للاثنى عشر شهرا التالية المسكن والخدم والدروس ، ثم ذهبت لتفحص حسابها فى البنك ، وعادت وقد أصابتها هزة عنيفة ، فقد أدركت أن كل مابقى لها من النقد الآن هو ٢٠٠ دولار ، وبعض أسهم لشركة بترول تبين انها لا تساوى شيئا !

وفى اليوم التالى طردت أمى الطاهية وأنذرت المربية بالاستغناء عنها بعد شهر ، ثم رهنت أثنين من

أفضل خواتمها ، وذهبت بعد ذلك الى ستوديو هيرمان كلين وقالت ببساطة :

ــ مستر كلين .. قد يكون هذا هو درسى الاخير ، فلم يعد لدى نقود

والتهب احساس كلين وقال بغضب : وهل تظنين انني أعلمك من أجل المال فقط ؟ لو أنك بعد عام من العمل الشاق ستغنين بالطريقة التى أعرف انك قادرة على أدائها ، فسيكون هذا جزاء كافيا لى .

فقالت أمى : ، ولكنك لاتدرك .. انني لا أستطيع الاستمرار

ودارت بعينيها فى أرجاء الغرفة التى ألفتها ... وبللت الدموع عينيها . ثم قالت :

ــ لم يعد لدى شىء ... وهناك طفلتاى اللتان يجب أن أعنى بهما

وأقفل كلين البيانو ، وذهب لاستدعاء زوجته كما يحدث دائما فى أوقات الازمات . وعاد معها بعد قليل وقال :

ــ لقد حدثت مسز كلين عن متاعبك ، وعلينا الآن أن ننظر ماذا نستطيع عمله .

انك صغيرة وجميلة ، ولك صوت رائع ، ومع مزيد من التدريب ستكونين فنانة ناجحة كما أتوقع ، ولكن لو أنك بدأت حياتك الفنية الآن ، فانك لن تصعدى الى القمه .

وقالت مسز كلين : لدى فكرة ياهيرمان ، وهى أن يسند أخوك مانويل دورا فى الاوبريت الجديدة التى يلحنها « مستر بيكويك » لمسز كوبرن ، وبهذا تكسب ما يكفيها لمواصلة دروسها معك .

وعرضت الفكرة على مانويل ، فقال فى تردد :

ــ ولكننا قطعنا شوطا كبيرا فى البروفات ، وسنفتتح الاوبريت بعد ثلاثة أسابيع فقالت مسز كلين فى اصرار : أسند اليها دور ناظرة المدرسة ، وهو الدور الذى قلت لى انك ستطرد الممثلة التى أسندته اليها

وقالت أمى بسرعة : تستطيع أن تختبرنى على الاقل .. اعطنى فرصة فقط .

وسألها مانويل عما اذا كانت قد مثلت من قبل أو غنت أغنية شعبية ، فقالت :

ــ كلا .. ولكن ...

وهنا تدخل هيرمان قائلا :

ــ استطيع أنا أن أدربها على ذلك

وبعد مناقشات كثيرة وافق مانويل أخيرا على تجربة أمى فى الدور ، ولكنه حذرها من أن نجم الاستعراض

هو المطرب الكبير «دى وولف هوبر» وأن له رأيا فى توزيع الادوار ، وهو يصرعلى عدماسناد أى دورللمبتدئين .

وفى الصباح التالى ذهبت أمى الى قاعة اختبار الاصوات الجديدة ، وكان الخوف يملأ نفسها من أن يكشف أمرها ... وراحت بقية المرشحات يؤدين الاختبار الخاص بالدور واحدة بعد أخرى ، وكانت أمى هى الاخيرة .. وعندما حان دورها انطلقت الى المسرح بخطى ثابتة ...

وبدأ عازف البيانو يعزف المقدمة الموسيقية ، وأغمضت أمى عينيها لحظة ، ثم جمعت أطراف شجاعتها ، وبدأت تغنى بصوتها القوى ، فدوى صداه فى أرجاء المسرح الخالى ... وفى نهاية الاغنية سمعت تصفيقا قويا فى الظلام ، وأقبل مانويل كلين الى المسرح مع شخص طويل وسيم ، عرفت أمى أنه النجم «دى وولف هوبر» وكان وجهه مشرقا ، وأدركت أمى أنها ستفوز بالدور

ولكن اسناد الدور اليها كان شيئا ، والاحتفاظ به خلال ٣ أسابيع من البروفات أمرا آخر تماما ، فقد كان كل يوم يمر يجلب معه تعقيدات جديدة مليئة بالتحدى وكانت أمى تتدرب على الدور وتحفظه جيدا ، وتتعلم خطوات الرقص ، وبين حين وآخر تسرع الى ستوديو كلين لمواصلة التدريب ، وأخيرا تعود الى المسكن لترعانى مع شقيقتى لوسيل .

ولم يعرف هوبر حقيقة أمى الا بعد افتتاح الاستعراض بثلاثة أسابيع وعندما أعترف له مانويل كلين بأنها ممثلة مبتدئة ، زمجر قائلا :

ـ لو أننى عرفت ذلك لما صعدت قط الى المسرح ..

ثم أضاف مبتسما : ولكنها تملك ولا شك الشجاعة والاسلوب ..

ممثلة فى فرقة متجولة

ومن أجل حمايتنا من وصمه أن أمنا تعمل على المسرح ، ظهرت أمى باسمها قبل الزواج وهو «مارى ديفيز» ... وكانت هى نفسها قد صدمت أول الأمر لما رأته من حياة المسرح ، ولا سيما أنها لم يسبق ان استخدمت مساحيق التجميل فى حياتها من قبل ، ولكنها بعد ان اختلطت بهؤلاء الفنانين ورأت اخلاصهم لعملهم وتفانيهم فى ادائه ، سرعان ماتغيرت وجهة نظرها ، ورأت فيهم أناسا مكافحين ، يعملون بجد ودأب ، وان الشعور ومظاهر الزينة والثياب التى يرتدونها لم تكن غير أسلحة وقائية ضد مخاطر مهنة ذات أخطار غير عادية .

وعرضت آوبريت (مستر بيكويك) فى نيويورك ثلاثة شهور ، وقد أحرزت نجاحا كبيرا ، ثم عملت أمى فى الفرقة خلال جولة استغرقت تسعة شهور أو أكثر وقد مزق هذا فؤادها ، فقد كانت محتاجة الى الخبرة لمواصلة الحياة على المسرح ، ولكن كيف تستطيع أن تتركنا أناولوسيل؟

وفى النهاية أدخلتنا مدرسة داخلية خاصة تديرها سيدتان رقيقتان متوسطتا العمر ، وقد أمضينا هناك وقتا سعيدا ..

وعندما انتهت جولة « الاوبريت » عادت أمى الى نيويورك،وبدأت تبحث عن دور آخر وكانت قد أصبحت موضع اهتمام الوكلاء والمنتجين ، وسرعان ما عرضوا عليها الدور الثانى فى مسرحية موسيقيه جديدة فى برودواى ، وكان هذا نصرا رائعا لها، فهو يعنى اتاحة الفرصة الاولى لهـا للوصول الى مرتبة النجوم ، واننا سوف نعود للحياة معا ..

واستعدت أمى لبدء البروفات فى الاسبوع التالى ، وانطلقت تبحث لنا عن مسكن جديد ، وفجأة تلقت أمى برقيه من جدى تقول : « آن تيودور يحتضر .. هل يمكنك الحضور ؟ »

كانت العودة معناها التخلى عن دورها فى المسرحية الجديدة ، وضياع فرصة تثبيت أقدامها على المسرح .. ولكنها كانت تحب شقيقها تيودور الصغير أو (دود) كما ينادونه ... ولهذا قررت أن تذهب مهما كان الثمن لتساعده فى كفاحه من أجل الحياة .

ووصلنا الى « أوسكالوزا » بولاية كانساس ، وهى بلدة صغيرة قرب كانساس سيتى حيث يقيم جدى لامى ... وهناك وجدنا خالى (دود) راقدا فى غرفة بالطابق العلوى من دار الكنيسة التى يعمل فيها جدى ، وكان فى حالة يرثى لها بعد اصابته بالتهاب فى كبده ، فقد كان مولعا بالشراب الكثير ...

وكان تأثير حضور أمى غير عادى ، فقد ومضت عيناه فى اللحظة التى رآها فيها ، وسرعان مابدأ يستجمع قواه ... وفى خلال ايام قليلة تجاوز مرحلة الخطر ، وبعد ثلاثة أسابيع كان فى الطريق الى النقاهة والشفاء.

ومع أن أمى لم تأسف قط على تضحيتها ، فانها دفعت ثمن شفاء (دود) غاليا ، فقد كلفها سفرها معنا الى البلدة كل مدخراتها تقريبا ، فضلا عن انها عادت من جديد تحت رحمة أبيها الذى لم يغفر لها خروجها

عن طاعته ٠٠.

وتحملت أمي الكثير من معاملة أبيها القاسية بصبر بالغ ، ولا سيما عندما كان ينهال عليها توبيخا وتعنيفا لاشتغالها بالغناء والتمثيل ، وتمسكها بالرغبة في العودة الى هذه الحياة ٠٠

وساءت العلاقات بينهما حوالي ستة شهور ، حتى انهما كانا لا يتبادلان الكلام أبدا ٠٠٠ وأخيرا أنهى جدي صمته الطويل قائلا :

ـ ماري ٠٠٠ انني أعرف انك تريدين الاستمرار في عملك ، ومن ثم فانني لن أطلب منك البقاء هنا بعد الآن ٠٠.

وكانت تلك محاولة أخيرة لاذلال أمي واخضاعها ٠٠ فقد كان يعرف انها لا تملك مالا كافيا للعودة الى نيويورك ٠٠ ولكنه لم يقدر شجاعتها حق قدرها ، فقد حزمت أكياس حوائجنا ، وفي غمرة جو الشتاء الثلجي ، أخذتنا الى كانساس سيتي

في طريق العودة

وفي كانساس سيتي استأجرت أمي الطابق العلوي في بيت عتيق ، وأدخلتني أنا ولوسيل في احدى المدارس ، وبدأت تعمل مدرسة للموسيقى ٠٠٠ كانت تكسب قليلا جدا ، وكان كل يوم يتطلب شجاعة جديدة ٠٠ وكان وجهها شاحبا من البرد ، ولا سيما انها كانت تضطر الى الخروج بلا معطف يقيها زمهرير الشتاء ٠

وقدمها أحد الاصدقاء الى شقيقتيه اللتين تديران روضة أطفال ناجحة ، فدعتها الاختان لادارة فصل للغناء في الروضة مقابل تدريبها على وسائل العمل في رياض الاطفال ، وكان تعليم ٢٥ طفلا الغناء تجربه جديدة تماما ، ولكن أمي أحبتها وسرعان ما أثبت التدريب والتجربة فيما بعد أنهما رصيد ثمين ٠

ولم تكن أمي تعتبر كانساس سيتي الا محطة في طريق العودة الى مستقبلها المسرحي الذي قطعته ٠٠ وفي مايو ١٩٠٥ عادت الى الشمال الشرقي لامريكا ، ولكننا لم نكد نستقر هناك حتى غيرت مشروعاتها ، عندما بلغها نبأ بيع بعض ممتلكات الاسرة في دنيفر ٠

ولما كان نصيب أمي في هذا البيع سيبلغ ١٢٠٠ دولار ، فقد قررت أن تستخدم المبلغ كله في دراسة الاصوات في أوربا ، ولكنها بعد أن وضعت مشروعها ، تلقت برقية بفشل البيع ٠٠! وظلت بضعة أيام حزينة تكاد تبكي ، وأخيرا وصلت الى

قرار حاسم : لقد قررت أن نسافر الى أوربا فعلا •

وكانت تحتفظ بمجوهراتها ، فرهنتها ، وبعد ثلاثة اسابيع،وجدنا انفسنا علىظهر الباخرة «لاجاسكونيا» فى طريقنا الى فرنسا !

باريس بلا فرنكات !

وصلت أمى الى باريس وليس معها أية نقود تقريبا ••• ولكنها كانت لاتزال تحتفظ بساعة مرصعة بالماس اعطاها اياها أبى ، وكانت تعتز بهذا التذكار لاسباب عاطفية ••• وفيما عدا ذلك لم يكن معها غير ١٥ دولارا

وكانت أول خطوة قامت بها هى السعى للحصول على نصيحة القنصل الامريكى الذى كانت تحمل له خطاب توصية ، وقد ذعر الرجل عندماعرف ان أمى جاءت الىفرنسا ومعها طفلتان احداهما فى الثامنة والثانية فى الحاديه عشرة لتعولهما ! ولكنه قدم مساعدته لها ، واقترح علينا الاقامة فى غرفة مفروشة فى « بنسيون » متواضع تديره سيدة ضخمة سوداء الشعر والعينين تدعى مدام بولين •

وكانت الغرفه التى استأجرناها فسيحه عالية السقف، تقع فى الطابق الثانى ، فيها دولابان للملابس ، وكمية من الاثاث الابيض المذهب من طراز لويس الرابع عشر وفراش كبير ، وقالت لنا مدام بولين ان لديها اثنين من الرسامين يعيشان فىغرفة بالسطح ••

وفى الصباح التالى ، استيقظنا على ضجيج العربات وهى تسير فوق الارض المرصوفه بالاحجار الضخمة فى الشارع الذى يقع تحتنا ،وهرعت أنا ولوسيل لنرى الباعة بثيابهم السوداء ، وهم يدفعون عربات الخضر والزهور الى السوق الكبير

كان موقفها يدعو لليأس ـ وفقا لاية معايير عقلية ـ فالدروس التى كانت تعتزم تلقيها اصبحت غير ذات موضوع ، واصبحت المشكلة الآن هى كيف تكسب عيشها ؟• ومعذلك لم يساورها اى شك فى انها سوف تتلقى دروس الغناء التى جاءت من أجلها •• بطريقة ما •

وفى نهاية الاسبوع الاول ، بدا ان امى سوف تنجح فى حياتها بفرنسا، فقد دعيت للعزف فى بعض الحفلات الموسيقية بين حين وآخر ، وتعاقدت للغناء فى بعض الكنائس ، وبعض السهرات الاجتماعية التى تقام برعاية الجاليه الامريكيه ••• وكانت هناك أيضا ورشة صناعة الملابس التى تملكها مدام بولين

كانت أمي تحب الحيـاكة ، وقـد برعت في استخدام الابرة ، وكانت تصـنع ثيابي أنا ولوسيل دائمـا ، وعندما لمست مدام بولين مواهب أمي في هـذه الناحيـه ، طلبت منهـا مساعدتها ... وبهذه الطريقه دفعت أمي كل نفقاتنـا للاقامة لدى مـدام بولين

وكانت أمي تحمل كثيرا من رسائل التوصية ، بينها رسالة لمدام «ديزيرو» وهي موسيقية أمريكية عاشت سنوات كثيرة في باريس ، وكانت هوايتهـا تعليم الاطفـال ، وكانت تتـوق الى افتتاح روضة للأطفال ، اذ لم يكن هناك شيء كهذا في فرنسا .

وعندما ذكرت ذلك لأمي ، صاحت قائلة :

ـ انني أستطيع مسـاعدتك في ذلك .

فقالت مدام ديزيرو :

ـ ولـكني لا أسـتطيع أن أدفـع لك شيئا ..

فقالت أمي على الفور : لن تحتاجي الى ذلك .

وعلى هـذا الاساس غـير العملي . أنشأت الاثنتان روضة للأطفال تعمل في الصبـاح ، واكتشفت أمي فيمـا بعـد أن صديقتهـا الجديدة تعمـل كمدربه أولى للاحداث ، وتصاحب في العـزف أكبر مدرس للاصـوات في فرنسا وهو جان دي ريزك الذي كان يتقـاضى ٢٢٥ فرنكا عن كل درس يستغرق نصف ساعه ، وكان تلاميذه يأخذون دروسـا مـرة أو مرتين في الاسـبوع ، ثم تتـولى مدام ديزيرو اعطاءهم تدريبات يومية .

وقالت مدام ديزيرو لأمي : تعالى عندي بعد عودتي من عند «دي ريزك» مباشرة ، وسوف أعطيك نفس الدرس الذي سمعته وهو يعطيه لتلاميذه ، ويمكنك الذهاب لتلقي بعض الدروس منه كلما استطعت ...

ومضت أمي تعمل وتدرس في كل لحظه من حياتها .. كانت تعمل في روضة الاطفال في الصباح ، وتتلقى الدروس والتدريبات بعد الظهر ، ثم تغني في الحفلات في المساء (كلمـا دعيت اليها) ، وتقـوم بالحياكة في ورشة مدام بولين كلما تسنى لهـا ذلك ... وعلى الرغـم من كل ذلك كانت سعيدة جدا !

وأمضينا في باريس تسعة شهور ، اكتسبت أمي بعدها ماجاءت من أجله ... لقد اكتسبت أساسـا تستطيع أن تبني عليه نفسها ، وحددنا موعد رحيلنا مع اقتراب عيد ميلاد لوسيل

الثانى عشر ، ولما كنا نعيش يوما بيوم ، فان أمى لم تستطع توفير شيء قط ، وكان لابد لنا من حجز تذاكر السفر الى نيويورك قبل أن تبلغ لوسيل هذه السن التى تضطر عندها لدفع تذكرة كاملة ...

وأخيرا اضطرت أمى الى رهن ساعتها العزيزة لدفع ثمن التذاكر .

العودة الى المسرح

كانت أمى تقول لنا دائما : « سر مع الحياة ، وسوف تسير معك » .. وفى خلال الاشهر القلائل التالية ، كانت أمى فى حاجة الى كل ذرة من هذه الفلسفة التى تدعم الثقة بالنفس، فان الفرصه الذهبيه التى يمكن أن تبدأ بها حياتها الفنية الجديدة لم تأت قط ... اذ أظهر المنتجون فى نيويورك ترددا فى السماح لها بالعودة الى المسرح ، كما أنها بلغت الآن السادسة والثلاثين من عمرها ، أى أنها أكبر قليلا من أن تقوم ببطولة « أوبريت » أو كوميديا موسيقية الا اذا استطاعت أن تثبت ان لها خبرة قديمه ، وكان عملها السابق مع هوبر قد مضى عليه أربع أو خمس سنوات فلم يعد شيئا يعتد به .

وأفادتها مثابرتها أخيرا ، فعرض عليها الدور الثانى فى مسرحية « السجين والفتاة » وأثار هذا مشكلة جديدة : ماذا تفعل بى أنا ولوسيل ؟

ولم تتردد ، بل قبلت الدور فورا، وفى خلال الاسابيع الثلاثة التى أمضتها فى التدريب على دورها بنيويورك ، شرعت فى البحث عن مكان لاقامتنا ... وفى النهاية اتفقت مع زوجين عجوزين على اقامتنا معهما فى مسكنهما بميدان واشنطون ، ووعد الزوجان ـ آل مورس ـ برعايتنا والاهتمام بارسالنا الى المدرسة كل يوم .. ولكن عندما حان وقت الرحيل، تبين أن الفراق مؤلم ، فانفجرنا باكيتين ..

وقالت أمى وهى تغالب دموعها : ان الامر ليس سيئا الى هذا الحد .. هيا ابتسما .. وسوف أكتب لكل منكما رسالة كل يوم .

وبدا أنه وعد ألقت به فى ساعة حماسة ... ولكنها ظلت متمسكة بالوفاء به طوال الاثنى عشر عاما التالية كلما رحلت بعيدا عنا ..

نصيحة من آل جوردون

بدأت جولة « السجين والفتاة » فى تورنتو بكندا ، ولكن أمى أرسلت لكل منا بطاقة بريد من « سيراكيوز » بولاية نيويورك حيث توقفت فى الطريق ... وكتبت لنا مرة أخرى

من أوتاوا ، وبينما كانت الفرقة تنتقل من مدينة لاخرى ، كانت أمي ترسل لنا رسائل مسهبة ، بالاضافة الى بطاقات البريد

وظلت أمي تصنع ثيابها بيديها .. في غرفة ثيابها بالمسرح بين الفصول ، وفي غرفة الفندق قبل المسرح وبعده .. بل وفي القطار !

ونجحت الجولة ... ولكن عندما حل الربيع ، وأتيحت الفرصة لانضمام أمي الى فرقة أخرى في «لين» بولاية ماساشوسيتس ، لم تتردد رغم قلة الاجر ، ولكن العمل في مكان واحد كان يعني أننا نستطيع أن نعود للاقامة معا مرة أخرى

وكتبت لنا تقول : « احزما كل شيء جيدا ، واركبا السفينة التي تصل الى فول ريفر ، ثم خذا القطار الى بوسطن ، وسأكون في انتظاركما في المحطة »

وكان العمل في تلك الفرقة يتضمن التدوب على ثلاث مسرحيات في وقت واحد ، الاولى تعد للاسبوع بعد التالي ، والثانية للاسبوع التالي ، والثالثة لكي تمثل في ست حفلات ليلية وحفلتين نهاريتين كل أسبوع !..

ونجحت أمي في مختلف الادوار التي ظهرت فيها في ربيع ١٩٠٨ ، وكان بينها كثير من أدوار العوانس ، ودور فتاة هندية ، وسيدة من الطبقة الراقية ، وفتى في العشرين !

وفي خلال شهر واحد أصبح لها معجبون كثيرون ، ينتظرونها كل ليلة بعاصفة من التصفيق كلما ظهرت على المسرح ، ومع ذلك فانها كانت تتقاضى أجرا أسبوعيا قدره ٣٥ دولارا ، لايكاد يقيم أودنا الا بصعوبة

وكان صديقاها المقربان في الفرقة هما لويز وروبرت جوردون اللذين قضيا حياتهما كلها في المسرح ، وقد دربا أمي على تمثيل أدوارها ، وكانا يشعران بالفخر لخطواتها السريعة نحو الشهرة ..

وفي ذات ليلة كان الثلاثة يجلسون معا في غرفة ارتداء الثياب الخاصة بأمي عندما وزعت الاجور ، وفي تلك الليلة بدت الخمسة والثلاثون دولارا أصغر مما يناسبها ، فقد اضطرها تصفيق الجمهور الى الظهور أمامه عدة مرات لتحيته بعد انزال الستار ..

ولم تستطع أمي أن تخفي تنهيدة تعسة ندت منها .. وأدرك روبرت جوردون مايعتمل في نفسها فقال فجأة :

ـ ماري .. لماذا لا تذهبين للعمل في فرق الفودفيل ؟ انك في حاجة الى

نقود لتربية طفلتيك ؟

ودهشت أمي للفكرة ، ولكن جوردون مضى يقول :

ـ سوف تجدين المال هناك ٠ ٠ وقد تغير فن الفودفيل فلم يعد بالخشونة التى كان عليها

وقالت زوجته لويز : حتى سارة بارنارد واثيل باريمور عملتا فيفرق الفودفيل عندما احتاجتا الى مال كثير ٠٠٠ كما انك تستطيعين ان تعملى على مقربة من ابنتيك وأخيرا وافقت أمى على أن تجرب حظها فى هذا الميدان ٠

اعتمدى على نفسك

كان عليها أن تخلق لنفسها شخصية مسرحية خاصة لكى تنجح فى الفودفيل ٠٠ ومن ثم فانها كانت تذهب فى كل مناسبة لمشاهدة هذا الفن ودراسة أسلوب الممثلين فيه ، وما لبثت أن أعجبت بهذا الفن ، وقررت أن تغامر ٠٠

وفى أول يوليو ، بدأت مغامرتها ، فتركت الفرقة التى كانت تعمل بها ، ومثلت فى فرقة للفودفيل أمامجمهور المسارح الصيفية طوال فصل الصيف ، وعندما أغلقت هذه المسارح أبوابها فى منتصف سبتمبر ، كانت قد اكتسبت خبرة تكفى للتعاقد مع سلسلة من المسارح الصغيرة فى نيو انجلند لمدة أربعة أسابيع ، وفى النهاية سمع عنها ملك الفودفيل « كيث » فاستدعاها الى بوسطن ، وهناك طلب منها أن تغنى فيمسرحه الفسيح ، ولعله توقع أن يتوه صوتها فى أرجائه الواسعة ، ولكنه دهش عندما دوى صوتها فملأ جوانب الدار جميعا ٠ وبعد أن استمع الى ثلاث أغنيات سألها : من أين جئت بهذا الصوت ؟

فقالت ضاحكة : لقد وهبنى الله اياه ٠٠ هل أعجبك ؟

ولميعجب كيث بصوتها فحسب ، بل أعجب أيضا بقوامها النحيل ، واناقتها التى كانت شيئا جديدا فى عالم الفودفيل الذى يمتلىء بالمغنيات الشقراوات السمينات وطلب منها أن تلقى أغنية هزلية ، فألقتها أمامه ، وعندئذ قال لها :

ـ حسنا ٠٠٠ احضرىفصلا هزليا نظيفا وسوف أتعاقد معك ٠٠٠ وتأكدى من الحصول على كاتب جيد ، لانك ستحتاجين اليه ٠

وسألت أمى عن كاتب جيد للمسرحيات القصيرة ، ولكنها ذعرت عندما علمت أن أقلهم أجرا يتقاضى ٥٠٠ دولار !!

كنت أنا ولوسيل نعيش يومئذ في بوسطن مع أرملة عجوز وابنتها ... وفي تلك الليلة شاطرتنا أمي غرفتنا ، وما كاد الظلام يحل ، حتى جلست الى جوار النافذة ، ووضعت يديها المتشابكتين في حجرها .. ثم أغمضت عينيها وقالت مبتهلة:

ـ يا الهي ... أرني ماذا تريد مني أن أفعل !

وكأنما جاءها الرد في صورة وحي يقول لها : اعتمدي على نفسك

وعندما قالت أمي لآل جوردون بعد ذلك انها سوف تكتب مشاهدها بنفسها ، قالوا انها مجنونة ، فلم يسبق أن كتبت ممثلة فصولها بنفسها ، ولا بد لها من الاستعانة بشخص خبير بالتأليف ... ولكن أمي أصرت على أن تفعل ذلك ..

لم تكن لديها أية فكرة عن كيفية الكتابة ، ولكنها بدأت تعمل وفي يدها ورقة وقلم وانجيل ... وظلت الورقة بيضاء بعض الوقت ..

وقامت تذرع الغرفة جيئة وذهابا ... ثم تصفحت أكداسا من الاغنيات القديمة في اهمال ، وفجأة سقطت من بينها صورة لها في أوبريت « مستر بيكويك » التي ظهرت فيها في دور ناظرة المدرسة العانس ... وحدقت في الصورة باهتمام ، ثم تذكرت أن تصويرها للشخصية كان مستمدا من الحياة ذاتها !!

لقد كانت أمي وهي طفلة صغيرة تجلس في كنيسه جدي بدنيفر ، ترقب بعض النسوة العجائز وهن يثرثرن في الصفوف الخلفية ، بألسنتهن السامة ، التي تخصصت في تدمير سمعة الناس ، حيث ينكرن الخير ويجسمن الشر ، حتى في أقرب الصديقات اليهن ...

وأدركت أمي أنها وجدت مايصلح للمسرحية الصغيرة ... وبدأت تكتب حوارا من ذكرياتها عن تلك الشخصيات ... وانطلقت تكتب وتكتب ، وهي تضحك مما تحويه التمثيلية .. وما كادت تنتهي حتى كانت الدموع تسيل على وجنتيها من فرط الضحك .

وكانت هذه المسرحية القصيرة سببا جعل اسم أمي يحتل الصفحات الاولى من الصحف كممثلة فودفيل عظيمة ، وأصبحت الصور الساخرة التي ترد في فصولها شيئا يتندر به الازواج على زوجاتهم ، وتستخدمه الزوجات في السخرية من صديقاتهن الثرثارات ، وكأنهن لايرين أنفسهن في تلك الشخصية !

وأبدت أمى مهارة فنية بالغـة فى تمثيلها ، وتغيير ثيابها بسرعة فائقة، وكانت فى ختام كل فصل تظهر فى صورتها الحقيقية لتردد أغنيةجميلة، تنتزع الاعجاب والتصفيقالمدوى كل ليلة .

وعنـدما رأى كيث ذلك النجـاح الكبير أسرع بالتعاقد معها ..

وأتاح لهـا تمثيل الفودفيـل أن تعول نفسهـا وتعلم طفلتيهـا ... وازداد الاقبـال على التعاقد معهـا من مختلف المسارح..وكانت أمى تمضى معنا كل الوقت الذى يسمح بهعملها الجديد ، وتواصل الكتابة لنـا خلال سفرها بعيدا وكثـيرا ماكانت تصف لنـا جمال الربيـع فى الريف الذى كانت مولعة بالسير فيه ، وتحثنا على الخروج دائمـا للنزهة بين الحـدائق والاشجار ..

أمى تعود لتبقى

لعل المسكن الخاص هو أول شىء قاد أمى الى التفكير فى اعتزال المسرح فقد كنا نتلهف جميعا علىمكان خاص يجمعنا معـا .. وفى صـيف ١٩١٢ عرضنا عليها أن تستأجر لنا مسكنا وجدناه ...

وفزعت أمى أولا من الفكـرة ، ولكننا تغلبنا على اعتراضها شيئـا فشيئا ، وهكذا أصبح لنا مكانخاص يضمنا جميعـا ، وأصبحت لوسـيل ربة البيت تحت الاختبـار وكانت يومئـذ فى سنتهـا الاخيرة بمدرسة البنات اللاتينية ، وقد بلغت سبعة عشر عاما ونصف عام ، بينما كانت أنا فى السـنة الثانيـة الثـانوية ، وكانت أمى لا تزال تشعر بقلق من تركنا بمفردنا ، وقد رحلت الى عملها بعـد تردد ظاهر ، ولعلها أدركت أن جسر بطاقات البريد لن يكفى لحمـل كل مشكلاتنا المتزايدة ..

وفى فترة ما خلال السنة التالية ، قررت أمى أن تتخلى عن التمثيـل والغناء ، وهما العمل الوحيـد الذى تعرفه ، وأن تبحث لنفسها عن عمل آخر فى بوسطن حيث يمكنها أن تكون معنـا كل يوم ... ومع أنهـا كانت تكسب حوالى ٣٠٠ دولار فى أكثـر الاسـابيع ، فان أجور القطـارات ، والعقود الملغـاة ، وأسـابيع التعطل كانت لاتترك لها الا القليل من هـذا الربح ، كمـا انهـا تقترب الآن من الخامسـة والاربعين ، وهذا يعنى أن سنوات ذروة المجد قد ولت ، وقد شاهدت بنفسها كيف يصعب على نجوم الفودفيل البقـاء فى القمة بعـد أن تتقدم بهم السن .

ونجحت لوسيل في الربيع في امتحان الالتحاق بكلية رادكليف ، ولكن أمي لم يكن معها مايكفي لدفع مصروفات الكلية ... ومع ذلك فقد صممت على ادخالها مهما كان الثمن ..

وارتدت أفضل ثيابها ، وتناولت صندوقا صغيرا ، وذهبت لمقابلة البارون رآسل بريجر عميد كلية رادكليف ... وبعد أن أتمت حديثها معه ، نظر اليها الرجل في دهشة صامتة .. وأخيرا قال :

ـ مسز كوبرن .. هل أفهم أنك تريدين رهن هذه الساعة مقابل تعليم ابنتك ؟

فقالت أمي : أجل ...

وقدمت له الساعة الذهبية المرصعة بالماس التي تحتفظ بها تذكارا من أبي .. وكانت قد رهنتها ست مرات سابقة في حالات الطوارىء !

ولم يستطع الرجل أن يتكلم من الحرج والدهشة ، فلم تكن هناك سابقة لمثل هذا الموقف ... واخيرا نظر الرجل الى الساعة ثم قال مبتسما :

ـ مسز كوبرن ... لايمكن تقدير قيمة الذكريات العزيزة علينا ... سوف أضع ساعتك في خزانة مكتبي الى آن تحضري لطلبها ، وسأعطيك ايصالا بمصروفات ابنتك .. اننا فخورون بأمثالها .

وبعد ظهر نفس اليوم التحقت أمي بعمل في قسم النسخ بدار صحف «كريستيان ساينس» بناء على نصيحة أحد أصدقائها القدامى ، وذلك مقابل ١٢ دولارا فقط في الاسبوع ، ومع ضآلة الاجر ، فقد أحبت العمل وأتقنته كعادتها في كل عمل تتولاه ، وابتكرت طرقا جديدة لتوفير الوقت والجهد في أدائه ، وسرعان ماأصبحت مشرفة على قسم صغير ، ثم على قسم أكبر في المؤسسة ، وعندما دخلت الجامعة بعد عامين ، كانت تحتل منصبا ممتازا بمرتب كبير .

وظلت تعمل في هذا الميدان في سعادة تامة طوال السنوات الخمس عشرة التالية من حياتها ، وكانت لحظة انتصارها الكبرى في عام ١٩١٩ عندما حصلت آنا على شهادتي الجامعية ، فقد عرفت عندئذ أنها نجحت في تعليم ابنتيها .. وانها تستطيع الآن أن تنام قريرة العين .



قال سمسار البورصة لزميله وهما يغادران المكتب :

ـ هيا بنا نهبط على درجات السلم ، فانني لا أستطيع ان اتحمل سماع عامل المصعد وهو يقول : « نزول .. نزول »

كتاب الشهر

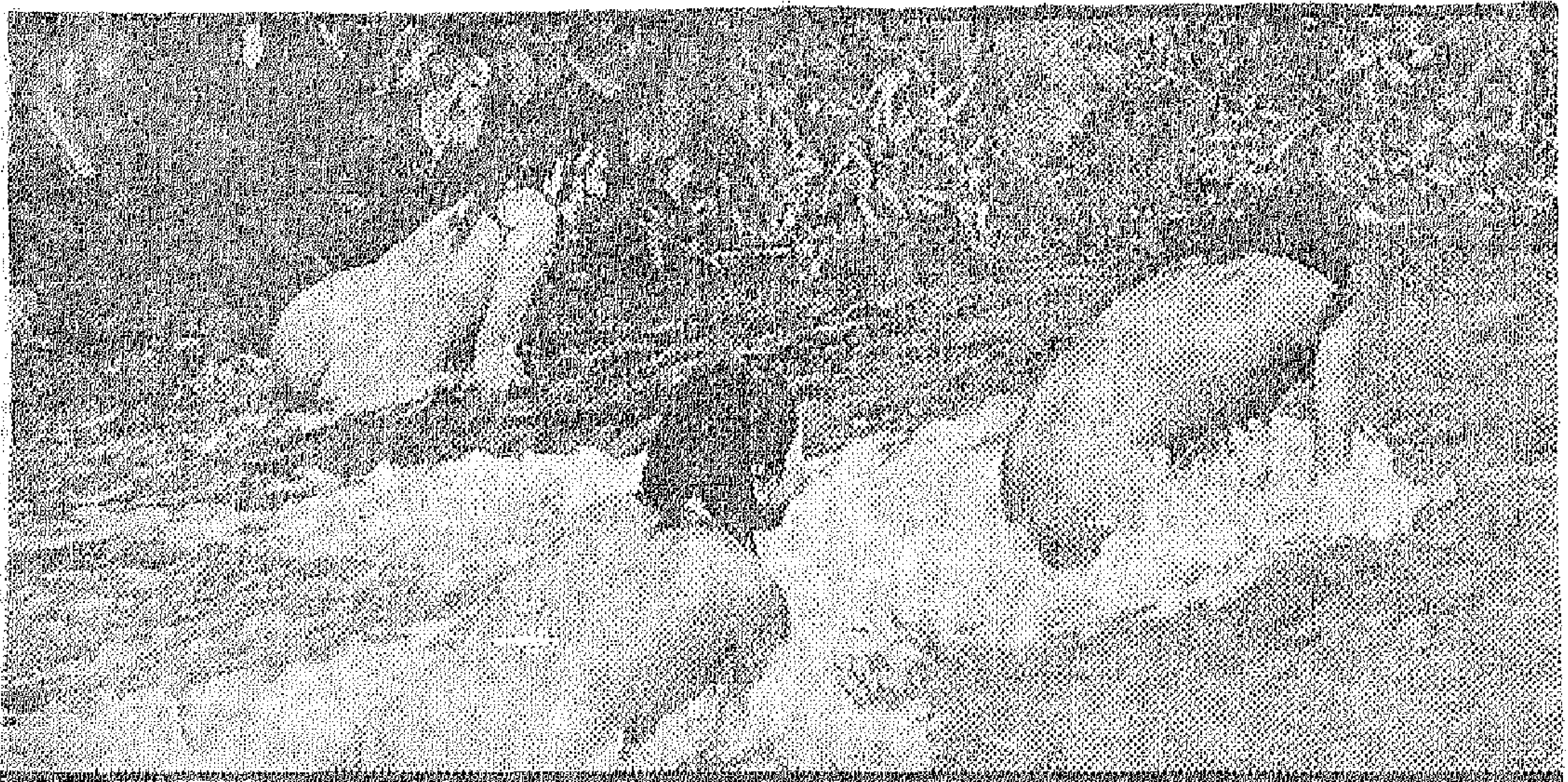
أقربائي المتوحشون

تلخيص كتاب

The Savage My Kinsman

بقلم اليزابيث اليوت

امضت اليزابيث اليوت وطفلتها فاليرى التى تبلغ الرابعة ، اربع سنوات فى غابة الامازون تعيشان بين هنود قبيلة الاوكا العراة الغامضين الذين يخشاهم الكثيرون .. وكان هناك مايدعوها لان تخاف هؤلاء الناس بصفة خاصة ، فقد ذبحوا زوجها وأربعة من زملائه .. وكتابها الذى أسمته « قريبى المتوحش » وسردت فيه حياتها مع هنود الاوكا يعد قصة غير عادية لا لما تضمنته من صور حية رائعة فحسب ، بل ومن أجل الحنان الذى أحست به حيال هؤلاء القتلة المتوحشين .. وقدجاء الكتاب شهادة لا مثيل لها لروح الايمان الحية .



اقربائى المتوحشون

فى يناير ١٩٥٦ انطلق زوجى جيم اليوت مع أربعة آخرين من زملائه الشبان لمحاولة الاتصال بهنود « الاوكا » وهى قبيلة بدائية تعيش فى أعماق غابات الامازون على مقربة من حدود اكوادور الشرقية ، وكان الرجال الخمسة وهم أعضاء فى احدى الارساليات الدينية يعتقدون أنهم يطيعون إرادة الله الجلية بهذا العمل ..
وما لبث الخمسة أن لقوا مصرعهم جميعا على أيدى هنود الاوكا !

وعندما عادت فرقة البحث فى ١٦ يناير ١٩٥٦ لتقول أن جيم وزملاءه قد قتلوا ، دوت الصيحات فى أذنى ليلا ونهارا تقول : « لماذا ؟ » ... كنت أعرف أنه اذا كان ينبغى للحياة أن تمضى قدما ، فلا بد لها من أن تمضى زاخرة بالمعانى ... واذا كانت طاعة الله سببا صالحا للموت ، فانها كذلك سبب صالح للحياة ... ولم أجد اجابة أخرى على هذا السؤال .

لقد عملت أنا وجيم بين هنود « الكيشوا » فى مكان يسمى (شانديا) وبعد موته عدت الى متابعة عملى هناك ... لم تكن لدى فكرة عما يخفيه لى المستقبل ، أما فى الوقت الحاضر فهناك عمل كثير يجب انجازه ، كازالة الاعشاب من المطار الصغير ، وقطع الاشجار الكثيفه من الطرق والاراضى الخلاء ، وزراعة الموز وأشجار الاناناس ، واتمام مبنى المدرسة الذى بدأه جيم ، وكان لى الى جانب ذلك طفله تجب العناية بها ، وعمل طبى أمارسه بين الهنود ، ومدرسة للبنات أقوم بالتدريس فيها ، وترجمة الكتاب المقدس الى لغة الكيشوا

وفى نفس الوقت كان الناس فى أنحاء العالم يصلون من أجل هنود الاوكا حتى يغمرهم نور معرفة الله ، وبدت الاحتمالات الآن أقوى ضد تحقيق ذلك الهدف ، ولكننا كنا على ثقة من أن الله سيفعل كل ما يلزم لهداية قبيلة الاوكا ..

وترددت تكهنات كثيرة عن الكيفية التى يمكن أن يتم بها ذلك . . واعترف الكثيرون بأنهم يعرفون ماهى الأخطاء التى ارتكبها الرجال الخمسة وأدت الى مصرعهم ، وكتب بعض علماء النفس ، وخبراء علم الانسان يشرحون القواعد التى تنبغى مراعاتها

فى المحاولة القادمة .. وتدفقت علينا المقترحات من كل حدب وصوب .

وقد أصبحت أنا مهتمة شخصيا بهذه المشكلة ، ومع ذلك فقد اكتفيت بأن ألتمس من الله أن يفعل ما يشاء ، فاذا شاء أن يمنحنى دورا فى الاتصال بقبيلة الأوكا ، فاننى على استعداد ، ولكن الى أن يصدر هذا الامر ، فان واجبى هو الاستمرار فى العمل الذى أقوم به .

وكان طيارو الارسالية ما زالوا يلقون الهدايا الودية فوق قرية الأوكا، ويواصلون الرحلات الجوية التى بدأها « نيت سانت » .. أحد الرجال الذين قتلوا مع زوجى . وفى أحد أيام ١٩٥٧ سألنى الطيار جونى كنيان عما اذا كنت أود أن أرافقه فى مثل تلك الرحلات ، وبينما كنا نحلق فوق مجموعة من البيوت والاراضى المزروعة بأشجار الموز ، اذ ألقينا شطيرة من السجق على شاب متوحش كان يصيح ويلوح بيديه فى أسفل .. وسرعان مابدأ يلتهمها ، وأخذ يعدو من جانب لآخر فى الارض العراء ليكون على مقربة منا كلما مررنا فوقها وهو يرفع ذراعيه ويبتسم صائحا ..

ولم استطع ان امنع نفسى من تمنى الهبوط يوما هبوطا اضطراريا فى ذلك الوادى ، فقد كانت الرغبة فى نفسى قوية لان أقابل هنود (الأوكا) وجها لوجه .. ولكننى فى نفس الوقت كنت أخشى الظلام والمصير اللذين يبدوان انهم يمثلونهما ، فقد كانت هناك حقيقة واحدة عرفت عنهم على وجه التأكيد ، وهى انهم يقتلون كل غريب يقترب منهم ! ..

الأوكا قادمون

كنت أزور بعض الاصدقاء فى قرية « أراجونو » بعد ذلك بستة شهور ، عندما علمت أن ثلاثا من نساء قبيلة الأوكا ظهرن على مقربة من احدى قرى هنود الكيشوا ، وادركت اننى يجب أن أذهب لمقابلتهن فورا . .

وملأت شبكة هندية صغيرة بالكراريس وأدوات علاج لدغات الافاعى ، وبعض الثياب ، وغطاء خفيف للنوم .. وسرعان ما كنت فى طريقى اليهن بصحبة دليلين من قبيلة الكيشوا .

واستغرقت الرحلة حوالى ست ساعات ، وعندما وصلنا الى قرية الكيشوا على نهر كوراری وجدنا امراتين فقط من هنود الأوكا ، أما الثالثة فقد عادت الى القبيلة .. وكان شعر المراتين مقصوصا من الجانبين ، وقد ارتدتا بعض ثياب هنود الكيشوا الفضفاضة ، وكانتا

تبدوان فى حالة اطمئنان تام الى أن وقعت أنظارهما علي ، فقد أثارت رؤيتى الرعب فى قلبيهما لاول وهلة، ولكنى ما لبثت أن تمكنت من تهدئة روعهما بعض الشيء ، وأمضيت بقية اليوم أحمل فى يدى قلما وكراسة ، لأحاول تعلم بعض كلمات لغة الأوكا اذ كنت أسألهما : ماهذا ؟ واستخدم عبارة من العبارات القليلة التى أعرفها من لغة الاوكا ، ثم أدون مايمكننى سماعه من اجابتهما

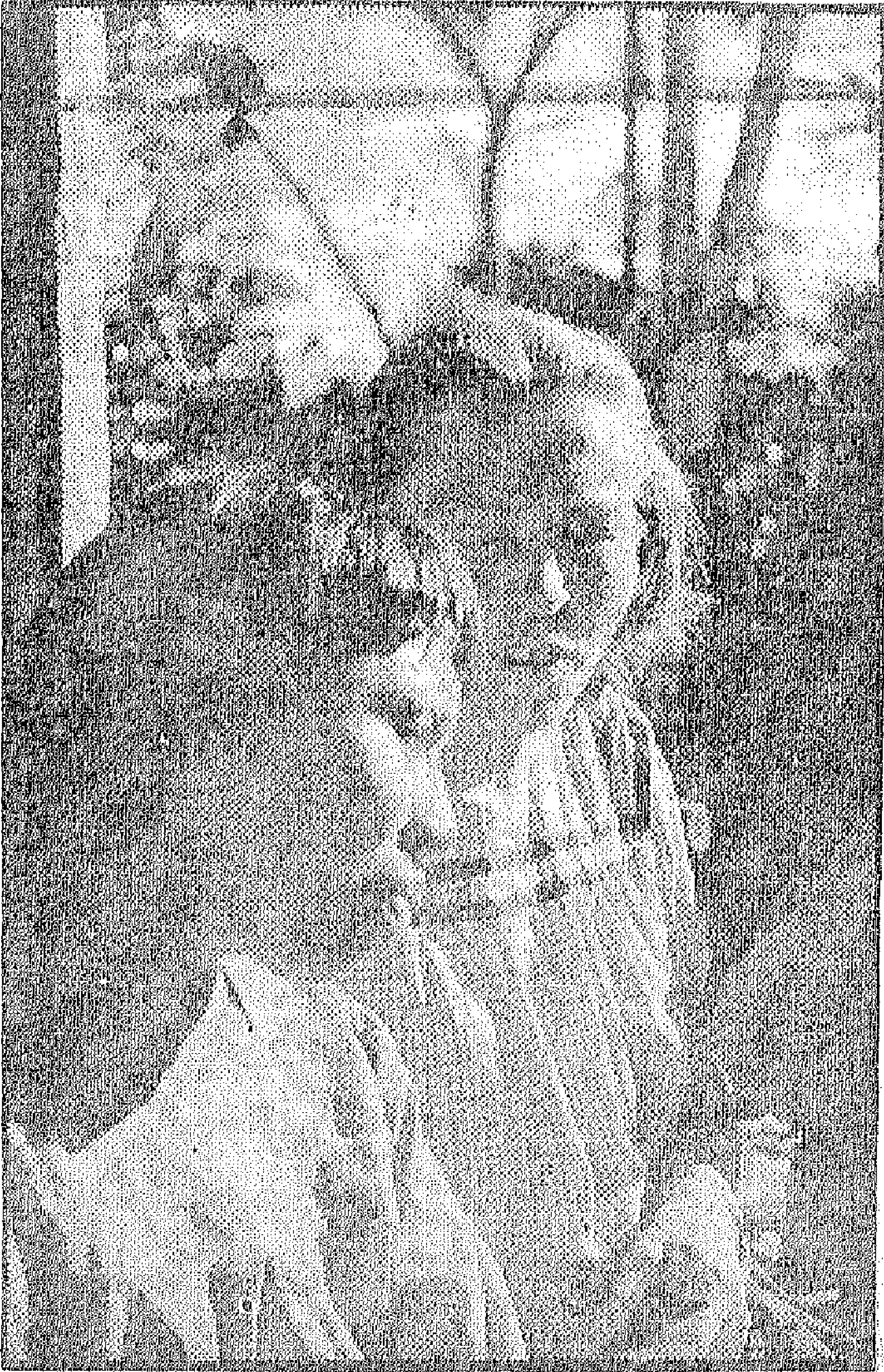
وفى الايام التالية بدا أن المرأتين سعيدتان بوجودهما مع هنود الكيشوا ، والظاهر أنهما عزمتا على البقاء عندهم وان بدا السبب فى ذلك غامضا .. وتأكد لى أن الله أرسلنى الى هذا المكان ، وانه من الحكمة الاستقرار هنا ريثما أتمكن من دراسةلغتهم ولهذا عدت الى شانديا لاحضارطفلتىالتى لم تتجاوز الرابعة ..

كنت عازمة على ألا أقوم بأية مغامرات لا مبرر لها مع فاليرى ، ولكننى بعد عودتى الى قرية الكيشوا بيوم ،

• حدثت معركةدموية .. فقد ذهب الرجال جميعا للصيد ، وكنا نحن النساء نستحم فى النهر وفجأة سمعنا صيحة عبر النهرتقول «الأوكا قادمون » ودبت الحياة فى كل بيت فى القرية .. وصاح البعض :

ــ لقد قتلوا هونوريو ..

اليزابيث اليوت واحدى فتيات الاوكا



وأقبل « داريو » وهو الرجل الوحيد الذى بقى فى القرية حينئذ وكان يحمل بندقيته ، وانطلق نحو المكان الذى حدث فيه القتل ، ولكنه لم يجد احداً من جنود الأوكا . وعاد هنود الكيشوا بعد ذلك ومعهم جثة القتيل وقد اخترقها ١٨ رمحا . ولم يعثر على « ماروجا » زوجة هونوريو التى لم تبلغ العشرين ، وكانت قد ذهبت معه ، ويبدو أن القتلة قد أخذوها أسيرة .

وذهبنا الى بيت « هونوريو » .. حيث كانت أمه وأخوه يبكيان ، ويربتان بأيديهما على جثمان هونوريو

دعوة

فى اليوم التالى قرر الهنود ترك قرية كورارى ، وفى خلال أسبوع وضعت الترتيبات لكى أستقل طائرة من « اراجونو » ووافقت المرأتان اللتان تنتميان الى هنود الأوكا على القدوم معى الى « شانديا » وكانت احداهما تسمى (مانكامو) والثانية (منيتاكا) .. ودخلت الاثنتان الطائرة بعد تردد ، وغطتا رأسيهما بغطاء من القماش عندما دار محرك الطائرة ، ولكن سرعان ما اضطرهما الفضول الى اخراج رأسيهما لمشاهدة الارض من تحتنا .

وفى شانديا بدأت دراسة لغة الاوكا بطريقة جدية ، وقد أمضيت أغلب الشهور التالية مع مانكامو ومينتاكا محاولة اتقان لغة الاوكا ، ومن امريكا ارسلت لى راشيل ـ شقيقة المرحوم « نيت سانت » طيار الارسالية القتيل ـ بعض المعلومات التى ساعدتنى كثيرا فى تعلم اللغة ، اذ كان معها فى أمريكا امرأة من نفس القبيلة تسمى «دايوما» وقد تركت قبيلتها منذ بضع سنوات .. وتبين انها ابنة أخي مانكامو ومنيتاكا . وأخذت أنا وراشيل نتبادل الاشرطة المسجلة التى تحمل الرسائل المتبادلة بين هؤلاء الاقارب .

وكان تقدمى فى اللغة بطيئا شاقا ، ولكنى تعلمت فهمها قليلا تدريجا ، وفى ذات صباح جلست الى جوار مانكامو وانا أحمل كراستى . وبدأت تتحدث عن أطفالها، قائلة انها وعدتهم بالعودة عندما ينضج (القبك) وهى الياف حريرية تحيط بجذور شجرة قطن الحرير وقد اقترب الآن هذا الموعد ، وهى تريد العودة لرؤيتهم .

وقالت لى : سوف تعودين معى يا «جيكارى » ــ وهو الاسم الذى أطلقته على منيتاكا ــ وسوف نعيش مع زوجى .. وسيصيد لنا الاسماك

ويحضر لنا اللحم من الغابة ،وسيكون لدينا الكثير من الموز و « التبيوكا » .. واذا أردت ، فانالطائرة تستطيع أن تلقى لك الطعام الذى تريدين . . انأطفالنا سوفيحبونكأنت وطفلتك، وستأخذين معك حقنك الطبية وتساعدين المرضى ، وسنعيش كلنا على مايرام .

فقلت متسائلة :

ــ وهل يتركنا قومك احياء ؟

فقالت :

ــ أن الهنودالذين يقتلون يعيشون بعيدا فى حوض النهر الاسفل

ــ ولكن قومك قتلوا زوجى برماحهم وسوف يقتلوننى ايضا

ــ لقد كان زوجك رجلا . . اما انت فامرأة .

وبدا لى الامر مقنعا ، ولا سيما اننى كنت اريد أن اقتنع .. وبدأت افكر فى قبول الدعوة .. وقد كتب لى بعض من سمع عن هذه الخطوة محذرين من الاقدام عليها ، قائلين انها ستكون حماقة ، ولكنى كنت أومن بأننى يجب أن أذهب ..

وكانت راشيل ودايوما قد عادتا الى اكوادور وقضينا معا بضعة أسابيع ، وقد بذلنا كلنا جهدا كبيرا لاتمكن من اتقان لغة الاوكا . .

واخيرا قررتالنسوة الثلاث انالوقت قد حان للعودة الى قومهن .

وطلبت منى « مانكامو » انتظارهن فى (اراجونو) مع طفلتى وراشيل ريثما تعود الى قبيلتها وتحدثهما عنا .. وقالت اخيرا :

ــ يجب ان تنتظرن .. سنعود لاخذكن معنا ..

ولكنبعد اختفاء النسوة الثلاثفى الغابة ، اخذت اسائل نفسي عما اذا كنت سأراهن مرة أخرى !

رحلة الى ارض الاوكا

وبعد شهر ــ أى فى ٢٥ سبتمبر ١٩٥٨ ــ عادت مانكامو ومينتاكا ودايوما الى اراجونو وعندما أخذت دايوما تسرد على قصة عودتهن الى قبيلة الاوكا ، سجلت اسئلتى لها واجاباتها على شريط مسجل . . كما يلى :

س : تقولين انهم قتلوا جيم والباقين ، لان (نينكوى) أبلغشعبك ان الاجانب سوف يأكلونهم ؟

ج : الى حد ما .. فهويخترع الاشياء فقط ..

س : وكيف قتلوهم ؟

ج : كان الاجانب يقفون فىالنهر، فقذفوهم بالرماح .. هذا كل ماذكره لى رجال الاوكا .. وقد

حدثتهم بعد ذلك عن الاجانب الرقيقين فقالوا : « لقد عرفنا الآن وادركنا اننا فعلنا مافعلناه دون جدوى .. »

س : هل قالت مانكامو ومينتاكا لقومهما ان الاجانب لايأكلون الناس ؟

ج : أجل قالتا لهم: «لماذا تعتقدون ان الاجانب يأكلون النــاس ؟ انهم يعتقدون أنكم أنتم آكلة لحوم البشر» .. فقال شعب الاوكا : « حسنا .. اننا نصدقك ولن نخشاهم بعدذلك »

واتفقت دايوما ومينتاكا ومانكامو على ان اصحبهن انا وراشيل فى العودة الى قريتهن ، وستذهب فاليرى أيضا معنا .. لقد تحقق الامل الذى ظللت ادعو الله لتحقيقه طوال سنوات ثلاث ، وقضيت من أجله عاما فى دراسة لغتهن ..

ولكنها كانت خطوة اخشاها فى نفس الوقت ..

وغادرنا «أراجونو» فى ٦ اكتوبر ، فوصلنا بعد الظهيرة الى قرية كيشوا على نهر كوراري ، وهنــاك وجدنا « ماروجا » زوجة هونوريو الذى قتل الاوكا زوجها وخطفوها وظلت اسيرة لديهم لمدة عام ، ثم اطلقوا سراحها بفضل جهود مانكامو .

وقالت ماروجا : اعتقد انهم سوف يقتلونك قبل مضي وقت طويل وتأكلك العقبان .. ان نساءهم طيبات . أما الرجال فهم متوحشون ضــــارون

وفى تلك الليلة كتبت فى مفكرتى أقول : « انني اسائل نفسى مرة أخرى عما اذا كان من الصواب أن أذهب ومعى ابنتى فاليرى .. ولكنى أعرف أنه لايليق ان ارجع فى قرار اتخذته بكل قلبى امام الله » .

وفى الصباح التالى استأنفنا رحلتنا مع ستة من الاولاد من ابناء الكيشوا وبعد يومين من التجديف فى نهرى كوراري وانانجو ، والنوم على الارض ليلا تحت أوراق الشجر ، تركنا زوارقنا وسرنا على الاقدام .. لقد أصبحنا فى ارض الاوكا . وكان هنود الكيشـــوا يضعون بنادقهم على أكتافهم ، وفاليرى نائمة فى مقعد خشبى صغير ربط على ظهر أحد الادلاء .. لاتعرف خوفا ولا رعبا .. لقد كانت ذاهبة الى مينتاكا .. أما انا وراشيل فقد احسسنا فى تلك اللحظة برهبة بالغة .

وبلغنا منحنى فى الطريق ، وهناك وقف ثلاثة من هنــود الاوكا العراة أمام مجمـــوعة من الاكواخ المقامة بالحصير ..

أهذا أبى ؟ .

كان كيمو شقيق مانكامو يقف فوق

كتلة من خشب البلزا يلوح لنابيديه، وهو شـــاب متين البناء فى حوالى الخامسة والعشرين من عمره ، وكان جسـده كلـه عاريا فيمـا عدا بعض الخيوط القطنية التى وضعت حول ردفيه ، وكانت فى حلمة أذنيه فتحات كبيرة سـدت بقطع اسطوانية من خشب البلزا .. بينما وقفت فتاتان حسناوان عاريتـان تبتسمان الى جوار كوخهما الصغير ..

وتأثرت على الفور بما بدا امامى من بساطة وعزة نفس هنـود الاوكا .. لقد وقفوا هادئين يحدقون بثبات فى رجال الكيشـوا الستة الذين يحملون بنـادقهم ، دون ان يظهروا أى خوف أو وجل .

واتجهت مانكامو الى كيمـو ، ولمست كتفه بأصابعها ثم قالت لى : « هـذا أخى » . كان يقف فى أنفة وكبرياء ، وأخذ يحدثنى ، ولكنى لم أفهـم مايتحدث عنه ومن ثم فقـد شغلت نفسى بمحـاولة التحدث مع الفتـاتين ، وسرعان ماجلس كيمو فوق كتلة الخشب وهـو يواصل الحديث بلا انقطاع ...

وجلست فاليرى تحدق فيه بعينيها .. انه أول رجـل تراه من قبيلة الاوكا . وكنت قـد اخبرتها ان اباها قد مات ولكن لم اذكر لها كيف حدث ذلك ، ولكن عقلها ربط بين هنـود الاوكا وأبيها بطريقة ما ، وأخـذت أرقب نظراتهـا لوجه كيمو .. واخيرا قالت الطفلة : « انه يبدو مثل أبى .. أهو أبى ؟ »

وهكذا كان هؤلاء الذين يعنـون الموت بالنسبة لى ، يعتبرون بالنسبة لفـاليرى مخلوقات بشرية ، وكانت على استعداد لتقبل الرجل الذى ساعد على قتـل ابيها باعتباره اباها .. لم يكن هناك شىء عجيب بالنسبة لها .. فهم مجرد هنود .. اصدقاء لها !

وبدأت نساء الاوكا فى اعداد الطعام من الاسماك ، ودعى رجال الكيشـوا للاكل ، فتـربعوا على الارض حول الطعام ، وجلس « كيمـو » بينهـم ، وكان أحـدهم لم يكن ليقتل الآخر بمجرد رؤيته منذ شهرين

وقبل فجر اليوم التالى استيقظت على صوت مرور « كيمو » امام كوخى وقال لى :

ـ اننى ذاهب ياجيـكارى .. اننى ذاهب .

وانطلق لكى يبلغ بقية قومه الذين يعيشون فى مكان آخر عن وصولنا ، وقد اختارت دايوما المكان الذى اقمنا فيه على مقربة من المكان الذى عاشت

فيه طفولتها وطلبت أن تنضم الينا القرية هناك .. واخذت القبيلة تصل أسرة بعد أخرى ابتداء من بعدظهرذلك اليوم ، ولايام عديدة ، وكانت كل اسرة تتكون من اثنين أو ثلاثة ، حتى بلغ عددهم جميعا ٥٦ شخصا .

كانت النساء قليلات ، ولكنهن عاريات رشيقات القوام ، أما الرجال فهم ذوو عضلات متينة ، البعض قصير ممتلىء والبعض نحيل ضامر ، وكان اكبرهم «جيكتيا» زوج مانكامو الذى يبلغ الخامسة والاربعين ، ولاشك انه كان سعيد الحظ لبلوغه هذه السن فى قبيلة يعد القتل فيها أمرا شائعا .. وكانت لكل رجل اسرة ، وهناك عدد من الارامل ، اما الباقون فمن الاطفال .. كانوا جميعا جماعة صغيرة الى حد يثير الدهشة ، ولا سيما أن الاوكا ظلت تثير الرعب فى قلوب جيرانها قرونا طويلة !.

وكانت هناك جماعة أخرى من هنود الاوكا تعيش فى الحوض الاسفل للنهر على مسافة ١٥٠ كيلو مترا تقريبا ، وهم أكثر الاعداء الذين تخشاهم القبيلة التى تعيش معها ، ولعل عددهم يتراوح بين ١٠٠ و ١٥٠ .

وعندما جاء أبناء الاوكا ، لم يظهروا مايدل على معرفتهم لاصدقائهم أو تحيتهم لنا ، وكان من العسير على ان أبدأ أنا التحدث اليهم أو الترحيب بهم ، فقد كنت أجنبية ادرك موقفى جيدا .

وحاولت ان اتخيل الاثر الذى تركه وجودنا فى نفوسهم .. ان أغلبهم لم ير قط احدا لايعرفه من قبل ، وهاهم يلتقون فى هذا المكان المألوف لهم بقوم غرباء عنهم .. غرباء فى اللون والحجم واللغة .. أناس يعتقدون انهم من أكلة لحوم البشر ! . . ومع ذلك فقد تقبلونا على اساس الامر الواقع ، لا بالاحضان ، ولكن بدون حقد أو كراهية .

فى بيوت المتوحشين !

كان بيتنا الجديد أرضا خالية تحدها من الغرب والجنوب اشجار الغابة الباسقة ، ومن الشمال والشرق انحناءة من نهر «تيوانو» وهو مجرى ماء يتراوح اتساعه بين ٣ر٥ و ٧ر٥ متر .. وكانت هناك ستة أكواخ صغيرة واثنان أكبر حجما ، وكانت البيوت عبارة عن اسقف من اغصان نخيل مجدولة ، ترفعها ستة أعمدة من جذوع النخيل ..ودعيت راشيل للمشاركة فى احد البيتين الكبيرين مع مانكامو وزوجها واعطيت انا وطفلتى

فاليرى البيت الثانى .

ويبدو ان انعدام الجدران تماما لم يكن يزعج احدا سواى اناوراشيل ، مع ان الاكواخ لايبعد بعضها عن بعض أكثر من مترين ، أما فاليرى فانها لم تلاحظ انعدام الارضيات والجدران والاثاث ، فقد كان لها « فراش » عبارة عن شرائط من الخيزران تمتد فوق ثلاث كتل خشبية فوق الارض « وقد رتبت بعد ذلك ادخال بعض التحسينات عليه ، بعد ان وجدت افعى تتلوى قرب رأسها وهى نائمة » .

ووضعنا حاجاتنا فى أكياس وسلال وشباك هندية وعلقناها فى الاعمدة التى تحمل المنزل ، وعندما كانت السماءتمطر ، كان المطريتساقط الى الداخل ، وكان لدى جهاز للراديو وآلتاتصوير وجهاز للتسجيل وبعض الكتب والاوراق التى لابد من حفظها جافة .. وبدأت أحسد الهندى فى هذا الموقف . . فليس لديه شيء يمكن ان يصاب بتلف اذا أصابه البلل ، فيما عدا بندقيته التى يختزنها عادة تحت السقف المجدول .. أمابقية ممتلكاته فتشمل صندوقا للسهام ، وفراشا مجدولا ، وبعض آوان من الفخار ، وشباكا لصيد الاسماك ، وبعض القرعات للشرب ، ورماحه التى يختزنها أيضا تحت الاسقف المجدولة .. اما بالنسبة لنفسه فهو لايعبأ قط اذا بلله المطر ، بل يكفى ان يتربع امام النار التى يبقيها مشتعلة دائما .

ولاول وهلة بدا لى انه من اليسير ان اسأل عن حياة الاوكا .. وهل هذا أفضل مايستطيعون عمله ؟ . . ولكنى مالبثت أن اكتشفت أنهم ناجحون حقا فى حياتهم . لقد كنت أجد من الضرورى أن أستخدم الثياب والاغطية — فضلا عن النار للاحتفاظ بالدفء ليلا .. أما الاوكا العارى فيظل مرتاحا مادامت قدماه دافئتين . . فهو يحتفظ بالنار الى جوار فراشه ، وينام وقدماه وسط الدخان المتصاعد منها . فاذا خبت النار استيقظ ، وحرك الكتل الخشبية جنبا الى جنب .. وفى الصباح يكفى أن تحضر المرأة اناء الطعام الذى تم طهوه عادة فى الليلة السابقة، وتضعه على النار وهكذا يتم اعداد الطعام قبل ان تستيقظ .

والاثاث الوحيد فى منزل الاوكا هو الفراش المجدول ، وهو مصنوع من الياف النخيل المتينة الخفيفة الوزن ، سهل الحمل لايشغل فراغا

من الارض ، وهومريح جدا فى الجلوس أو النوم . وكنت اجلس فوق فراش عنـد الطهو أو أثناء الاكل أو دراسة اللغة ، وأرقد فيه خـلال الامسـيات وانا اطالع على ضوء الشموع ، وكثيرا ماكانت فاليرى تشاركنى فيه عندما اقرأ لها قصة ..

وهنا على مقربة من سفوح جبال الانديز لم تكن الغابة شديدة الحرارة ، وفيماعدا الامطار الاستوائية الفجائية ، فان الجو مثالى ، وكان اكثر العوامل اثارة للمتاعب هو الحشرات .. ففى اسوأ فترة من موسم البعوض ، ترى هنود الاوكا فى حركة مستمرة لطرد الحشرة ، فهـــم يضربون ظهورهم وسيقانهـــم ، ويتنقلون من قدم الى أخرى ، وفى الايام الحارة ، تغير عليهم أسراب من النمـــل ، فيهاجم الانوف والافواه والآذان والعيـون ، ويتراكم فوق الطعام وكثيرا مايتجمع بالعشرات على الطعام وهو فى الطريق من الآنية الى الفم ، وكلما شـكوت كان الاوكا يوافقون على شــــكواى بحماسة ، ولكنهم لم يكونوا يشكون هم أنفسهم ، فقد أصبحت الحشرات جـــزءا من حياتهم !

وسرعان ما أدركت أن قبيلة الأوكا تتمتع بقوة غير عادية ، اذ لم أجد بينهم أية أمراض ، فيما عدا حالة أو حالتين غير مؤكدتين من المـــــلاريا والبرد العـــادى . ولم تكن هناك امراض الاطفال الشائعــة فى الدول المتحضرة كالغدة النكفية والحصبة والجديرى ، والسعال الديكى ، والحمى القرمزية ، فان الهنود يتمتعون بحصانة عجيبة ضد هذه الامراض ، ويبدو انهم كانوا يشفون منها دون أى علاج .

وكانت هناك ندوب عميقة فى كثيرين من أثر جـراح الرماح ، وقد شرحوا لى كيف اخترقت أجسامهم — حتى ان امرأة نفـــذ الرمح من صدرها وخرج من ظهـــرها — ومع ذلك فان آثار الجروح كانت نظيفة كأنها حدثت بعمليات جراحية سليمة .

قائمة طعام الغابة : التبيوكا والقرد !

ليس لدى الاوكا تشكيلة كبيرة من انواع الطعام ، ولكن لديهم الكثير من التغذية ، وقوام طعامهـــم هو نبات التبيوكا ، وهو درنات نشوية تعد غذاء اساسيا لهنـــــود الغابة كالبطاطس والخبز بالنسبة لنا ، كما أنهم يأكلون الموز ايضـــا .. وفى كل عام تقريبا يقومون بتطهير قطعة ارض جديدة من الغابة لزراعة حاصلاتهم ، وفى خلال خمسة شهور يصبح لديهم محصول سنوى من التبيوكا والموز ، وتقــوم

النساء باعداد مشروب من هذا الطعام وذلك بغلى التبيوكا حتى يصبح كالعجينة ، ثم يمضغونه ، ويبصقون جزءا من الكتلة لكى تبدأ التخمير ، ويمزج بعد ذلك بالماء ، ويشرب فى اليوم الثانى بعد ان يصبح سائلا مطاطيا كثيفا ، وهو على جانب كبير من التغذية .

ويقضى الرجال الجزء الاكبر من كل يوم فى الصيد ، ونظرا لقلة الايدى العاملة فى هذه الجماعة التى تتناقص كثيرا على مر السنين نتيجة للقتل ، فان الرجال يعملون كثيرا لاعالة زوجاتهم واخواتهم واقارب وامهات زوجاتهم وكل ارملة تعيش معهم أو الى جوارهم . فهم يبدأون العمل فى الفجر معلنين أنهم يعتزمون الصيد فى هذا اليوم ، وهم يصيدون القرود والسناجب ، والطائر المقنع (الطوقان) ، ونوع من الببغاوات الكبيرة التى تعيش فى آمريكا الجنوبية ، وهم يستخدمون فى صيد هذه الحيوانات الصغيرة بندقية هواء ، وهى عبارة عن أنبوبه من خشب النخيل الثقيل يبلغ طولها بين مترين ونصف متر وثلاثة أمتار ، ويطلقون من خلالها سهاما مسممه بنبات خاص من الغابة .

وعندما تكون مياه الانهار صافية أحيانا ، يقررون الذهاب لصيد الاسماك ، فيقوم الرجال بشحذ رماح الصيد الطويلة ، وتأخذ النساء شباكهن المنسوجه بعنايه من آلياف النخيل ، وعندما يصاد السمك فانه اما أن يشوى فورا ، آو يوضع فى أوراق النخيل ويحمل الى البيت .

وقد آحبت فاليرى الانزلاق فوق مياه النهر ، وهى ترقب الاسماك الصغيرة عن كثب ثم تضم يديها بسرعة لامساكها .. وتعود بها الى البيت فى لفافة صغيرة من آوراق الشجر . وقد تعلم الهنود كيف يحصلون على أفضل شىء فى طعامهم ، فهم يقومون بطهى القرود على النار بجلودها حتى لا تضيع الطبقة الدهنية الموجودة تحت الجلد ، وهم يأكلون الذيل بعد تدخينه ، كما يأكلون الرؤوس بما فيها من مخ وعيون وآذان ، وكل شىء فيها .. بل ان العظام لا يلقى بها الا بعد شقها واخراج مافيها من نخاع . ويحب هنود الاوكا الديدان الكبيرة الشاحبه ، وهى شرانق خنفساء كبيرة ، تعيش فى قلب النخيل ، ويعرف الهندى الفجوات التى تكشف عن وجودها فى الداخل ، فيحدث شقا فى الشجرة ويحفرها حتى يحصل عليها ليأكلها



الطفلة فاليرى مع حلاق الاوكا

نيئه أو مشويه في الرماد !

ولا تستغرق الوجبه أكثر من دقائق قليله لا يدور خلالها اى حديث ، وهم يتناولون الطعام من الآنيه الفخاريه بأيديهم ثم يلقى بها فى أوراق شجر الموز التى تبسط فوق الارض

وعندما وصلنا الى القبيله لأول مرة كنت أنا وراشيل نرجو أن نعيش كليه على الطعام الهنـــدى ، ولكننا لم نكن نتوقع الصعوبات التى تكتنفه بسبب افتقارنا الى وسيله للتبادل • فهنـــود الاوكا لا يستخدمون المال أو أى شىء آخر يمكن استخدامه كسلعة للتجارة فاما أن ننتظر حتى يعطونا الطعام أو نطلب بأنفســـنا ••• ولم يكن ذلك شيئا يسيرا ، فقد كنت أعلم أنه ليس لدى شىء أعرضه عليهم ، ومن ثم فقد طلبت باللاسلكى أن تقـــوم طـــائرة الارساليه بالتحليق فوقنـــا فى أيام الجمعة لتلقى الينـــا بالبريد واللحم والاشياء الاخرى كاللبن المجفف والبن والسكر والخبز والشوفان •

وكان الهنـــود يسمون الطـــائرة (الخنفســـاء) ، وعندما كانت تئز فوقنا كان الهنود يصيحون « ايبو •• ايبو » ••• ويقبـــل الجميع عدوا ، وتصرخ النســـاء لكى يبتعد أطفالهن عن المكان الذى ستسقط فيه اللفافات ، بينما يسرع بعض الرجال بالاختفـــاء •• وبعـــد ذلك يتزاحم الهنـــود فى منزلنا لرؤية ما ألقته الينا الطائرة • وكانوا يقومون بشم منتجات الالبان ، كاللبن والجبن والزبد ، وقد يأخذون عينه منهـــا ، ولكن مذاقها لم يكن يعجبهم ، وكانوا يعجبون من أكلنـــا لها ، وكنا نمنحهم بعض الاشياء التى يحبونها كاللحم البـــارد ، كما كان الاطفـــال ينتظرون الحلوى والسكر

والبرتقال كلما جاءنا شيء منها ، أما الكبار فكانوا يترفعون عن تناول أى شيء من الحلوى وكانوا يضحكون منا عندما نغسل الاطباق بعد تناول الطعام ولا سيما عندما نستخدم الصابون والاسفنج ، والملاعق والاقداح ، وكنت اضطر لحمل هذه الاشياء لغسلها فى النهر ثلاث مرات كل يوم وسط سخرية الجميع مما يثير شعورى بالخجل •

ضحك ••• وقسوة !

يسلى الاوكا أنفسهم بوسائل كثيرة ••• ونظرا لأنهم لا يعرفون الكتب أو الرياضه المنظمة أو الهوايات، فان الوسيلة الشائعة للتسلية هناك هى المحادثات ••• اذ أن أتفه حادث يقع فى المنطقه سرعان مايصبح موضوعا لمناقشات حاميه •• فاذا سقطت آنية الطهى عن كتل الخشب التى تحملها وسقط ما بها على النار ، اهتزت الجماعه كلها ضحكا وانتشرت الانباء بسرعة من بيت لآخر بين ضحكات السخرية •

ويراقب الاوكا الطيور التى تحلق فوق الارض التى يقيمون فيها كما نرقب نحن السيارات أو الطائرات ، وهم يعرفون أنواعها وفصائلها كما نعرف نحن طراز كل سيارة ، ويصفون طيرانها بعبارات حماسية كما يفعل مذيع مباريات الرياضة •

والصباح الباكر فى الغالب هو ساعة الاجتماع ، فالبعض يستيقظ فى أى وقت بين الثالثة والخامسة صباحا ، فيحرك نيرانه ويبدأ الحديث. فاذا لم يجد استجابة أيقظ شخصا آخر ليصغى لما يريد أن يقوله ••• وقد أيقظونى مرات كثيرة لمجرد أن يقال لى أن القمر ساطع أو أن فلانا كان يكذب !

ولم يسبق لهنود الاوكا أن امتلكوا كلابا الى أن أحضرت (دايوما) معها ثلاثة جراء صغيرة عند عودتها ، وأخذ هنود الاوكا يجذبون ذيولها ويداعبونها ويطعمونها حتى أصبحت سمينة، كما أنهم يطعمون القرود جيدا أيضا ويداعبونها ، وكثيرا ما ترى طفلا رضيعا يشاطر قردا ثدى أمه ••

أما اللعب كما يعرفه فتيان (الاوكا) ، فهو يعنى عادة التدريب على قذف الرماح والكبار يعلمونهم كيف يستخدمون كل حجم منها •

أما النهر ، فهو دائما مصدر لانهاية له للتسلية ، فالكل يستحم ويلعب فيه •• الصبيان يغوصون ويسبحون صائحين ، ويقذفون بعضهم بعضا بالماء ، ويصرخون ساخرين « ثعبان

ماء كهربائى » ... وقد تكون الصرخة حقيقية أحيانا .

وهناك أيضا قسوة بالغة فى معاملة الاطفال ، فقد يضربون أحيانا بالسياط ضربا عنيفا ، أو يضربون بقسوة لكى يصبحوا صيادين وعمالا أقوياء ، وعندما يقع الاطفال والكبار يصبحون موضع سخرية ولا سيما اذا أصيبوا بجراح .

وقصص القتل التى لاحصر لها والتى تقع هناك، تحكى بحماسة بالغة ، ويذكر الراوى من الذى قتل الآخر برمحه ، وفى أى جزء أصابه ، وكثيرا مايحدث الثأر بنفس الطريقة وفى نفس المكان الذى قتل فيه الشخص الآخر .

وقد سألت « ايبا » أرملة نينكوى يوما عما اذا كانت تفكر فى زوجها الراحل المحبوب فضحكت ثم سألت نفس السؤال عن زوجى فقلت :

ـ أجل ... كثيرا جدا .

فعادت تضحك وسألتنى : لماذا يتذكر الانسان شخصا مات ؟

وقد يسلى الكبار أنفسهم أحيانا بالكذب على الاطفال لكى يخيفوهم ويخرج الاطفال ليلا لصيد الضفادع النطاطة دون أن يقتلوها ، ثم يضعون قطعا ملتهبة من الفحم فوق ظهورها ، ويرقبون هذه الاضواء وهى تقفز فى الظلام .. ويصيدون الطيور الصغيرة ببنادق الهواء ، وكثيرا ماينتزعون ريشها قبل قتلها ثم يقومون بشيها وأكلها ... أما اذا عاش الطير بعد اصابته بالسهام فانهم يقومون بتمريضه بحنان حتى يشفى ، ويقضون الساعات فى صيد الصراصير لاطعامه

ان القسوة مهما كانت صورتها ومكانها لاعذر لها ، ولكن نظرا لان صور قسوتهم تختلف عن صور قسوتنا ، فهل تعد أسوأ منها ؟ اذا كان الاوكا لايبالى بمايعانيه الآخرون، فانه لايبالى أيضا بما يعانيه هونفسه وكثيرا ما يسخر من نفسه اذا أصابها بضرر .

ابن الغابة

شغلت «فاليرى» بزملائها من أطفال الاوكا ومتع الغابه حتى أننى لم أكن أفكر كثيرا فى تدبير وسائل لتسليتها والواقع أننى كنت أود أحيانا أن أجد طريقة لابقائها فى البيت كثيرا ... فقد تعلمت سريعا العبارات التى تحتاج اليها للحياة مع أطفال الهنود ، وساعدتنى أنا وراشيل على اتقان لغتهم ، وكثيرا ماكانت تصحح لى أخطاء نطق بعض الكلمات .. كما ساعدت على تسلية أصدقائنا من

« الاوكا » فشاركوها آقلامها وكتبها المصورة ..

وكانت فاليرى قد أحضرت معهـا الى القبيلة لعبـه واحدة عبارة عن عروسة ، وكانت شيئا عجيبا بالنسبه للاوكا .. شـيئا يستطيعون فهمه ، فكانوا يجذبون ذراعيهـا وسـاقيها ورأسها ، ولمـا كانت من البلاستيك فقد كان من السهل اعادة تجميعها من جديد .

وتعلمت فاليرى منهم اللعب بالسكين الكبيرة ، واشعال النار حتى اذا كانت السماء تمطر ، وكانت مغرمه باشعال النار ليجلسوا حولها متربعين ، كما كانت تجمع الاغصان الصغيرة وقطع الخشب الباقيه من الاشـجار التى قطعها الرجال ، ثم تاخذ عصا تشعلها من نارأخرى ، وسرعان ما تتلظى نارها باللهيب ..

المتوحشون المتمدينون !

ذات يوم أشار (دابو) الى الشمال الشرقى ونحن نجلس فوق الرمال على ضفاف نهر كورارى .. ثم قال :

ـ هناك الطريق المؤدى الى الاشخاص الذين يقطنون فى حوض النهر الاسفل

فسألته : ومتى تذهب لزيارتهم ؟

قال : زيارتهم ؟ انهم قتلة !

قلت : ولكنـكم أيضـا تقتـلون الناس .. أليس كذلك ؟

قال : اننا نقتلهم فقـط .. أما هؤلاء الناس فانهم بعـد أن يقتلوا يقطعون السيقان وينتزعون العيون ، ويمزقون الجسم اربا .. انهم قتلة .

وأدركت ثانيـة أن « المتوحش » ليس شخصا عديم الاحساس ، فهندى الاوكا لديه مثله الخاصه عن السلوك ، فهو قد يقتل جاره ، ولكنه لايتعارك معـه ... وهو قد لا يشـترك فى مشروعات الجماعة ، ولكنه يشـارك الارملة المجاورة فى قرده الصغير الوحيد .. وهو لا يستقبل صديقا أو يودعه ، ولـكنه يدعو أى ضيف يجده ليأكل معه ، ولو كان من هنود الكيشوا الذين لم يرهم من قبل .. وهو لايرتدى ثيابا ، ولكن لديه قانون صارم من التواضع ، وهو متحـرر تماما من كل مايشغل الجسم البشرى وكل مايتعلق به من محرمات سخيفة .

ولما كان هنـود الاوكا قليلى العدد الى هذا الحد ، فانهم جماعة متماسكة مترابطة ، دون أن تكون هناك سلطه مركزية من أى نوع ، فـكل رجـل رئيس نفسه ، والوحدة الاجتماعيـه الوحيدة هناك هى الاسرة ، وان بدا أنه ليست هناك شكليات فى الزواج ويكفى أن يومىء الفتى للعـذراء التى

يختارها فتتبعه الى الغابه ، ويعتبرا منذ تلك اللحظه زوجا وزوجة •

ومع أن هندى الاوكا قد يمارس تعدد الزوجات ، فانه يعول كلا منهن باخلاص ، ولم أر قط احتكاكا بين زوج وزوجته ، وقل أن سمعت أحدا منهم ينتقد آخر فى غيبته ، فالثرثرة والنميمة الذميمة شىء نادر بين المتوحشين !

والواقع أن كثيرا من شرور حضارتنا بدت لى بجلاء عند انعدامها عند هؤلاء الهنود ، فلم ألاحظ بينهم أى غرور أو كبرياء ، أو حسد أو جشع ، كما أن السكر شىء غير معروف ، والرجال ليسوا كسالى أو أنانيين فى استغلال مايصيدونه •

وكان لابد من أن أواجه الحقيقة المرة • • وهى أنه ليس لدى شىء أقدمه للاوكا من الناحيه الاجتماعيه ، كما أن أى مقارنة بينى وبينهم فى هذه الناحية كانت مؤلمة بالنسبه لى •

وكان علينا أن ننقل اليهم رسالة روحية، ولكن التخاطب كان عسيرا بين ثقافتين مختلفتين الى هذا الحد، فليس لدى هنود الاوكا أى قدر من العلم أو أيه صورة من الدين ، فانهم لايعرفون

الطفلة فاليرى واثنان من اصدقائها المتوحشين .



صلاة أو تضحيه أو عبادة ، أو مهادنة للارواح الشريرة (وانآمنوابوجودها) •• وقدحاولت «دايوما» التى اعتنقت المسيحيه منذ سنوات وهى بعيدة عن القبيلة أن تعلم قومها ماتعلمته هى•• فكانت تقص عليهم ماتعرفه منقصص الكتاب المقدس وحيـــاة المســيح ، فيجلسون مأخوذين وهم يصـــغون اليها ••

وقد عرفت أن الاوكا يؤمنون بأنه من الخطأ أن تقتـــل ـ الا فى ظروف معينة ـ • ويقول بعض الرجال الذين قتلوا زوجي وزملاءه الآن أنهم لـــــم يفعلوا شيئا طيبا بهذا القتل، ولكنها كانت مجرد غلطـــة ، فهنـــود الاوكا يحاولون الاحتفـــاظ بطريقتهم فى الحياة ، وبحريتهم •• وهم يعتقدون ان الاجانب خطر يهدد حريتهم ،ولهم كل الحـــق فى أن يعتبروا قتلهم عملا نبيلا ••

قريبى ••• الاوكا

عرفت غابه الامازون باسم « جهنم الخضراء » أما بالنسبة لى فانها تبدو أحيانا فردوسا•لقد أحببت الاشجار الباســقة ، والفطريات الرقيقـــه ، واستعراض الطحالب الذى لا نهايةله والزهور والجداول الجارية ، والطيور ذات الالوان الزاهيـــه •• ومع أننى لاأحب العيش فى بيت بلا جـــدران ، فاننىوددت أن يكون عملالبيت قليلا الى هذا الحد •• ولقد افتقدت الدافع الى الحـــديث بلغتى ، ولـــكننى فتنت بأسرار لغه جديدة •• وكنت أتوقالى ارتداء ثوب جميل وحذاء عالى الكعب بين حين وآخر ، ولكننى كنت مرتاحة الى بساطه وسهوله أثواب الكيشوا، والاقدام العــــارية ، وفى مقابل كل ضيق كان هناك مايعوضه

وعندما دنا موعد رحيلنا عن أرض الاوكا ، أخذت أرقب أولئك النـــاس الذين نســـميهم (متوحشين) ، وقد وقفوا يتحدثون معا فى لهجة خفيضه، يضحكون كالاطفـــال على الاشـــياء الصغيرة ، ويهتمون بأحداث الاصوات الخاصه بهم ، وكانوا يظهرون تناقض طريفا فىحبهم للثيابالجميلةوالاصوات المرتفعـــة ، والمرح ، والادراك المادى لحضارتنا ولكن خشونتهم فى بعض الاحيان ، ونواحي اهتمامهم المحدودة وفقر روحهم البائسة ، كل ذلك كان يثير كآبتى الى حد مروع •

ان الهنود البدائيين الذين عملت معهم من قبل ، عرفوا الرجل الابيض ووسائله ، وقد حنوا رءوســـــهم الى حد ما على الاقل ـ امام تفوق الرجل الابيض،أماقبيلة الاوكافلمتخطرببالهم

هذه الفكرة ، ولم يكن هناك مايدعوهم الى اعتبار أننا أفضل منهم ، بل لعله كانت لديهم بعض اسباب تجعلهم يعتبروننا اقل منهم ... ومع ذلك فقد كانوا يتقبلوننا في الظاهر باعتبارنا أندادا لهم ، وهذا ماأظن أنني كنت اريده

لقد كنت أحاول أن أسبر غورهم ، وأن أعبر قدر استطاعتي الهوة التي تفصل بيننا ، وبدا لي ذلك أملا ساذجا في كثير من من المرات .. بل انني يئست في مرات أخرى من مجرد معرفهم معرفة جيدة ومعرفة أسرار قلوبهم .. ثم عرفت انني لا أعرف كنه قلبي نفسه !

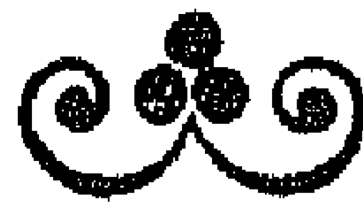
انهنود الاوكا رجال .. مخلوقات بشرية صورها الله ، ولها ولنا مصدر مشترك ومطالب مشتركة ، وغايات مشتركة .. أو كما قال الشاعر ساندبرج :

« اننا سواء في كل البلاد والقبائل في محاولة قراءة ما تقوله لنا السماء والبحر والارض .. كلنا سواء في الحاجة الى الحب والطعام والثياب والعمل والكلام والنوم والمرح »

وهكذا اعترفت بأن هنود الاوكا من أقربائي ...



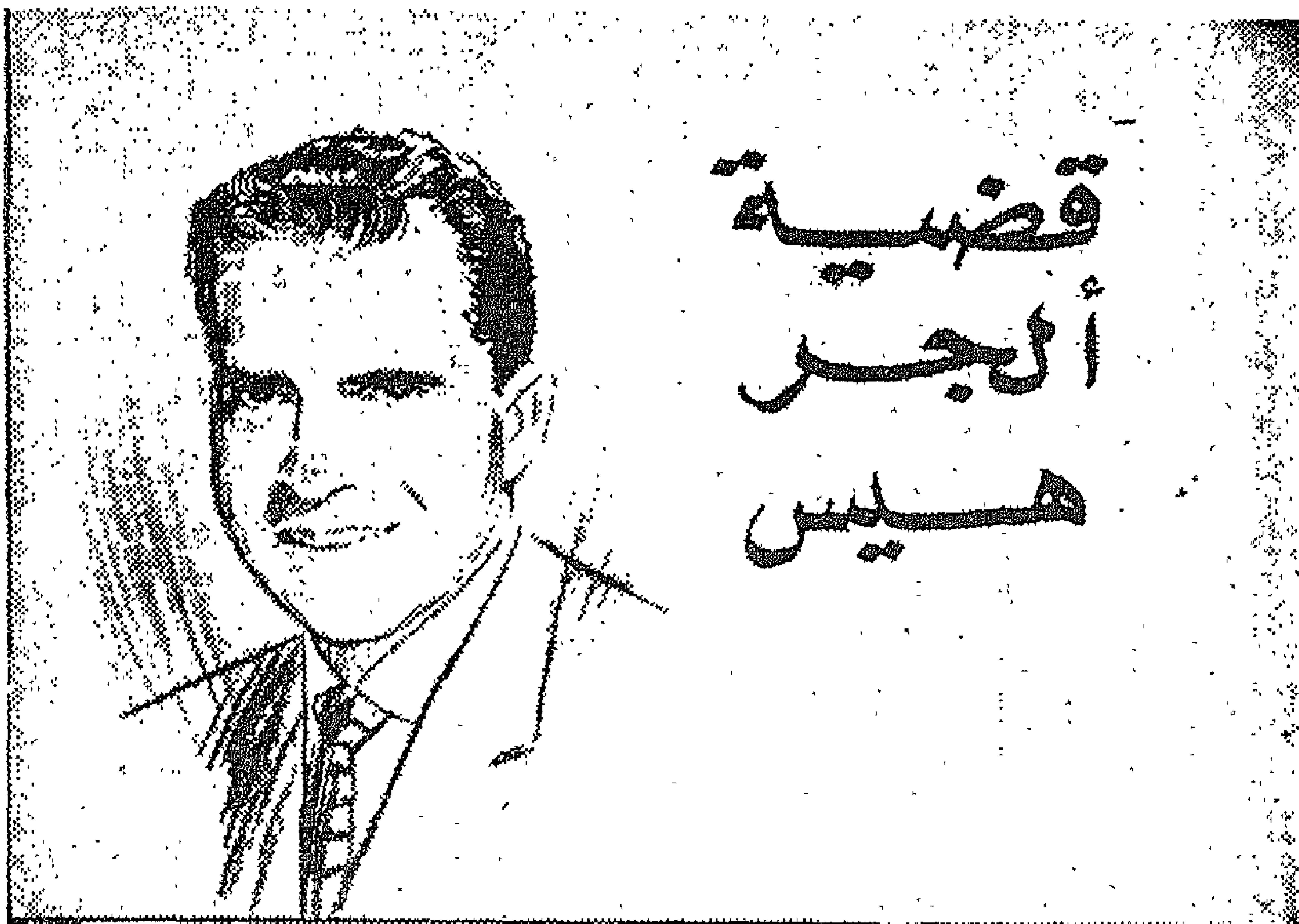
الطفلة فاليرى تسير في الغابة مع أحد أفراد الاوكا



منظر مختلف

فسخت احدى نجوم هوليوود الناشئات خطبتها لاحد الاثرياء .. وقالت تشرح السبب لصديقها :

ـ لقد رأيته في ثوب الاستحمام ، فبدا مختلفا تماما بدون حافظة نقوده ! .

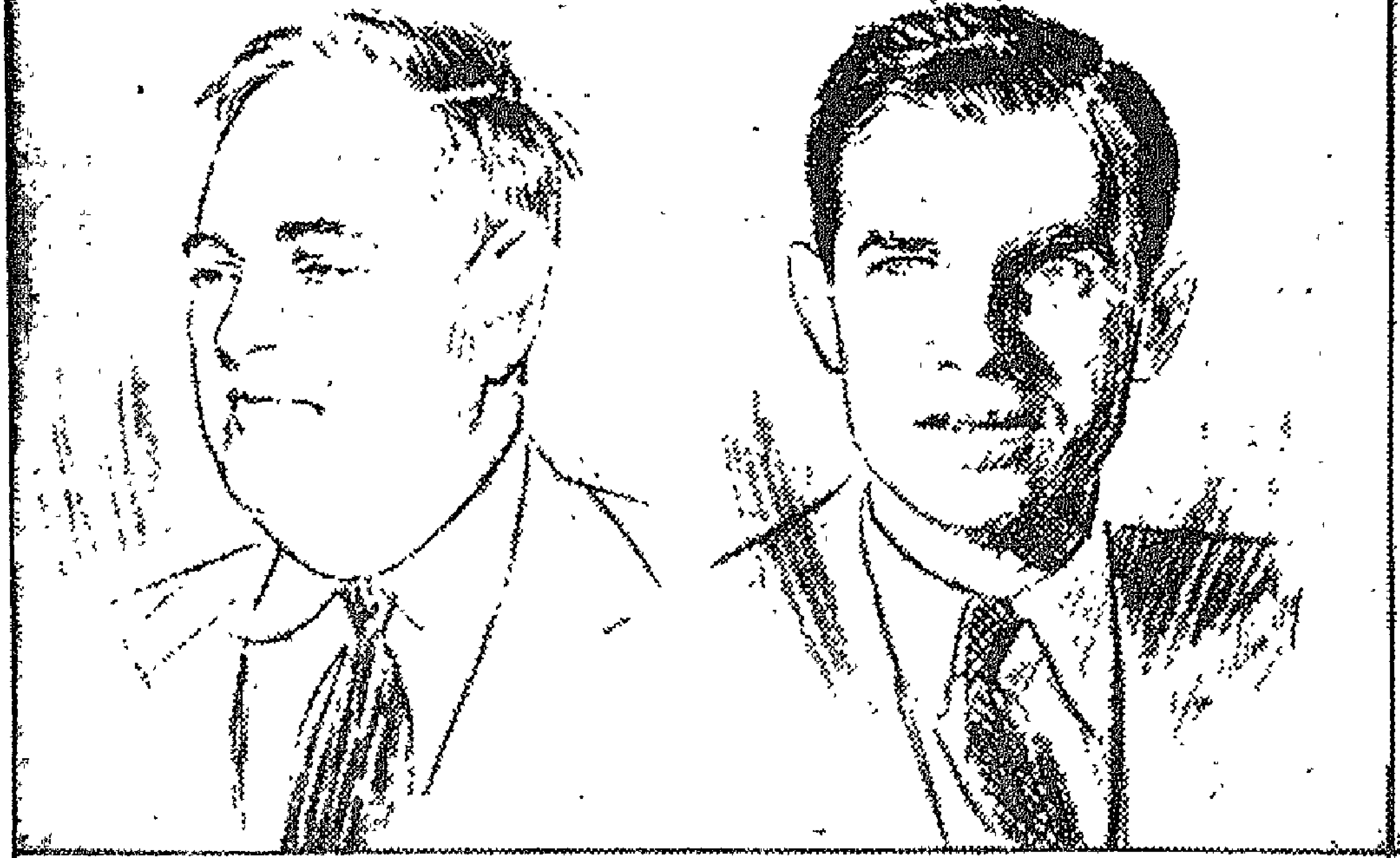


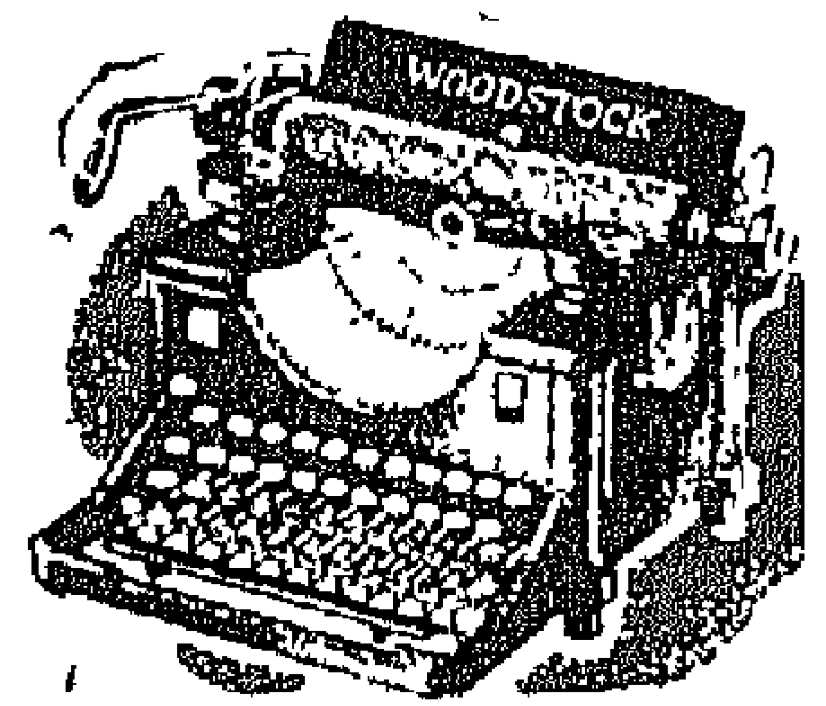
عن كتاب SIX CRISES
بقلم ريتشارد نيكسون

ليس فى التاريخ أحداث كثيرة تستطيع أن تجارى قضية « الجر هيس » فيما تحويه من أحداث وصدمات عاطفية ... فقد كان هناك رجلان أحدهما يكذب والآخر لا يكذب .. ولكن أيهما يقول الصدق ؟

ان الرد على هذا السؤال أدى الى فضيحة مثيرة لمؤامرة تتغلغل فى أعماق الحكومة الامريكية .. فضيحة أيقظت الامة لترى الاخطار الداخلية المحدقة بها ..

وكان ريتشارد نيكسون يومئذ نائبا جديدا جاء من كاليفورنيا الى الكونجرس ، وها هو ذا هنا - فى أحد فصول كتابه الذى أحرز رواجا شديدا - يتحدث عن الكيفية التى كافح هو ولجنته الفرعية بها فى وجه تيار سياسى قوى ، ليبحثوا عن الحقيقة .. وكيف انتصروا فى النهاية





بدأت قضية « هيس » بالنسبة لى فى يوم حار خانق الهواء من من أيام أغسطس ١٩٤٨ فى مدينة واشنطون ، عندمامثل ديفيد هويتكر تشيمبرز أمام لجنة النشاط المعادى لأمريكا بمجلس النواب ليدلى بأقواله عن النشاط الشيوعى فى الحكومة الفيدراليه ـ وكنت يومئذ فى الخامسة والثلاثين من عمرى ، ولم يمض على دخولى الكونجرس سوى عام واحد ، وكنت عضوا فى هذه اللجنة التى لم يسبق فى تاريخها قط أن بدأ فيها تحقيق أكثر اثارة مما قاله هذا الشاهد الذى لا يؤثر منظره فى النفوس كثيرا ..

كان تشيمبرز ـ وهو من كبار محررى مجله تايم ـ قد استدعى للشهادة لأنه كان من الشيوعيين العاملين فى العقد الرابع من القرن الحالى ، وهو رجل قصير سمين، ثيابه مجعدة وقد برزت ياقة قميصه فوق

سترته .. وبدأ تشيمبرز شـهادته بتلاوة بيان معـد من قبل ، بعبارات متقطعة تثير الملل ، فقـال انه انضم للحزب فى عام ١٩٢٤ اذ كان يؤمن أن الشيوعية هى الطريق الوحيد المؤكد الى التقدم ، ولكنه ترك الحزب فى عام ١٩٣٧ مخاطرا بحياته بعد أن اقتنـع بأن الحكم الديكتاتورى يعنى عبودية لكل البشر .

وذكر تشيمبرز أسماء أربعـة من جماعته السرية ـ قال ان هدفهـا الاسـاسى لم يكن التجسس ، بل التسلل الشيوعى فى الحكومه الامريكية ـ وكان بين هؤلاء الاربعة «ألجرهيس» من موظفى وزارة الخارجية الامريكية السابقين ، وقد رافق الرئيس روزفلت الى مؤتمر« يالتا » كمستشار ، كما تولى منصبا رئيسيا فى مؤتمر سان فرانسيسكو الذى كتب فيـه ميثـاق الامم المتحدة ، وقال تشيمبرز ردا على أسـئلة أخرى أن مسـز هيس كانت شيوعية هى الاخرى .

ومع أن شـهادة تشيمبرز احتلت الصفحات الاولى من صحف اليـوم التالى ، فانها لم تؤثر على اللجنة ، ولم أفكر فيها كثيرا .. ولكن هيس التمس فى ذلك المساء منحه الفرصة لينكر علنا وتحت القسم المزاعم التى ذكرها عنه تشيمبرز ، فقررنا قبول طلبه فورا

هيس يكسب اليوم

بدأ هيس شـهادته بصوت واضح حلو النبرات فقال : لقد جئت بناء على طلبى لأنفى التصريحات غير الصحيحة التى ذكرها عنى شخص يدعى هويتكر تشيمبرز أمام اللجنـة . فأنا لست عضوا فى الحزب الشـيوعى ولم أكن كذلك ، ولا أعتنق ولم أعتنق قط مذهب الحزب الشيوعى ، كما أننى لم أكن قط عضوا فى أية منظمة لجبهة شيوعية ولم أتبع سياسة الحزب بصفة مباشرة أو غير مباشرة ، وليس بين أصدقائى أحد من الشيوعيين على قدر علمى »

واستعرض هيس حياته الحكومية، وكانت مؤثرة فى النفوس ، فقال أنه بعد تخرجه فى كليه الحقوق بجامعة هارفارد، عمل سكرتيرا للقاضى أوليفر هولمز بالمحكمة العليا ، وبعد أن تقلب فى عدة مناصب عامة أخرى التحـق بخدمه وزارة الخارجية بناء على طلب أحد مساعدى الوزير . ثم اسـتقال فى عام ١٩٤٧ ليقبل رئاسة هيئـة كارنيجى ـ وهى من أكثر المنظمـات الخاصة احتراما فى ميدان الشـئون الخارجية وكان رئيس مجلس ادارتها يومئذ جون فوستر دالاس .

ولو ختم هيس شهادته عند ذلك،

بعد أن نفى كل صلة له بالشيوعيين أو عطفه عليهم ، لعاد الى منزله حرا ، فقد أنكرمئات من الشهود مثل هذه التهم من قبل ولم يحدث لهم أكثر من ذلك.

ولكن هيس ارتكب هنا أول أخطائه التى لايتسنى الرجوع فيها ، فلم يكتف بنفى اتهامات تشيمبرز له ، بل مضى الى أكثر من ذلك ، وأنكر أنه سمع عن تشيمبرز قط وقال : « ان هذا الاسم لايعنى بالنسبة لى شيئا قط »

وعندما عرضت عليه صورة فوتوغرافيه لتشيمبرز ، نظر اليها فى تركيز متقن ثم قال : « لو كانت تلك صورة مستر تشيمبرز ، فان مظهره لا يبدو فيه شىء غير عادى بصفة خاصة »

وتوقف قليلا ثم نظر الى كارل موندت عضو الكونجرس ورئيس اللجنة بالنيابة وأضاف قائلا : « انه يبدو شبيها بالكثيرين ، ومن المحتمل أن أخطىء وأظنه رئيس اللجنة .. »

وانطلقت بعض الضحكات من ناحية الحاضرين، حيث يجلس أصدقاء هيس، وأقر هيس هذا التصرف اذ أدار ظهره للجنة وأحنى رأسه مبتسما فى رقة لمن أيدوه ..

وقال موندت بسرعة : آمل أن تكون مخطئا فى ذلك .

فأجاب هيس : لم أقصد أن أثير الضحك ، ولكننى لا أريد حقا أن أقسم على أننى لم يسبق لى أن رأيت هذا الرجل ، واننى أود أن أراه لأرى ان كان فى استطاعتى أن أتذكر ان كنت قد رأيته من قبل أم لا .. أهو هنا اليوم ؟

ثم راح يدور ببصره من ناحية لأخرى ، مظهرا أنه ليست لديه أدنى فكرة عمن تكون تلك الشخصية الغامضة ، وكان ذلك تمثيلا بارعا ، حتى لقد اعتقد الكثيرون أنه ضحية بريئة لخطأ رهيب فى التعرف على الشخصية .

ولكن الشكوك بدأت تساورنى بعد ذلك ، فقد تعلمت من تجارب كثيرة فى مراقبة الشهود أن أولئك الذين يحاولون تغطية شىء ما ، يميلون الى المبالغة فى التمثيل .. وبدا لى أن سلوك هيس ينطبق على هذا الوصف، كما لاحظت أنه لم يقل مرة واحدة بصراحة « اننى لا أعرف هويتكر تشيمبرز » بل كان يقول فى حرص: « اننى لم أعرف قط رجلا باسم هويتكر تشيمبرز » وعندما اقترب من ختام شهادته ، طلب الى أحد موظفى اللجنه الاتصال تليفونيا بتشيمبرز ليسأله عما اذا كان قد عرف خلال فترة

عمله الشيوعي باسم آخر ، فأجاب تشيمبرز بأن هيس وبقية أعضاء جماعتهم كانوا يعرفونه باسم «كارل»

وقبل انفضاض الجلسة مباشرة ، شكره موندت هيس باسم اللجنة لتعاونه معها ، كما أشاد به جون رانكلين عضو دائرة المسيسبى لأنه لم يرفض الرد على الاسئلة كما يفعل كثير من الشهود من قبل ، ثم تأجلت الجلسه ، واحتشد المتفرجون والصحفيون حول هيس لتهنئته .. لقد كسب هيس اليوم تماما !

اللجنة تواجه تناقضا

تبع شهادة هيس تصرف سريع عنيف .. فقد وصف الرئيس ترومان فى مؤتمره الصحفى الذى عقده فى نفس اليوم التحقيق الخاص بالجاسوسيه بأنه « رنجة حمراء » وكانت الصحافة حازمة فى اقناعها بأن تشيمبرز كان كاذبا تماما يريد أن يقضى على رجل برىء .. وجاءنى مخبر صحفى بعد الجلسة يهتز غضبا وقال فى ثورة : « ان لجنة النشاط المعادى لامريكا تستمع الى الوشايات ، فتضع تشيمبرز على المنصه قبل أن تتأكد أولا من صدق شهادته .. »

ولم أعرف أنا نفسى أى الرجلين كان يقول الصدق ، ولكنى كنت أؤمن بأن اللجنه ملتزمة بالسير فى القضية الى نهايتها ، فاذا كان تشيمبرز كاذبا فلا بد من فضيحته ، وكذلك الحال اذا كان هيس هو الكاذب .

ولو استطعنا أن ندلك على كذب هيس عندما أنكر معرفته بتشيمبرز فقد يكون كاذبا أيضا فى انكاره انه كان شيوعيا ، وهكذا كانت التهم خطيرة جدا نظرا للمراكز الحيوية التى كان يتولاها هيس ، ومن ثم فان علينا التزاما يتعلق بأمن الدولة ذاتها بأن نبحث عن الحقيقة .

وتغلبت حججى أخيرا على معارضة زملائى أعضاء اللجنة الذين كانوا يريدون أن ينفضوا أيديهم من هذه المسألة ، وعينت رئيسا للجنة فرعية تعيد سؤال تشيمبرز دون متفرجين أو صحفيين فى هذه المرة .. وعقدت الجلسة السرية فى نيويورك بعد يومين - أى فى ٧ أغسطس - وظللت أنهال على تشيمبرز بالاسئلة طوال ثلاث ساعات تقريبا عن كل واقعة يستطيع الرجل أن يعرفها عن آخر اذا كانا أصدقاء .. وجاءت الاجابات واحدة بعد الاخرى صريحة قاطعه وفى تفصيل دقيق .

قال تشيمبرز أنه التقى بهيس لأول مرة عام ١٩٣٥ ، ورآه بعد ذلك

فى عشرات من المناســبات حتى عام ١٩٣٧ ، وقد بقى مرارا فى منزل هيس وقضى مرة أســبوعا فيه ، وقال ان لهيس وزوجته كلبا من النوع الطويل الشــعر والاذنين ، يتركانه فى بيت للكلاب بشــارع ويسكونسين فى واشنطون كلما ذهبا لقضاء عطلتهما على شاطىء ولايه ماريلاند الشرقى .

ووصف تشيمبرز مسز هيس فقــال انها سيدة قصــيرة عصبية ، يحمر وجهها كلمـا ثارت أو غضبت ، كما وصف الاجزاء الداخلية فى ثلاثة منازل مختلفة عاش فيها آل هيس فى الفترة التى عرفهما خلالها .

وخشيت أن تكون كل هذه المعلومات قد حصل عليها بدراسه حيـاة هيس دون أن يعرفه فعلا ولكن بعض الاجابات كانت تضع حلقة من الصدق حولها .. وعنــدما سألته عما اذا كانت لهيس أية هوايه ، قال انه هو وزوجته من هواة مراقبة الطيــور فى الصباح الباكر .

وحدثنا تشيمبرز أيضا عن سيارة محطمة من طراز فورد لعام ١٩٢٩ ، كان هيس يمتلكها ثم اشترى واحدة أخرى فى عام ١٩٣٦ وأراد أن يهــدى القديمة للحزب الشيوعى ، وكان ذلك منافيا لقوانين المنظمة السرية . ولكن هيس أصر على ذلك .

وســلم هيس الســيارة لاحــد الشــيوعيين فى محطــه للبنزين بواشنطون ، ثم نقلت ملكيتهـا بعد ذلك لعضو آخر فى الحزب .. وطلب تشيمبرز الرجوع لســجلات هـذه الانتقالات

وقيل لتشيمبرز : هل أنت مستعد لاستخدام كاشف الكذب عليك بشأن هذه الشهادة ؟

فأجاب دون تردد : أجـل شئ اذا كان ذلك ضروريا فانى أذكر الحقيقة

غارة من الشكوك

فى الايام التسعة التالية ـ من ٨ الى ١٦ أغسطس ـ وبعـد أن أدلى هيس بشهادته مرة أخرى ، راح أعضــاء اللجنة يعملون ليلا ونهارا بحثا عن اثبــات لقصة تشيمبرز ، فســألوا سماسرة العقارات عن العقود الخاصة بالمنازل الثلاثه التى قال تشيمبرز أن هيس عاش فيها من عام ١٩٣٥ الى ١٩٣٧ وعثروا على بيت الكلاب الذى كان آل هيس يتركون كلبهم فيه كلما ذهبوا فى عطلة . وراحت قصــة تشيمبرز تثبت صحتها فى تفصيل بعد آخر كلما أمكن فحصها مع طرف ثالث . وكان الجزء الوحيد الذى لا يزال ناقصا هو سجل السيارة التى قال تشيمبرز أن

هيس أهداها لاحد أعضـاء الحزب الشيوعى العاملين .

وعلى الرغم من ذلك ، فقدحاصرتنى الشكوك .. فقد كان من الصعب تماما أن أصدق رجلا مثل تشيمبرز وأكذب رجلا مثل هيس ، ولا سيما اذا بحثنا ماضى الاول الذى كان رئيسا لتحرير صحيفة (ديلى ويركر) الشيوعية ، ثم تنكر للحزب ، وظل ينام شهورا ومسدسه تحت الوسادة خوفا من الاغتيال .. فهل يمكن تصديق مثل هذا الرجل ؟.. أليس من الاصوب استنتاج أنه كان يهدف الى القضاء على رجل برىء لدافع لا نعرفه .

ولتبديد هذه الشكوك عدت أطالع شهادة تشيمبرز مرة بعد أخرى ، والتمست المشورة من أناس ذوى آراء مختلفة أجلها وأقدرها ، فأكدوا لى بعد قراءة الشهادة أن تشيمبرز يعرف هيس حقا . وفى نفس الوقت علمت أن هيس يحاول الاتصال بدالاس وبقية أعضاء مجلس ادارة مؤسسة كارنيجى ليصدروا بيانات تؤيده .. وفى ١٢ أغسطس زرت دالاس فى نيويورك وما كاد ينتهى من مطالعة شهادة تشيمبرز ، حتى راح يذرع الغرفة ويداه خلف ظهره .. ثم توقف وقال : قد يكون من المستحيل تصديق ذلك .. ولكن تشيمبرز يعرف هيس !

وسألت دالاس عما اذا كان يرى أن هنالك ما يبرر استمرارى فى التحقيق فقال :

« ستكون مقصرا فى واجبك كعضو فى الكونجرس اذا لم تستمر فى القضية الى النهاية » .

وقررت أن أرى تشيمبرز مرة أخرى ، واعتقدت أننى اذا أستطعت التحدث معه على حدة وبطريقة غير رسمية ، فقد أستطيع أن أعرف ان كان يقول الحقيقة أم لا .. ولتفادى العلانية ، قطعت الرحلة من واشنطون الى مزرعته فى وستمنستر بولاية ماريلاند بالسيارة فى ساعتين .. وجلسنا فى الشرفة الامامية على مقعدين هزازين قديمين ، وسرعان ما أكتشفت أن شخصية تشيمبرز أقوى أثرا مما تبدو للناس ، اذ وجدته انسانا شديد الذكاء ، مرهف الاحساس ، حريصا على حياته الخاصة ، وساءلت نفسى : لماذا يرغب اذن فى التضحية بحياته الخاصة والمخاطرة باطمئنانه الحالى بالشهادة ضد هيس ؟

وقلت له بصراحة أن الكثيرين ممن يتشككون فى صدق أقواله ، يعتقدون

أنه لابد أن تكون هناك دوافع شخصية لعمله ضد هيس فأجاب قائلا : ان الدافع الوحيد هو احساسه بواجبه فى أن يحذر بلاده من اتساع وقوة المؤامرة الشيوعية وخطرها .. ثم قال انه سيكون من المؤسف جدا أن تنظر البلاد الى هذه القضية باعتبارها مجرد تصادم بين شخصيات .

ولم تسفر زيارتى فى كثير من المعلومات الاضافية عن علاقته بألجر هيس ، ولكن شيئا ما فى الطريقة التى كان يتكلم بها ، جعلتنى أحس أنه يتكلم عن معرفة وثيقة .

وأخيرا .. وقبل الموعد الذى تحدد لظهور هيس أمام اللجنة فى ١٦ أغسطس بيومين ، عهدت الى روبرت ستربلنج كبير محققى اللجنة الذهاب معى الى وستمنستر بالسيارة ، فقد كان ستربلنج يتمتع بحاسة سادسة تجعله قادرا على تمييز « الطعم » الشيوعى المحترف فى الذين يحاولون مخلصين أن يساعدوا اللجنة فى عملها وبعد المقابلة أقتنع هو الآخر بأن تشيمبرز يعرف هيس حقا ، ولكن بينما كنا فى طريق العودة الى واشنطون قال لى : « لا أظن أن تشيمبرز قد ذكر لنا كل القصة . انه يخفى شيئا ، أو يحاول حماية البعض » .

رجل يدعى جورج كروسلى

عندما عادت لجنتنا الفرعية للاجتماع فى واشنطون يوم ١٦ أغسطس ، وجد أن « الجر هيس » قد أصبح شخصا آخر يختلف تماما عن الشاهد المتزن الواثق بنفسه الذى واجهنا منذ عشرة أيام فقط ، فقد أصبح الآن متبرما كثير التحول ، وقد أبدل فى قصته مرارا لتناسب الدليل الذى عرف أنه لدينا (فقد عرف أن تشيمبرز قد ذكر لنا بعض التفاصيل عن علاقتهما ، على الرغم من محاولتنا ابقاء شهادة تشيمبرز سرا) .

وبعد بعض الاسئلة الاولية ، طلبت الى كاتب اللجنة أن يعرض على هيس صورتين لتشيمبرز ثم سألته : هل تستطيع أن تتذكر بعد النظر الى هاتين الصورتين هذا الشخص باعتباره تشيمبرز أو باعتباره (كارل) أو أى شخص آخر التقيت به ؟

كان هيس فى الجلسة العلنية الاولى قد جعل الجميع يعتقدون أن صاحب هذا الوجه غير معروف له ، ولكنه الآن بدأ أول التغييرات المخاتلة فى قصته .. فقال :

ـ حقا ان لهذا الوجه قدرا معينا من الالفة ، ولا أستطيع أن أذكر

بالتحديد صورة من هذه .. ولكنه ليس وجها غير مألوف كلية لى »

وواصلت سؤالى محاولا توسيع هذا الشق الصغير الاول فى زعمه أنه لا يعـــرف تشيمبرز وكافح هيس بعناد ومهارة ، مصرا على أنه اذا اجاب على أسئلتنا فان تشيمبرز ســـوف يعرف أجاباته بطريقة ما وقد يستخدم المعلومات ضده

وأجبته بأن اللجنـــة لن تستخدم شهادته مهما تكن الظـــروف بحيث يستطيع تشيمبرز استخدامها فى دعم الشبكة التى ينسجها حوله ، وقلت ان أسئلتنا لا تتعلق الا بأشـــياء تخص العلاقة التى يزعم تشيمبرز انها بينهما ــ وهى مسألة أثارها هيس نفسه ــ ويمكن التأكد منها بوســـاطة أطراف ثالثة ، فاذا اتضح أن تشيمبرز كاذب، فسوف يحاكم بتهمة الشهادة الزور

وأخيرا قال هيس ــ وقد عرف أنه بلغ نهاية طريق المحاورة ــ لقد دونت أسما على هذه النوتة التى أمامى عن شخص عرفته فى سنتى ١٩٣٣ر١٩٣٤ ، وقد أجرت له مسكنى من الباطن ، وقد تكون هذه الصور لهذا الرجل

ورفض مـــع ذلك أن يكشف عن شـــخصية هـــذا الرجل ، وواصلنا مصارعته خمس عشرة دقيقة أخرى ، واخيرا انفجر زميلنا فى اللجنة النائب هيبرت قائلا :

ــ مستر هيس .. أما أنك تكذب أو أن مستر تشيمبرز يكذب . ولقـــد اجتمعنا بتشيمبرز بعد شهادتك العلنية بثمان وأربعين ساعة ، وظللنا نسأله عدة ساعات حتى فرغت كل أسئلتنا ولو كنت مكانك لقدمت كل ما أستطيع من مســـاعدة .. انك تقول أنك فى مركز سيىء ، ولكن ألا تظن أن تشيمبرز يقضى على نفسه اذا ثبت أنه كاذب ؟ وأى دافع يجعله يلقى بن النـــافذة بمنصب يتقـــاضى منه ٢٥ ألف دولار سنويا كمحرر كبير بمجلة تايم ؟

وهز هذا الانفجار هيس من رأسه الى أخمص قدميه ، ثم أجاب قائلا :

ــ من العسير على أن أتمالك نفسى .. ان فى استطاعتك يا مستر هيبرت أن تجلس مكانك وتقول بلا مبالاة انك سمعت هذا الرجل وسمعتنى ، وليس لديك أى أساس للحكم عن أينا يقول الصدق ، ولكن لا أظن أن القاضى يقرر صدق الشهود على هذه الاسس

ولم يتراجـــع هيبرت بل رد قائلا بعنف : « ان كون تشـــيمبرز عضوا سابقا فى الحزب الشيوعى كما أعترف بنفســـه ليس له أى أثر على الوقائع التى يدعيها .. فأنا لا يهمنى من الذى

يقدم لى هـــذه الوقائع ، سواء أكان كاذبا أم لصا أمقاتلا مادامت أنهاوقائع

وأدرك هيس أنه أمسك الدب من ذيله ، وسرعان ما طرح الموضـــوع جانبا ، وبعد أسئلة قليلة أخـرى ، طلبت رفع الجلسة للاستراحة ، حتى يستطيع هيس أن يتصـــل بزوجته تليفونيا ، واجراء الترتيبات الخاصة بمثولها امام اللجنـــة .. وبعد خمس دقائق عاد هيس الى القاعة وهو على استعداد للحديث .. وقال :

ــ ان اسم الشخص الذى عرفته ــ وقد لا تكون له أية علاقة بهذا الكابوس كله ــ هو جورج كروسلى ، وقـــد التقيت به خلال عملى مع لجنة «ناى» ــ وهى لجنة شكلها مجلس الشيوخ للتحقيق فى صناعة الذخيرة .. وكان يعمل كاتبا ..

ومضى هيس يقـــول ان كروسلى استأجر مسكنه فى صيف سنة ٩٣٤ وانتقل اليه مع زوجته وطفله كمـــا ذكر أنهم أمضوا بضع ليال فى منزله

وسألته : هل تستـطيع أن تصف لنا زوجته ؟

قال : أجل .. كانت ســـمراء فاتنة

وكنت قد رأيت مسز تشيمبرز ــ وهى سمراء جميلة حقـا ولكن هيس أصر على أنه لا يستطيع القــول بأن كروسلى وتشيمبرز شخص واحد .

وسأله ســـتربلنج : أى نوع من السيارات كان لدى هذا الشخص ؟

ــ لم تكن لديه سيارة . وقد بعته سيارة قديمـــة من طراز فورد كنت اريد التخلص منها

فسألته : هل بعته هذه السيارة ؟

قال : لقـــد تخلصت منهـــا مع المسكن ، وقداراد المساومة فقلت له : « حسنـا .. اننى اريد التخلص منها ، اذ لدى ســـيارة أخرى .. وهى لا تساوى شيئا »

وأخذت أوجه اليه بعد ذلك أسئلة عن تشيمبرز ، فتطابقت اجاباته مع اجابات تشيمبرز فى كل التفاصيل .. ثم سألته :

ــ ماهى هواياتك يامستر هيس ؟

ــ التنس .. ومراقبة الطيور .

وقال هيس ان عقد مسكنه أنتهى فى ســـبتمبر ١٩٣٥ ، ولكنـــه رأى كروسلى بعـــد ذلك عدة مرات . ولما كان قد وصف كروسلى قبل ذلك بأنه كان مفلسا لا يدفع ايجاره قط فقد قلت له : « ومع أنه لم يدفع الايجار فقد رأيته بعد ذلك مرات عديدة ؟ »

فقـال : لقـــد أعطانى دفعـة على الحساب ، اذ أحضر لى سجادة قال

ان ثريا أهداها اليه .. ولا تزال عندى هذه السجادة الملونة .

ـ الم تسمع عنه منذ عام ١٩٣٥ ؟

ـ كلا .. ولم أفكر فيه بعد ذلك قط .. حتى تذكرته هذا الصباح !

وقلت لهيس ان تشيمبرز وافق على اجراء تجربة جهاز كشف الكذب عليه ، وسألته عما اذا كان يقبل مثل ذلك ، فراوغ قائلا انه يود أولا أن يبحث دقة مثل هذه الاختبـارات مع أحد الخبراء قبل الرد .

وقبل نهـــاية الجلسة مباشرة ، وافقت اللجنة على عقد جلسة علنية أخـرى فى ٢٥ أغسطس حتى يواجه هيس وتشيمبرز بعضهمـا ببعض ، فوافق هيس على ذلك فورا

وفى نفس اليوم قارنت أنا وستوبلنج ملاحظاتنا .. كنـا مقتنعين تماما بأن كروسلى وتشيمبرز رجل واحد وأن تشيمبرز يعرف هيس فعلا .. ولكن بقى السؤال الاساسى وهو :

ـ أى الرجلين يذكر الحقيقـة عن طابع هـذه العلاقة ؟ ان الرجل الذى يكذب هو وحده الذى سيربح بتأخير المواجهة بينهما ، ولهذا ينبغى الا نؤخر هذه المواجهة .

المواجهة الخاصة !

وفى الساعة الخامسة و ٣٥ دقيقة من يوم ١٧ أغسطس أقسم الجرهيس اليمين فى غرفة بأحد فنادق نيويورك .. ولم يكن معنا غير جون ماكدونال عضو الكونجـرس وأربعة من موظفى اللجنة والصحفى الرسمى (ولم يكن تشيمبرز قد وصل بعد)

ومنذ البداية تخلى هيس عن مظهر البراءة وانقلب مقاتلا عصبيا ، وعندما تبين له أن الجلسة قد تطول أكثر من ١٥ دقيقـــة ، قال ان لديه موعدا فى السادسة ، وطلب أن يتصل تليفونيا لشرح سبب تأخيره ، كما شـكا من أن أجزاء من شهادته التى أدلى بها فى اليوم السـابق تسربت الى الصحف واتهم اللجنة بأنها مسئولة عن ذلك .

وبعد حوالى ١٠ دقائق جاء تشيمبرز .. ودخل من باب يقع فى أقصى أطراف الغرفة ، بحيث يجب أن يسير بضع خطوات ليصـل الى أريكة طويلة على يمين هيس .. وفى خلال تلك الفترة لم يلتفت هيس مرة واحدة لينظر الى الرجل الذى يتهمه ، والذى زعم أنه يتلهف لرؤيته . بل ظـل جالسا فى مقعده يحدق ببصره الى أعلى أو ينظر من النافذة !

وطلبت من هيس وتشـيمبرز الوقوف .. ثم قلت للاول :

ـ مستر هيس .. ان الرجل الذى

يقف هنــاك هوتيكر تشيمبرز .. فهل رأيته قبل ذلك ؟؟

فقال هيس : هل لى أن أطلب منه أن يتكلم ؟

فطلبت من تشيمبرز أن يذكــر اسمه وعنوانه ، بينما اتجه هيس نحوه حتى أصبح على مســافة قدم منه ، ثم نظر الى فمه وقال : « هل تتكرم بفتح فمك قليلا ؟ »

وبعد أن كرر تشيمبرز أسمه ، بدأ هيس يقول :

ـ أرجو أن تستمر فى الحديث

وعندما استمر تشيمبرز فى الحديث التفت الى هيس وقال :

ـ انه يتكلم الآن بنغمة أكثــر انخفاضا عما فعل عندما شهد فى المرة السابقة .

فقــال ماك دوال : واننى أؤكد لك انه نفس الصوت تقريبا

ولكن هيس لم يقتنع ، فأعطيت تشيمبرز مجلة وطلبت منه أن يقرأ فيها ، وعندئذ قال هيس :

ـ اعتقد أنه جورج كروسلى .. ولكنى أود أن أسمعــه يتحدث فترة أطول .

ثم ســأل تشيمبرز قائلا : هــل أنت جورج كروسلى ؟

فارتسمت ابتســامة حائرة على شفتى تشيمبرز وهو يقول : كلا .. على قدر علمى ! وأنت الجر هيس كما أظن ؟

فشد هيس قامته وكأن أحــدا صفعه على وجهه ثم قال متحديا :

ـ انه أنا بكل تأكيد

فقــال تشيمبرز بهدوء : هــذا ما أذكره ..

وواصــل هيس تمثيــله المثير للاشفاق مدعيا انه لايعرف تشيمبرز قط ، متذرعا بكل حجة للتهرب من الجزم بشخصيته مما محا كل ماتبقى لدينا من شكوك بأن هيس يعرف تشيمبرز حقا .. ومع ذلك فقــد ظل فترة أخرى يناضل كحيوان فى قفص رافضا أن يقسم بأن تشيمبرز هو كروســلى .. وأخيرا استسلم قائلا :

ـ لن أوجه اية أسئلة أخرى الى مســـــتر تشيمبرز .. اننى على استعداد تام لان أشهد الآن بأن هذا الرجل هو جورج كروسلى .

وعنــدئذ سأل مســتر ماك دوال تشيمبرز قائلا :

ـ أهــذا الرجل هو الجر هيس الذى كان عضوا فى الحزب الشيوعى ؟

فأجاب تشيمبرز : بكل تأكيد

وهنا نهض هيس من مقعده وهز

قبضة يده صائحا :

ـ اننى أدعو مستر تشيمبرز الى أن يكرر هذه التصريحات بعيدا عن اللجنة ، وانى اتحداك أن تفعل ذلك بعيدا عن الحصانة التى تمنحها لك اللجنة ضد القذف .

ودعاه ماك دوال الى مراعاة النظام .. ثم استؤنفت الاسئلة ، وواصل هيس انكار أنه كان شيوعيا بحماسة ، وقال أنه لم يكن يعرف كروسلى بصفته شيوعيا .. وعندما انتهت الجلسة أخيرا ، كان الشعور السائد فى اللجنة ، ان عقبة كبرى قد أزيلت فقد واجه كل من الرجلين الآخر ، وارتبط ماضيهما معا .

مأساة من التاريخ

كان ينبغى أن اغتبط لذلك ، فقد تكشفت الحقيقة ، وسوف أتلقى اطراء للدور الذى قمت به ، ولكننى احسست بدلا من ذلك بشعور من الحزن والصدمة ، لان رجلا مثل هيس يمكن أن ينحدر الى هذا الدرك .. ولم يكن مما يبهج أن ترى حياة لامعة تتحطم امام عينيك .

وعندما عدت الى واشنطون بعد ظهر اليوم التالى ، كان مسلك العاصمة حيال نزاع هيس وتشيمبرز قد تغير تغيرا محسوسا ، فقد اعاد اعتراف هيس بمعرفته لتشيمبرز ـ ولم باسم آخر ـ بعض الثقة فى اللجنة وفى تشيمبرز نفسه ، وزعزع ثقة الذين كانوا يؤمنون بتأكيد هيس بأن رجلا لا يعرفه قط يتهمه هذه التهمة ..

ولكننا لم نكن قد خرجنا بعد من الادغال ، فقد كان علينا أن نتحقق من الصدق فى اتهامات تشيمبرز بأن هيس كان شيوعيا ، وذلك قبل أن تتم المواجهة العلنية بينهما فى ٢٥ اغسطس وبدأنا نبحث عن دليل جديد يثبت كلام تشيمبرز أو هيس من العلاقة بينهما .

ورحنا أولا نقتفى أثر كل من عرف أو شاهد كروسلى ، بما فى ذلك محررو المجلة التى كان يفترض أنه كان يكتب فيها ، وأعضاء لجنة السناتور ناى (التى عمل فيها هيس وزعم أنه قابل كروسلى هناك) وكانت اجابة الجميع واحدة .. وهى انهم لم يسمعوا قط عن شخص يدعى جورج كروسلى .

وبقيت أهم أجزاء الدليل .. وهى سيارة هيس القديمة من طراز فورد لسنة ٩٢٩ .. وبعد البحث فى سجلات ادارة السيارات عن كل انتقال لملكية السيارات فى عام ١٩٣٥

خرجنا دون نتيجـة . وأخيرا امتد بحثنا ـ بناء على اقتراح ـ ليشمل ١٩٣٤ ، ١٩٣٦ . وقبـل جلسـة المواجهة العلنية بيومين ، وجد أحد محققينا تحويلا لملكية سـيارة من طراز فورد ١٩٢٩ بتاريخ ٢٣ يوليو ١٩٣٦ وموقعا عليه من الجر هيس باعتبـاره مالكا الى « وليم روزن » الذى عرفنا فيما بعـد أن له سجلا طويلا فى عضوية الحزب الشيوعى .

وفى جلسـة ٢٥ أغسطس ركزنا اكثر هجـومنا على قصة هيس الخاصة بالسيارة .. واذ أدرك هيس أننـا عثرنا على السـيارة ، فقـد أستعد لهذا الموقف ، وعاد يقول الآن أنه لم يعط السيـارة أو يبعهـا لكروسـلى ، بل أعطـاه فقط حق استخدامها مع الشقة التى استأجرها منه . واطلعناه أخيرا على صـورة فوتوغرافية لعقد نقل ملكية السيارة المسجل وهو يحمل توقيعه وطلبنا اليه أن يتحقق من توقيعه ، فأخـذ يراوغ ، ثم قال انه يريد أولا الاطلاع على الوثيقة الاصلية .

فسأله موندت : هل تكون أكثر وثوقا اذا شاهدت أصل الوثيقة ؟

فأجاب هيس : أستطيع أن أكون أكثر تأكدا

وعندئذ ضجت الغـرفة كلهـا بالضحك .. وهز أصـدقاء هيس أنفسهم رءوسهم غير مصدقين .

واذ أدرك هيس أنه خسر معركة السيارة ، شن هجوما مضادا يائسا .. فقال ان التهم الموجهـة اليـه شخصية ، وانها تستخدم للحط من شأن الاعمال الباهرة التى ساهم فى ادائها لوطنه .. وهـكذا حاول أن يختفى تحت عباءة الرئيس فرنكلين روزفلت ، حتى يعتبر أى هجوم عليه هجوما على الحكومة التى عمل فى خدمتها .

وكرر هيس تحديه لتشيمبرز بأن يكرر تصريحاته عنه بشأن الشيوعية علنا بعيدا عن اللجنة .

وبعد ست سـاعات غادر هيس المنصة .. وتبعـه تشيمبرز فكرر اتهاماته وأنكر أنه اسـتأجر مسكن هيس أو استعار سيارته ، أو أنه كان معروفا باسم جورج كروسلى .

وقبل انتهـاء الجلسة طلبت الى تشيمبرز ان يذكـر الدافع له على الشهادة ضد هيس ، فقال :

ـ لقد ترددت أقوال تزعم أن شهادتى ضد مستر هيس سببها حق قديم أو دافع انتقام أو كراهية . ولكنى لا أكره مستر هيس ، فقـد كنا

صديقين حميمين ، ولكننا وقعنا فى مأساة تاريخية .. ان مستر هيس يمثل العدو المختفى الذى نقاتل جميعا ضده ، وقد أدليت بشهادتى ضده بدافع من تأنيب الضمير والاشفاق ، ولم يكن فى استطاعتى أن أفعل غير ذلك .. وليساعدنى الله .

وساد صمت طويل .. ثم عدنا نواصل الاسئلة ، لنؤدى أدوارنا فى تلك المأساة التاريخية .

تشيمبرز يقدم قنبلة

ان تيار الرأى العام الذى ارتفع صوته عاليا قبل ذلك بثلاثة أسابيع مؤيدا هيس ، انقلب الآن ضده ، والذين وجهوا النقد الى اللجنة لانها استدعت تشيمبرز للشهادة ، قدموا الينا التهنئة الآن لمثابرتنا فى البحث عن الحقيقة .. ولكن كانت لاتزال هناك معارك كثيرة يجب أن نخوضها

ولم يكن فى استطاعة تشيمبرز أن يتجاهل تحدى هيس له بترديد اتهاماته له بعيدا عن حصانة الكونجرس .. وبعد يومين من الجلسة العلنية ، قبل تشيمبرز دعوة وجهت اليه للظهور فى برنامج اذاعى اسمه « قابل الصحافة » .. وفى هذا البرنامج وجهوا اليه السؤال المرتقب :

« هل أنت مستعد لتكرار اتهامك لهيس بأنه كان شيوعيا ؟ »

فقال تشيمبرز : لقد كان الجر هيس شيوعيا ، وربما ظل كذلك .

هذه الكلمات أدت الى سلسلة من الاحداث التى ساعدت على كشف أشياء لم يكن تشيمبرز أو هيس يرغب فى ظهورها أو يتوقعها ..

وفى أواخر سبتمبر ، رفع هيس دعوى قذف ضد تشيمبرز أمام المحكمة الجزئية الفيدرالية فى بلتيمور مطالبا بتعويض قدره ٥٠ ألف دولار – زادها بعد ذلك الى ٧٥ ألفا – واتهم تشيمبرز بأنه أصاب سمعته بأذى باتهامه علنا أنه شيوعى ، ورد تشيمبرز على ذلك بأنه انما ذكر الحقيقة ..

وأحسست عندئذ أن عمل اللجنة قد بلغ نهايته ، وان الامر بات فى أيدى المحاكم الآن ، وجلست مع زوجتى باتريشيا نرسم الخطط للقيام بأول اجازة لنا منذ جئنا الى واشنطون . وحجزنا أماكن مع بعض أصدقائنا فى الكونجرس لقضاء رحلة بحرية فى منطقة قناة بناما تستغرق عشرة أيام .. وقد قلت ان هذه هى الطريقة الوحيدة لكى نكون فى مأمن من المكالمات

التليفونية .. ولكننا لسوء الحظ لم نحسب حساب البرقيات اللاسلكية

ففى خلال يومنا الاول فى البحر ــ وكان يوم الجمعة ٣ ديسمبر ــ تلقيت برقية من صديقى « برت أندروز » المحرر فى صحيفة «نيويورك تريبيون» يقول : لقد تكشفت قضية هيس ــ تشيمبرز عن قنبلة ، فقد قدم تشيمبرز دليلا جديدا . وأكدت وزارة العدل النبأ ضمنا بقولها ان الوقت غير مناسب مطلقا للتعليق .

وفى تلك الامسية ، كنت انا وباتريشيا نتناول العشاء على مائدة الربان عندما تلقيت برقية ثانية منستريلنج يقول فيها : « قنبلة ثانية أدت الى استدعائى الساعة الواحدة ظهر الجمعة . القضية تزداد ضيقا . معلومات مثيرة . يبدو أنه من الضرورى اتخاذ عمل سريع . هل يمكنك العودة ؟ »

وعندما قرأت البرقية بصوت عال وأنا أجلس أمام المائدة ، طوحت زوجته بذراعها وقالت :

ــ ها قد عدنا من جديد ..

وفى الصباح التالى هبطت طائرة بحرية تابعة لخفر السواحل لتأخذنى .. وفى ليلة الاحد كنت قد عدت الى واشنطون .

وقابلنى روبرت ستريلنج عند الطائرة ، وسرعان ماعرفت بما حدث .. ففى خلال الفترة السابقة على قضية القذف ، سأل رئيس هيئة الدفاع عن هيس عما اذا كان لدى تشيمبرز أية رسائل أو اعترافات من الجرهيس تثبت العلاقة التى يزعمها بينهما ، والواقع أنه لم يتوقع قط أن يقدم تشيمبرز شيئا ، ولكن هيس ــ وهو محام ــ أرتكب خطأ لا يرتكبه اى موكل ، لانه لم يذكر الحقيقة الكاملة لمحاميه ..

واجاب تشيمبرز بانه سيرجع الى ملفاته للبحث عن مثل هذا الدليل ، وعندما عاد الى بيته فى وستمنستر ، راح يبحث عما يريد فى أعماقه لا بين ملفاته .. فقد كان يعرف أن لديه دليلا ولكنه لم يكن يعرف هل ينبغى استخدامه ، فانه لم يكن يريد أن يقضى على هيس باثبات تهمة التجسس عليه ــ كما قال بعد ذلك فى كتابه « الشاهد » ، بل كان يأمل أن هيس سيعترف بنشاطه السابق وينضم اليه فى فضح نشاط الشيوعية .

وفى نفس الوقت كان محامو هيس ينقبون فى كل ناحية من حياة تشيمبرز محاولين الحط من شأنه والقضاء عليه

•• ثم حدث أن استجوبوا زوجة تشيمبرز بطريقة لا رحمة فيها ، حتى انها انفجرت باكية ، وعندئذ اتخذ تشيمبرز قراره : انها الحرب الشاملة ••• ولابد له من استخدام أسلحته الاخيرة التى توجد تحت يديه

أوراق القرع !

فى يوم الاحد ١٤ نوفمبر ذهب تشيمبرز الى بروكلين ليسترد لفافة كان قد تركها لدى ابن أخى زوجته «ناتان ليفاين» بعد انفصاله عن الحزب الشيوعى فى سنة ١٩٢٨ ، فقد كان يخشى الاغتيال ولذا طلب الى ليفاين أن يخفى اللفافة ولا يذيع محتوياتها الا اذا قتل تشيمبرز وهاهو قد ذهب الآن بعد عشر سنوات مع ليفاين الى المخبأ، وهو عبارة عن باب بين غرفتين لا يستخدم فى مسكن أم ليفاين ببروكلين ، وهناك وجدا مظروفا ضخما مغلقا مغطى بغبار تجمع طوال عشر سنوات ، وداخله ٦٥ صفحة مكتوبة على الآلة الكاتبة عبارة عن صور وملخصات وثائق سرية خاصة بوزارة الخارجية الامريكية ، وثلاث مذكرات بخط يد هيس وثلاثة أفلام مصغرة لم تحمض بعد ، ومذكرة من ٨ صفحات عن معلومات سرية خاصة بوزارة المالية وكانت هذه الوثائق قد سرقت من وزارة الخارجية ولكنها لم تسلم الى الحزب الشيوعى ، اذ اعتبرها بوليصة تأمين على حياته •

وعندما كرر محامو هيس طلبهم تقديم الدليل ، سلم تشيمبرز مذكرات هيس وصور مستندات وزارة الخارجية الى وزارة العدل فى جلسة الايداع بتاريخ ١٧ نوفمبر ، وقد تبين فيما بعد أن أكثرها مكتوب على آلة هيس الكاتبة من طراز « وود ستوك » ، وكانت تلك هى قنبلة تشيمبرز الاولى !

أما القنبلة الثانية فهى الفيلم المصغر « الميكروفيلم » الذى سمى «أوراق القرع» وقد سلمه لنا تشيمبرز ••• وعندما جاء تلبية لطلب استدعائه قاد محققى اللجنة الى الارض التى يزرع فيها القرع فى حديقته ، وهناك انتزع الاوراق العليا لشجرة قرع وأخرج لفافات الافلام الخمسة ، وكان قد خبأها هناك فى اليوم السابق بعد أن أحضرها من مخبئها فى بيت ليفاين

وفى تلك الليلة بقيت أنا وستربلنج مستيقظين حتى الفجر ندرس الصفحات المصورة التى أخذت من وثائق تشيمبرز ، وكان بينها خمس لفافات من الافلام المصغرة التى قمنا بتحميضها ••• ها نحن أخيرا قد وصلنا الى دليل اثبات مطلق ، ولم تعد

القضية الآن قضية رجل ضد رجل آخر ..

وبات علينا الآن أن نقرر الدور الذى ينبغى أن تقوم به اللجنة فى القضية .. لقد كنا مترددين فى تسليم « أوراق القرع » الى وزارة العدل لاننا كنا لانثق فى قدرة الوزارة على مقاومة الضغط السياسى الذى يعمل لصالح هيس ، فقد كان الذين يلتمسون له الاعذار يقولون أنه على الرغم من أن هذه الاوراق أخذت من وزارة الخارجية فانها لاتحوى معلومات حيوية لأمن الولايات المتحدة ، وقد واجهنا هذه الحجة بطلب الاذن باذاعة كل الوثائق فرفض السماح لنا بذلك بحجة أن النشر مضر بأمن الدولة .. وذلك على الرغم من مرور عشر سنوات على أخذ هذه الوثائق من ملفات الحكومة !

وقد شهد موظفو وزارة الخارجية فيما بعد أن أى عميل أجنبى فى حوزته أى وثيقة من هذه الوثائق كان يستطيع أن يحطم الشفرة السرية لوزارة الخارجية

وهكذا قررت اللجنة أن تعقد جلساتها ابتداء من ٦ ديسمبر ، كما قررت ألا تسلم الافلام المصغرة لوزارة العدل قبل أن تتلقى تأكيدات مطلقة بأن القضية سوف تقدم للقضاء بكل حزم

وفى ذلك الحين كان تشيمبرز يشهد فى نيويورك أمام هيئة المحلفين الفيدراليين لتصدر قرارها فيما اذا كانت هناك جريمة ارتكبت ضد الحكومة الفيدرالية أم لا .. وكانت المهلة المقررة للمحلفين تنتهى بعد تسعة أيام ، فاذا فشلت فى اصدار قرار ادانة ضد هيس فى خلال تلك الفترة ، فسوف يستغرق الامرشهورا أخرى قبل أن يعاد عرض القضية على هيئة محلفين جديدة .. ويستطيع هيس خلال ذلك أن يستعين بضغطه السياسى القوى .. وهكذا قررنا الذهاب الى نيويورك فى ٦ ديسمبر وسؤال تشيمبرز بعد مثوله أمام هيئة المحلفين .

الآلة الكاتبة

بدأت اللجنة أسئلتها لتشيمبرز يوم ٦ ديسمبر فى الساعة العاشرة مساء ، وانتهت عند منتصف الليل ..

لقد انكشفت القصة الكاملة أخيرا .. واعترف تشيمبرز بأن هيس وبقية موظفى الحكومة الذين كانوا يعملون معه كانوا يشتركون فى حلقة للتجسس ، وقال ان هيس كان يأخذ الوثائق الى بيته ليلا فى حقيبة أوراقه ، ويسلمها الى تشيمبرز الذى يصورها على أفلام مصغرة ويعيدها فى نفس الليلة الى هيس ليعيدها الى ملفاتها فى الصباح

التالى • وفى بعض المناسبات كانت مسز هيس تنسخ صورا أو ملخصات من هذه الوثائق على آلتها الكاتبة من طراز (وود ستوك) ثم يحمل تشيمبرز هذه الصور الى نيويورك ليسلمها الى الكولونيل بالكيف بالمخابرات الروسية لينقلها بدوره الى موسكو

وعدنا الى واشنطون فى اليوم التالى مقتنعين بأن قضية تشيمبرز أصبحت محكمة الى حـد يجعل وزارة العدل مضطرة لتقديم هيس للمحـاكمة •• ولكن هيس ومؤيديه فى الوزارة كانت لا تزال لديهم ورقة يخفونها فى أكمامهم وفى صباح ٨ ديسمبر علمنا أن بعض موظفى الوزارة يضغطون على هيئـة المحلفين الفيدراليين لمحاكمة تشيمبرز ••• بدلا من هيس !

وكان لديهم اتهام صالح لذلك من الناحية الفنية ، لان تشيمبرز كذب أمام المحلفين عندما أنكر فى أول الامر أية معرفة بمسألة الجاسوسية ، ولكنه كان الشاهد الاول فى أية قضية تقام ضـد هيس ، ولو قدم تشـيمبرز للمحاكمة ، فان القضـية ضد هيس سيقضى عليها •

وفى تلك الامسية ، كشفت الستار فى اللجنة عن خطط وزارة العدل لاتهام تشيمبرز ، كما أعلنت عزمنـا على أن نفعل كل مانستطيع للتأكد من أن ذلك لن يحـدث •• وقبل انتهـاء الفترة المحددة للمحلفين الفيـدراليين بسـتة أيام ، صدرت الاوامر الى مكتب المباحث الجنائية بالبدء فى البحث عن الحقائق فى هذه القضية •

وبدأ بحث شامل عن الآلة الكاتبة القديمة من طراز (وود ستوك) التى كان تشيمبرز ومسز هيس يستعملانها فى كتابة الوثائق موضوع الدعوى •• ومع أن رجال المبـاحث الجنائية لم يستطيعوا العثور على الآلة الكاتبة فى ذلك الحين ، فأنهم وجـدوا بعض رسائل قديمة ، اعترفت مسز هيس بأنها كتبتها على آلة من هذا الطراز •

ولكن الصراع لم ينته •• فقد ظل هيس ومحاموه يكافحون الى آخر لحظة من حياة هيئة المحلفين الفيدراليين •• وفى مساء يوم ١٥ ديسـمبر ، وهو آخر يوم فى عمر الهيئة ، أثبت الخبير التابع لادارة المبـاحث الجنائية أن الرسائل التى ضبطت مكتوبة بنفس الآلة التى كتبت بها صـور الوثائق التى قدمها تشـيمبرز •• وكل آلة كاتبة أشبه ببصـمات الاصابع ، اذ تختلف كل منها عن الاخرى فى ناحية ما ولا يمكن أن تتشابها تماما •• وكان ذلك دليلا لا يمكن دحضه ••

وقررت الهيئـــة باجماع أعضائها التسعة عشر تقـــديم « الجر هيس » للمحاكمة بتهمة الشهادة الكاذبة عن مسألتين : الاولى أنه كذب عندما شهد أنه لم ينقل نســـخا من وثائق بالغة السرية من وزارة الخارجية الامريكية فى فبرايرومارس سنة ١٩٣٨ويسلمها للمدعو ديفيـــد هويتكر تشيمبرز ، والثانية أنه تعمد الكذب عندما شهد بأنه لا يعرف تشيمبرز ٠

ووجد المحلفون أن هيس مذنب فى الاتهامين معا ٠٠ وحكم عليه بالسجن خمس سنوات !

***

لقد أكسبتنى هـذه القضية شهرة قومية لاننى مضيت بالتحقيق قدما ٠٠ ولكن مما يثير السخرية ، أنها خلقت لى عداوة راسخة ، فقدظللت ضحيةلحملة تلويث لا مبرر لها قط طوالالاثنىعشر عاما التى عملت فيها فى واشنطون فى المناصب العامة ٠

وعلى الرغم من ذلك ، فسوف أشكر دائما الفرصة التى أتاحت لى أن أواجه التحدى فى قضية هيس ٠٠ ففى هذه القضية أرسلنا رجلا مذنبا الى السجن كان من الممكن أن يبقى حرا ، وبرأنا رجلا صادقا ، لولا ذلك لدمغ بالكذب ٠٠ كما اكتســبت الامة ادراكا أكثر حيوية لامنها واستراتيجية المؤامرات التى تدبر لها فى الداخل والخارج ٠



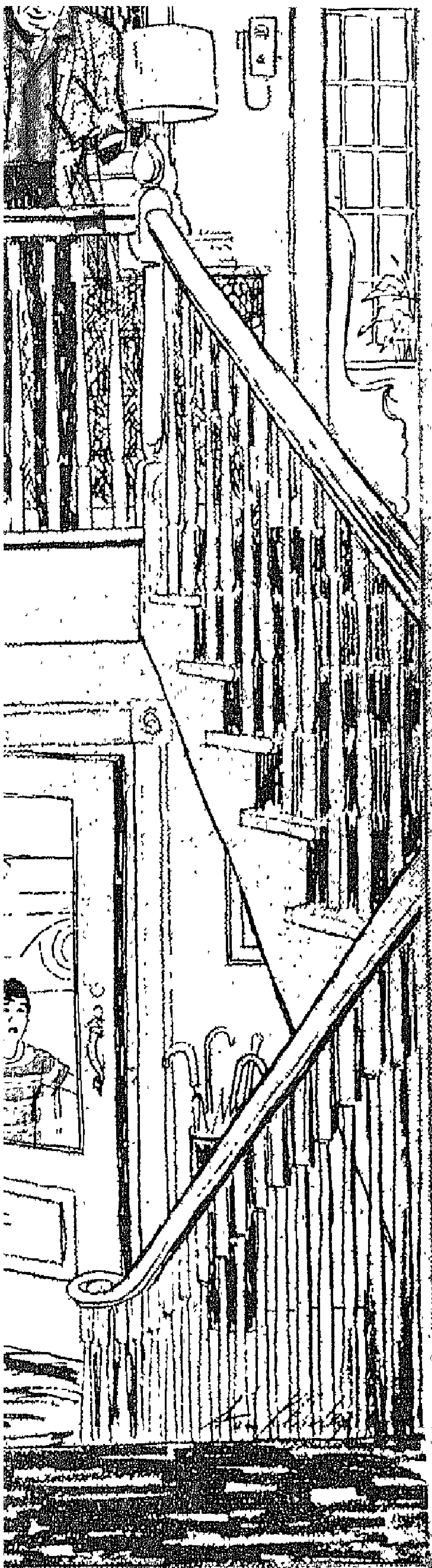
مشكلة !

سأل السائح موظف الفندق فى روما عنمواعيد تقديم وجبات الطعـام .. فقـــال الموظف :

ــ اننا نقدم الافطار من الســـابعة حتىالحادية عشرة والنصف صباحا ، والغـداء من الثانية عشرة الى الثالثة بعد الظهـر ،والعشاء من السادسة الى التاسعة والنصف

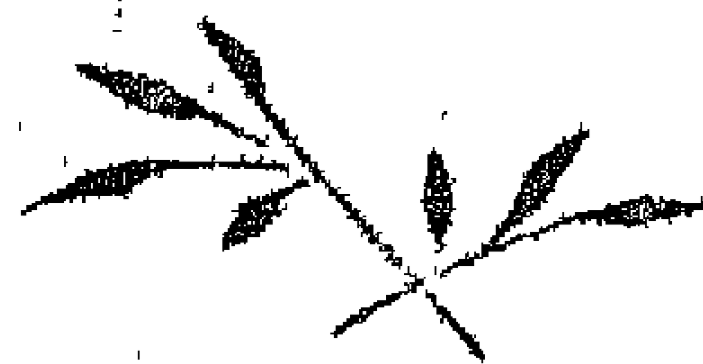
فهز السائح رأسه والتفت الى زوجتـــهقائلا :

ــ لن يترك لنـا ذلك وقتا كافيا لمشاهدةمعالم المدينة أليس كذلك ؟



كتاب الشهر

بوبو



عن كتاب

POPPO

بقلم

جوزيف بيرجر



قصة شيطان صغير محبوب من ابناء بورتوريكو . خرج من الاحياء الفقيرة ليتسلل الى قلب زوجين في منتصف العمر بنيويورك .. وقد وجد الزوجان اللذان عاشا بمفردهما حتى ذلك الحين ان حياتهما التي كانت معقدة قد بعث فيها هذا « الدينامو » البشري الصغير « بوبو » حياة جديدة خصبة .. وقد استطاع جوزيف بيرجر ان يجعل من حكاية هذه التجربة الفذة كتابا رائعا ..

بــوبــو

اعرف قط لماذا جاء يدق بابنا لأول مرة . كما انه هو نفسه لم يكن يعرف ذلك - لما علمت فيما بعد - ولكنني دفعت الترباس الذي يفتح باب بيتنا المبني بالطوب الاصفر، وهبطت الدرجات الداخليه لارى من هناك ..

وأجابني صوت عال أجش : انا بوبو

قلت : من يكون بوبو ؟

- أنا بوب .. حسنا سوف اريك من أنا

وقبل أن أبدي رضائي ، أسرع يصعد الدرجات ، ووقف امامي في الردهة التي تقع أمام المسكن غلام صغير مهلهل الثياب ، يرتدي قميص من القطن قصير الكمين، به من الفتحات اكثر مما به من قماش ، وبنطلونا قصيرا رثا، وحذاء تدلت نعله المزقة .. لم يكن هناك مايثير العواطف في هذا « الدينامو » البشري الضئيل .. ولكن عينيه العسليتين العنيدتين ، وقدميه الكبيرتين على جسمه الصغير ، كانت تكشف عن مخلوق كهربائي يتلهف للمغامرة .. ودعوته للدخول، وسألته عما يريد . فقال :

- لاشيء .. لقد أردت الدخول فقط .

وراح يدور بعينيه في الاثاث المريح الذي يملاء جوانب مسكننا الكبير ذي الطابقين العتيق الطراز ، ناظرا الى كل شيء بالتفصيل .. ثم قال اخيرا :

- لم اكن اعرف انه بهذه الصورة .. انه شيء جميل

ولاحظت أن لغته مليئه بألفاظ من ابتكاره ، فقد كان ابواه - وهما من أبناء بورتوريكو - لايتحدثان الا الاسبانيه ، وقد التقط (بوبو) لغته الانجليزيه من شوارع الاحياء الفقيرة في بروكلين ، وهي ليست أفضل او أسلم مكان لالتقاط اى شيء .

وقلت له : يسرني أنك أحببت مسكننا .. مارايك في تناول بعض الطعام ؟

فهز كتفيه - فقد كان بوبو حتى وهو في السادسة من عمره يومئذ - ذا كبرياء ..

قلت : هل تحب بعض عصير البرتقال ؟

- لامانع

- وشطيرة من اللحم ؟

- لاباس

ـ وموز ؟

ووافق على كل شىء ٠٠ وبعد ان تنــاول مايكفيه من طعــام ، جلسنــا نتبادل الحديث معا ٠٠٠ ومع آنه كان يرد على أسئلتى ، فقد كان كمايبدو يريد آن يجلس فقط «فى مكان جميل» ، وبعد قليل قلت لبوبو اننى مضطر الى أن أعمل ، فاننى أعمــل كاتبا صحفيا حرا لا آتقيد بصحيفه معينة ، ولهذا فاننى آؤدى آكثر عملى المحدود فى البيت بينما تخرج زوجتى (دوتى) للعمل فى احدى المجلات ٠

وقال بوبو : حسنا ٠٠ تستطيع أن تعمل ٠

ـ وماذا ستفعل آنت ؟

ـ لاشىء ٠٠ ليس لدى ما أعمله ٠

وقلت له أننى لا أستطيع آن أعمل فى وجود أحد ، وانه يستطيع آن يعود فى وقت آخــر ، فوافق وانصرف راضيا

***

وعرفت منه آنه يعيش على مسافه بضعه منازل من مسكننا ، حيث تقع منطقتــان من المســاكن الحقــيرة فى مرتفعات بروكلين بنيويورك ٠٠٠وفى أحد هــذه البيوت تعيش أسرة بوبو المكونة من سبعه أشخاص يشتركون جميعا فى غرفة واحدة مع الصراصير والفئران !

وعاد بوبو لزيارتنا مرة أخرى فى اليوم التالى ٠٠٠ كان ذلك فى صيف عام ١٩٥٨ ، وقد ظل طوال الاعوام الثلاثه التالية يأتى الى منزلنا بمعدل مرة كل أسبوع تقريبا ٠٠ كان رأسه يمتلىء بالافكار الجــديدة ، ولســانه ينطلق بلغة معيبة وأسئله لارد عليها ، وكان ممتلئا بالنشاط ، خفيف الحركه كالقــرود ، وقــد زاد حبى له خــلال زياراته المستمرة لنا ٠

وبعد شهور من بدء صداقتنا، صرح لنا بوبو بأن لديه مشروعا بسيطــا جدا ٠٠٠ انه يريد آن نتبناه ، وعندئذ يحضر للاقامة والحياة معنا بعد ذلك فى سعادة ٠٠٠ ولكنى كنت آكرر قولى له آنه لا أمل فى ذلك ولا ضرورة له ، فاننى صديقه وهو صديقى وهذا كل مانحتاج اليه ٠٠٠

وكان بوبو يصغى فى احترام ، ثم يطوى مشروعه ، وهو يعتقد آن السبب الوحيد لعدم نجاحه ، هو اننــا لم نرض عنه بعد ٠

بعد أن بدأت أعرف القليــل عن أسرة (بوبو) ، وتابعت تطــورات تاريخها المضطرب ، استطعت ان افهم لمــاذا يحلم بحياة أخرى ٠٠ وبعــد فترة غير طويلة من مقــابلتى الاولى

لبوبو ، أدت المتاعب المالية والشجار المستمر الى انفصال أبيه عن أمه ، وأخذت الام (ماريا) الاطفال الخمسة الى حى أكثر رخصا ، يبعد كثيرا عن شارعنا ، فى جنوب بروكلين .

وكانت ماريا على درجة غير عادية من الجمال ، وسرعان ما تزوجت مرة أخرى ، ولكن زوجها الجديد وجد أن من العسير أن يعول أطفالها الخمسة فهجرها بعض الوقت بعد ان انجب منها طفلا آخر . ولم تستطع ماريا ان تنفق على ستة اطفال من مبلغ المعونة الاجتماعية الذى تتقاضاه – وهو دخلها الوحيد – فأرسلت ثلاثة أطفال ، بينهم بوبو ، ليعيشوا مع ابيهم جوليو .

وهكذا انتقل بوبو مع أبيه وزوجة أبيه الى مسكن من غرفتين بشارع فرانت وهو من أحياء المصانع على مقربة من جسر بروكلين ، ومن أكثر الاماكن الموحشة فى المدينة .

وفهمت زوجتى (دوتى) تلك الصداقه العجيبه التى نمت بين طفلها الصغير وزوجها الذى بلغ منتصف العمر ، بل انها شجعتها فى الحقيقه ، فقد فقدنا ابننا وهو لم يزل طفلا وكانت دوتى لاتزال تأسف لأنها حرمت من أن يكون لى ابن ، بالرغم من أن لنا ابنة وحفيدة فى السادسة من عمرها .

وفى صيف ١٩٦١ صحبنا بوبو معنا الى مصيف جزيرة (شلتر) بلونج ايلاند لنقضى أسبوعا فى زيارة الاصدقاء . واعددنا لبوبو ثيابا جديدة لم يمتلك مثلها فى حياته .. وفى أمسية اليوم السابق لرحيلنا جاء الى مسكننا لنقوم بعملية تنظيف أخيرة له . ومن المستحيل أن نصف الرائحة التى تنبعث من طفل من أحقر أحياء نيويورك بالرغم من أن بوبو كان قد اغتسل قبل مجيئه الينا ..

ووضعنا كل ثيابه القديمة فى كيس من الورق ، وادخلناه الحمام فخرج منه مخلوقا صغيرا وسيما ناعم البشرة جميل الصورة ، له كتفان عريضتان تنمان عن رجولة مبكرة . وفى تلك الليلة نام فى مسكننا ، ووضعته فى غرفه حفيدتنا ميلانى ، عندما تأتى لزيارتنا . وكانت أول مرة يرتدى فيها ثيابا خاصة للنوم ، واول مرة ينام خلالها فى فراش وحده ..

وكان سروره لا يقدر بما شاهده فى جزيرة شلتر من مناظر لم يحلم بها فى حياته ، وبدا عليه تأثر طفل صغير يتلهف لمشاهده الجمال ؛ وقد خرج من أحياء المدينة الفقيرة ليجد

الجمال من حوله فى كل مــكان لاول مرة فى حياته .

كانت جزيرة شلتر بالنسبة لبوبو عالما من الاحلام تحقق اخيرا .. عالما لاتضطر لتسلية نفسك فيه بالمخلفات القديمه المتروكه على الارصفه ، ولا تسير باحذية ممزقة او تتناول افطارا من القهوة المخففة والخبز الاســود والفول الاحمر ، والعشاء كل ليلة من الارز .. هنا يستطيع أن يتســلق أشجار الفاكهــه ويجرى فوق مــروج فسيحة ، ويقطف التوت البرى ويأكله ويركب القوارب السريعة ، ويحاول أن يتعلم السباحة .

وانهمك فى كل نوع جــــديد من التسلية ، وأحب كل شىء وكل شخص وانطلق قدما فى هذا العالم العجيب الجديد بالنسبه له ..

وكان لنا كثير من الاصدقاء يقضون الصيف فى جزيرة شلتر ، وقد عرف بوبو كيف يشق لنفســــه طريقا فى قلوبهم جميعا دون اســـتثناء ، وكان بينهم صديقة تعمل فى نيــويورك فى دراسة نفسية الاطفال ، وقدسحرها بوبو الى حد أنها اقترحت أن تبدأ فى جمع مبلغ يكفل نفقات تعليمه ، وكان هذا دليلا على ايمانى بأن بوبو طفل لا يماثل أى طفل آخر ، بل هو طفل نادر حقا .

القفزة

توقعت أن تكون العودة الى المدينة صعبة على بوبو ، ولم أتوقع أن تكون قاسية على أنا الآخر .. وفى اليــوم التالى لعودتنا الى مرتفعات بروكلين ، اضطرت دوتى الى العودة لعملهــا ، وبدا لى المنزل فجأة فسيحا خاليــا وأحسست برغبــة فى الخــروج ، فانطلقــت الى شارع (فرانت) فى سيارة أجرة ..

وطوال الطريق كان صوت بوبو يتردد فى رأسى : « جو .. اريدك أن تكون ابى » . «جو .. ان ابى لايمكنه الحصول على نقود كافية وهو يريد العودة الى بورتوريكو ويتركنى معك»

كنت انا ودوتى فى عقدنا الخامس ، وهو سن اكبر كثيرا من ان يفكر فيها الانسان فى تبنى أحــــد ، وكان بوبو بالرغم من كل حركاته الطفولية قد جاوز سنوات التشكيل ، وقد أمضى سنواته كلها فى بيئة تختلف كثيرا عن وسطنا ، وكانت له أم يحبها الى حد العبادة .. فلماذا أحتاج أنا الى هذا الطفل أو يحتاج هو الى .. ؟

كانت قدمرت ثلاثة أيام منذ عودتنا من جزيرة (شلتر) لم أر بوبو خلالها وبعد الظهــر ، دق جــرس الباب ،

وسمعت صوت بوبو يقول :
ـ جو .. هل نستطيع الصعود ؟
ـ كان قد أحضر معه شقيقه الاصغر فرانشيسكو .. وكان كالعهد به كثير الحركة ، يلعب بخشونة ، مقلدا بعض الحركات ، مطلقا أصواتا مرعبة ، ويصارع شقيقه ويلكمه بيده وسرني ان بوبو لم يكن احمق ، وانه عاد الى بيت ابيه واستأنف حياته القديمة ولكن فرانشيسكو كشف سره الذي حاول أن يخفيه قائلا :
ـ كان بوبو يبكي طوال امس لانه أراد الحضور الى هنا ورفض أبى السماح له .
والتفت الى بوبو وكان يبدو عليه الارتباك .. ثم قال :
ـ ان أبى لا يريد أن أزعجك ياجو ولن يعرف أننا جئنا هنا اليوم .
وقلت لبوبو انه مع انني اريد ان اراه فانه يجب الا يعصى أمر ابيه . ثم عدت بالطفلين الى منزلهما في سيارة أجرة .
وعندما عادت دوتي الى المنزل في المساء حكيت لها قصة زيارة بوبو ، وقلت :
ـ يا له من طفل مسكين .. لو كانت هناك طريقة فقط لبقائه معنا .
فقاطعتني دوتي قائلة :
ـ اصغ الى يا حبيبي .. اذا كنت تريد بوبو فدعنا نحضره بحق السماء
قلت : هل تعنين أن نتبناه .. ؟
ـ لا أدرى .. فنحن لم نصل بعد الى الجسر ..
ـ ولكنك تعرفين خطر الاقدام على ذلك دون سند قانوني . لنفرض ان جوليو او ماريا اراد استعادته ؟ في ذلك الحين سنكون قد تورطنا كثيرا في المسألة ..
ـ ألسنا منغمسين فيها الى الاعماق الآن يا جو .. ؟
وكانت على صواب .. فقد كانت المخاطرة موجودة فعلا ، وكنت أتسلل اليها شيئا فشيئا منذ ثلاث سنوات
وبحثنا الموضوع باسهاب ، ثم تحدثت بعد بضعة أيام مع كل من جوليو وماريا على حدة ، موضحا لهما اننا نحب بوبو ونريده ان يعيش معنا ، وأنه لا يزال ابنهما قانونا ، ولكن اذا اراد بوبو ان ياتي معنا ، فقد نتحدث معهما يوما بشأن تبنيه . ووافق الاثنان شاكرين ، لقد ارادا ان يريا طفلا واحدا على الاقل من أطفالهما يحصل على مزايا لا يستطيعان توفيرها له ..
وهكذا جاء بوبو ليعيش معنا كما كان يريد دائما .. أما نجاح مشروعه

الكبير أو فشله فهو سؤال لن يتسنى الرد عليه الآن بنعم أو لا مباشرة ،بل سوف يجاب عليه يوما بعد يوم بمئات الطرق الاكثر اقناعا من الكلمات ..

يوميات أب جديد

لقد بدأنا بداية طيبة. ذهبت أول أمس الى شارع فرانت وأخذت بوبو .. كان مستعدا وقد جمع كل حاجاته ، وهى ثيابه التى اشترينا نحن أغلبها ، ودراجة أعطيتها له منذ بضعة أسابيع ، ومع أنه لم يكن قد وجد فرصة كافية للتدريب على ركوبها ، فقد كان جريئا فى الركوب كأنه راع للبقر فوق جواده ، وكان يلقى بنفسه من فوقها فى الهواء بصورة تثير الرعب فى قلب أب جديد مثلى ، ولكنى يجب أن اعتاد هذا النوع من الاشياء ..

كان يتحدث بصوت عال يثير الاعصاب .. ويقلد المواهب الرخيصة لمثلى التليفزيون الكريهين ، ويردد أغنياتهم بصورة أكثر اثارة مما يفعلون ويرقص رقصاتهم بطريقة أكثر فحشا ..

وفى يومه الاول فى منزلنا امس سمعنى أتحدث مع صديق لى تليفونيا وأقول له : سوف نحتفظ به .. ربما سنة او اقل دون ان نفعل شيئا يلزمنا ، وربما تبنيناه بعد ذلك ..

لم اكن قد قلت لبوبو حتى ذلك الحين الا أنه سوف يأتى ليعيش معنا ولم ترد كلمة (التبنى) فى حديثى معه .. وكل ماقصدته من حديثى التليفونى ، هو أننا قد نحتفظ به عاما أو أقل ، وعندما أعدت السماعة ، جاء الى وقد بدا عليه أنه فقد آخر أصدقائه .. وتوقف على عتبة الباب ثم هرع نحوى وقفز فوق حجرى ، ثم قرب وجهه المتبرم من وجهى وقال:

ـ جو .. عندما سألت أبى عن الوقت الذى سيتركنى فيه معكم ، قال الى الابد ...

وقلت له أنه أساء فهم ما كنت أقوله فى التليفون ، وأننى كنت اعنى أننى آمل أن نتمكن فى خلال عام أو أكثر أن نجعل بقاءه معنا دائما ، وهذا ما أريده أنا وزوجتى . ثم قلت:

ـ ولكننا لسنا الوحيدين اللذين يستطيعان تقرير ذلك ، اذ يستطيع أبوك أو أمك أن يغيرا رأيهما قبل نهاية العام .

فقال : كلا .. انهما لن يفعلا ذلك اننى عرف ..

ـ حسنا .. ربما ، ولكن هناك شخصا آخر قد يغير رأيه ، وأنت تعرفه ..

فقال على الفور : انا ٠٠ ؟ كلا٠٠ انني باق معك الى الابد يا جو .

بوبو طالب العلم

أخذت بوبو الى المدرسة هذا الصباح .. أنه يومه الاول هناك .. ومدرستنا العامة من أفضل المدارس فى المدينة ، ولكن بوبو قال لى :

ـ جو .. انني خائف ..

وكنت أعرف أنه يتوقع أن يكون موقفهم سيئا منه لانه من أبناء بورتوريكو ، ومع أن المدرسة كانت على مسيرة عشر دقائق من بيتنا ، فقد كان يثير اعتراضاته بمعدل مرة ، كل دقيقة .. وعندما اقتربنا منها توقف تماما وأعلن بصراحة أنه لن يذهب ، ولكنى استطعت أخيرا أن أبدد مخاوفه فسار معى ..

وبعد العشاء فى تلك الليلة سألت بوبو كيف أحب المدرسه ، فقال انها جميلة ، وانه التقى هناك بكثير من أطفال بورتوريكو وبينهم (رالفى) ، الذى كان يعرفه من قبل .

واشتريت ملابس أخرى لبوبو مع بعض الزخارف لغرفته ، وقد اصبح فتح الطرود التى نشتريها تسليته المفضلة ، وبدأنا نكيف أنفسنا وفقا لحاجات طفل فى التاسعه ، يعيش فى عالم ذوى الدخل المتوسط ..

وكان بين الاشياء التى اشتريناها له اليوم ساعة كهربائية لغرفته ، وكانت أرقامها تضىء فى الظلام بطريقة رائعة .. كما وضعت (دوتى) ستائر لغرفة نومه ثم دعته لمشاهدتها فوقف بوبو مشدوها ثم فغر فمه صائحا :

ـ يا الهى ..

وحوالى التاسعة من مساء ذلك اليوم تلقيت محادثة تليفونية من أخت بوبو الكبرى (كارمن) وقالت أنها هى وأمها وشقيقها فرانشيسكو يريدون زيارة بوبو بعد ظهر غد .. وكان رد فعلّ هذا النبأ فى نفس بوبو مزيجا متناقضا ، فقد أسعده أن يرى اخته واخاه ، ولكنه عندما صحبته الى الفراش سألنى قائلا :

ـ ماذا يحدث اذا قالت أمى أنها تريد أن تأخذنى معها .. ؟

قلت : فى تلك الحالة لن أستطيع منعها ، سأتركها تأخذك ..

فألقى بذراعيه حول عنقى وقال :

ـ لن تفعل أمى ذلك .. اننى أعرف أنها لن تفعل فهى تريدنى أن أكون هنا ..

ولقد وددت لو عرفت حقيقة ما يدور فى ذهنه . أن الزمن وحده كفيل بأن يبدد شكوكى الملحة حول حب بوبو وولائه المقسم ٠٠ فمع انه

انفصل عن اسرته ، فان روابطه بها ما زالت قوية ، وهو يحب أمه وأخته كارمن وأخاه فرانشيسكو أكثر من أى انسان فى العالم .. ترى هل نستطيع أن نعوض بوبو ما يفتقده فى ابتعاده عنهم يوما بعد يوم .. ؟

***

ولم تأت ام بوبو لزيارتنا بل جاءت كارمن وفرانشيسكووحدهما ، وقالا ان أمهما ماريا مريضة باضطراب فى المعدة ، ونظرت الى بوبو .. كان يبدو عليلا هو الآخر ، وبدا الاضطراب فى عينيه . فقلت : لعلها تتمكن من الحضور فى الاسبوع القادم ..

ولكن بوبو التفت الى أخيه وأخته وقال : لدى أشياء كثيرة أريد أن أريها لكما ..

وامضت كارمن واخوها ساعتين فى منزلنا ، وكان الاخوة يتحدثون معا بالاسبانية بسرعه ، ومع اننى لم أكن أفهم الا كلمة من هنا وأخرى من هناك ، فقد كان اجتماع هؤلاءالاطفال شيئا جميلا يستحق المشاهدة .. كانت العلاقه بينهم حلوة دافئه وكأنهم لم يفترقوا يوما واحدا . وقد أعجب الطفلان بغرفةبوبو وثيابهولعبه ، ولكن أحدهما لم يبد عليه أى مظهر للحسد أو الاستياء ..

واعطت دوتى لكارمن مفكرة جديدة فبها بضعة دولارات لاعطائها لامها ، وعند انصرافهما بدا الارتياح على بوبو ، ولم يشر اليهما مرة أخرى فى ذلك اليوم ..

محاولات للتكييف

ثار اليوم صراع بين الارادات حول مصروف بوبو اليومى ..

كنت قد أعطيته يوم الخميس الماضى ٥٠ سنتا ، وشرحت له للمرة العاشرة لماذا يأخذ المصروف ، ولكن بوبو انطلق فورا للخارج واشترى خمس قطع من الحلوى المثلجة ثمن كل منها خمسة سنتات ، ثم قدم لصديقه رالفى ٢٥ سنتا كهدية .. وذكرته انه لن يحصل على نقود اخرى حتى السبت القادم ، ولكنه لم يكترث

واليوم شاهد بوبو لعبه فى نافذة متجر للعب .. كانت نوعا حقيرا من اللعب الميكانيكية المصنوعة من الصفيح التى تفسد بسرعة ، وكان شديد الرغبه فيها ، وثمنها دولاران ونصف دولار ، وطلب منى شراءها ، ولكنى رفضت فقال :

ــ ولكن يا جو هذه هى اللعبة الوحيدة التى كنت اريدها دائما ..

قلت : ان اشترى لك قطعة صفيح كهذه .. أما اذا أردتها فأنت

تعرف كيف تستطيع ذلك ..

ـ حسنا .. اشترها لى الآن ولا تعطنى مصروفا عدة أسابيع أوأعوام.

وعدت أشرح له مسألة المصروف اليومى من جديد وكيف أن الهدف منها تعلم السيطرة علىالنقود ، وكان موقفى قويا وموقفه يثير الشفقة ، ولكنى لم استسلم ..

وانتهى اليوم باعلان من بوبو اثار غضبى .. ففى التاسعة والنصف مساء ، وهو الوقت المحدد لنومه ، قال أن لديه واجبا مدرسيا لم يؤده بعد .. وأدركت من دقة توقيته انه تعمد ذلك .. فألقيت به فى الفراش وقلت له أنه يستطيع أن يستيقظ فى السادسة والنصف صباحابدلا من السابعة ليستطيع أن يؤدى الواجب.

***

كان بوبو يقتنى كل الاشياء التى احبها فى المخلوقات البشرية ، وقد لفت كلها فى حزمة صغيرة رائعة ، ولكنى كنت أحس بالقلق لانالمشكلات التى أثارها فى حياتى ظلت تتراكم دونأن أجد لها حلا ..

كان يريد دائما أن امنحه وقتى واهتمامى ، فقد كان لا يستطيع أن يسلى نفسه لمدة خمس دقائق مستمرة ، وقد عرفته أنه جاء الى هنا معتقدا أننى لن احل مكان ابيه فحسب، بلومكان كلاخوته واخواته وابناء عمه ورفاق لعبه ، وعندما كنت أجلس للعمل لم يكن يفهم لماذا لا أضع نفسى تحت تصرفه ما دمت موجودا .. !

وقد رفض الخروج للعب بعد المدرسة اليوم .. وظل يراوغ مستخدما كل أنواع الحجج ، ووعد ان يتركنى اعمل فى هدوء،واستطاع أن يبقى الى جوارى مباشرة حتى وقت العشاء .. وبعد العشاء اطلعت على واجباته المدرسيه وحمامه ، وحكيت له كالعادة قصة قبل النوم ، وقد استطعت ان أتكيف مع هذه المشكلة . ولكن رئيس تحرير احدى المجلات اتصل بى اليوم وطلب منى مقالا على أن يأخذه بعد عشرة أيام ، فاذا لم أجد طريقة تجعل بوبو أكثر اعتمادا على نفسه ، فسوف أقع فى مأزق .

ولكن الشخصية التى عاملها ذات حيل واسعة .. !

وصلنا الى قرار حاسم

بقيت دوتى فى المكتبة حتى الساعه الحاديه عشرة مساء ، ولم يكن بوبو قد نام عندما عادت الى المنزل ، وبعد أن أمضت بضع دقائق فىغرفتهلتحييه

تحية المساء ، هبطت وقد استبدت بها الحيرة وقالت لى :

ــ هناك شىء يقلقه بكل تأكيد .. هل تعرف ما هو .. ؟

فقلت : ان اخته كارمن جاءت بعد أن ذهب الى فراشه لتقول أن أمه تريد ان تحضر لزيارتنا ليلة الغد فى سيارة جونى صديق ماريا .. وظننت أن بوبو سيسعده النبأ ، ولكن القلق ساوره ولم يستطع النوم ..

وقالت دوتى :

ــ وددت لو أن أمه لم تأت .. ان عواطف الطفل نهب مقسم بيننا وبين أسرته .

فقلت : ومع ذلك فهو يشعر أنه منبوذ .. انه لم ينس قط كيف رغب أبوه فى أن يتركه لنا ..

***

قلت لماريا الليلة اننا نريد أن نتبنى بوبو رسميا ..

كانت قد جاءت ومعها كارمن وفرنشيسكو ، وقد مر حوالى شهر منذ رأت بوبو آخر مرة . وكان لقاؤهما مثيرا للشجون ، وعندما راقبت الأثنين معا ، ساورنى شك فى أنه طفلها المفضل .. فلم يكن هناك أى انفعال عاطفى مثير ، بل مجرد سرور هادىء دافىء .. كانت تصفف له شعره وهى تعرف انه سوف ينكشه بعد دقيقتين .. وظلت تحوم حوله كما تفعل الدجاجه حول صغارها ، ثم صعد هو وفرنشيسكو الى غرفه اللعب ، واخذت انا اشرح قرارنا لماريا ، فأجابت دون تردد أن هذا هو الشىء الذى كانت تأمل فيه ، وقالت لى :

ــ انك تستطيع ان تفعل له الكثير مما لا أستطيعه أنا ..

وكانت دوتى تواقة الى ابلاغ قرارنا لبوبو ، ولكننا اتفقنا على كتمانه الى أن نتأكد أولا أنه لن تكون هناك صعوبات قانونية فى طريق التبنى ..

الى الابد

بعد محادثة تليفونية طويلة مع المحامى الذى يباشر الموضوع نيابة عنا اتصلت بدوتى فى الصباح وقلت لها انه واثق من ان التبنى سيكون ممكنا وأنه يستطيع اتمامه خلال اربعة شهور ..

فقالت : ابلغ بوبو بمجرد عودته من المدرسة ياجو ..

ــ الا تنتظر حتى تعودى الى البيت فى المساء .. ؟

ــ كلا .. لا تنتظر .. سيكون لدينا الكثير للحديث عنه نحن الثلاثة منذ الآن ..

وبينما كان النهار ينصرم ، وجدت أننى غير قادر على المضى فى العمل .. وفكرت فى الاتصال تليفونيا بناظر المدرسة لاطلب منه ارسال بوبو الى البيت ، ثم رأيت أنها حماقة.. وبعد الغداء خطر لى أنه قد لا يعود الى البيت مباشرة بعد المدرسة ، ولهذا اعددت نفسى للخروج قبل الثالثه بقليل لكى أقابله عقب خروجه من المدرسه .. وتحدثنا عن الموضوع طوال الطريق الى البيت ، وبذلت كل ماأستطيع لاشرح له معنى التبنى القانونى .. وقلت : سيكون هذا بصفة نهائيه .. بعد فترة قصيرة تصبح ابننا ، تماما كأنك ولدت لنا .

ولاذ بالصمت التام كما يحدث له كلما واجهه شىء كبير فى حياته .. وقال : هل سأغير اسمى الى (جوزيف برجر) الصغير .. ؟

ـ أجل .. سأكون أباك وستكون دوتى أمك وسوف يسعدنا ذلك .

لن أقبل ألف مليون !

أحسست بالضيق لان أصدقاءنا ومعارفنا عندما سمعوا النبأ قالوا جميعا دون استثناء : « ان ماتفعلونه شىء رائع » .. ولكنى كنت أعتقد أننا لا نفعل شيئا نبيلا أو كريما من أجل طفل فقير ـ وهو ما كانوا يعنونه ـ بل اننا نحن الرابحون ولو أننا رحنا نبحث عن طفل مثل (بوبو) لما وجدناه ..

كنت مرتبطا ببعض المواعيد فى مانهاتن فى ذلك اليوم ، وعندمااتصلت بالمنزل تليفونيا بعد الظهر لاعرف ان كان بوبو قد عاد من المدرسة أم لا لاحييه ، ردت على (بيرل) مدبرة منزلنا التى تحضر يومين فى الاسبوع قائلة أنه لم يعد بعد من المدرسة ، مع أن الساعة كانت الرابعة أى بعد موعد خروجه بساعة ، وفى الرابعة والنصف اتصلت مرة أخرى فلم أجده أيضا .

وعندماعدت الى المنزل بعدالخامسة بقليل وجدته هناك .. واعترف لى شيئا فشيئا بأنه تزعم ثورة فى الفصل ، وأنهم عاقبوه بابقائه فى المدرسة بعد موعد الانصراف .

وقلت له : لقد كنت قلقا عليك ..

فقال باهتمام وبهجة :

ـ هل ظننت أننى لن أعود الى البيت .. ؟

وجاء دورى لاختباره فقلت :

ـ ظننت أنك قد فررت ..

فضحك وقال :

ـ لن أفعل ذلك مقابل مليون الف بليون دولار .. ولا مقابل مليون مليون دولار !

***

ومنذ أن بقى بوبو معنا ، زاره أبوه (جوليو) وزوجته الثانية مرةواحدة فقط..ورأته امه(ماريا)مرتين واخواه كارمن وفرانشيسكو أربع مرات .. وفي ذلك المساء قال بوبو لزوجتي :

ـ دوتي .. هل تذكرين أنك قلت لى اننى سيكون لى فراش فى غرفة اللعب .. حسنا .. هل نضعه هناك بسرعة .. ؟ اننا اذا وضعنا هنـــاك فراشا فان كارمن تستطيع أن تنام فوقه ..

وجاءتنى دوتى وقد بدا عليها القلق الشديد وقالت : انه يظن أنه وجـــد وسيلة لكى تكون له اسرتان .. !

وكانت على حق. فنحن لانستطيع أن نتبنى أسرة بوبو معه ، كما أننـــا لا نريد أن نتبنى نصف طفل فقط . ولكنى كنت واثقا من رغبـــة أبويه فى التنازل لنا عنه ..

غير أن الشىء المهم فى هذا الموقف ، هـــو الافكار والأحاسيس التى تدور داخل هذه الدوامة الانسانية الصغيرة التى تسمى « بوبو »

وذهبنا اليوم لشراء بعض الحاجات، وفى متجر كبير كانت دوتى تبحث عن بعض الوسائد لوضعها فى غرفه لعب بوبو ، توقف هو أمام رف ملىء باللعب التى صنعت على هيئة كلاب مغطاة بفراء حريرى ناعم مختلف الالوان ..

وتذكرت دوتى أنه اعتاد النوم مع أطفال آخرين وأنه فى حاجه الى شىء يحتضنه فى الفراش .. فسألته : أى واحد منها تريد ؟

فأشار بوبو الى كلب أزرق اللون وقد تملكته الدهشة والفرح ..

وفى تلك الليلة وقفت أنظر اليـــه وقد استغرق فى النوم محتضنا كلبا صغيرا ناعما ذا فراء أزرق جميل ..

وفى يوم السبت المطير ، واصلنا العمل فى تحويل الغرفة العلوية الى غرفة للعب وساعدنا بوبو بطلاء مجموعة من الارفف ومائدة، وكانت تلك طريقه ناجعة لابقائه مشغولا هادئا .. فقد كان من الصعب ابقاؤه هادئا ، وكان ضجيجه يؤلم دوتى ، ولا سيما عندما تكون متعبه بعد عودتها من عملها... ولكننا كنا اذا ذكرنا له اننـــا لسنا على مايرام ، كان يخفض صوته بعض الوقت ، ثم لايلبث أن يرفعـــه عنـــدما تزداد حماسته فى الحديث .

سعداء الى الأبد

حدثت اليوم أســوأ الازمات التى أثارها بوبو ... كنا قد دعينا لقضاء الأمسية مع بعض الاصدقاء وبينمـــا كنا نستعد للخروج اتصلت بنا أخته كارمن وسألتنـــا عمـــا اذا كانت أمه

تستطيع أن تحضر لتأخذ بوبو لقضاء الليله معها ••

وكنا نأمل ألا يأتوا فى عطله نهايه الاسبوع ، ولكنى احسست أنه ليس فى استطاعتى أن أردهم بفظاظـة ، فقلت لها انها اذا اتصلت مرة أخرى فى الغد ، فقد تستطيع أن تحضر مع أمها وفرنشيسكو لزيارته عندنا

وبدت لى هذه تسوية مناسبة، ولكنها لم تكن كذلك بالنسبه لبوبو •• ومع أنه جلس هناك مصغيا دون ان يثير أى اعتراض ، فانه بعد أن انهيت المحادثه بخمس دقائق ، استولت عليه نوبة جارفه لرؤية أمه فورا لا غـدا ، وراح يتوسـل لى أن آخذه اليهـا فى تلك اللحظه ، فقلت اننى لن أستطيع أن أفعل ذلك ، فقد اتفقت مع أسرته على الحضور غدا ، كما أننا تواعدنا على قضاء المساء مع آل مايرز •• فقال :

ـ اذهبا اذن بدونى !

لم أره قط بمثل هذا التأثر ••• وقلت له أنه سـيرى أمـه فى الغد ، ولكن عينيه كانتا تلتهبان غضبا وقال : « لن أذهب معكما الى آل مايرز •• أريد الذهاب الى أمى »

ماذا نفعل الآن ؟•• اننا لن نعود الا فى وقت متأخر من الليل ولهـذا لانستطيع أن نتركه بمفرده ، وكان يعرف المأزق الذى نحن فيـه ، وقد ظل جالسا فى مكانه يرفض أن يتحرك حتى لقـد أحسسـت أنه يريد أن يعاقبنى ••• وبعـد أن حاولت لمـدة نصف ساعة أن اثنيه عن عزمه دون جدوى ، قلت له :

ـ ماذا تريد حقا ؟

ـ أريد أن أذهب الى أمى ؟

ـ اليوم فقط ••• أم الى الابد ؟

كنت أنا المتحدث فى هذه المرة ، ولكنى كنت مضـطرا الى اتخاذ هـذا الموقف

واجاب : اليوم •• فانا لن اذهب الى آل مايرز

قلت : اذا اخذتك اليوم الى امك فسوف أحزم ثيابك فى حقيبة وأطلب منها أن تبقيـك معهـا •• فهل هذا ماتريده ؟

فاهتز جسمه الصغير وقال : وماذا بشأن لعبى وصورى الموجودة فى غرفة اللعب ؟

وحمدت الله فى نفسى لاننى جعلته يتراجع قليلا، ولكنى أسات التقدير •• لقد كنت أغامر بالورقة الاخيرة أمام طفل صغير يائس ••• وقبل التحدى قائلا :

ـ حسنا ياجو ••• هات الحقيبة •

وهبت «دوتى» الى نجدتى قائله :

ـ أعتقد أنه من الحماقه أن نبت فى شىء الآن وليس هناك مايدعونا لذلك ٠

وأخذت تتحدث مع بوبو بلطف ثم قالت : انك لست مضطرا لان تقول فى هذه اللحظة ان كنت راغبا فى البقاء معنا أم لا ٠٠

فقال : أننى أريد البقاء هنا ولا شك ولكن ٠٠٠

قالت : انك لاتزال تنتمى الى آمك ياحبيبى ، وتستطيع أن تذهب اليها فى أى وقت تشاء دون أن نمنعك كما أنها تستطيع استرجاعك عندما تشاء ٠٠

فقال متلعثما : ولكن ٠٠ اذا أردت أن أبقى هنا فهل استطيع ؟

ـ نعم مادمت ترغب فى ذلك ٠

ـ وهل أستطيع ألا أذهب الى آل مايرز اذا كنت لا أريد الذهاب ٠؟

ـ كلا ٠٠ ولكنك تستطيع أن تذهب اذا اردت ٠٠٠ فقد دعيت ٠

قال : حسنا ٠٠ سوف أرى أمى غدا

وانطلق الى غرفته وارتدى ثيابه ٠٠ وفى اليوم التالى بعد زيارة آمه،ذهبت معه الى مطعم قريب للعشاء وفى طريق العودة قفز بوبو على عنقى فجاه واحتضننى بشدة مازلت اشعر بها وأنا أكتب هذه السطور ٠٠٠ وصاح قائلا :

ـ أواه ياجو ٠٠٠ انني أحبك ، وسابقى معك الى ابد الآبدين ٠

وقلت له أننى أحبه أنا أيضا . وعدنا الى البيت وقد تشابكت أيدينا بقوة

مشكله عطلة نهايه الاسبوع

كانت عطلات نهاية الاسبوع مشكله تزداد تطورا اسبوعا بعد آخر ٠٠ ففى خلالها يريد بوبو أن يرى أسرته ، وهذا فى ذاته يجعل ترويضه أكثر مشقة ٠٠ وقد تعمدنا أن نعد له يوما مزدحما بالمشاغل فى هذه العطلات ، فعرضت عليه دوتى أن تدفع له نصف دولار مقابل تنظيف نوافذغرفه لعبه ، ونصف دولار لمسح أرضيه قاعة الطابق الارضى ٠٠

كانت فكرة كسب نقود فكرة جديده ومثيرة ، وقد أنغمس فيها بكل اهتمامه ومتعته ، ولكنه توقف عن عمله هذا الصباح ليسألنى عما اذا كنت سآخذه بعد الظهر الى منزل آمه ٠ فقلت له لا، واننى طلبت الى ماريا ألا تتحدث فى عطله هذا الاسبوع لان ذلك لن يؤدى الا الى شعوره بالحنين الى منزله ، وقد وعدتنى بألا تفعل ٠

وقررت أن أشرح له كيف أنه يجب

عليــه التخلى عن الفكرة التى تحتــل رأســه وهى أنه ينتمى الى أسرتين ، وقد ذكر لى مرارا أنه يريد أن يكون عضوا في أسرتنا ولهذا فانني لا أريد منه أن يهرع كل أسبوع لزيارة أمــه وأخته كارمن وأخيه فرنشيسكو ، كما أنني لا أريد حضورهم كل اسبوع ، لان هذا سيبقى احساسه بالحنين اليهم قويا ويجعله نهبا مقسما بيننا وبينهم

وســكت بوبو ولم يــرر رجــاءه بالذهاب الى أمــه ، وشغل نفسه فى أعمال التنظيف •• وبدا أننا كسبنا المعركه •• على الاقل هذا الاسبوع !

الاخبار

سارت الامور بعد ذلك فى مزيد من الهــدوء •• كانت هنـــاك بعض المجادلات الروتينية بسبب امتناعه عن أداء واجبــاته المدرسية ، ولا تزال كلمة « لا تفعل » هى أكثر الكلمات استخداما فى منزلنا ، ولــكن بوبو حاول أن يحترم حاجتى للعمــل فى هدوء وانفراد ، كما بذل جهـــودا صادقة للتقـــدم فى نواح أخــرى ، واحسسنا أننا نتقـــدم معه ، حتى جاءت الليلة الماضــية .. كان بوبو متحــديا متمردا ، شيطانا صــغيرا حقــا .. كل شيء أطلبه منه يرفض عمله ، وكل شيء أمنعه من عمله يصر على عمله ، حتى أوشك أن أضربه ، فيبتسم ويقول : « لقد كنت أمزح معك فقط يا جو » .

وعندما كنت على وشك الذهاب الى الفراش أخيرا فى العاشرة مساء ، بدا لى أنه يتلذذ بتعذيبى ، ورحت أحكى لدوتى عند عودتها كل مافعله بالتفصيل •• فقالت :

ـ ألا ترى يا جو .. ان الطفل يجتاز أزمة قاسية ..

وعندما هبط بوبو من غرفته فى الصباح أعلن أنه لايريد أى افطار ، وكرر ذلك مرتين تمهيـــدا لادعاء المرض حتى نعفيـــــه من الذهاب للمدرسة .. ولكن لم يكن هنـــاك زيف هذه المرة فقد كان يتكلم بهدوء ويبحث مع دوتى أى الثيـــــاب سيرتديها استعدادا للخروج ، ولاول مرة تفادى أن يمنحنــا قبل الوداع عند خروجه ..

وبقيت أعمـــل فى المنزل .. وفى الرابعة بعد الظهر قررت أن أخرج للاستجمام وشراء بعض الاشياء ..

ووجدت بوبو فى الخارج يستند الى عمود النور الموجود فى مواجهــة الشرفة الامامية للمنزل .. وما لبثت الدموع أن سالت على وجنتيه ... وسألته عما به فقال ان معــدته

تؤلمه ، ولكنى بعد أن هدأت روعه ، وصـــحبته الى غرفتـــه وأرقدته فى الفراش ، اعترف ان معدته لاتؤلمه وأنه كان يبـكى لاننى كنت غاضـــبا منه . ..

وقلت له اننى آسف عما حـــدث ليلة أمس ، واننى أعرف أنه آسف هـــو الآخر .. واذا كان يريدنى ألا أغضب حقا ، فهناك أشياء أفضل من البكاء يستطيع عملها .. فقال :

ـ ولكنك ستزداد ثورة الآن ..

وراح يتحـــدث شيئا فشيئا .. قال انه لم يذهب اليوم الى المدرسة ، فقد قرر أن يهرب الى منزل أمه ، ولـكنه خشى أن يفعل ذلك ، فقـــد أخبرته مرة أنها لن تأخذه اذا هرب منا ، وقد أمضى بعد الظهر فى دار للسينما .. وما كاد ينتهى من سرد قصتهحتى سالتدموعه مرة أخرى . فقلت له :

ـ لقد طلبت أمك ألا تذهب اليها لانها تعتقد أنك أحسن حالا هنا .

قال :

ـ انى أعرف ذلك ، ولكنىأشعر فى بعض الاحيان أن شيئا ما قـــد حدث وأريد أن أراها فقط .

ـ وهل هذا ما حدث اليوم عندما هربت من المدرسة ؟.

ـ أجل

ـ ولكن هل كنت تهرب لترى امك بعـــد أن تصبح « جوزيف برجر » الصغير ؟.

وبعد فترة صمت طويلة قال :

ـ لا أدرى

ولم اكن انا ايضا ادرى !

وقلت لنفسى ان أسرة بوبو قـــد تتصل بى تليفونيا ، وسأقبل أى نوع من الزيارة يقترحونه ، وقد أتركه يعـــود معهم لقضـــاء ليلة السبت فى منزلهم اذا أراد .. ربما لاتمكن من القيام باختبار ما فى هده المرحله قـــد يحل بعض شكوكنا وحيرتنا .

رحلة الى أرض فقراء

تحدثت كارمن تليفونيا بعد ظهر اليوم ، وابتهجت عندما اقترحنا أن احضر بوبو الى منزلهم لقضاء الليلة معهم ، كما ابتهج بوبو أيضا لذلك ، وأسرع لاحضار زجاجة عطر كبـــيرة كان يحتفظ بها لامه .. وركبنا ثلاث ســــيارات أوتوبيس خـــلال الحى الحقير الواســـع الذى يحتل الجزء الاكبر من بروكلين ، فى طريقنـــا الى بيت أمه ماريا ، وأمضينا ساعة ونصف ساعة كئيبة ، لم يخففها الا تجمـــع الفسق فوق هذا المنظر الذى يعـــد قـــذى للاعين . كان بوبو ســـعيدا

كالقنبـرة ، يغنى ويصـفر ، ويقوم بحركات كثيرة٠٠واستمر فى الثرثرة حتى هبطنا من السيارة وسرنامسافة اربعه شوارع وسط هذه القفار من الزرائب القذرة ..

كانت ماريا وأطفالها يعيشون فى منزل بلغ آخر مرحلة من التدهور ، وكان فى المسكن مطبخ صغير وغرفة جلوس « وزنزانتان » صـغيرتان لا تتسع كل منهما الا لفراش صـغير وقد خلت من كل شىء الا الحيـاة — التى يوجد منها الكثير — ومعذلك فقد كانت الشقة تبدو نظيفـة على قدر الامكان ، وان فشلت النظـافة فى اخفاء تشقق الجدران والثغرات الموجودة فى الارض ، والروائح التى تنبعث من الداخل والخارج .

وبدت الحـيرة على وجـه ماريا عنـدما عرفت رغبتى فى ترك بوبو لقضاء الليلة عندها ، وظل القلقباديا عليها حتى أفهمنها أننا نتوقع عودته غـدا ، فقالت ان صديقهـا جونى سيعيده لنـا غدا ، وأشارت الى أن بوبو يبدو فى أحسن حال منـذ أن عاش معنـا . ثم سألتنى أخيرا عن التبنى ، فأخبرتهـا عن حنين بوبو القوى الى بيتها ، وقلت اننا مازلـنا نريده ، ولـكننا نرى أن المسـألة مازالت تتطلب بعض الوقت ، وانها ترجع الى رغبة بوبو اكثر مما ترجع الى رغبتنا .

وبدا عليهـا الحزن ، ولكنهـا لم تدهش .. وبدا الهدوء على وجهها، فقد اعتادت سماع أسوأ الانباء منذ زمن بعيد ، ولكنى أستطعت أن أرى من حلال تحفظها انها كانت متأثرة ، تتنازعها عواطفها المنقسمة ، ولـكن رغبتها الاساسية هى أن تفعل مثلنا خير ما تستطيع فى سبيل خير بوبو

بوبو يختار

عنـدما عاد بوبو بعـد ظهر اليوم التـالى ، قال انه سعيد لعودته .. وتناولنا العشـاء فى الخارج ، وكان بوبو يأكل فىهدوء وبشهية ، وعندما عدنا الى المنزل ، اتجه فورا الىغرفة لعبـه ، وذهبت اليـه بعـد قليل ، فوجـدته يجلس على الاريـكة بـلا حراك ..

وجلست الى جـواره وأخـذنا نتحدث بهدوء .. كان يبـذل جهدا للاحتفاظ بثباته ، ولكنه صرح أخيرا بما فى نفسه .. قال :

— جو .. اننى لا استطيع .. أريد العودة الى البيت

— الى الابد ؟. بلا رجعة ؟

فاحنى رأسه وقد عص حلقه ..

ثم قال :
ـ هل أنت غاضب يا جو ؟
ـ كلا .. انني لست غاضبا
وتحسست ذقنه بيدى كما افعل أحيانا لمداعبته .. وقلت :
ـ انني مسرور على أية حال لانك أخبرتني .. سوف تكون أكثر سعادة ، وعندما تكون كذلك أكون انا أيضا سعيدا .
ـ ولكنى لست سعيدا .. انك لن تكون صديقى بعد ذلك يا جو
ـ انك صديقى يا بوبو الى الابد .. انني واثق من ذلك .
ـ وهل أستطيع الحضور لاراك ؟
ـ اذا أردت .. تستطيع الحضور يوم السبت وتقضى الليلة معنا ان شئت .. وكل أيام السبت التالية
ـ وفى الصيف القادم .. هل نستطيع الذهاب الى جزيرة شلتر ؟
ـ ربما وقد نذهب الى أماكن أخرى .. فمن الافضل الذهاب الى أماكن جديدة والقيام بأعمال جديدة
ـ ولكنى لا أريد شيئا يا جو .. متى أستطيع أن أذهب الى بيتنا ؟.
ـ غدا اذا شئت .
وهبطنا معا الى الطابق الاسفل لنبلغ دوتى النبأ ...
ومنذ تلك اللحظة سيطر عليه تغيير سريع لا يصدق .. لقد دارت الآلة الصغيرة فجأة به وانطلقت تعدو بجنون لتنفث بخارها المكتوم .. واخذ يعدو فى ارجاء المنزل يجمع اشياءه ويثرثر عن عودته الى البيت .
وسألنى عن رأيى فى أن يأخذ معه بعض اللعب والثياب ، والحاكى الصغير وبعض اسطوانات الاغانى الشعبية التى يحبها .
كانت الساعة الحادية عشرة عندما تركناه فى الغرفة .. ولاول مرة نسى أن يأخذ كلبه الصغير معه الى الفراش ليحتضنه خلال نومه !

الوداع

استيقظ بوبو فى السادسة صباحا وهبط الدرجات ، وكنت اكتب موضوعا صحفيا عاجلا على آلتى الكاتبة .. وكانت هناك مشكلة واحدة تؤرقه .. فهو يريد أن يذهب الى منزلهم وحده دون أن اصحبه ... وعرفت أنه يخشى اننى اذا ذهبت ، أن تقنعنى أمه بأن آخذه ثانية .. فقلت :
ـ لا تقلق بشأن ذلك ، فسأقول لها اننى متمسك برأيى .
ولكنه لم يقتنع واخيرا وافقت على أن أضعه فى سيارة اجرة على أن يحمل معه رسالة الى أمه ، فقبل

.. وقرأت له الرسالة بعد أن كتبتها وقد جاء فيها :

« عزيزتي ماريا ..

« ان بوبو عائد اليك الى الابد .. من العسير جدا أن اتخلى عنه ، فانني أنا ودوتي نحبه وسنظل نحبه دائما، وكنا نود أن نبقيه للابد لو استطعنا .. ولكنه حاول بشدة أن يكون لنا ، ولكن الشيء الذى يريده ويحتاج اليه هو أنت .. يجب أن تدركي أن بوبو هو الذى اختار وليس نحن .. لقد غير منزله ولكنه لم يستطع أن يغير قلبه ، ولست ألومه على ذلك بل ان حبى له واعجابى قد ازدادا ، وانني أعرف انه على حق ، ويجب أن تفعلى كذلك ياماريا ، فان كل ما يضحى به من أجلك أنت » .

وعندما انتهيت من القراءة ، ظل صامتا وان بدا عليه الارتياح .

ورفض أن يتناول افطاره .. كان كل ما يريده هو أن يحزم حاجاته وينطلق الى بيته وكانت دوتي نائمة بعد أن استعددنا للرحيل .. وقلت لبوبو انه من الافضل عدم ايقاظها ، فقال لى : « ودعها نيابة عنى يا جو »

قلت : لماذا ؟ .. انني سأقول لها انك ستراها يوم السبت

فأشرق وجهه وقال :

ـ هذا حسن .. انها متعة أن أعود صديقا لك يا جو مرة أخرى

كان الصباح رطبا مليئا بالغيوم ، بينما كنا نقف فى الطريق فى انتظار السيارة ، تحول الضباب البارد الى مطر ، فأخرجت معطفه وقبعته وألبسته اياهما ..

وأشرت الى سيارة أجرة للوقوف ، وأدخلت بوبو فيها ثم قلت له :

ـ أما زلت واثقا انك لا تريدنى أن أذهب معك ؟

ـ انني واثق تماما يا جو ...

ثم قال بصوت خافت مرتبك :

ـ وداعا ...

ومد الى يده فتصافحنا ..

وفيما كنت أرقب السيارة وهى تنطلق به بعيدا ، تطلع بوبو الى الوراء ولوح لى بيده من خلال المطر المتساقط ...

●

مصادفة !

عندما وجهت الانتقادات الى عمدة اتلانتا السابق وليم هارتسفيلد لانه انفق مليون دولار على القرود وبيت القرود فى « حديقة جرانت » باتلانتا ، اجاب قائلا :

ـ انني لم انفق مليون دولار على القرود .. لقد انفقتها على أطفال البلدة ، اما القرود فهى تعمل هناك من قبيل المصادفة فقط !

هذه هي الحياة

كانت المدرسة الشابة القادمة من البلدة الصغيرة تقود سيارتها في زيارتها الاولى للمدينة الكبيرة ، عندما وصلت الى تقاطع شارعين يزدحم بحركة المرور .. ورأت الضابط الذي يقف في ركن الطريق وهو يلوح بيده للمرور في أحد الاتجاهات .. وفجأة بدأ يلوح في اتجاه آخر ، بينما ظلت المدرسة تحدق فيه .. ولكنه التفت اليها صائحا :

ــ ماذا تفعلين هنا بحق الشيطان ؟

وأصابها هلع ، ولكنها حافظت على وقارها كمدرسة وقالت :

ــ لماذا .. لقد ظننت أنك كنت تومىء الى ..

وحدق الضابط في لوحة سيارتها التي تدل على أنها قادمة من بلدة أخرى .. ثم ابتسم قائلا :

ــ ولكنى لم أكن أعلم أنك جئت الى المدينة ياعزيزتى .. هيا انطلقى !

***

عندما تخرجت ابنتنا الصغرى في مدرسة الممرضات ، ظل زوجي يتابع عملها باهتمام بالغ .. وذات مساء ذهب الى قسم الاطفال بالمستشفى ، وتطلع اليها من النافذة وهى تقوم بالعناية بالمواليد .. وكان يقف الى جواره أب شاب .. يتطلع هو الآخر بلهفة ..

وقال الشاب في فخر : أن الطفل الذي تقوم بتغيير ثيابه الآن طفلى ..

وبنفس الفخر رد زوجي قائلا :

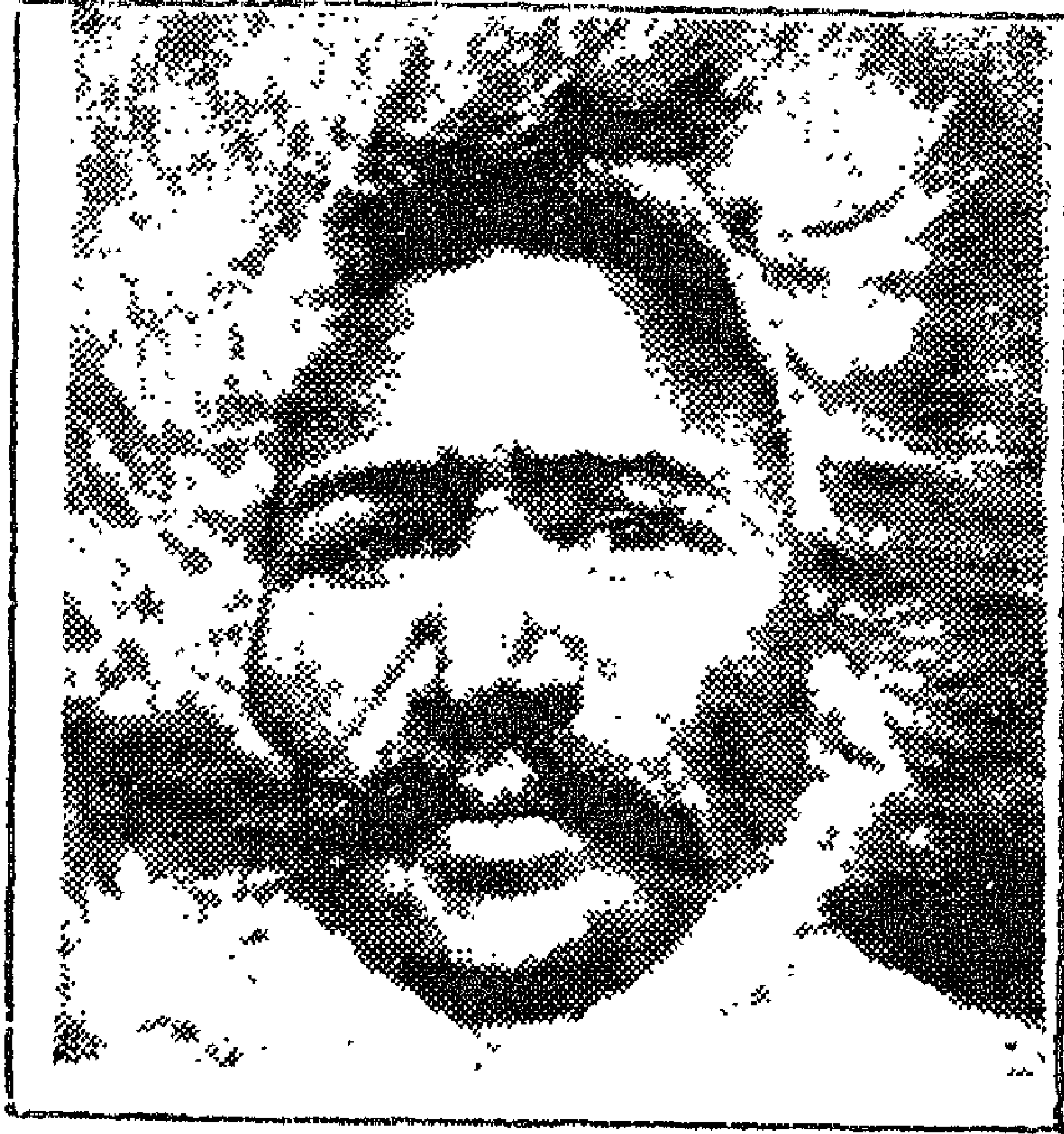
ــ والطفلة التى تغير له ثيابه .. طفلتى ! .

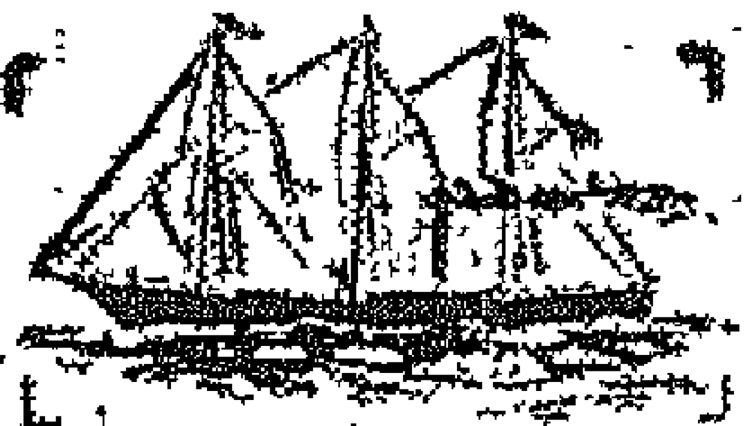
***

كان صديقى يسير خلال حى موحش من أحياء الفقراء ، وهو يفكر في أثر مثل هذه البيئة على الشباب .. وقد روعه رؤية طفل صغير يجلس على درجات بيت قديم ، وهو يقطع وردة الى نصفين بغطاء علبة من الصفيح .. واقترب من الطفل ، فسمعه ينحنى على ضحيته ويقول لها في اهتمام :

ــ الآن أصبح لك صديق ! .

على قمة العالم





عن كتاب *AHDOOLO*

بقلم فلويد ميلر



..ن يتيما ، يتقن الكثير من الاعمـال وخادما خاصا للرجل الشهير الذى منحه اخلاصـه ، والذى ظل فترة طويلة يبخسه قدره بسبب جنسـه وثقافته .. ولكن عندما تطلب الامر رجالا ذوى شجاعةواحتمال يفوق كل تقدير،أثبت ماثيو هنسون أنهأكثرمن ند لهذا التحدى، وتعثر آخرون بينمـا أتم هنسون مع الامـيرال روبرت بيرى أول حملة ناجحة على القطب الشمالى .

وهاهى ذى قصة مثيرة منقصص المغامرات ... قصه رجل تغلب على كل العقبات التى لا يمكن تذليلها ليصبح بطلا أمريكيا ، وأسـطورة لا تزال حيه فى أقصى الشمال

وقف ماثيو هنسون فوق سطح السفينة الشراعيةالصغيرة « كايت » وراح يرقب مقدمهـا وهى تشق طريقهـا خلال بحر الثلج الذى يحيط بها .. كانت السفينة تحدث شقا ثمتتراجع للوراء لتعود مرةأخرى الىالامام بأقصىسرعةوعنف ، وشراعها يضرب فى الهواء ..

وبعد لحظة أخرى انضم رجلأطول قامة الى هنسون ، وتفرس فيه قليلا ثم سأله :

ـ كيف الحال يا ماثيو ؟

وتوقف هنسون قليـلا .. كان يعرف الفـكرة التى تكمن وراء هـذا السؤال.. لقدكانزنجيا .. والرجل الوحيد من جنسه الذىاختاره الملازم روبرت لى بيرى لمصـاحبته فى أول رحلة استكشـافية للقطب ، وها هو بيرى يقفالىجواره علىسطح «كايت» ، ولا يزالالشك يساوره فىأنهنسون يستطيع أن يعمل جيـدا فى القطب الشمالى .

وقال هنسون فىتأمل : لقد رأيت كيف يؤثر الشمال على الانسان .. لقـد سيطر على شعورى ، حتى اننى أشعر كأننى لا أريد الرحيل عنه قط

ولم يقـل بيرى شيئـا آخر ، بل استدار متجها نحو مؤخر السفينة ، وبينما كانت «كايت» تواصلجهودها فى ذلك الجليد ، ظل هنسون مصوبا عينيه علىالثلج الذى أقامه حتىحدثت اصطدامة مكتومة فجأة هزت السفينة ودفعت مؤخرها بشدة الى اليسار .

واستدار هنسونبسرعة ليرىرجل

الدفه وهو يجرى نحو رجل رقد على السطح يتلوى ، وعلى الفور انطلق هنسون باقصى سرعه نحو المؤخرة ... كان الرجل الذى يتلوى من الالم هو بيرى . لقد أصابت كتله ضخمة من الثلوج دفة السفينة ، فدفعتها الى اعلى بشدة ونزعت عجله القيادة من أيدى العاملين عليها ، وأطارت يد الدفة الحديدية الثقيلة عبر السطح الخلفى حيث يقف بيرى كأنها منجل جبار ، فكسرت عظمة ساقه اليمنى فوق الكاحل .

وحمل هنسون وثلاثة رجال بيرى عبر السطح المضطرب ، وهبطوا به الى أسفل ، وبعد أن تم تجبير الساق ، حتى وافق كل من على المركب على أن البعثة يجب أن تعود الآن أدراجها ، ولكن عندما تقدم الدكتور فردريك كوك جراح البعثة ليعرض رأيه ، أوقفه بيرى وسأله : كم من الوقت سيمر قبل أن أتمكن من السير مرة أخرى على هذه الساق ؟

فهز كوك كتفيه وقال : ربما أربعة أو خمسة شهور ... هذا أمر يتوقف عليك .

فقال بيرى : سأكون اذن على استعداد لزحف الربيع على الغطاء الثلجى .. وبعد بضعة أسابيع سأجعل هنسون يصنع لى عكازين

فقال كوك فى عجب : أتنوى السفر على عكازين ... فوق الثلج ؟

فأجاب بيرى فى لهجة حازمة : لقد استثمر الشعب كثيرا من النقود فى هذه البعثة يا دكتور ولن أعود لأى سبب يتعلق بصحتى .

وأحس هنسون وهو يقف فى ركن من المقصورة بموجة فخر ... لقد أدرك الآن أن الرجل الذى أخلص له يستحق هذا الاخلاص تماما .

وفى السنوات التالية زاد هذا الولاء قوة خلال فترات العزلة والألم والجوع والهزيمة التى تحملاها حتى وقفا أخيرا معا ، شبه أحياء يتشاطران ذروة النصر لمغامرتهما الكبرى فى القطب الشمالى !

لا أحد يعرف ما هناك

كان أول لقاء بين الرجلين بطريق المصادفة ... ففى ربيع عام ١٨٨٧ عندما كان بيرى يقوم بتجهيز رحلة الى أمريكا الوسطى ، قدمه الى هنسون صاحب متجر للقبعات كان يعمل فيه هنسون ، وبعد أن فحص بيرى الشاب الزنجى ، قال له ببرود :

ـ اننى ذاهب الى نيكاراجوا لمعاينة مكان مقترح لشق قناة للسفن بين المحيطين الاطلنطى والهادى ، وأنا فى

حاجه الى فتى يقدر المسئوليه يصحبني كخادم خاص ... انها بلد مليء بالغابات وجو كريه ، ولن يكون العمل سهلا .. فهل تريد الوظيفة؟

وقبلها هنسون على الفور..وأمضى الاثنان الشهور السبعة التاليه يكافحان الحشرات والحرارة الاستوائيه ويخوضان خلال الطين والوحل وينامان على ضفاف الانهار الاستوائية على أصوات التماسيح القريبة منهما ، وسرعان ماتعلم هنسون انواعا جديدة من المهارة ، وأصبح مساعدا خاصا لبيرى فى معاينه الارض ، ولكن بيرى لم ينطق بكلمة مديح واحدة الا بعد أن ركبا السفينة وكادا يصلان الى الوطن مرة أخرى ... ففى اليوم الاخير قبل الوصول الى الميناءاستدعى هنسون الى مقصورته وقال له :

« لقد قمت بعمل طيب فى نيكاراجوا ياماثيو » ثم صمت .. وعندما تكلم مرة أخرى ، قال لنفسه أكثر مماقال لهنسون :

ـ أليس من العجيب . أننا كدنا ندخل القرن العشرين ، ومع ذلك فلا تزال هناك ألوف من الكيلو مترات على ظهر هذا الكوكب لم يرها انسان بعد ؟ ولم يصل أى انسان على مسافة ألف كيلو متر من القطب الشمالى .. ماثيو .. سأقوم بتنظيم بعثه لشمال جرينلند ، فليس هناك من يعرف ماذا هناك ... هذه الارض قد تمتد رأسا الى القطب . فهل ترغب فى الذهاب معى ؟ .

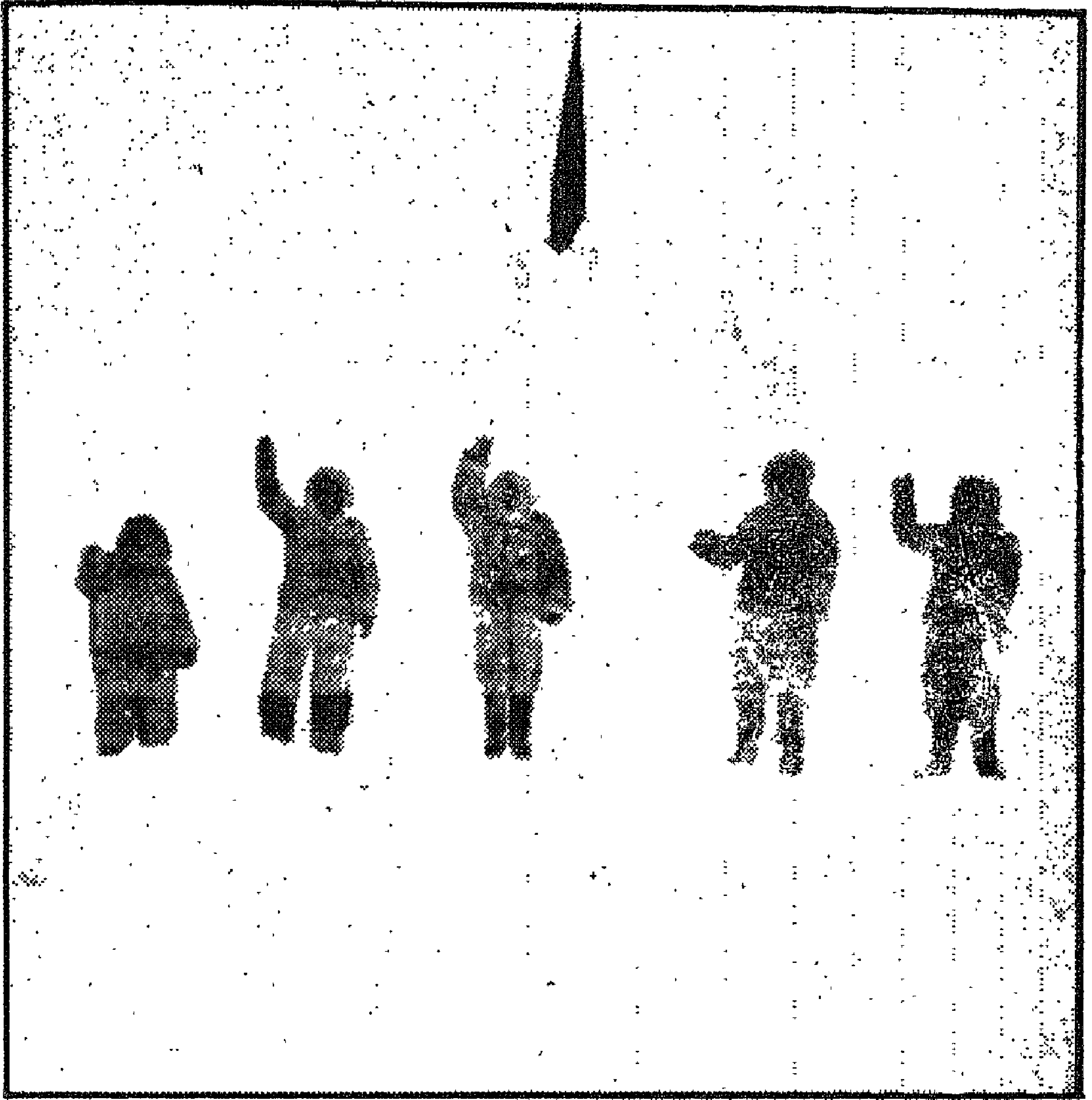
وقال هنسون بعد تردد قليل :

ـ سأذهب معك ، وأعتقد أننى سأتحمل الحياة هناك كأى رجل اخر

وفى السنوات الثلاث التاليـة وفى الوقت الذى كان بيرى يجمع فيه الاموال ويقابل الرجال الذين سيصحبونه ، ويضع خطط البعثة كان هنسون قد أنتقل الى مركز يفوق مركز الخادم بقليل .. ولكن منذ اليوم الذى اقلعت فيه « كايت » من بروكلين فى يونيو ١٨٩١ أثبت هنسون مرة أخرى أنه لاغنى عنه كرجل يقوم بكل الاعمال ، فهو نجار وسباك وطاه

شقيق الاسكيمو

كان خليج « انجلفيلد » يغص بكتل طافيه من الثلج لايمكن اختراقها ، ولكن الى الشمال قليلا يقع خليج « ماكورميك » ـ وهو بوغاز صغير على سفح جبل صخرى شاهق مغطى بالطحالب . وراح بيرى يدرس الشاطىء وقد اضطجع على السطح وساقه المربوطه فوق صندوق صنعه هنسون،



ثم قرر أن يكون مقر البعثة الشتوى فى هذا المكان

وانزلوا الى الشـــاطىء الاطعمــة والاسلحه والمهمات ، والاخشاب التى سيقام بهــا المنزل الذى سيعيشــون فيــه ، وكانت كتــل الخشب مقطوعة من قبل لكى تقــام على الفــور ، وهى مهمة قام بها الدكتور كوك وعضــــو اخر من البعثة هولانجندونجيبسون، وعالم فى الطيور يدعى آســتروب وهـــو بطل نرويجى فى الانزلاق ، وجون فيرهوف عالم المعادن، وهنسون؟ وأخيرا ربطوا بيرى فوق لوح خشبى كبير وحمله هنسون مع ثلاثه بحارة الى الشاطىء

كان المبنى الذى أطلقوا عليه اسم

« رد كليف هاوس » أو « منزل الصخرة الحمراء » مصنوعا من قالبين معزولين ، وكان ثلث هذه المساحة مفصولا بحاجز خاص ومخصصا لبيري وزوجته الشابة جوزفين التي أحضرها معه مما أثار بقيه أعضاء الجماعه

وبينما كان بيري متضايقا من عجزه ، راحت بقية البعثة ترتاد المكان وتجمع عينات من الزهور والصخور وتصيد الغزلان والارانب القطبية وبعد قليل عاد جيبسون وفيرهوف ومعهما كتلة جيلاتينيه من لحم حوت متآكل ودهنه ، وقد وجداه في مخبأ قريب مما يعني أن هناك أسكيمو في المنطقة •

وسرعان ماطلب الدكتور كوك الذي يهتم بعلم الاجناس السماح له بالخروج مع بعض الاعضاء للبحث عنهم وبعد ستة أيام عاد مع أسرة صديقة من الاسكيمو ، وقد أحضرت كل ممتلكاتها لتقيم معسكرا على مقربة من (ردكليف هاوس) خلال الشتاء •• وما كادوا يصلون حتى اتجه رجل الاسكيمو « ايكواه » وزوجته نحو جوزفين بيري ، اذ كانت أول امرأة بيضاء يقع عليها بصراهما •• وراحا يدوران حولها ببطء وقد امتلأت عيونهم السوداء بسرور بالغ ، ثم راحا يضحكان وهما يشيران الى شعر مسز بيري المتجمع فوق رأسها والقبعة الانيقة التي تعلوه ، وثيابها العجيبة •

وعندما انتهى ايكواه وزوجته من الضحك ، شاهدا هنسون يقف على مقربة منهما ، فاتجها اليه وهما يتكلمان بسرعة وتأثر ، ولم يضحكا هذه المرة ، بل ابتسما ، وأحدثا اشارات لم يستطع أحد تفسيرها وأخيرا أمسك ايكواه ذراع هنسون وجذب كمه ، وقرب ذراع الزنجي من ذراعه ••• كان لون الجلد متشابها تقريبا

وقال ايكواه : «اينوى •• اينوى» وعلى شفتيه بسمة كبيرة •• كان ايكواه من قبيلة اسكيمو تقطن في مضيق سميث ، ويطلقون على أنفسهم اسم « اينوى » •• ولما لم يكن هنسون رجلا أبيض ، فلا بد أنه من الاسكيمو !

وعندما فهم هنسون أخيرا مايريد ايكواه أن يقوله ، قهقه وأحاط الاسكيمو الضئيل الحجم بذراعيه •• ومع هذا العناق بدأت أسطورة «ميتي بالوك» — وهو الاسم الذي أطلقه الاسكيمو على « أخيهم » هنسون !

المحاولة الاولى

وسرعان ما أقبلت بقيه القبيلة ،

وجاءت أسر أخرى لتقيم أكواخها على مقربة من بيت (رد كليف هاوس)

كان أسكيمو قبيله « اينوى » كانهم مازالوا فى العصر الحجرى ، لاحكومة ولا دين ولا نقود أو لغة مكتوبة ، لايمتلكون غير كلابهم وأسلحتهم ٠٠ طعامهم لحوم ودماء ودهن ، وثيابهم جلود الحيوانات والطيور ٠٠ كما انعدمت بينهم الغيرة والخمور والامراض المعدية ، وجرائم القتل والحروب ، كانوا شعبا بسيطا سعيدا ، ذكيا بارعا ٠٠ وقد أخذ أيكواه وصديقه «اهنالكا» على عاتقهما تعليم هنسون لغة الاسكيمو ـ وهى من أصعب لغات العالم ـ ومع أن هنسون كان أقل رجال البعثة تعليما فقد كان امهرهم فى اتقان هذه اللغة العجيبة ٠

وبينما كان ليل القطب يقترب ، ارسل بيرى رجاله للتدرب على الانزلاق وانشاء مخابىء للطعام على الغطاء الثلجى ، وهو القبة غير المحطمه للجليد المتجمد التى تكسو الجزء الاكبر من جرينلند ٠٠ وكان ايكواه واهنالكا هما معلمى هنسون فى أهم الدروس كلها ، وهو فن البقاء على قيد الحياة فى الشمال ٠٠ والسيطرة على كلاب الاسكيمو ، فهذه الحيوانات العجيبة تستطيع أن تقوم بقدر عظيم من العمل بقدر صغير جدا من الطعام ، وكان على بيرى أن يعتمد عليها للوصول به عبر الغطاء الثلجى والعودة مرة أخرى ٠٠ وقد أتقن هنسون فن معاملتها العسير أيما اتقان

وفى خلال شهر واحد استطاع هنسون أن يقود الكلاب بنفسه ببراعه وسرعه ٠٠٠ ولكن هنسون لم يذهب فى أول رحله استكشافية

ولكنه أحس بارتياح عندما قاد فريقا من الكلاب الى الغطاء الثلجى مصطحبا بيرى وامدادات اضافيه الى القاعدة الاماميه التى أطلق عليها اسم « معسكر المخبأ » ومن هذه النقطة ذهب بيرى وآستروب وفريق مساعد مسافه ١١٠ أميال أخرى الى «معسكر الانفصال » ، حيث عاد الجميع ماعدا بيرى وآستروب

وكانت شهور الصيف التالية مخيبة لآمال هنسون ٠ فقد كان بقية الرجال يذهبون للصيد بينما تبقى مسز بيرى وحدها ، فتضطر لان تفعل ماتفعله أغلب النساء فى ظل التوتر وهو تنظيف المنزل ، وكان هذا هو عمل هنسون أيضا ٠٠٠ كانا ينظفان كل شىء فى الدار ثم يكرران كل ذلك من جديد !

وفي أغسطس بدأ فريق الانقاذ سيره الى الغطاء الثلجي ، وفي اليوم التالى شاهدوا على مبعدة شبحين صغيرين يترنحان في سيرهما وهما يهبطان النهر الثلجي ... كان وجهاهما شاحبين هزيلين ، واحذيتهما ممزقة ، وكلاهما الباقية على قيد الحياة لاتكاد تستطيع أن تجر اقدامها ، ومع ذلك فقد كانت عينا بيرى المحمرتان كالدماء من أثر الجليد تلتهبان بحمى الانتصار .

لقد قطع ١٩٠٠ كيلو متر وأكتشف بحرا على الساحل الشمالى الشرقى لجرينلند وأسماه خليج اندبندانس ـ الاستقلال ـ وهذا يجعل من المحتمل أن كتلة الارض الضخمة ربما كانت جزيرة وكان هدف بيرى هو اثبات ذلك

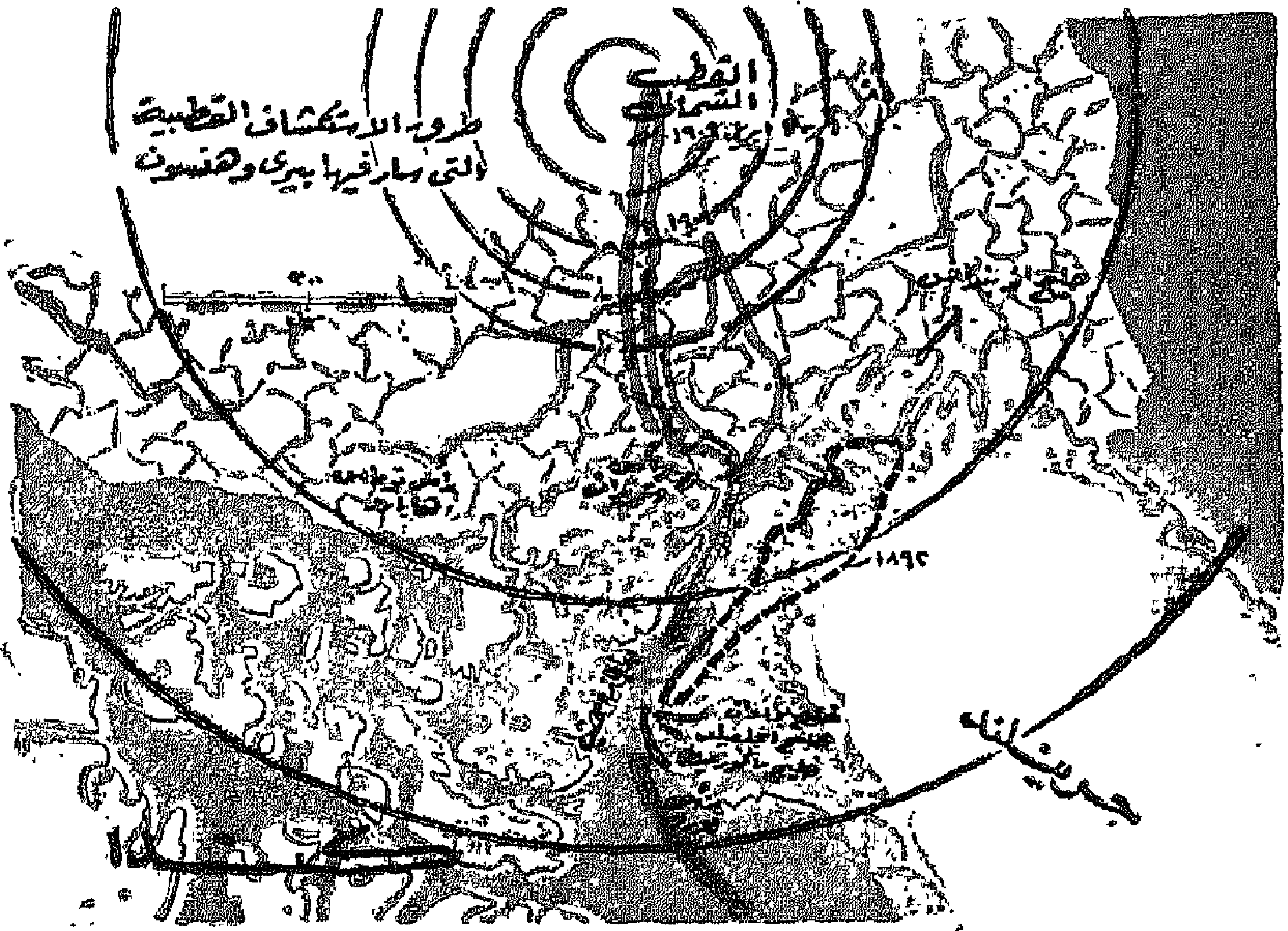
وعندما صعد الى ظهر السفينة « كايت » طوق زوجته وقال في ارهاق بالغ : « سوف نثبت ذلك في العام القادم .. سوف اكتشف الساحل الشرقى في العام المقبل . هذه الارض قد تكون شبه جزيرة ... الطريق الكبير للقطب الشمالى .. في العام القادم سوف أنتزع أسرارها من قلبها الصخرى ، فليساعدني الله » .

ابنة ... وابن !

استقبل أعضاء البعثة عند عودتهم للوطن استقبال الابطال ، ومع ذلك فقد كانت عملية تمويل البعثه الثانية بطيئة ، وأخيرا قرر بيرى أن يجمع الاموال عن طريق القيام بجولة محاضرات وقد شاركه هنسون في القيام بهذه الجوله التى احرزت نجاحا هائلا ... وفي خلال ١٠٣ أيام قام بيرى وهنسون بالقاء ١٦٥ محاضرة حتى جمعا مبلغا يكفى للرحلة التالية ، واستأجر بيرى سفينة تدعى «الصقر» أقلعت بهما في ٢٢ يونيو ١٨٩٣ .

كانت الجماعة التى صاحبتهما هذه المرة كبيرة تضم ١٢ رجلا وممرضة ومسز بيرى ، كما أنها كانت جماعة لم تتلق تدريبا مناسبا لاداء الاعمال المنوطه بها ، فضلا عن أن مسز بيرى كانت حاملا !

واستقرت البعثة في خليج « بودوان » جنوب المعسكر السابق مباشرة ، وأقامت بيتا جديدا أكبر حجما أطلقت عليه اسم « مسكن الذكرى » .. وفي ركن مستقل منه وضعت مسز بيرى في ١٢ سبتمبر طفلة أسمتها « مارى بيرى » وأطلق عليها اسم « طفلة الجليد » وأقبل الاسكيمو من بعيد وقريب ليروا الوجه



الصغير الابيض ويلمسوه بأصابعهم السمراء .

ولم يسر أى شيء فقط على مايرام ..

ومع مقدم الربيع ، ظل الحظ السيء ملازما للبعثة .. وأخذ بيرى فريقا يضم ثمانية أشخاص الى الغطاء الثلجى ، ولكن الصقيع والعواصف شلت أعضاء الفريق عن العمل واحدا بعد الآخر ، وكان لابد من اعادتهم الى المسكن ، وواصل بيرى سيره مع الفريق الذى يتناقص باستمرار ولكن أحد الكلاب أصيب بجنون قاتل ، وقبل أن يتسنى لهم اطلاق النار عليه ، كان قد عقر كثيرا من الكلاب الاخرى !. وكان بيرى ينوى أن يعبر قمه الثلوج ويصل الى خليج « اند بندانس » قبل أول ابريل . ولكن فى ١٠ ابريل كانت البعثة لاتزال على مسافة ٢٠٦ كيلو مترات فقط من المسكن ، واضطر بيرى الى اصدار الامر بالعودة بعد أن أصبحت الجماعة أشلاء ممزقه ، وفى خلال رحلة العودة ، أخفى مواد التموين بعناية ، بعد أن وضع فوقها أعمدة طويلة لتكون علامة عليها حتى لاتتكدس فوقها الثلوج ، وهكذا يكون الطعام قريبا منهم عند القيام بالرحلة التالية عبر الغطاء الثلجى .

وبعد ظهر احد الايام فوجئت مسز سوزان كروس بوجود هنسون أمامها والى جواره غلام من الاسكيمو وقال لها انه ينوى أن ينظفه فى الحمام ، وحاولت الاعتراض على ذلك ولا سيما أن الغلام كان ذا ثياب قذرة وشعر ملبد بالوساخات ... ولكن هنسون وضع دلوا على الموقد وصمم على أن يفعل مايريد ، وعندما هددته الممرضة بأنها ستشكوه لمسز بيرى لانه أحضر غلاما مشردا معه ، قال لها :

ـ انه ليس مشردا يامسز كروس ... انه ابنى ، واسمه « كودلوكتو » .

وكان سماح الاسكيمو لهنسون بتبنى هذا الطفل أمرا ذا مغزى ، فهم يحبون الأطفال حبا جما وعندما ماتت أم الطفل الارملة أعرب كل جيرانها عن تلهفهم على أخذ الطفل ، ولكن عندما أعرب هنسون عن اهتمامه به تخلى له الجميع عنه ..

هنسون يحل أزمة

كان مقررا أن تعود السفينة « الصقر » الى الشمال فى أغسطس ، وقد ذعر بيرى لفكرة العودة عليها مهزوما وتباحث مع هنسون فى المشكلة قائلا انهم سيبقون خلال الشتاء للقيام بمحاولة أخرى فى الربيع فقال هنسون على الفور :

ـ سأبقى معك

فابتسم بيرى قائلا : كنت على ثقة من ذلك . سيكون علينا أن نعتمد على الصيد خلال الشتاء ، وسيكون معنا فريق صغير من المتطوعين لايزيد على ثلاثة رجال ...

ولكن تقدير بيرى لثلاثة رجال كان تفاؤلا مفرطا ، فقد كان جافا فى سلوكه قليل الثناء ، يطلب العمل دائما بلهجة آمرة ويسخر بشدة من الشاكين والمتمارضين ، ومن ثم انه عندما طلب متطوعين لم يتقدم اليه أحد ، وفى اللحظة الاخيرة تقدم الصحفى الشاب « هيو لى » ... وهكذا تقلصت قيادة بيرى على رجلين فقط !

وقد غير الشتاء التالى كلا من بيرى وهنسون وانشأ علاقة جديدة بينهما ، وسرعان ما اختفت العلاقة التقليدية بين السيد والخادم ... ولم يكن بيرى راضيا تماما عن هذه الصلة الجديدة فى أول الامر ، ولكن الاحداث أكرهته على قبولها بعد أن جاء الى الشمال بغطرسة الجنس والثقافة . وكان يعتقد أن الشخص المتعلم سيكون أكثر تحملا فى المواقف التى تتطلب تحملا وقدرة على مقاومة الجوع والعطش والتعب والثلوج ، وقد أدى

ـذا المعيار الى ارتكاب أخطاء مفجعـه ـى اختيـاره للرجـال ، وبسببه ظل ـتـرة طويله لايقدر ميزات هنسـون حق قدرها ، ولكن الشمال علمه بعض لتواضع وفى رحلتيـه الاخيرتين الى جرينلند ، كانت تحت قيادته مجموعة تضـم ١٤ رجلا فشـلوا جميعـا فى تحقيق آماله فيهم ... عدا هنسون .

وكان الاسكيمـو يحترمـون بيرى ويثقون فيه ، ولكنهم كانوا يحبـون هنسون ، وفى مجتمعهم البدائى أشياء كثـيرة تصـنع من أجـل الحب لا الواجب .

وبدأ بيرى وهنسـون سلسله من الرحلات الى الغطاء الثلجى للعثور على مخابىء الطعام التى أخفاها فى العام السابق ، ولكنهم بحثوا دون جدوى عن الاعمـدة الطـويلة التى تركـوها كعلامات لهـذه المخـابىء .. واخـيرا وجدوا أحدها وقد دفن المخبأ وتجمد تحت أكداس من الثلوج ... وهكذا ضـاعت كل المؤن اللازمـه لرحـلة الربيع .

وقال بيرى لرجاله ذات ليلة :

ـ غدا سنأخذ كمية من لحم الغزال المجمد ولحم عجل البحر ، ونرى الى أى مدى يمكن أن تحل محل التموين المفقود .. وأعتقد أننـا نستطيع أن ننقـل معنـا كميـات من الشـاى والبسكويت والزيت واللحوم تكفينا نحن والكلاب لمدة شهرين فى الطريق ، وهـو قـدر يكفى للرحله الى خليـج « اندبنـدانس » ذهـابا وايابا فى الظروف الطيبة ، أما اذا ساءت الامور ، فسيكون علينا أن نعيش على ما نستطيع العثور عليه فى الغطاء الثلجى .

كأس الحياة الهشه

كان أول ابريل ١٨٩٥ هو التاريخ المقرر لبدء الرحلة ... وكان هنسون قد صـنع ثلاث زحافات وجربهـا فى الجـرى ، ثم بدأ بيرى وهنسـون ولى سيرهم الطويل وكانت تصحبهم جماعة صغيرة من الاسكيمو ، وقد سـاروا سبعة أيام الى المخبأ الكبير وهو المكان الذى أودع فيه بيرى ٦٣٥ كيلو جراما من اللحوم المجففة والدقيق والمولاس والدهن لتموين الطوارىء عندما اضطر للعودة فى العام السابق ، وكان يعتمد على هذا الطعام ليحملهم عبر الغطاء الثلجى ، ولكنهم لم يجدوا أى أثر لها .. فقد دفنت هى الاخرى تحت أطنان من جليد جديد . وقال بيرى :

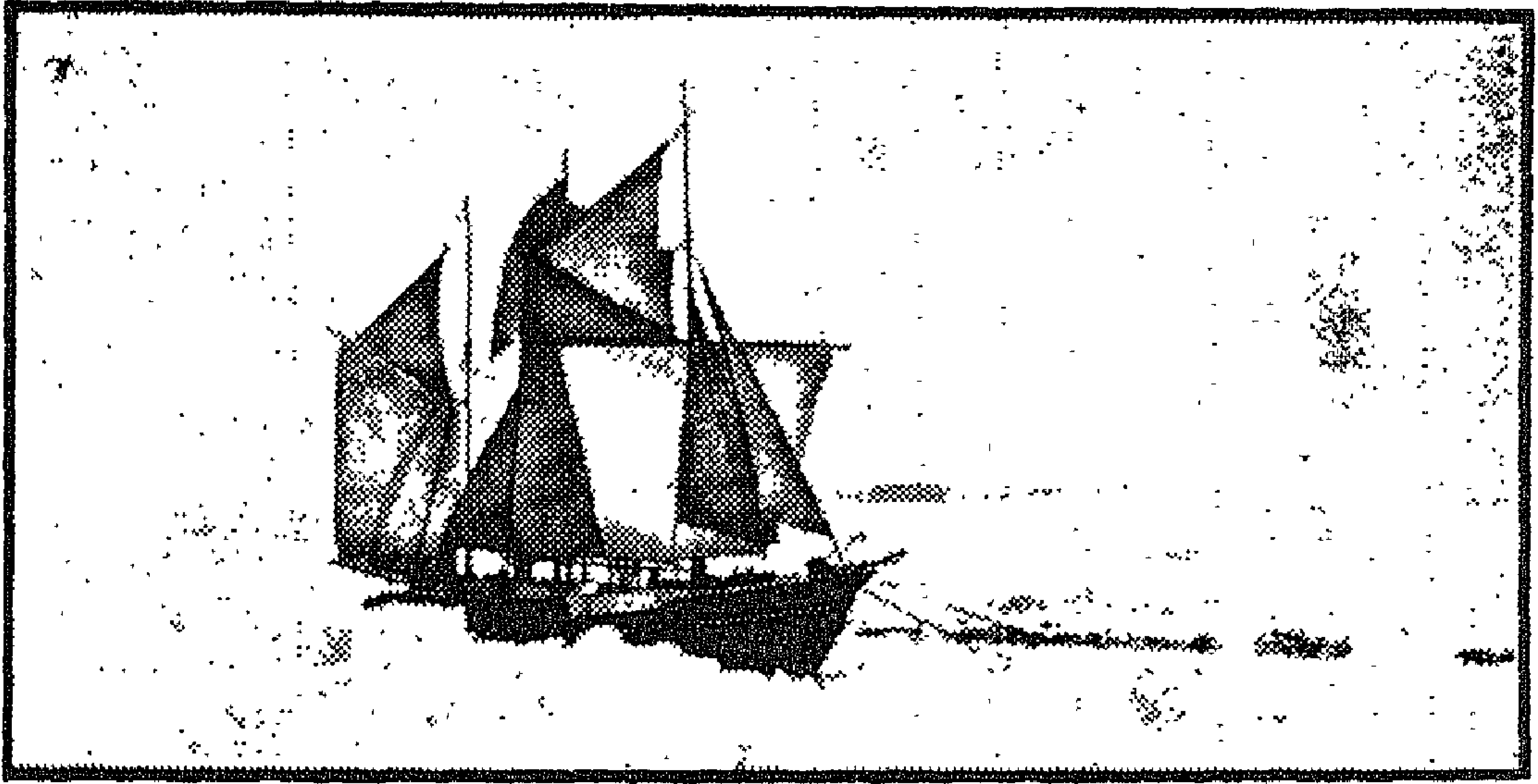
ـ هـذا يعنى أن علينـا أن نمضى بقية الطريق على لحم الغزال لنا ولحم عجـل البحـر المجمد للكلاب فقـال هنسون : وماذا نفعل اذا نفد ؟

ـ سنأكل الكلاب عندئذ .
وتملك الذعر رجال الاسكيمو وعندما عرفوا أن بيرى سيواصل زحفه وقال أحدهم : « يجب أن تعود معنا لانك اذا ذهبت الى هناك ، فان «كوكوياه» ـ أى شيطان الجليد ـ سيأكلك
وساء الموقف بعد ذلك اذ سقط (لى) مريضا ، وفى اليوم التالى واجهتهم عاصفة هوجاء ، وأصيب هنسون بقرصة صقيع فى وجنتيه ، بينما تجمدت الاصبع الكبيرة فى قدم لى وهم منكمشون فى خيمتهم الصغيرة كما قاست الكلاب كثيرا من جراء العاصفة ، وعندما حان الوقت اخيرا لربطها بالزحافة تبين أن اثنين لافائدة منهما ولا بد من قتلهما بالرصاص ، كما اضطروا خلال المسير بعد ذلك الى قتل عدد آخر من الحيوانات المرهقة حتى لم يبق منها غير ١١ فقط ،ليس بينها غير ثلاثة تستطيع السير» واضطر الرجال الى مساعدتها فى جر الزحافات !

وفى ٦ مايو كان الموقف يشير اليأس ، فان عليهم الا يذبحوا كلابا أخرى اذا أرادوا العودة ، ودلت قراءة بيرى للشمس على أنهم على مقربة من خليج «اندبندانس» ولكن لى والكلاب لم تكن تستطيع السير خطوة أخرى.

وفى اليوم التالى ترك بيرى وهنسون (لى) فى الخيمة وانطلقا معا فى زحافة صغيرة نحو سحابة بعيدة فى الافق ، لعلها تكون أرضا بها حيوانات ، ان لم تكن سرابا .
وكانت المنطقة أرضا حقا على الساحل الشرقى ، ولكنهما وصلا أولا الى سلسلة من أخاديد طويلة متحدة المركز ، وبعد قليل سقط بيرى فى احداها وكانت ضيقة لحسن الحظ واستطاع أن يمسك نفسه فى اللحظة الاخيرة متعلقا بكتفيه ، حتى استطاع هنسون أن يخرجه منها بشريط من جلد الزحافة بعد جهد شديد .. وفى خلال دقائق أخرى من مواصلة سيرهما ، سقط هنسون فى أخدود آخر ، فأنقذ بنفس الوسيلة ، ولكن الجوع جعل حياتهما فى خطر .. وسارا الى الامام عبر الارض المليئة بالاخطار حتى وصلا أخيرا الى جلمود من انقاض الصخور ..

وشاهدوا آثار الارنب القطبى ، وروث قديم لثور المسك ، ولكنهم لم يعرفوا ان كانت هذه الآثار تدل على وجود الصيد منذ أسبوع أم شهر .. وعادا أدراجهما الى المعسكر الذى يقع على مسافة ٤٠ كيلو مترا وقد بلغ بهما التعب مبلغه وكادا يفقدان الامل .



وما كادا يصلان حتى لوح لهما «لى» بيده وهو يرقد فى الخيمة وقد ازداد وجهه شحوبا من المرض ، وقال لهما ان كلبين اخرين قد نفقا .

وعندما استيقظوا من النوم ، استعرض بيرى الموقف بتؤدة .. كان هدف الرحله هو أن تقرر ما إذا كان الغطاء الثلجى يتجه شمالا الى القطب، واذا كان الامر كذلك ، فعليهم متابعته الى أقصى مسافة ممكنة . وقد أصبح هذا الامر مستحيلا الآن . ومع ذلك فقد كان مترددا فى العودة دون اكتشاف ما اذا كانت كتلة الارض تمتد حقا الى قمة العالم أم أنها تنتهى فى بحر ما .. وقد وصلوا الى هذا الجو ، وقد يكشف عدد آخر من الكيلومترات عن سر الغطاء الثلجى

وقال بيرى ان فى استطاعتهم العودة الآن ولا شك فان لديهم مايكفى من الاكل لانفسهم وهناك احتمال طيب فى أنهم يستطيعون العودة على أقدامهم مسافة ألف كيلومتر اذا شرعوا فى العودة فورا .. ثم قال : « ولكن هناك ثور المسك فى مكان ما من الركام الصخرى ويمكننا أن نغامر بكل شىء فى سبيل الحصول على صيد أخير ، ولكننا اذا ذهبنا ولم نجد هذه الثيران فلن نستطيع العودة ابدا الى » مسكن الذكرى » .

وترك بيرى لزميليه مهمـــه اتخاذ القرار ... وبعد تردد قصير ، قال هنسون ولى أنهمـــا سيذهبان معـه للبحث عن الصيد .. وعندئذ نهض بيرى فجأة وقال : « سوف نسمى هذا الجزء من الثلوج والجليد (معسكر الارادة) .. وكتب فيما بعد يقول « فى هذه اللحظة البـاردة الحازمه ، امسكنا كاس الحياة الذهبيه بأيدينا ... وفجـأة أصبحت هـذه الكأس هشة جدا » !

الصيد

وأقاموا معسكرهم الجديد على مقربة من خليج (اندبندانس) يوم ١٥ مايو بعـد أن أوقفتهم العاصفه يومين ، وأخذ بيرى وهنسون الكلاب والبنادق والذخيرة وتموينا يكفى اربعة آيام ، وانطلقا معـا للصيد الذى سيقرر مصيرهم جميعا ... وبعد ١٢ ساعـه من سير بلا هوادة وصلوا الى واد غير عميق كان بيرى وآستروب قد صادا فيـه ثيران المسـك فى عام ١٨٩٢ ، ولكنهمـا لم يجدا الآن اى أثر لاى حيوان ...

وأخيرا شاهد بيرى صخرة مغطـاة بالجليد تتحرك ، فأغمض عينيــه الدامعتين الشديدتى الحمرة وفتحهما ... وتحركت الصخرة مرة أخرى ، متخذة صورة ارنب قطبى ... فنادى هنسون لاطلاق النار عليه ، ومع أن هنسون قد بذل جهـدا فى امسـاك البندقيـه وهـو فى أقسى حـالات الضعف والاعياء ، فقد أصاب مقتـلا من الارنب وقام الاثنـان بتمزيقـه والتهامه بدمه نيئا !

وفى اليوم التالى شاهدا أثرا لثور المسك ... ثم وجدا بعض روثه طازجا مما يدل على وجود الحيوان قريبـا من هذا المكان ، واتجها نحو حافة مرتفعة فشـاهدا تجمعـا من البقع السـود الصغيرة فى الوادى المجاور ... كان هناك قطيـع يحوى ٢٢ بقـرة وعجلا وثلاثة ثيران !

وجمعـا ماتبـقى لهمـا من قوة وانطلقـا يهاجمان القطيع ، واستطاعا صيد اربعه من أبقاره وثيرانه ، بعد أن كادت بقرة مصابة تنقض على بيرى فعاجلهـا هنسـون بآخر رصاصة بقيت معه !. وعادا الى المعسكر حيث استقبلهما لى فى سعادة وبهجه ..

واسـتطاع بيرى بفضـل ابقـار المسك أن يواصل ملاحظاته الجغرافية فاكتشف أن الغطـاء الثلجى لجرينلند ليس طريقا يوصل الى القطب الشمالى ... ولكنـه كان فوق جزيرة هائلة وان كانت لاتكفل ممرا سهلا للقطب

ـث • وكان هذا هو الهدف الذى جاء
ـرفته ••
وأصبحت المشكلة الآن هى كيفيه
عودة بثلاثة رجال فوق الغطاء الشلجى
ـتى « مسكن الذكرى » الذى يقع
لى مسافه آلف كيلو متر ، ولم يكن
ـهم غير زحافة محطمه وبعض كلاب
ـهقة ، ومؤونة لاتكفى من الطعام •
وأصبح الامر سباقا مع الموت
ـتصروا فيه بمعجزة ••

سنوات من الهزيمه

وعادوا الى الوطن أبطالا من جديد
•• وبدا بوضوح أن بيرى وهنسون
ـبحا أكثر ارتباطا مما كانا قبلا ،
ـد أصبح بيرى يشيد بهنسون فى
ى كتاباته ومحاضراته ويشير اليـه
اعتبار أنه « مساعده » لاخادمه
ـاص • وعادا معا الى جرينلند فى
ـى ١٨٩٦ و ١٨٩٧ فى رحلات علمية
ـغيرة ، ثم شرعا مرة أخرى فى اعداد
ـلة على القطب فى عام ١٨٩٨
وفى هذه المرة أعد بيرى مؤنا تكفى
ـع سنوات ، ولم يستطع أن يتصور
يمكن أن يفشل اربع مرات
ـاليات ، ولكن هذه البعثات لم
ـل فحسب ، بل كانت كارثة
ـا ••• ففى الشتاء الاول تجمدت
ـا بيرى واضطر طبيب البعثة الى
بتر أصابعهما جميعا عدا الاصبع
الصغيرة من كل قدم ، وظن الجميع أن
بيرى لن يستطيع السير فوق الثلوج
بأقدام لا أصابع فيها ، ولكنهم كانوا
على خطأ ، ففى خلال شهر من العملية ،
ركب بيرى وهنسون الزحافات من
جديد لنقل المؤن الى الشمال ••
ولكن كل محاولة فى السنوات الثلاث
التالية فشلت ، وعاد بيرى الى نيويورك
ليعيد تجهيز البعثة ، ثم انطلقا الى
الشمال مرة أخرى فى عام ١٩٠٥
محاولين الاقلاع رأسا الى حافة الكتلة
الثلجية التى تسمى « البحر القطبى »
ومع أن هذه الرحله كانت سلسلة من
الكوارث والمتاعب ، فقد وصلا الى
مسافة ٢٨٠ كيلو مترا من القطب
وهو رقم قياسى لم يسبق لاحد أن
اقترب منه •

سيد الشمال

واجه كل من بيرى وهنسون
مغامرتهما الاخيرة بطريقة مختلفة
تماما ••• فقد بدأها بيرى بهدف
تدعمه ارادة من فولاذ ، على الرغم من
وجود أسباب تدعوه لعدم العودة الى
القطب وفى مقدمتها جسمه المثخن
بآثار الجراح العاجز ، وقد بلغ الثانية
والخمسين •• وكثرة مرات الفشل
وأسرته الوحيدة القلقه التى طال

هجره لها ، ولكنه رفض أن يصغى لاى شىء ، انه يريد النصر أو الموت •

أما هنسون فقد بدأ الرحلة من أجل حب المغامرة فقط ، ولكن هذا الحب مالبث أن تحول الى هدف قوى ... كان يريد أن يثبت أن الزنجي يستطيع أن يجارى الابيض فى مواجهة المتاعب والتغلب عليها ... ولهذا كان يريد أن يعيش ليثبت ذلك ، وقد ظهر هذا جليا عندما تزوج قبل رحيله من لوسى روس التى التقى بها قبل ذلك بسنوات •

وعندما قام بيرى بجمع الرجال لبعثته الاخيرة ، أحاط نفسه برجال من خريجى الجامعة ، وقد أظهروا شجاعة وقوة ارادة كان يبحث عنهما منذ زمن بعيد ، ولعل من أسباب ذلك أن هنسون هو الذى دربهم ، وكان بينهم دونالد ماكميلان ، الشاب الذى اشتهر فيما بعد باعتباره رحالة قطبيا بمفرده ..

وعندما وصلت السفينه «روزفلت» الى كيب يورك بجرينلند لاخذ الاسكيمو والكلاب أقبل الاسكيمو على السفينه وأحاطوا بها بثيابهم المصنوعة من الفراء وهم يهتفون باسم بيرى ، وعلى الشاطئ تنافس الاصدقاء القدامى فى دعوة هنسون الى أكواخهم

وعندما اجتمع شمل الجماعة انطلقت السفينة « روزفلت » [illegible] الغطاء الثلجى ، وبعد كفاح عنيف وسط الثلوج ، وصلوا فى ٥ سبتمبر ١٩٠٨ الى حافة البحر القطبى ، وهنا وجدوا فتحه صغيرة — جزء من بحر مكشوف — شقوا طريقهم خلالها [illegible] رأس شريدان حيث توجد مساكن الشتاء التى سيقيمون فيها ..

كان الليل الطويل قد خيم عليهم الآن ، وهو وقت يخافه أكثر الرحالة حيث تنهار أعصاب الرجال تحت وطأة الظلام والخمول ، ولكن الحال لم يكن كذلك مع بعثات بيرى ، فقد كان الليل القطبى بالنسبه لهم فترة نشاط شديد يتم خلالها صنع كل المعدات واصلاحها والتدرب عليها •

وخلال شهور الظلام علمهم هنسون مايعرفه ، ومر نوفمبر وديسمبر وفى يناير دعا الرجال معا ليشرح لهم تفاصيل الخطة .. ان كل عضو فى البعثه سيتولى رئاسة فريق فرعى يضم ثلاثة من الاسكيمو وعددا من الزحافات يتراوح بين واحدة وأربع وستكون كل فرقه مكتفية ذاتيا تماما فى الاطعمة والاسلحه والادوات ، على أن تحمل أيضا كميات اضافية من الطعام تكفى لاطعام الجماعه كلها

خمسة أيام .. وفى خلال فترات الزحف الخمس الاولى سيأكل الجميع المؤن التى تحملهاجماعه فرعيةواحدة، حتى اذا استنفدت مامعها عادت هذه الفرقة أدراجها ، وهكذا يستمرالحال حتى يصبح بيرى على مسافه قريبه جدا من القطب بينما يكون طعامفريقه سليما لم يمس بعد

وتحركت الجماعة نحو جبل داخل البحر يقع على مسافه ١٢٠ كم شمال غربى السفينه روزفلت وفى مساء ٢٧ فبراير قال لهم بيرى انهم سيرحلون فى الصباح ...

الدفعة الاخيرة

فى الصباح التالى جمع هنسون الاسكيمو وصاح قائلا : « آهدولو .. هدولو » . وكانت تلك الكلمةمجرد اصطلاح لامعنى له ابتكره هو قبل ان يتمكن من التحدث مع الاسكيمو قبل السير قام بيرى بالتفتيش على اعضاء البعثه وعددهم ٢٢ رجلا و١٩ كلبا ، ثم انطلقوا جميعا نحو البحر المتجمد ، وكان الطريق يتجه قليلا للغرب عن الشمال الحقيقى لتعويض انجراف الاسار الثلجى الى الشرق ، كان الهدف يقع تحت نجم الشمال على مسافة ٦٥٠ كيلو مترا

وتولى بارتلت وبوراب شق الطريق الامامى على أن تتبعهما الجماعه على الاثار التى يتركانها فوق الثلوج بزحافاتهما ، فقد كان أثر الزلاقات الحديدية للزحافات يمكن أن يبقىعلى الجليد شهورا ... وقد قطعتالجماعه الرئيسية فى المرحله الاولى ١٥ كيلومترا ، ولكنهم فى الزحف الثانى وصلوا الى رقعه من الماء المكشوف وسط الثلوج واضطروا الى الانتظار طوال اليوم ريثما تجمدت

ووصلت الجماعه الرئيسيه الى المحطة الامامية الثالثة التى بلغهما بارتلت وزميله من قبل ، واحتلت أكواخهم الخالية ، وبعد نوم قصير واصلت السير ، وفى خلال ساعه وصلوا الى حيث كان بارتلت ومن معه من الاسكيمو يعسكرون بجوار منطقه فسيحة من المياه ...

كانت تلك هى « الفتحة الكبرى » وهى الحاجز الرئيسى بينهم وبين الغطاء الثلجى الذى يطفو فوق القطب الشمالى ، وكان اتساعها ٤٠٠ ياردة وتمتد شر وغربا الى أبعد ماتصل اليه العين .. وكان ماؤها أسود مضطربا ، والوقوع فيه يعنى الموت ..

واضطروا الى الانتظار ثلاثة ايام ريثما يتجمد الماء ليستطيعوا عبور المنطقة

وفى ١١ مارس هبطت الحرارة الى ٤٠ درجه تحت الصفر ، وتجمدت الفتحه الكبيرة ، فأصدر بيرى أمره بالانطلاق للامام فورا ...

كان شق الطريق للجماعة عسيرا بصفة خاصة وسط هذا الصقيع الشديد الذى بدا أثره على الانوف والوجنات والاصابع ... كانوا جميعا يرتعشون ويرتجفون فوق الجليد وثيابهم أشبه بكتله من الثلج ،ولكنهم ظلوا يواصلون الكد الى مالا نهاية وفى ١٤ مارس تم أول تخفيض فى الجماعة. فعاد الدكتور جود سيل الى الشاطيء مع بعض الكلاب الضعيفه وأكثر الاسكيمو ارهاقا ..

وفى اليوم التالى تجمدت قدما ماكميلان ولم يكن هناك مفر من اعادته فورا للعلاج ومنذ ذلك الحين ، وعلى فترات يفصل بين كل منها خمسة أيام ، أخذت الجماعة تنكمش بانتظام ؛ بينما واصل بيرى وهنسون وبارتلت سيرهم قدما حتى تجاوزوا يوم ٢٨ مارس آخر مكان بلغه بيرى فى المرة السابقه ...

وفى أول ابريل عاد بارتلت الى الجنوب .وأخيرا وقف بيرى وهنسون على مقربة من نهاية حلم دام ٢٢ عاما .. وليس أمامهما الا مواصله الزحف شمالا مادام فى استطاعتهما المسيره واذا فشلا فى السير فسيزحفان ... واذا فشلا فسوف يموتان !

الجائزة قريبه

وفى منتصف ليله ٢ ابريل غادر بيرى المعسكر مع كلابه وفريقه ليشق الطريق الامامى ، وكان معه رجل الاسكيمو أوتاه ، وتبعه هنسون مع ثلاثة من الاسكيمو ... وقد ساروا عشر ساعات قطعوا خلالها ٥٠ كيلو مترا ثم ناموا بضع ساعات استأنفوا السير بعدها بنفس الطريقة : سير طويل وراحة قصيرة ..

وفى صباح ٤ ابريل ، أخذ بيرى يدرس المزوله على الرغم من الآلام التى يشعر بها فى عينيه بسبب عمى الجليد والقروح التى أصابت مقلتى عينيه ... وأخيرا قال : « لقد وصلنا الى درجة ٨٩ » ...

بقيت درجة واحدة للوصول الى القطب ... لقد أصبحت الجائزة على مسافة ١٠٠ كيلو متر فقط وقطعا فى اليومين التاليين ٦٥ كيلو مترا.

ولحقت بهم الجماعه الاخرى بعد قليل ، وساروا معا بضعة كيلومترات نحو الشمال الى أن أمر بيرى بالوقوف فجأة وقال : ماثيو .. قد يكون هذا هو القطب وسوف نقوم ببعض

الملاحظات • وبعد أن أجرى تقديراته وحساباته ، تطلع الى هنسون وقال في صوت متعب :

ـ اننا عند درجة ٨٩ و ٥٧ دقيقة•

كان القطب الشمالي مجرد فكرة•• نقطة دقيقة يغطيها بحر فسيح من ثلج منجرف ، ولم تكن هناك آية أداة مع بيرى تجعله قادرا على تحديده بدقه تامة ونهائية ، وكانت الاخطاء التى صاحبت طريقته تعنى أنه قد يكون فى تلك اللحظة فوق قمةالقطب او على مسافه ٥ كيلو مترات منه فى أى اتجاه •• لقد بلغا هدفهما وفقا لكل المصطلحات العلميه •

وجمع بيرى أدواته ، واضطجع على فرائه مستغرقا فى النوم وتبعه هنسون ، وكذلكفعل رجالالاسكيمو وهم لايخفون دهشتهم وحيرتهم •• متسائلين : أهذا هو الهدف ؟ اقطعوا ألوف الكيلومترات المليئة بالعذاب من أجل هذا المكان الذى ليس فيه غير البحر والثلوج والسماء؟

وبعد أن سجل بيرى عدة ملاحظات فى اتجاهات مختلفه ، طلب من هنسون أن يجمع الاسكيمو لالتقاط صورة تذكارية ، ثم أخرج من ثنايا معطفه بقايا العلم الامريكى الممزق الملوث بالعرق وطلب الى ماثيو أن يغرس العلم فوق ربوة صغيرة من الثلوج وسط الهتاف ••

ثم استداروا جميعا فى الاتجاه الوحيد الذى يستطيعون الذهاب اليه •• الى الجنوب •• ولم تكون رحلة العودة أقل مشقة ، فقد كان بيرى فى حاله بالغه من الارهاق والاعياء ، حتى اضطروا لوضعه فوق احدى الزحافات وتغطيته بالفراء ،

نصب تذكارى لهنسون

أقلعت السفينة « روزفلت » جنوبا فى ١٨ يوليو حتى وصلت الى ميناء «ايتاه » فى جرينلند وهناك استقبلت قبائل الاسكيمو آبطالها الذين ذهبوا للقطب ، ولكن وسط هذا الاستقبال جاءت أنباء مثيرة من « هاريهوتينى » وهو رياضى قضى الشتاء فى الصيد هناك ، اذ قال انهم بعد سفرهم فى الخريف السابق،جاء الدكتورفردريك كوك الى ايتاه عائدا من الشمال ، وقال انه وصل الى القطب الشمالى !»

وذهل أعضاء البعثه غير مصدقين !

كان كوك هو طبيب البعثه الاولى لبيرى الى جرينلند ، وقد قام بعدذلك برحلات بمفرده ، فهل بلغ القطب الشمالى قبلهم فعلا ••؟

وحاولت البعثة كلها أن تستبعد هذه القصه باعتبارها مجرد شائعات

ولكن كوك كان مصرا على زعمه ..

وبينما كانت البعثه فى طريق العودة الى أمـريكا ، كان هـو قد ذهب الى الدنمرك وقابل ملكها الذى قدم له الميداليه الذهبية للجمعيـة الجغرافيـة الملكيه في الدنمرك ! ..

واستقبل كوك عندعودته استقبال الابطال المنتصرين ، بينما تعرض بيري وزملاؤه الابطـال لاعنف حمله من الهجوم الشخصي الشرير .. وبدا أن انتصار كوك قد تأكد ، الى أن اضطر الى ارسال « دليـل مدعم بالوثائق » الي جامعة كوبنهاجن بناء على ضغطها، وفى ١٩ يناير ١٩١٠ أعلنت الجامعـة أن هذه الوثائق لاتقدم اى دليل على أن كوك بلغ القطب الشمالى ،وانهـا تعد فضيحة كبرى ...

ورحـل كوك خفيـة الى أمـريكا الجنوبية ليقضى بقيـة حياته هنـاك ، بينمـا علا نجم بيرى ثانيـة ، وقبلت وثائقـه الصحيحـه فى كل مكان .. وطوال السنوات العشر الاخيرة بعـد تقاعده من الاسطول الامريكى بعد ان بلغ رتبـة نائب اميرال ، لقى كـل التكريم الذى استحقه بكل جدارة . وعندما مات عام ١٩٢٠ فى سن الثالثه والسـتين كان اسمه قد رسـخ على صفحات التاريخ باعتباره أول انسان بلغ القطب الشمالى .

أما هنسون فانه بعد وصـوله الى نيويورك عاد الى زوجته ، ثم حصل على وظيفة متواضعة فى ادارة الجمارك الامريكية ، ومع أن كل اعضاء الرحلة أشـادوا بما قام به باعتبـاره أكثر الرجال كفـاءة فان مديحهـم لم يلق اهتماما كبيرا ، بل انه فى خلال الجدل المرير الذى ثار حـول رحلة كـوك ، واجه بيرى نقدا كثيرا لانه صحب معه رجلا مثل هنسون ليس له اى ماضى علمى ! مع أنه بدون هنسون والاسكيمو لمـا اسـتطاع بيرى أن يصـل الى القطب .

وبعد وفاة بيرى، تولى مهمة الدفاع عن هنسـون « دونالد ماكميـلان » واستطاع أن يفـوز له ببعض دلالات الاعتراف ببطولته ، فحصـل له على عضوية بعض الاندية ووسام من البحريه وتحيه من الرئيسين ايزنهاور وترومان ... وكانت آخر تحية عندما وضـع المجلس التشريعى لـولاية ماريلاند لوحة برونزية فى عام ١٩٦١ تخليدا لذكـراه ، ولكن هنسـون لم يعش ليراها ، فقد مات فى ٩ مارس ١٩٥٥، بعد أن بلغ الثامنة والثمانين .

***

ان الاستعداد هو سر النجاح قبل اى شىء آخر ..